

وقائع

# المؤتمر العلمي السنوي الأول لـ «إلى الأمام»

تحت شعار

علي وفاطمة عليهما السلام وساطة فيض بين الحق والخلق

٢٧-٢٨ / ٩ / ٢٠٢٤ م الموافق ٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤٦ هـ

مراجعة وتدقيق

وحدة البحوث والدراسات والترجمة

(الجزء الثاني)

ديوان الوقف الشيعي

العتبة الكاظمية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٥ م

# وقائع

المؤتمر العالمي السنو الأول الثالث عشر

تحت شعار

علي وفاطمة عليهما السلام وساطة فيض بين الحق والخلق

٢٧-٢٨ / ٩ / ٢٠٢٤ م الموافق ٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤٦ هـ

(الجزء الثاني)

## هوية الكتاب

اسم الكتاب: وقائع المؤتمر العلمي الدولي السنوي الثالث عشر (الجزء الثاني).

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - وحدة البحوث والدراسات والترجمة.

التاريخ: ١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥م.

[www.aljawadain.org](http://www.aljawadain.org)

موقع العتبة المقدسة:

[fikriya@aljawadain.org](mailto:fikriya@aljawadain.org)

للمراسلة:

# وقائع

## المؤتمر العلمي السنوي الأول والثالث عشر

تحت شعار

علي وفاطمة عليهما السلام وساطة فيض بين الحق والخلق

٢٧-٢٨ / ٩ / ٢٠٢٤ م الموافق ٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤٦ هـ

مراجعة وتدقيق

وحدة البحوث والدراسات والترجمة



(الجزء الثاني)

ديوان الوقف الشيعي

العتبة الكاظمية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٥ م



## الفهرست

| ت | الباحث                          | اسم البحث                                                                                                                                                                                  | رقم الصفحة |
|---|---------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------|
| ١ | م.م. رامي احمد كاظم الغالبي     | منهج أمير العباد <small>عليه السلام</small> في مكافحة جرائم الفساد<br>دراسة تحليلية لبيان منهج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> وانعكاسه في القانون الجنائي الوضعي | ٩          |
| ٢ | الشيخ رسول جواد حسون<br>المعمار | قراءة في الأساليب التربوية<br>عند الإمام علي <small>عليه السلام</small> في المجتمع                                                                                                         | ٤٧         |
| ٣ | د. رشا حسين عبد سبتي            | أثر الرعاية في بناء نظام الحكم<br>وفق رؤية الإمام علي <small>عليه السلام</small> دراسة حجاجية                                                                                              | ٧٣         |
| ٤ | د. ريبا حسين أمهز               | المنهج التربوي عند الإمام علي <small>عليه السلام</small> ودوره في بناء<br>الشخصية الإنسانية (كتاب نهج البلاغة أنموذجا)                                                                     | ٩١         |
| ٥ | أ.م.د. زيد عبد الحسين<br>يوسف   | المخاطبون وأوصافهم في الخطبة الفدكية بين الشدة<br>واللين دراسة من منظور النقد الثقافي                                                                                                      | ١٢٩        |
| ٦ | م.د. ساجد صباح العسكري          | منهج الوسطية والاعتدال<br>في نهج البلاغة وأثره في بناء الذات والمجتمع                                                                                                                      | ١٥٩        |
| ٧ | أ.د. سامي الماضي                | فاعلية الإدراك عند المتكلم في معرفة أحوال<br>المخاطب - خطبة فدك إنموذجا -                                                                                                                  | ١٨٣        |
| ٨ | د. ستار جليل عجيل               | استراتيجيات الإعلام الإقناعي<br>بين القرآن الكريم وفدكية الزهراء <small>عليها السلام</small>                                                                                               | ٢١٣        |
| ٩ | م.د. سجاد هادي صاحب<br>العنبيكي | التنمية المستدامة في كلام أمير المؤمنين والسيدة<br>الزهراء <small>عليها السلام</small> ومرجعيتها القرآنية                                                                                  | ٢٤٣        |

|     |                                                                                                                                                                            |                                    |    |
|-----|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------|----|
| ٢٨٣ | بناء المجتمع الإسلامي وفق منظور حداثوي دراسة مقارنة بين عهد الإمام علي (عليه السلام) للصحابي مالك الأشر (رحمته الله) وهرم ماسلو                                            | م.د. سحر ناجي فاضل عباس المشهدي    | ١٠ |
| ٣٠٧ | مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة من منظور أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة                                                                                      | د. سمية حسنعليان                   | ١١ |
| ٣٣٥ | بواكير التفسير الموضوعي عند السيدة الزهراء (عليها السلام) آيات الإرث مصداقاً تطبيقياً                                                                                      | أ.د. سيروان عبد الزهرة الجنباني    | ١٢ |
| ٣٥٧ | جدل التاريخ والمتخيل في سيرة السيدة الزهراء (عليها السلام) قراءة نقدية في طروحات بسام الجمل                                                                                | أ.د. شهيد كريم محمد                | ١٣ |
| ٤١١ | دور قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في ضوء تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمكافحة الفساد وتوظيفها في مؤسسات الدولة مستقبلاً | أ.د. صباح حسن عبد الزبيدي          | ١٤ |
| ٤٨١ | التكافل الاجتماعي في فكر وممارسات الإمام علي والسيدة الزهراء (عليهما السلام)                                                                                               | صفاء الصوص                         | ١٥ |
| ٥١٥ | الولاية في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) « دراسة تحليلية »                                                                                                      | م. طاهر باوي                       | ١٦ |
| ٥٤٩ | استشرافات أمير المؤمنين (عليه السلام) (الحاضر والمستقبل)                                                                                                                   | الشيخ طه حافظ خميس                 | ١٧ |
| ٥٧٥ | التوازن الحياتي عند أمير المؤمنين (عليه السلام) ومردوداته الإيجابية على الذات والمجتمع                                                                                     | أ.د. عباس إسماعيل الغراوي          | ١٨ |
| ٦٠٥ | مختصر في أحوال فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها السيّد حسين بن أحمد الحسني الشهير بالسيّد حسون البراقي النجفي (ت ١٣٣٢ هـ)          | أ.د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي | ١٩ |

|    |                                            |                                                                                                           |     |
|----|--------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----|
| ٢٠ | الشيخ الدكتور عبد الأمير<br>عثمان الكيلاني | النظام العام التعايش السلمي<br>«ثقافة الحوار»                                                             | ٦٧٣ |
| ٢١ | م. د عبد الخالق كاظم<br>إبراهيم            | دور السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في التنشئة السياسية<br>وتصحيح المسار السياسي الإسلامي             | ٧٢١ |
| ٢٢ | السيد الدكتور عبد الكريم<br>حسن پور        | التحديات والآفات السياسية للحكومة من منظور<br>الإمام علي (عليه السلام)                                    | ٧٤٩ |
| ٢٣ | أ.د. عبد الهادي عبد الرحمن<br>علي الشاوي   | أسس الشخصية المعتدلة في نهج البلاغة ومظاهرها                                                              | ٧٧٧ |
| ٢٤ | أ.م.د. عبد الهادي كاظم<br>كريم             | تجليات حقوق الإنسان عند الإمام علي بن أبي<br>طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة «التعايش السلمي»<br>أنموذج | ٨٠٩ |
| ٢٥ | م.د. عقيل يوسف سعود<br>السلطان             | سياسة الإمام علي (عليه السلام) الاقتصادية ودورها في<br>محاربة الطبقية وتكديس الثروات                      | ٨٤٩ |
| ٢٦ | د. علي حاكم حبيب الكريطي                   | فلسفة الحوار مع الآخر قراءة في كلام الإمام علي (عليه السلام)                                              | ٨٧٩ |
| ٢٧ | د. الشيخ علي زين العابدين<br>حرب           | دور السيّدة الزهراء (عليها السلام) في التأسيس العقدي من<br>خلال خطبتها الفدائية                           | ٨٩٧ |







**منهج أمير العباد ﷺ في مكافحة جرائم الفساد**

**-دراسة تحليلية-**

**لبيان منهج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ**

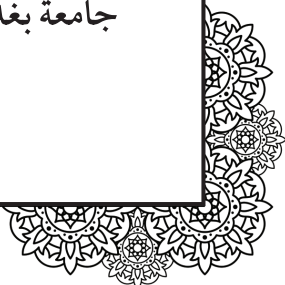
**وانعكاسه في القانون الجنائي الوضعي**

**الباحث**

**م.م. رامي احمد كاظم الغالبي**

**مدرس القانون الجنائي المساعد**

**جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية**



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله والحمد حقّه كما يستحقّه، حمداً كثيراً دائماً أبداً، لا تحصى له الخلائق عدداً، وصلاته وسلامه على خير خلقه أحمد وعلى آله الغرّ الميامين صلاةً وسلاماً دائماً سرمداً، أما بعد:

لا يخفى على الجميع من أن منهج أمير المؤمنين عليه السلام في إدارة الدولة كان يمتاز بمميزات سامية بإدارة الدولة على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والإدارية، والاجتماعية، وتصديده الصريح لجرائم الفساد التي كانت متغلغلة بين ولاية الحكومات السابقة، دون أن يلتجئ إلى ما يعرف بـ (المحاكمة السياسية) التي أنتجت ما انتجت من شبكات الفساد المنظم، والتي قدم عراقنا الحبيب كوكبة عطرة من شهداء المؤسسة القضائية، ومحققى هيئة النزاهة الاتحادية، فضلاً عن عناصر قواتنا الأمنية البطلة في سبيل مقارعة هذا النوع من الفساد، الذي يهدد المجتمع بجرّه إلى حافة الهاوية والوقوع في اللامعيارية.

وقد أدّى موقف أمير المؤمنين عليه السلام من جرائم الفساد إلى قيام حروب الجمل وصفين والنهر وان من تضررت مصالحهم من منهجيته وعدله في إدارة شؤون البلاد والعباد، حتى أصبح هذا المنهج المبارك فاضحاً لكل من يدعي السير على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وهو مبتعد عن نهجه أقصى درجة ممكنة، وكيف لا، وأمير المؤمنين معيار يفتضح بمخالفته المنافقين، ويُعرف بمولاته المؤمنين؟ وهو ما أفصح عنه رسول الله ﷺ بقوله: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) <sup>(١)</sup>.

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص ٥٠، ح ٢٤٠. أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج ٢، ط ١، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٥٦، ح ١٠٦٢.

وهكذا، فإنَّ المطلوب من المتصدين لقيادة الدولة، وإدارة مؤسساتها وضع منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) نصب أعينهم، وترجمانه العملي في إدارة مؤسساتهم، فلا نهضة أممية دون العودة إلى منهجه القويم المستند إلى منهج رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فكيف لا، وهو باب علمه ومستودع حكمته؟

### أولاً: أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الدراسة في بيان منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في مكافحة جرائم الفساد على الصعيدين الوقائي والعقابي، وانعكاس هذا المنهج الشريف في السياسة الجنائية للمشرع العراقي، بسنّ نصوصٍ وقوانين تتضمن التصدي لجرائم تجاوز الموظفين حدود وظائفهم وارتكاب ما يمثل اعتداءً على المصلحة العامة للدولة والمجتمع.

### ثانياً: إشكالية الدراسة:

تتضمن إشكالية الدراسة بيان مدى تطبيق منهجية أمير المؤمنين (عليه السلام) في مكافحة جرائم الفساد - ليس على المستوى التشريعي فحسب - بل على المستوى الفعلي في سلوكيات الموظف أو المكلف بخدمة عامة رئيساً كان أم مرؤوساً، إذ إنّ الادعاء بالحبّ دون ترجمانه بالاتباع يمثل أعلى درجات النفاق والخيانة، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: منهج الدراسة:

إنَّ مقتضيات مباحثة منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) اعتماد المنهج التحليلي المقارن، لبيان الأحكام التشريعية على المستوى القضائي والتنفيذي في مكافحة جرائم الفساد في عهد أمير المؤمنين وانعكاسها في التشريع الجنائي العراقي، وحسبنا أننا لم نتطرق في دراستنا المتواضعة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

هذه إلى بيان ترجمة أمير المؤمنين (عليه السلام) أو التعريف به، إذ إنَّ الباحث عندما يريد بيان مسألة من مسائل بحثه يعتقد بأنَّه سيصل إلى حقيقة - أو لا أقل - إلى معرفته، وهذا الأمر قد أغلقه رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما قال: (يا علي، ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا)<sup>(١)</sup>. لذلك، تركتُ التطرق للوصي تعمُّداً، إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً، وإذا استطل الشئ قام بذاته، وكذا ضياءُ الشمس يذهبُ باطلاً.

#### رابعاً: تقسيم البحث:

وايفاءً بما تقدّم، سنقسم هذا البحث على مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: نتطرق فيه إلى الإطار المفاهيمي للتعريف بجرائم الفساد وبيان أنواعها.

أما المبحث الثاني: فتتناول فيه المنهج الوقائي لأمر المؤمنين (عليهم السلام) في التصدي لجرائم الفساد.

ونفرد بالمبحث الثالث: لبيان المنهج العلاجي لأمر المؤمنين (عليهم السلام) في مكافحة جرائم الفساد.

والله المستعان وعليه التكلان...

(١) محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، ط ٢، مج ٨، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٥هـ، ص ١٨٥.

## المبحث الأول الإطار المفاهيمي

يُعدُّ الإطار المفاهيمي للبحث العلمي المتكأ الذي يستند إليه الباحث في تسليط الضوء على مصاديق المفردات المستخدمة في موضوع دراسته. إنَّ الوقوف على تلك المصاديق يجنب الباحث الشوائب المفاهيمية المنعكسة بمجال إساءة استخدام اللغة، مما يجعل تلك المفاهيم مغطاة بضبابية تعدم الرؤية العلمية، بسبب الخلط في المعاني والتباين في استخدام المفردات، مما يتوجب علينا بيان ما تقدم في مطلبين؛ نفرد المطلب الأول للتعريف بجرائم الفساد، أما المطلب الثاني فنخصصه لبيان أنواع جرائم الفساد، وعلى وفق ما يأتي:

### المطلب الأول: التعريف بجرائم الفساد

يقتضي بيان تعريف جرائم الفساد بشكلٍ عام الوقوف على ما يتضمنه هذا المصطلح من مدلولٍ في معاجم اللغة العربية، فضلاً عن آيات الذكر الحكيم؛ كذلك بيان تعريفه اصطلاحاً في المؤلفات على اختلاف تخصصاتها، فضلاً عن التشريعات الوطنية المعنية بمكافحة جرائم الفساد، وفقاً للفرعين الآتين:

### الفرع الأول: مفهوم الفساد لغة

يُعرّف ابن منظور الفساد بأنّه «نقيض الصلاح، وتفاسد القوم أي تدابروا وتقاطعوا، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح، ومن معاني الفساد أيضاً الجذب والقحط»<sup>(١)</sup>.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مج ٢، بيروت، دار لسان العرب، دت، ص ١٠٩٥

وقال الراغب الأصفهاني: «الفساد خروج الشيء من الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويزاده الإصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والأشياء الخارجة عن الاستقامة»<sup>(١)</sup>. أما الرازي فقد أورد في مختاره معنى الفساد بـ: «فسد الشيء يُفسد بالضم (فساداً) فهو فاسد، وفسد بالضم أيضاً (فساداً) فهو (فسيّد)، و(أفسده ففسد) ولا تقل أنفسد، والمفسدة ضد المصلحة»<sup>(٢)</sup>.

ويُعطي البستاني تفسيراً لغوياً لكلمة فساد موضحاً أن (فَسَدَ، وَفَسَدَ، فَسَاداً وَفُسُوداً) ضدّ صلح فهو (فسيّد) و (أفسده وفسده) ضدّ أصلح، وفساد القوم أساء إليهم ففسدوا عليه، (تفاسد) القوم، تدابروا ووقع الخلاف والعداوة بينهم، وأستفسد) ضد استصلح، والفساد مصدر اللهو واللعب وأخذ المال ظلماً و(المفسدة) مصدر الفساد أو سببه<sup>(٣)</sup>.

ويُعرّف الفيروز آبادي الفساد بأنّه: «فسد الشيء فساداً وفُسُوداً ضدّ صلح، والفساد أخذ المال ظلماً، والجذبُ والمفسدة ضد المصلحة، وتفاسدوا أي قطعوا الأرحام، واستفسد ضد استصلح»<sup>(٤)</sup>.

وأما القرآن الكريم، فقد ورد فيه مصطلح الفساد في خمسين موضعاً، تتضمن مصاديق متعددة أهمها ما يأتي:

#### أولاً: الفساد بمعنى الطغيان وسفك الدماء:

كقول بلقيس في وصف الملوك ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا

(١) الحسين بن محمد الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، لبنان، دت، ص ٣٧٩.

(٢) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٢، ص ٥٠٣.

(٣) فؤاد افرام البستاني، منجد الطلاب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٧، ص ٥٥١.

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط ٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨، مادة فسد.

أَعَزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ<sup>(١)</sup>، كذلك قوله سبحانه في وصف الطغاة المتعاليين والمتسلطين على رقاب الناس ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ<sup>(٢)</sup>﴾، فضلاً عن إطلاق مصطلح الفساد على سفك الدماء وهتك الأعراض كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ<sup>(٣)</sup>﴾.

### ثانياً: الفساد بمعنى الخطر المهدد للمصالح المحمية:

كقوله تعالى في بيان الفساد بوصفه نتيجة للفتنة التي تحصل بين المسلمين فيما إذا لم يتكاتفوا ويتعاونوا فيما بينهم، ويساند بعضهم بعضاً، مما يؤدي إلى فساد كبير وفتنة عارمة يصعب تجاوزها أو القضاء عليها، إذ قال عز من قائل في هذا المقام: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ<sup>(٤)</sup>﴾، فضلاً عن بيان الفساد الناتج عن جرائم الحراقة وقطع الآخرين وإراقة الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض، إذ بين القرآن الكريم الجزاء الشديد لهذا النمط من أنماط الفساد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(٥)</sup>﴾.

(١) سورة النمل، الآية: ٣٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٣.



### ثالثاً: الفساد ضدّاً للإصلاح:

هناك آيات عديدة ورد فيها مصطلح الفساد بما يتضاد مع مصطلح الإصلاح، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾<sup>(١)</sup>، كذلك وصف القرآن الكريم للرهط التسعة من قوم ثمود الذين يسعون في الأرض فساداً بمعصية الله ولا يصلحون أنفسهم، إذ قال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. كذلك أورد القرآن الكريم في بيان وصية نبي الله موسى لأخيه هارون عليه السلام باستخلافه في قومه وانتهاج سياسة الإصلاح والرفق بهم، واجتناب مسلك المفسدين بإرتكاب المعاصي والآثام، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

### رابعاً: الفساد بمعنى القطيعة بين المسلمين:

ورد في القرآن الكريم مصطلح الفساد بمعنى القطيعة، سواء أكانت مصاديق هذا المعنى عامة أم خاصة. ففيما يخص المصداق العام قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾<sup>(٤)</sup>. ففي هذا المقام كانت قطيعة هؤلاء مع ربهم، كونهم لم يصلوا ما بينهم وبينه جلّ شأنه بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدّوا الحقوق، بل على العكس من ذلك جاهرُوا الله سبحانه بالصدّ عن سبيله والإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي.

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٥٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

أما المصداق الخاص للقطيعة قوله تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وفيها بيان نتيجة التولي عن كتاب الله أن يعود المسلمون إلى الجاهلية وما فيها من سفك الدماء وقطع الأرحام، سواء أكان الرحم رحم الدين والإيمان لقوله جلّ في علاه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، أم كان الرحم رحم قربي من جهة الأم والأب، وما يستوجب من صلته ومعاذته في المسائل الجوهرية في الحياة سواء أكانت على الصعيد المادي أم المعنوي. ومن ثمّ، فإنّ مدلول الفساد في القرآن الكريم يتّسم بوحدة المفهوم، وتعدد المصاديق بتعدد صور الفساد وأنواعه على مختلف المستويات؛ اقتصادية، واجتماعية، وجنائية. فكل ما يخرج عن المعيار الأخلاقي يعدّ فساداً.

### الفرع الثاني: مفهوم الفساد اصطلاحاً

عرّف الفساد بتعاريف متعددة ومتنوعة بحسب تنوع التخصصات التي تتصدى لمكافحة هذه الظاهرة التي تستنزف الدولة وتنخر مؤسساتها وصولاً إلى تدمير المجتمع بنيوياً ووظيفياً، إذ عرفته بعض المنظمات الدولية كالبنك الدولي، ومنظمة الشفافية الدولية، وفي تقرير صندوق النقد الدولي، فضلاً عن بعض علماء الاقتصاد كـ(باولو ماورو، ومايكل جونسون) بأنّه: «إساءة استعمال السلطة العامة لتحقيق مكسب خاص، يتحقق حينما يتقبل الموظف الرشوة أو يطلبها أو يستجديها أو يبتزها»<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة محمد، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٣) يُنظر في هذا المقام كلّ من:

أ- البنك الدولي للإنشاء والتعمير: تقرير التنمية في العالم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١١٢.

كما عرفه آخرون بأنّه: «القصور القيمي عند الأفراد الذي يجعلهم غير قادرين على تقديم الالتزامات الذاتية المجردة والتي تخدم الصالح العام»<sup>(١)</sup>.

وعرف علماء النفس الفساد بأنّه: «خلل في النظام القيمي للفرد والمجتمع مما يؤدي إلى اتّخاذ سلوكيات منحرفة عن النظام السلوكي السليم»<sup>(٢)</sup>.

فيما عرف علماء الاجتماع الفساد بأنّه: «كلّ فعل يعتبره المجتمع فاسداً، ويشعر فاعله بالذنب وهو يقترفه»<sup>(٣)</sup>. أما علماء الاقتصاد فقد عرفوا الفساد بأنه: «النشاطات التي تدرّ ريعاً من خلال استغلال الموقع الوظيفي من قبل الموظف الفاسد»<sup>(٤)</sup>.

وفي الفقه القانوني عرّف الفساد الإداري بأنّه: «الانحراف عن الالتزام بالواجبات القانونية الملقاة على عاتق الموظف العام واستغلالها للمصلحة الشخصية بدلاً من المصلحة

=

ب- بيتر آيغن، شبكات الفساد والإفساد العالمية، ترجمة: محمد جديد، مراجعة: زياد منى، الناشر: قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ٢٠٠٥ م، ص ١٧.

ج- د. هنان مليكة، جرائم الفساد، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٠، ص ١٣

د- باولو ماورو: الفساد الأسباب والنتائج، مجلة التمويل والتنمية، مارس ١٩٩٨، ص ١١-١٣.  
(١) محمد الفاتح محمود بشير، الفساد الإداري أسبابه وآثاره وأهم أساليب مكافحته، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر، ٢٠١١، ص ٢٣٠.

(٢) ينظر علي سكر عبود، تحليل صور وأسباب الفساد الإداري والمالي، بحث منشور في مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية، مجلة دورية علمية محكمة، تصدر عن كلية الإدارة والاقتصاد جامعة القادسية، مج(١٢)، ع(١)، ٢٠١٠، ص ١١٩.

(٣) Look: Wraith, and Simpkins, E., Corruption in developing countries, (٣) 86 P. New York, Noton, 1964

(٤) ينظر: د. عياد محمد علي باش، التكلفة الاقتصادية والاجتماعية للفساد الحكومي في البلدان النامية، بحث منشور في مجلة الموظف النزاهة، برنامج المجتمع المدني، مجلة تصدر عن مركز عشتار للتدريب الصحفي، ط١، بابل، ٢٠٠٦، ص ٤٢.

العامة»<sup>(١)</sup>، وبتعريف آخر إنّه: «الانحرافات أو التجاوزات التي تصدر من الموظف العام أثناء تأديته لمهام وظيفته والتي تشكل خرقاً للقوانين أو التعليمات الإدارية»<sup>(٢)</sup>. أما الفساد المالي فيقصد به: «التصرف الذي يصدر من الموظف العام يخالف فيه القواعد المالية التي تنظم سير العمل الإداري والمالي الصادرة من الأجهزة الرقابية المختصة في الدولة وتتمثل هذه التصرفات بالرشاوى والاختلاسات وغيرها»<sup>(٣)</sup>.

أما المفهوم التشريعي لجرائم الفساد، فهو كما جاء في قانون هيئة النزاهة والكسب غير المشروع رقم (٣٠) لسنة ٢٠١١ المعدل، إذ عرّف قضية الفساد في الفقرة (ثالثاً/ أ) من المادة (١) منه بأنها: «دعوى جزائية يجري التحقيق فيها بشأن جريمة من جرائم سرقة أموال الدولة، الرشوة، الاختلاس، الكسب غير المشروع، تجاوز الموظفين حدود وظائفهم. كما بين في الفقرة (ب) منه قضايا الفساد بأنها:

١- جرائم الفساد وبضمنها خيانة الأمانة التي ترتكب من المنظمات غير الحكومية الممنوحة صفة النفع العام، وفي الاتحادات والنقابات والجمعيات المهنية التي تسهم الدولة في أموالهم أو التي منحت أموالهم صفة أموال عامة أو التي منح منسوبوها صفة المكلفين بخدمة عامة.

٢- جرائم الرشوة في القطاع الخاص الوطني والأجنبي في الأعمال المتعلقة بالقطاع العام وجرائم رشوة الموظف الأجنبي.

(١) د. سالم محمد عبود، ظاهرة الفساد الإداري والمالي (دراسة في إشكالية الإصلاح الإداري والتنمية)، دار الدكتور للعلوم، بغداد، ٢٠٠٨، ص ١٥.

(٢) «u.s.a , jeff Johnston , edition 7 , frank schmallegger: criminal justice (٢) 173 , 2003 .p

(٣) ياسر خالد بركات الوائلي، الفساد الإداري - مفهومه ومظاهره وأسبابه مع إشارة إلى تجربة الفساد في العراق -، بحث منشور في مجلة النبأ، مجلة شهرية ثقافية عامة تصدر عن مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام، ع(٨٠)، بغداد، ٢٠٠٦، ص ٧٢.

ويمكن السبب في شمول القطاع الخاص بتجريم سلوكيات الفساد المرتكبة فيه، لانضمام العراق في اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد لعام ٢٠٠٣ والتي دخلت حيز التنفيذ في عام ٢٠٠٤، وذلك بموجب قانون رقم (٣٥) لسنة ٢٠٠٧، مما يعني أن هذه الاتفاقية أصبحت من متبنيات المشرع العراقي فيما يخص تجريم سلوكيات الفساد المرتكبة في القطاع الخاص، فضلاً عن تأمين حماية المخبر عن تلك الجرائم.

### المطلب الثاني: أنواع جرائم الفساد

قسّم الباحثون الفساد على أنواع عديدة بحسب فئته، وخطورته، ومدى انتشاره، إذ قسم من حيث الفئة، على فساد القمّة، والفساد المؤسسي، والفساد العادي. ومن ناحية الخطورة، قسم على فساد قسري (إجباري) وآخر تعاووني (تأمري)؛ ومن ناحية الانتشار، قسم على فساد محلي وآخر دولي<sup>(١)</sup>.

ومن متابعة تقارير الأمم المتحدة المعنية بقضايا الفساد، نجد أن تلك التقارير تسلط الضوء على نوعين رئيسيين من الفساد؛ هما الفساد المنظم والفساد غير المنظم. وهذا التقسيم محل ترجيح لدينا، إذ إنّ جرائم الفساد في الغالب يسهم في ارتكابها أكثر من شخص، كما تكون هنالك علاقة تبادلية للمنافع والالتزامات بين أطراف تلك الجريمة<sup>(٢)</sup> مما أدى بالأمم المتحدة في أن تتوسع بتجريم أفعال الفساد بحيث تشمل جميع صور الاشتراك الجرمي في هذا المقام؛ إذ نصت المادة (٢٧ / ١) من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد على أن:

(١) محمد حسن سعيد، وسائل القانون الدولي لمكافحة جرائم الفساد، رسالة ماجستير، كلية الحقوق - جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٩، ص ٥٤. و د. نوار دهام مطر، السياسة الجنائية للمشرع العراقي في مواجهة جرائم الفساد، بحث منشور في مجلة المنصور، العدد (٢٥)، ٢٠١٦، ص ٥٣.

(٢) عبد المجيد حمد الحراشنة، الفساد الإداري، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، المملكة الأردنية الهاشمية، سنة ٢٠٠٣، ص ٧٠.

«تعتمد كل دولة طرف ما قد يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لكي تجرم، وفقاً لقانونها الداخلي، المشاركة بأي صفة، كطرف متواطئ أو مساعد أو محرض مثلاً، في فعل مجرم وفقاً لهذه الاتفاقية».

ومن خلال تدقيق جميع مضامين أنواع الفساد المتقدم ذكرها، نجد أن التقسيم الجامع والشامل لكل ما تقدم من أنواع الفساد، هو تقسيم الفساد على قسمين رئيسين هما: فساد منظم وآخر غير منظم، وبيان ما تقدم فيما يأتي:

### الفرع الأول: الفساد المنظم

التنظيم في مجال جرائم الفساد سواء أكان إدارياً أم مالياً، يتمثل بما تقوم به جماعة تربط بعضهم ببعض علاقة رسمية من أجل تحقيق الأهداف التي نشأت من أجلها تلك المنظمة، إذ يشترك عادة أكثر من طرف في جريمة الفساد<sup>(١)</sup>، فيكون هنالك مستفيد من صفقة الفساد لمصلحة طرف آخر يستفيد في الوقت نفسه من ذات السلوك الإجرامي، للحصول على منافع متبادلة تجمع أطراف صفقة الفساد<sup>(٢)</sup>، إذ إنه في العديد من الجرائم الخاصة بتجاوز الموظفين حدود وظائفهم نجد الانحرافات التي تقع في داخل المؤسسات تكون في بعض الأحيان مستشرية وموزعة فيها بشكل متناسق، ابتداءً من أعلى الهرم الوظيفي فيها وحتى أدنى مستوى في السلم الوظيفي، ويتوزع في فواصل المؤسسة على شكل شبكة مرتبطة بعضها بعضاً<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمد بن علي شيبان العامري، «مفهوم التنظيم وأهميته، بحث منشور في موقع مجلة المختبر القانوني عبر الرابط: <http://www.labodroit.com>، تاريخ الزيارة ٥/٨/٢٠٢٣.

(٢) حمدي عبد العظيم، عولة الفساد وفساد العولة، الدار الجامعية، ط١، الاسكندرية-جمهورية مصر العربية، سنة ٢٠٠٨، ص ١٧.

(٣) اياذ كاظم سعدون، الصور الجرمية للفساد الإداري والمالي في قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل، مجلة جامعة بابل - العلوم الإنسانية، مجلد (٢٣)، عدد (٣)، سنة ٢٠١٥، ص ١٠٤٩.

وإنّ هذا النوع من الفساد يؤسس عن طريق مساهمة جنائية واسعة، من خلال مجموعة من الجناة يجمعهم التنظيم والتخطيط المسبق في ارتكاب جرائم الفساد بشكل مستمر، يعود عليهم بمكاسب كبيرة، يعتمد بالدرجة الأساس على استغلال المركز الوظيفي بشكل منظم باتباع خطط معينة لاستجلاب عائدات عملياتهم الفاسدة، وهو فساد يمارسه عدد من الموظفين الفاسدين في ظلّ استراتيجية معينة يُتفق عليها صراحةً أو ضمناً<sup>(١)</sup>

وبتحليل نصّ المادة (١/٢٧) من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد نجد أنّها سلّطت الضوء على المساهمة التبعية (الاتفاق، التحريض، المساعدة)، وهي صور الاشتراك التي نصّ عليها المشرع العراقي في أحكام المادة (٤٨) من قانون العقوبات. وحقيقة الأمر أنّ هذا النوع من جرائم الفساد لا يقتصر على المساهمة التبعية فحسب، ما لم تقترن تلك المساهمة بسلوك الفاعل، إذ إنّ من عناصر الركن المادي في المساهمة التبعية هو وجود رابطة سببية بين نشاط الشريك وسلوك الفاعل؛ فإذا ما تخلفت هذه الرابطة تخلف تبعاً لها الركن المادي للمساهمة التبعية، إذ لا رابطة سببية بين نشاط كل من الشريك والفاعل<sup>(٢)</sup>.

والجدير بالذكر أنّ هذا النوع من الفساد يمتاز بقوة سطوته في الوسط الوظيفي، إذ إنّ ارتكابه لا يكون إلّا من خلال هرم السلطة الإدارية في المؤسسة التي يمارس فيها هذا النوع من الفساد، فهو يحمل في طيّاته صفة التآمر على المصلحة العامة للبلاد، إذ عرّف بأنّه: «الفساد الذي يتم من خلال جماعات إجرامية، وهذا يعني أنّ أطراف جريمة الفساد محددين، ويعملون وفق خطط مرسومة مسبقاً، حتى وإن لم تأخذ صفة الطابع المؤسسي، فهو فساد متكرر ويوفر كسباً مربحاً»<sup>(٣)</sup>.

(١) نيكولا أشرف، جرائم الفساد الدولي والوسائل القانونية من اجل مكافحته، ط ١، منشورات دار ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١٢، ص ١٩٥.

(٢) للمزيد من التفصيل حول المساهمة الجنائية في جرائم الفساد الإداري، يُنظر: د. إبراهيم عيد نايل، المواجهة الجنائية لظاهرة غسيل الأموال، ط ١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٦-٥٢.

(٣) د. يوسف حسن يوسف، الفساد الاداري والاقتصادي والكسب غير المشروع وطرق مكافحته، منشورات دار التعليم الجامعي، ط ١، الاسكندرية، مصر، ٢٠١٤، ص ٩.

والملاحظ على هذا التعريف أنّه وسّع من مفهوم الفساد ليشمل الأعمال المرتكبة خارج المرفق المؤسساتي للدولة، ونرى أنّ هذه الشمولية تجعل للفساد نوعاً واحداً دون الحاجة إلى تقسيمه على أقسام منها المنظم وغير المنظم؛ مما يعني توحيد العقاب ليكون هذا النوع من الفساد مشابهاً في العقوبة للفساد التقليدي المرتكب في مؤسسات الدولة والمعروف بغير المنظم، وهو ما عليه العمل في بعض القضايا التي أثارت الرأي العام لشديد الأسف. والمعيار في بيان الفساد المنظم هو جسامته الاعتداء على المصلحة المحمية العليا للمجتمع والنتائج عن مساهمة جزائية في داخل المؤسسة الإدارية، باستغلال الهيكل الوظيفي للمؤسسة التي يترأسها الفاعل الأصلي ويشاركه بقية الجناة، إما بصفة مساهمين أو شركاء، وتوظيفهم للمراكز الإدارية التي يشغلونها على اختلاف ثقلها لخدمة مشروعاتهم الإجرامية، مما يسبب ضرراً بليغاً بمقدرات البلد على الصعيدين الإداري والمالي، إذ إنّ آلية الفساد المنظم تتجسد بوجود شبكة وحلقات من الفاسدين يقوم أعضاؤها بحماية أفراد تلك الحلقات، الذين من شأنهم أن يقدموا الخدمات إلى باقي أعضائها، ويساعدونهم في إخفاء جرائم الفساد، وعادةً ما تتضمن تلك الشبكات موظفين من أصحاب الدرجات العليا، الذين عادة ما يعملون في الخفاء، كونهم أصحاب القرارات المصيرية في الدولة<sup>(١)</sup>.

(١) محمد حسن سعد، وسائل القانون الدولي لمكافحة جرائم الفساد، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، عمان-الأردن، ٢٠١٩، ص ٦٠.



### الفرع الثاني: الفساد غير المنظم

يطلق على هذا النوع من الفساد عنوان الفساد الصغير، إذ إنه يقع من قبل الدرجات الوظيفية الدنيا. ويذهب جانب من الباحثين إلى أن أساس هذا الفساد هو الحاجة<sup>(١)</sup>، إذ يرتكبه الموظف من دون تنسيق مسبق مع زملائه في الوظيفة، ويكون مقتصرًا على قضايا التزوير وتلقي الرشاوي لتسهيل إجراء المعاملات<sup>(٢)</sup> أو عن طريق استغلال المنصب الوظيفي والقيام باختلاس أموال المؤسسة التي يعمل بها، أو بالتوسط لتعيين الأقارب، إذ يستهدف الحصول على منافع وعوائد مالية محدودة القيمة<sup>(٣)</sup>.

ويبدو لنا بأن ما استند إليه الرأي السابق من أن هذا النوع من الفساد ينطلق من الحاجة إلى المال ويكون من دون التنسيق مع الزملاء أمر فيه نظر، إذ إننا نذهب إلى ضرورة تفنيد تبريرات الجريمة ولا سيما جرائم الفساد، فلا مبرر للرشوة أو التزوير أو الوساطة، وجعل الوظيفة العامة محلاً للمتاجرة على حساب المواطنين الآخرين من ذوي الدخل المحدود؛ فضلاً عن أن هذا النوع من الفساد فيه عموم وخصوص من وجه مع الفساد المنظم، إذ يشترك فيه المسؤولون بوساطة غض النظر عن الشكاوى المقدمة بحق الموظفين الفاسدين، وعدم اتخاذ الإجراءات القانونية بحقهم، كذلك المساهمة الجزئية بطريق الامتناع عن إخبار

(١) د. أحمد الأصفر، الضوابط الأخلاقية والفساد الإداري في المؤسسات العامة، بحث منشور في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، مج (١٦)، ع (٣٢)، ٢٠٠٠، ص ٣٣١.

(٢) سعاد عبد الفتاح محمد، الفساد الإداري والمالي مظاهره - سبل معالجته، بحث منشور في وقائع وبحوث المؤتمر العلمي الأول لهيئة النزاهة، ص ٢٤٩. د. عصام عبد الفتاح مطر، الفساد الإداري (ماهيته، أسبابه، مظاهره)، دار الجامعة الجديدة الإسكندرية، ٢٠١١، ص ٣٦٠. وأمير فرج يوسف، مكافحة الفساد الإداري والرسائي وعلاقته بالجريمة على المستوى المحلي والإقليمي والعربي والدولي في ظل اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠١٠، ص ١١٥.

(٣) د. أحمد سليم، مؤشر الفساد في الأقطار العربية - إشكاليات القياس والمنهجية، المنظمة العربية لمكافحة الفساد، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٣٦.

الجهات المختصة بما يرتكبه الموظفون لهذا النوع من جرائم الفساد، إلا أن الصفة الغالبة فيه هي انحصاره بين صغار الموظفين.

ويطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الفساد بـ(الفساد التافه) كونه يتعلق بأعمال وموارد ثانوية، ناتجة عن عوائد مالية صغيرة، أو القيام بتعيين الأقارب، فضلاً عن القيام بتسهيل مهام رجال الأعمال أو التجار سواء أكانت أعمالهم مشروعة أم غير مشروعة<sup>(١)</sup>. وهذا الرأي لا نرجحه أيضاً، إذ إن الفساد بأي شكل من الأشكال لا يمكن عدّه تافهاً، فهو آفة تنخر جسد الجهاز الإداري في الدولة حتى وإن وقع بشكل عرضي من دون أن يتشكل بصفة هرمية، أو أن تتم توظيف العناوين الوظيفية لخدمة المشروع الإجرامي. وقد يكون الفارق الجوهرى بين نوعي الفساد هو قلة الخطورة المتأتية من الفساد غير المنظم وتأثيراته على اقتصاد الدولة ومؤسساتها<sup>(٢)</sup>، على عكس النوع الآخر الذي يجعل البلد برمته في مزاد للبيع والشراء.

والجدير بالذكر أن وضع معيار لتحديد صفة التنظيم من عدمه للفساد أمر جوهري في تحديث السياسة الجنائية لمواجهة هذا النوع من الإجرام، إذ إن لكل صفة من الصفات منهجية معينة في مكافحته، ويجعل الجهات المختصة بهذا المقام منشغلة بالفساد الأكثر خطورة على مقدرات البلد، تاركةً لمحاكمة التحقيق الاعتيادية التحقيق بالقضايا الأقل خطورة، ونرى أن على الجهة المختصة بمكافحة الفساد المنظم أن تعتمد خارطة عمل تميز بها هذا النوع من الفساد عن غيره، وتركيز الجهود في التحري وجمع المعلومات الضرورية لإحالة المتهمين بها إلى محاكم المختصة، بالسرعة التي تؤمن المحاكمة قبل أن يكون المتهم

(١) بشار محيسن حسن، دور السلطة التشريعية في مكافحة الفساد الوظيفي، رسالة ماجستير، كلية الحقوق - جامعة النهرين، ٢٠١٢، ص ٢٥.

(٢) نيكولا أشرف، جرائم الفساد الدولي والوسائل القانونية من أجل مكافحته، مصدر سابق، ص ١٩٥.

خارج البلاد، وتكون الأحكام الصادرة بحقه غيابية، إذ تستهدف تلك الخارطة بيان قيمة الفساد، ومنصب الموظف المتهم به، ومدى توافر الأدلة، فضلاً عن اهتمام الرأي العام بهذه الجرائم وما يوفره هذا الرأي من أدلة ثبوتية ومنطقية في تسليط الضوء على شبكة الفساد المنظم.

وعلى الرغم من أن المصلحة المحمية تُعد المعيار المعتمد في تجريم جميع السلوكيات، بما فيها جرائم الفساد، إلا أن للمساهمة الجزائية في العدوان على تلك المصلحة أثراً كبيراً في توصيف الفساد إلى منظم أو غير منظم. فإذا كانت تلك المساهمة تتمثل بتعدد الجناة رفيعي المستوى في الجهاز الإداري وارتكابهم جريمة فساد، فنحن أمام فساد منظم؛ إذ لا يُتصور أن تصدر جريمة فساد بسيطة بهذه المعطيات، وإنما يستهدف هذا النوع من الفساد المصلحة المتمثلة بحماية مؤسسات الدولة من الاستغلال. وأما الاعتماد على الرأي العام أو مدى توافر الأدلة فهذا ليس من المعايير المعتمدة في تحديد صفة الفساد، إذ إن الفساد المنظم يرتكب من قبل شخصيات مؤثرة في البنية المجتمعية مما يجعل الرأي العام مجبراً لصالح الفاسدين في أغلب الأحيان مع وجود ماكنة إعلامية تغطي هذا النوع من الفساد وتبرر له. وأما الاعتماد على مدى توافر الأدلة فهو قرينة لصالح المتهم، إذ إن عبء الإثبات يقع على سلطة الاتهام وليس على المتهم، ومن ثم في حالة ما إذا نجح رأس الهرم في الفساد المنظم بإخفاء الأدلة التي تدينه، أصبحنا أمام قضايا تنتهي بالحكم بالإفراج لعدم كفاية الأدلة، أو الحبس مع إيقاف التنفيذ أو الحكم الغيابي بحق الفاسد بعد انتهاء مدة مسؤوليته بمدة طويلة.

## المبحث الثاني

### المنهج الوقائي لأمر المؤمنين ﷺ في التصدي لجرائم الفساد

يتمثل المنهج الوقائي من الإجرام باتخاذ التدابير الاحترازية من أي فعل خطط يقام به تحسباً لظهور مشكلة معينة أو مضاعفات لمشكلة كانت قائمة أصلاً، وذلك بغرض الإعاقة الجزئية أو الكاملة للمشكلة أو لمضاعفاتها<sup>(١)</sup>. وقد انتهج أمير المؤمنين ﷺ مجموعة إجراءات وقائية تتمثل بما يأتي:

#### المطلب الأول: انتخاب الموظفين الأكفاء

يمثل عهد أمير المؤمنين ﷺ لملك الأشتر حين ولاه مصر أسمى تجليات العدالة الإنسانية، إذ تضمن هذا العهد مجموعة من التوجيهات والإرشادات التي تمثل خارطة طريقٍ معبدٍ للاستقامة السياسية والإدارية والاقتصادية، فضلاً عما تمثله من سياسةٍ وقائيةٍ من جرائم الفساد. ومن أهم تلك الإرشادات انتخاب الموظفين الأكفاء، ومراعاة الشروط الدقيقة في توليتهم المناصب والمهام إذ جاء في هذا المقام قوله ﷺ: (... ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عَمَلِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِبَارًا، وَلَا تُؤَلِّمْهُمْ مُحَابَاةً وَآثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعْبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبَيِّنَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا، وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظْرًا، ثُمَّ أَسْبَغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنَى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ تَلَمَّؤُوا أَمَانَتَكَ، ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدُودٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحْفَظُ مِنَ الْأَعْوَانِ،

(١) د. رمسيس بهنام، علم الوقاية والتقويم، د. ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٢٥

فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التَّهْمَةِ<sup>(١)</sup>.

إذ تضمن هذا المقطع من العهد بعض المسائل الجوهرية التي تتعلق بالوقاية من ارتكاب جرائم الفساد، وهي:

١. ألا يولي أي موظف عملاً إلا بعد الفحص والاختبار التام عن حاله وأمانته.
٢. لا يجوز أن يسند أي عمل لأحد محاباة أو أثره فإنه خيانة للأمة، وفساد لجهاز الحكم.
٣. أن يولي العمل أهل التجربة والدراية على شؤون العمل الذي يسند إليهم.
٤. أن يختار للعمل من يتصف بالحياء، وعدم الصلف، وأن يكون من ذوي البيوتات الشريفة حتى يقوم بخدمة المواطنين، ولا يحيف في حقهم.
٥. أن يسبغ على العمال الرواتب التي تسد حاجاتهم، ولا يضيق عليهم معيشتهم ليكونوا بمأمن عن تناول ما في أيدي الناس، ويتعدوا عن الرشوة.
٦. مراقبة العمال مراقبة دقيقة، وبثّ العيون عليهم للنظر في تصرفاتهم، فإن كانت شاذة عن شريعة الله تعالى بادر إلى عزلهم وإقصائهم عن وظائفهم وشهر بهم ليكونوا عبرة لغيرهم<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ط ٢، مج (١٧)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة، ١٩٦٧، ص ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) الشيخ باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ج ١٠، دار الهدى للطباعة والنشر، د.م. ط، ٢٠٠٢، ص ٢٩.

إذ إنه في حالة ما إذا ثبت عدم كفاءة الموظف من ناحية التخصص والخبرة، أو وجود سوابق قضائية لديه، فإنّ هذا الأمر يفصح عن خطورة إجرامية يستشعر بوجودها احتمالية ارتكاب الموظف لجريمة من جرائم الفساد، أو العود إلى ذات الجريمة التي ارتكبها سابقاً. وعلى إثر هذا الاتجاه، أصدرت هيئة النزاهة إعدامها بالعدد (٣/١٠٠/١٠٦ في ١٣ / ٢٠٢١) الموجه إلى الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة كافة والمتضمن (عدم تعيين أيّ مرشح لتسليم إحدى الوظائف العليا مدير عام فصعوداً، في حال ثبوت ارتكابه جريمة فساد بحكم قضائي باتّ، وإن شمل بقوانين العفو، وعدم إسناد الوظائف المهمة كرئيس شعبة فصعوداً إلى الموظفين المدانين بقضايا فساد)<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: الإفصاح عن الذمة المالية

من بين أهم مميزات النزاهة في إدارة الحكم عند أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أول حاكم في التاريخ أفصح عن ذمته المالية، إذ خطب في الكوفة قائلاً: (يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي، ورحلي وغلامي فلان فأنا خائن، فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت)<sup>(٢)</sup>.

ونجد منهج الإفصاح عن الذمة المالية انعكاسه في أحكام قانون هيئة النزاهة والكسب غير المشروع، إذ جاء بأحكام المادة (١٦/أولاً) ما نصه: (يلتزم كلّ من يشغل إحدى الوظائف أو المناصب الآتية أصالة أو وكالة بتقديم إقرار عن ذمته المالية :

١. رئيس الجمهورية ونوابه.

(١) إذ جاء هذا الإعدام استناداً إلى قرار مجلس الوزراء رقم (١٨٨) لسنة ٢٠٢٠، المتخذ في الجلسة الاعتيادية السابعة والعشرين بتاريخ ٢٤/١١/٢٠٢٠، المعمم على الوزارات كافة بموجب كتاب الأمانة العامة لمجلس الوزراء ذي العدد (ش.ز.ل/١٠/١/اعمام/٢١٧٦١) في ٢٦/١١/٢٠٢٠.

(٢) الشيخ باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، مج ٢، ص ٢٠٠.

٢. رئيس ونائب رئيس وأعضاء مجلس النواب.
٣. رئيس ونواب رئيس مجلس الوزراء والوزراء ومن بدرجتهم.
٤. أعضاء مجلس الاتحاد.
٥. رئيس مجلس القضاء الأعلى والقضاة وأعضاء الادعاء العام.
٦. رئيس وأعضاء المحكمة الاتحادية العليا.
٧. رئيس الإقليم.
٨. رئيس وأعضاء مجلس نواب الإقليم.
٩. رئيس حكومة الإقليم والوزراء فيه.
١٠. مسؤولو الهيئات المستقلة ونوابهم.
١١. وكلاء الوزراء ومن يتقاضى راتب وكيل وزارة.
١٢. أصحاب الدرجات الخاصة والعليا.
١٣. رؤساء وأعضاء مجالس المحافظات المنتظمة في إقليم وغير المنتظمة في إقليم.
١٤. المحافظون ونوابهم ومعاونوهم ومستشاروهم والقائم مقامون ومديرو النواحي.
١٥. مديرو الدوائر كافة في المحافظات غير المنتظمة في إقليم.
١٦. رؤساء الجامعات الحكومية والأهلية وعمداء الكليات.
١٧. المديرون العامون ومن بدرجتهم.
١٨. الضباط من رتبة مقدم فما فوق في التشكيلات العسكرية والأمنية كافة وضباط الاستخبارات في الأفواج صعوداً ومديرو الدوائر الأمنية من غير حاملي الرتب.
١٩. رؤساء وأعضاء مجالس إدارة شركات القطاع العام والمختلط.

٢٠. محققو مجلس القضاء الأعلى ومحققو هيئة النزاهة.

٢١. العاملون في هيئة النزاهة.

٢٢. رؤساء الجمعيات والاتحادات والنقابات والمنظمات ومؤسسو ورؤساء الأحزاب السياسية.

٢٣. رئيس وأعضاء مجالس إدارات ومديرو الأقسام في الهيئة الوطنية للاستثمار وهيئات الاستثمار في المحافظات كافة).

### المطلب الثالث: اعتماد النصح والإرشاد

انتهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في تعامله مع ولاته أسلوب النصح والإرشاد في أحيانٍ، وفي أحيانٍ أخرى التحذير والتوبيخ عندما يستشعر وقوعهم في الشبهات والزيغ. فلما أخبر (عليه السلام) أن قاضيه «شريحاً» اشترى بيتاً بثمانين ديناراً استدعاه للمساءلة ووبخه على فعلته، ونصحه أن لا يفعل مثل ذلك قبل أن يرجع إليه في قصة طويلة تقتصر فيها على نصيحته إياه: (أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا إِشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ فَلَمْ تَرْعَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِالدَّرْهِمِ بِدَرْهِمٍ فَمَا فَوْقَ وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ: هَذَا مَا إِشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُرْعَجَ لِلرَّحِيلِ إِشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارُ حُدُودَ أَرْبَعَةٍ؛ الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمَصِيبَاتِ)<sup>(١)</sup>.

وفي كتاب آخر نجد أمير المؤمنين (عليه السلام) يحذر عامله «الأشعث بن قيس» في أذربيجان من التصرف بأموال الدولة دون أن يرجع في ذلك إلى لوائح إدارية أو قانونية وذلك بقوله (عليه السلام):

(١) ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج ١٤، ص ٢٧٧، من كتاب كتبه (عليه السلام) لشريح بن الحارث قاضيه.



(وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ وَأَنْتَ مُسْتَرَعَى لِمَنْ فَوْقَكَ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَتَ فِي رَعِيَّةٍ وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ) (١).

وفي موقع ثالث نجد أمير المؤمنين عليه السلام يحذر من لم تردعه النصيحة بألم العقاب؛ وكل ذلك قبل وقوع الجريمة، فقد بعث بكتاب إلى زياد بن أبيه، وكان خليفة عامله في البصرة يحذره أشد الحذر من التلاعب بأموال الدولة ويقول (وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَبِيلَ الْأَمْرِ؛ وَالسَّلَامُ) (٢).

#### المطلب الرابع: تثقيف الرأي العام على الإخبار عن جرائم الفساد

ينبثق الرأي العام من مجموعة قيم اجتماعية تمثل حكماً يصدره المجتمع على شيء ما، مهتدياً بمجموعة من المبادئ والمعايير التي تحدّد المرغوب فيه والمعزوف عنه من السلوك (٣). وقد قام بتأسيس مجموعة معايير اجتماعية تجعل من المجتمع رقيباً على الولاة والعمال، وتقويم ما اعوجّج من سلوكهم استناداً إلى رأي المجتمع فيهم والنظر في سيرتهم، وعلمهم أن لا يسكتوا عن المطالبة بحقوقهم. وخير مصداق على ذلك قول معاوية بن أبي سفيان لـ «سودة بنت عمارة الهمدانية» حين طالبتها برّد حقّها وحقّ قومها إليها: (لقد لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان) (٤).

ومن المصاديق الأخرى التي تدلّ على تشجيع أمير المؤمنين لرعيته على الإخبار عن فساد الولاة والعمال، ما كتبه إلى بعض عماله: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكُّوا مِنْكَ

(١) المصدر ذاته، ص ٣٣٣، من كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس.

(٢) ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج ١٥، ص ١٣٨ من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه.

(٣) فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار الكتاب للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٥٢.

(٤) محمد الريشيري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

غِلْظَةً وَقَسْوَةً وَاحْتِقَارًا وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنُوا لِشَرِكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسَ لَهُمْ جِلْبَابًا مِنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بِطَرْفٍ مِنَ الشَّدَّةِ، وَدَاوِلَ هُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْتَزَجَ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ<sup>(١)</sup>.

ونجد انعكاس هذه المبادئ السامية في التشريعات الجنائية العراقية التي تؤمن حماية المخبر عن جرائم الفساد، وتحديدًا «قانون حماية الشهود والخبراء والمخبرين والمجنى عليهم رقم (٥٨) لسنة ٢٠١٧» إذ تضمنت المادة (٦) منه على مجموعة إجراءات تؤمن الحماية الشخصية والأمنية للمتعاونين مع الجهات المختصة بمكافحة الفساد، إذ تتمثل تلك الإجراءات بـ (أولاً: تغيير البيانات الشخصية مع الاحتفاظ بالأصول/ ثانيًا: مراقبة الهاتف/ ثالثًا: عرض الشهادة أو الأقوال بالوسائل الإلكترونية أو غيرها أو تغيير الصوت أو إخفاء ملامح الوجه أو غيرها/ رابعًا: وضع الحراسة على المشمول بالحماية أو مسكنه/ خامسًا: تغيير مكان العمل بصورة مؤقتة أو دائمة بالتنسيق مع جهة العمل إذا لم تكن طرفًا في القضية أو وزارة المالية/ سادسًا: وضع رقم هاتف خاص بالشرطة أو الجهات الأمنية الأخرى تحت تصرف المشمول بالحماية للاتصال به عند الحاجة/ سابعًا: توفير مكان إقامة مؤقت/ ثامنًا: إخفاء أو تغيير الهوية في المحاضر الخاصة بالدعوى. تاسعًا: تأمين الحماية أثناء الانتقال من وإلى المحكمة)، كما تضمنت المواد (١٢/ ثانيًا) من القانون آنف الذكر (عقوبة الحبس بحق من أفشى البيانات الخاصة بالحماية مع علمه بحمايتها)، كما نصت المادة (١٥) من القانون على أن: (يعاقب بالسجن كل من أكره أحد المشمولين بأحكام هذا القانون أو هذّده أو أغراه لتغيير شهادته أو خبرته ويُعدّ ظرفاً مشدداً إذا كانت الشهادة تتعلق بأحد جرائم الإرهاب أو الجرائم الماسة بأمن الدولة الداخلي أو الخارجي).

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج (١٥)، ص ١٣٧.

وفي السياق ذاته أسبغ المشرع الكريم حمايته على الموظفين والعاملين في مؤسسات القطاع الخاص الذين يتعاونون مع الجهات المختصة بمكافحة الفساد، بعقاب المساس بمراكزهم الوظيفية، أو حتى مضايقتهم فيها، إذ نصّت المادة (٣٢٩/ ثالثاً) من قانون العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل، على العقاب بالحبس أو الغرامة لكل من: (الموظف أو الوكيل الرسمي الذي يسرح، ينزل درجة، ينقل، يهدد، يرهب، يميز ضد، يضايق، ينتقم بأي طريقة أخرى من أي شخص يبلغ أو يتعاون مع لجنة النزاهة العامة العراقية أو المفتش العام في الوزارة أو ديوان الرقابة المالية العليا أو أي جهة حكومية أخرى مختصة بالتحقيق وفضح الفساد وإساءة التصرف من قبل المسؤولين عن المؤسسات العامة).

وبغية التشجيع على الإخبار عن جرائم الفساد، شرع «قانون مكافأة المخبرين رقم (٣٣) لسنة ٢٠٠٨» الذي يهدف إلى مكافأة من يقدم إخباراً يؤدي إلى استعادة الأصول، والأموال المملوكة للدولة، والقطاع العام، والكشف عن جرائم سرقة الأموال، واختلاسها، أو تزوير المحررات الرسمية؛ والأهم هو الكشف عن حالات الفساد الإداري، بوساطة مكافأة هؤلاء المخبرين، ومنحهم نسباً معينة من تلك الأموال.

## المبحث الثالث

### المنهج العلاجي لأمر المؤمنين عليه السلام في مكافحة جرائم الفساد

يتمثل المنهج العلاجي لأمر المؤمنين عليه السلام تجاه ولايته وعمّاله، مراقبته الشديدة والمستمرّة لسياساتهم وسلوكهم، فمن كان منهم خلصاً مؤدّياً لعمله بعيداً عن شهوة الحكم، أثنى عليه وقابله بمزيدٍ من الحفاوة والتكريم، ومن شذّ في سلوكه وانحرف عن الطريق القويم بادر إلى عزله وعقابه، إذ تتمثل مصاديق المنهج العلاجي بمجموعةٍ من الإجراءات أهمّها ما يأتي:

#### المطلب الأول: استئصال رموز الفساد

ورثت حكومة أمير المؤمنين عليه السلام تركة ثقيلة من الحكومات السابقة، نتيجة تغلغل الفساد المنظم بين ولايتها وعمّالها، إذ كان العطاء يُقسّم على أساس الحسب والنسب والقرب من الحاكم، بل كانت تلك الحكومات تولي الفاسدين من الأقرباء والأنساب حتى إذا جاء الخليفة مجموعة من الرعية يشكون ويشهدون على فساد ولائهم كالوليد والي الكوفة، فيتوعدّهم الخليفة ويهددهم، عوضاً عن أن يصغي إلى شكواهم، بل والأدهى من ذلك يضرب الشهود بالسياط، وما من ذنبٍ اقترفوه إلا لأتّهم عرضوا عليه قضيةً وبسطوا له رأياً وشكوا إليه ما أنكروا من فعل أخيه<sup>(١)</sup>، كلّ ذلك وغيره جعل أمير المؤمنين عليه السلام يفصح عن موقفه من هذه الجرائم في اليوم الثاني لخلافته الظاهرية في العام (٣٥) للهجرة، إذ وجه عليه السلام برّد الأموال المختلسة والمقتطعة من تلك الحكومات بقوله: «وَاللّٰهُ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ

(١) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ط ١، مطبوعات دار الأندلس، بيروت، ٢٠١٠،

النَّسَاءَ وَمَلَكَ بِهِ الْإِمَاءَ لَرَدِّدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ»<sup>(١)</sup>.

ويبين ابن أبي الحديد المعتزلي سبب هذه الخطبة بشرحه: «إنَّ القطائع ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويُسقط عنه خراجها ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج. وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بني أمية وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد فعل ذلك ثمناً عما بذلوه من مهجهم في طاعة الله سبحانه، وعثمان أقطع القطائع صلة لرحمه وميلاً إلى أصحابه عن غير عناء في الحرب ولا أثر»<sup>(٢)</sup>.

مما يعني أنَّ تلك الأموال المستقطعة كانت تمثل جرائم كسب غير مشروع، على وفق أحكام قانون هيئة النزاهة والكسب غير المشروع رقم (٣٠) لسنة ٢٠١١ المعدل، إذ جاء بنص المادة (١/ سابقاً) أنَّ: (كلَّ زيادة تزيد على ٢٠٪ سنوياً في أموال المكلف أو أموال زوجه أو أولاده لا تتناسب مع مواردهم الاعتيادية، ولم يثبت المكلف سبباً مشروعاً لهذه الزيادة، ويُعدَّ كسباً غير مشروع للأموال التي يثبت حصول الشخص الطبيعي عليها بالاشتراك مع المكلف بقرار قضائي بات).

لذلك بادر أمير المؤمنين عليه السلام ومنذ أيامه الأولى في إدارة شؤون البلاد بعزل ولاية الحكومات السابقة الذين سخرُوا جهاز الحكم لمصالحهم الخاصة، وأثروا ثراءً فاحشاً مما اختلسوه من بيوت المال، إذ تم عزل (معاوية بن أبي سفيان) أبرز الولاة الفاسدين من الحكومات السابقة. وعلى الرغم من إشارة بعض المخلصين لأمير المؤمنين عليه السلام بإبقاء

(١) ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج (١)، ص ٢٦٩. من كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان.

(٢) المصدر ذاته.

(معاوية) في منصبه ريثما تستقر الأوضاع السياسية ثم يعزله، إلا أن أمير المؤمنين (عليه السلام) رفض ذلك، وأعلن أن هذا التوجه فيه من المداهنة في دينه، وهو مما لا يقره ضميره الحي الذي لا يسلك أي طريق يبعده عن الحق ولو أبقاه ساعة لكان ذلك تزكية له، وقراراً بعدالته، وصلاحيته للحكم. لقد تخرج الإمام أشد ما يكون التخرج في أيام حكومته فابتعد عن جميع ألوان السياسة المبنتية على الخداع والتضليل<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: إيقاع العقوبات الرادعة

من أهم خصائص العقوبة الجنائية أنها تحقق الردع الخاص لمرتكب الجريمة، وذلك بمنعه من تكرار السلوكيات الإجرامية مستقبلاً، فضلاً عن تحقق الردع العام بزجر المجتمع في حالة ما إذا ارتكبوا الفعل الذي عوقب عليه الجاني، فسيكون مصيرهم كمصيره. فلم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) يتوانى عن إيقاع أشد العقوبات بحق المفسدين، وتحديدًا من تثبتت خيانتهم لبيت المال. فقد قطع يد «علي بن الجهم» لما سرق من الخزينة المركزية<sup>(٢)</sup>، ولم يضع أدنى اعتبار للصحة، أو صلة الرحم في محاسبة من ثبت ارتكابه لجرائم الفساد، إذ كتب (عليه السلام) إلى «المنذر بن الجارود العبدى»، وقد خان في بعض ما ولاه: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ صَلَاحَ أَيْكَ غَرَنِي فِيكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا، وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجَتِكَ عِتَادًا، تُعْمِرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَجَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ، وَلَكِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجْمَلِ أَهْلِكَ وَشَسْعِ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَعْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ)<sup>(٣)</sup>.

(١) يُنظر في تفصيل هذا المقام: الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين دراسة وتحليل، ج ١، ط ١، ١٩٧٤، ص ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢) الشيخ باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ج ١٠، ص ٧.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج (١٨)، ص ٥٤.

والملاحظ من هذه النصوص وغيرها فعالية إخبار الرعية عن جرائم الفساد، فضلاً عن فعالية الجهاز الرقابي الذي وضعه أمير المؤمنين (عليه السلام)، إذ أن العيون التي بثها في أرجاء دولته كانت يقظة، وتزوده بالأخبار المفصلة عن عماله وولاته<sup>(١)</sup>.

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) حازماً في إيقاع العقوبات الخاصة بجرائم الفساد الإداري والمالي دون التفات إلى منصب أو قرابة أو صلة رحم؛ فالكل أمامه سواء. فعندما بلغه (عليه السلام) أن ابن عمه «عبد الله بن عباس» أخذ أموالاً من بيت مال المسلمين بغير وجه حق كتب إليه موبخاً متوعداً بالعقاب بقوله: (فَلَمَّا أَمَكَّتَكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَاةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوُتْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمُصُونَةِ لِأَرْامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ اخْتِطَافَ الذُّبِّ الْأَزَلِّ دَامِيَةِ الْمَعْزَى الْكَسِيرَةِ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لَا أَبَا لَكَ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثِكَ مِنْ أَيْبِكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ... فَاتَّقِ اللَّهَ، وَارْذُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ لِأَعْدَرَنَّ إِلَى اللَّهِ فِيكَ، وَلَا ضَرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ، وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ مَا كَانَ هُمَا عِنْدِي هَوَادَّةً، وَلَا ظَفِرًا مَنِي بِإِرَادَةٍ حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأَزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا)<sup>(٢)</sup>.

وأما القصة المشهورة بامتناعه (عليه السلام) من الاستجابة لطلب أخيه «عقيل بن أبي طالب» بإعطائه غير حقه من بيت مال المسلمين فوبخه أشد توبيخ قائلاً: (وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أُمْلِقَ حَتَّى اسْتَحَاخَنِي مِنْ بُرْكَكُمْ صَاعًا، وَرَأَيْتُ صَيَّانَهُ شُعْتَ الشُّعُورِ غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُودَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلَمِ، وَعَاوَدَنِي مُوَكَّدًا وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا فَأَصْغَيْتُ

(١) رحيم علي صياح وعبد الحميد حمودي الشمري، الفكر الرقابي عند الإمام علي (عليه السلام)، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة بابل، ٢٠١٤، مج (٢٢) ع (١) ص ٤٨.

(٢) ابن أبي الحديد المدائني المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج (١٦)، ص ١٦٧.

إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَاتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبَرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنْفٍ مِنْ أَلْمَا، وَكَادَ أَنْ يَخْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّمْتَ الثَّوَاكِلَ يَا عَقِيلُ، أَتَيْتُنْ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبِ، وَتَجَرَّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ؟! أَتَيْتُنْ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتَيْنُ مِنْ لَظَى؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَفَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنَّتْهَا كَانَمَا عُجِنَتْ بِرَبِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ أَصِلَّةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ. فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ هَبْلَتِكَ اهُبُولُ! أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟! أَمْحَتَبُ أَنْتَ أَمْ دُوْ جَنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ؟! وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بَمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ؛ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ<sup>(١)</sup>.

إِذْ إِنَّ عَقِيلًا عليه السلام، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا، إِلَّا أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحَابِيَهُ عَلَى حَسَابِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُعْطِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَى حَقِّهِ، وَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ لِلْإِمَامِ عليه السلام جَوَازًا شَرْعِيًّا فِي أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَشَاءُ بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَشَاءُ، فَأَوْضَحَ لَهُ الْإِمَامُ عليه السلام أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسُوغُ، فَحِينَ أُلْحَ فِي الطَّلَبِ لَقْنَهُ دَرْسًا يَتَّخِذُ مِنْهُ الْوَلَاةُ مِنْهَجًا إِذَا أَرَادُوا اعْتِمَادَ الْعَدْلِ فِي إِدَارَةِ شُؤْنِ الرِّعْيَةِ، فَلَيْسَ لِلْوَلَاةِ أَنْ يُفَاضِلُوا بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَطَاءِ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُحَابُوا قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ أَيْ كَانَتْ الْمُبَرَّرَاتِ.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، مج (٢)، ص ٢١٧، من كلام له عليه السلام يتبرأ من الظلم.



## الخاتمة

في ختام بحثنا المتواضع في بيان منهج أمير العباد عليه السلام في مكافحة جرائم الفساد، وانعكاس هذا المنهج المبارك في التشريع الجنائي الوضعي في العراق، نجد أن هنالك الكثير من المبادئ التي استند إليها المشرع العراقي في سياسته الجنائية تعود جذورها إلى الشريعة الإسلامية العراء، وتحديدًا إلى منهج أمير المؤمنين عليه السلام، حارس تلك الشريعة والمقاتل على التأويل بها أوضحه وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قاتل بدوره على التنزيل، وكيف لا وهو نقطة باء مع توحيدها بها جميع الذي في الذكر قد جُمعا؟!!

إلا أن الإشكالية الجوهرية تكمن في عدم تطبيق هذا المنهج الشريف في حياتنا العملية لشديد الأسف، وهو ما يمثل أبلغ درجات الخسران للإنسان المتصدي للمسؤولية الإدارية. فالتقارير الخاصة بجرائم الفساد والدعاوى القضائية الخاصة بهذا النوع من الجرائم، أصبحت تمثل أرقاماً مرعبة، قدمنا في سبيل مقارعتها كوكبة عطرة من شهداء أجلاء من قضاة ومحققين ورجال أمن متخصصين في مكافحة هذه الآفة التي تمثل خطراً لا يقلّ جساماً عن الجرائم الإرهابية.

إنّ منهج أمير المؤمنين عليه السلام في التعامل في إدارة الدولة فضح الكثير ممن يدعون موالاته والسير بمنهاجه. فكم ممن ادّعى هذا الادّعاء ولم نجد في إدارته لمؤسسات الدولة خيال طيف ترجمان منهج أمير المؤمنين عليه السلام؛ فكان منهجه بأبي وأمي معياراً به يعرف النزيه، وبه يفتضح الفاسد.

## المصادر

القرآن الكريم

**أولاً: المعاجم:**

١. ابن منظور، لسان العرب، المحيط، المجلد الثاني، بيروت، دار لسان العرب، د.ت.
٢. الأصفهاني، الحسين بن محمد الفضل المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، لبنان، د.ت.
٣. الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٢.
٤. البستاني، فؤاد افرام، منجد الطلاب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٧.
٥. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨، مادة فسد.

**ثانياً: كتب السير والحديث الشريف:**

٦. أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار صادر، بيروت، د.ت.
٧. أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج٢، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥.
٨. محمد الريشيري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، ط٢، مج٨، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٥هـ.
٩. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ط٢، مج (١٧)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة، ١٩٦٧.

١٠. الشيخ باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، دار الهدى للطباعة والنشر، د.م.ط، ٢٠٠٢.
١١. الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسين دراسة وتحليل، ج ١، ط ١، ١٩٧٤.

### ثالثاً: الكتب والمؤلفات:

١٢. د. أحمد سليم، مؤشر الفساد في الأقطار العربية - إشكاليات القياس والمنهجية، المنظمة العربية لمكافحة الفساد، بيروت، ٢٠٠٠.
١٣. أمير فرج يوسف، مكافحة الفساد الإداري والرسائي وعلاقته بالجريمة على المستوى المحلي والإقليمي والعربي والدولي في ظل اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠١٠.
١٤. إياد كاظم سعدون، الصور الجرمية للفساد الإداري والمالي في قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل، مجلة جامعة بابل - العلوم الإنسانية، مجلد (٢٣)، عدد (٣)، سنة ٢٠١٥.
١٥. باولو ماورو، الفساد الأسباب والنتائج، مجلة التمويل والتنمية، مارس ١٩٩٨.
١٦. البنك الدولي للإنشاء والتعمير: تقرير التنمية في العالم، مركز الاهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧.
١٧. بيتر آيغن، شبكات الفساد والإفساد العالمية، ترجمة: محمد جديد، مراجعة: زياد منى، الناشر: قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، ط ١، ٢٠٠٥.
١٨. جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ط ١، مطبوعات دار الأندلس، بيروت، ٢٠١٠.

١٩. حمدي عبد العظيم، عولمة الفساد وفساد العولمة، الدار الجامعية، ط١، الإسكندرية- جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨.
٢٠. د. إبراهيم عيد نايل، المواجهة الجنائية لظاهرة غسيل الأموال، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٩.
٢١. د. رمسيس بهنام، علم الوقاية والتقويم، د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٦.
٢٢. د. سالم محمد عبود، ظاهرة الفساد الإداري والمالي (دراسة في إشكالية الإصلاح الإداري والتنمية)، دار الدكتور للعلوم، بغداد، ٢٠٠٨.
٢٣. د. عصام عبد الفتاح مطر، الفساد الإداري (ماهيته، أسبابه، مظاهره)، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠١١.
٢٤. د. هنان مليكة، جرائم الفساد، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٠.
٢٥. رحيم علي صياح وعبد الحميد حمودي الشمري، الفكر الرقابي عند الإمام علي عليه السلام، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة بابل، ٢٠١٤.
٢٦. فوزية دياب، القيم والعادات الإجتماعية، دار الكتاب للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٥٢.
٢٧. محمد الفاتح محمود بشير، الفساد الإداري- أسبابه وآثاره وأهم أساليب مكافحته، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر، ٢٠١١.
٢٨. نيكولا أشرف، جرائم الفساد الدولي والوسائل القانونية من أجل مكافحته، ط١، منشورات دار ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١٢.

٢٩. د. يوسف حسن يوسف، الفساد الإداري والاقتصادي والكسب غير المشروع وطرق مكافحته، منشورات دار التعليم الجامعي، ط ١، الاسكندرية، مصر، ٢٠١٤.

#### رابعاً: الأبحاث:

٣٠. د. أحمد الأصفر، الضوابط الأخلاقية والفساد الإداري في المؤسسات العامة، بحث منشور في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، مج (١٦)، ع (٣٢)، ٢٠٠٠.

٣١. د. عياد محمد علي باش، التكلفة الاقتصادية والاجتماعية للفساد الحكومي في البلدان النامية، بحث منشور في مجلة الموظف النزيه، برنامج المجتمع المدني، مجلة تصدر عن مركز عشتار للتدريب الصحفي، ط ١، بابل، ٢٠٠٦.

٣٢. د. محمد بن علي شيبان العامري، «مفهوم التنظيم وأهميته»، بحث منشور في موقع مجلة المختبر القانوني عبر الرابط: <http://www.labodroit.com>

٣٣. سعاد عبد الفتاح محمد، الفساد الإداري والمالي - مظاهره وسبل معالجته، بحث منشور في وقائع وبحوث المؤتمر العلمي الأول لهيئة النزاهة.

٣٤. علي سكر عبود، تحليل صور وأسباب الفساد الإداري والمالي، بحث منشور في مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية، مجلة دورية علمية محكمة، تصدر عن كلية الإدارة والاقتصاد جامعة القادسية، مج (١٢)، ع (١)، ٢٠١٠.

٣٥. د. نوار دهام مطر، السياسة الجنائية للمشرع العراقي في مواجهة جرائم الفساد، بحث منشور في مجلة المنصور، العدد (٢٥)، ٢٠١٦.

٣٦. ياسر خالد بركات الوائلي، الفساد الإداري - مفهومه ومظاهره وأسبابه مع إشارة إلى تجربة الفساد في العراق، بحث منشور في مجلة النبأ، مجلة شهرية ثقافية عامة تصدر عن مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام، ع (٨٠)، بغداد، ل ٢، ٢٠٠٦.

**خامساً: الرسائل الجامعية:**

٣٧. بشار محيسن حسن، دور السلطة التشريعية في مكافحة الفساد الوظيفي، رسالة ماجستير، كلية الحقوق - جامعة النهرين، ٢٠١٢.

٣٨. عبد المجيد حمد الحراحشة، الفساد الإداري، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، المملكة الأردنية الهاشمية، سنة ٢٠٠٣.

٣٩. محمد حسن سعد، وسائل القانون الدولي لمكافحة جرائم الفساد، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، عمان-الأردن، ٢٠١٩.

٤٠. محمد حسن سعيد، وسائل القانون الدولي لمكافحة جرائم الفساد، رسالة ماجستير، كلية الحقوق - جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٩.

**سادساً: المصادر باللغة الإنكليزية:**

Wraith, and Simpkins, E., Corruption in developing.41  
1964, countries, New York, Noton

jeff Johnston 7 frank schmallegger: criminal justice edition.42  
2003 u.s.a



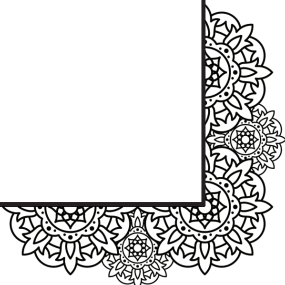


**قراءة في الأساليب التربوية  
عند الإمام علي عليه السلام في المجتمع**

**الباحث**

**الشيخ رسول جواد حسون المعمار**

**العتبة العباسية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية  
مركز الدراسات والمراجعة العلمية**





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم؛ والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين،  
المصطفى ابو القاسم محمد، وعلى آل بيته الغر الميامين. اللهم صلّ على محمد وال محمد.  
لقد كانت الأديان السماوية تركز دائماً على الإصلاح وبناء المجتمعات، وزادها تأكيداً  
ديننا الإسلامي الحنيف، حيث جسّد الرسول الأكرم ﷺ الأخلاق الفاضلة والمثل النبيلة  
في المجتمع فكان أفضل مثلاً وأحسن قدوة، حتى إنّ القرآن الكريم قد مدحه وقال له:  
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. (١) وهو القدوة الحسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ  
حَسَنَةٌ﴾. (٢)

وإنّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو عدل القرآن وهو القرآن الناطق، وقد تضافرت  
الروايات على إثبات هذا المقام. ففي رواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ  
تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي» (٣).

وهذه النصوص توقفنا على المنهج الربّاني للإمام علي وأهل بيته (عليهم السلام)، فما يصدر منهم  
فهو صادر عن رسول الله ﷺ، وإنّ منهجهم هو منهج الله سبحانه تعالى.  
يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدَبُهُ اللَّهُ وَهُوَ أَدَبُنِي، وَأَنَا أَوْدَبُ الْمُؤْمِنِينَ،  
وَأَوْرَثُ الْأَدَابَ الْمُكْرَمِينَ) (٤).

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) سورة الاحزاب، الآية ٢١.

(٣) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، ج ٥، ص ٦٢٢.

(٤) البحراني، بن شعبة، تحف العقول، ص ١١٤.

إنَّ المتأمل في الواقع الاجتماعي والتربوي في المجتمع المسلم اليوم، يجده يعاني من تفسخ واضطراب تربوي لا يتفق وتقاليد المجتمع الإسلامي ولا يتناسب مع واقعه التربوي؛ ونتج عن ذلك حدوث صراع فكري وتفسخ اجتماعي وهدر تربوي إلى جانب معاناته من تحلّف عن السير في ركب الحضارة الإسلامية الراقية.

فالحضارة الإنسانية، أيّاً كان نوعها، قامت وازدهرت على أساس من القيم والمبادئ التي نادى بها قادة وزعماء ومربّون، وما انهارت حضارة إلّا لأنها أسقطت من حساباتها التمسك بالمبادئ والقيم والتخلي عن خطابها التربوي الأخلاقي.

فإذا أرادت الأمة الإسلامية اليوم الرجوع إلى أيام عزّها ومنعتها فعليها أن تبدأ في تصحيح كثير من الاهتمامات التي تستعملها في حياتها والتي منها اهتماماتها بالأساليب التربوية. كما رسمها لها القرآن والنبى وآل بيت النبى، ومنهم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه أفضل التحية والسلام).

ولنا أن نسأل لماذا علينا -بصفتنا مسلمين- أن نهتدي بمنهج أمير المؤمنين علي؟

إنَّ الإمام علي (عليه السلام) عنوان مضيء في حياة الإنسانية، وعنوان شامخ في حركة التاريخ والمسيرة الإنسانية، عُرف بالعلم والحكمة والإخلاص والوفاء والصدق والحلم وسائر صفات الكمال في الشخصية الإسلامية، فكان قدوة المسلمين ورائد الإصلاح والتغيير في المسيرة الإسلامية.

ولمّا كانت التربية عملية إنسانية مستدامة، فإنّها -تبعاً لذلك- تقوم على الاختيار من متعدد بين الخبرات الإنسانية المتراكمة على مرّ العصور. ومن هنا تظهر الحاجة إلى تنقية أفضل الأساليب التربوية واستخلاصها، وتقديمها للمتعلّمين في المجتمع.

وقد علم مما تقدم أن أهل البيت عليهم السلام هم منبع للأساليب التربوية الصحيحة والناجحة؛ إلا أنني سأسلط الضوء في بحثي هذا على الأساليب التربوية عند أمير المؤمنين عليه السلام.  
ومما تقدم تظهر أهمية بحثي هذا الموسم: (قراءة في الأساليب التربوية للإمام علي عليه السلام في المجتمع).

والهدف من كتابة هذا البحث هو: لبيان الأساليب التربوية التي استخدمها الإمام في مجتمعه لمعالجة واقع الأمة الآن والمستقبلي للوصول إلى حياة قائمة على الإصلاح والتحسين الفكري والروحي، والاستفادة من هذه الأساليب منهجاً دراسياً قيماً ومرجعاً ثميناً وأصيلاً لبناء مجتمع متطور ومزدهر في ظل رؤى الشريعة الإسلامية.

#### اسئلة البحث:

السؤال الأصلي: ما هي الأساليب التربوية التي استخدمها الإمام علي عليه السلام في بناء المجتمع من خلال سلوكه النظري والعملي؟

#### الأسئلة الفرعية:

ما هي بعض الأساليب التي استخدمها الإمام لتهذيب المجتمع وتطويره؟  
كيف ساهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في البناء الفكري والتربوي ليؤسس قواعد رصينة للتغيير الإيجابي للفرد والمجتمع؟

#### فرضيات البحث:

تمكّن الإمام من استخدام الوسائل المنوعة والراقية المناسبة لتوجيه الناس وإنقاذهم من الجهل والظلم والاعتداءات.

ثانياً كان للإمام دور مهم وكبير في بناء المجتمع والرقى بالأمة وتأسيس قواعد للتعامل بين الناس بالعدالة وتطبيق تعاليم الشريعة الحقّة من خلال سلوكه النظري والعملية. ولا أدعي بأنني أول من كتب في هذا الموضوع، ولكنني أرى بأن لي الأسلوب الخاص في كتابته كما سيتضح ذلك في طيّات البحث للقارئ الكريم.

وقد استعنت بالمنهج التحليلي لأحاديث ومواقف أمير المؤمنين (عليه السلام) بالنسبة للطرق التربوية في زمانه.

علماً أن هيكلية البحث تتكون من مبحثين:

المبحث الأول: التعاريف اللغوية والإجرائية الواردة في عنوان البحث.

والمبحث الثاني: تحري الأساليب التربوية من أحاديث الإمام علي (عليه السلام).

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في طيّات هذا البحث لتبيان الأساليب التربوية في أحاديث أمير المؤمنين (عليه السلام) ومواقفه؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

## المبحث الأول

الكلمات الافتتاحية أو التعاريف اللغوية والاصطلاحية الواردة في عنوان البحث:

### ١- القراءة:

آ- التعريف اللغوي: (قرأ: فعل) قرأَ يقرأ، قراءةً وقُرأًا، فهو قارئ، والمفعول مَقْرُوء. قرأَ الكتابَ ونحوه: تتبَّع كلماته نظرًا، نطق بها أو لا. القراءة (اسم): وهو صوت النطق المكتوب.

استقرأ الأمر أو الشيء: استقرأه، تفحصه، درسه بعناية وتتبعه لمعرفة خواصه<sup>(١)</sup>.

ب- التعريف الاصطلاحي: لا يختلف معنى القراءة في الاصطلاح عن معناها في اللغة، فيقول ابن عاشور (القراءة هي تلاوة كلام صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تالية بمثل ما تكلم به متكلمه سواء أكان مكتوباً في صحيفة أم كان ملقناً لتاليه بحيث لا يخالف أصله كلام تاليه؛ ولذلك لا يقال لنقل كلام أنه قراءة إلا إذا كان كلاماً مكتوباً أو محفوظاً)<sup>(٢)</sup>.

### ٢- الأساليب:

آ- قال ابن الناظم: (والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه.

والأسلوب، بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه)<sup>(٣)</sup>.

ب- اصطلاحاً: فعرفه البعض بأنه (هو طريقة يعبر بها بالتفكير أو التعبير، أي بمعنى تعبير بشكل لفظي يعبر بها عن نظم الكلام، أو المعاني)<sup>(٤)</sup>.

(١) من الانترنت، معجم المعاني الجامع، مادة قرأ.

(٢) من الانترنت، نقلاً عن كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور.

(٣) ابن ناظور، لسان العرب، ج ١، ص ٤٧٣.

(٤) من الانترنت، موقع موضوع، مادة أسلوب.

## ٣- التربية:

آ- التربية لغةً: (رَبَّى: (فعل)

رَبَّى يُرَبِّي، رَبٌّ، تَرْبِيَةٌ، فهو مُرَبٌّ، والمفعول مُرَبَّى،

رَبَّى الأبُّ ابنَه: هذَّبَه ونَمَّى قواه الجسْمِيَّة والعقليَّة والخلقيَّة كي تبلغ كماها<sup>(١)</sup>.

ب- التربية اصطلاحاً: (التربية هي عملية تنمية وظائف الإنسان الجسمية والخلقية والعقلية حتى تكتمل من خلال التثقيف والتدريب، كما عرّفها أفلاطون بأنّها عملية التدريب للفطرة الأولى على الفضيلة للأطفال من خلال اكتسابه العادات المناسبة)<sup>(٢)</sup>.

(١) من الانترنت، موقع المعاني الجامع، مادة ربي.

(٢) من الانترنت، موقع موضوع، مادة التربية.

## المبحث الثاني

### قراءة في الأساليب التربوية عند الإمام علي (عليه السلام) في المجتمع

ستتطرق في هذا المبحث إلى بيان بعض مصاديق الأساليب التربوية الكثيرة التي استخدمها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في أحاديثه ومواقفه المختلفة، مع إثبات أن كل مصداق هو أسلوب تربوي بالأدلة المتاحة المقبولة عند القارئ والباحث الكريم.

إذن نشرع على بركة الله تعالى بتعداد بعض الأدوات والأساليب التربوية، وقد اخترت أربعة عشر أسلوباً لمحدودية الأوراق المطلوبة لهذا البحث، وهي:

#### ١- القرآن الكريم:

لا شك ولا ريب بأن القرآن الكريم نفسه هو من أهم الأساليب التربوية للإنسان فضلاً على احتواء مضامينه على الطرق والوسائل التربوية الكثيرة الأخرى. قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عنه: (... وبما أن أسلوب القرآن أسلوب تربوي وتطبيقي، فإنه بعدما بين أوصاف وجزاء عبید الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التي تنتظرهم جزاء ما فعلوا)<sup>(١)</sup>.

فوصف الإمام علي (عليه السلام) القرآن بأنه أفضل شيء، فقال:

(واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب؛ وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء)<sup>(٢)</sup>.

(١) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، ج ٩، ص ٢٥٩.

(٢) المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار الانوار، ج ٨٩، ص ٢٤.

فيرى الإمام (عليه السلام) أنَّ أول ما يجب تعليمه للمسلمين وخاصة الناشئين منهم هو القرآن لاشتماله على كلِّ ما يحتاج إليه الناس في حياتهم الدنيا والآخرة وليبينه أحوال الأمم الماضية، فقال في وصيته لابنه الإمام الحسن (عليه السلام): (إبتدأتك بتعليم كتاب الله عزَّ وجلَّ وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه)<sup>(١)</sup>.

## ٢- أسلوب نهج البلاغة:

هنا نسأل هل يعتبر كتاب نهج البلاغة أسلوباً تربوياً؟

قال الدكتور محمد النمر: (إنَّ هذا الغنى الموضوعي في الأبعاد التربوية التي تناوَلها الأمير (عليه السلام) في نهج البلاغة تدلُّ بشكل كبير على المنهج التربوي الذي كان يعمل به، والذي يريد أن يهذِّب ويربِّي به أصحابه فلم يقتصر على جوانب معينة، بل تناول كلَّ الجوانب التي يحتاجها أصحابه ورعيته في عملية التكامل والوعي والبصيرة، بما يعزِّز طريق الهداية ويربطهم بالهدف الأسمى الذي هو القرب من الله سبحانه وتعالى، لذلك من المهم الإضاءة على هذه الجوانب التربوية بشكل موسَّع من أجل الاستفادة في مجال التخطيط التربوي والثقافي)<sup>(٢)</sup>.

فقد أوضح الإمام (عليه السلام) في خطبه وحكمه ورسائله في هذا الكتاب الكثير من الوسائل التعليمية والأساليب التربوية في بناء المجتمع الإسلامي، فأكد كثيراً رشد الناس وهدايتهم وتهذيبهم وإصلاح أمورهم، وسبل وصولهم لأعمال الخير والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ونذكر مثاليين من هذا الكتاب القيم:

١- من كتاب له (عليه السلام) كتبه إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة:

(١) الريشهري، الشيخ محمد، العلم والحكمة، ص ٢٣٨.

(٢) من موقع الانترنت، مركز الابحاث والدراسات التربوية.



(أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله، وأجلس لهم العصرين، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجة عن لقاءك بها، فإنها إن زيدت عن أبوابك في أول ورودها لم تحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع المفاقر والخلاّات، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لتقسمه فيمن قبلنا)<sup>(١)</sup>.

٢- قال أمير المؤمنين لابنه الإمام الحسن عليه السلام: ( يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وقل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)<sup>(٢)</sup>.

### ٣- العبادة: سؤال: هل العبادة تعتبر من الأساليب التربوية؟

الجواب: نعم هي كذلك، قال الكاتب حسين علي منتظري: (إذ تتضمن الفرائض العبادية أسمى المناهج التربوية وأساليب تهذيب النفس. ولم يستخدم الإسلام -بل وحرّم أيضاً- الطرائق غير المتعارفة وأساليب الرياضة الروحية القاسية والصارمة في التهذيب والتربية. وإنّما أمر بتهذيب النفس عن طريق العبادة التي هي أمر فطري. ومن الطبيعي أن الالتزام بهذه الفرائض والتعاليم يؤدي بشكل تلقائي ومن غير ضغوط إلى تهذيب وضبط الغرائز)<sup>(٣)</sup>.

(١) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٣٠.

(٢) المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٩.

(٣) منتظري، حسين علي، الإسلام دين الفطرة، ج ١، ص ٢٢٩.

وأما صفة عبادة أمير المؤمنين (عليه السلام) فإنه كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله). وإن عباداته كانت نموذجاً فذاً ومثالاً راقياً في الأخلاق والتربية.

فإن للصلاة والصوم وسائر العبادات تأثيراً فاعلاً في هذا المضمار، فنرى فريضة الحج مثلاً فإنه يعتبر من بدايته وإلى نهايته يمثل نظاماً تربوياً وتهذيباً روحياً متكاملًا.

٤- الدعاء: وإن كان الدعاء هو من أهم أنواع العبادة، إلا أن له طعماً خاصاً وأسلوباً فريداً، ولذلك أفردناه عن الأسلوب التربوي السابق «العبادة» لهذا السبب.

إن الأدعية إضافة إلى وجهها العبادي فلها وجهاً اجتماعياً أيضاً، فتعتبر أسلوباً مبتكراً في إيصال الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية الأصيلة إلى القلوب الظمأى، والأفئدة التي تهوي إليها لترتزق من ثمراتها، وتنهل من معينها، فكانت بحق عملية تربوية نموذجية من الطراز الأول تنسق مع مسار الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام في المجتمع.

وقال البعض الآخر: (التنوع في وسائل التربية والتعليم زيادة على تلك الوسائل المعروفة في الصدر الأول للإسلام، حيث إن الأئمة (عليهم السلام) يهتمون بأساليب أخر لم تكن معروفة على مستوى التربية. ومن هذه الأساليب هو الدعاء، فللدعاء آثار تربوية عظيمة...)<sup>(١)</sup>.

فإن لوسيلة الدعاء الأثر البالغ والجدوى الكبيرة في تربية المجتمع لأنها تقوي العلاقة ما بين الناس فيما بينهم لإصلاح أمورهم، إضافة إلى العلاقة ما بين الإنسان وبين خالقه ليكون في نفسية مطمئنة وراضية بقضاء الله وقدره.

فلاحظ في أدعية الإمام ومناجاته، مثل دعاء كميل ودعاء الصباح وغيرها، الكثير من الفوائد والمعاني والآثار التي تترتب في المجتمع ومنها: التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وإقامة السنن والتحلي بالأخلاق الحميدة وأداء الحقوق ومساعدة المستضعفين وزيارة

(١) الغرابي، مها نادر عبد الحسين، التربية عند أهل البيت (عليهم السلام)، جزء ١، ص ٢٥٨.

المرضى وإرشاد السائلين ونصح المستشيرين وزيارة العائدين والمرضى وكتمان الأسرار وستر العيوب ومساعدة المظلومين ومقابلة السيئة بالحسنة والعفو عن الناس، وحسن الظن بهم والطف بالعباد، وتمني الخير للآخرين، وكذلك بالابتعاد عن التعدي والتجاوز والظلم والعدوان وترك المعاصي والذنوب والموبقات وغيرها.

٥- الأسلوب التعليمي: وهذا الأسلوب يعتبر من الأساليب المهمة جداً حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه المجيد ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وكذلك قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد قال النبي ﷺ في حق الإمام علي عليه السلام: (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)<sup>(٣)</sup>، فركز الأمير عليه السلام بدوره على العلم وعلى التعلم، فقال: (ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم؛ ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر؛ ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها؛ ألا لا خير في نسك لا ورع فيه)<sup>(٤)</sup>.

كما أكد أن تؤخذ العلوم من مصادرها الحقّة فقال: (أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو اقتبستم العلم من معدنه، وشربتم الماء بعدوبته، وأدّخرتم الخير من موضعه، وأخذتم الطريق من واضحه، وسلكتهم من الحقّ نهجه، لتبهجت بكم السبل، وبدت لكم الأعلام، وأضاء لكم الإسلام)<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

(٢) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٣) المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار البحار، ج ٤٠، ص ٢٠٦.

(٤) الكليني، العلامة محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ٣٦.

(٥) المازندراني، الملا صالح، شرح اصول الكافي، جلد ١١، ص ٢٩٦.

ونصح الإمام القائمين بالعلم فقال: (من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم)<sup>(١)</sup>.

وركز أيضاً على تعليم العقائد الحقة، فقال: (علّموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليه المرجئة برأيها)<sup>(٢)</sup>. كما شدّد على تعليم أحكام الشريعة الإسلامية، وعلى تعليم الصلاة، فقال (عليه السلام): (علموا صبيانكم الصلاة، وخذوهم بها إذا بلغوا الحلم)<sup>(٣)</sup>. ودعا إلى تعليم السباحة والرماية والزراعة والصناعة وغيرها، لأجل مصلحة الإنسان ومجتمعه، وأوضح بأنّ العمل يحتاج إلى العلم وإلى الإتيان والصبر وإلى التوكل على الله سبحانه وتعالى.

#### ٦ - الصدقة: سؤال: هل تعتبر الصدقة أسلوباً تربوياً؟

قال السيد سعيد كاظم العذاري حيث قال: (ومن الأفضل تمرين الطفل على عمل الخير كالصدقة على الفقراء والمساكين؛ وهو أسلوب تربوي يربيه على عدم الركون إلى الدنيا والتقليل من تأثير حبّ المال في نفس الطفل، وهو مقدمة لإصلاح النفس لكي تكون سبابة إلى التعاطف مع الطبقات المسحوقة، وسبابة إلى حبّ الخير وحبّ الصالحات وحبّ الإيثار والكرم، وما شابه ذلك)<sup>(٤)</sup>.

فنرى حتى إنّ الله سبحانه وتعالى قد مدح أمير المؤمنين في كتابه المجيد فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٤٧.

(٣) الريشهري، شيخ محمد، ميزان الحكمة، ج ٤ - ص ٣٦٨١.

(٤) العذاري، سعيد كاظم، المنهج التربوي عند أهل البيت، ج ١، ص ١١٠.

(٥) سورة المائدة، الآية ٥٥.

فكان الإمام من المتصدقين كثيراً على الفقراء والمساكين، وحتى قال الإمام الصادق (عليه السلام) عنه: (والله، لقد أعتق ألف مملوك لوجه الله عز وجل) (١).

٧- المناقشات والمناظرات والحوار: قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (إننا عندما ندقق في أسلوب نقاشات الأنبياء (عليهم السلام) مع الأعداء والظالمين والجبارين، كما يعكسها القرآن الكريم، أو كما تعكسها تلك المناظرات العقائدية بين رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وبين أعدائهم وخصومهم، ننتهي إلى دروس تربوية في هذا المجال تطوي في تضاعيفها...) (٢).

ونشير هنا إلى مناظرة واحدة من مناظراته (عليه السلام) وكم فيهن من فوائد جمة:

حيث روى ابن عساكر بسنده عن الحرث وقال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر؟ فعندها نصحه الإمام، ثم أجابه على أسئلته المختلفة ثم استطاع إرشاده وإقناعه، إلى أن آمن الرجل، فقال الإمام للقوم: (الآن أسلم أخوكم، فقوموا فصافحوه) (٣).

٨- نصيحة الآخرين وإرشادهم: وهنا نكرر السؤال الذي سألناه سابقاً وهو: هل إن نصيحة الآخرين وإرشادهم تعتبر من الوسائل والأساليب والأدوات التربوية؟

الجواب: نعم هي كذلك، ومما يدل على جوابنا ما ذكره آية الله العلامة الشيخ محمد السند فقال: (وأمّا أسلوب دعوة الآخرين وإرشادهم... فإنه أسلوب تربوي للنفوس يقيمها على الحقّ ويبعدها عن استحسان الباطل) (٤).

(١) الريشهري، شيخ محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ٩، صفحة ٣٧٧.

(٢) الشيرازي، آية الله ناصر مكارم، تفسير الأمل، ج ١٥، ص ٦٧.

(٣) ابن عساكر، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من تاريخ مدينة دمشق، ج ٣.

(٤) السند، شيخ محمد، عدالة الصحابة، ج ١، ص ٣٩٧.

ويرى الإمام علي عليه السلام أن التربية من الحقوق الإنسانية التي يجب على الحاكم أدائها إلى الناس كافة فيقول: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالْنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيَّكُمْ)<sup>(١)</sup>.

وقد حرص على أن يوثق الصلة بين التربية النظرية والتربية التطبيقية ببيان أهمية العمل بما نعلم. ويظهر هذا فيما ورد نقلاً عنه حيث قال: (الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمَلًا، وَالْعِلْمُ يَنْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ)<sup>(٢)</sup>. وكذلك نصحهم وقال: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَنْقُصُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ، لَمْ يَسْكُتْ عَنْهَا نَسِيَانًا لَهَا فَلَا تَكْلِفُوهَا، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا)<sup>(٣)</sup>.

وبالإجمال، فإنه عليه السلام كان ينصح الناس بأمرين:

الأمر الأول: هو التخلص من مساوئ الأخلاق، مثل الفحش وبذاءة اللسان والتنازع والسخرية والاستهزاء والغيبة والبهتان والكذب والظلم والعدوان والخيانة والحدق والبخل والطمع والنفاق والكسل والذنوب والمعاصي ونحوها.

والأمر الثاني: هو العمل بمكارم الأخلاق، مثل التحية والسلام والنصيحة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبرّ الوالدين وحسن الجوار والأمانة والعفو والحياء والسخاء والكرم والحب في الله والصدقة ومعونة الناس وأداء الواجبات وعمل الخيرات ونحوها.

٩ - الترغيب والترهيب: (ومّا يزيد فاعلية الترغيب والترهيب في التربية الإسلامية، كونها يتعاملان مع جوانب عديدة في الإنسان، فلا يخاطبان عقله فقط، وإنّما يناشدان

(١) المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٥١.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٩، ص ٢٨٤.

(٣) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، الصفحة ٧٥.

روحه، ويلمسان وجدانه؛ فيدخلان النفس الإنسانية من منافذها، كما إنهما يستندان إلى رصيد من الإيمان؛ وكلّما كان هذا الرصيد أكبر زاد تأثيرهما وقوي<sup>(١)</sup>.

فكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يؤكد دائماً على أنّ لكل عمل جزاء، ليشجع الناس على فعل الخيرات والاجتناب عن فعل السيئات فقال: (لن يلقي جزاء الشرّ إلّا عامله، لن يجزى جزاء الخير إلّا فاعله)<sup>(٢)</sup>.

١٠- وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إنّ من أعظم الواجبات الدينية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، فهو من الواجبات الإسلامية التي يكون بها حفظ قوام نظام الدين والمجتمع، وفيها تقام وتحفظ الواجبات الشرعية والعرفية والأخلاقية.

ولقد أكد الإمام علي (عليه السلام) كثيراً هذا الأسلوب فقال: (لا تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيؤلى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)<sup>(٤)</sup>.

فهذه الوسيلة غاية في التأثير التربوي والروحي عند الإنسان في المجتمع، فشجّع الإمام (عليه السلام) عليها كثيراً في كلّ المجالات، وفي كلّ الظروف وحثّ الناس عليها، وكان يأمرهم ويوصيهم بها. فكان يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويمجاهم بالتي هي أحسن، ويدعوهم إلى فعل الخير ونشر الإصلاح، وإلى العدل والمساواة، وإلى المروءة والتسامح، وإلى العفو والمغفرة، وإلى التغافل والتغاضي، وإلى جميع وجوه البرّ والخير.

(١) الموسوي، سيد مصطفى، الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (عليه السلام)، ص ١١١.

(٢) الريشهري، شيخ محمد، ميزان الحكمة، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٢.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٥، ص ٥٩.

وكان في الوقت نفسه، ينهاهم عن الفساد والظلم والعدوان والغضب والغيبة والمعاصي والذنوب، وعن جميع وجوه الشر والفساد.

١١ - إفشاء السلام: وهو أسلوب راقٍ في بناء المجتمعات للعيش بسلام وأمان، ونبد العنف والاعتداءات والظلم والصراعات، فقال ﷺ: (إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَا يَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِرًا إِلَّا اللَّهَ)<sup>(١)</sup>.

فمسألة العلاقة بين السلم واللاعنف في الفكر الإسلامي الأصيل عموماً، وفي فكر الإمام علي ﷺ خصوصاً، هي علاقة واضحة المعالم؛ إذ إنها تستمد وجودها من عمق الآداب الإلهية والأخلاق الرسالية. وها هو ﷺ يقول في عهده مخاطباً الأشر:

(ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله في رضى، فإن الصلح دعةً لجنودك، وراحة من همومك وأمناً لبلادك)<sup>(٢)</sup>. فأراد الإسلام أن يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان بسلام وأمان واحترام، وفقاً للحقوق والواجبات في المجتمع، لأن الحرب لا تنطلق إلا على الذين يفرضون الحرب على الإنسان ويظلمونه ويسلبونه حقوقه.

١٢ - القدوة الحسنة: إن الإمام علي ﷺ هو ربيب رسول الله ﷺ والذي مدحه القرآن الكريم، وقال بحقه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>، وإن أمير المؤمنين قد أخذ من أخلاق رسول الله فكان أيضاً قدوة حسنة للأمة وللناس، فكان يدعوهم إلى الخير وإلى ما فيه صلاحهم، ليس بكلامه وحسب، وإنما كان ذلك بأفعاله وسلوكه. فهذا أسلوب مؤثر جداً في نفوس الناس حيث قال ﷺ: (والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجرّ في الأغلال مصفداً،

(١) الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، ص ١٠٠.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ١٠٦.

(٣) سورة الاحزاب، الآية ٢١.



أحبَّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام؛ وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها<sup>(١)</sup>، وأكد ذلك للناس بقوله: (أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، أو لا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها)<sup>(٢)</sup>.

١٣- تفقد الناس وقضاء حوائجهم: إنَّ أسلوب تفقد الناس والسؤال عن أحوالهم وقضاء حوائجهم يعتبر من مصادر الألفة والتراحم والاجتماع بين أفراد المجتمع، وهو يؤدي إلى التماسك وعدم التفكك. وهذه تعتبر وسيلة تطويرية إيجابية لبناء النفس البشرية.

فقال علي بن أبي طالب (عليه السلام): (من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا، وهو موصول بولاية الله، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها، سلّط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة، مغفوراً له أو معذباً، فإنَّ عذره الطالب كان أسوأ حالاً)<sup>(٣)</sup>.

كما قال: (مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمُلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ)<sup>(٤)</sup>.

١٤- ضرب الأمثال: يُستخدم أسلوب ضرب الأمثال وسيلة تربوية فعالة في المجتمع وذلك بتقريب الفكرة إلى الواقع المحسوس في عقول الناس. وكلنا يعلم بأنَّ القرآن الذي استخدم هذا الأسلوب هو ليس كتاباً قصصياً، وإنما هو كتاب هدفه بناء الإنسان وتربيته في مجتمعه نحو الكمالات.

(١) الريشهري، شيخ محمد، ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٧٧٠.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٠ ص ١٠.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، ج ٢، ص ١٩٦.

(٤) المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار الأنوار - ج ٧٢ - ص ٢١.

وقال الكاتب عاطف السيد: (يعني ضرب المثل إيقاعه وبيانه، يذكر في الكلام لإيضاح حال من الأحوال. والأمثال القرآنية والنبوية لها غايات نفسية تربوية حققتها لسمو المعاني التي تحتويها ونبل الأغراض التي تشملها ورقيتها، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي لها وتأثير أدائها...) (١).

وقد بين الإمام علي عليه السلام أهمية الأمثال بقوله: (لأهل الاعتبار تضرب الأمثال) (٢).  
وقال أيضاً في عهده إلى مالك الأشتر عندما ولّاه: (ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق) (٣).

(١) عاطف السيد، التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها ص ٦١.

(٢) الريشهري، شيخ محمد، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٨١٦.

(٣) الريشهري، شيخ محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ٤، ص ٢٣٤.

## الخاتمة

وفي نهاية بحثي المتواضع هذا، أرجو أن أكون قد وفقت في بيان بعض الأساليب والوسائل التي استخدمها الإمام علي (عليه السلام) في تربية وتهذيب المجتمع وتعليمه، وكيف شجع الناس على السير بهذا السلوك الرسالي الإسلامي، وذلك من خلال الأقوال والأفعال في منهجه النظري والعملي. ولقد ظهر لمنهجه هذا آثار كبيرة في تطوير الإنسان والرقى بمجتمعه، فركز على المدرسة التربوية والأخلاقية، فكانت له أصالة فكرية وبلاغة علوية وأساليب عرفانية ووسائل تربوية في إعداد الفرد والمجتمع مما جعل سيرته منهجاً دراسياً ومرجعاً قيماً للقيادات التربوية الصالحة في كل زمان، وكانت له دعوة مستمرة لأجل أتباعه والسير على نهجه لبناء مجتمع متطور ومزدهر قائم على الإصلاح والتنمية والتحسين الفكري والروحي.

## نتائج البحث:

وأما النتائج التي ظهرت من خلال البحث فهي:

١- إنَّ الأساليب التربوية التي استخدمها الإمام علي (عليه السلام) مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية.

٢- قد حافظ الإمام علي (عليه السلام) على الرسالة الأخلاقية التي بعث الرسول الكريم ﷺ بها من خلال تطبيقه للأساليب التربوية بشقيها النظري والعملي.

٣- إنَّ الإمام علي (عليه السلام) أخذ على عاتقه تربية الإنسان بصورة عامة، والمجتمع الإسلامي بصورة خاصة على الفضائل ومكارم الأخلاق، وهو بذلك قد أنقذهم من الغرق في وحل الجاهلية والانحرافات الشيطانية والأهواء الدنيوية.

٤ - نوع الإمام عليه السلام في استخدام الأساليب التربوية كافة بحسب الظروف والأحوال المحيطة به.

٥ - برع وأبدع الإمام في استخدام الأساليب التربوية التي كان لها التأثير في رقي الإنسان والوصول به إلى الكمالات الروحية والبدنية والمرضية عند خالقه عزّ وعلا.

٦ - أسس الإمام عليه السلام فكرة صناعة الأمل وصناعة النصر في المستقبل من خلال الصبر والحلم في إتقان العمل بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى.

٧ - ومن خلال الأساليب العظيمة التي استخدمها الإمام مع أفراد المجتمع فقد أسس نموذجاً ابتكارياً يغيّر واقع الفرد من خلال تحوله من التفكير السلبي إلى فكر إيجابي مميز مما يصنع أدوات فعالة للامة لتطويرها والنهوض بها.

### التوصيات والمقترحات:

أوصي وأقترح على أخوتي الباحثين بالأمور الآتية:

١ - تعديل النقص والخطأ - إن وجد - في بحثي هذا، لأنني معرض للسهو والنسيان والخطأ وأحدنا يكمل الآخر، ف(المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضاً).

٢ - تسليط الضوء على استخراج الأساليب التربوية من مواقف وكلمات وأدعية ومناجاة أهل البيت عليهم السلام بصورة عامة، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام بصورة خاصة.

٣ - جمع ما سلط عليه الضوء وجعله موسوعة تربوية مطبوعة تثري المكتبات الإسلامية، وتتحف أنظار الباحثين والمثقفين وجميع المؤمنين للاعتراف من الأساليب التربوية لأهل البيت عليهم السلام التي تنفع كثيراً في تغيير الفرد والمجتمع نحو الأفضل.

- ٤- المحاولة الحثيثة والجدية لتطبيق هذه الأساليب الراقية على الواقع في مجتمعنا واتخاذها منهجاً علمياً وعملياً لنفع الناس والرقى بالأمّة.
- ٥- تعميم ثقافة السلام ومصلحة الإسلام التي تجسّدت عند أمير المؤمنين عليه السلام لتكون أسلوب حياة ومنهجية عملية لحلّ الصراعات والنزاعات.
- ٦- تفعيل دور الوسائل الإعلامية في نشر القيم النبيلة التي نادى بها أمير المؤمنين عليه السلام سواء في الصحافة أو الإذاعة أو منصّات الإعلام الرقمي.

## المصادر

القرآن الكريم.

١. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية للنشر (تونس)، سنة النشر: ١٩٨٤ م.
٢. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق، تحقيق محمد باقر المحمودي، الناشر: مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر (بيروت - لبنان).
٣. ابن منظور، العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، الناشر: أدب الحوزة (إيران - قم)، سنة الطبع: ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣ ق.
٤. الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول، تحقيق علي أكبر الغفاري، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٤ هـ.
٥. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي (بيروت - لبنان)، سنة الطبع: ١٩٩٦ م.
٦. الريشهري، الشيخ محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، تحقيق ونشر وطبع: دار الحديث، الطبعة: الأولى، (قم المقدسة)، ١٣٧٦ هـ.
٧. الريشهري، الشيخ محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٥.
٨. الريشهري العلامة الشيخ محمد، ميزان الحكمة، التحقيق: دار الحديث، المطبعة: دار الحديث، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦ هـ. ق.

٩. السند، آية الله الشيخ محمد، عدالة الصحابة، المطبعة: دار المحجة البيضاء، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
١٠. الشيرازي، آية الله الشيخ ناصر مكارم، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر: قسم الترجمة والنشر لمدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) - (إيران - قم).
١١. الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
١٢. عاطف السيد، التربية الإسلامية، أصولها ومنهجها ومعلمها، المكتبة الشاملة.
١٣. العامل، الفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ هـ.
١٤. العذاري، السيد سعيد كاظم، المنهج التربوي عند أهل البيت، الناشر: مجمع جهاني أهل بيت (عليه السلام)، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٧ هـ.
١٥. الغرابي، مها نادر عبد محسن، التربية عند أئمة أهل البيت (عليه السلام)، طبع برعاية: العتبة الحسينية المقدسة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.
١٦. اللكيني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٣٦٣ ش.
١٧. المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تحقيق الميرزا أبو الحسن الشعراني، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢١ - ٢٠٠٠ م.

١٨. المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، المطبعة: مؤسسة الوفاء (بيروت - لبنان)، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
١٩. المعتزلي، بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، شرح دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٨ - ١٩٥٩.
٢٠. منتظري حسين علي، الإسلام دين الفطرة، المطبعة ارغوان دانش (إيران - قم)، سنة الطبع: ١٤٢٩ هـ - ١٣٨٧ ش.
٢١. الموسوي، السيد مصطفى، الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (عليه السلام)، تحقيق وتعليق: السيد مرتضى الرضوي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٩٥ ش - ١٩٧٥ م.
٢٢. الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، المطبعة: دار الحديث - قم. الطبعة: الأولى.

## المراجع

٢٣. من الإنترنت، موقع: (معجم المعاني الجامع)، كلمة (ربى).
٢٤. من الإنترنت، موقع: (معجم المعاني الجامع)، كلمة (قرأ).
٢٥. من الإنترنت، موقع: (موضوع)، كلمة (تربية).
٢٦. من الإنترنت، موقع مركز الابحاث والدراسات التربوية، د. محمد النمر.
٢٧. من الإنترنت، موقع: (موضوع)، كلمة (أسلوب).





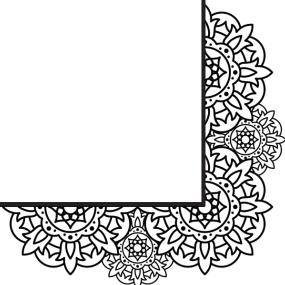


**أثر الرعية في بناء نظام الحكم  
وفق رؤية الإمام علي عليه السلام دراسة حجاجية**

الباحثة

د. رشا حسين عبد سبتي

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

(حسن السياسة يستديم الرياسة) ميزان الحكمة: ٤ / ١٨٣٨

الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر كان بعده، الذي فتح لنا من أبواب العلم بربوبيته، وصلى الله على خاتم الأنبياء النبي العربي محمد المصطفى، وآله خير الورى الطيبين الطاهرين.

وبعد....

عندما تسلّم الإمام (عليه السلام) مهام الحكم، عمل على بناء نظام حكمته وفق أسس إسلامية صحيحة وسليمة، منطلقاً من القرآن الكريم، ومقتدياً بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) في مبادئه التي وضعها في الإدارة؛ كونها قائمة على مبادئ إسلامية، تتسم بالإنسانية؛ ليس هذا فحسب، بل ترتبط برسم المعالم الصحيحة في تنظيم أمور حكومته، وتوجيهها للوصول إلى النتيجة المنشودة التي سعى الإمام علي (عليه السلام) لتحقيقها في نظام حكمته. ولما كانت أية مؤسسة حكومية قائمة على مجموعة أفراد بمختلف المسميات الحاكم أو الوالي أو الراعي، ويقابله الرعاية أو المجتمع، فاشترط أن يكونوا جميعهم مؤهلين لبناء حكومة إسلامية صحيحة، لما لهم من أثر واضح في انجاح ذلك من عدمه، فعمد إلى بناء شخصيتهم بناءً إسلامياً خالصاً. فكان توزيع المهام - أياً كان نوعها، أو هدفها، أو غايتها - بما يضمن صلاح الطرفين، فبين الإمام علي (عليه السلام) في هذا الجانب من حكومته واجب الوالي وحقوقه؛ وبالمقابل بين حقوق الرعاية وواجبها، لما لهذه الفئات من أثر فاعل في بناء حكومته من الناحية الإدارية، والأخلاقية، وما سواها.

وعند قراءة كلام الإمام علي (عليه السلام) نجده قد وسم بآليات وأساليب لغوية وبلاغية متعددة، فكانت الآليات الحجاجية بارزة في كلامه، لإلقاء الحجة على المجتمع آنذاك، والوصول إلى الغاية المنشودة؛ مما دعانا إلى دراسة بعض كلامه وفق رؤية حجاجية لغوية، تنوعت أدواتها، بين حجج، وروابط، ونتائج مضمرة وصریحة، وما سواها من الأدوات الحجاجية، فجاء عنوان بحثنا موسوماً بـ (أثر الرعية في بناء نظام الحكم وفق رؤية الإمام علي (عليه السلام) دراسة حجاجية).

ارتأينا أن نبتعد في بحثنا عن التنظير لمصطلحاته، لكثرة الدراسات السابقة التي أفاضت الحديث عن هذه المفاهيم سواء الرعية أم الدرس الحجاجي، فكان تركيزنا على الجانب التطبيقي لبلوغ الغاية المنشودة من هذا البحث. فجاء بحثنا للإجابة، الإجابة عن السؤال الآتي: ما الدور الذي تقوم به الرعية؟ وكيف أورده الإمام علي (عليه السلام) في كلامه، حتى يحقق غايته المنشودة في إقامة حكومة إسلامية؟

مما جعلنا نعمل على إيراد نصوص متنوعة من خطبه ووصاياه ورسائله التي تسفر عن دور الرعية في بناء نظام الحكم. غير أننا سنحلل بعض هذه النصوص، وليست كلها؛ لما يمليه علينا بحثنا من عدد محدود لصفحاته. ثم ختمنا بحثنا بأهم النتائج، بعدها المصادر التي نهلنا منها في بحثنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

## توطئة

إنَّ تطور نظام أية حكومة وانتعاشها سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإدارة الناجحة، من قبل الراعي/ الحاكم لهذه الحكومة؛ ومع ذلك، فإنَّ نجاح هذه الإدارة يكتمل بالجهد الجماعي المنسَّق، والمنظم بين الراعي ورعيته، وبيان وظيفة كلِّ فرد منهم، ودوره في تحقيق هذا النجاح. فالدور الذي تقوم به الإدارة من أهم عوامل نجاح الحكومة أو فشلها، ومن ثمَّ، تعدُّ من أهم أسباب نمو المجتمع، وتقدمه، أو تخلفه، وتأخره. كما يتوقف نجاح نظام أية حكومة على وجود إدارة فعالة تستعمل الطرق الصحيحة، والسليمة المرتبطة بالدين الإسلامي في اتخاذ القرارات، وفي أداء الوظائف الإدارية المختلفة.

وقد وضع الإمام علي (عليه السلام) الأسس والمبادئ في بناء نظام حكمته، وحكمه على شؤون البلاد، وكانت قائمة على أسس ومبادئ إسلامية بحتة، إذ لم يكن (عليه السلام) طامعاً بسلطة، أو ينافس من سبقه أو عاصره، إنَّما أراد أن يفْع سنن الله التي عطلت وما سواها من أمور، فيقول: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا التَّيَاسَسَ شَيْءٍ مِنْ فَضُولِ الْخُطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمُظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ) (١).

لذا نجد الإمام علي (عليه السلام) عندما تولى الإدارة، وزمام الأمور، قد خط سياسته في بناء حكمته على نهج القرآن والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فوضع الحلول، والمعالجات، والمقترحات، وفعل ما كان عاطلاً من أمور الحكم،، بعد ما حلَّ بها الخراب، فقد (شهدت الفترة التي سبقت خلافة الإمام علي (عليه السلام) مزيجاً من الفتن واضطراباً في أنظمة الحكم التي اعتمدت القوة والقسوة للتوسع وتثبيت حكمها كما اعتمدت مبدأ الأثرة في توزيع الفيء

بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ (٢) وقد افصح الإمام علي عليه السلام عن ذلك إذ قال: (قد عملت الولاية قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله ﷺ متعمدين لخلافه، ناقضين لعهد مغيرين لسنته ولو حملت الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله ﷺ لتفرق عني جندي حتى أبقى وحدي أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ (٣). نلاحظ أن الإمام في هذا القول يعرب عن ما كان يعتري الحكم من خلل، بسبب من تولّاها قبله؛ لابتعادهم عن الأحكام الإسلامية، التي جاء بها الرسول الأكرم ﷺ. فكان من أهم المبادئ التي رسمها عليه السلام، بل أكد عليها في أيام حكومته، بادئاً بها هي: بناء علاقة وطيدة بين الراعي ورعيته، وبيان لكلّ منهم حقوقه وواجباته حتى تكتمل إدارته الإسلامية الناجحة، وقد أكد ذلك بقوله: (ليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاية ولا تصلح الولاية إلاّ باستقامة الرعية) (٤) فلم يغب عن ذهن الإمام عليه السلام دور الرعية الفاعل وأهميتهم في بناء نظام حكومته، فضلاً عن أهمية إقامة علاقة سليمة وصحيحة بين الراعي ورعيته أيّا كانت فئتهم.

وقبل الشروع في إيراد النصوص الخاصة بدور الرعية في بناء نظام الحكومة في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لا بدّ من بيان مفهوم مصطلح الرعية، ومن هم الرعية؟ وما فئاتهم؟

الرعية في اللغة: إنّ (الرَّاءَ وَالْعَيْنَ وَالْحَرْفَ الْمُعْتَلَّ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْمُرَاقَبَةُ وَالْحِفْظُ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ. فَأَلَوَّلُ رَعِيَتُ الشَّيْءِ، رَقَبْتُهُ وَرَعَيْتُهُ، إِذَا لَا حَظَّتُهُ. وَالرَّاعِي: الْوَالِي). (٥)

والرعية تعني: عامة الناس الذين عليهم راع يدير أمرهم ويرعى مصالحهم. (٦)

الرعية في الاصطلاح: لا يتعد كثيراً عن التعريف اللغوي، فهو (كلّ من شمله حفظ الراعي ونظره). أي: إنّ الرعية: هم كلّ من يخضع لسلطة الوالي، وعليه يشمل كلّ من كان تحت رعاية الحاكم أمير المؤمنين عليه السلام، أيّا كان منزلته ومنصبه، وقد ذكر الإمام عليه السلام فئات

الرعية، على النحو الآتي: [الجنود، الكتّاب، القضاة، العمّال، أهل الجزية والخراج، التجّار، أهل الصناعات، الطبقة السفلى من المحتاجين والمساكين (عامة الناس)]. (٧)

وحقيقة الأمر أنّ للرعية دوراً مهماً يتوقف عليه نجاح نظام الحكم؛ فبصلاحها تستقيم الحكومة، أيّا كانت فئة هذه الرعية: (قضاة، ولاة، كتّاباً، جنوداً، فلاحين ومزارعين، تجّار... إلخ)، إذ (لا يصلح بعضها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض) (٨). فهذه الفئات التي ذكرها عليه السلام تدخل جميعها تحت مصطلح الرعية. وقد دأب الإمام عليه السلام على إصلاح هذه الفئات بكلّ مستوياتها ومن النواحي لها من خلال وصاياه، وتوجيهاته، وأقواله، ورسائله إلى هذه ولاته وعماله. فنجدّه يحرص على أن يتحلّى صاحب المنصب أيّا كان منصبه، بالرحمة واللين والرفق على من هم دونه منزلة، أو تحت رعايته، ويوصي بعامة الناس والفقراء فهم الكثرة من المجتمع، فضلاً عن الجنود كونهم حماة الدولة. أما أصحاب الخراج فهم يمثلون الجانب الاقتصادي والمالي، فانحرافهم يعني هدم اقتصاد الحكومة، بل انحراف الناس عن جادة الصواب، لأنّ الفقر آفة المجتمع، يؤدي به إلى الغش، والسرقة، والقتل، والانحراف، وهذا يفسد نظام الحكومة، وغيرهم من فئات المجتمع التي سنحاول ذكر نماذج منها في بحثنا، لنبين ما لها من دور خطير في بناء نظام الحكم أو هدمه.

ولأنّ ما جاء به الإمام علي عليه السلام من تحولات في سياسته الجديدة، وتغيرات قلبت موازين أشخاص كثر في حينها، لذا قُوبِلَ هذا التحول الجذري، بالتصدي، وعدم القبول في بادئ الأمر، لأنّهم جبلوا عليها مدة من الزمن، فليس بالشيء اليسير والهين الاعتياد عليه، مما يتوجب أن يكون الكلام الذي يوجه إليهم قوياً من الجوانب كلّها، لينصاعوا لأوامره ونواهيه وتوجيهاته عليه السلام، لعلم الإمام علي عليه السلام بخطورة الرعية - غير السوية - في هدم نظام أيّ حكم، وأيّ حاكم، إن لم يعمل على إدارة رعيته، من خلال وضع الأسس، والركائز المتينة في بناء حكومته، وعلى وفق شرائع الدين الإسلامي. لذا لحظنا أنّ نصوص

الإمام (عليه السلام) قد أعربت بنيتها عن أدوات حجاجية متنوعة، تسفر عن قدرته على التأثير في فكر المتلقي، بل جعل السامع يغير قدراته الاستدلالية بما يبتغيه المتلفظ / المتكلم، ويصل إلى درجة الإقناع والعمل بما يطلب منه، كون الحجاج من النظريات التي تعنى بدراسة طبيعة العقول، واختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة الحصول على انسجامها الإيجابي مع الطرح المقدم لها. (٩) وفي ضوء نصوصه (عليه السلام)، التي أورد فيها المبادئ التي يجب أن يتحلّى فيها الرعية، التي شكلت ملفوظاتها بعداً حجاجياً، يعمل على قبول ما يريده المتكلم، عن طريق التأثير ثم الانتقال إلى الإنجاز من قبل المتلقي على اختلاف مناصبهم. وهذا ما سيعرب عنه بحثنا فيما يأتي.

وأول ما نبدأ به من النصوص ما أورده الإمام (عليه السلام) من ذكر الحقوق المتبادلة بين الراعي ورعيته، وما سيؤول إليه هذا الحق إذا طبق، أو انتهك من أحد الطرفين، إذ يقول (عليه السلام): (حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لَأَلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ... فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بَرْعِيَّتَهُ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْأَدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ...)(١٠).

إنَّ الوصول إلى نظام إداري ناجح، يخضع لتعاليم الدين الإسلامي. لا بدَّ من مُنْهَجة سلوك الفرد سواء كان حاكماً أو محكوماً؛ إذ إنَّ «الكيفية التي يدرك الفرد بها ذاته تؤثر في الطريقة التي يسلك بها» (١١). فشخص (عليه السلام) ذلك من خلال ما أورده في هذا النص، وبين أهمية هذه الحقوق المتبادلة، وخطورتها، من خلال ما أسفرت عنه البنية اللغوية للملفوظات هذا النص، والكيفية التي أثرت فيها في المتلقي في تقبل الأمر. وقام بهذه المهمة مجموعة



ملفوظات منها المقتضى المعجمي، إذ (يستدعي هذا الأخير كلمة ما دون غيرها؛ لما تتسم به من سمات دلالية خاصة تميزها عن غيرها من الكلمات التي تقع معها في حقل دلالي واحد، لما تحمله من مقتضى معجمي لا يحملها غيرها من الكلمات فيتم الظفر بها دون سواها كي تعين المتكلم في توجيه الخطاب الحجاجي الوجهة التي يروم إليها).

فوقع الاختيار على كلمة (فرض) لما تفصح عنه هذه اللفظة من ظهور مقتضى معجمي في النص عن طريق حملتها المعجمية وهي، أن (الفرض لا يكون إلا من الله، والإيجاب يكون منه ومن غيره) (١٢) فضلاً عن ذلك، أراد عليه السلام أن يلفت النظر إلى قضية مهمة، هي بيان أن هذه الحقوق ليست من عنده أو بدعة ابتدعتها - حاشاه - إنما هي فرض من الله عز وجل لا غير، مما ساعدها للظفر في بنية النص؛ لتحقيق الإقناع بها، أكثر من غيرها. فلو أورد كلمة (أوجب) لما أعطت الدلالة نفسها، لذا كانت لفظة (فرض) مطابقة لمقتضى الحال، بل ملازمة له. فبمقتضاها المعجمي قيّدت المتلقي، وجعلته الطرف العاجز عن الرفض أو المحاجة، لأن دلالتها المعجمية نابعة من طبيعة استعمالها، وأصل وضعها.

وبعد أن بيّن المقتضى المعجمي الوظيفة الحجاجية لكلمة فرض، يأتي ليعلل عن سبب هذا الفرض، ويمكننا عدّه نتيجة على النحو الآتي:

فرض حقّ الراعي والرعية (حجة) نظاماً لألفتهم، وعزاً لدينهم (نتيجة)

وبعد أن هيأ فكر السامع، وألزمه الحجة، أردف كلامه بذكر حجج تسفر عن النتائج التي ستتحقق عند العمل بفرض الحق، مُصدراً هذه الحجج بمقتضى الشرط، هو قوله عليه السلام (فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه، وأدّى الوالي إليها حقّها...)

فجاء هذا الملفوظ الشرطي مصدراً بأداة الشرط (إذا) الموضوعه للأمر اليقينية، التي يكثر وقوعها<sup>(١)</sup>. ليس هذا فحسب؛ فهي من الأدوات التي يغلب لفظ الفعل الماضي معها، كونها أدل على الوقوع بحسب لفظه، ولأنّ الفعل الماضي من الأفعال التي كأنها وقعت، واستقرّت<sup>(٢)</sup>، مما يجعل ذهن السامع مشدوداً للنتيجة، كأنه يترقبها. فيقيد الملفوظ الشرطي / الحجة بهذه النتيجة من دون سواها، ولا يتصور غيرها، وإنها تقتضيه، وتلازمه. فكانت النتيجة قوله ﷺ: (عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ).

ويلحظ أن لحجة الشرط أكثر من نتيجة ربط الإمام ﷺ بينها برابط لساني (الواو)، الذي يفصح عن تتابع هذه الصفات التي تترتب على أثر تطبيق فرض الحق بين الراعي ورعيته، فربط النتائج المتعددة بهذا الرابط لأنّه يفيد مطلق الجمع، وهذا يدل على التأكيد والتكرار، الذي غايته مخاطبة مستويات الإدراك كلّها لدى السامع، كما كانت غايته مخاطبة أصناف المتلقين بجميع أصنافهم ومستوياتهم<sup>(٣)</sup>، فتبلورت على النحو الآتي:

← عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ  
 ← وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ  
 ← (فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا...) وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ  
 ← وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ  
 ← طُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ  
 ← وَيَسَّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ

(١) ينظر: معاني النحو، فاضل السامرائي: ٤ / ٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤ / ٦٥.

(٣) تداولية الضمني والحجاج: ١٨١.

وهنا أفصح الإمام (عليه السلام) أن الرعيّة -وهي مدار بحثنا- إن أدّت حقّ الراعي، وفي الوقت نفسه الراعي أدّى حق رعيته، ستكون نتيجة هذا الأمر خيراً، لنظام حكومة قائمة على فرض الله جلّ وعزّ.

ويُلاحظ أن الإمام (عليه السلام) استمر ببيان مراده بملفوظ الشرط، أي إذا خالف الرعية أو الراعي هذا الفرض الذي فرضه الله عز وجل فتكون النتيجة مخالفة للحجة السابقة ونتائجها، فيقول (عليه السلام): (وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بَرْعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْأَدْعَالُ فِي الدِّينِ، وَتَرَكْتَ مُحَاجَّ السُّنَنِ فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ.... فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ...). وسنبين ذلك من خلال المخطط الآتي:



فيما تقدم نلاحظ خطورة انحراف الرعية عن الحق الذي فرضه الله عز وجل وما سترتب عليه من آثار وخيمة، تفسد نظام الحكومة التي يريدّها الإمام (عليه السلام).

وُفِيصَحَّ (عليه السلام) في موضع آخر عن دور الرعية في بناء نظام حكومته، بل أَيْة حكومة تأتي بعده، من خلال وصيته لملك الأشتر بالعناية بالعامّة من الرعية دون الخاصّة، إذ رضاهم يعمل على ثبات نظام الحكومة، فضلاً عن كونهم الكثرة، فبهم الغلبة في مجابهة أيّ ضرر يلحق الدولة، ويزعزع أمنها. فيوصي (عليه السلام) بقوله: (إنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضا العامّة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقلّ معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف... من أهل الخاصّة).<sup>(١)</sup>

ميّز الإمام (عليه السلام) في هذا النصّ بين فئتين من الرعية هم الخاصّة والعامّة، وذهب إلى أنّ (رضا العامّة) أفضل من (سخط الخاصّة). وقد أفصح عن ذلك من خلال ملفوظ إثباتي تقريريّ، يعدّ من الملفوظات الإخبارية الإنجازية، التي تكون قوتها حتمية الوقوع، ومن المسلّمات عند المتلقي. غير أنّ هذا الملفوظ قد صدر بـ(إنّ)، وهي أداة تؤكد تتسم بوظيفة إثبات هذا الأمر في ذهن السامع؛ ليدلّ على أنّه لا يقتصر على مفهومه الخبري فحسب، بل تأكيد أمر في غاية الأهمية، وأتمّها واجبة الشخص المسؤول. ثم بعد ذلك يأتي الإمام (عليه السلام) يبين سبب ذلك التمييز بقوله: (إنّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامّة من الأمة، فليكن صفوفك لهم، وميلك معهم)<sup>(٢)</sup>.

وظّف الإمام (عليه السلام) في تعليقه لهذا التمييز أحد العوامل الحجاجية التي تضمن للنصّ وظيفته الحجاجية، وعملية التوجيه التي لا تتمّ من دون هذا العامل وما سواه.<sup>(٣)</sup> فأكد من

(١) نهج البلاغة: ٨٦ / ٣.

(٢) المصدر نفسه: ٨٦ / ٣.

(٣) ينظر: تداولية الضمني والحجاج، عزّ الدين الناجح: ٢٧.

خلال هذا العامل وقصر كل احتمالات السامع من ما يرد في ذهنه، من خلال بيان مراده، كما موضح على النحو الآتي:

إنّما + (عماد الدين، جماع المسلمين، و العدة للأعداء) = قائم على فئة العامة من الرعية. يستمر بتوجيه المتلقي للالتزام إلى ما ذهب إليه من تمييز فئة العامة من الرعية على فئة الخاصة، عن طريق الرابط (الفاء)، وهو من الروابط التي تدلّ على ضمّ الشيء إلى الشيء؛ إلّا أنّه يجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض<sup>(١)</sup>، فدلالته أفادت التعقيب والتخصيص من أنّ فئة العامّة هم من يجب أن تصفو لهم وتميل معهم لأنهم هم من سيكونون معك في ترسيخ عماد الدين وجماع المسلمين والوقوف بوجه الأعداء. فكان النصّ مرتبطاً بشكل متسلسل؛ مما يقوي حاجيته؛ لشدة ترابطه، موظفاً في ذلك الملفوظ التوجيهي (ليكن) الذي يملك طاقة حاجية مباشرة وعالية لما يتضمن من قوة إنجازية تلزم المتلقي بالأمر في الصفو لهم والميل معهم. ويمكن عدّ هذا الملفوظ التوجيهي حجة نتيجته سابقة عليه، كما موضح في المخطط الآتي:

فليكن صفوك لهم، وميلك معهم (حجة) لأنهم عماد الدين، جماع المسلمين، والعدة للأعداء ويستمر الإمام علي (عليه السلام) في بيان دور الرعية في نجاح الحكومة، وذلك من خلال بناء علاقة سليمة بين الحاكم ورعيته. وقد أكّد ذلك عن طريق إلزام المسؤول بسمات معينة، يجب أن يتّسم بها؛ من ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، ما أوصى به محمد بن أبي بكر، إذ يقول (عليه السلام): (اخفض لهم جناحك، وألنّ لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة؛ حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا يئأس الضعفاء من عدلك عليهم)<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: الكتاب: ٤ / ٢١٧.

(٢) نهج البلاغة: ٣ / ٢٧.

يلحظ في سياق هذا النصّ أنّ الإمام (عليه السلام) قد أورد مجموعة سمات، يشترطها في فئة معينة من الرعية، وهم من يتولون منصباً معيناً في حكومته، ويوجب عليه أن يتحلّى بها، لما ستؤول إليه هذه السمات من نتائج إيجابية في مدة إدارته تدعم نظام الحكم، القائم على مبادئ الإسلام. لذا نلاحظ أنّه وُظِّفَتْ ملفوظات توجيهية ذات قوة حجاجية عالية، جاءت متتالية، تتناسب والسمات التي اشترطها الإمام (عليه السلام). فصُدِّرَ النص بملفوظ الأمر، تكمن قوته الإنجازية بالمباشرة بتنفيذ الأمر، ويستمرّ النصّ بإيراد التوجيه الإلزامي لهذه الفئة من الرعية بملفوظ الأمر (اخْفِضْ، أَلِنْ، ابْسُطْ، آسِ) وهذه الملفوظات المتتالية تتطلب توظيف رابط حجاجي يجمع بينها. لذا نلاحظ توظيف الرابط التساندي (الواو)، الذي من وظائفه إشراف الملفوظات في الحكم نفسه، مما جعله يعمل على ربط الحجج المتساوقة، التي تتجه نحو النتيجة نفسها. فربط المتكلم بين مجموعة الحجج الواردة في النص؛ ليصل بهذه الحجج إلى نتيجة مشتركة بينها، تمثلت بنتيجة مضمرة (حسن معاملة الوالي للرعية) ..

ليس هذا فحسب بل يظهر لنا النصّ أنّ هذه الملفوظات المتتالية التي أسفرت عن نتيجة مضمرة يمكن عدّها نتيجة مقدمة لحجة متأخرة عنها ظاهرة في النصّ، كما موضح في المخطط الآتي:

(حتى لا يطمع العظماء... ولا يئأس الضعفاء...) (اخْفِضْ... وأَلِنْ... وابْسُطْ... وآسِ...)

يواصل الإمام (عليه السلام) تأكيد حسن التعامل مع الرعية - كونهم يمثلون دوراً خطيراً على ثبات نظام الحكم وصلاحيته - وخاصة من قبل المسؤول عن أمورهم، وأحوالهم، وأمر بعدم الابتعاد، والاحتجاب عنهم؛ لأنّه يؤثّر سلباً في نظام الحكم؛ كونه يؤدي إلى انتشار (التكهّنات وترويع الظنون، وحرمان أصحاب الحاجات والمظالم من أن يصل صوتهم إليه، فضلاً عن أنّه يحول دون وقوفه على شؤونهم وأحوالهم)<sup>(١)</sup> لذا نجده يوصي ولاته

(١) السياسة الإدارية عند الإمام علي (عليه السلام) قراءة في (عهد التولية) لمالك الأشتر، صاحب أبو جناح: ٤

بقوله (عليه السلام): (لا تُطوّلنّ احتجاجك عن رعيّتك؛ فإنّ احتجاج الولاية عن الرعيّة شعبةٌ من الضّيق، وقلةٌ علمٍ بالأُمور)<sup>(١)</sup>.

يدأب الإمام (عليه السلام) على توظيف أفعال الأمر والنهي وما سواها في توجيهاته وتوصياته، كون هذه الأفعال تمثل ملفوظات إنجازية ذات قوة حجاجية عالية، فوظف ملفوظ النهي (لا تطوّلن) في هذا النصّ، الذي تكمن قوته الإنجازية في الجزم بالزامهم بعدم الاحتجاج عن الفئة العامة من الرعية، فالقيمة الحجاجية للملفوظ (لا تُطوّلنّ احتجاجك عن رعيّتك) تكمن في وجوب عدم الاحتجاج، فضلاً عن إسداء النصّ والإرشاد لمن يتولى منصباً.

يسترسل الإمام (عليه السلام) في بيان أثر هذا الاحتجاج، وما سيسفر عنه من آثار سلبية تؤثر بشكل غير إيجابي في نظام الحكومة. فيقول: (إنّ احتجاج الولاية عن الرعيّة شعبةٌ من الضّيق، وقلةٌ علمٍ بالأُمور). صدر هذا الملفوظ بأداة التوكيد (إنّ) التي تجعل الملفوظ يصنف تحت صنف الأفعال الكلامية الإثباتية التقريرية، التي تكون قوته مباشرة، تعمل على زيادة شدّة الغرض المتضمن في الملفوظ المنهي عنه؛ ليثبت في ذهن السامع سلبية هذا الاحتجاج؛ ليس هذا فحسب، بل إنّ التأكيد في هذا النصّ سيق مساق التعليل، إذ إنّ - أي الاحتجاج - ممّا يبغضه الرعية لما يسببه من ضرر معنوي ومادي لهم وللراعي نفسه أيضاً. وبذا أصبح المضمون القضوي الذي أفاده هذا التوكيد حجة على عدم الاحتجاج، ويعدّ الملفوظ الذي سبقه نتيجة متقدمة على الحجة، كما موضح في المخطط أدناه:

إنّ احتجاج الولاية عن الرعيّة... (حجة) إذن / لا تُطوّلنّ احتجاجك عن رعيّتك.

ولما لهذا الأمر - أمر الاحتجاج - من أثر عظيم في الرعية، ممّا يجعلهم يثرون على المسؤول ويزعزون نظام الحكم، ممّا يتسبّب بعدم السيطرة عليه، يؤكد (عليه السلام) في موضع آخر

(١) نهج البلاغة: ٣ / ١٠٠.

أهمية التواصل مع الرعية، ولا سيما أصحاب الحاجات، فيقول (عليه السلام): (واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتبع...) (١). أيّاً كان صنف الرعية، أو طبقته، يجب أن تكون من أولويات الحاكم الأساس لدى الإمام علي (عليه السلام)، هم الرعية وحقوقهم؛ لذا دعا كلّ من يتولّى منصباً إلى مراعاة الرعية بمختلف أصنافهم وطبقاتهم وأديانهم؛ فهم (إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) (٢).

يسترسل (عليه السلام) في وصاياه ورسائله ببيان أهمية مراعاة الرعية في أمورهم جميعها، ولا سيما مراعاة الأمور المادية، لأنّ تفشي الفقر في أيّ مجتمع يعدّ خلافاً في إدارة الحكم، ويستشري الفساد والتمرد وعدم الانصياع لأوامر الراعي، بل عدم التمسك بالقيم والمبادئ الإسلامية. لذا أكد ضرورة تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، كونه سيؤدي إلى صلاح نظام الحكم والعيش برفاهية وأمن وطمأنينة، فيقول (عليه السلام):

(تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم، لأنّ الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.) (٣) يمثل الملفوظ في بداية النصّ إعلاناً عن تغيير ما كان سائداً من تفشي إهمال أمر الخراج أو إجحاف هذا الأمر قبل تولي الإمام (عليه السلام) زمام الحكم، فكانت القضية هو إعلان إنصاف هذا الموضوع، والملفوظ (تفقد) هو من يمثل الفعل الإعلاني الذي تكمن قوته الإنجازية/ الحجاجية في إعلان حكم وتهذيب أمراً كان سائداً في الحكومات السابقة؛ بل يمكن عدّ هذا الملفوظ الإعلاني ملفوظاً توجيهياً، يتضمّن فعل الأمر، أي بمعنى (للتفقد...)؛ لأنّ إخراج الأمر في

(١) نهج البلاغة: ١٠٢/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٨٤/٣.

(٣) نهج البلاغة: ٩٦/٣.



صورة الخبر تأكيد له، وإشعار بأنه يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله؛ فكأن السامع امتثل لأمر التفقد/ أي: تفقد أمر الخراج، فهو يخبر عن شيء موجود<sup>(١)</sup>. ثم يواصل عليه السلام كلامه موضحاً أهمية هذا التفقد للخراج وما سيترتب عليه من آثار إيجابية، فيقول: (إنَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم) بدأ الملفوظ بالأداة (إنَّ) الدالة على التوكيد، لينبئ عن أنَّ هذا التفقد في حال الخراج وأهله لا يقتصر على الإخبار به فحسب، بل يؤكد حقيقة هذا الموضوع وأهميته. ويستمر عليه السلام بتأكيد هذه الحقيقة، فأورد ملفوظ القصر بالنفي (ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم) لزيادة طاقته الحجاجية لما يتضمنه من الدلالة على أنَّ ارتباط صلاح الرعية عامة بصلاح الخراج وأهله. فنلاحظ أنَّ هذه الملفوظات الحجاجية قد تضافرت، للوصول لهذه الدلالة المطلوبة، وقد تمثلت في نصَّ الإمام علي عليه السلام على النحو الآتي: (ملفوظ توجيهي (تفقد/ الأمر) + ملفوظ إثباتي (تمثل بالأداة إنَّ) + ملفوظ القصر بالنفي).

(حجّة) صلاح الخراج وأهله / نتيجة/ صلاح الرعية ونظام الحكم.

ويعلّل عليه السلام سبب هذا التأكيد بقوله: (لأنَّ الناس كلهم عيال على الخراج وأهله)، فافتصاد الدولة دعامته الأساس هو الخراج وأهله، والرعية قائمة رفاهيتهم من عدمها عليه، فإن فسد تزعر استقرار الرعية والدولة ودبَّ الفساد من سرقة وفقر، وتفشَّى التمرد على الحكم القائم. لذلك أكّد عليه السلام إصلاحه، وترك ما كان سائداً قبله من ظلم، وإهمال لهذا الأمر.

ومن نافلة القول، أنَّ الإمام عليه السلام لم يترك شاردة ولا واردة تخصّ الرعية بمختلف طبقاتهم إلاّ هذبها ووجهها الوجهة الصحيحة، فنلاحظ أمر التجار مثلاً أوصى بهم لأنَّ هذه الفئة من الرعية إذا أصابهم أي خلل سينعكس بشكل سلبي على نظام الحكم، كونهم

(١) ينظر: الكشف: ٢٦٩/١.

من الفئات التي (تتحكم بتوفير السلع وحركتها بين الناس، فإذا ما صلحت هذه الطبقة صلحت أحوال الرعية)<sup>(١)</sup>، وعليه تصلح الحكومة، ويترف البلد. وكذلك الحال بالنسبة لبقية فئات المجتمع من جنود وعمّال وكتاب، والمساكين والفقراء إلخ، التي لا غنى لبعضها عن بعض، ولا يصلح بعضها إلّا ببعض، غير أنّ المقام لا يسع لإيرادها جميعاً.

لذا يوصي الباحث بدراسة مفهوم الرعية في نهج البلاغة على النحو الآتي:

الحقوق والواجبات بين الراعي ورعيته دراسة في ضوء الخطاب الإشهاري. كون الإشهار هو إعلان والإمام عليه السلام أعلن عن نظام حكم قائم على مبادئ إسلامية، بعد أن عطلت في الحكومات السابقة.

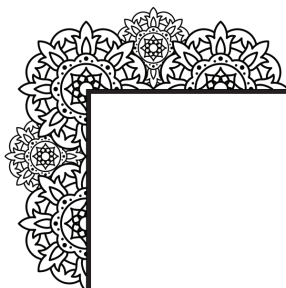
طبقات الرعية في نهج البلاغة دراسة في ضوء السلم الحجاجي، كون الإمام ربّ طبقات المجتمع على وفق دورها في إقامة نظام الحكم الذي خطّه عليه السلام، وكيفية إصلاحها؛ لما دبّ فيها من خلل بسبب الحكومات السابقة.

### نتائج البحث

١. أكّد الإمام مراعاة فئات المجتمع جميعها؛ أيّا كان منصبه، أو طبقته، أو فئته، مادياً ومعنوياً وجسدياً وثقافياً، لما لهذه الفئات من ارتباط ببعضها ببعض، وبصلاحها يصلح الكلّ والعكس صحيح.
٢. للرعية دور خطير في بناء نظام الحكم؛ لذا فرض الله عليهم الحقّ في اتّباع الراعي لأنّ في ذلك نظاماً لألفتهم وعزّاً لدينهم.

(١) صلاح الراعي والرعية قراءة في عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر ٩٣.

٣. تجنب من يتولى منصباً الاحتجاب والخيلاء والغضب وعدم العدل، والاتصاف بالحلم وحسن التعامل والتقوى والحق.
٤. أكد عليه تحسين العلاقة بين الراعي والرعية، لما ستؤول إليه من نتائج إيجابية أو سلبية، تؤثر في بناء نظام الحكومة وديمومتها، لكل الأزمان.
٥. عند قراءة كلام الإمام علي عليه السلام فيما يخص موضوعنا مدار البحث، نلاحظ أن خطبه ووصاياه ورسائله كانت لجميع فئات الرعية؛ أيًا كانت طبقة هذه الرعية، لما لهم جميعاً من أثر في بناء نظام الحكم.
٦. أسفر كلام الإمام علي عليه السلام عن وجود نمط حجاجي سائد فيه، إذ ترد حجة ونتيجة، ثم تذييل بملفوظ يمكن عدّه حجة أو نتيجة لما سبقه؛ من باب التأكيد أو التعليل، وإثبات وتقرير ما يروم إليه عليه السلام من تقريره في ذهن السامع.
٧. لحظنا ورود مكونات لغوية، كالرابط الحجاجي (الواو، الفاء) مثلاً، ثم يعضد بمكونات لغوية، هي تمثل حجة أو نتيجة تساند النتيجة نفسها، أو نتيجة أخرى؛ لبيان أهميتها، والمتلقي، والتأكيد على إلزام السامع بإنجاز ما يبتغيه المتكلم منه..
٨. بنية النصّ لكلامه عليه السلام وظفت آليات حجاجية مختلفة، كان للأفعال التوجيهية، والإثباتية الحضور الفاعل فيها، لما تتميز به من قوة إنجازية، وحجاجية مباشرة، تقيّد جميع الاحتمالات المتعلقة بإنجاز العمل؛ ليس هذا فقط؛ بل لأنها تعتمد بشكل رئيس على السامع في إنجاز ما مطلوب منه.

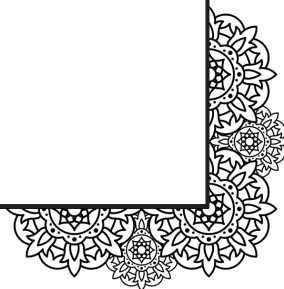


**المنهج التربوي عند الإمام علي عليه السلام**  
**ودوره في بناء الشخصية الإنسانية**  
**(كتاب نهج البلاغة أنموذجا)**

الباحثة

د. ريماء حسين أمهز

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها  
الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وصيّرهُ نسخة لما أوجده من عوالم الإمكان، أظهر فيه عجائب قدرته القاهرة، وأبرز فيه غرائب عظمته الباهرة، جمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل، وحثه على تحسينها بعدما سهّل له السبيل ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾<sup>(١)</sup>، فحباه العقل الذي هو أكرم ما يمنح ويحیی، به يعرف نفسه ويعرف ربّه ويبصر طريقه، وبه يدرك الحسن والقبيح، والخير والشرّ وما الذي ينبغي عليه أن يأتيه أو يجتنبه.

واقتضت سنة الهداية الربّانية أن يُسند الله عقل الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، ومن خلال الرّواد الهداة الذين اصطفاهم سبحانه وتعالى بعينه لتوليّ مسؤوليّة هداية العباد وتربيتهم، وإرشادهم إلى تفاصيل المعرفة التي تضمن لهم سلامة البصيرة والرؤية كي تتمّ عليهم الحجّة، فسلک الأنبياء السابقون وأوصياؤهم المصطفون طريق الهداية الدّامي، واقتحموا سبيل التربية الشّاق، وتحملوا في سبيل أداء المهمّة الرّساليّة كلّ ما يمكن أن يقدمه الإنسان المتفاني في مبدئه وعقيدته، ولم يتراجعوا لحظة، ولم يتلکؤوا طرفة عين.

وقد توجّ الله جهودهم وجهادهم المستمرّ على مدى العصور برسالة خاتم الأنبياء، صفوة الصّفوة المنتجة، وأنموذج التربية الإلهيّة، المصطفى الأمي، الأمين المأمون، محمّد بن عبد الله ﷺ الذي أوتي جوامع الحكم، وبُعث لتتميم محاسن الأخلاق والشّيم، فأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً، وبعثه مستقلاًّ بأعباء الرّسالة داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً،

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

فختم به النبوة والرسالة، وبدأ الولاية من أخيه وردئه، وخليله، وفرع صنو أبيه، وصيه الرضي المرتضى، سيد الوصيين، وإمام البررة المتقين، يعسوب الدين، ومبين مناهج الصدق واليقين، باب مدينة العلم المخزون، ومنار الجود والإحسان، ومثار الحكمة والعرفان، الواقف على دقائق أسرار القرآن، والمطلع على لطائف معاني الفرقان، وغوامض الحكم والعلوم، وما هو منها كهيئة المكنون، جناب ولاية المولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فقد خصه الله بالفضائل المتلألئة الأنوار، والمناقب العلية المنار، والمآثر الكريمة الآثار، والمكارم الغائضة التيارات، والمقامات الطاهرة الأقدار، والكرامات الوسيعة الأقطار، والمراتب الرفيعة الأخطار، وأنزل في حقه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾<sup>(١)</sup>، تعظيماً لشأنه، وتكريماً وتوقيراً لمحله، وتوقية لحق ولايته الواجبة.

لقد تجاوزت مزايا الإمام علي عليه السلام الحدود المألوفة، فكان أمة مستقلة تحكي عقيلة الدهر، وتعبّر عن نضج الزمان، وتصوّر نهاية المراحل من سمو البشرية وقمة المجد. فبرز وجهه عليه السلام في هالة من رسالة، وفي ظل من نبوة، فاضتا عليه انسجاماً واكتمالاً كما احتواهما لوئاً وإطاراً.

هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي عليه السلام، فإذا هو الإمام في الأدب والبلاغة، والعفة والصدق، والزهد والجود والتقوى والإيمان، والحق والعدالة، والحب والخلاص، والحزم والعزم، كما هو الإمام في ما علم وهدى، وآيته في ذلك «نهج البلاغة» المنبثق عن روحه لتعليمنا وتربيتنا نحن الراقدين في حوض الذات، والغارقين في حجاب الذاتية والأنانية، فهو المنهل العذب لكل عشاق الحقيقة، في أجمل تعبير إنساني

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

عنها، يردونه ويصدرون عنه بما ينور عقولهم، وينضّر قلوبهم، ويهذب نفوسهم، ويرقى بذوقهم، وبيانهم، ويعبّد لهم الطريق إلى أعمق أسرار القرآن الكريم، وأبعاد شخصية الرسول العظيم ﷺ، وإلى سعادة الدنيا والآخرة. فهو ليس كتاب بلاغة فحسب، بل هو في الوقت نفسه نهج جهاد ونهج حياة ونهج فلاح، يحكي طرفاً من أطراف صاحبه وفكره وروحه، وسيرته وسريته، وخلجات نفسه وسنن هديه.

إنّه من أعلى المصادر الإسلامية شأنًا في الثقافة الإسلامية، فهو الجامعة الرحمانية في الأرض، التي تتولّى التدريس فيها ملائكة السماء، فتخرج من صفوفها أفواج العارفين المهتمدين المسترشدين برؤية الحقائق المجردة واللطائف المؤكدة.

هذا الكتاب القدسيّ الذي ألفه وجمع أشتاته ومتفرقاته الشريف الرضيّ السيّد أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الموسوي طيّب الله ثراه، كان وما زال نصّاً مفتوحاً قابلاً للقراءة واستمداد الرؤى والتصورات المختلفة في شؤون الحياة كافة؛ ففيه من العلوم الإلهية والكونية والغيبية، والرياضية والتربوية والتعبوية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ناهيك عمّا اشتمل عليه من الأغراض النوعية الأخرى كالبدنية والمعاشية والتعاشية، والتعاملية والاقتصادية والاجتماعية، وما إلى ذلك من ترغيب يجلو لك الجنة بحورها وولدانها، ومن ترهيب يستثير عليك النار بجحيمها وسعيرها، ممّا يزيد الباحثين قناعةً باستجلاب الوعي المكنون فيه، والكشف عن منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في عزمه وشدة حرصه لحمل الولاية والأمة على خلائقه المثلى، والمحجّة البيضاء، وسوقهم إلى الحقّ والهدى على صراط مستقيم.

من هنا كان هذا البحث لتجليّ بريق ناحية من هذه النواحي الخارقة في نهج البلاغة، لأنّ استقصاء مختلف الشؤون ومتنوع الأغراض هو أبعد من أن يحصى وأنّأى من أن

يستقصى، فلو أن المرء أوتي فصاحة سحبان وقس بن ساعدة لما استطاع أن يعطى ناحية واحدة حقها، ويلم بجوانبها ويفصح عن مكنوناتها مما كان عليه أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (عليه السلام). لذلك اقتضت دراستي في هذا البحث المتواضع على الإضاءة على الجانب التربوي في هذا السفر الجليل، والاستفادة من فكر الإمام علي (عليه السلام) في محاولته لتأسيس فهم تربوي أصيل قادر على بناء جيل صالح، على أسس صحيحة وسليمة وهادفة من القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية والمعايير السلوكية والعقلية والنفسية، وذلك للسير به على طريق التكامل الروحي والمادي وتفعيل وجوده الحيّ الفعّال والمنتج، وضمان سعادته في الدنيا، كمقدمة لسعادته في الآخرة.

ولذلك تمحورت إشكالية البحث في هذه الدراسة، حول الإجابة عن السؤال الآتي:

ما هي الأساليب التربوية التي اعتمدها الإمام علي (عليه السلام) لبناء الشخصية الإنسانية المثالية بأبعادها السلوكية والأخلاقية والعقلية والنفسية كما ورد في نهج البلاغة؟

وللإجابة عن هذه السؤال، رأيت أن أصدر للبحث بمقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وكان المبحث الأول مهاداً نظرياً عرضت فيه لمفهوم المنهج لغة واصطلاحاً، ولمفهوم التربية لغة واصطلاحاً؛ وكذلك تعرّضت إلى معناها ومفهومها في نهج البلاغة. وتناولت في المبحث الثاني الأساليب التي اعتمدها الإمام (عليه السلام) في التربية السلوكية الأخلاقية، وأشارت في المبحث الثالث إلى الأساليب التربوية المتعلقة بالتنمية العقلية، وفي المبحث الرابع إلى الأساليب المتعلقة بالتربية النفسية التي تبني شخصية الإنسان المثالي، كما كان يصبو إليه الإمام علي (عليه السلام). أمّا الخاتمة فقد كانت لذكر أهم النتائج التي توصل إليها البحث.



## المبحث الأول مهاده نظري

### أولاً: مفهوم المنهج

#### المدلّول اللّغوي:

المنهج في اللّغة مصدر (نهج)، طريق نهج بيّن واضح.. وأنهج الطّريق: وضع واستبان وصار نهجاً واضحاً بيّناً<sup>(١)</sup>، وقد وردت في مجمع اللّغة بمعنى «الطّريق الواضح البيّن، والمنهاج في الدّين: الطّريق البيّن لا لبس فيه ولا إبهام، ويستمرّ عليه النّاس ويسيرون<sup>(٢)</sup>». و«فلان يستنهج نهج فلان أي يسلك مسلكه<sup>(٣)</sup>».

وهكذا نستنتج أنّ أصل المنهج في اللّغة يدور حول معنى الطّريق والسّبيل الواضح المستقيم.

#### المدلّول الاصطلاحي:

في الاصطلاح، المنهج هو «مجموعة القواعد التي يقف عليها الإنسان للدّخول إلى استنباط حقائق أو عقائد معيّنة، أيّ الكشف عن طبيعة القواعد التي نعتد عليها لفهم الواقع. فقد نعتد القواعد العقلية لاكتشاف الواقع، أو نعتد النّصّ طريقاً إليه، أو مكاشفة العارف سبيلاً إلى اكتشاف الواقع<sup>(٤)</sup>». وهو أيضاً: «الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامّة تهيمن على سير العقل، وتحدّد عمليّاته حتّى يصل إلى نتيجة معلومة<sup>(٥)</sup>».

(١) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ٢ / ٣٨٣.

(٢) مجمع اللّغة، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ٢ / ٣٧٥.

(٣) ابن منظور، م. س. ٢ / ٣٨٣.

(٤) الحيدري، سيد كمال، منهاج المعرفة عند الإسلاميين، ص ٣١١.

(٥) الفضلي، أصول البحث، ص ٤٩.

### ثانياً: مفهوم التربية:

عند الحديث عن التربية، لا بدّ لنا من أن نتطرق إلى المدلول اللغوي لهذه الكلمة، ثمّ نعرض لتعريفات بعض التربويين الذين اختلفت تعريفاتهم وفقاً لاختلاف وجهات نظرهم ورؤاهم الفلسفية، لنصل بعدها إلى معنى ومفهوم التربية في نهج البلاغة.

### المدلول اللغوي:

التربية في اللغة مأخوذة من ربى ولده، والصبي يربه، رباه أي أحسن القيام عليه حتى أدرك<sup>(١)</sup>. وتعني الزيادة والنشأة والتغذية والرعاية والمحافظة والتنمية، وأصل هذه الكلمة من الفعل «رَبَوَ» أي «زاد ونما»<sup>(٢)</sup>. وربا الجرح: ورم؛ وزبد رابٍ: منتفخ. وتستعمل مجازاً بمعنى التهذيب وعلو المنزلة، فيقال: فلان في رباوة قومه أي في أشرافهم. وفي القرآن الكريم «وَيُرَبِّي الصِّدِّقَاتِ» أي يزيدها ويضاعفها<sup>(٣)</sup>. وتربى: تنشأ وتقوى وتثقف<sup>(٤)</sup>.

وقد اشتقت هذه الكلمة أيضاً من رب وليس ربا: رب ولده، والصبي يربه (رباه) أي أحسن القيام به حتى أدرك ورب القوم أي ساسهم<sup>(٥)</sup>. و«لك نعمة تربها»، أي تحفظها وتراعيها وتربيها كما يربي الرجل ولده. وترباه: أحسن القيام عليه ووليّه حتى يفارق الطفولية كان ابنه أو لم يكن<sup>(٦)</sup>.

(١) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، ص ٤١، عن تاج العروس، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) لويس المعلوف، المنجد في اللغة، ص ٢٤٧.

(٣) الزنجشيري، أساس البلاغة، ص ٢١٩.

(٤) الحسيني، محمد مرتضى، المعجم الوسيط، ص ٣٢٦.

(٥) الزبيدي، تاج العروس، ص ٢٦١.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ص ٤٠١.

وقد استعمل في معنى فعل يربّي إلى جانب يتعهّد، يعتني، يزيد... فعل «يدجن» أي يجعل شيئاً ما أليفاً<sup>(١)</sup>.

ويرى الرّاعب الأصفهاني أنّه نظراً إلى الجذرين اللّغويين لكلمة تربية، فإنّ جذرها «رَبَوَ» يعني التّغذية والتّنمية بمفهوميهما الجسدي، وجذر «رَبَبَ» هو إنشاء الشّيء حالاً فحالاً إلى حدّ التّمام بمفهوم النّموّ الجسدي والمعنوي معاً<sup>(٢)</sup>.

ويمكننا أن نخلص من كلّ هذه المعاني بالقول: أنّ التّربية بالنّسبة للموجود الحيّ تعني تهيئة الأرضيّة المساعدة لنموّ القابليّات والملكات فيه، كما هو الحال في زراعة الورود والأشجار، فيتغيّر من حال إلى حال أفضل.

### المدلول الاصطلاحي

رأى «أفلاطون» أنّ التّربية «هي إعطاء الجسم والروح كلّ ما يمكن من الجمال، وكلّ ما يمكن من الكمال»<sup>(٣)</sup>. وأنّها طرق ووسائل لتنشئة الطّفل وتكوينه وتكميله على النّحو المراد، وذلك بطريقة التدريس والتّنشئة على الأسس العلميّة<sup>(٤)</sup> ورأى «أرسطو» أنّ «الغرض من التربية هو أن يستطيع الفرد عمل كلّ ما هو مفيد وضروري في الحرب والسلم، وأن يقوم بما هو نبيل وخير من الأعمال ليصل إلى حالة السعادة»<sup>(٥)</sup>. «أنّ التّربية تتمّ عن طريق الاعتياد على المبادئ المعنيّة، وقد عرّف ابن سينا التّربية على أنّها عادة، وأعني بالعادة فعل الشّيء الواحد مراراً وزماناً طويلاً في أوقات متقاربة.

(١) أديب صعب، ص ١١٧.

(٢) الرّاعب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٣٦.

(٣) سليمان، كامل والعبد الله، علي ١٩٦٥،: التربية، مطبعة صادر، بيروت، ص ١٧٦-١٧٧.

(٤) أفلاطون، جمهوريّة أفلاطون، ص ١٢١-١٢٧.

(٥) م. ن. ص ن.

(٦) أرسطو، علم الأخلاق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

أمّا دور كايم فقد قال: «التربية هي تكوين الطفل تكويناً اجتماعياً<sup>(١)</sup>»، فجعل هدفها خارج الطفل المتربّي، في حين ركّز هاربرت على ذات الطفل المتربّي فرأى أنّها «تكوين الفرد من أجل ذاته بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة<sup>(٢)</sup>».

وقد رأى جون ديوي: «إنها عملية صوغ وتكوين لفعاليّة الأفراد ثم صبّها لها في قوالب معيّنة، أي تحويلها إلى عمل اجتماعي مقبول لدى الجماعة<sup>(٣)</sup>». ورأى أنّ البيداغوجيا علم التربية، ويعبر عنه أحياناً بأنّه النّظرية العلميّة للتربية.

ويقول الغزالي: «ومعنى التربية، يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسن نباته ويكمل ريعه<sup>(٤)</sup>».

يمكن أن نستنتج من هذه التعريفات أنّ هناك ثلاثة فروع للنظريات التربويّة؛ الفرع الأول يبحث في الجانب التّنموي وإزالة التّخلف. والفرع الثاني يبحث في الجانب التّثقيفي للفرد، وتطوير إمكانيّته إلى أقصى الحدود. أمّا الفرع الثالث فيبحث في الجانب الخارجي، أي في علاقات التربية مع المجتمع فيكون هدفها تدريب المواطن النّافع.

والتربية في وقتنا الحاضر تهدف إلى تربية شاملة متّسقة تؤدّي إلى تكوين إنسان كامل لا طرف إنسان، تشمل كلّ ما يؤثّر في بناء الأخلاق، سواء صدر من الإنسان نفسه أم من غيره؛ أي إنّها أصبحت متأثرة إلى حدّ بعيد بثقافة المجتمع الذي تحيا فيه، ومؤثرة فيه في آن.

(١) رونيّه أوبر، التربية العامّة، ص ٢٣.

(٢) م. ن. ص ٢٢.

(٣) ديوي، جون، ١٩٧٠، الديمقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوي، وزكريا ميخائيل، ج ١، طبعة محدّدة لأغراض دراسية، بيروت، ص ١٢.

(٤) الغزالي، ١٩٥١، رسالة أيها الوالد، ترجمة توفيق الصباغ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص ٣٧.

ومهما عرضنا لتعريفات جاء بها الفلاسفة والتربويون، قديمة كانت أو حديثة، فإننا لن نجد فلسفة تربوية أفضل مما جاء به الإسلام، لأنها تهدف إلى إعداد الإنسان المسلم للدنيا والآخرة إعداداً متكاملًا من جميع نواحيه المختلفة في ضوء المبادئ التي جاء بها الإسلام، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي تتفق معها. فدين الإسلام لم يقتصر على مجرد الدعوة للإيمان بالله فحسب؛ بل جاء للناس بمنهج تربوي كامل وشامل، لشتى فروع التربية التي تستند إليها المجتمعات الإنسانية، في عملية التقدم والتطور نحو الأفضل، وفي سبيل تحقيق ما يصبو إليه أفرادها من سعادة ونجاح، وطمأنينة وسلام.

### معنى ومفهوم التربية في نهج البلاغة:

لو عدنا إلى كتاب نهج البلاغة لوجدنا أن مفردة «تربية» قد وردت بمعانٍ ووظائف مختلفة وكثيرة، نشير إلى بعض منها:

وردت مفردة «تربية» بمعنى «الرّب» كما جاء في الخطبة الغراء لأمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: «عِبَادُ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَارًا، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَارًا...»<sup>(١)</sup>، وقوله: «وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادُ دَاخِرُونَ»<sup>(٢)</sup>. فاشتقت كلمة «مربوبون» من «رّب»، وجاءت بمعنى الذين رُبُّوا أو تربّوا.

ووردت بمعنى «الأدب»، وجاءت بنفس معنى التربية ومعادلة لها، وغالبًا ما ترافقت مع صفة «الحسن» من قبيل: «حسن الأدب»، أو «يحسن أدبه» كما في قول الإمام (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ! تَوَلَّوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا»، «وَحَقَّ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يَحْسِنَ اسْمَهُ، وَيَحْسِنَ أَدْبَهُ، وَيَعْلَمَهُ الْقُرْآنَ»<sup>(٣)</sup>.

كما وردت بمعنى «الصّنع»، كما في قول الإمام (عليه السلام) في مقطع من رسالته إلى معاوية:

(١) محمد عبده، شرح نهج البلاغة، خ ٨٢، ص ١٦.

(٢) م.ن.، خ ٦٤.

(٣) ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ص ٣٧٠ و ٣٣٨ و ٣٩٥ و ٣٩٩.

«فإننا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا». «ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا... وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صُنْعِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ»<sup>(١)</sup>. وتعدّ عبارة «لطيف صنّعه» من موارد استعمال مفردة «الصنع».

وجاءت بمعنى «الهداية»، «ولأنّ كلّ علم هداية، وأيضا كلّ هداية فهي من الله تعالى، إذا فكلّ علم يكتسبه الإنسان فهو بتعليم إلهي»<sup>(٢)</sup>. بناء عليه، فإنّ التّعليم والتّربية هما نحو هداية تحصل في ظلّ ربوبية الله تعالى. لذا، فمن حيث أنّ الهداية تتضمّن نحوًا من الدّلالة والإرشاد، فيمكن عدّها متقاربة مع التّعليم، وتندرج ضمن مفردات التّربية. وقد تكرّر في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) التّأكيد على هداية النّاس وسبلها، ومن ضمن ما جاء في وصفه لأساليب الهداية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ فَخْشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَأَعْتَرَفَ، وَوَجَلَ فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيَقَنَ فَأَحْسَنَ... وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مَقَامِهِ».

وهناك موارد كثيرة في نهج البلاغة جاءت فيها بمعنى «التّركية»، وبعض مشتقاتها، من بينها هذا المقطع من خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام): «أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ... سَيَأْمُرُكُمْ بِسَيِّئِ وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي فَأَمَّا السَّبُّ فُسُبُوهُ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ»<sup>(٣)</sup>.

يقول ابن أبي الحديد في شرح هذا المقطع من الخطبة أنّ معنى الزّكاة يحتمل أمرين: أحدهما ما ورد في الأخبار النّبويّة أنّ سبّ المؤمن زيادة في حسناته، والثاني: أن يريد به أنّ سبّهم لي لا ينقص في الدّنيا من قدري، بل أزيد به شرفاً وعلوّ قدر وشياع ذكر؛ وهكذا كان، فإنّ الله تعالى جعل الأسباب التي حاول أعداؤه بها الغضّ منه عللاً لانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها<sup>(٤)</sup>.

(١) محمّد عبده، م. س. خ ١٦٥.

(٢) الطّبطبائي، تفسير الميزان، ج ٥، ص ٤٧١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ص ٢١.

(٤) ابن أبي الحديد، م. س. ص ١١١.

وجاءت بمعنى «الإصلاح»، فمن المفردات التي يمكن عدّها قريبة من مفهوم التربية هي مفردة الإصلاح. والإصلاح من مصدر الصّاح. وقد جاءت «أصلح» في معجم نهج البلاغة بمعنى: «جعله صالحاً»، «زيّنه» و«حسنه»، ومصدرها «إصلاح». ومن ضمن المواضع التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام إلى إصلاح النفس: «ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي، أي بإفساد ديني عند الله تعالى. ويستأنف قائلاً: «إني عالم بما يصلحكم»،<sup>(١)</sup>. فكلّمة «إصلاح» هي إلى حدّ ما بمعنى «تزكية» نفسها، لأنّ التزكية تعني «التّطهير». ولأنّ التزكية هي في بعض النّواحي بالمعنى نفسه لبعض وظائف التربية، لذا يمكن عدّ كلمة «إصلاح» بمعنى «تربية»<sup>(٢)</sup> نفسه.

(١) م.ن. ص ١٠٣-١٠٤.

(٢) محمد رضا شرفي، التربية والتّعليم في نهج البلاغة، ص ٢٤-٢٩.

## المبحث الأول

### الأساليب المتعلقة بالتربية السلوكية والأخلاقية في نهج البلاغة

يعبر السلوك الإنساني عن طبع الإنسان الأخلاقي، فهو يعبر عن اتجاهه، وتفكيره، ومجمل تصرفاته وأفعاله المنحصرة في جانبيين أساسيين، هما جانب الخير وجانب الشر. وفي كتاب نهج البلاغة نجد الإمام علي (عليه السلام) يدعو بقوة إلى ممارسة الجانب الأول، جانب الفضيلة والسلوك العادل، ويرفض الجانب الثاني، جانب الرذيلة، والمكر والتفاق والرياء، ونكث العهد.

فتضمّن النهج أساليب كثيرة يمكن اعتبارها من المصادر الأساسية والهامة في اكتساب الجانب الأول؛ جانب الفضيلة والأخلاق، سنكتفي بعرض البعض منها:

#### الموعظة:

اعتمد الإمام علي (عليه السلام) أسلوب الموعظة الحسنة الخالصة لله عز وجل في مجال التربية الروحية والأخلاقية، لأنها إحدى أهم الركائز الموقظة للقلوب، والمنبهة من الغفلة، كما إنها عامل مهم من عوامل صلاح القلوب وعلاج أمراضها. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد أكد القرآن الكريم أسلوب الوعظ إلى الحكمة كما في قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾<sup>(٢)</sup>. فالله تعالى قد خلق الإنسان، ورسم له طريق الحق والصواب، وأرسل الهداة ليرشدوه إلى هذا الطريق، فأقام الحجة على الخلق أجمعين. وعلي (عليه السلام)، باعتباره واحداً من هؤلاء الهداة، فقد ركّز (عليه السلام) على هذا الأسلوب. جاء

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.



في النهج: «.. إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالْإِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ<sup>(١)</sup>». من هنا كان خير مؤدٍّ للموعظة الحسنة التي تثمر رقة القلب ولبينه، فحاجة القلوب إلى الموعظة لا تقلُّ أهميّة عن الحاجة إلى العلم والمعرفة، فإذا لان القلب انفتحت قابليّة بصيرته لتلقّي العلم النافع.

ومن كلام الإمام الوعظيّ في وصيّته لابنه الحسن عليه السلام قوله: «أَخِي قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمْتَهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقُوّهَ بِالْيَقِينِ، وَنَوْرَهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلَّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرَّرْهُ بِالْفَنَاءِ<sup>(٢)</sup>». وقوله: «عِبَادَ اللَّهِ أَوْصِيكُمْ بِالرَّفْضِ هَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةَ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا... فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا وَلَا تَعَجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا وَلَا تَجْرَعُوا مِنْ ضَرَائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنْ زِينَتُهَا وَنَعِيمُهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَاءُهَا وَبُؤْسُهَا إِلَى نَفَادٍ<sup>(٣)</sup>».

وقد كان أحياناً يعمد إلى الشدّة في تقديم بعض النّصائح والإرشادات، فعندما تقاعس أصحابه عن صدّ غارات معاوية، وتنصّلوا من القيام بواجب الجهاد، حاول عليه السلام أن ينبّه الأمة إلى الخطر المحدق بها، ويبيّث في أبنائها روح النّخوة والحماس، فأكثر من هذه الإرشادات التي كان المجتمع في أمس الحاجة إليها في عصره، كما في قوله: «أيها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم<sup>(٤)</sup>».

(١) محمّد عبده، م. س.، خ ١٠٥، ص ٢٥٦.

(٢) م. ن. ك ٣١، ص ٥٦١.

(٣) م. ن.، خ ٩٩، ص ٢٤٧.

(٤) ابن أبي الحديد، م. س. خ ١٦٧.

ولا بدّ من الإشارة في هذا المجال إلى أنّ الموعظة والنصيحة تؤثّران في قلب الفتیان أكثر من غیرهم، وذلك للصفاء والطهارة التي يتحلّون بها بخلاف الکبار الذين قست قلوبهم لما ارتكبوه من معاصٍ وفعلوه من خطايا. وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: «علّموا صبيانکم من علمنا ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليهم المرجئة برأيها»<sup>(١)</sup>.

### الاعتبار والتدبر:

استخدم الإمام (عليه السلام) أسلوب التفكير في التاريخ وفي مصير الأسلاف والأقوام الماضية، من خلال ضرب الأمثال للاعتبار والتدبر. وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصصاً وحكايات تاريخية كثيرة، هدفها التعليم والتربية والعبرة: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد اتخذ الإمام علي (عليه السلام) أسلوب التفكير بأحوال الماضين وما تعرّضوا له من نوازل الأيام، وطوارق الدهر وما ألمّ بهم من نكبات وآلام، وكيف أنّ أموالهم لم تغن عنهم شيئاً حين حلّ بهم الموت وسيلة لتوجيه أصحابه وإرشادهم ووعظهم وإبعادهم عن الزيف والانحراف. كقوله: «...فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ»<sup>(٣)</sup>.

نفهم من كلام الإمام (عليه السلام) أنّ التأمل في سير الماضين والتاريخ يشبّع روح الإنسان بالإيمان ويكسبه حبّ الخير للناس، والتفاني في خدمتهم، ويجعله يدرك أنّه لا يملك من هذه الحياة شيئاً إلّا ما كتب الله له أن يتصرّف فيه؛ وهذا ما يغذّي عقله وروحه، ويساهم في اتزانها، ويساعده في مواجهة مغريات الحياة، وينحو بها إلى التعايش في المجتمع بما يتناسب والمثل العليا التي يطمح علي (عليه السلام) إلى إرسائها.

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ٢١: ٤٧٨. الحديث رقم: ٢٧٦٣٤

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) محمّد عبده، م. س. خ ١٩٢، ص ٤٢٩.

ولقد استعمل الإمام هذا الأسلوب بكثافة، ودعا أصحابه إلى التفكر في أحوال الماضين والنظر فيما آلت إليه أمورهم والاتعاظ بها، كقوله لأحد أصحابه يوصيه أن يعتبر بما مضى من الدنيا: «واعتبر بما مضى من الدنيا ما بقي منها، فإن بعضها يشبه بعضاً، وآخرها لا حق بأولها، وكلها حائل مُفَارِقٌ»<sup>(١)</sup>.

وفي وصيته لابنه الحسن يؤكد هذا الأسلوب ويعتبره من أهم واجبات الوالد تجاه ابنه فيقول: «أي بني، إني وإن لم أكن عمّرتُ عمرَ من كان قبلي، فقد نظرتُ في أعمالهم، وفكرتُ في أخبارهم، وسمعتُ في آثارهم... فاستخلصتُ لك من كل أمرٍ نخيلته، وتوحيّتُ لك جميله، وصرفتُ عنك مجهولة»<sup>(٢)</sup>.

### الأسوة:

استخدم الإمام علي (عليه السلام) أسلوب القدوة الحسنة باعتباره أحد أهم أساليب التربية الفاعلة في اكتساب القيم الروحية والأخلاقية عند الإنسان، ولأنه لا بد لكل مأموم من إمام يأتّم به، لم يتركنا (عليه السلام) من دون قاعدة إرشادية عامّة إلى السبيل الذي يجب أن نسلكه. وقدّم لنا أنموذجين لتّخذهما مثلاً. والأنموذجان هما الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وعلي (عليه السلام) نفسه. لأنّه في مسألة التربية، إنّما يستطيع الناس الاعتماد على من هم في الصدارة من حيث نيلهم أعلى مراتب الإنسانية وكما لا تها بعد أن تولّى تربيتهم ربّ العالمين. مثل هؤلاء فقط يتمكّنون من قيادة سفينة الإنسانية وإيصالها إلى برّ الأمان وساحل النّجاة، باعتبار أنّهم حظوا برعاية وتربية خاصّة من ربّ العالمين. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «يا كميل إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أدبه الله وهو أدبني وأنا أدّب المؤمنين، وأورث أدب المكرّمين»<sup>(٣)</sup>.

(١) محمّد عبده، م. س. ك ٦٩، ص ٦٤٩.

(٢) م. ن. ك ٣١، ص ٥٦١.

(٣) ابن شعبة الحراني تحف العقول، ١٧١، باب ما روي عن أمير المؤمنين.

ومن الطَّبِيعِي في زمن شاهري سيوف الدُّنْيَا، أن يدعو الإمام (عليه السلام) النَّاسَ لِكِي يَتَّخِذُوا من هذا الرَّجُلِ الأَرْقَى بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وبالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّسَالَةِ الَّتِي تَشَكَّلُ هُمًّا مَحُورِيًّا من الهموم الَّتِي يَتَحَمَّلُهَا الإمامُ عَلَيَّ (عليه السلام) أَنْموذَجًا يَقْتَدُونَ بِهِ، وَيَسِيرُونَ عَلَى نَهْجِهِ وَهَدْيِهِ، فَهُوَ يَرِيدُ لَأَناسٍ مَجْتَمَعَةٍ أَنْ يَعُودُوا أَرْواحَهُمْ عَلَى مَسارٍ فِي دُنْيَاهُمْ يُؤْهِلُ مَسِيرَتَهُمَ لِلنَّجَاحِ فِي اتِّجَاهِ الآخِرَةِ.

كَمَا قَدَّمَ (عليه السلام) نَفْسَهُ مَرشِدًا ثَانِيًّا يَسِيرُ إِلَى جَانِبِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وآله) الَّذِي يَعتَبِرُهُ قُدُوتَهُ وَمِثْلَهُ الأَعْلَى، وَيَتَّبِعُ خَطَاهُ وَلَا يَحِيدُ عَنْ سَبِيلِهِ. يَقُولُ (عليه السلام): «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأُفَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفَرَّاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ (١)».

وَبالإِضَافَةِ إِلَى هَٰذِينَ الْقَائِدِينَ الْإِنسَانِيِّينَ الْإِسْتِثْنَائِيِّينَ، قَدَّمَ (عليه السلام) لَنَا أَسَاتِذَةً مِنَ الصِّفِّ الثَّانِي، يُمَثِّلُونَ صِلَةَ الْوَصْلِ بَيْنَ الْقَائِدِينَ الْإِنسَانِيِّينَ وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ. فَكَانَتْ مَسْئُولِيَّةُ الْوَلَاةِ الَّذِينَ كُلفُوا بِإِمَارَةِ النَّاسِ فِي زَمَنِ خِلاَفَةِ عَلِيٍّ (عليه السلام)، مَسْئُولِيَّةً عُلُويَّةً، لِتَرْبِيَةِ نَفُوسِهِمْ كِي لَا يَقْعُوا فِي شَرِكِ ظَلَمِ الرِّعِيَّةِ.

مِنْ هُنَا شَدَّدَ (عليه السلام) عَلَى اخْتِيَارِ الْقُدُوةِ الصَّالِحَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِمَامَ (عليه السلام)، وَمِنْ خِلَالِ مَعَايِشَتِهِ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) وَمِمَّا يَتَّبِعُهَا الْعَمَلِيَّةُ لِأَخْلَاقِهِ وَالْإِتِّوَاعِ مِنْ مَعِينِهَا الصَّافِي الثَّرَّ، تَكُونُ لَدَيْهِ اقْتِنَاعًا تَامًّا بِتَأْثِيرِ الْقُدُوةِ فِي تَصَرُّفَاتِ الْفَرْدِ، وَالَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمُدَّهُ بِرَوَافِدِ غَنِيَّةٍ مِنْ خَزُونِهَا الْأَخْلَاقِي الَّذِي يَعُودُ عَلَيْهِ بِالسَّعَادَةِ وَيَجْعَلُهُ مَنْسَجِمًا مَعَ أَفْرَادِ مَجْتَمَعِهِ.

وَكَذَلِكَ حَثَّ الْإِمَامُ الْمُتَصَدِّقِينَ لِتَأْدِيبِ النَّاسِ أَنْ يَبْدَأُوا بِتَأْدِيبِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ يَجَسَّدُوا بِأَعْمَالِهِمْ مَضْمُونِ دَعَوَاتِهِمْ: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ (٢)».

(١) مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، م. س. خ. ١٢٣، ص ١٢٨.

(٢) مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، م. س. ح. ٧٣، ص ٦٧٦.

### معاشرة الصّالحين:

رأى الإمام (عليه السلام) أنّ من العوامل المهمّة لتربية النّفس وإصلاحها هو معاشرة الصّالحين والاختلاط بهم لما في ذلك من آثار إيجابيّة تساعد في الاستفادة من خبراتهم، والتأثّر بهم. لذا حتّى على معاشرة النّاس الأخيار، واحترام أعرافهم وعاداتهم ما دامت لا تخالف تعاليم الله عزّ وجلّ كما في قوله: «مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ»<sup>(١)</sup>. وهذا النّوع من المعاشرة له أثر كبير في الإنسان، فعندما يجلس الإنسان مع شخص صالح فإنّه سيستفيد حتّى وإن كان لا يعلم بذلك.

وحذّر بشدّة من معاشرة أهل الهوى والطّالحين الفاسقين من النّاس، لأنّ الإنسان لا يستطيع مهما حاول أن يضبط نفسه عن الوقوع ولو قليلاً تحت تأثير الطرف الآخر. ومن أقواله في هذا المجال: «مجالسة أهل الهوى منساة للإيمان»، أي أنّ الشخص ينسى إيمانه بمعاشرة أهل الهوى، وقوله «لَا تَصْحَبِ الْمَائِقَ فَإِنَّهُ يَزِينُ لَكَ فِعْلَهُ وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ»<sup>(٢)</sup>. فعندما يجالس الإنسان الفاسق من النّاس، فإنّه يجني على نفسه من حيث لا يشعر.

ولما كان لا بدّ لكلّ شخص في هذه الدّنيا رفيق وصديق يأنس به ويعاشره، فعليه أن يتّخذ الرّفيق والأنيس الذي يريد معاشرته من أجل تربية أخلاقه وتقويتها.

### التّغيب والتّرهيب

اهتمّ الإمام (عليه السلام) بأسلوب التّغيب والتّرهيب لما له من فاعليّة في مجال التّربية، وكان ينتهز كلّ الفرص من أجل تطبيقه، ليسوس النّاس في شدّة مؤدّبة، ويقودها في سير حثيث على المحجّة الغراء. وقد شدّد على ولاته في استخدامه لإدارة الحكم وشؤون السّياسة،

(١) م.ن. ح ٣٩٨، ص ٧٥٤.

(٢) م.ن. ح ٢٩٥، ص ٧٣١.

وإشاعة العدل، وحفظ النظام، وإصلاح أمر الرعيّة واستئصال شأفة الضلال، فالولاية في نظره هي من الجماعة تولى من تشاء، وتخلع من تشاء إثابة على إحسان، وعقاباً على إساءة. فيقول عليه السلام: « وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيْدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، تَدْرِيْبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ <sup>(١)</sup> ».

كما كان يحرص على تدريب عمّاله وإرشادهم إلى كيفة استعماله. ففي مجال التّغيب يطلب إلى مالك الأشر: « وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ، وَتُخَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللهُ <sup>(٢)</sup> ». ولكن عليه أن يكون دقيقاً فيعرف من الذي قام بكلّ فعل، ولا يضيف بلاء امرئ إلى غيره: « ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضْمَنْ بِلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بِلَائِهِ <sup>(٣)</sup> ». وأن يحذر من التّأثر بمكانة المرء الاجتماعيّة، فلا يدعوه شرف امرئ إلى أن يعظم من عمله، ولا ضعة امرئ إلى أن يستصغر من عمله ما كان عظيماً.

ويحبّد الإمام عليه السلام تقديم التّغيب على التّرهيب، فيقول عليه السلام: « أَزْجَرَ الْمُسِيءُ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ <sup>(٤)</sup> ». ولكنّه يحذّر من الإسراف في الثّناء بأكثر من الاستحقاق لأنّ: « الثّناء بأكثر من الاستحقاق ملقّ، وكذلك من التّقصير فيه لأنّ « التّقصير عن الاستحقاق عيٌّ وحسد <sup>(٥)</sup> ».

وفي المقابل يرى الإمام عليه السلام أنّ هناك بعض النّاس من لا يستقيم أمرهم إلّا بالتّرهيب؛ لذلك فقد توعّد من طغى من عمّاله بشديد العقاب حتّى أنّه عليه السلام أقسم لأحد عمّاله الذي

(١) محمّد عبده، م. س. ك ٥٣، ص ٦٠٩.

(٢) م. ن. ك ٥٣، ص ٦١٣.

(٣) م. ن. ك ٥٣، ص ٦١٣.

(٤) م. ن. ح ١٧٧، ص ٧٠٣.

(٥) م. ن. ح ٣٤٦، ص ٧٤٢.

أساء الأمانة وتصرّف بأموال المسلمين: «لو أنّ الحسن والحسين (عليهما السلام) فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هواده، ولا ظفراً منّي بإرادة حتّى آخذ الحقّ منهما»<sup>(١)</sup>.

### المحبة والتودّد:

إنّ من جملة الأساليب التي ركّز عليها الإمام (عليه السلام) في مسألة التربية والتعليم هي عنصر المحبة، الذي يعتبر من أنجح الأساليب في الوصول إلى عقل المرء وقلبه. فالإنسان إذا أحبّ شخصاً أطاع أوامره لأنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع، فيقول (عليه السلام): «التودّد نصف العقل»<sup>(٢)</sup>. إذ إنّ الحبّ والمودة مدعاة للقرب بين المربّي والمربّي وتجاوبه معه. «المودة قرابةٌ مُستفادَةٌ»<sup>(٣)</sup>.

فالمحبة منبع مهمّ يسقي الشخصية الإنسانية بروح الخير الفيّاض، التي تجعلها تفيض بالخير على الناس، ثمّ تصبح كالشجرة التي تؤتي أكلها كلّ حين.

لذلك دعا الإمام (عليه السلام) أصحابه إلى التلطّف مع من يربّونهم: «وَلْيَرَأْفَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ»<sup>(٤)</sup>. وفي رأي الإمام (عليه السلام) أنّ الإنسان يتعلّم باللّين لا بالعنف كما يفهم من قوله الوارد في وصيّته لابنه الحسن (عليه السلام): «فإنّ العاقل يتعظّ بالآداب، والبهائم لا تتعظّ إلّا بالضرب»<sup>(٥)</sup>.

### مراقبة النفس:

يعتبر الإمام (عليه السلام) أنّ المراقبة الذاتية هي من الأساليب الناجعة في التربية، تلزم الفرد بالتقيّد بالقيم وتفرض عليه احترام الأخلاق والسّير على هديها، بحيث يجعل من نفسه

(١) م. ن. ص ٤١٤.

(٢) محمّد عبده، م. س. ح ١٤٢، ص ٦٩٤.

(٣) م. ن. ح ١٤٢، ص ٦٩٤.

(٤) م. ن. خ ١٦٦، ص ٣٦٦.

(٥) م. ن. الك ٣١، ص ٥٧٤.

خصماً وحكماً في الوقت نفسه، يجاهد نفسه ويراقبها ويتشدد في محاسبتها إذا ارتكبت خلقاً ذمياً. يقول الإمام (عليه السلام): «عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزُنُوا وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا.. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعِنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ»<sup>(١)</sup>.

وقد زحرت نصوص النهج بتأكيد هذا الأسلوب، وتقديم القواعد المثلّية لصالح الإنسان، ويتجلى ذلك في دعوة الإمام (عليه السلام) بدعوة تعدّد القاعدة الأرقى في التربية الراقية: «ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم»<sup>(٢)</sup>. ويعدّ هذا الكلام صرخة يطلقها علي (عليه السلام) في زمن تكالب فيه الدنيويون على السّلطة وعلى المتمسّكين بزمام الآخرة. فلنكأنه يقول للبشريّة إنّ انتصار الإنسان على نفسه هو الانتصار المؤزّر على جميع الشرور التي يمكن أن تمسّه وتبعد الطمأنينة عن نفسه، لأنّ في حساب النّفس ربح، وفي الغفلة عنها خسارة.

ويؤكد الإمام (عليه السلام) في كلّ خطبه الوعظيّة ضرورة مراقبة النّفس ومحاسبتها، وحسبنا في ذلك خطبته في وصف المتّقين<sup>(٣)</sup>.

(١) م.ن. خ ٩٠، ص ٢١٤.

(٢) م.ن. خ ٧٣، ص ٣٦٣.

(٣) محمّد عبده، خ ١٩٣، ص ٤٤٥-٤٤٨.



## المبحث الثالث

### الأساليب المتعلقة بالتربية العقلية

اهتمَّ الإمام علي عليه السلام بسبل تنمية العقل استكمالاً لرسالة الأنبياء في الاهتمام بفتح كنوز الناس العقلية وهدايتهم على ضوئها، وارتفع بالعقل ومكانته إلى أرقى مستوياته؛ فمن لا عقل له لا دين له. والعقل هو مرجعية التقييم للاختيار واتخاذ القرارات، والتمييز بين الحق والباطل، وإذا ما استند العقل إلى معلومات يقينية تمكّن من إصدار الأحكام الصحيحة.

وقد زخر النهج بالكثير من الأساليب التوجيهية على صعيد التربية العقلية، نذكر منها:

#### طلب العلم الحق:

إنَّ تنمية القوى العقلية للإنسان لا تكون إلّا في طلب العلم، لأنَّ العلم غذاء العقل، به ينشط ويقوى على ممارسة الوظائف العقلية لأنّه «ليس شيء أحسن من عقل زانه علم»<sup>(١)</sup> كما يقول الإمام علي عليه السلام. فالعلم مفتاح المعرفة، والمعرفة طريق الهداية إلى الصواب، وعلى الإنسان أن يتعلّم ويوسّع مداركه ليميّز الحق من الباطل، والخبيث من الطيب. فمقام الإنسان ورفعته ليس بإنسانيته فقط لأنّه ربّما يتحوّل مع إنسانيته إلى شيطان، بل إلى ما هو أذل منه. أمّا الإنسان المتّصف بالعلم المقرب من الله سبحانه وتعالى فيرتقي إلى مقام الإنسانيّة المكرّمة بتكريم خاص، أهله لمشاهدة الحق بالقلب.

وعندما يكون العلم في سبيل طريق الله والله، يكون منهجاً عملياً وسلوكاً إجرائياً لحقيقة الإخلاص التي لا يريد بها إلّا وجهه الكريم. وعليه يبقى طالب العلم في سبيل الله إلى أن يرجع إلى المكان الذي خرج منه. وما ذلك ببعيد لأنّه طريق من الطرق التي يرتقي الإنسان به إلى معنى إنسانيته المخلوق لها.

(١) الطباطبائي، مستدرک نهج البلاغة ص ٢٦٧.

ويشدّد الإمام (عليه السلام) على طلب العلم من مصدره ومكانته الصّحيحة الموصلة إلى الهدف والغاية في رحلة السّير الوجوديّة، لأنّ العلم إذا لم يكن من مظانّه الصّحيحة فإنّه يوصل صاحبه بعيداً عن برّ الأمان إلى مقام البعد والعياذ بالله.

وطلب العلم والمعرفة يدفع إلى معرفة خفايا النّفس وتهذيبها، وأمّا من لا ينفعه طلب العلم تهذيباً ومعرفة، ولا يفيدته تقدّمًا في الإخلاص يتبدّل العلم عنده من رحمة ليكون نعمة وحجّة عليه. فالعلم الذي نستفيد منه على نحو الواقعيّة والتأثير العملي المنهجي في حياتنا آنّا فآن، والذي يشكّل صورة النّفس والقلب الملكوّتيّة هو الذي يفيدنا في الخلاص والخروج من إنّيّة النّفس وجبروتيّتها وفرعونيّتها.

لقد كان الإمام (عليه السلام) يحثّ الناس على طلب العلم والتنمية العقليّة وتطوير ذواتهم بشكل مستمر منذ مقتبل العمر وذلك لسببين: عبّر عن السّبب الأوّل بقوله: «قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها شيء قبلته»<sup>(١)</sup>، والثاني أنّه مع تقدّم العمر يكون الدّهن أكثر انشغالاً بقضايا الحياة وهمومها، ما يصرفه عن حسن طلب العلم.

كما أكّد أهميّة إثارة رغبة المتعلّم في طلب العلم، وابتكار أساليب تثير رغبة المتعلّم قبل المباشرة بتعليمه لأنّ هناك علاقة بين الحالة النّفسية للمتعلّم وبين استيعابه. من هنا دعا إلى مراعاة إقبال القلب في عمليّة التعلّم، كما يفهم من قوله: «إنّ للقلوب شهوة، وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقباله، فإنّ القلب إذا أكره عمى»<sup>(٢)</sup>. فلا جدوى إذن من تقديم العلم في حال نفور القلب وعدم إقباله.

(١) محمّد عبده، شرح التّهج، كتاب ٣١، ص ٥٦٠.

(٢) م. ن. ص ٧٠٥.

## التفكير والتفكير:

التفكير ضرورة تربوية مهمة، وهو إحدى المكونات الرئيسة للتنظيم المعرفي للفرد، وتكمن أهميته في إعطائه القدرة على امتلاك البيئة والتحكم فيها، وهو مرتكز أساسي يعتمد عليه الإنسان في تفاعله مع البيئة التي يعيش فيها، فهو عملية بيولوجية اجتماعية توصل الإنسان إلى بناء حضارة عظيمة تزخر بالتقدم العلمي والتنظيم الاجتماعي. والإنسان في صراع دائم مع الحياة للحفاظ على استمرارية وجوده، ولا يمكن له ذلك إلا إذا اعتمد على التفكير، فهو بحاجة لأن يدافع عن نفسه ويتحدى الصعوبات والمشكلات التي تعترض طريقه ويزيلها، ويجد الحلول الملائمة لها. كما إن التفكير يمكن الإنسان من العمل المثمر الخلاق ويفتح أمامه فرصاً واسعة للنجاح. وقد أدرك الإمام علي (عليه السلام) أهمية التفكير عند الإنسان ووجد (عليه السلام) أنه عملية لا بد منها في تنمية الفكر الإنساني وانطلاقه وتحريره من الجهل والجمود والتقليد، فأشاد بالعقل ودعا إلى تنميته بالفكر، لأن الفكر جلاء للعقول، كما أنه يفيد الهداية واليقظة والرشد والرأي السديد، والقدرة على كشف الحقائق وتخليص العقل من الأوهام والأساطير، فهو يعصم عن الشك والضلالة. وقد أورد (عليه السلام) عبارات كثيرة بخصوص هذا الأمر كما في قوله (عليه السلام): «الفكر يهدي»<sup>(١)</sup> و«الفكر عبادة»<sup>(٢)</sup>، و«الرأي بالفكر»<sup>(٣)</sup> و«الفكر رشد»<sup>(٤)</sup> و«الفكر ينير القلب»<sup>(٥)</sup>.

وقد وجد الإمام (عليه السلام) أن التفكير هو أحد العوامل الرئيسة في ديناميكية العقل وزيادة إنتاجه؛ من هنا اهتم بتنمية هذه الملكة عند الإنسان، واعتبرها الهدف الأسمى لعملية

(١) الآمدي، الغرر والدّر، ص ٤٣.

(٢) م.ن. ص. ن.

(٣) مزن. ص ٤٣.

(٤) م.ن. ص ٤٣.

(٥) م.ن. ص ٤٣.

التربية والتعليم، ودعا إلى ضرورة أن يتمتع الإنسان بعمق في التفكير، وسعة في الاطلاع حتى تكون النتائج يقينية بحيث لا يتطرق إليها الخطأ أو الزلل.

فمن أهم ما يساعد على نموّ العقل هو تعويد النفس على التأمل والتفكير فيما يُعرض عليها من حقائق ومعلومات، فنراه يقول: «فإنّما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر وانتفع بالعبر<sup>(١)</sup>». و«لا علم كالتفكير<sup>(٢)</sup>».

والتفكير يكون بالنفوذ إلى غور المسائل وعدم الاكتفاء بالمعرفة السطحية؛ يقول: «من فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم<sup>(٣)</sup>».

ويكون كذلك بعدم التورّع عن السؤال: «ولا يستحينّ أحد إن سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحينّ أحد إذا لم يعلم شيء أن يتعلّمه<sup>(٤)</sup>». شرط أن يكون السؤال بنية التعلّم والاستفسار، لا المجادلة والاستكبار، ويقول في هذا الشأن: «سل تفقّها ولا تسأل تعتّا<sup>(٥)</sup>».

وقد نبّه الإمام (عليه السلام) إلى ضرورة عدم تجاوز الإنسان حدّه والتحدّث بما لا يعلم، لأنّ هناك أموراً لا يستطيع بقواه العقلية المحدودة أن يحيط بها، كالأمر الغيبية والمعنوية، فيقول (عليه السلام): «فلا تستعملوا الرأى فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تغلغل إليه الفكر<sup>(٦)</sup>».

وقد رأى الإمام (عليه السلام) أنّ الناس متفاوتون في مقدرتهم على الفهم والاستيعاب والتفكير، لذا على المربي أن لا يتوقّع منهم النتائج نفسها.

(١) محمد عبده، الشرح، خ ١٥٣، ص ٣٣٣.

(٢) م. ن. ح ٤، ص ٦٦٣.

(٣) م. ن. ح ٣٠، ص ٦٦٨.

(٤) م. ن. ح ٨٢، ص ٦٧٨.

(٥) م. ن. ح ٣٢٢، ص ٧٣٦.

(٦) م. ن. خ ٧٨، ص ٢٠٩.

### التجربة والعمل:

دعا الإمام (عليه السلام) إلى قرن العلم بالعمل، لا من أجل الاستفادة منه فحسب، بل من أجل رسوخه في النفس. وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع. يقول (عليه السلام): «العلم مقرون بالعمل: فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه<sup>(١)</sup>». فمن وجهة نظر الإمام (عليه السلام) لا تغني كثرة العلوم النظرية عن السلوك الحسن والسيرة الخيرة، فالمعيار هو الأحسن لا الأكثر، فالتربية التي تعتمد الكمية في أساليبها لا تجدي نفعا ما دامت لا تستند إلى الكيفية والنوعية، وهذه النوعية يجب أن تقرن بالعلم والتغيير والنمو في شخصية الفرد والمجتمع كما يقول (عليه السلام): «لا تجعلوا علمكم جهلاً و يقينكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقنتم فأقدموا<sup>(٢)</sup>». فالإمام (عليه السلام) لا يؤمن بالكمية على حساب النوعية والكيفية، فهو لا يريد العلم من أجل العلم أو أجل شيء آخر، إنما يريد من أجله التغيير والتبديل والنمو. كما يشير الإمام (عليه السلام) إلى أهمية التجربة في العملية التعليمية بقوله: «العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع<sup>(٣)</sup>».

### النقاش والمشاورة:

من الأساليب المهمة التي تساهم في تنمية العقل هي المشورة والنقاش مع الآخرين، وقد حظيت مسألة المشورة بأهمية بالغة في التعاليم الإسلامية، فالتبني (عليه السلام)، وبغض النظر عن الوحي الإلهي، ورغم قدرته الفكرية الكبيرة التي تؤهله لتسيير الأمور وتصريفها من دون حاجة إلى مشاورة أحد، إلا أنه فعل ذلك وشاور أصحابه في أمور المسلمين العامة، وكان يقيم لآراء مشيريه أهمية خاصة ويعطيها قيمتها اللائقة بها، وذلك حتى ينمي فيهم

(١) محمد عبده، الشرح، ح ٣٦٦، ص ٧٤٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦ / ٦٤.

(٣) محمد عبده، ح ٣٣٩، ص ٧٤٠.

قواهم الفكرية والعقلية ويشعر المسلمون بأهمية المشاورة وفوائدها، فيتخذونها ركناً أساسياً في برامجهم.

وقد سلك الإمام عليه السلام المسلك نفسه، فكان يدعو إلى مشاورة الآخرين ومناقشتهم من أجل الاستفادة من علومهم وتجاربهم. ومن وصيته لملك الأشتر يقول: «وأكثر مداواة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك»<sup>(١)</sup>.

وقد رغب أصحابه في المشورة قائلاً: «من استبدّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»<sup>(٢)</sup>.

(١) م. ن. ك ٥٣، ص ٦١٠.

(٢) محمد عبده، ح ١٦١، ص ٧٠١.

## المبحث الرابع الأساليب المتعلقة بالتربية النفسية

أولى الإسلام النفس الإنسانية عناية كبرى لأنها محور الحركة والحياة، ومنطلق الخيارات، وسبب الأعمال، وعمل على توجيهها وإصلاحها، وقرّر عباداته لتهدئتها، وقد أثبت العلم الحديث أهمية فهم النفس البشرية ورسم الضوابط الوقائية لتقويمها والحلول العلاجية لإصلاحها، حيث تفرّع عن دراسة النفس علم النفس بأقسامه المختلفة، كعلم النفس العام، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الأسري، وجميعها ينطلق من مفصل معرفة مفاصل النفس الإنسانية لتوجيهها نحو الأفضل ومعالجة الأمراض الناشئة عن ظروفها المختلفة.

ومن الأساليب التي اعتمدها الإمام للمساهمة في توجيه النفس والتخلص من أمراضها:

### ذكر الله تعالى:

يركّز الإمام علي (عليه السلام) في منهجه التربوي على ذكر الله تعالى في كلّ وقت وحال، ويعدّ هذا الذكر أساساً لجميع الآثار التربوية والمعنوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، ويشير القرآن الكريم إلى الأثر التربوي والروحي للعبادة وللصلاة على وجه الخصوص، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(١)</sup>، فذكر الله يجلو القلب ويصفيّه ويزكّيه ويطهره، ويعدّه لإجراء الحكمة فيه وعلى لسانه. ويقول الإمام علي (عليه السلام) في أهمية الذكر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ، وَتَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتَبْصُرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ الْمَاعِنَةُ. وَمَا بَرَحَ اللَّهُ فِي الْبَرْهَةِ بَعْدَ الْبَرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ: رَجَالُ

(١) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم<sup>(١)</sup>. وقد بينَّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام الأثر الغريب لذكر الله في القلوب، حتَّى أنَّها قد تستطيع التَّخلُّص من بعض الأمراض النَّفسية التي تعاني منها.

### التَّقوى:

اعتمد الإمام علي عليه السلام في مجال التَّربية النَّفسية على التَّقوى لأنَّها المثل الأعلى للحياة، ولأنَّ الكرامة الحقيقيَّة للإنسان تكمن في التَّقوى. فملاك القرب من الله تعالى يدور مدار التَّقوى، لا مدار مقامات الدُّنيا ومزاياها المادِّية الفانية من مال وجاه وجمال، أو حسب ونسب، حيث إنَّ عامَّة النَّاس يسعون جاهدين في طلبها ليتفاخروا بها على غيرهم، فيرون أنَّ الشرف والكرامة في هذه المزايا الوهمية التي توقعهم في مهبط الهلكة والشَّقوة؛ في حين أنَّ الشرف الحقيقي الذي يؤدِّي بالإنسان إلى سعادته الحقيقيَّة وحياته الطَّيبة الأبدية في جوار ربِّ العزَّة، إنَّما هو بتقوى الله سبحانه وتعالى، وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدَّارين: الدُّنيا والآخرة.

وإذا كانت التَّقوى تعني وقاية النَّفس ممَّا يُخاف، فإنَّها في نظر الإمام عليه السلام لا تعني الخوف وتجنُّب النَّاس والانزواء عن المجتمع، بل هي في نظر الإمام قوَّة روحية تتولَّد من الحذر المعقول والمنطقي من الذَّنوب. فعندما يقي الإنسان نفسه ممَّا يُخاف، ويحفظها ممَّا يؤذي ويضرُّ ويؤثِّم، فإنَّه سيجد فيها من البهاء والكمال والعزَّة والقوَّة واللَّذَّة والسرور ما لا يقدر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها، ونعمة باقية لا نفاذ لها ولا ألم فيها ولا كدر، وخير وسعادة لا شقاء معها، وهذا ما يؤكِّده القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن أبي الحديد، ١١ / ٢٢١٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.



والتَّقْوَى كما عَبَّرَ عنها الإمام علي عليه السلام تَهَبُ الْإِنْسَانَ الْبَصِيرَةَ النَّيِّرَةَ وَالرُّؤْيَا الْوَاضِحَةَ، كما في قوله: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحُ فُسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطَهْوَرُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءُ غَشَا أَبْصَارِكُمْ..<sup>(١)</sup>» وتحرّره من أسر الهوى وتملّكه زمام نفسه، كما تمده بعون الله وتسديده. لذلك فَإِنَّ أَقْلَ ما ينبغي لهذا الإنسان أَنْ يفعلَه، هو أَنْ يَسَلِّمَ لِلْخَالِقِ الْبَارِئِ، وَيَتَّقِيَ غَضَبَهُ وَيَحْذِرَ عِقَابَهُ بِإِطَاعَةِ أَمْرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ.

### الزَّهْدُ:

لقد اعتمد الإمام علي عليه السلام على الزَّهْدِ في التَّربِيَةِ، ورأى أَنَّ التَّربِيَةَ النَّاجِحَةُ هي الَّتِي تُعَدُّ الْإِنْسَانَ لِلْحَيَاتَيْنِ مَعًا، وليس للحياة الدُّنْيَا فقط. ولعلَّ الصِّفَةَ الْأَرْقَى الَّتِي يَشِيرُ إِلَيْهَا الْإِمَامُ عليه السلام في هَذَا الشَّانِ، هي الْإِعْرَاضُ عَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْمَحْدُودَةِ الْفَانِيَةِ الَّتِي طَلَّقَهَا ثَلَاثًا وَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ، وَالَّتِي لَا يَعْتَقِدُهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مَقَامًا، إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ الْإِمْتَنَانِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ النَّفْسِ الشَّدِيدَةِ الصَّلَابَةِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَالنَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ حِينَ تَرْجِعُ إِلَى رَبِّهَا، فَتَرْجِعُ رَاضِيَةً مُرَضِيَّةً.

والمقصود بالزَّهْدِ عِنْدَ الْإِمَامِ عليه السلام لَيْسَ تَرْكُ الدُّنْيَا وَالْإِنْعَتَاقُ مِنْ أَسْرِهَا وَاحْتِقَارُهَا وَعَدَمُ الْإِهْتِمَامِ بِهَا، بَلْ تَنَاوُلُهَا بِرَفَقٍ، وَعَدَمُ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، وَالتَّعَامُلُ مَعَهَا عَلَى قَدْرِ قِيَمَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ؛ لِذَلِكَ دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ يَكُونُوا كَائِنَاتٍ سَامِيَّةٍ، تَجْمَعُ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَلَا تَمْنَعُ فِي تِلْكَ إِمْعَانًا يُلْهِمُهَا عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لِهَذِهِ، وَلَا تَغْرَقُ فِي هَذِهِ إِلَى حَدٍّ يَعْطَلُ فِيهَا شَخْصِيَّةَ الْإِنْسَانِ. وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: «... وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ

(١) مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، م. س. خ. ١٩٨، ص ٤٥٧.

تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازاً لتزودوا منها الأعمال إلى دار القرار. فكونوا على أوفاز... وقربوا الظهور للزيال...<sup>(١)</sup>.

فالإمام عليه السلام لا يشجع الانقطاع عن الدنيا والاستغراق في العمل للآخرة وحدها، بل يحبذ العمل للدنيا والإقبال عليها، والتّمتع بطيّباتها، ولكن من غير إسراف يقعد الإنسان عن العمل لآخرته والاستعداد لها، ويأمر بالعمل للآخرة، ولكن في غير إعنات.

لقد حاول أن يظهر لأبناء أمّه تقلّب الدنيا وعدم قرارها، ومكرها وخداعها لا ليتخذوا من الحياة موقفاً سليماً يشلّ فيهم الرّغبة في الحياة، ويعطلّ إمكانات الخلق والإبداع عندهم، ويحيلهم إلى أناس واهنين تغطي عليهم غرائزهم فيتبعون هواهم وينسون الآخرة. لقد حاول أن يريهم تقلّب الدنيا وعدم قرارها، ومكرها وخداعها ليعرفهم بواقعها فيزهدوا فيها الزّهد الذي عبّر عنه الإمام عليه السلام بوصفه: «أيها النّاس: الزّهادة قصر الأمل، والشّكر عند النّعم، والورع عند المحارم، فإنّ عزب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النّعم شكركم»<sup>(٢)</sup>.

نستنتج من هذا القول أنّ الزّهد في نظر الإمام علي عليه السلام يقوم على ثلاثة ركائز أساسية، وهي قصر الأمل، والشّكر عند النّعم، والورع عند المحارم. فعندما يعي المرء واقعه ويتذكّر أنّ الموت مدركه ولو بعد حين، فيمسكه هذا الوعي عن الظّلم ويتنّشل من نفسه المطامع والأحقاد والشّرور، وعندما يكون شكره بالفعل لا باللسان، فلا يمسك يده عن فعل الخير، واصطناع المعروف للنّاس، لأنّه يعي أنّ ما ينفقه في سبيل الخير باق له عند الله، وعندما يتورّع عن المحارم لأنّه يفهم الدنيا على واقعها، فهذا هو الزّاهد الحقيقيّ الذي ينظر إلى الأمور نظرة واقعية، فلا يملك عليه لبّه فوات ما فاتته، ولا يعمي بصيرته عن واقع

(١) م.ن. خ ١٣٢، ص ٣٠٦.

(٢) ابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٢٣٠.

حياته فرحه بما أوتي، وهذا هو الزهد الذي دعا إليه الإمام عليه السلام أصحابه، وهو موقف يوازن بين حاجات الإنسان الجسميّة والروحية. وهذا ما يؤكّده قول الإمام عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربّه وساعة يرمّ معاشه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل...»<sup>(١)</sup>.

وإنّنا لنجد الكثير من الشواهد على الزهد في كتاب نهج البلاغة، كما في قوله: «الزهد ثروة»<sup>(٢)</sup>، وكما في قوله في عهده لواليه على مصر «مالك الأشر»: «أمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويَزَعها عند الجمحات، فإنّ النّفس أمارّة سكن بالسوء إلا ما رحم الله»<sup>(٣)</sup>.

### ترويض النّفس:

النّفس تحتاج إلى تعليم وترويض بهدف التّزكية، والعلم يوضح معالم الطّريق، ويعرّفنا حدود النّفس وما يصلحها وما يفسدها. أمّا الترويض بالتّجاه الهدف السّامي فهو تزكية للنّفس من أجل صلاحها، وهذه هي المهمّة العظيمة التي قام بها الإمام علي عليه السلام بعد الرّسول صلّى الله عليه وآله. ولم تكن هذه المهمّة بالأمر السّهل على أمير المؤمنين عليه السلام لأنّ النّفس تشبه الحصان الشّارد الذي يصعب ركوبه إذا لم تروّضه. فإذا ما روّضنا النّفس وأمسكنا عنانها وضبطنا حرّكتها، أمكننا حمايتها من الانحراف وتوجيهها إلى الطّريق السّليم. ليس الأمر سهلاً، ولكنّه ليس عسيراً، فترية النّفس ومتابعتها تحتاج إلى مواكبة دائمة ومستمرّة لكي تصبح مجاهدتها أكثر سهولة، حيث تتحوّل الطّاعة إلى نمط وعادة، وهذا ما أكّده أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «لقاح الرّياضة: دراسة الحكمة، وغلبة العادة»<sup>(٤)</sup>. فدراسة الحكمة تضع الأمور في نصابها،

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٠٢.

(٢) محمّد عبده، م. س. ح ٣، ص ٦٦٣.

(٣) م. ن. ك ٥٣، ص ٦٠٤.

(٤) الآمدي، غرر الحكم، ٥٤٣، ٧٢٣٩.

وتبيّن الحقّ من الباطل، والتّغلب على العادة السيّئة ينقي النّفس والسّلوّك ليفسح في المجال أمام العادة الحسنة، وهما لقاح رياضة النّفس لقيادتها نحو الفلاح، لأنّ النّفس إذا ما تركت من دون ترويض، اختارت الباطل، والحرام والانحراف والملذّات المحرّمة.

### تزكية النّفس:

اهتمّ الإمام علي (عليه السلام) اهتماماً خاصّاً بالتزكية لما لها من أثر في تنمية النّفس التي تعتبر جوهرًا ثمينًا، وأمراً ملكوتيًّا جاء من عالم الكمال، فهي منشأ كلّ الفضائل والقيم الإنسانيّة؛ لذلك وجب تربيتها على الأخلاق والقيم، كما في قوله (عليه السلام): «إنّ النّفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها، ومن ابتذلها وضعها»<sup>(١)(٢)</sup>. والنّفس التي يمدحها الإمام (عليه السلام) في هذا المورد هي المرتبة العليا من النّفس في بعدها الإنسانيّ الذي هو أسمى مراتب الإنسانيّة وأرقاها. أمّا النّفس التي ذمّها الرسول (صلى الله عليه وآله) في قوله: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»، فإنّها يذمّ البعد الحيواني منها. وبذلك يكون للنّفس مرتبتان: مرتبة دنيا ومرتبة عليا. والنّفس بمرتبتيها الدّنيا هي حيوانيّة الميول؛ أمّا بمرتبتيها العليا، فهي إنسانيّة ملكوتيّة طاهرة كاملة، إلّا أنّها تحتاج إلى التّربية والتّهذيب لتصل إلى كمالها.

فإذا عرف الإنسان نفسه حقّ المعرفة، وأدرك أنّه أتى من عالم الكمال، عالم القدرة والعلم والمعرفة والرّحمة والإحسان والخير والعدالة، لا بدّ له أن يسعى إلى الكمال والوصول إلى مقام القرب الإلهي، حتّى يتلاءم مع العالم الذي أتى منه. لذلك أكّد الإسلام أهمية معرفة النّفس بصفتها مقدّمة للتزكية، وركّز الإمام علي (عليه السلام) على هذا الجانب، فقال: «معرفة النّفس أعرف المعارف»<sup>(٣)</sup>. فالإنسان الذي يعرف مقامه الواقعيّ في عالم الخلقة يجب عليه أن ينمّي

(١) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ص ٦٤.

(٢) الآمدي، غرر الحكم، ص ١٣٩.

(٣) م. ن. ص ١٣٩.

بعده الإنساني لا الحيواني ويلاحقه بالتزكية، ويربي فيه القيم والفضائل حتى يصل إلى الكمال المنشود ويكون لا ثقاً بحمل الأمانة وخلافة الله على الأرض، واستحقاق الجنة في الآخرة. ولذلك أراد الإمام (عليه السلام) من أصحابه أن يعتبروا التزكية من أولوياتهم.

وفي وصفه للمتقين، يعتبر الإمام (عليه السلام) أن من أهم فضائلهم انشغالهم الدائم بتزكية أنفسهم، فيقول (عليه السلام): «لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكي أحد منهم خاف مما يُقال له. فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي..»<sup>(١)</sup>.

#### التحذير من اتباع الهوى وطول الأمل:

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) مخاطباً جمهور المسلمين: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»<sup>(٢)</sup>.

فالإمام (عليه السلام) إنما يريد من هذا الكلام التحذير من اتباع الهوى والانجرار وراء الشهوات والرغبات التي تذهب بالإنسان إلى الهلاك وخسارة الدنيا والآخرة، وهذا ما جعله خائفاً على شيعته الذين يحبهم من أن يتبعوا أهواء أنفسهم كون النفس لها مآرب ومطالب تخالف ما أَرَادَهُ اللهُ لَنَا. فعلى الإنسان أن يجاهد النفس ولا يتركها على هواها وأن يتجنب طول الأمل، فلا يقضي الوقت غارقاً في الأحلام وما يرجو حصوله منها في المستقبل، فينشغل عن ذكر الله سبحانه وتعالى وينسى الآخرة. بل عليه أن يعمل كل ما بوسعه من خير وتقوى في دار الدنيا الفانية لدار الآخرة الباقية التي هي يوم الحساب.

(١) م. ن. خ ١٩٣، ص ٤٤٦

(٢) ابن أبي الحديد، ٢ / ٤٤٠.

## الخاتمة

ختامًا، أشير إلى أن الإحاطة بالتربية العلوية، والكشف عما تحويه من الدرّ المشور، لا يمكن أن تنهض بها عجالة كهذه العجالة التي بين أيدينا. نظرًا لما يمتاز به هذه التربية من العمق والدقة والشمول والتكامل في أهدافها وأساليبها ومبادئها، إذ لم يكن غرضنا في هذه الدراسة غرضًا إحصائيًا، بل كان لتلمس ميزان هذه التربية السامية التي شكّلت دستور حياة عجز العلماء والفلاسفة والتربويون أن يأتوا بمثله، والتي امتدت أبعادها امتداد تاريخ البشرية، فلم تكن حكرًا على جيل أو قرن، وإنما تصلح لكل الأجيال، ولكل القرون والحضارات المبنية على إيمان بالله وبشريعته.

ويبقى أن النتائج التي توصل إليها البحث:

اهتمّ الإمام علي (عليه السلام) اهتمامًا بالغًا بالتربية المنبثقة من منهج إسلامي أصيل، وروح إنسانية وثابة في الدعوة إلى تربية شاملة، تساهم في تهذيب النفس وتزكيتها وتحريرها لتتقاد إلى صاحبها بدل أن تنقاد إلى أهوائها وملذات الدنيا ومغرياتها، وتغرق في اللحظة المادية المعاشة ما يشكّل حاجزًا أمام سموها ومستقبلها الدائم، فعمل على تزويدها بروح الخير بحيث لا تسعى إلا للخير، فتفوز بطاعة الله والسير في سبيله، وسلوك سبيل السعادة في الدارين: دار الدنيا ودار الآخرة..

ركّز الإمام (عليه السلام) على أساليب كثيرة في التربية السلوكية والأخلاقية من شأنها أن تساهم في اكتساب السلوك الحسن والأخلاق الحسنة، كالموعظة، والأسوة الحسنة، والنظر في سير الماضين والاتعاظ بها حدث لهم، والترغيب والترهيب، والمحبة والتودّد، والمراقبة الذاتية، والابتلاء وغيرها من الأساليب التي اعتمدها الإمام من أجل النجاح في تربية الجانب الأخلاقي في الإنسان.

بين الإمام (عليه السلام) منزلة العقل ودوره الفعال في عدّة مواضع، فرفع من مكانته واعتبره المظلة الواقية من الخطأ في الإدراك، وعرض لبعض الأساليب التي من شأنها أن تساعد في التنمية العقلية كطلب العلم، والتفكير والتفكير، والعمل والتجربة، والنقاش والمشاورة.

اهتمّ الإمام بتربية النفس وتوجيهها من خلال بعض الأساليب التي من شأنها معالجة الأمراض الناشئة عن ظروفها المختلفة كذكر الله تعالى، والتقوى، والزهد، وترويض النفس وتزكيتها وتحذيرها من اتباع الهوى وطول الأمل.

أخيراً يمكننا القول أنّ الإمام علي (عليه السلام) قد منح الهوية والكرامة لأمتنا، فرّبى جيلاً فاق الأمم في كلّ مجال، وغير ملامح التاريخ، الذي سطر آيات الحق ومسيرة النور الذي بدّد الظلام والظلمات، فجاء فياضاً بالخير صداعاً بالحق، طافحاً بالخلق الكريم، وقد أتى مناسباً لكلّ أمة، مجتازاً حدود الزمان والمكان ليكون حلاً لكلّ ظرف ولأيّ ظرف، مهما كان، وأياً كان.

وما أحوجنا اليوم -وقد مزّقت رياح الأهواء شرّاع الرسالة، وطفوا المسلمون على أمواج التاريخ كغشاء السيل، ووقف بنا العالم على شفا حفرة من نار- إلى تربية مثل التربية العلوية تعصم نفوسنا من الميل إلى الباطل، وتروّضنا على إحقاق الحق، وتقينا شرّ طول الأمل واتباع الهوى علّنا نعيد لرسالة الحق سيرتها الطاهرة.

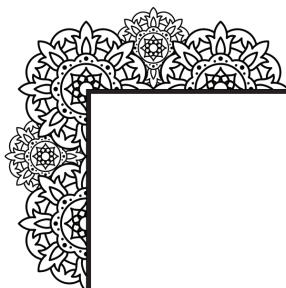
## المصادر

### القرآن الكريم

١. ابن أبي الحديد، محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٥، شرح نهج البلاغة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٢. ابن سينا، علم الأخلاق.
٣. ابن منظور، ١٩٩٨، لسان العرب، علّق عليه علي شري، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٤. ابن ميثم البحراني، ١٩٩٩، شرح نهج البلاغة، بيروت، دار الثقلين.
٥. أديب صعب، ١٩٥٥، الدين والمجتمع: رؤية مستقبلية، ط٢، بيروت، دار النهار للنشر.
٦. أرسطو، ١٩٢٤، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، ج١، القاهرة، دار الكتب المصرية.
٧. أفلاطون، ٢٠١٧، جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خبّاز، القاهرة، مؤسسة هنداوي.
٨. الأمدى، غرر الحكم ودرر الكلم، قم، مكتب الإعلام الإسلامي.
٩. أميرة برغل، ٢٠٠٥، المبادئ والأساليب التربوية في نهج البلاغة - دراسة مقارنة، بيروت، دار الهادي.
١٠. تهراني حائري وشبر مهدي، أسس الأخلاق الإسلامية، ط٣، طهران، مكتبة صدر.
١١. الحسن بن علي بن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، بيروت، مؤسسة الأعلمي للطبوعات.
١٢. الحيدري، سيد كمال، ١٤٢٦، مناهج المعرفة عند الإسلاميين، قم: دار فراق للطباعة والنشر.



١٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، بيروت، دار المعرفة.
١٤. رونه أوير، ١٨٨٥، التربية العامة، ترجمة عبد الله عبد الدائم، بيروت، دار العلم.
١٥. الزبيدي، تاج العروس، دار صادر.
١٦. الزمخشري، ١٩٦٥، أساس البلاغة، بيروت، دار صادر.
١٧. الطباطبائي، مستدرک نهج البلاغة.
١٨. الطباطبائي، ١٩٩٧، تفسير الميزان، ج ٥، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
١٩. عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، ٢٠١٤، غرر الحكم ودرر الكلم، لبنان، دار الهادي.
٢٠. الفضلي، عبد الهادي، ١٩٩٢، أصول البحث، ط ١، بيروت: مؤسسة دار المؤرخ العربي.
٢١. القرشي، باقر شريف، ١٣٧٨ هـ، النظام التربوي في الإسلام، دار الكتاب الإسلامي.
٢٢. لويس المعلوف، المنجد في اللغة، ط ٢٢، بيروت، دار المشرق.
٢٣. مجمع اللغة، ١٣٩٠ هـ، معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٤. محمد بن الحسين الحرّ العاملي، ١٤٠٩ هـ، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث.
٢٥. محمد رضا شرفي، ٢٠٢٢، التربية والتعليم في نهج البلاغة، ترجمة رلى السعيد، لبنان، بيروت، دار المعارف الإسلامية الثقافية.
٢٦. محمد ريشهري، ميزان الحكمة، ج ٣.
٢٧. محمد عبده، ١٩٨٩، شرح نهج البلاغة، ط ١، بيروت، دار البلاغة.
٢٨. مرتضى مطهري، ١٩٩٢، في رحاب نهج البلاغة، بيروت، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

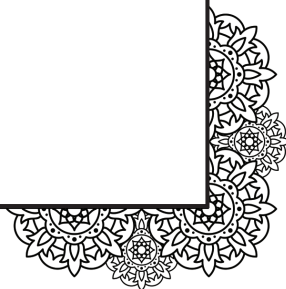


**المخاطبون وأوصافهم**  
**في الخطبة الفدكية بين الشدة واللين**  
**دراسة من منظور النقد الثقافي**

الباحث

أ.م.د. زيد عبد الحسين يوسف

جامعة جابر بن حيان للعلوم الطبية



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله بجميع محامده كلَّها على جميع نعمه كلَّها، والصلاة والسلام على محمد خير خلق الله وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى قيام يوم الدين.

وبعد.... تتمحور الدراسة المقدمة إلى مؤتمر العتبة الكاظمية المقدسة الثالث عشر، المعروضة أمام القارئ، بوصفها محاولة لإيجاد فهم آخر لنص الخطبة الفدكية، وحلّ لإشكالية يراها الباحث مهمة، والمتعلقة بزم الزهراء عليها السلام للعرب، اعتماداً على أوصافهم قبل الإسلام، نحو كيف كانت وسائل معيشتهم؟ ما يأكلون وما يشربون؟ وما شخصيتهم المعنوية بين القبائل العربية؟ إذ تقول عليها السلام: (وكنتم على شفا حفرة من النار، نهزة الطامع، ومذقة الشارب، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أدلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم)، فلو عدنا إلى معاني المفردات لتبين الفارق بين ما قيل وبين الخلق السامي لربيبة النبي عليها السلام، فضلاً عن ذلك أن الزهراء عليها السلام نتاج صالح عن تعاليم القرآن الكريم، فهي فاهمة وعارفة وواعية لمضامينه، فيقول الله تعالى: ﴿مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، فهل مولاتنا بعيدة عن المدح القرآني والنبوي لدافعي الكرب عن وجه النبي من الأنصار والمهاجرين؟ كلا وحاشا. وإذا ما جمعنا ما تقدّم مع سياسة الإسلام في محو التاريخ الشرقي لكل من دخل خيمته، ووضعه في المنسيات، فالأولى محو العادات والتقاليد الجاهلية التي تعدّ إفرازات

اجتماعية تتمحور ضمن العقل البشري السائد؛ فالتطور الذي يتتاب الإنسان يسير ضمن حقيقة أنّ اللاحق يلغي السابق، بوصف أنّ التجارب البشرية يصيها التبدل والتقلب مع المتغيرات المجتمعية، فلا معنى لذكرها بعدما غادرها أهلها ومحامها الإسلام.

ولقد وجد الباحث أنّ أغلب الدراسات مالت إلى البحث التاريخي، أو أسلوبية الخطبة، أو دراستها من الوجهة العقائدية، ولم نقف أمام أي دراسة تحليلية لموقف الزهراء (عليها السلام) من هذه الأوصاف، سوى ما عرض له الباحثان أنسام عادل الخزعلي وعلي جعفر الربيعي من الخصائص الأسلوبية في خطبة الزهراء (عليها السلام) الفدكية، والمهتمان في إظهار بلاغة الكلام، ودراسة الباحثين إسرائ شرشاب عايد وهدى جواد كاظم في دراستهما (دراسات في الخطبة الفدكية) العاكفة على بيان التفاصيل التاريخية حسب. وكلّ ما تقدم: غرس في قلب الباحث أن ينحى باتجاه دراسة المضامين وفق المنهج الثقافي المتعلق بالدراسات الثقافية؛ فقد وقع اختياره على دراسة الأنساق المضمرة فيه، أملاً الإفصاح عن أهم الرسائل المخفية في عملية ذكر أوصاف العرب المسلمين، المتصلة بأيامهم قبل الإسلام.

وجاءت الدراسة مكونة من تمهيد وثلاثة مطالب، يعقبهم خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع. فكان عنوان التمهيد عبارة عن إجابة لتساؤل في ذهن الدارس، لماذا ندرس الخطبة الفدكية وفق المنهج الثقافي؟ أمّا المطلب الأول فورد معنوياً بـ (نسق الرفض)، الذي تكفل ببيان النسق المضمّر، المتخفي خلف الألفاظ والعبارات، المتمحور حول رفض الزهراء السياسة القائمة للحكم بعد أبيها النبي (صلى الله عليه وآله). فكلّما اشتدّ الرفض زادت الألفاظ قوة وناسبتها حدّة. أمّا المطلب الثاني فقد ركّز على إظهار علاقة النسق المضمّر بالحجاج الوارد بالنص، فجاء معنوياً بـ (نسق الحجاج) الذي لا يخلو من كسر المألوف في الدراسات السائدة للنقد الثقافي، إذ برهن الباحث علّة استعمال مصطلح الحجاج، وعلاقته بالخطبة المدروسة وأنساقها المضمرة. ثم جاء المطلب الثالث حاملاً عنوان (نسق ذكر الماضي والاعتبار به)

الذي اتسم بالمفارقة النصية في ظاهره بينه وبين المطالب المتقدمة، إلا أنّ هناك خيطاً دلاليّاً يربطه بالمطالب السابقة، فقد عمدنا فيه إلى دراسة نسق الماضي وأخذ العبرة منه، بما يحمله من قضايا ذات الصلة بالمادة الأولية للرفض وأسباب الحجاج وأدلّته.

وفي الختام: يرجو الباحث من الله تعالى التوفيق السداد والعون والعصمة فيما يفكر وفيما يسطّر. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

### التمهيد: لماذا ندرس الخطبة الفدكية وفق المنهج الثقافي؟

تسعى الدراسة الماثلة أمام القارئ إلى الوقوف على إشكالية محددة ومعينة، وهي إجابة عن التساؤل الآتي: إنَّ الإسلام محاً التاريخ الشري لكل من دخل خيمته، فمحا العادات والتقاليد الجاهلية التي تعدّ افرازات اجتماعية تتمحور ضمن العقل البشري السائد وقتئذٍ، فالتطور الذي يتتاب الإنسان يسير ضمن حقيقة أنّ اللاحق يلغي السابق، والتجارب البشرية يصيها التبدل والتقلب، فلا معنى لذكرها بعدما غادرها أهلها ومحها الإسلام؛ فلماذا وردت في الخطبة الفدكية ألفاظ من لسان الزهراء (عليها السلام) تذكر المسلمين الأوائل بأيام قد محاً الإسلام أثرها؟ ولا تناسبها بوصفها ربيبة البيت النبوي؟

ومن هنا وجد الباحث وجوب الإلتزام بمنهج علمي يقوده إلى حلّ هذه الإشكالية بطريقة علمية أكاديمية، فنظر إلى النقد الأدبي ومناهجه، فوجده ميّالاً لإظهار القيم الجمالية المودعة في النصّ الأدبي، وقد يقلّ جهده في اختراق قلب النصوص وعين مرادها ومرامها، بينما وجد ضالّته في النقد الثقافي الذي يحاول سبر غور النصّ للوصول إلى (دراسة الممارسات الثقافية من الناحية الاجتماعية والذاتية والتاريخية والأخلاقية والقيم الحضارية والسياسية والدينية أيضاً)<sup>(١)</sup> من خلال المخفي المسكوت عنه في ظاهر النصّ، لذا توجه إليه بوصفه فرعاً (من فروع النقد النصوي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة، وحقول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وانماطه وصيغه)<sup>(٢)</sup>.

(١) النّسق الثقافي المضمّر في شعر ديبك الجنّ الحمصي (ت ٢٣٥هـ / (بحث) أ.د. حربي نعيم محمد الشبلي، حوراء فريق عبيد المهالي / جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية / مج ٨ / العدد ٣٠ / السنة السابعة، ٢٠٢١م: ٧٤.

(٢) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية / عبد الله الغدامي / المركز الثقافي العربي / بيروت - لبنان / الدار البيضاء / ط ٣، ٢٠٠٥: ٣٢.

ولكن يتحتم علينا الإشارة إلى أننا عندما نتعامل مع النقد الثقافي، والأنساق المضمرة كأطروحة نقدية، معيّنة بالدراسات الثقافية التي انبثقت من عقل غربي، إذن نشأ النقد الثقافي وترعرع في بيئات غير بيئتنا العربية والإسلامية، وأخذ معالمة وأدواته من استقراء وتطبيق على نماذج أدبية من إنتاج بشري غربي، فلا يمكن أخذ طرائقه في التعامل مع النصوص الإسلامية القديمة بقضها وقضيضها، وأن نكون حذرين من التعامل مع معطياته، ونحن نطبق أدواته على نصوص المعصومين (عليه السلام) الذين يقولون ما يعون، وما يصدر عنهم حق علينا اعتماداً تشريعاً وعقيدةً، وما دعا إلى هذا القول: إن من أسس المنهج الثقافي هو اعتماد النظرية القائلة بأن النسق يصدر عن غير وعي، فيقول أحد منظريه: (إن النسق الثقافي وجد بشكل غير ظاهر على سطح اللغة، وربما بغير وعي من الأديب نفسه، لكنه متواجد في عقله الباطن، وقد تمكّن من الاختباء، واصطناع الحيل للتخفي، فهو مختفٍ في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي للنص، ويتم اكتشافه عبر تفكيك وتحليل البنى الداخلية للخطاب)<sup>(١)</sup>، ونحن نتعامل مع نص إسلامي، نؤمن بقائله أنه يعي ما يقول، ويدرك مقولته، وما نبحت عنه القضايا الدفينة التي سيوضحها لنا النقد الثقافي، فدلالة نسقية محتبئة تحت الغطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء لتغرس ما هو غير جمالي في الثقافة)<sup>(٢)</sup>، والمعول منه تطبيق أدواته الإجرائية بما يتلاءم مع طبيعة المنشئ، فضلاً عن إضاءات نصية عسوية على الفهم، استناداً إلى مبدأ وجود الأنساق المضمرة في الخطاب الأدبي، فالنقد الثقافي يوصف بأنه (مجال نقدي، يتوجه إلى الكشف عن المضمير الثقافي الثاوي في النصوص والخطابات، وما كان في حكمهما، ويتوسل لذلك بأدوات إجرائية ما بعد حديثة)<sup>(٣)</sup> فلا يكفي بالدراسات

(١) النسق الثقافي المضمّر في شعر ديبك الجن الحمصي (ت ٢٣٥هـ: ٧٥).

(٢) نقد ثقافي أم نقد أدبي / د. عبدالله الغدامي، د. عبد النبي اصطيف، دمشق/ دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٤م: ٣٣.

(٣) النسق المضمّر في الرواية القطرية/ رسالة ماجستير، اشراف، د. عبد الحق بلعابد/ اعداد، مرسل خلف الدواس/ جامعة قطر/ كلية الآداب والعلوم: ٢٠١٩م: ١٤.

الجمالية التي اعتادت عليها أغلب الدراسات النصية، بل يتجه صوب استثمار الجوانب الثقافية المودعة كأنساق (مهيمنة، وتتوسل لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أفنعة سميكة، وأهم هذه الأفنعة وأخطرها في دعوانا قناع الجمالية؛ أي إنّ الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئاً آخر غير الجمالية)<sup>(١)</sup>، فالجمالية النصية التي يودعها المنشئ قد يضع خلفها قضايا ثقافية وفكرية، بل مجالاً يُفهم منه ماذا أراد المبدع؟ وما سبب أقواله؟ وعينه ما تتجه دراستنا إليه، في معرفة أحوال الزهراء عليها السلام التي دعتها إلى مقولة معينة في أوصاف المسلمين اعتماداً على أيام جاهليتهم.

إنّ الدافع الرئيس من خطبتها هو عدم إعطائها حقّها من فذك، والمتلقي بحسب السياقات النصية، ينتظر من الخطبة إيراد الأدلة والبراهين المناسبة في إثبات أحقيتها، بوصف الأدلة محور الخطبة وعمودها الفقري، إلّا أنّ النصّ سيق فيه موضوعات غريبة عن جنس المناسبة والحدث، تمحورت في ذكر دور مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الإسلام، وقيمة والدها النبي صلى الله عليه وآله، ثم ذمّ تاريخ المسلمين، ومّرت على قضية فذك كإحدى المحاور المتعددة من دون أي خصيصة تميزها من غيرها، وذاته يبرهن لنا: إنّ هذه المحاور المتعددة لا بدّ من وجود خيطٍ رابطٍ يجمعها بلون واحد، قد فهمه وعرفه المستمع الأول للنصّ، نحو ذمّ المسلمين بتاريخهم قبل الإسلام وليس بسبب فذك، بل لوجود قضايا متعدّدة من الأنشطة الاجتماعية الداعية إلى هذا المقيّل اللغوي.

إذن نصل إلى نتيجة مفادها: احتواء الخطبة مطالب متعددة، لها معاني ظاهرة وأخرى مضمرة ومخفيات عدّة،<sup>(٢)</sup> لا بدّ من كشفها وإمالة اللثام عنها؛ فلا يصحّ الاعتقاد أنّ

(١) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: ٣٠.

(٢) يرى الدكتور عبد العظيم السلطاني وجود فرق بين المخفي والمضمّر. ظ/ نقد النقد الثقافي رؤية في مسألة المفاهيم والضبط المعرفي/ عبد العظيم السلطاني/ دراسات فكرية/ جامعة الكوفة/ ط١، ٢٠٢١م.



المناسبة مكوّرة لأمر محدد، ثم يجري الحديث عن شيء آخر. فلو عملنا استقراءً لنصّ الخطبة، لاتضحّت أماننا ثلاثة موضوعات، ترسم خطوطها العامة، بيد أنّ اختصاصها حسب ظروف النص ونشأته بقضية فذك، التي ضاعت وترجلت عن أهميتها بصفتها موضوعاً رئيساً لصالح موضوعات أخرى، حتى جاز نعتها بالعرض الثانوي، فهذه المفارقة بين المناسبة ونصّها، جعلت من الباحث يتأمل ويفكر في اختيار منهج يلامس الغاية من الدراسة، ذي أدوات نافعة في تحقيق الغاية التي وجدها في النقد الثقافي، أكثر من غيره في كشف المخفي والمضمّر في نصّ الخطبة الفدكية.

### المطلب الأول: نسق الرفض.

يتحتّم على الباحث العودة إلى مظانّ الكلمات في المعاجم القديمة، إذا ما أراد البدء بمعرفة مستوى التباين في التداول اللغوي للفظّة الواحدة عند العرب الفصحاء، ومقارنتها بالتطور الدلالي في استعمالاتها التداولية في العصر الحديث. ولو طبقنا ما قلناه على لفظّة الرفض، نجدها في اللغة: (التبدد والتفرّق، وهو إرسال القوم إبلهم دون راع، وهو انتشار عذوبة النخيل وغيرها... ورفض ارفضاً: سال وتفرق زمنها الروافض: جنود تركوا قائدهم)<sup>(١)</sup>، فابن منظور يوقفنا على وجوه عدة لاستعمالات القدماء لهذه اللفظة، التي تحتزن التمييز والتفرق وعدم الانقياد، إلّا أنّ المحدثين أفادونا بمعانٍ عندما مزجوا بين المستوى اللغوي والأفكار والإيديولوجيا، التي تداخلت مع دلالة الرفض. فأطلق جميل صليبيّا تعريفاً يربط به بين الرفض والتصميم والانقياد فيقول: (ويطلقه المحدثون على مقاومة الإرادة لدافع معين أو على رفضها التصديق بالأمر أو تأييد هاوٍ الانقياد له)<sup>(٢)</sup>، فما

(١) لسان العرب/ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) / دار صادر/ بيروت - لبنان/ ط ١٥ / ١٥٦.

(٢) المعجم الفلسفي/ جميل صليبيّا/ منشور ذوي القربى/ ط ١، ١٠ / ٦١٨.

دامت عملية الرفض تسير ضمن مقاومة الدوافع، وهي قضايا وجدانية تنم عن مرتكزات باطنية عاقلة فاهمة، ولا تصدر من فرضيات غريزية تسيطر عليها الشخصية والضعف العقلي<sup>(١)</sup>، فقد ينتج (خلق جديد للإنسان وإعادة تنظيم للذات)<sup>(٢)</sup>، وذلك عندما يحدد بوصلته في (اختيار حرّ لإقرار المصير الإنساني للذات)<sup>(٣)</sup>، وإذا كان الرفض قادرًا على إبداء الخلق الجديد، من خلال كسر المفاهيم، فهذا يعمّق الاعتقاد عندنا، بأن النسق المضمر الذي يخالف النسق الظاهري أصبح مجالاً رحباً لحلّ التساؤل: ما فائدة الأوصاف السيئة في حقّ أناس بكوا لبكاء الزهراء (عليها السلام) وتجاوبوا معها، وتعاطفوا مع محتتها، بل وأجهشوا بالبكاء من أجلها؟ بيد أنّها تصفهم بما كانوا عليه من الحال السيء<sup>(٤)</sup>، فهل الحقّ والإنصاف مقابلتهم بتذكيرهم بأيامهم السوداء وضعف حالهم؟ وقد يزيد الموقف حرجاً أن المتلقين يعيشون بمجتمع ذكوري يقدم الرجل على المرأة، ويتعالى عن سماع النصح منها.

نقول: إذا فهمنا أنّ كلّ خطبة تكتنف بصورتها العامة مضموناً موحدًا، وخيطاً معنويًا رابطًا، جامعًا لمفاصلها، ومرسّخًا غرضها، سواء أكان ظاهرًا أم مخفيًا، فإذا كان الغرض الأساس هو ذمّ الموجودين أثناء الخطبة، وتعريتهم بسبب تاريخهم قبل الإسلام، فإنّ واقع الخطبة المروي يردّ هذا الاحتمال. فالعاقل اللبيب والمنصف يقطع بعدم صحة الموقف السلبي اتجاه أناس تجاوبوا مع خطبتها (عليها السلام)، فضلاً عن ذلك أنّ الخطبة لم يطلق لها الرواة الأوائل عنواناً كخطبة فذك بوصفها بيان أحقيتها بأرض فذك، أو إشاعة مستوى

(١) ظ / م. ن: ١ / ٦١٨.

(٢) الرفض في الشعر العراقي الحديث (١٩٢١-١٩٥٨م) / أطروحة دكتوراه / عمار سملن المسعودي / إشراف: د. د. علي محمد حسين الخالدي / جامعة الكوفة - كلية الآداب / ٢٠١٠م: ١٥.

(٣) م. ن: ١٥.

(٤) ظ / كتاب بلاغات النساء / الإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (٢٠٣هـ - ٢٨٠هـ) / شرحه وصححه، أحمد الألفي / مطبعة مدرسة عباس الأول / مصر - القاهرة / د. ط، ١٩٠٨م: ١٧.

ظلم المانعين حتى نقطع من خلال العنوان أحادية غرض الخطبة<sup>(١)</sup>، بل جاءت متعددة الأغراض الرئيسة، وهو ما دعانا إلى التعامل مع النصّ متعدد المضامين، بطريقة الشكل الواحد، وقطعاً مترابطة الأجزاء، كلّ جزء في خدمة الأجزاء الأخرى، وإن اختلف في ظاهرها، لكنّ النصف المضمّر أدّى دور الحاكم في توحيد المضامين، وبذلك نشبت فكرة الرسالة الواحدة، التي توجه العقول نحو دلالة الرّفص التي ساقتها خالقة النصّ ﷺ، وعلاقتها بشدة المعاني وقساوة الألفاظ.

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ الخطبة التي ضمّت عدّة ألفاظ وعبارات يراد منها القدح والذمّ، قد توافرت على مدائح تقابلها، لا يمكن الإغماض عن دلالتها، وإشعاعاتها التقابلية مع ألفاظ القدح والذمّ، وهذا يبرز لنا تنوّع حركات الدلالة بين الرّفق والشدّة، ومسايرة الهجوم والتعنيف مع السّماحة واللين، وكلّه في خدمة غرض معين يقصده المشي، ومن ثمّ ألقى التنوّع في صناعة الموقف الأدائي أثراً على الأداء اللغوي في اختيار ألفاظ النصّ. فالتعابير التي حملتها الألفاظ أدّت دورها في خدمة المعنى الموحد العام المركزي للخطبة، الذي انساب مع حال الرّفص والاعتراض، وما يحتاجه من خلق جو مشحون بمقدار عالٍ من القوة والحذّة، المبتعد عن اللين والظرافة.

فظاهر الخطبة في طابعها العام، أنّ مولاتنا الزهراء ﷺ تسير وفق آية ذكر المقامات، وهو أمر محمود في إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وإنصاف الأمة حسب مواقف أبنائها، ولعلّ ذلك دعاها ﷺ إلى توظيف الأوصاف القادحة بشخصية السامعين للخطبة، بغية تذكيرهم بتاريخهم القريب؛ المعظم لما قدّمه النبي ﷺ، واستثماره دليلاً عليهم حتى ينزل منزل الحقّ في

(١) وردت المدونات السردية القديمة دون أي ذكر للعنوان في مقدمتها، فهو لون حديث في مبدأ السرديات. وقد يحدد العنوان مضمون النصّ ويجمع شتاته، إلّا أنّ خطبة الزهراء ﷺ خلت من العنوان في روايتها، فلم يضع الرواة الأوائل اسمًا لها، ولا وصفًا معينًا يقوم مقام العنوان. وما ذكره الباحث من عدم ذكره في الخطبة للإشارة إلى امتلاكها خيطاً دلاليّاً رابطاً من داخل النصّ، وليس من عتبة العنوان النصية.

نفوسهم، والتلميح من بعيد أنّ الأوصاف السيئة تلحق بهم متى عادوا إلى جاهليتهم التي ترفضها الزهراء (عليها السلام) بنت الرسول (صلى الله عليه وآله)، وتعدّه نوعاً من العودة إلى الوراء، ونكوصاً على الأعقاب<sup>(١)</sup>، فالذمّ يناسبهم مع العودة إلى الجاهلية، بينما الذي ثبتوا وبقوا على عهدهم مع النبي (صلى الله عليه وآله) شملتهم تلك الأوصاف الراشدة الطيبة.

ولا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إنّ الألفاظ التي تحمل الرفض المضمّر جاءت لخلق روح الصدمة في السامعين، وتنبهها لأبناء الأمة، فتراهم الزهراء (عليها السلام) قد تركوا القرآن، الفارض عليهم ردّ الجميل على تبليغ الرسالة النبوية، الذي عدّه ديناً في أعناق المسلمين نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نِّدْلُهَا فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾<sup>(٢)</sup>. فكلّ العبارات الدالة على التاريخ الماضي الواردة في الخطبة إجابة لتساؤل افتراضي خفيّ: هل عمل المسلمون بالمودّة لذوي قربي النبي؟! فالخطبة فيها معادل موضوعي ضمن هذا التساؤل، والزهراء (عليها السلام) لم تحب عنه بنعم أو لا، بل من خلال طرح الماضي بما فيه من حمولاته الفكرية والسلوكية، مع مقارنة خفية يجربها عقل السامع من دون وجود أمر من المتكلم؛ لأنّ الموقف يميل على المتلقي عقد المقارنة المضمرة، أي كيف كنتم؟ وأين وصلتم؟ فهل جزيتم من حملكم إلى ذلك؟ وهذا ما دعا الباحث إلى القول بوجود الرفض المضمّر في الخطبة.

ولعلّ مولانا الزهراء (عليها السلام) استشرفت المستقبل، وعلمت أنّ الأداة الإعلامية ستحول الرفض الجذري إلى اختلاف ثانوي طبيعي، يتمحور حول معرفة الدليل الشرعي لإعطاء

(١) موقف الزهراء مع الراغبين في إعادة الحياة الجاهلية بحمولاتها مرة أخرى، إنّما هو موقف قرآني عندما ذكر الانقلاب على الأعقاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

سورة آل عمران: الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الشورى: الآية: ٢٣.

فدكاً؛ فلو امتلك الخليفة الأول الحكم الشرعي والقضائي، لسلم فدكاً الزهراء (عليها السلام)، فيقول أحد المحدثين: (نقول: إن الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا نحب أن نخوض فيه؛ لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن نذكر في هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد، فإنه أجدى من اللهو في جدال لا سند له، يسلمه جميع المخالفين. فيقل الخلاف -ولا شك- حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر، وأن قائله يعدّه في نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة في التحضير. ويقل الخلاف -ولا شك- حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه، فإن حفظه فإنما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه. فإذا قل الخلاف في هذا فعلام إذن يكثر الخلاف؟<sup>(١)</sup> فهذه محاولة لتقليل من شأن الخطبة ومضامينها، إلا أن قوة الألفاظ وشدتها، والعبارات وجفاءها، والأوصاف وقوتها، فقأت عين هذا الاحتمال، وتفند هذا الاتجاه، وسد الباب على هذه الدعوى، حتى جاء الرد على ما تقدم: (ألاحظ أن تركية موقف الخليفة والصديقة معاً أمر غير ممكن، لأن الأمر في منازعتها لو كان مقتصرًا على مطالبة الزهراء (عليها السلام) بفدك وامتناع الخليفة عن تسليمها له لعدم وجود مستمسك شرعي يحكم بواسطته لها بما تدعيه، وانتهاء المطالبة إلى هذا الحد، لو سعنا أن نقول إن الزهراء (عليها السلام) طلبت حقها في نفس الأمر والواقع، وإن الخليفة لما امتنع عن تسليمها لها لعدم تهيؤ المدرك الشرعي الذي تثبت به الدعوى تركت مطالبتها، لأنها عرفت أنها لا تستحق فدكاً بحسب النظام القضائي وسنن الشرع، ولكننا نعلم أن الخصومة بينهما أخذت أشكالاً مختلفة حتى بلغت مبلغ الاتهام الصريح من الزهراء وأقسمت على المقاطعة)<sup>(٢)</sup>. وعينه ما عرضه الباحث من وجود نسق الاعتراض والرفض المضمّر خلف سرد الأوصاف للعرب.

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون/ عباس محمود العقاد/ مؤسسة هنداوي/ ط ١، ٢٠١٤ م: ٤٠.

(٢) فدك في التاريخ/ بقلم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره/ تحقيق الدكتور، عبد الجبار شرارة/ مركز الغدير للدراسات الإسلامية/ ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م: ٥٦.

ونستلهم من سياسة الرفض القاطع في موقف الزهراء (عليها السلام)، أنّها تؤسس لدحض فهم خاص يستولى على الفكر، وهو ذكورية الموقف، بينما الزهراء (عليها السلام) دحضت هذا الاتجاه عندما تناولت أصعب موضوع في حياة الإسلام، وهو خلافة النبي، أو الحاكمية الإسلامية. فعندما وجدت صدوداً ومعارضة لم تنكفى ولم تصمت، وإنّما عارضت بالكلمة والحضور الراض، وعلا صوتها بالرفض، ولجأت إلى المعارضة لأعلى سلطة، لتكشف عن حقيقة موقفها ومبدئها، أنّ القيام بالواجب الديني مفروض على الرجال والنساء، متى تقاعس الرجال عن القيام بمهامهم. فضلاً عن ذلك يوحى موقفها (عليها السلام) الراض بأنّ الأمر بالمعروف ليس منحصراً بالحلل والحرام حسب، وإنّما يدخل في تحديد صلاح الأمة وفسادها. من هنا يرى الباحث دخول النسق الظاهري والمخفي؛ فقوة الأوصاف وشدّتها جاء ردّاً في طياته من الفهم من امتهان المرأة ويؤكد ذلك قولها: (أَيُّهَا النَّاسُ! اْعَلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلَا أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلَطًا، وَلَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطًا: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَعَزَّوْهُ وَتَعَرَّفُوهُ مَحْذُوهٌ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ)<sup>(١)</sup>، وعدم إعطائها حقّها في تحديد مصير إرثها، يرجع إلى خلفيات جاهلية المبدأ، المفضلة للعنصر الذكوري. فهذه الرواسب الجاهلية لم تنقل جذورها من التفكير العربي، فلاهمية الموضوع المرفوض عندها (عليها السلام) بادرته برفض قوي من خلال الأداء اللغوي بالفاظ الذم، ذات النمط المخالف للحوار الثنائي، حتى يعرف الجميع بالمعركة التي تديرها؛ فقد مثل الرفض طرفاً منها، والتفكير البدوي طرفها الآخر، فلولا الشدّة والقوة في الأداء الكلامي لأطلّت الجاهلية بعنقها بسبب السكوت والصمت.

---

(١) بلاغات النساء: ٢٠.

وخلاصة قولنا: إنَّ شدة الوصف تناسب مع حال الرفض الذي أرادته الزهراء (عليها السلام) مخيماً في خطبتها، وحتى يحلَّ الأداء اللغوي الرافض في النصِّ بمنزلة التصوير الفوتوغرافي لمشاهد الواقعة التاريخية، وعلامات سيميائية غير منظوقة، تكشف عن تفاصيل الأحداث نوعيتها التي تزامنت مع قول الخطبة الفدكية. فلو ساقَت الزهراء (عليها السلام) الكلمات والألفاظ بطريقة ليّنة ناعمة، لتراجع مستوى التعبير الأدائي، وأعطى رسالة متوجّهة باللين والرخاء وعدم الاهتمام بالمجريات من لدن الزهراء (عليها السلام)، وهذا خلاف للواقعة. فلا وُصِفَ لم تكن مقصودة بعينها، وإنَّما لإثراء السامعين الحاضرين في زمن الخطبة، والتالين لهم إلى يومنا المعاصر، بوجود نمط ثقافي إقصائي بدوي حدث قُبيل الخطبة أو بُعدها. فالزمّانة بين موقف مبدع النص - فاطمة الزهراء (عليها السلام) - ومعارضتها السياسية أثرت في نمطية الأداء النصّي واختيار ألفاظه، لصالح إنتاج الحالة الرافضة الماثورة في ثنایا النص والمستورة بمعان ظاهرة، وحصلنا عليه من خلال الشدة بأعلى مستوياتها في الوصف.

### المطلب الثاني: نسق الحجاج

قبل الولوج إلى قضية الحجاج في النصِّ، يجدر بالباحث التنويه إلى أنَّ إدخال الحجاج في دراستنا، بوصفه من أدوات المنهج الإقناعي التداولي، و(فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنَّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي)<sup>(١)</sup>، وإقحامه ضمن دراسة النقد الثقافي، الذي لم تألف الدراسات الثقافية والنقد الثقافي هذا التقارب الاستعمالي.

ويعرض الباحث حجّته في الاعتماد على الحجاج أثناء دراسة أنساق خطبة الزهراء (عليها السلام) التي تتطلب معرفة النسق الظاهر، المنافي للنسق المضمّر أو المخفي، فـ(النقد الثقافي

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام/ د. طه عبد الرحمان / المركز الثقافي العربي / البيضاء-المغرب، ط٣، ٢٠٠٧م: ٦٥.

يكشف<sup>(١)</sup> أنساقاً متناقضة ومتصارعة، فيتّضح بأنّ هناك نسقاً ظاهراً يقول شيئاً، ونسقاً مضمراً غير واعي وغير معلن يقول شيئاً آخر<sup>(٢)</sup>. فالنسق الظاهر البائن يفرز القناعة التامة للقارئ، بأنّ الجو الحجاجي غداً مسيطراً على الموقف الفدكي، متمثلاً بأفعال مولانا الزهراء (عليها السلام) في أنينها وإخراج صوت زفراتها التي يطلق عليها حديثاً بلغة الجسد، فإذا ربطناها بوصف الحجاج (مجموعة الوسائل التعبيرية التي تسمح بحيازة أو تقوية انتباه الجمهور إلى الأطروحة، أو النظرة إلى الأشياء بوصفه نظرية لأثر الخطاب، فهو مرادف لبلاغة إدراك فنّ الاقتناع)<sup>(٣)</sup>، وهذا هو الظاهرة الحجاجي للمتلقّي من النصّ، الذي تظهر فيه الزهراء (عليها السلام) بحالتي التوتر النفسي، والشدّ العصبي التي تتابها أثناء مقليلها مع المخاطبين، نحو: (ثمّ أنّت أنّه أجهدش القوم لها بالبكاء، وارتج المجلس، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم، وهدأت فورهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه)<sup>(٤)</sup>. والمخاطبون سواء أكانوا سلطة حاكمة أم جلاسها،<sup>(٥)</sup> يستمعون إليها، وهي تجاهد لإثبات حال الحجاج وإيقائه خيماً ومسيطرّاً على أطراف الحوار، المعتمد على التفكير والتدبّر. ومن هنا وجد الباحث الرابط بين الحجاج والنسق المضمر في نصّ الخطبة، الذي لا انفكاك بينهما، بل لا يسعنا أن نفهم المضمر دون فهم الحجاج.

(١) والصحيح يكشف عن أنساق لأن الفعل (كشف) لا يتعدى بنفسه.

(٢) النسق المضمر في ديوان النبوة تتجلى في وضوح الليل لربيعه جلطي، دراسة في ضوء النقد الثقافي/ رسالة ماجستير/ مريم عزوي / اشراف: د. وداد بن عافية/ كلية اللغة والادب العربي والفنون/ جامعة باتنة/ الجزائر/ ٢٠١٦م: ٩.

(٣) معجم مصطلحات النقد الادبي المعاصر/ سعيد علوش/ ص ٨٢

(٤) كتاب بلاغات النساء: ١٦.

(٥) يدلّ على وجود الجالسين في مجلس أبي بكر بصورة كبيرة قول الراوي: (حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار). م. ن: ١٦



فيلحظ قارئ العبارات أنماطاً من الخفايا والمرامي البعيدة للسياق الحجاجي المخيم، نحو (ومذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام)<sup>(١)</sup> فالمذقة من: (اللبن الممزوج بالماء، مَذَقَ اللبنَ يَمَذِّقُه مَذْقاً)<sup>(٢)</sup> أي أنتم أيها العرب كنتم مادة طيعة بيد من غزاكم أو اعتدى عليكم، المنسوجة من خلال الصورة البيانية التشبيهية، المبنية على التالي: تشبيه صورة الأقوام أو القبائل عندما تغزو العرب تغزوهم بسهولة، دون تكلفة أو معاناة، بصورة الرجل العطشان الذي يريد شرب الماء، فيأخذه بطريقة سريعة وسهلة، دون إيجاد فترة زمنية أو مكابدة حتى يسدّ ظمأه، فقد استدعتها لِلْبَنِّ لنسق مضمّر مخفي في ثنايا العبارة، مفادها: إنّ العرب غادروا تلك الألوان من الضعف اتجاه أعدائهم، بعدما بنى الإسلام صرحهم القوي القويم، فتحتجّ عليهم بالماضي حتى لا يعودوا إلى الأسس السابقة السالفة التي أوصلتهم إلى منزلة الضعف والهوان، ولا سيما في تولية الأشخاص بطريقة قبلية محكومة بالأعراف الجاهلية، وتلزمهم باتباع المنهج الأصلح في الاختيار المعتمد على الكفاءة؛ وهذا الاحتجاج أفادنا في عملية معرفة الأسباب والدواعي من عملية ذكر فضائل الإمام علي في الخطبة، نحو: (مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللَّهِ، مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اللَّهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، سَيِّدَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مُشْمِراً نَاصِحاً، مُجِدّاً كَادِحاً)، وكأنّ النصّ يشير خفياً إلى أنّ ما تقومون به جاهلية جهلاء عندما تبذرون وتسقون الأعراف القبلية اتجاه الأعراف الإسلامية، فمثّل انتخاب أبي بكر صورة من جاهلية الحكم، ومثّل الإمام علي معايير الإسلام المبنية على العقلانية والمواصفات الفردية، وذاته أدركناه من المقابلة بين الطرفين.

(١) م. ن: ١٧.

(٢) لسان العرب: مادة (مذق) / محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) / دار صادر/

بيروت - لبنان / ١٠: ١ / ٣٣٩.

والحجاج (هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة)<sup>(١)</sup>، نجده قائماً على التدبر العقلي نحو قُبسة العجلان<sup>(٢)</sup>، وموطئ الأقدام<sup>(٣)</sup>، فظاهرها الحجاج، إلا أنها تضم أنساقاً ثقافية مستوحاة من صور الواقع المنكسر للعرب، وسيادة مشروع الضعف، ومن ثمَّ تُرخي عليه السلام العنان للمتلقي لبث المضمرة الثقافية إليه، من خلال سحب الماضي الأسود في صورته، وتضعها على طاولة واحدة مع أفعال الحاضر - أيام خطبة الزهراء عليها السلام - التي أطلقت جاهلية أيام العرب برأسها من جديد. فالخشية والخوف على الإسلام والمسلمين من عودة أساليب الجاهلية في اختيار الزعامات كان النسق الثقافي المضمّر لأغلب الحجاجات الواردة في النص.

ومن مؤيدات وجود الحجاج في النسق الظاهر، قول الرواة ببدء الخطبة بفعل جسدي لا قولي، نحو (أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء، وارتج المجلس، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه)<sup>(٤)</sup>، وإن دلَّ على شيء فيدلَّ على وجود توافق بين الزهراء عليها السلام والجالسين مع مطالبها، إلا أن الجميع سكتوا عن تأييد قولها، وامتنعوا عن نصرتها، لمحاذير معاداة السلطة<sup>(٥)</sup>. فجاءت عليها السلام بحجاجها

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ٦٥.

(٢) (القَبَسُ الشُّعْلَةُ من النار). لسان العرب، مادة (قبس): ٦ / ١٧٦. وقد لبَّى استدعاء هذا التشبيه للدلالة على ضعف العرب قبل الإسلام، من خلال تصوير حال السيطرة عليهم، كما يأخذ الفارس قبسة النار المتوافرة إليه، لكي تضيء طريقه، وعندما تنتهي مهمتها يرميها، فأعطت معنى السهولة بالتناول، وتركها عندما تنتهي مهمتها.

(٣) تريد الزهراء عليها السلام تشبيه صورة العرب قبل الإسلام أمام أعدائهم بصور الأشياء الملقاة على الأرض، وتأتي الحيوانات البرية، فتدوس عليها من دون رحمة، ومن دون ألم أو كلم يصيبها أو وجع أو مكابدة، لدلالة على وصفها جوامد لا حول له أو لا قوة.

(٤) كتاب بلاغات النساء: ١٦.

(٥) يرى الباحث وجود سياسة عامة في الخطبة، تدعو أبناء الامة إلى التكلم أمام السلطة، وتحررهم من الصمت نحو: (هَيْهَاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ؟ وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، =

لغاية مضمرة تدعو فيها إلى فكّ عقدة الألسن، وكسر مشروع الخوف، وتعرية المشروع الذي أريد زرعه في العقل الإسلامي، بأنّ السلطة لا يمكن الاعتراض عليها، بوصفها يد الله في الأرض، وخلافته على عباده، ولها الحق في تفسير كلّ شيء، وببدها تحييد المصير للعباد والبلاد، وهنا يقع النسق الثقافي المضمّر، من خلال الإشارة الخفية بأنّها سلطة دنيوية، فاقدة للشرعية الإلهية، تخطئ وتصيب، على خلاف حكومة الله تعالى، وخلافته المسددة منه في تصرفاتها. وهذا النسق المضمّر المهمّ احتاج إلى مظهر قاسٍ وصادم؛ ليكون مثيّرًا وذا جدوى، فاستعملت ﷺ العودة الورائية للزمان المتفق عليه عند الجميع، بأن العرب أمة منخفضة الحظوظ بين الأمم، ثم ارتفعت بالإسلام، فخلقت من أوصاف العرب قبل الإسلام عنصرًا ثقافيًا أسود، ترسمه في لوحة أمام وجوه الصامتين، وتقول لهم: ثمن السكوت عودة تلك الأيام السوداء، وذاته النسق الثقافي المخفي خلف الحجاج، فلا المراد من عبارات الحجاج تقليل شأن المستمعين، أو الإضرار بكرامتهم، فالمستمعون أغلبهم ممن يناصرون الزهراء ﷺ ويمللون، بدلالة البكاء لبكائها، فلا يعقل حمل الذم على الظاهر، لمخالفته لروح التعاطف والانقياد من الحاضرين معها.

ولعلّ الحجاج ينبئ بوجود ظواهر مخبئة في طياته، تتم بناء جدلية ثنائية تحكم علاقة الحاكم والمحكوم، فلا غرابة أن نؤمن بولوج النسق الثقافي المخبيء في سياق الاحتجاج هو التأكيد على غرس روح الحديث الصريح مع أعلى الجهات السلطوية الحاكمة، فعلاقة لا بدّ من فتحها أمام المسلمين أجمع، وإن علا شأن الحاكم أو ولي الأمر في الإسلام، فهي دعوة إلى نفي العبوديات الجديدة المصطنعة في بدايات مشوار الإسلام، وذاته نسوِّع سوق

= أُمُورُهُ ظَاهِرَةٌ، وَأَحْكَامُهُ زَاهِرَةٌ، وَأَعْلَامُهُ بَاهِرَةٌ، وَرَوَاجِرُهُ لَاحِظَةٌ، وَأَوَامِرُهُ وَاضِحَةٌ، قَدْ خَلَقْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، أَرَعَبَهُ عَنْهُ تُرِيدُونَ، أَمْ بَغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ، (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

الزهراء عليها السلام المفردات والمعاني بسياق القوة والشدة في الحجاج؛ لتعطي الأذن للجميع إلى الدخول مع أولي الأمر بحجاج قوي ذي شدة مع الحاكم، وعدم وجود التراضي والتراجع معه إذا ما أزهق الحقّ وعلا صوت الباطل، نلمسه ما تقدم بقولها الواصف للأنصار: (يا معشر الفتيّة، وأعْضَادُ المِلَّةِ، وَحِصُونُ الإِسْلَامِ! ما هِذِهِ الغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسَّنةُ عَنْ ظُلَامَتِي؟ أما قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآلهُ المُرءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ؟ سَرَّعَانَ ما أَجَدَبْتُمْ فَأَكْدَيْتُمْ، وَعَجَلَانَ ذَا إِهَانَةٍ، أَتَقُولُونَ ماتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآلهُ، فَخَطَبُ جَلِيلٍ اسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ، وَاسْتَنْهَرَ فَتَقَهُ، وَأَظْلَمَتِ الأَرْضُ لِعَيْبَتِهِ، وَاكْتَابَتْ خيرةُ اللهِ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الأَمالُ، وَأُضِيعَ الحَرِيمُ، وَأُذِيلَتِ الحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ صَلَّى اللهُ عليه وآلهُ، وتلك نازل علينا بها كتاب الله)<sup>(١)</sup>، فالمضمّر الثقافي غير المصرّح به، هو الدعوة إلى عدم السكوت عن الحقّ، فـ(ما هِذِهِ الغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟) استفهام يطلب الجواب من السامعين، لكي يغدو محرّكاً ذهنيّاً وقلبيّاً، ومن ثمّ ينتج كسر حاجز الصمت، والقبول بعدم مطالبة بنت النبي ﷺ بحقّها، مع التأكيد ضمناً على رصانة الأدلّة، نحو وصف الجالسين بـ(وأَعْضَادُ المِلَّةِ، وَحِصُونُ الإِسْلَامِ)، وهو وصف عالٍ وكبير، لاكتنازه لأخذ دور حراسة الدين من أيّ تغيير في مسيرته. ثم أوردت دليلاً مازجت به العقل والعاطفة، (المُرءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ) لتنشئ حالة من العتاب الضمني للسامعين، بأنّهم لم يقيموا وزناً لنيّهم. فعندما وجدت الزهراء عليها السلام أنّ النمط السلطوي بدأ بإسكانها قسراً، وهي بنت النبي محمد ﷺ، علمت مدى الانحراف الذي أصاب المسلمين. وإذا كان التعامل بالإسكات لبنت النبي الأعظم فمن للإنسان الاعتيادي إذا أراد حجاج السلطة؟ إذن استدعاء القسوة بذكر الأوصاف وظفتها عليها السلام كي تلعب دوراً مهماً في فتح نوعية الحجاج القوي الصادم، وغلق باب إسكات السلطان للأفواه، وتكميمهم عن حجاجهم، فجاءت الأوصاف تناسب الواقع التي تراه،

(١) كتاب بلاغات النساء: ٢١.

حتى قالت: (حتى إذا اختار الله لِنَبِيِّهِ دارَ أنبيائه، ظهرَ خلة النفاقِ وسَمَلَ جلبابِ الدينِ، ونَطَقَ كاظمُ الغاوينِ، وَنَبَغَ خاملُ الآفلينِ، وَهَدَرَ فنيقُ المُبطلينِ، فَخَطَرَ في عَرَصاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشيطانُ رأسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ، صارخاً بِكُمْ، فوجدكم لدعائه مُستجيبينَ، وَلِلْغَرَّةِ فيه ملاحظينَ، فاستنهضَكُمْ فوجدَكُمْ خفافاً، وَأَحْمَشَكُمْ فَألفاكمْ غَضاباً، فوسمتمْ غيرَ إبلِكُمْ، وَأوردتموها غيرَ شربِكُمْ، هذا والعهدُ قريبٌ، وَالكَلَمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لما يندملُ بدارِ، زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، (ألا في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) <sup>(١)</sup>.

وربَّ معترض يقول: إنَّ الزهراء عليها السلام عندما سردت أوصاف المخاطبين العرب في خطبتها، أليس أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله منهم؟ ألم يكن زوجها أمير المؤمنين عليه السلام من العرب؟ فما جاز عليهم من المدح والذمِّ يشمل الجميع، بينما وجدنا مولاتنا الزهراء عليها السلام، تقصر مدائحها على أبيها وبعلمها صلوات الله عليهما، فنعتتهم بأحسن النعوت والأوصاف، وتذكي في الوقت نفسه روح بيان الفارق بينهما وبين المسلمين كافة، فتقول في أبيها رسول الله: (فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِهِمُ الرِّجَالُ، وَذُوبَانِ الْعَرَبِ، وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ) <sup>(٢)</sup>، وفي بعلمها أمير المؤمنين عليه السلام: (كُلَّمَا حَشَوْا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلضَّلَالِ، وَفَعَرَتْ فَاعْرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَذَفَ بِأَخِيهِ فِي هَوَاتِمَا، فَلَا يَنْكَفِي حَتَّى يَطَأَ صِمَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ، وَيُجْمَدَ لَهَبُهَا بِحَدِهِ، مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللهِ، سَيِّداً فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ) <sup>(٣)</sup>، فيرى المعترض أنَّ التباين بين الطرفين في المدح والذمِّ يبطل حجاجها ويسقط حججه ويخلخل منطق بيانها لظهور الانحياز في الحكم؟ وأجد من الحق والصواب أن نتعرض لمناطق حساسة في بحثنا، وألا نستحي من الحقيقة، ما دما نسير

وفق المنهج الأكاديمي العلمي.

(١) كتاب بلاغات النساء: ١٧-١٨.

(٢) م. ن: ١٧.

(٣) م. ن: ١٧.

إنَّ هذه المفارقة ذاتها دعت الباحث إلى اتخاذ النقد الثقافي منهجاً، إذ إنَّ أوصاف الذمِّ لم تكن مطلوبة بعينها، ولم تكن المظاهر الدلالية الخارجية غاية عند المتكلم، ولا المعاني اللغوية ذات الاستعمال اليومي مقصودة، وإنَّما تمَّ توظيفها واستثمارها إلى أمر معين، قصده صاحبة الخطبة قصداً دقيقاً، بوصفه الغاية الكبرى لخلق النصِّ، فألفاظ الأوصاف ذات النسق الظاهري، تضمَّ خلفها طاقات دلالية مشحونة بقضايا ثقافية متصارعة بين طرفي الخطبة- المذكورين بالمدح و الذمِّ-، معروضة بألية من الخفاء المستور خلف الألفاظ، تنبئ السامع بوجود صنفين الخلاف، فسرّد أوصاف الذمِّ يفصح عن لون معين من الخلاف المعرفي والديني، نحو من كان: (مُذَقَّة الشَّارِبِ، وَنُفْرَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجَلَانِ، وَمَوْطِئِ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الْوَرَقَ، أَذِلَّةٌ خَاشِعِينَ)<sup>(١)</sup>، ثمَّ انتجوا أناساً بعد الإسلام اتصفوا بقولها: (ظَهَرَ فِيكُمْ خَلَّةُ النِّفَاقِ وَسَمَلُ جِلْبَابِ الدِّينِ، وَنَطَقَ كَاظِمُ الْغَاوِينَ، وَتَبَعَ حَامِلُ الْآفِلِينَ، وَهَدَرَ فَنِيْقُ الْمُبْطِلِينَ، فَخَطَرَ فِي عَرَصَاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ، صَارَ خَا بِكُمْ، فوجدكم لِدَعَائِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْغَرَةِ فِيهِ مُلَاحِظِينَ)<sup>(٢)</sup>، حتى جاء الكفة الثانية في المعادلة التي رسمتها من خلال سرد المدائح نحو: (ثُمَّ أَنْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ (تريد أهل المجلس) نُصِبُ أَمْرَ اللَّهِ وَمَنْهِيَّةً وَحَمَلَةً دِينَهُ وَوَحْيَهُ، وَأَمْنَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلْغَاؤُهُ إِلَى الْأُمَمِ، وَزَعَمْتُمْ حَقّاً لَكُمْ لَلَّهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَنَحْنُ بَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ)<sup>(٣)</sup>، ونحن أمام هذه النصوص، نلاحظ مرامي المعاني تصل إلى مستويات أعمق من الظاهر، إذ لا داعي للزهراء (عليها السلام) ذكر الماضي بحمولاته الجاهلية، واتباع الشيطان بعد نور الإسلام، فلعلَّها تصبو إلى صناعة معنى جديد لم يترسخ في العقل العربي بعد، كون المسلمون حديثي العهد بالتجربة الإسلامية، فلسانها يطلب لفت النظر إلى أن النبي والإمام علي (صلوات الله

(١) م. ن: ١٧.

(٢) م. ن: ١٧-١٨.

(٣) م. ن: ٢٠.

وسلامه عليهما) لم يتلوثا بأدران الجاهلية، فهما نقيّان، وهذا النقاء يؤهلها لقيادة الأمة، والمسلمون فهموا معنى التقدم من خلال الهادي إلى الحقّ غير المهتدي إليه، الوارد من قول عزّ اسمه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾<sup>(١)</sup> فالآية صريحة باتباع الهادي، ولا يحقّ اتباع من كان على ضلال ثم اهتدى. إذن نصل إلى نتيجة مفادها: النسق المضمّر تكفّل لإبانة مواصفات التأسيس الأول في الحكم بعد الرسول صلى الله عليه وآله واله، والزهراء عليهنّ السلام ترى بنفسها أحد حراس الدين، المستخلص من تصريحها، أنا بنت محمد صلى الله عليه وآله ولا أقول شططاً<sup>(٢)</sup>، فإن دلّ على شي فيدلّ على أنّ الغاية من الأوصاف هي تحديد المسار بصفة إسلامية لا معايير جاهلية في عملية اختيار الحاكم.

### المطلب الثالث: نسق ذكر الماضي والاعتبار به

يخيّل لدى القارئ أنّ ما ذكرته الزهراء عليها السلام في خطبتها الفدكية، يندرج ضمن باب القدح، وذكر المثالب، وإثارة روح المعاييب، المعروف بالهجاء<sup>(٣)</sup>، وهذا تصوّر عام، وقراءة أولى للنصّ، لا يمكن الرضوخ إليها، لأنّك ستصل -أيها المنصف- في نهاية المطاف إلى قناعة واعتراف بوجود أنموذج ثقافي، وأداء خطابي، وعرض أسلوب، لا ينسجم مع روح الإسلام وتعاليمه السمحاء من قبل الزهراء عليها السلام، فضلاً عن صعوبة سوقها من ربيبة الحجر النبوي المطهّر. فلو يممّنا نظرنا نحو شطر آخر، وقلنا: إنّ الأوصاف لبّت متطلبات نجاح أسلوب الاعتبار من الماضي، وأخذ العظة منه، مع التوبيخ في حال عدم الاتعاظ،

(١) سورة يونس: الآية: ٣٥.

(٢) ورد في الخطبة قولها: (أَيُّهَا النَّاسُ! اْعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ). كتاب بلاغات النساء: ٢٠.

(٣) الهجاء فن دأب عليها أغلب الشعراء في أغلب العصور الشعرية، الذي يقوم على ذكر المثالب والمعايب للنخصم. ظ/ تاريخ آداب العرب/ مصطفى صادق الرافعي/ مؤسسة هنداوي/ ط١، ٢٠١٣م: ٦٩٦.

وكل ذلك مودع في ثنایا دواعي خلق النص، وتعدّد مستوى فهمه وقراءته، وهو أسلوب رائد في السياق القرآني، نحو قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> فالتذكير نهج قرآني يورده الله تعالى لعباده حتى لا ينسوا نعمة عليهم،<sup>(٢)</sup> وكذا الحال مع أمة محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾<sup>(٣)</sup>. ومن هنا نجد أوصاف الزهراء ﷺ لم تسر بخطى القدح لسامعي الخطبة، أو الإنزال من قيمتهم المعنوية، أنى ذلك! وهي المادحة لهم في مقدمة خطبتها بقولها: (مَعِشَرُ الْبَقِيَّةِ، وَأَعْضَادُ الْمِلَّةِ، وَحِصُونُ الْإِسْلَامِ)<sup>(٤)</sup> فكيف نجتمع بين الموقفين الصادقين في زمان ومكان واحد، وفي نص واحد؟ هل هناك تناقض؟ أم هناك خيط رابط بين المعاني، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر مخفي؟

يرى الباحث أنّ الخطبة محكومة بسياسة عامة، وإيديولوجية محدّدة، التي تعدّ من أهمّ الخلفيات والمرجعيات لإنتاج النصّ الفدكي، فالزهراء ﷺ أرادت تذكير الأمة بمقاماتهم قبل الإسلام وبعده، أي ذكر مقاماتهم التي كرمهم الله تعالى بها، وتذكيرهم بدور الإسلام الذي رفع العرب بجهود النبي الأعظم ﷺ، الذي أنتج من ذلك الإنسان الضعيف والمهان مقارنة مع باقي أبناء الأمم، إنساناً يبني دولة، ويدعو الأمم إلى اتّباعه، فاستراتيجية منشئة النصّ من ذكر الأوصاف لا تدور في فلك ضيق، لغايات بشرية نحو ردة الفعل من عدم إعطائها إرثها، والتعالي والتكبر، بل ألحت على عملية صنع الإنسان من جديد، بقلب

(١) سورة البقرة: الآية: ٤٧.

(٢) ظ/ التبيان في تفسير القرآن/ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تح، أحمد حبيب قصير العاملي/ دار احياء التراث العربي/ ط ١، ١ / ٤٤٢ وما بعدها.

(٣) سورة ال عمران: الآية: ١٠٣.

(٤) كتاب بلاغات النساء: ٢١.



حياتي جديد، بعدما أضحي يطلُّ بعنقه أمام أمتي كسرى وقيصر، فتخشى العودة والردة إلى تلك المبادئ الأولى التي لم يجنِّ العرب منها سوى العبودية للأمم الأخرى. وفي الوقت نفسه ترى ﷺ الصراعات بين قوى الجاهلية والإسلام لم تنطفئ بعد، والعرب حديثو العهد بإدارة الدولة، فجاء التذكير لايقاظهم من الغفلة، والخوف من عودة المبادئ القبلية في الإدارة، المعتمدة على التعصب. فشدة الأوصاف جاءت لخدمة التذكير، وإنشاء حالة الصدمة غير المتوقعة من بنت النبي ﷺ للسامعين؛ فالشدة والقوة في إظهار صورة الماضي للحدِّ من تطبيقها في الحاضر وصولاً للمستقبل، فلو التزموا بها لغدو غير مؤهلين وغير أكفاء في إدارة الدولة الجديدة، وانعقد التذكير بالماضي مع صورة المعارضة السلمية لهم، من خلال تحذيرهم من بدء الدولة ممارسة الظلم وإراقة الدماء لرعاياها، فالظلم والقتل علامات للنهاية وانقضاء المشروع، حتى جاء دور الزهراء ﷺ المعترض، الذي يوثقه أحد المحدثين بقوله: (وكانت في لحظتها الرهيبة التي قامت فيها بدور الجندي المدافع شبحاً قائماً ترسم عليه سحابة حزن مرير، وهي شاحبة اللون، عابسة الوجه، مفجوعة القلب، كاسفة البال، منهدة العمدة، ضعيفة الجانب، مائعة الجسم)<sup>(١)</sup>. فالاعتبار مما أصاب من أبناء الأمة مرماه النهي عن سلوك الظلم في الإدارة، أكثر من الاعتراض على الحيف الذي جرى عليها بصفتها الشخصية، ويؤكد ذلك قولها: (وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ الْمُدَى، وَوَحْزِ السَّنَنِ فِي الْحِشَا)<sup>(٢)</sup>، فلم يكن تجاهل شخصها ذا بال مثلما الخوف على الإسلام من ظهور لسان الجاهلية وعقليتها، لذلك هي دججت بين هذا المعنى المضمّر بالظاهري الذي يلامس العواطف، المبني على التساؤل، هل من العدل والانصاف نيل أبناء الأمة من أهل البيت كما أشارت الزهراء ﷺ بحزِّ المدى؟<sup>(٣)</sup> فالنسق الظاهر البائن من موقفها هو ذكر

(١) فدك في التاريخ: ٢٠.

(٢) فدك في التاريخ: ٢٠.

(٣) حَزُّ الْمُدَى هو تشبيهه بما حصل لأهل البيت النبي ﷺ من الأذى من حيث القوة والشدة، =

ما جرى عليها من أبناء الأمة وتبينه للتاريخ، أو ما سوف يحصل من تمايز بين أهل الحق والباطل اعتماداً على صورة الاعتداء على بنت الرسول ﷺ، فيرى أحد الباحثين أنَّ الخطبة باتت وثيقة تاريخه تحاكي مجريات تاريخية بعد وفاة الرسول ﷺ،<sup>(١)</sup> أما خطبة الزهراء فقد تمّ التعقيم عليها من قبل السلطة الحاكمة، وعدم إباحة مضامينها شرحاً وتفسيراً. فذكاء مولانا الزهراء (عليها السلام) أورد المضامين المسكوت عنها من خلال سياسة الاختباء الموضوعي أو ما نطلق عليه حديثاً بالأنساق المضمرة.

---

= بحدّ السكاكين الذي يعمل في رقبة الإنسان، أي نصبر على الألم الذي أصابنا المشابه بألم حَزّ السكاكين؛ وهنا إشارة إلى الألم الذي انطوى على نواتج حَزّ المدى وليس على الشكل. فالألم لا تدركه الحواس وإنما الإدراكات، كالأذى الذي يصيب الإنسان من التصرفات.

(١) يرى الباحث أنَّ ما أورده الرافعي في فنّ الهجاء الذي تحول إلى ذكر التاريخ، وتثبيت وقائعه وتدوينها، ينطبق على النسق المضمّر في الخطبة، فالزهراء أرادت من الأنساق الهجائية الظاهرة تثبيت وقائع تاريخية للأجيال. فيقول: (قد عرفت أنَّ الشاعر لا يكون هجّاء إلا وهو في معنى المؤرخ، .... فمتى سيّر الشاعر قصيدة فكأنّه نشر كتاباً في أمة كلّها يقرأ ويكتب). تاريخ آداب العرب: ٧٠٢.

## الخاتمة

بعد معايشتنا لنصّ الخطبة الفدكية، التي نظرنا إليه بعيوننا، معتمدين على أدوات المنهج الثقافي، لمعرفة الأنساق المخفية التي تعارض النسق الظاهر، فقد تبينت لنا نتائج أهمها:

١- لا يمكن الاطمئنان إلى الفهم القائل: إنّ التعابير الواردة في ذمّ أوصاف العرب المسلمين في الخطبة الفدكية تحمل الوجه الواحد من الدلالة، لأنّ الأخذ بظاهر دلالتها يوصلنا إلى محاكمة النصّ استناداً إلى أعرافنا وتقاليدنا اللغوية المنبثقة في عصرنا، المبتعد عن زمن النصّ بأكثر من ١٤٠٠ سنة. فلعلّ ألفاظ الخدش التي تحطّ من كرامة الإنسان في زماننا لا تعدّ عيباً في أزمان الماضين. فضلاً عن ذلك، إنّ المعاني جاءت كاشفة لملاسات معينة، ومنساقة مع مناسبتها، منسجمة مع الظرف الذي قيلت فيه تاريخياً، فهي ملبية لنوعي لسان الحال ولسان المقال.

٢- تعدّ الخطبة أنموذجاً تصريحياً ووثيقة تاريخية بأنّ المسلمين الأوائل غير موافقين على ما وقع على الزهراء (عليها السلام)، والدليل مشاركتهم في المعارضة السلمية، والدعوة للثورة قبال السلطة، التي لعبت دورهما (عليهما السلام)، مستحصلين ذلك من دلالة بكاء الجالسين لبكائها، وعدم ردّ الجالسين على ما ذكرته من أوصاف لا تخلو من التوبيخ والذمّ في ظاهرها. أما المبطن داخل السياق اللغوي، والسياق الدلالي المتمركز في ثنایا الخطاب الحجاجي الظاهري، فقد لبّى مجموعة من المعاني الثقافية والفكرية التي تخالف ما جاء به الظاهر.

٣- إنّ استعمال أدوات النقد الثقافي ذي النسقين الظاهر والمضمّر، قد حلّ لنا إشكالية معرفية في الخطبة الفدكية؛ فالزهراء (عليها السلام) تدم العرب من المهاجرين والأنصار بما سارت عليه أيامهم قبل الإسلام، وفي قبال ذلك تخصّ المدح العالي الكبير لأبيها رسول الله وأمير المؤمنين (عليهما السلام) على الرغم من أنّهما من العرب. وقد توصل الباحث إلى أنّ أوصاف الذمّ

لم يكن المطلوب منها المظاهر الدلالية الخارجية للسياق اللغوي، أو المعاني اللغوية ذات الاستعمال اليومي، وإنما تمّ توظيفها واستثمارها إلى أمر معين، يقصدها المتكلم قصداً دقيقاً، تجمعها الغاية الكبرى لنصّ الخطبة، فلو جمع السامع أو المتلقي لأجزاء الخطبة للمح الفارق البيني بين الظاهري والمضمّر.

٤- يعدّهم الزهراء عليها السلام في خطبتها ليس الصراع مع أفراد محدّدين كما يصوره لنا ظاهر النصّ، بل يوجد نسق ثقافي مضمّر أكثر التصاقاً بشخصيتها عليها السلام من الصراع الشخصي والفردى، فلم تبغ تعيين الأوصاف لمقصود بعينه، ولم تسعفنا القرائن السياقية أو الحالية بأن المسلمين الجالسين هم المقصودون بعينهم؛ فهي في مقام وصف حالة الماضي من الضعف والهوان، ولا تريد تعييرهم أو قذفهم. وخير دليل يمنع هذا الاتجاه والفهم، مدحها للمسلمين في مقدمة الخطبة بأجمل الأوصاف، وكيف تدمّ قومًا القرآن مدحهم بأحسن الأوصاف، ممن لم ينكث العهد والميثاق؟!

٥- لا يراد بالذمّ الوارد في الأوصاف موصوف بعينه، وإنما يراد فتح الباب إلى التفكير نحو قضايا أعمق من دلالة الألفاظ الأولى؛ منها: التنبيه من الغفلة، وعدم العودة لتأسيس حاكمية على المسلمين تقوم على أسس جاهلية حاربها الإسلام؛ فالذم علاقته بالمواقف وليس الأشخاص؛ لأنّ مقام الزهراء عليها السلام مقام الحارس على الدين من الانحرافات أثناء مسيرته، فاحتواء الخطبة رسالة خفية مغايرة عن ظاهرها اللغوية خدمة لهذا المعنى العام الملبي لحماية الإسلام.

## المصادر والمراجع

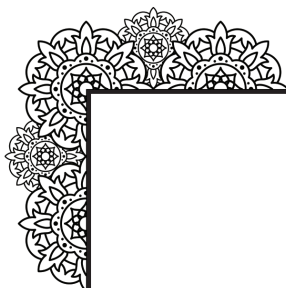
### القران الكريم

### الكتب

١. تاريخ آداب العرب / مصطفى صادق الرافعي / مؤسسة هنداوي / ط ١، ٢٠١٣ م.
٢. التبيان في تفسير القرآن / أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) تح، أحمد حبيب قصير العاملي / دار إحياء التراث العربي / ط ١.
٣. الرفض في الشعر العراقي الحديث (١٩٢١ - ١٩٥٨ م) / أطروحة دكتوراه / عمار سملن المسعودي / إشراف، أ.م. د. علي محمد حسين الخالدي / جامعة الكوفة - كلية الآداب / ٢٠١٠ م.
٤. فاطمة الزهراء والفاطميون / عباس محمود العقاد / مؤسسة هنداوي / ط ١، ٢٠١٤ م.
٥. فدك في التاريخ / بقلم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره / تحقيق الدكتور، عبد الجبار شرارة / مركز الغدير للدراسات الإسلامية / ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
٦. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام / د. طه عبد الرحمان / المركز الثقافي العربي / البيضاء - المغرب، ط ٣، ٢٠٠٧ م.
٧. كتاب بلاغات النساء / الإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (٢٠٣ هـ - ٢٨٠ هـ) / شرحه وصححه، أحمد الألفي / مطبعة مدرسة عباس الأول / مصر - القاهرة / د. ط، ١٩٠٨ م.

٨. لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) / دار صادر / بيروت - لبنان / ط ١.
٩. المعجم الفلسفي / جميل صليبا / منشور ذوي القربى / ط ١.
١٠. معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر / سعيد علوش / د. ط.
١١. النسق الثقافي المضمّر في شعر ديّك الجنّ الحمصي (ت ٢٣٥هـ /) أ.د. حربي نعيم محمد الشبلي، حوراء فريق عبيد الهلالي / جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية / (بحث) مج ٨ / العدد ٣٠ / السنة السابعة، ٢٠٢١م.
١٢. النسق المضمّر في الرواية القطرية / رسالة ماجستير، إشراف: د. عبد الحق بلعابد / إعداد: مرسل خلف الدواس / جامعة قطر / كلية الآداب والعلوم: ٢٠١٩م.
١٣. النسق المضمّر في ديوان النبوة تتجلى في وضوح الليل لربيعة جلطي، دراسة في ضوء النقد الثقافي / رسالة ماجستير / مريم عزوي / إشراف: د. وداد بن عافية / كلية اللغة والأدب العربي والفنون / جامعة باتنة / الجزائر / ٢٠١٦م.
١٤. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية / عبد الله الغدامي / المركز الثقافي العربي / بيروت - لبنان / الدار البيضاء / ط ٣، ٢٠٠٥.
١٥. نقد النقد الثقافي - رؤية في مساءلة المفاهيم والضبط المعرفي / عبد العظيم السلطاني / دراسات فكرية / جامعة الكوفة / ط ١، ٢٠٢١م.
١٦. نقد ثقافي أم نقد أدبي / د. عبدالله الغدامي، د. عبد النبي اصطيف، دمشق / دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٤م.



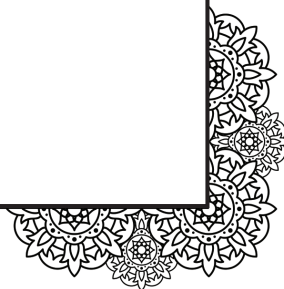


**منهج الوسطية والاعتدال  
في نهج البلاغة وأثره في بناء الذات والمجتمع**

الباحث

م.د ساجد صباح العسكري

جامعة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) / ذي قار





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

المتتبع لسيرة أهل البيت (عليه السلام) يجد أنهم أسسوا المنهج الوسطية قولاً وفعلاً، انطلاقاً من وظيفتهم في القيمومة والشهادة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: ١٤٣)، وهذا ما تجلّى بوضوح في سيرتهم العملية وعلى مستويات مختلفة.

وعند البحث عن منهج الوسطية في نهج البلاغة نجد أن الإمام علي (عليه السلام) قد أسس لهذا المنهج في كثير من كلماته على المستوى العقدي والفقه والسلوك الأخلاقي والاجتماعي، وغيرها.

ويتأتى هذا البحث من الحاجة إلى إبراز منهج الوسطية عند الإمام علي (عليه السلام)، لما لذلك من أثر على بناء الإنسان فرداً ومجتمعاً. فالحاجة لهذا المنهج اليوم أكثر من أي وقت مضى، في ظل وجود فتن وتجاوزات وجدليات على طرفي النقيض أقصى اليمين وأقصى الشمال؛ إذ لا منجى منها إلا بسلوك هذا المنهج والاقتداء بهم (عليه السلام)، لنكون مصداقاً للنمرقة الوسطى والسائرين على الصراط المستقيم، من دون إفراط ولا تفريط.

واقتضت طبيعة البحث أن يُقسم على أربعة مطالب، اختصّ الأول منها بالتأصيل لمنهج الوسطية والاعتدال لغوياً وقرآنياً وروائياً، وتناولت المطالب الثلاث الأخرى تطبيقات المنهج الوسطي في ضوء ما ورد عن الإمام علي (عليه السلام) في مجالات مختلفة.

## المطلب الأول

### تأصيل منهج الوسطية في ضوء القرآن الكريم والسنة الطاهرة

#### أولاً: الوسطية في اللغة:

#### جاءت الوسطية في اللغة على ثلاث استعمالات:

بمعنى العدل: قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «(وسط) الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه»<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (سورة القلم: الآية: ٢٨)، فأوسطهم أعدلهم طريقاً<sup>(٢)</sup>، وأعدلهم قولاً وفعلاً<sup>(٣)</sup>.

الأفضل والأجود: جاء في لسان العرب: «واعلم أنّ الوسط قد يأتي صفة، وإنّ أصله أن يكون اسماً من جهة أن أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه، وكوسط الدابة للركوب خير من طرفيها لتمكن الراكب»<sup>(٤)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (سورة المائدة: الآية: ٨٩)، أي من أفضل وأجود ما تطعمون أهليكم، على أحد الوجوه التفسيرية<sup>(٥)</sup>.

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ١٠٨/٦.

(٢) ينظر: الميزان، الطباطبائي: ٣٩١ / ١٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٧٥ / ٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور: ٤٢٨ / ٧.

(٥) ينظر: تفسير الأمل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٣٦ / ٤.

التوسط بين شيئين: سواء أكان التوسط مادياً أم معنوياً، فوسط الحبل الموضع الذي يكون بمنتصفه، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور. جاء في الصحاح: «شيء وسط، أي بين الجيد والردئ. وواسطة القلادة: الجوهر الذي في وَسَطِهَا، وهو أجودها»<sup>(١)</sup>، وجاء في لسان العرب: «اعلم أنَّ الوَسْطَ، بالتحريك، اسم لما بين طرفي الشيء، وهو منه كقولك قَبَضْتُ وَسْطَ الحَبْلِ وكسرت وَسْطَ الرَّمْحِ وجلست وَسْطَ الدَّارِ»<sup>(٢)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٤٣)، وتعني التوسط في الدين بين الغلو والرهبانية، وبين التقصير وتلبية رغبات الجسد بأيّ طريقة<sup>(٣)</sup>.

وعادة ما يتوسط بين الأشياء المعنوية يكون الأفضل والأجود، وقد يعني ذلك في الأشياء الحسية المادية.

(١) الصحاح، الجواهري: ٣/ ١١٦٧.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٤٢٧.

(٣) ينظر: تفسير الطبري: ٢/ ١٠.

### ثانياً: تأصيل الوسطية في ضوء القرآن الكريم:

أرسى القرآن الكريم معالم منهج الوسطية بالنص عليه تارة، وبالإشارة إلى اللوازم تارة أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: ١٤٣)، فالجعل في الآية جعل إلهي لاختيار أمة تنتهج منهج الوسطية. ففي الآية عموم، يرى كثير من المفسرين أنّها تعني الأمة الإسلامية، لا خصوص جماعة خاصة. ومن ذهب إلى ذلك الطبري بقوله «أرى أنّ الله تعالى ذكره إنّما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها»<sup>(١)</sup>.

وفي الآية القرآنية تصريح بالدعوة إلى منهج الوسطية والاعتدال على مستويات مختلفة منها<sup>(٢)</sup>:

الوسطية في العقيدة؛ فلا غلو ولا تقصير في عبادة الله سبحانه، ولا جبر ولا تفويض، ولا تشبيه ولا تعطيل في صفات الله.

الوسطية في القيم المادية والمعنوية؛ فلا انغماس في عالم المادة كمعظم اليهود وتنسى المعنويات، ولا انغماس في المعنويات وتتناسى الماديات كرهبان النصارى.

الوسطية في الجانب العلمي؛ فلا يمكن رفض الحقائق العلمية، ولا قبول كلّ نظرية على أنّها حقيقة علمية.

(١) تفسير الطبري: ١٠ / ٢.

(٢) ينظر: تفسير الأمثل: ١ / ٤١٠.

الوسطية في الروابط الاجتماعية؛ فلا تقاطع مع العالم وتطور الحياة، ولا ذوبان لدرجة استلاب الذات وفقدان الهوية.

### الوسطية في الجانب الأخلاقي؛ فلا تصوف ولا ابتذال.

وذهب بعض المفسرين إلى خصوص هذه الآية في أهل البيت (عليه السلام)، وأتهم الأمة الوسط، بدليل مفهوم الشهادة وتتبعه وفق السياق القرآني<sup>(١)</sup>، وبدلالة بعض الروايات الشريفة. ومنها ما رواه الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن بريد العجلي قال: «قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قول الله تبارك وتعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» قال: نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه، وحججه في أرضه»<sup>(٢)</sup>.

وفهم بعض المفسرين من هذه الرواية وأمثالها تحديد للمصداق الأعلى والأكمل، ومن ذهب إلى صاحب تفسير الأمثل بقوله: «مثل هذه الروايات - كما ذكرنا - لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصداق الأمثل للأمة الوسط، وتعطي نموذجاً متكاملًا لها»<sup>(٣)</sup>.

ودعت كثير من الآيات إلى منهج الوسطية من خلال ذم التطرف إلى اليمين أو الشمال، ففي قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفاتحة: الآيتان: ٦ - ٧)، دعوة لطلب الهداية بسلوك المنهج الوسطي، فهو الطريق المستقيم الذي يقع وسطاً بين طريقي المغضوب عليهم والضالين، سواء فسرت بالمفهوم أم بالمصداق<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: الميزان: ١/ ٣٢١.

(٢) الكافي، الكليني: ١/ ١٩١.

(٣) تفسير الأمثل: ١/ ٤١١.

(٤) تفسير الأمثل: ١/ ٦٠ - ٦١.

وفي الوقت الذي ذمّ الرهبانية والانغماس في الملذّات الدنيوية حتّى على المنهج الوسطي في العبادة، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (سورة الحديد: الآية: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القصص: الآية: ٧٧)، فالرهبانية المذمومة التي تعزل الإنسان عن متطلبات الحياة، فلا بدّ من موازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد بالسير على المنهج الوسط في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٠١).

وفي الحثّ على العبادة كان المنهج الوسطي حاضراً بين الترغيب والترهيب: قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة غافر: الآية: ٣)،

وعلى مستوى أداء بعض العبادات سلك المنهج الوسطي؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة الأسراء: الآية: ١١٠)، فالسبيل بين الجهر والإخفات هو المنهج الوسطي.

ومن تطبيقات المنهج الوسطي، الاعتدال في الإنفاق؛ فلا إسراف وتبذير ولا بخل وتقتير.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢١٩)، قيل أنّ المقصود بالعتفو الزيادة وما فضل، وقيل إنّ المقصود بالعتفو القصد الذي لا إسراف فيه ولا إقتار<sup>(١)</sup>. ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف: الآية: ٣١)، فالاعتدال في المأكل والملبس أمر مستحسن، ولكن الإسراف تطرف، وخلاف المنهج الوسطي في الإنفاق.

(١) تفسير الراغب الاصفهاني: ١/ ٤٥٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (سورة الفرقان: الآية: ٦٧)، يقصد بالقوام: الإنفاق على وفق المنهج الوسط اعتدالاً بين الإسراف والتقتير<sup>(١)</sup>، ومثله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (سورة الأسراء: الآية: ٢٩). فغل اليد كناية عن البخل، والبسط كناية عن الإسراف.

والقصد في المسير أحد تطبيقات المنهج الوسطي، قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (سورة لقمان: الآية: ١٩).

### ثالثاً: تأسيسات منهج الوسطية في ضوء مرويات أهل البيت (عليه السلام):

أسس الرسول (ﷺ) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) لمنهج الوسطية والاعتدال في كثير من الروايات، إمّا بالتصريح أو من خلال اللوازم. ومما ورد في ذلك تصريحاً:

فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة أنّ الرسول قال: «إنّ الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدجلة»<sup>(٢)</sup>.

وروي عن الإمام علي (عليه السلام) أنّه قال في وصف النبي (ﷺ): «فصدع بالحق، ونصح للخلق، وهدى إلى الرشد، وأمر بالقصد»<sup>(٣)</sup>، فالرسول (ﷺ) عندما يأمر بالقصد هذا يعني أنّ المنهج الوسطي من متطلبات الشريعة وهدف من أهداف الرسالة.

(١) صفوة التفاسير: ٣٣٩/٢.

(٢) صحيح البخاري: ١٥/١.

(٣) نهج البلاغة: ٦٨/٢.

والحثّ على المنهج الوسطية وإرشاد الناس له ليس وظيفة الأنبياء فحسب، بل هو جزء من وظيفة الأولياء والصالحين، لأنّه به تتحقق الهداية. فقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام) في وصف الأولياء: «يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة. ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة»<sup>(١)</sup>.

ومن الروايات التي أسست لمنهج الوسطية والاعتدال قول علي (عليه السلام): «الاعتدال خير و الإفراط شر»<sup>(٢)</sup>، والاعتدال إنّما يكون خيراً؛ لأنّه وسط بين الإفراط والتفريط.

وروي عنه أنه قال: «اليمين والشمال مضلة والوسطى الجادة منهج عليه أم الكتاب والسنة وآثار النبوة»<sup>(٣)</sup>

وقال أيضاً: «خير هذه الأمّة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي»<sup>(٤)</sup>.

وعن الباقر (عليه السلام) قال: «يا معشر الشيعة، شيعة آل محمد، كونوا النمرقة الوسطى يرجع إليكم الغالي ويلحق بكم التالي»<sup>(٥)</sup>.

والمراد بـ(كونوا أهل النمرقة الوسطى) كما كانت الوسادة التي يتوسد عليها الرجل إذا كانت رفيعة جداً أو خفيفة جداً لا تصلح للتوسّد بل لا بدّها من الارتفاع والانخفاض حتى تصلح لذلك<sup>(٦)</sup>.

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢١١.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ١١ / ٢١٧.

(٣) مصباح البلاغة (مستدرک نهج البلاغة)، الميرجهاني: ١ / ١٠١.

(٤) مسند الإمام علي، حسن القبانجي: ٨ / ١٨٦.

(٥) الكافي: ٢ / ٧٥.

(٦) شرح أصول الكافي، المازندراني: ٨ / ٢٤١.



وروي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نحن نمط الحجاز، فقلت وما نمط الحجاز؟ قال أوسط الأنباط، إن الله يقول (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) ثم قال إينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصّر»<sup>(١)</sup>.

وروي الكليني بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام: «نحن آل محمد النمط الأوسط الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي»<sup>(٢)</sup>.

كلّ النصوص المتقدمة تُشير صراحة لضرورة السير على المنهج الوسطي والاعتدال في القول والفعل، ويظهر ذلك بصورة أجلى من خلال السيرة العملية للمعصومين عليهم السلام التي اتَّخذت من الوسطية منهجاً لها.

أما تأصيل المنهج مفهوماً من خلال التطبيقات واللوازم فالشواهد كثيرة وما في هذا البحث من أحاديث في مجالات مختلفة تؤكد بشكل لا يقبل الشك أن الوسطية منهج أهل البيت معرياً وسلوكياً واجتماعياً واقتصادياً... إلخ.

(١) بحار الانوار: ٢٣ / ٣٥١.

(٢) الكافي، الكليني: ١ / ١٤٩.

## المطلب الثاني

### منهج الوسطية عند الإمام علي عليه السلام وأثره في البناء المعرفي للإنسان

#### أولاً: المنهج الوسطي منهج المتقين:

ذكر الإمام علي عليه السلام عدة صفات للمتقين في وصيته لهمام، وما يلاحظ عليها بشكل واضح المنهج الوسطي لأقوالهم وأفعالهم، ومما ورد فيها «فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين. وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة. وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى»<sup>(١)</sup>.

فحتى يتبعد المتقون عن الإفراط والتفريط لا بد أن تكون قوتهم وحزمهم وإيمانهم... الخ، على وفق المنهج الوسطي، فالقوة إذا لم تقترن بالدين فقد توقع صاحبها في غير طاعة الله، والحزم - إذا لم يقترن بالدين - يفسد أكثر مما يصلح، «وقصداً في غنى» يحتتمل أن يكون المراد اقتصاده في طلب المال وتحصيل الثروة، يعنى أنه لا يجاوز الحد في كسب المال وتحصيل الغنى بحيث يؤدّي إلى فوات بعض ما عليه من الفرائض كما هو المشاهد في أبناء الدنيا، وأن يكون المراد أنه مع غناه مقتصد في حركاته وسكناته ومصارف ماله بل جميع أفعاله يعنى أن غناه لم يوجب طغيانه وخروجه عن القصد وتجاوزه عن الحد»<sup>(٢)</sup>.

وفي الخطبة نفسها، يؤسس الإمام فن التعامل مع الآخرين والحديث معهم عندما يقول في وصف المتقي: «إن صَمَتَ لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوتته، وإن بُغِيَ عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين

(١) نهج البلاغة: ١٦٣/٢.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي: ١٣٦/٢.

ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة»<sup>(١)</sup>، فهو «بمقتضى عقله وكماله يضع كلاً من الصمت والكلام في موضعه اللائق به ومقامه المناسب له، فلا يكون داع إلى التكلّم في مقام مقتضى للصمت حتى يكون إمساكه عن التكلّم موجبا لاغتيامه»<sup>(٢)</sup>، ومخالطته الناس وقربه وبعده عنهم يكون على أساس ما يقربه الله تعالى فلا يبتعد عنهم تكبراً وترفعاً، ولا يتقرب لهم لأجل مصلحة خاصة معهم، وهذا ما يؤكد في قوله أيضاً «لا يحيف على من يبغض، ولا يأنثم فيمن يحب»<sup>(٣)</sup>، فتكون علاقته متوازنة مع من يحبّ ويبغض فلا إفراط ولا تفريط فيهما.

وقال (عليه السلام) أيضاً في وصف المتقين «فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد»<sup>(٤)</sup>، فالاعتدال حاضر في ملبسهم أيضاً، فالاعتدال في الملبوس يتحقق عندما «لا يلبس ما يلحقه بدرجة المترفين، ولا ما يلحقه بأهل الخسّة والدناءة ممّا يخرج به عن عرف الزاهدين في الدنيا»<sup>(٥)</sup>.

### ثانياً: الاعتدال في حبّ أهل البيت ونبذ الغلو:

من الأمور التي عانى منها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الإفراط أو التفريط في حبّهم. وقد صدرت منهم نصوص كثيرة في ذمّ الإفراط في حبّهم إلى درجة الإسراف الذي يتجاوز الحدّ حتى ذهب بعضهم إلى تأليههم وعبادتهم، وهو ما يصطلح عليه بالغلو. وعلى طرف النقيض التقصير والاهمال وإظهار العداوة والبغضاء، وهو ما يصطلح عليه بالنصب، وما

(١) نهج البلاغة: ١٦٣/٢.

(٢) منهاج البراعة: ١٥٤/١٢.

(٣) نهج البلاغة: ١٦٣/٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٦٠/٢ - ١٦١.

(٥) شرح نهج البلاغة ابن ميثم البحراني: ٣/ ٤١٤ - ٤١٥.

يدعوه له الإمام عليه السلام في هذا النص وفي غيره اتباع النمط الأوسط الذي يقع وسط بين طرفي النقيض؛ فلا إسراف ولا تقصير، ولا غلو ولا نصب، ففيهما الهلاك. وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «وسيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالاً النمط الأوسط، فالزموه والزموا السواد الأعظم فإن يد الله على الجماعة. وإياكم والفرقة»<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: منهج الوسطية والاعتدال في عبادة الله تعالى:

يوضح الإمام علي عليه السلام معالم الطريق لعبادة الله والغاية المترتبة عليه من خلال قوله: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»<sup>(٢)</sup>.

فعبادة الأحرار منهج وسط يتقربون به شكراً لخالقهم بين الرغبة والرهبة.

ويرى الإمام علي عليه السلام أن الوسطية طريق بين الخوف والرجاء يسلكه كل من يرغب بعبادة الله حق عبادته إذ يقول عليه السلام: «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله»<sup>(٣)</sup>. فالفقيه الذي توافرت فيه صفات الهادي والمرشد، يسلك بالناس هذه السبيل، فإذا خوّفهم من النار فتح لهم باب الأمل والرجاء في الجنة، وإذا رغبهم في الجنة خوّفهم من النار»<sup>(٤)</sup>.

ومنهج الوسطية واقعي يجب العبادة إلى الناس، وفي الوقت نفسه، يحافظ على الثوابت وأصول العبادات؛ وهذا ما نتلمسه من وصية الإمام علي عليه السلام: «وإذا أقمت في صلاتك

(١) نهج البلاغة: ٨ / ٢

(٢) المصدر نفسه: ٥٣ / ٤

(٣) المصدر نفسه: ٢٠ / ٤

(٤) في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية: ٢٦٩ / ٤

للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً، فإنّ في الناس من به العلة وله الحاجة»<sup>(١)</sup>. فمن الآداب الخاصة بإمام الجماعة أن يكون متوسطاً في صلاته بين المطول المنفر للناس بتطويله وبين المقصر المضيع لأركان الصلاة وفضلتها<sup>(٢)</sup>.

فالوسطية لا تعني الترخيص والتساهل في ترك العبادات أو التقصير بها، بل تعني أداء العبادات من دون تكليف النفس بما لا تستطيع، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله في وصية لأبنة الحسن عليه السلام: «واقصد يا بني في معيشتك، واقصد في عبادتك، وعليك فيها بالأمر الدائم الذي تطيقه»<sup>(٣)</sup>، وجاء عنه أيضاً «وأطع الله في جميع أمورك فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها. وخادع نفسك في العبادة، وارفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة فإنه لا بدّ من قضائها وتعاهدها عند محلها»<sup>(٤)</sup>.

#### رابعاً: منهج الوسطية في بيان مفهوم الزهد وذم التصوف المفرط:

مفهوم الزهد من المفاهيم التي حدث حولها جدل وخلط في تطبيقاتها، وأوضحه المعصومون في أكثر من مناسبة. ومن ذلك ما جاء عن الإمام علي عليه السلام بقوله: «الزهد كله في كلمتين من القرآن قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: الآية: ٢٣)، فمن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فهو الزاهد، فالزاهد من يكون وسطاً بين الخوف والرجاء، والذي يعني الرضا والتسليم والتوكل وعدم الالتفات إلى الماضي والمستقبل، وقلة التعلّق بالأمور الدنيويّة، التي تكون سبباً للحزن على ما فات والخوف على ما سيحيي»<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ١٠٣/٣.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ١٧٨/٥.

(٣) الأمالي، المفيد: ٢٢٢.

(٤) نهج البلاغة: ١٣١/٣.

(٥) ينظر: تفسير المحيط الأعظم، حيدرآملّي: ٢٢٧/٣.

وفي الوقت الذي يَبين فيه الإمام علي عليه السلام مفهوم الزهد، ذمّ ما يتوهم بأنّه من الزهد وهو العزلة عن الحياة والانشغال بالعبادة فقط، فهو من التصوف المذموم. ومما جاء في ذلك ما «قال له العلاء يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال: وما له؟ قال لبس العبادة وتخلّى عن الدنيا. قال عليّ به. فلما جاء قال: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولئك»<sup>(١)</sup>.

---

(١) نهج البلاغة: ٢ / ١٨٧.

## المطلب الثالث

### منهج الوسطية في نهج البلاغة

### وأثره في بناء الإنسان سلوكياً واجتماعياً

أولاً: سلوك منهج الوسطية عند حدوث الفتن:

حذّر الإمام علي من الانحياز لأحد طرفي الفتنة دونما تبين معالم الحقّ، وحثّ على انتهاز الوسطية والاعتدال في التعامل مع الفتن والأزمات، إذ يقول: «كن في الفتنة كابن اللبون: لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب»<sup>(١)</sup>.

فالنصّ يفصح عن استعارة جميلة في الحثّ على اتخاذ الوسطية منهجاً عند كلّ فتنة، فابن اللبون ولد الناقة عندما يدخل في السنة الثالثة، سمي بذلك لأنّ أمّه ولدت غيره فصار لها لبن<sup>(٢)</sup>، فعند عدم تباين معالم الحقّ والباطل عند حدوث الفتن يجب أن يكون المؤمن كابن اللبون فلا يركب لعدم الاستفادة من ظهره ليركب ولا يصلح للحمل، كما أنّه ليس بذات لبن كي يستفاد من حليبه<sup>(٣)</sup>، أي لا تكن في الفتنة منقاداً لصاحب الفتنة بحيث يتمكن من السيطرة عليك، فيحملك وزره، ويستمدّ منك، كما يستمدّ الحالب من اللبن<sup>(٤)</sup>.

وقيل هي كناية فكنتى عن القوّة بالظّهر، وعن المال باللّبن، أي لا تكن مطمعاً لأحد من طريق القوّة ومن طريق المال، يعني لا تهيج الفتنة بنفسك ومالك، والمراد بالقولين: لا تكن سلس القياد في الفتنة والشرّ<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ٣/٤.

(٢) ينظر: المصباح المنير: ١٩٤/٢.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة، عباس علي الموسوي ٢٠٥/٥.

(٤) ينظر: معارج نهج البلاغة، علي بن زيد البيهقي: ٣٩٧.

(٥) ينظر: المصدر نفسه.

### ثانياً الوسطية في التعامل مع المحبين:

حثّ المعصومين عليهم السلام على ضرورة مخالطة الناس ومجالستهم والتقرب إليهم من خلال التزاور والتهادي والتكافل وغيرها من السلوكيات الإيجابية التي حثت عليها الشريعة. وقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال «خالطوا الناس مخالطة إن مَتَّ معها بكوا عليكم، وإن عشتُم حنّوا إليكم»<sup>(١)</sup>.

وهذه المخالطة إذا ما أردنا أن تؤتي ثمارها كما يريد المعصوم يجب أن تكون على وفق المنهج الوسطي، فلا إفراط في المخالطة والتقرب بسبب حبّ ولا تفريط فيها بسبب بغض، وأسس لهذه القاعدة الإمام علي عليه السلام بقوله: «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»<sup>(٢)</sup>.

وعلى المؤمن أن لا يزهّد بأخيه المؤمن إذا كان راغباً في التحبّب إليه والتقرب منه، وأن لا يذلّ نفسه في التقرّب لمن زهد فيه، وهذه قاعدة أخرى من قواعد التعامل يؤسس لها الإمام علي عليه السلام بقوله «زهّدك في راغب فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذلّ نفس»<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: الوسطية في التعامل مع الخصماء:

ومثلما التحبّب والتقرب من الأمور الإيجابية إذا كانت وفق المنهج الوسطي، كذلك الخصومة إن سارت على المنهج نفسه. قال الإمام علي عليه السلام: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم»<sup>(٤)</sup>. فيجب على المؤمن تجنب الخصومة أو أن يكون وسطاً بين الإفراط فيها،

(١) نهج البلاغة: ٤ / ٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤ / ٧٢.



وهو الظلم، فالمبالغة فيها الحرص على الفوز بكلّ سبيل، التفريط فيها من التقصير، وفيه من الحيف لسكوت الإنسان عن حقّه<sup>(١)</sup>.

ويجب أن يكون الحبّ والبغض في الله، لا لاعتبارات أخرى، فنذكر ما هو إيجابي ونشجع عليه، وإن صدر ممن له خصومة معنا، ونذمّ ما هو سلبي وإن صدر مع أقرب الناس لنا، وأن لا نبالغ في المدح والذمّ تقرباً أو لاعتبارات أخرى. يجب أن ننتهج الوسطية في ذلك، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي وحسد»<sup>(٢)</sup>.

فيجب أن لا نخرج في المدح عن حد الاعتدال، لأننا إن أسرفنا فيه فيكون تملقاً، وإن قصرنا فيه فيكون حسداً وحنفاً<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر في ظلال نهج البلاغة، مغنية: ٣٩٧ / ٤.

(٢) نهج البلاغة: ٨١ / ٤.

(٣) ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ٤١٨ / ٤.

## المطلب الرابع

### منهج الوسطية في نهج البلاغة

### وأثره في بناء الإنسان على المستوى الاقتصادي والسياسي

#### أولاً: الوسطية في أمور المعيشة:

يريد لنا المعصوم عليه السلام العيش الكريم الذي يكون الاعتدال والوسطية منهجاً سلوكياً فيه، فلا إسراف وتبذير ولا بخل وتقتير، بما يسلم تلبية حاجات الجسد من المأكّل والملبس ويحفظ سلامته من البطنة والأمراض الأخرى. ومما جاء عن الإمام علي عليه السلام في ذلك قوله: «عليكم بالقصد في المطاعم فإنه أبعد من السرف وأصح للبدن وأعون على العبادة»<sup>(١)</sup>.

وجاء عنه أيضاً قوله: «إن جهده الجوع قعد به الضعف. وإن أفرط به الشبع كظته البطنة فكلّ تقصير به مضر وكلّ إفراط له مفسد»<sup>(٢)</sup>.

وفضلاً عما ينتج من الاعتدال في المعيشة من ابتعاد عن الإسراف وسلامة البدن، فهو يجنب المؤمن الوقوع في أحد محذوري طرفي الاعتدال وهما الإسراف والبخل، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «كن سمحاً ولا تكن مبذراً، وكن مقدراً ولا تكن مقترراً»<sup>(٣)</sup>.

وفي الاعتدال بعد اقتصادي يضمن عدم الفاقة والحاجة، وهذه قاعدة اقتصادية يؤسس لها الإمام علي عليه السلام بقوله: «ما عال أمرء في اقتصاد»<sup>(٤)</sup>.

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الواسطي: ٣٤١.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥ / ٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٠ / ٤.

(٤) الكافي، الكليني: ٥٣ / ٤.

### ثانياً: الوسطية على المستوى السياسي:

وضح الإمام علي عليه السلام أحد أهم من صفات القائد في وصيته لأحد ولاته التي جاء فيها: «أما بعد، فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة، واحتقاراً وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يدنو لشركهم، ولا أن يقصوا ويحفوا، لعهدهم، فألبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرفقة، وامزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء، واخلط الشدة بضغث من اللين، وارفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة»<sup>(١)</sup>.

فيريده الإمام علي عليه السلام من قائد أن يسير على منهج الوسطية في التعامل مع الرعية، ففي قوله: (فألبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة) كناية عن الاعتدال في التعامل بين اللين والشدة، فهما طرفا نقيض السير باتجاه أحدهما مفسدة للرعية وللقائد.

وفي قوله: (وداول لهم بين القسوة والرفقة) يشير إلى ضرورة استعمال كل من القسوة والرفقة في موضعه، وهو عين الاعتدال والوسطية في التعامل.

وفي قوله: (وامزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء)، قاعدة أخرى من قواعد فنون الإدارة الناجحة. فالوالي والقائد والوزير والمدير يجب أن لا يبتعد عن رعيته في موطن يتطلب القرب، ولا يتقرب في موطن يتطلب البعد؛ وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في وصف مالك الأشر: «فإنه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عما الأسراع إليه أحزم، ولا إسرعه إلى ما البطء عنه أمثل»<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ١٨/٣ - ١٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٤/٣.

## الخاتمة

في ختام البحث رشحت بعض النتائج والملخصات المعرفية:

- ١- الوسطية والاعتدال منهج أصّل له القرآن الكريم بالنص الصريح، وبلوازم المفاهيم، وأكّدت السنة الشريفة قولاً وفعلاً في كثير من المواطن.
- ٢- الوسطية لا تقتصر على القول أو الفعل ولا تنحصر بمجال محدد، بل شملت مجالات مختلفة.
- ٣- نجد المنهج الوسطي متجلياً بشكل واضح في التوحيد، وهو أهمّ المعارف وأصل الأصول؛ الأمر الذي يعكس أهمية هذا المنهج وانعكاسه على المعارف والأصول المتفرعة من التوحيد.
- ٤- أصّل الإمام علي لمنهج الوسطية والاعتدال من خلال الحثّ على سلوك هذا المنهج، ومن خلال الممارسة العملية في مجالات مختلفة.
- ٥- تترتب على سلوك منهج الوسطية آثار كثيرة تسهم في توازن علاقة العبد برّبّه ومع مجتمعه، وتكفل له السلامة في الدنيا والآخرة.

## المصادر والمراجع

١. الأمالي، المفيد (٤١٣هـ) تحقيق: حسين الاستاذ ولي، ط: ١، ١٤١٤-١٩٩٣م.
٢. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت: ١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ط: ٢، ١٩٨٣م.
٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: ٢، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩م.
٤. تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، ط: ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان (د. ط)، ١٩٩٥م.
٦. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، حيدر الأملي (ت: ٧٨٢هـ)، تحقيق: السيد محسن الموسوي التبريزي، مؤسسة فرهنگي ونشر نور علي نور، ط: ١، ١٤٢٢هـ.
٧. شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني (ت: ١٠٨١)، ط: ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٨. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ١، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

٩. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني (ت: ٦٧٩هـ)، مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي - الحوزة العلمية - قم - إيران، ط: ١، ١٣٦٢ ش.
١٠. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط: ٤، ١٩٨٧ م.
١١. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، (د.ط)، ١٤٠١هـ.
١٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط: ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م.
١٣. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الواسطي (ت: ق ٦هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، ط: ١.
١٤. في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، انتشارات كلمة الحق، ط: ١، ١٤٢٧هـ.
١٥. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية - طهران، ط: ٥، ١٣٦٣ ش.
١٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط: ١، ١٤١٤هـ.
١٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د.ط)، ١٤٢٢هـ.

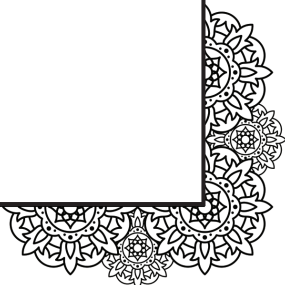
١٨. مسند الإمام علي، حسن القبانجي، تحقيق: الشيخ طاهر السلامي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، ط: ١، ١٤٢١-٢٠٠٠ م.
١٩. مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، الميرجهاني (ت ١٣٨٨ هـ)، ١٣٨٨ هـ.
٢٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط) (د.ت).
٢١. معارج نهج البلاغة، علي بن زيد البيهقي (ت: ٥٦٥ هـ)، تحقيق: محمد تقي دانش پزوه، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة.
٢٢. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٢٣. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت: ١٣٢٤ هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، بنياد فرهنگ امام المهدي ﷺ، ط: ٤.
٢٤. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د.ط)، (د.ت).
٢٥. نهج البلاغة، خطب الإمام علي، شرح: محمد عبده، دار الذخائر - قم إيران، ط: ١، ١٤١٢ هـ.



**فاعلية الإدراك عند المتكلم  
في معرفة أحوال المخاطب  
-خطبة فذك إنموزجاً-**

الباحث  
أ. د. سامي الماضي

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمها على أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر المتجيين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين....  
أما بعد...

فيمثل الخطاب في عملية التواصل اللغوي بين المتكلم والمخاطب فاعلية التواصل لمفهوم المعرفة الإدراكي الذي يبغى من ورائه المتكلم إيصال رسالته بشكل مباشر عبر استعماله ملفوظات تدل على معانٍ مقصودة يفسرها المتلقي حسب أحوال المقام الذي قيل فيه ذلك الخطاب، وبالمحصلة فهو رسالة ذات لغة تتناسب مع الإدراك المعرفي للمخاطب من أجل إبلاغه بما يحمله تارة، وتارة أخرى للتذكير بما يتطلب الموقف الذي من أجله تأسس ذلك الخطاب.

ولما كان تأويل الخطاب ممارسة يتوقف عليها بناء المعرفة الإنسانية، إذ لا تخلو منها أي ثقافة ولا ينفلت من أسرها أي تفكير، فإن فاعلية الإدراك لدن طرفي الخطاب يجب أن تتحقق، وإلا فلا مفاد من ذلك الخطاب، ذلك أن بناء المعرفة وإنتاج الثقافة وممارسة التفكير، كلها تقوم على التواصل اللغوي، وتواصل المتكلم مع المخاطب، لا يتحقق إلا بوجود علاقة إدراكية تقوم على معرفة أحوال المخاطب من جهة، والإدراك المعرفي عند المتكلم لإيصال رسالته وتواصلها مع الآخر. ولما كان التواصل اللغوي يحدث عبر شقين؛ الأول التواصل المباشر الذي يقوم على طرح المعرفة من دون حاجتها إلى مسار التأويل،

وآخر يطرد على طريقة التجاوز في التدليل والاستدلال لتفصيل القول للمخاطب، فقد يلجأ المخاطب للتأويل كنوع لفهم ما يطرحه المتكلم، وبالمحصلة لبناء معرفة التواصل بينهما.

وقد يلجأ المتكلم إلى كلا النوعين من التعبير عن رسالته عندما يتطلب ذلك شريطة أن يدرك المتكلم فاعلية التواصل اللغوي مع المخاطب، وقد يضطر إلى تقنين خطابه بشكل مباشر يبتعد عن التأويل لما يستشفه من الإدراك المعرفي عند المخاطب وحينئذٍ عليه تدارك ذلك.

وفي ضوء ذلك يمثل المتكلم الركن الأساس في طرفي الخطاب باعتباره هو صاحب المبادرة في طرح نقطة الحوار، وبالمحصلة تحديد مسار مفهوم الخطاب وتوجيهه، وعليه أن يدرك فاعلية المخاطب في عملية التواصل اللغوي من حيث قبوله وإنصاته لما يطرح مع مراعاة مستويات أحوال المخاطبين؛ وهذا يتعلق بالمتكلم نفسه من أجل إيصال ما يريده بالصورة التي عن طريقها يثبت الحقائق والمضامين المراد إيصالها للمخاطبين وبالتأكيد هذا يتمثل في المرجعيات المعرفية التي يمتلكها المتكلم، فهي التي تحدد طبيعة تلك العملية التواصلية مدعمة عبر منظومة معرفية اتسمت بالإدراك، والفهم، والمعرفة، والقدرة الإبداعية. وهذا جلّه يتعلق بالإدراك المعرفي للغة وتراكيبها واستعمال ما يوجب من الذكر، والحذف، والإيجاز، والتفصيل، فضلاً عن الترابط الذهني بين قدرة المتكلم على إبراز الدليل الذي يفحم الآخر.

ومن ثمّ يعتمد على المرجعيات المعرفية لدن المتكلم — ولا سيما المتكلم — هي السيدة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، فقد مثلت «خطبة فدك» أنموذجاً مميزاً في بيان فاعلية الإدراك اللغوي بين طرفي الخطاب، وهذا يعود إلى الإدراك المعرفي للغة واستعمالاتها في

ضوء علم المناسبة الذي يتسم بشحن المفوضات ذات المعاني المباشرة في إيصال مضمون تلك الخطبة وفحواها.

ويمكن القول إنَّ عملية التواصل اللغوي تتطلب العناية الفائقة من لدن المتكلم في استعماله الألفاظ التي يتقبلها المخاطب بشكل مباشر، أو يلجأ إلى أساليب لغوية أخرى تجعل المتلقي ينصت لها ويتأمل فيها وهذا ما أكده جُلُّ اللغويين، ومنهم ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ): «وإذا مرَّ له معنى يستبشع اللفظ به لطف في الكناية عنه وأجلَّ المخاطب عن استقباله بما يتكرهه منه، وعدل اللفظ عن كاف المخاطبة إلى ياء الاضافة لنفسه إن لم ينكر...»<sup>(١)</sup>، ومن أجل أن يراعى أحوال المخاطب فيجب أن يستعمل المتكلم من الألفاظ ما يجذب المخاطب من المعاني الجليَّة ذات الإفهام المعرفي للمضامين المراد التعبير عنها. ولعلَّ ما ذكره حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ): «وأحسن ما يكون عليه هيئة الكلام في ذلك أن تُصدَّر الفصول بالمعاني الجزئية، وتُردف بالمعاني الكلية على جهة تمثُّل بأمر عام على أمر خاص، أو الاستدلال على الشيء بما هو أعمَّ منه،... فكثيراً ما يقع بوصف معاني الفصول على هذه الصفة تعجيب للنفس وانقياد إلى مقتضى الكلام...»<sup>(٢)</sup>. وبلحاظ ذلك، نجد التأكيد على فاعلية الإدراك المعرفي للمتكلم في مراعاة أحوال المخاطب للمحافظة على وشائج التواصل والإبقاء على الإقبال في إتمام المعاني المنشودة من قبل طرفي الخطاب؛ وفي ضوء ذلك، الإدراك يكون توافق نفسي بين المتكلم والمخاطب يساعد في إيضاح العلاقة بين اللغة والمقام الذي تُستعمل فيه، مع مراعاة كلِّ العوامل التي تتحكم بعملية التواصل اللغوي، ولا سيَّما سياق الحال<sup>(٣)</sup> الذي يمثِّل المرتكز الأساس بين طرفي الخطاب عبر حركية في مستويات المعنى التي تتجلى في مقاصد المتكلم في استعماله أبنية محددة من اللغة دون

(١) عيار الشعر / ١٢٣.

(٢) منهاج البلغاء / ٢٥٩.

(٣) ينظر: مراعاة المخاطب في النحو العربي / ٢٧.

غيرها، واعتقادات ذهنية فيما يستنبطه من مقولات اعتماداً على تجارب مسبقة مع المخاطبين بشكل عام... فحينئذٍ تتمظهر في الخطاب جملة من المستويات الدلالية عبر مجموعة حركات تتمثل بالزمان، والمكان، فضلاً عن جوهر اللغة ذاتها<sup>(١)</sup>.

---

(١) ينظر: حركية المعنى النحوي مقارنة عرفانية لمقولة الربط ٢١-٢٢.

## المسار الأول الأجوبة المفحمة في الخطبة

يتجلى الحديث عن الأجوبة المفحمة في بيان التأويل الذي قد يحتاجه المخاطب لفهم ملفوظات ما يطرح في عملية التواصل اللغوي من حيث الزمان والمكان لنفترض مسبقاً أنّ قراءة واحدة لا تكفي لفهم المعنى، وأنه يجب أن يكون المعنى متعدداً لكي يفوق قدر القراءة الأحادية، ويكون التأويل مرتبطاً بالتساؤل عن معنى المعنى، ويكون المخاطب محرراً في فهم تلك الملفوظات عبر المعنى الظاهر الذي غالباً ما يحمل رسائل مباشرة فيه قوة الجذب للمخاطب والتساؤل المسبق عما يريد إيصاله المتكلم في فاعلية التواصل اللغوي، فيبدأ ببحث المخاطب عن معناه الخفي الذي يفترض أنه المقصود<sup>(١)</sup>.

### أولاً: الدلالة الإيحائية للأجوبة المفحمة

إنّ الدلالة هي ما يصاحب التراكيب من معانٍ تدلّ عليها الألفاظ، بشكل مباشر، وبشكل غير مباشر يستنبطها المتلقي عبر مجموعة إشارات لغوية، ومنها المؤثرات النفسية، والحسية، التي تكون في مجال الانفعال النفسي والتأثر الداخلي للإنسان<sup>(٢)</sup>. وفي ضوء ذلك فإنّها عبرت حدود التفسير والتأويل وتجلّت بمظاهر الملفوظات المؤثرة والانفعالات الظاهرة التي تؤثر في المخاطب؛ ولعلّ إشارة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) إليها في وصف البليغ «ما رأيت بليغاً قطّ إلّا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة»<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: أثر طرق الحج في التواصل اللغوي دراسة ايستيمولوجية ٢٠.

(٢) ينظر: الدلالة النحوية في كتاب المقتضب ٧٥ بتصرف، وينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٢٤.

(٣) كتاب الصناعتين ١٨٠، وينظر المعارف الالهية في ضوء ظلال المعنى ١١٩ بتصرف.

إذ روى عبد الله بن الحسن عليه السلام بإسناده عن آبائه عليهم السلام: «أَنَّه لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَنَعِ فَاطِمَةَ عليها السلام فَذَكَ، وَبَلَغَهَا ذَلِكَ، لَأَثَتْ خِمَارَهَا عَلَى رَأْسِهَا، وَاشْتَمَلَتْ بِجِلْبَابِهَا، وَأَقْبَلَتْ فِي لُحَّةٍ مِنْ حَفَدَتِهَا وَنَسَاءِ قَوْمِهَا، تَطَأُ ذُيُوهَا، مَا تَحْرِمُ مِشْيَتُهَا مِشْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ فِي حَشْدٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ»<sup>(١)</sup>

إنَّ المتأمل لنص الخطبة من حيث المبدأ يجدها جواباً مفحماً لمن سلبها حقها؛ ومن زاوية أخرى، فإننا نحاول أن نبرز تلك الأجوبة على وفق نظام التراكيب الجمالية من حيث مكوناتها ودلالاتها وسياقها، وعبر الدلالة الإبلابية في الخطاب المفحم، ولا سيَّما بقرينة الزمان والمكان، إذ تكلل حديثها، صلوات الله وسلامه عليها، في مقدمات تدلُّ على مظلوميتها منها:

١ — (مِشْيَتُهَا مِشْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ)؛ وهذا جواب حسنٍ فيه إشارة واضحة إلى كونها من بيت النبوة التي نزلت بحقهم الآيات، ولعلَّ آية التطهير عزَّ قائلها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّمَا هي إِيحَاءٌ إِلَى اسْتِنَهاضٍ مِنْ فِي الْمَجْلِسِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ وَذَلِكَ عِبْرَ قَصْدِيَةِ الْفِعْلِ لِتَصْوِيرِ الْإِحْسَاسِ الْدَاخِلِيِّ الَّذِي يَعْبُرُ عَنِ الْحُزَنِ وَالْأَلَمِ، وَالْإِدْرَاقِ الْمَعْرِفِيِّ لِلْحَقَائِقِ الَّتِي تَجَلَّتْ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ أَبِيهَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... الْأَمْرُ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِيحَاءَ إِلَى مَضْمُونٍ مَا تَرِيدُ إِصْصَالَهُ لِمَنْ فِي الْمَجْلِسِ، وَنَتِجَ عَنْ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ الْكَبِيرِ<sup>(٣)</sup>.

«فَنَيْطَتْ دُونَهَا مَلَاءَةً، فَجَلَسَتْ، ثُمَّ أَنْتَ أَنَّ أَجْهَشَ الْقَوْمَ لَهَا بِالْبُكَاءِ، فَازْتَجَّ الْمَجْلِسُ»<sup>(٤)</sup>

(١) خطبة السيدة الزهراء عليها السلام ٩-١٠.

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) ينظر: تحليل لغة القرآن واساليب فهمه ٤١ بتصرف.

(٤) خطبة السيدة الزهراء عليها السلام ١٠.

٢- (أَنْتَ أَنْتَ أَجْهَشَ الْقَوْمَ لَهَا بِالْبُكَاءِ، فَارْتَجَّ الْمَجْلِسُ)، وهذا جواب حسيٍّ آخر فيه دلالة على المظلومية مما أدّى إلى تفاعل مَنْ كان حاضراً في المجلس بالبكاء، وهنا نلمح مدى الإدراك المعرفي من قبل السيدة الزهراء (عليها السلام) في فهم أحوال المخاطبين، إذ يبدو عليهم الإحساس بالندم والخجل من بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ لم يناصروها في حقّها. ولعلّ سياق الحال يثير شيئاً ما في تهيئة المخاطبين لما تريد إيصاله السيدة الزهراء (عليها السلام) من رسالة إلى المجتمع بشكل عام، وإلى الخليفة الأول بشكل خاص. ونلاحظ أنّ هذه الأفعال الإنجازية قد أعطت إشارة إيجابية لبدء خطبتها، فإنّ الجانب العاطفي والإثارة القلبية كان لها أثر في تفاعل الناس بالبكاء عند سماع خطبتها<sup>(١)</sup>.

« ثُمَّ أَمْهَلَتْ هَيَّيَّةً حَتَّى إِذَا سَكَنَ نَشِيجُ الْقَوْمِ، وَهَدَأَتْ فَوَرْتُهُمْ، افْتَتَحَتِ الْكَلَامَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَعَادَ الْقَوْمُ فِي بُكَائِهِمْ »<sup>(٢)</sup>.

٣- وهنا تأتي قدرة السيدة الزهراء (عليها السلام) في بلاغة الخطاب عبر إعطاء فسحة من الوقت للمخاطبين للفت انتباههم إلى حديثها لتبدأ بحمد الله والثناء عليه؛ لأنّ كلمة «الحمد» إنّما هي استحضار لقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٣)</sup>، وهي كما نصّت الروايات هي خلاصة التنزيل والقرآن؛ لأنّ مركز مفهوم الحمد في المنظومة الإسلامية إنّما فيه إشارة مباشرة إلى منظومة الأخلاق الإسلامية التي يجب على الإنسان أن يكون حامداً لله تعالى في كلّ الأحوال<sup>(٤)</sup>؛ وهذا درس أخلاقي للمخاطبين، وجواب مفحم لهم، فلانتقال الدلالي من الإيحاء إلى القصد المباشر يمثّل إدراكاً لفاعلية التواصل مع المخاطبين عبر مجموعة دلائل حسّيّة ومعنويّة بدأت تتفاعل مع خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام)، ودليل ذلك عودة القوم

(١) ينظر: إنيّ فاطمة وأبي محمد تأملات في خطبة الزهراء وبعض شؤونها ٧٥ بتصرف.

(٢) خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) ١٠-١١.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ٧٩ بتصرف.

إلى البكاء، وما هذا الأمر إلا لوجود ذلك التفاعل بين المتكلم والمخاطب، وهذا يعود إلى قدرة المتكلم في منظومته عبر الخطاب مع المخاطبين.

### ثانياً: الدلالة القصدية للأجوبة المفحمة

تمثل القصدية في الكلام دلالة قوية على اعتبار «ليس المعبر بتكرار اللفظ؛ لأننا نعلم أن الحروف، والكلمات متكررة في كل الكلام، وإنما المعبر بالأغراض، والمقاصد، فربما كان المشبه باللفظ غير متكرر، وربما كان المتباين في اللفظ متكرراً وهذا بين»<sup>(١)</sup>.

والقصدية هي إحدى معاني الإرادة الاستعمالية، وهو أن يقصد المتكلم من استعمال اللفظ تفهيم المعنى بواسطته أو قصد التلفظ بما له أهلية إخطار المعنى، فالمتكلم يقصد الإتيان باللفظ المعد للكشف عن المعنى<sup>(٢)</sup>.

وبمعنى آخر يمكن القول: إنَّها تعتمد على العلاقة التفاعلية بينهما، ومن أجل أن يكون هذا التواصل مفهوماً بين الطرفين، فلا بد أن يركز المتكلم على مجموعة من المسارات اللغوية، وغير اللغوية في إيصال المعنى للمخاطب. وهذا الأمر يختلف من أسلوب إلى آخر، فالإخبار، والاستفهام، والأمر، والنهي وغيرها من الأساليب النحوية والبلاغية التي تعتمد جلّها على النية والإرادة عند المتكلم، وفي الأحوال كلّها عليه مراعاة أحوال المخاطب من لبس أو جهل، أو إغراض، أو غير ذلك، لأنَّه الطرف الثاني لعملية التواصل اللغوي التي تقوم على أطراف ثلاثة، وهي: المتكلم، والنص أو الرسالة - التي يريد إيصالها - والمخاطب<sup>(٣)</sup>.

(١) المغني ١٧/ ١٤

(٢) ينظر: قصدية الخطاب في نهج البلاغة دراسة في مفهوم المعنى بين المتكلم والمخاطب ٢٩٥.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٣ - بتصرف



فَلَمَّا أُمْسَكُوا عَادَتْ فِي كَلَامِهَا، فَقَالَتْ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أُنْعِمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أُلْهِمَ، وَالثَّنَاءُ بِمَا قَدَّمَ، مِنْ عُمُومِ نِعَمِ ابْتِدَائِهَا، وَسُبُوحِ آلاءِ أَسْدَائِهَا، وَتَمَامِ مَنَنِ وَالِاهَا، جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدْدُهَا، وَنَأَى عَنِ الْجُزْأِ أَمْدُهَا، وَتَفَاوَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ أَبْدُهَا، وَنَدَبَهُمْ لَاسْتِزَادَتِهَا بِالشُّكْرِ لِاتِّصَالِهَا، وَاسْتَحَمَدَ إِلَى الْخَلَايِقِ بِإِجْزَالِهَا، وَتَنَّى بِالنَّدْبِ إِلَى أَمْثَالِهَا. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةً جَعَلَ الْإِحْلَاصَ تَأْوِيلُهَا، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولُهَا، وَأَنَارَ فِي الْفِكْرِ مَعْقُولُهَا. الْمُتَمَتِّعُ مِنَ الْإِبْصَارِ رُؤْيُوتُهَا، وَمِنَ الْأَلْسَنِ صِفَتُهَا، وَمِنَ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهَا. ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلُهَا، وَأَنْشَأَهَا بِلا اخْتِدَاءٍ أَمْثَلِيَّةٍ امْتَثَلَهَا، كَوْنَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا، وَلَا فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا إِلَّا تَثْبِيثًا لِحُكْمَتِهِ، وَتَنْبِيهًا عَلَى طَاعَتِهِ، وَإِظْهَارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِرَبِّيَّتِهِ، وَإِعْزَازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَضَعَ الْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِيَاشَةَ مِنْهُ إِلَى جَنَّتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتَارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنْ اجْتَبَلَهُ، وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ ابْتَعَثَهُ، إِذِ الْخَلَاتِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِاسْتِزَادَةِ الْأَهْوِيلِ مَصُونَةٌ، وَبِنَهَايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عَلِمًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَآيِلِ الْأُمُورِ، وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمُقْدُورِ»<sup>(١)</sup> ويتجلى هذا المقطع من الخطبة بالدلالة القصصية على النحو الآتي:

١- الابتداء بـ (حمد الله والثناء عليه)؛ وهذا ميزة الخطاب الإسلامي الأصيل في كل خطاب، وهو غير موجود في الديانات السابقة، والتركيز على قصصية (الحمد لله) للإشارة إلى أم الكتاب وفاتحة القرآن؛ وهو خطاب الله عز وجل للإنسان كما نجدتها في خطاب الإنسان لله عز وجل فضلاً عن الافتتاح بالحمدلة في جلّ الأدعية المروية عن الأئمة المعصومين<sup>(٢)</sup>.

(١) خطبة السيدة الزهراء عليها السلام ١١ — ١٣.

(٢) ينظر: أني فاطمة وأني محمد تأملات في خطبة الزهراء وبعض شؤونها ١٠٣ بتصرف.

٢— ثم قصدية الشهادية للنبي محمد ﷺ بهذه الصيغة (وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتَارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنْ اجْتَبَاهُ، وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ ابْتَعَثَهُ) أَيَّ إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي اقترنت شهادة (لا إله إلا الله) بالشهادة له أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَهُ ﷺ، وهو جواب مفعم لمن يسأل افتراضاً من المتكلمة. وبلحاظ ذلك أَنَّها قصدت أَنْ تقول إِنَّ أَبِي مُحَمَّدٌ ﷺ وإذا كان أَبِي وأنتم تعلمون، فلماذا هذه المعاملة مع ابنته وتمنعونها حقها في إرثها؟! ثم إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد اختاره واصطفاه قبل أَنْ يبتعثه، وهنا نلمح دلالة قصدية فيها إشارة إلى من دخل الإسلام من بعد عبادة الأوثان، فأنا ابنة ذلك النبي المصطفى لمن لا يعرف مَنْ أَكُون، وهو سؤال افتراضي؛ لأنَّ المخاطبَ يعرف ما يقصد المتكلم عبر ما عهد بينهما من إحاطة لحديث المتكلم وقصديته عن طريق ما يريد إيصاله إليه عبر الإشارات والقرائن الموحية التي تجعل الكلام ضمن فاعلية الإدراك المعرفي بين طرفي الخطاب<sup>(١)</sup>. ثم تصف النبي محمدًا ﷺ بالاصطفاء واختيار الله عَزَّ وَجَلَّ له دون غيره حيث لا زمان ولا مكان ولا أنس ولا جان ولا نار ولا جنة؛ فأول شيء في الخلائق كان نور محمد ﷺ، وهذا مفاد قولها صلوات الله عليها «ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِمَامًا لِأَمْرِهِ، وَعَزِيْمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاذًا لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ. فَرَأَى الْأُمَمَ فَرَقًا فِي أَدْيَانِهَا، عُكْفًا عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكَرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفَانِهَا. فَأَنَارَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظُلْمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهْمَهَا، وَجَلَّى عَنِ الْأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهُدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعِمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ»<sup>(٢)</sup> ثم تأتي لتؤكد (فأنار الله بمحمد صلى الله عليه وآله ظلمها وكشف عن القلوب بهمها...) فالدلالة القصدية تشير إلى أبيها ﷺ، وبالتأكيد إِنَّ هذه القصدية من أجل هدف استراتيجي تريد إيصاله للمخاطبين عبر فاعلية الإدراك المعرفي في عملية التواصل اللغوي.

(١) ينظر: مراعاة أحوال المخاطب في النحو العربي ١٤٢، بتصرف.

(٢) خطبة السيدة الزهراء ﷺ ١٣-١٤.

٣— وتسترسل السيدة الزهراء في خطبتها مؤكدة دور النبي ﷺ « ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا النَّاسُ! اْعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلَا أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلَطًا، وَلَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة التوبة / ١٢٨ فَإِنْ تَعَزَّوْهُ وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا ابْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ، وَلِنِعْمَ الْمُعْزِي إِلَيْهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»<sup>(١)</sup>

وبلحاز النصّ أعلاه للسيدة الزهراء ﷺ نلمح قصدية الخطاب في توظيف أسلوب النداء عبر دلالة حذف الأداة؛ لكونه يمثل أبرز الإشارات الشخصية في الاستراتيجية التضامنية على اعتبار العلاقة بين المخاطب والمُخاطَب التي يلتزم بوضوح الرؤية، لأنَّ الأصل من ذلك هو إيصال قضية محددة في ذهن المتكلم الى المتلقي مما يجعل اهتمام المتلقي بالأمر بسبب قصدية التنبيه<sup>(٢)</sup> وتأكيد الأبوة لها دون غيرها فضلًا عن التناصّ القرآني الذي اتخذته دليلًا لبيان صلة القرابة منها، فإنَّه أبي وأخي ابن عمي في إشارة إلى زوجها علي بن أبي طالب ﷺ ومنزلته من رسول الله ﷺ؛ وفي حقيقة الأمر، فهذه أجوبة مفحمة عن أسئلة افتراضية، إن وجدت أو واقعية كانت.

(١) المصدر السابق ١٨.

(٢) ينظر: أعلموا أني فاطمة - دراسة في عرفانية اللغة وقصدية الخطاب ١٨.

## المسار الثاني

### المضامين والمقاصد الاجتماعية والسياسية

إنّ عملية التواصل اللغوي بين طرفي الخطاب تعتمد على القصد في نية المتكلم، إذ هي الأساس في طرح الحوارية اللغوية عبر مجموعة عناصر تتضافر فيما بينها، لتؤدي معاني مفهومة، أصلها المتكلم، ييثرها إلى المخاطب لكي يكون تواصلاً لغوياً واجتماعياً؛ على اعتبار أنّ اللغة هي تعبير عن حاجة في نفس المتكلم. ولذلك فهو يحاول أن يتدرج عبر مقاصده في الخطاب إلى مجموعة أفعال منها تأثيرها يقع في المخاطب، وأخرى إنجازية تتعلق بالمتكلم، يحاول جاهداً أن يطرح ما في خلجة من مفاهيم ذات مقاصد اجتماعية، وسياسية، وعرفانية متمثلة بإدراكه لحوارية ذلك الخطاب. وهذا الأمر يعتمد على تفسير الحدث اللغوي وفق المعطيات اللغوية والاجتماعية عن طريق اختيار المتكلم لألفاظه وتوظيفها في بنية التراكيب الجمالية من أجل الوصول إلى دلالة هذه المضامين والمقاصد<sup>(١)</sup>.

#### أولاً- مضامين الخطبة:

١- التوحيد، ولما كان التوحيد يمثل الأصل الأول من أصول الدين فإنه أصل مضامين الخطاب في كلام السيدة الزهراء، ولذلك ابتدأت به. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال في التوحيد: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلَا يُحْصِي نِعْمَاهُ الْعَادُونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطْنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مُحَدَّدٌ، وَلَا نَعْتُ مَوْجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَعْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَسَرَ الرِّيَّاحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَدَّ بِالصُّخُورِ مِيدَانَ أَرْضِهِ أَوَّلَ الدِّينِ

(١) ينظر: أعلموا أني فاطمة - دراسة في عرفانية اللغة وقصدية الخطاب ١٦، والوظيفية في كتاب سيبويه

مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةُ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ»<sup>(١)</sup>.

وقد علق ابن أبي الحديد عليها بالقول: «وكمال التصديق به توحيده... والتصديق الذي هو أكمل من ذلك وأتم، هو العلم بتوحيده سبحانه، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين...»<sup>(٢)</sup>، فالتوحيد هو التوحيد نصف الدين؛ لأنه معرفته.

قالت السيدة الزهراء (عليها السلام): «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أَلْهَمَ، وَالشَّانَاءُ بِهَا قَدَّمَ، مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ ابْتَدَأَهَا، وَسُبُوغِ آلَاءِ أَسْدَاهَا، وَتَمَامِ مَنَنِ وَالَاهَا، جَمَّ عَنِ الإِخْصَاءِ عَدُّهَا، وَنَأَى عَنِ الْجَزَاءِ أَمْدُهَا، وَتَفَاوَتْ عَنِ الإِذْرَاكِ أَبْدُهَا، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزَادَتِهَا بِالشُّكْرِ لِاتِّصَالِهَا، وَاسْتَحْمَدَ إِلَى الْخَلَائِقِ بِإِجْزَالِهَا، وَثَنَى بِالنَّدَبِ إِلَى أَمْثَالِهَا. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةً جَعَلَ الإِخْلَاصَ تَأْوِيلَهَا، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَهَا، وَأَنَارَ فِي الْفِكْرِ مَعْقُولَهَا. الْمُتَمَتِّعُ مِنَ الإِبْصَارِ رُؤْيَاهُ، وَمَنِ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمَنِ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ. ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنْشَأَهَا بِلاَ اخْتِدَاءٍ أَمْثَلَةٍ أَمْثَلَهَا، كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا، وَلَا فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا إِلَّا تَثْبِيثًا لِحُكْمَتِهِ، وَتَنْبِيْهَا عَلَى طَاعَتِهِ، وَإِظْهَارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِّيَّتِهِ، وَإِعْزَازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَضَعَ الْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَّتِهِ، زِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِيَاشَةَ مِنْهُ إِلَى جَنَّتِهِ»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا المنطلق، فقد أشارت السيدة الزهراء (عليها السلام) إلى التوحيد في بداية خطبتها؛ لما له من الأهمية في حياة الإنسان، ومكانة كبيرة؛ لأنَّ الغاية منه معرفة وجود الباري عزَّ

(١) نهج البلاغة - الخطبة الأولى / ٤٢.

(٢) شرح نهج البلاغة / ٤٦ / ١.

(٣) خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) ١١ - ١٢.

وجلَّ واتصافه بجميع صفات الكمال، والجمال، والجلال، وللتوحيد أثر في استقامة الفرد وصلاح المجتمع الإنساني، لأنَّ صلاح الأعمال رهين بحسن الاعتقاد، فالإشارة واضحة للمخاطبين أيَّها الناس إنَّ كنتم من الموحدين لله تبارك وتعالى، فتجب الاستقامة والعمل الصالح وإيتاء الناس حقوقهم التي أوجبها الله تعالى لهم.

لقد افتتحت السيدة الزهراء (عليها السلام) بالحمد والشكر لله على نعمائه وبالشهادة بوحدانية الله عزَّ وجلَّ. وما الشهادة على لسانها إلَّا هي فوق العلم والإدراك لأنَّ الله تبارك وتعالى قد اصطفاهم، وهم خاصة خلقه، فلا بدَّ أن يكونوا في أعلى درجات الكمال<sup>(١)</sup>، ويمكن أن نوضح ذلك عبر المخطط الآتي:

|                 |                       |
|-----------------|-----------------------|
| الإخلاص تأويلها | شهادة لا إله إلا الله |
| الفكر معقولها   | القلوب موصولها        |

وبلحاز هذه المعادلة فإنَّ التوحيد يكون مداره الإخلاص في النية، والاطمئنان في القلب، وامتلاء الفكر بالعقلانية؛ وبالمحصلة، فهو الشهادة بأنَّ لا إله إلا الله، وهذا سيقود الإنسان إلى أبعاد معرفية تشير إلى إكمال نصف الدين، كما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن آبائه، عن علي (عليه السلام)، قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): التوحيد نصف الدين، واستنزوا الرزق بالصدقة»<sup>(٢)</sup>. وعليه، فالسيدة الزهراء (عليها السلام) تعي وتدرك ذلك جيداً. لذلك سارت على نهج أبيها وبعلمها، صلوات الله عليهم، في تنبيه الناس عبر خطابها بأنَّ الله تبارك وتعالى تفرد بالوحدانية، ولم تدركه الأبصار، ولا تصفه الألسن... وبلحاز ذلك، لعلَّه من الواضح المقصد الاجتماعي في هذا المضمون.

(١) ينظر: الفكر الكلامي عند السيدة الزهراء عليها السلام خطبة فدك نموذجاً ٢٠٧.

(٢) التوحيد / ٦٨.

٢- البيئة الاجتماعية: إنَّ البيئة الاجتماعية تمثل إحدى القرائن المؤثرة في المجتمع من حيث العادات والتقاليد والأعراف. ولقد كانت قبل الإسلام متمثلة بالعادات الجاهلية، والنزعة القبلية، والصراعات الاجتماعية على زعامة الجزيرة العربية؛ فضلاً عن العادات الأخرى، ومنها قتل الإناث وسبي النساء والغزوات والثأر. وكلُّ هذه الأمور كانت تمثل تحدياً واضحاً لجوانب الإصلاح في تلك المجتمعات. فجاء النبي محمد ﷺ في هذه البيئة المجتمعية وغيرها من الظلمات إلى النور، ثم تأتي السيدة الزهراء (عليها السلام) لتبين للناس ما قام به النبي ﷺ من إصلاح لكلِّ مفاسد المجتمع... إذ تقول: «ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنْجَاماً لَأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حُكْمِهِ. فَرَأَى الْأُمَمَ فَرَقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكُفاً عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكَرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفَانِهَا. فَأَنَارَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظُلْمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهْمَهَا، وَجَلَّى عَنِ الْأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهُدَايَةِ، وَأُنْقَذَهُمْ مِنَ الْعَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ» فهي تصف تماماً في خطبتها أحوال الجزيرة العربية، وكيف كانت متفرقة على شكل ديانات من حيث المعتقد وأقوام جاهلية...

إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث النبي محمداً ﷺ هدايةً للأمم، فأتمَّ الله تبارك وتعالى أمره بالنبوة، وإرادة لحكمه وتنفيذاً لمقادير حكمه... فوجدكم فرقاً متفرقة وعبدة للأوثان المنكرة لله الواحد الأحد مع عرفانها<sup>(١)</sup>. ثم تذكر (عليها السلام) (ابتعثه الله تعالى)؛ وهنا إحالة بعدية، وهي تفيد تفسير الابتعاث إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، وبلحاظ حركية المعنى الذي تريد إيصاله للمتلقي، فتظهر تلك الحركية في قدرة الذهن على تنظيم المعاني في أشكال متغيرة ومسترسلة تنظر فيها إلى مراعاة ظروف التفاعل بين ما تخبر به من تغير وتوسع في دلالة التراكيب النحوية في مختلف السياقات التركيبية والمقامية، وعلى ما

(١) ينظر: أني فاطمة وأبي محمد- تأملات في خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) وبعض شؤونها ١١٤.

يحدث في العرفان الإدراكي المعرفي من عمليات تصورية لتحقيق الحركية المتصلة بالمعنى المراد إيصاله عبر قدرة المتكلم في تنويع مضامين خطبته<sup>(١)</sup>.

ومن آثار الحوار الذي أشارت إليها في مقام بيان ذكر ابتعاث النبي محمد ﷺ هي تكوين المجتمع الصالح الذي يحقق الغاية التي خلق الله من أجلها، وهي عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وتحقيق الحياة الكريمة والأمن الدائم للمجتمع عبر تحقيق العدالة الإنسانية التي من أجلها ابتعث الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ؛ لأنَّ اتباع كلمة الله عزَّ وجلَّ والتعبُّد بها إنما هي مفتاح انعقاد مجتمع صالح يرث الأرض لتدرَّ عليهم بالخير كله<sup>(٢)</sup> بدليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾<sup>(٣)</sup>. قال الطبري (ت ٣١٠هـ): كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له ونهيه عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان. قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر<sup>(٤)</sup>. وعليه، فالأثر الاجتماعي للعبودية يمكن أن يمثِّل أثراً أخلاقياً أيضاً ينعكس على حياة المجتمع بشكل عام، والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد بشكل خاص. وهذا ما ألمعت إليه السيدة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها، «وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهُدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ». وهذا كله من أجل التعايش السلمي فيما بين الناس، فضلاً عن الآثار النفسية، عن طريق الاطمئنان فيما بينهم بالتكافل الاجتماعي الذي جاء به الدين الإسلامي الحنيف متمثلاً بضمان حقوق الناس سواسية من بيت المال، وهذا يمثِّل المرتكز الاجتماعي في عملية التعايش السلمي بين الناس كافة.

(١) ينظر: اعلموا أي فاطمة - دراسة في عرفانية اللغة وقصدية الخطاب، ١٤ بتصرف.

(٢) ينظر: ورثة الأرض في القرآن الكريم والكتب السماوية - دراسة وتحليل، ٧٥ بتصرف.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن ٤/ ٣٣٧.



٣- الحوار بالاستدلال القرآني: لعل من أبرز سمات الخطبة الفدكية أنها اعتمدت في الاستدلال على النص القرآني لإبراز الدليل الظاهر عبر الربط بين حقها المغضوب وبين ما جاء في القرآن الكريم من تشريع واضح لأحققتها في إرثها من أبيها ﷺ، إذ تمثل المرجعية للنص القرآني دليلاً غير قابل للجدال والإنكار، وبلحاظ ذلك فإن الحوار جلّه من أجل التعايش السلمي الذي ضمنه القرآن الكريم للناس جميعاً، وكفل حق الجميع عبر التشريع الإسلامي لكل جوانب الحياة.

ومن كلامها ﷺ: «وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَلَا أَرَأَيْتُمْ لَنَا، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»<sup>(١)</sup> أَفَلَا تَعْلَمُونَ؟ بَلَى تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الصَّاحِيَةِ أَيُّ ابْنَتِهِ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَغْلَبَ عَلَى ارْتِيهِ؟ يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ! أَفِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَرِثَ أَبَاكَ، وَلَا أَرِثَ أَبِي؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا، أَفَعَلَى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، أَذْ يَقُولُ: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ»<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ فِيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يُحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ﷺ أَذْ قَالَ: «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثْنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»<sup>(٣)</sup>، وَقَالَ: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»<sup>(٤)</sup>، وَقَالَ: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ»<sup>(٥)</sup>، وَقَالَ: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ»<sup>(٦)</sup>، وَزَعَمْتُمْ أَلَّا حِظُّوهُ لِي، وَلَا إِرْثَ مِنْ أَبِي لَا رَحِمَ بَيْنَنَا! أَفَخَصَّكُمُ اللَّهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْهَا أَبِي؟ أَمْ هَلْ تَقُولُونَ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوَارَثَانِ، أَوْ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؟! أَمْ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٦٥-٦٤.

(٤) سورة الانفال، الآية: ٧٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ١١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمِّي؟ فَذُونُكُمَا مَخْطُومَةٌ مَرْحُومَةٌ. تَلْفَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعَمَ الْحُكْمَ اللَّهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ مَا تَحْشِرُونَ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدُمُونَ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿١﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٢﴾ وبلحاظ الاقتباس القرآني نجد ذلك على النحو الاتي:

٣-١- قوله تعالى: ﴿أَفْحُكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «الْحُكْمُ حُكْمَانِ: حُكْمُ اللَّهِ، وَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَنْ أَخْطَأَ حُكْمَ اللَّهِ حَكَمَ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ»<sup>(٣)</sup>، فالحكم الجاهلي يشير إلى منع المرأة من الميراث، بل كان المرأة تسلب كل حقوقها، والسيدة الزهراء تشير إلى تلك الظاهرة مذكرة إياهم بها وأن زعمكم لا أرت لي إنما هذا في الجاهلية وقد صحح ذلك الإسلام بدليل قوله عز وجل: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾<sup>(٤)</sup>، فهي تدرك أن المخاطب يعلم ذلك المنهج الجاهلي، ولذلك احتجت عليه بالنص القرآني لعله يرجع إلى رشده، ثم تشير إلى مرجعية النص «اعلموا أني فاطمة وأبي محمد» وتستشهد بالمثل الشائع «كالشمس الضاحية» كناية عن الوضوح التام في مستهل الشروق، فقد تجلّت لكم أني ابنة النبي محمد عليه السلام، وهو محور القضية في مرجعية النص، لتنتقل إلى الاشارات الشخصية مستعملة أسلوب النداء في الاحتجاج لما له دلالة قصدية في استنطاق المخاطب بشكل مباشر لتشير بالاسم الصريح للذي منعها إرثها باعتباره بالحكم الواقع يمثل السلطة الدستورية التي تطبق القرآن في الحكم بين الناس. كيف وأنا فاطمة وأبي محمد وهذا حكمكم علي بأن تمنعوني إرثي عن

(١) سورة هود، الآية: ٣٩.

(٢) خطبة السيدة الزهراء عليها السلام ٢٥—٢٩.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ٣/ ٧٠٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٧.

أبي؟ فهل يفرق القرآن بأن ترث أباك وأنا لا أرث أبي؟ وهذا يمثل روعة الاحتجاج السلمي لمن يؤمن بالحكم القرآني، إذ الإسلام لم يميّز بين أحد في الحقوق، بل كفل للجميع ذلك التعايش السلمي، وما جئت به من المطالبة بحقي في فدك ليس أمراً فرياً؛ لأن الله عز وجل قد ضمن ذلك لنا في القرآن، وهنا توظف الآية الكريمة من سورة مريم عليها السلام حينما يسأل قومها عن أمر عيسى عليه السلام ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً﴾.

ثم تطرح قضية إرث أولاد الأنبياء لأبائهم التي أشار إليها القرآن الكريم بشكل صريح.

٣-٢- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، فأما وراثة النبي سليمان لداود عليهما السلام فقد كانت وراثة علم ومال وليست وراثة النبوة؛ لأن النبوة اختيار رباني يصطفي من يشاء من عباده، وهذا ما ذكره أغلب المفسرين ومنهم السيد الطباطبائي: «أي ورثه ماله وملكه، وأما قول بعضهم: المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصح في العلم الفكري الاكتسابي، والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهي ليس مما يكتسب بالفكر. فغير النبي يرث العلم من النبي، لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي»<sup>(١)</sup>. وبلحاظ هذا التوظيف لمعنى الوراثة، فقد أفحمت السيدة الزهراء عليها السلام القوم بما ورد في القرآن الكريم من إشارة صريحة لمعنى الوراثة لأبناء الأنبياء وإدراكاً منها بما يكنّ القوم للنص القرآني، فهي تستعمل ذلك الاحتجاج لعرفانيتها القرآنية، وفهمها الواعي للنص القرآني لفظاً وتفسيراً، وتدرك فاعلية تأثير النص القرآني في نفوس المسلمين. إذ استعملت القصص القرآني حجة دامغة للقوم، ثم تأتي بدليل قرآني آخر لتوظفه في دلالة السياق نفسه،

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٥/٣٤٩.

لأنَّ توالي العناصر اللغوية يتحقق بها التركيب والسبك فضلاً عن توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، لأنَّ العلاقة اتصالية تتعلق بالإدراك المعرفي لأحوال المخاطبين<sup>(١)</sup>، وأنَّ دعاء زكريا عليه السلام قد استجاب له الباري. ويذكر القرطبي (ت ٦٧١هـ): «ما روي عن الحسن أنه قال: يرثني مالا ويرث من آل يعقوب النبوة والحكمة... قال ابن عطية: والأكثر من المفسرين على أنَّ زكريا إنما أراد وراثته المال»<sup>(٢)</sup> وتوظف السيدة الزهراء عليها السلام دلالة الآية ٧٥ من سورة الانفال التي تشير إلى «الذين آمنوا من بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، وهاجروا وجاهدوا معكم في سبيل الله، فأولئك منكم -أيها المؤمنون- لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وأولو القرباة بعضهم أولى ببعض في التوارث في حكم الله من عامة المسلمين. إنَّ الله بكل شيء عليم، يعلم ما يصلح عباده من توريث بعضهم من بعض في القرباة والنسب دون التوارث بالحلف، وغير ذلك مما كان في أول الإسلام»<sup>(٣)</sup>. وهذا ما ذكره القرطبي ينطبق على المؤمنين عامة، وليس على أحد دون غيره ولذلك فإنَّ فاعلية الإدراك المعرفي قد أسهمت بالإشارة إلى مواطن التعايش السلمي عبر الحوار المستند على الأدلة القرآنية وتوظيف النصّ بشكل مميّز.

٣-٣- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وتذكر السيدة الزهراء عليها السلام هذه الآية التي نزلت في بيان من يرث عمَّن توفي وترك من الأبناء بعده، وهي تشير إلى معنى حكم الطبقة الأولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والأمهات). ومن البديهي أنَّه لا رابطة أقوى وأقرب من رابطة الأبوة والبنوة، ولهذا قدموا على بقية الورثة من الطبقات الأخرى، لأنَّهم الأولى في الإرث، وقد أشار جلُّ المفسرين إلى هذا المعنى، ومنهم الطبري (ت ٣١٠هـ): «وقد ذكر أنَّ هذه الآية نزلت على النبي صلى الله

(١) ينظر: سياق الحال دراسة نظرية تطبيقية القسم في القرآن الكريم انموذجا ٩ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٩/١٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١٠.

عليه [وآله] وسلم، تبييناً من الله الواجب من الحكم في ميراث من مات وخلف ورثة، على ما بين؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده، ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده، ولا للنساء منهم. وكانوا يخصّون بذلك المقاتلة دون الذرية. فأخبر الله جلّ ثناؤه أنّ ما خلفه الميت بين من سمّى وفرض له ميراثاً في هذه الآية<sup>(١)</sup> وبلحاظ مرجعية النصّ التي بدأت بها السيدة الزهراء (عليها السلام) بالإشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفْحُكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هل ما زلتم تعتمدون حكم الجاهلية، وقد أنقذكم أبي من الظلمات إلى النور؟

إذن حيثئذ أنتم لستم من المسلمين، وهي تدرك أنّ القوم يحتاجون إلى تنبيه لغرض الرجوع إلى الطريق الحق؛ ولذلك فقد استعملت أسلوب النداء وتوظيفه في تنبيههم عن غفلتهم «أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَغْلَبُ عَلَى أَرْضِيهِ يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ! أَفِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَرِثَ أَبَاكَ، وَلَا أَرِثَ أَبِي؟» إذ خاطبت الجمع من الانصار والمهاجرين بـ (أيها) وهي جزء من الاشارات الشخصية في الاستراتيجية التوجيهية في الخطاب<sup>(٢)</sup> ثم تتدرج بالخطاب التوجيهي المباشر إلى الخليفة الأول يسبقه الاستفهام الانكاري، وكلُّ هذا الخطاب ضمن فاعلية الإدراك المعرفي الذي تريد منه السيدة الزهراء (عليها السلام) التعايش السلمي عبر الحوار والاستدلال بالقرآن الكريم.

وفي ضوء ما تقدم فإنّ مرجعية خطاب السيدة الزهراء (عليها السلام) اعتمدت على النصّ القرآني باعتباره هو الفيصل في حلّ كلّ النزاعات؛ لأنّ القرآن الكريم قد وضح المضامين لكلّ مناحي الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية في ظلّ التعايش السلمي على وفق مبدأ الحوار الإيجابي؛ لأنّ الهدف من بعثة الأنبياء بشكل عام والنبي محمد صلوات الله عليهم

(١) جامع التأويل ٤ / ٧٨.

(٢) ينظر: الاشارات الشخصية في إيذاة الجزائر دراسة في مفهوم المعنى ص ١٨.

هو صيانة حقوق الإنسان وحفظ النظام العام لذلك شرع الله تبارك وتعالى تلك القوانين الحقوقية الثابتة وحدد علاقة الإنسان وما يجب له وما يجب عليه تجاه الآخرين، إذ نظم صلة الفرد بالمجتمع وحدد المسؤوليات الفردية والاجتماعية، إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة في مجالات الحياة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا كانت إشارة السيدة الزهراء عليها السلام إلى الأنصار والمهاجرين: «أَنْتُمْ عِبَادُ اللَّهِ نُصِبُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَحَمَلَهُ دِينَهُ وَوَحْيَهُ، وَأَمْنَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبَلَاغُهُ إِلَى الْأُمَمِ، وَرَعْمَتُهُمْ حَقٌّ لَكُمْ اللَّهُ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ. كِتَابُ اللَّهِ النَّاطِقُ، وَالْقُرْآنُ الصَّادِقُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالضِّيَاءُ اللَّامِعُ، بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ، مُتَجَلِّيةٌ ظَوَاهِرُهُ، مُعْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْيَاعُهُ، قَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ، مُؤَدِّ إِلَى النَّجَاةِ إِسْمَاعُهُ. بِهِ تُنَالُ حُجَجُ اللَّهِ الْمُنَوَّرَةُ، وَعَزَائِمُهُ الْمَفْسَّرَةُ، وَمَحَارِمُهُ الْمُحَذَّرَةُ، وَبَيِّنَاتُهُ الْجَالِيَّةُ، وَبَرَاهِينُهُ الْكَافِيَّةُ، وَفَضَائِلُهُ الْمُنْدُوبَةُ، وَرُخَصُهُ الْمَوْهُوبَةُ، وَشَرَائِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ»<sup>(٢)</sup>، لتوضح لهم المضامين الإسلامية للحياة التي أقرها الإسلام بكونهم عباد الله إذ استعلمت التنبيه المباشر في فاعلية الإدراك المعرفي بين المتكلم والمخاطب عبر أسلوب النداء الذي حذفت الأداة منه للدلالة القصصية في الحوار القريب، فعليكم أيها العباد اتباع أمره والنهي عما نهاكم عنه، لأنكم أمناء الله على أنفسكم وعليكم تبليغ الأمم بما جاء به القرآن من تعاليم ومفاهيم وشرائع وأحكام وغيرها من المضامين للناس، لا أن تختزلوا الأحكام للمصلحة الشخصية، بل كلُّ شيء في القرآن هو نور ساطع وضياء لامع...

ومن هنا، فالحوار سلمى عبارة عن تنبيه المخاطبين بما ورد في القرآن من مضامين تشريعية تتعلق بكلِّ مناحي الحياة؛ وعليكم أيُّها المسلمون الالتزام بالتقوى والأحكام

(١) ينظر: المشتركات العامة من منظور إسلامي حقوق وواجبات ١٥ بتصرف.

(٢) شرح الخطبة الكبرى للصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام ٢٩.

الشرعية والتقيّد بحدود الله عزّ وجلّ وأوامره ونواهيه، وكذلك الالتزام بالمنهج الذي رسمه الله تبارك وتعالى لكم عبر الشرائع المكتوبة... فقد وضع الله سبحانه وتعالى منهجاً وقانوناً لكلّ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومن قبل التشريعية<sup>(١)</sup>، وإنّ الحقوق، وإن كانت ترتبط بالفرد من ناحية أحيّيته، إلّا أنّها لها علاقة بالمجتمع أيضاً<sup>(٢)</sup>...

ويمكن القول: إنّ من أبهى صور التعايش السلمي التي أشار إليها القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العلمين...

(١) ينظر: الابتلاء والامتحان ٦٦ بتصرف.

(٢) ينظر: حقوق الإنسان من وجهة نظر إسلامية ٤٠ بتصرف.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

## الخاتمة

١. تمثل خطبة الصديقة الكبرى السيدة الزهراء (عليها السلام) مورداً معرفياً لشتى العلوم المعرفية؛ لذلك هي معين لا ينضب، ومنها معايير التعايش السلمي الذي يتضمن المعارف الإسلامية.
٢. استلهمت السيدة الزهراء (عليها السلام) أسلوب الحوار الهادف الذي يستند إلى النصّ القرآني وبيان مضامين مناحي الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والوقوف على حقوق الإنسان الذي كفلهما الدستور الإسلامي.
٣. أوضحت السيدة (عليها السلام) أنّ حقّها في فذك حقّ كفله القرآن الكريم، وعليه فهو حقّ مضمون على وفق حقوق الإنسان التي يتساوى فيها الجميع.
٤. مثّل الإدراك المعرفي عند السيدة الزهراء (عليها السلام) لفاعلية المخاطب بوصلة لبيان الحقائق والمضامين التي أوردها القرآن الكريم.
٥. استلهمت السيدة (عليها السلام) الأجوبة المفحمة عبر الدلالة القصدية لبيان مصاديق العمل بالنظم الإسلامية واختلافها عن النظم الجاهلية في الأحكام والمعاملة، فضلاً عن الحقائق الأخرى.



## مظان البحث

### القرآن الكريم

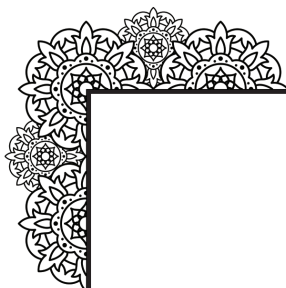
١. الابتلاء والامتحان/ السيد محمد باقر الحكيم، منشورات دار الحكمة، قم المقدسة، د.ت.
٢. أثر طرق الحج في التواصل اللغوي- دراسة إبستمولوجية/ أ. د سامي الماضي، دار بغداد للنشر والتوزيع، ط١، بغداد، ٢٠١٨.
٣. أسس النقد الأدبي عند العرب/ د أحمد بدوي، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٩٦.
٤. الإشارات الشخصية في إياذة الجزائر- دراسة في مفهوم المعنى/ أ د سامي الماضي، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، المجلد الثامن والستون، بغداد، ٢٠٢١.
٥. اعلموا أنني فاطمة / دراسة في عرفانية اللغة وقصدية الخطاب، أ د سامي الماضي، بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر الدولي عن السيدة الزهراء (عليها السلام)، العتبة العباسية المقدسة، ٢٠٢٣.
٦. أنني فاطمة وأبي محمد تأملات في خطبة الزهراء (عليها السلام) وبعض شؤونها / فوزي آل سيف، دار الوارث للطباعة والنشر، ط١، كربلاء، ٢٠٢٢.
٧. البرهان في تفسير القرآن/ السيد هاشم البحراني الحسيني، الناشر مؤسسة البعثة، ط١، قم المقدسة، إيران، د.ت.
٨. تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، د محمد باقر سعدي روشن، ترجمة علي عباس الموسوي، الناشر دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت ٢٠١٤.

٩. جامع البيان عن تأويل القرآن/ الطبري محمد بن جرير، أبو جعفر (ت ٣١٠هـ)، تحقيق د عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ٢٠٠١.
١٠. الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٦.
١١. حركية المعنى النحوي- مقارنة عرفانية لمقولة الربط، د منجي العمري، دار كنوز المعرفة، عمان، ط ١، ٢٠١٨.
١٢. حقوق الإنسان من وجهة نظر إسلامية/ السيد محمد باقر الحكيم، منشورات دار الحكمة، قم المقدسة، إيران، د ت.
١٣. خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام)، إعداد زهراء الخرسان، دار البصرة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٩.
١٤. الدلالة النحوية في كتاب المقتضب للمبرد محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ/ أ د سامي الماضي، مكتبة الثقافة الدينية، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٩.
١٥. سياق الحال- دراسة نظرية تطبيقية القسم في القرآن الكريم أنموذجاً، د محمد محمد الحسيني العشري، مكتبة كلية الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠١٤.
١٦. شرح الخطبة الكبرى للصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام)/ محمد باقر المجلسي، إعداد السيد أسعد السيد كاظم القاضي، الناشر معهد العلامة المجلسي، دار البصرة، ط ١، النجف الأشرف العراق، ٢٠٢٣.
١٧. - شرح نهج البلاغة / لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) تحقيق محمد إبراهيم، الأميرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧.

١٨. — عيار الشعر/ العلوي محمد بن طباطبا (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق د طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦.
١٩. الفكر الكلامي عند السيدة الزهراء الخطبة الفدكية انموذجاً، السيد سلام الخراسان، مجلة العقيدة، ع ٨، جمادى الاخر، ١٤٣٧هـ.
٢٠. قصدية الخطاب في نهج البلاغة- دراسة في مفهوم المعنى بين المتكلم والمتلقي/ أ.د. سامي الماضي، بحث منشور ضمن وقائع مؤتمر نهج البلاغة الدولي الثاني، ط ١، بغداد، ٢٠١٩.
٢١. كتاب الصناعتين/ العسكري أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت، ١٩٨٩.
٢٢. مراعاة أحوال المخاطب في النحو العربي / د بان الخفاجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٨.
٢٣. المشتركات العامة من منظور إسلامي حقوق وواجبات/ إعداد شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينية، الناشر العتبة العلوية المقدسة، ط ١، النجف الأشرف، ٢٠١٥.
٢٤. المعارف الإلهية في ضوء ظلال المعنى في دعاء كميل للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)/ الشيخ الدكتور قاسم كريم الأكدي الاسدي، الناشر مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، ط ١، قم المقدسة، ايران، ٢٠٢١.
٢٥. منهاج البلغاء وسراج الادباء/ القرطاجني أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤هـ) تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦.
٢٦. الميزان في تفسير القرآن/ الطباطبائي السيد محمد حسين، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٩٧.

٢٧. نهج البلاغة المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعه الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق السيد هاشم الميلاني، مراجعة مركز إحياء التراث، التابع لدار ومخطوطات العتبة العباسية المقدسة، دار الكفيل للطباعة والنشر، ط ٢، كربلاء المقدسة، ٢٠١٦.
٢٨. ورثة الأرض في القرآن الكريم والكتب السماوية - دراسة وتحليل، نور مهدي كاظم، مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عليه السلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ٢٠١٣.
٢٩. الوظيفة في كتاب سيبويه، د. رجاء عجيل الحسناوي، مكتبة العلامة ابن فهد الحلبي، كربلاء المقدسة، ط ١، ٢٠١٥.





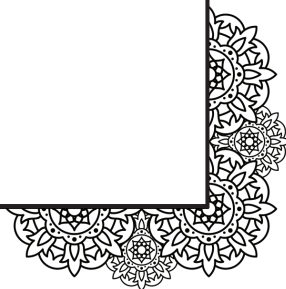
# استراتيجيات الإعلام الإقناعي

بين القرآن الكريم وفدكية الزهراء عليها السلام

الباحث

د. ستار جليل عجيل

مديرية التربية / ذي قار



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

إنَّ الجانب الإعلامي له دور كبير ومؤثر جداً في الأمور الحتمية والمصيرية لا سيما وإنَّ الآخر يعتمد إلى طمس الحقيقة وتزييفها بكلِّ ما أوتي من قوة، وإيهام الناس بأنَّه صاحب الحق؛ لذلك عمدت الزهراء (عليها السلام) إلى ذلك الجمع لتعلن فيه إعلامياً أنَّ كلَّ ما قيل وحصل ليس حقاً، بل هو باطل ومخالف لما جاء به القرآن الكريم، ومخالف لكلِّ ما بلغ به الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله). ولعلَّ أبرز ما دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع هو التداخل الكبير بين الشواهد الإعلامية في وقتنا الحاضر، وفي زمن الخطبة الفدكية حيث التزييف وطمس الحقائق إعلامياً؛ لذلك ارتأينا أنَّ نبحت في أهمِّ مرتكزات الزهراء واستراتيجيتها في إقناع الصديق المتأرجح والعدو المعاند؛ وقد اشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

تكلَّمنا في المبحث الأول عن أهمِّ استراتيجيات الإقناع الإعلامي، وكيف كان التداخل والتشابه الإعلامي بين خطبة الزهراء واستخدامها لها وبين ما هو مطبق في وقتنا. أمَّا المبحث الثاني، فقد خصصناه للحديث عن آليات الإقناع الإعلامي في الثناء على الله سبحانه وتعالى، وكيف يمكن أن تصل بالإنسان المؤمن إلى الشكر والثناء الحقيقي على الله؛ كلُّ ذلك كان من أجل تهيئة المتلقي وترقيق نفسه وحسَّه لكي يصبح أرضاً خصبة تستقبل ما يزرع بها. أما المبحث الثالث، فقد ركزنا فيه على أهل البيت (عليهم السلام) المسلموبة إذ كان الجانب الإعلامي واضحاً جداً؛ فكثيراً ما تستخدم أدواته كالتنبيه، والتحذير، والتقريع، والإشارة الجمعية والفردية سواء المباشرة أو التورية. وفي نهاية البحث جاءت الخاتمة.

## المبحث الأول استراتيجيات الإقناع

يعرف الإقناع بأنه عملية من عمليات التأثير المقصود على الأفراد أو الجماعات بهدف إحداث تغيير، طوعي أو اختياري، في القناعات أو الدوافع والاتجاهات، أو السلوك. وتتكون عملية الإقناع بشكلها التقليدي من المرسل، والرسالة، والمستقبل كمكونات أساسية ولمسات كل من هذه المكونات وأثرها في فعالية الإقناع<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن نقسم استراتيجيات الإقناع إلى:

أولاً: التبادل: يعدّ مبدأ ردّ الإحسان بمثله من العوامل المؤثرة في الإقناع، إذ يميل الإنسان بشكل عفوي وفطري لمجازاة المعروف بمثله إذا قدم من الغير، وهو ما كانت ترمي إليه الزهراء عليها السلام في خطبتها إذ نجدها في بدايتها تذكرهم بآلاء الله ونعمه عليهم ثم تذكرهم بفضل الرسول ﷺ وكيف أنقذهم من الضلالة.

ثانياً: استراتيجية التعاقد: وهي آلية إعلامية فاعلة في تمكين قوة الخطاب، وفي بلورة المفاهيم السياسية والدينية والفكرية التي يبني عليها مقاصد الخطاب، وفي حال تحققها تضمن للخطاب قوته ويطلق عليها التواطؤ العقدي الإقناعي الذي يطرح شبح الشك ويقتل بذرة الارتياب في كيان المتلقين<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: استراتيجية التضادّ وتوظيفها في الخطاب: من المقومات الأساسية والرئيسة لنجاح الإقناع الإعلامي في الخطاب توظيف المتضادات أو المتناقضات؛ وهذا الشيء ظهر جلياً في

(١) الإقناع كيف تقنع الآخرين بآرائك وافكارك، مصطفى الدباغ، ص ٣٦.

(٢) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية - الخطابة في القرن الأول أنموذجاً، محمد العمري، ٨٠ - ٩٠.



خطبة الزهراء الفدكية إذ كانت تميز بين معسكرين: معسكر الحق وتشير إليه، ومعسكر الباطل وتشير إليه، وبين العدل والظلم، وبين الشرعية في الحكم وعدم الشرعية، وبين الحرية والقمع، بل أظهرت نفسها ومن معها في الإعلام تمثل المعسكر الأول وأعداؤها يمثلون معسكر الشر<sup>(١)</sup>.

رابعاً: استراتيجية التداعي الحرّ: وهي من الاستراتيجيات المهمة في الخطاب الإقناعي إذ تعتمد على تجارب الفرد في الماضي وعلى الأفكار التي تتسلط عليه في الحاضر<sup>(٢)</sup>. وتكمن أهمية هذه الاستراتيجية في أنه إذا ما أثر فينا في الماضي سياق أو حدث ما، فإنّ تكرار ذلك الحديث أو إعادته سيولد لدى المخاطب ردّ فعل للحدث السابق، وهو ما اعتمدته السيدة الزهراء؛ فقد ذكرت الحاضرين بما آلت إليه الأمور، وبما حدث في ماضيهم.

خامساً: استراتيجية تصوير الواقع كدال ومدلول: ثمة مساحة كبيرة تتداخل فيها جملة من العوامل الاجتماعية والعقدية والسياسية، ترتبط بالواقع المعاش بشروطه المادية والفكرية؛ لذلك فإنّ الخطاب الإعلامي يعدّ بنية فاعلة وأداة من أدوات تحقيق هدف الخطاب وفاعليته، أي إنه خطاب نقدي استبدالي يتوجب أن يكون سلوكاً عقدياً لتحقيق الانسجام في الواقع المتناقض أو التنبيه بالإشارة إلى مخاطر ما ستأتي، وأنّ هذا سيكون حتماً محتوماً وواقعاً لا مفرّ منه في حالة الإخلال بالتمثيلات السلوكية المطلوبة لانسجام المجتمع ذاته<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: بهاء الدين من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية، محمد مزيد، ١٢٨.

(٢) ينظر: تيار الوعي في الرواية الحديثة، همفري روبرت، ترجمة د. محمود العربي، ١٥٢.

(٣) ينظر: مفاهيم أولية، بيار ماشيري، ترجمة سامي سودان، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد ١، ١٩٨٨، ص ٣٢.

## المبحث الثاني

### تهيئة أدوات انجاح الخطاب الإعلامي

هذه الخطبة أساسية يمكن أن نعدّها من الواجبات الركنية للشيعة، إذ إنّ العلماء يقولون: إنّ الغاية الأساسية من هذه الخطبة هي حفظ الخطّ الصحيح ومحور الحقّ عبر التاريخ للأجيال اللاحقة، من هذه العبارة نستطيع أن نستنتج - صحّ أنّ الزهراء (عليها السلام) قد أتمّت الحجّة على تلك الأمة الموجودة في ذلك الزمن - لكنها كانت تنظر إلينا وتلقي تلك الخطبة على أمل أنّ شخصاً يأتي بعد ذلك، ويقرأ هذه الخطبة لا سيما أنّ هذه الخطبة كانت تميّز بين الحقّ والباطل منذ اللحظة الأولى؛ لذلك فإنّ معرفة المفاهيم الواردة فيها أمر مهمّ، ويمكن أن نعدّه ركناً من أركان التشيع. ويقول الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي: (إنّ الخطبة الفدكية هي من حفظت التشيع وأبقته إلى زماننا، بل إنّها تأتي من حيث الأهمية بعد الوحي القرآني، والتي تُعدّ من حيث الفصاحة والبلاغة، وإتقان المباحث، وأسلوب الاستدلال، والجدال، والمناظرة الإعلامية مجموعة فريدة لعصارة عقائد مذهب التشيع)<sup>(١)</sup>.

#### أولاً: تهيئة المخاطب لاستقبال حدث مهم:

عندما علمت الزهراء (عليها السلام) باجتماع الناس في مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) استعدّت للخروج، وقد عملت على تهيئة الجانب الإعلامي بأنّ حدثاً مهماً قد وقع عند المسلمين؛ فتصدي الصديقة الطاهرة للظلم يعدّ صفة من صفات خلقها العظيم، فلم تكن يوماً ما بمعزل عن أمة أبيها، وهي التي نشأت وترعرعت في بيت الرسالة المحمدية التي جاءت لإنقاذ مجتمع خيّم عليه ظلام الجهل، واستحوذت عليه العصبية القبلية<sup>(٢)</sup> فلم تكن الزهراء لتخرج إلى

(١) أعظم شكوى وأبلغ بيان شرح الخطبة الفدكية، محمد تقي اليزدي، ٤٠.

(٢) ينظر: فاطمة الزهراء قدوة الصديقين، محمد تقي المدرسي، ١٤.

ذلك الجمع لوحدها، وإنّا خرجت مع مجموعة، وكان لاختيار مسجد والدها مكاناً للخطبة يمثل رسالة إعلامية واضحة تتضمن تبليغاً مهماً إلى الحاضرين في المسجد، وإعلاناً عما تريد البوح به، إذ لم تختَر غيره، ولم تخرج وحدها، بل معها ثلثة من النساء وأهل بيتها، وهذا له دلالة إعلامية<sup>(١)</sup>. وفي ذلك يقول العلامة المجلسي: (لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فذكاً، لا ثلث خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها)<sup>(٢)</sup>. من هذا القول، نجد الجانب الإعلامي واضحاً، وهو يسبق الجانب الإقناعي، فإن مفردة لا ثلث خمارها تبين لنا أنّ الزهراء قد خرجت لأمر مهمّ أي إنّها شدّت رأسها بالعمامة وربطته<sup>(٣)</sup>. أما الأمر الآخر الذي يظهر الجانب الإعلامي هو أنّ الزهراء عليها السلام لم تأت بمفردها، وهي تستطيع أن تأتي لوحدها إلى المسجد. إذن لماذا تأتي مع لمة من نسائها؟ يمكن القول: إنّ السيدة الزهراء عليها السلام قدّمت الجانب الإعلامي، ورغبت في تهيئة أسباب نجاح ذلك الجانب الإعلامي، إذ إنّ مجيء الزهراء الطاهرة عليها السلام إلى المسجد وإلقائها الخطبة فيه بتشديد وتأكيد بليغ، وفيه إعلام للدفاع عن حقّها وحقّ بعلمها أمير المؤمنين عليه السلام وإبطال ادّعاء من ادّعى زوراً وبهتاناً إمرة المسلمين غصباً وظلماً، فهو ما دعت الضرورة فيه إلى عقد مؤتمر إعلامي في وسط ذلك الحشد الغفير ومخاطبة الرجال؛ وإلا لم يكن من شأنها عليها السلام أن تخاطب الرجال وتكلّمهم، وهي التي تقول: (خيرٌ للنساء أن لا يرينَ الرجال ولا يراهنَّ الرجال)<sup>(٤)</sup>. فهي لا تريد أن تتكلم مع شخص أو شخصين، وإنّا كانت تريد أن تعلن عن هذه المعارضة، وعن هذا الاستنكار، وعن هذا الموقف حتى دخلت على الخليفة، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار<sup>(٥)</sup>.

(١) ينظر: خطبة الزهراء سيدة النساء - قراءة وحوار جديد، د. مهدي صالح سلطان ١٣٣-١٣٤

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٩/٢١٦.

(٣) ينظر: الزهراء وخطبة وفدك شرح الخطبة الفدكية، محمد باقر المجلسي ٢٣.

(٤) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١٧/٢٤٧.

(٥) ينظر: بحار الأنوار، ٢٩/٢٢٠.

ولعلّ الأبرز في ذلك المؤتمر الإعلامي أنّ الزهراء (عليها السلام) في أول الأمر لم تبدأ خطبتها بالبسملة أو الشناء على الله تعالى أو الصلاة على النبي وآله، وإنما أنت أنه<sup>(١)</sup>؛ هذه الآتة كانت تمثل مقدمة لتهيئة القلوب والعقول، لتقبل ما سوف يقال في هذا المحفل. فضلاً عن ذلك يبدو أنّ الزهراء (عليها السلام) أرادت الإعلام بمظلوميتها، وهي بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو قريب العهد بهم، وقد نجحت الزهراء في ذلك فقد أجهش القوم بالبكاء والنحيب، وفي ذلك يقول القاضي النعمان المغربي: (أجهش القوم لها بالبكاء وارتجّ المجلس)<sup>(٢)</sup>.

لقد امتلكت الزهراء (عليها السلام) سلطة التأثير في القلوب وتهيج المشاعر والنفوس، فلا تخفى تلك الآتة التي بثتها (عليها السلام) عند دخولها مسجد أبيها النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وجلسها في المكان المعدّ لها خلف الستار، وما أثارته من بكاء ونحيب وارتجاج في المجلس. يقول السيد محمد كاظم القزويني في تحليله لتلك الآتة: (إنني أعجز عن التعبير عن تحليل تلك الآتة، ومدى تأثيرها في النفوس، أنّها واحدة بلا كلام تهيج عواطف الناس، فيجهش القوم بالبكاء)<sup>(٣)</sup>، وهي لم تبدأ بالحديث، بل جعلت القوم يبكون بكاءً طويلاً، وفي ذلك يقول العلامة المجلسي: (ثم أمهلت... حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم)<sup>(٤)</sup>.

### ثانياً: الإعلام الإقناعي بالحمد والثناء على الله

نلمس في تلك الخطبة استراتيجيات الخطاب الإقناعي الحديثة التي تأخذ بعين الاعتبار الجانب الإعلامي ذا النزعة الديموغرافية من أجل الوصول إلى أكبر قدر من التأثير؛ بمعنى أنّ الزهراء قد درست الخلفيات الثقافية للموجودين في ذلك المحفل، لذلك نجد التفاتتها

(١) المصدر نفسه، والمكان نفسه.

(٢) شرح الاخبار، ٣/ ٣٤.

(٣) فاطمة من المهدي إلى الالحد، محمد كاظم القزويني، ٢٠٠.

(٤) بحار الانوار، ٢٩ / ٢٢٠.

وخطاباتها موجهة في أول الأمر للجميع، ثم تشخص كل فئة على حدة، وهو ما سيظهر في أثناء البحث.

إنَّ الإفادة الحقيقية المتوخاة من الخطاب ليست متوقفة على زمن إنتاجه، فقد يبقى الخطاب ردحاً من الزمن غير مكتمل التجلي، إلى أن يطرق أذهان المتلقين سماعاً أو قراءة؛ إذ (إنَّ الملفوظ يظلُّ موجوداً بالقوة سواء أفرزته الذات المنشئة له أم دفنته في بواطن اللاملفوظ، ولا يُخرجه إلى حيِّز الفعل إلا مُتلقِّيه، وهذا التلقي هو بمثابة انقذاح شرارة الوجود للنص)<sup>(١)</sup>.

وقد تميّزت السيدة الزهراء ببراءة تسلسل الإعلام، فقد بدأت بحمد الله والثناء عليه، فهي عندما حمدت الله حمدته من زاوية مختلفة، وقد قدمت الزهراء هذه الكلمات؛ لأنَّ لها علاقة بالمطالب التي ستأتي بعدها أو بمباني الأمور التي ستحللها الزهراء عن وضع الأمة حيث تقول: ( الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها )<sup>(٢)</sup>.

إنَّ السامع أو القارئ لعبارة (الحمد لله على ما أنعم) ينصرف ذهنه إلى أن كل خير يأتي من الله فهو نعمة منه، ويستحقُّ الحمد، لكن الحمد على النعم عند الزهراء (عليها السلام) يختلف تماماً فهي لم تنظر إلى النعم كما يتبادر إلى الأذهان على أنَّها تلك الأموال أو الثروات الكبيرة، وإنما النعمة الحقيقية هي بلوغ ذلك الكمال النهائي. أما بقية النعم فهي تأتي تحصيل حاصل، ولعلَّ أجهل الإعلام الإقناعي الذي استخدمته الزهراء (عليها السلام) جاء متناغماً مع ما جاء في القرآن الكريم الذي تبرز فيه خاصية الإقناع الإعلامي؛ إذ تجلت في طاقاته التركيبية الواردة فيه المحتوية على العدول. فالعدول في القرآن الكريم ليس الغاية أن يكون الكلام جميلاً، هذا

(١) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ٨٧.

(٢) مناقب أهل البيت (عليهم السلام)، المولى حيدر الشيرواني، ١٢٣.

أمر مطلوب؛ لكن الغاية الحقيقية فيه أن يكون الكلام بلاغياً حجاجياً مقنعاً بأي وجه من الوجوه<sup>(١)</sup>، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾<sup>(٢)</sup>. فإننا نقرأ هذه الآيات المباركات في اليوم عشر مرات على أقل تقدير، فهل نطلب من الله أن يهدينا إلى سبيل أهل الأموال والثروات؟ لا. فقد بين القرآن الكريم من هم الذين أنعم الله عليهم في موضع آخر فقال عز وجل ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾<sup>(٣)</sup>، إذ تبين هذه الآية الكريمة أن الذين أنعم الله عليهم هم أربعة أصناف من البشر، وهم: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وتريد أن تبين الزهراء في هذا المحفل أن النعمة التي نسأل الله أن يهدينا إليها هي تلك النعم وأن أباهما ﷺ من أول تلك الأصناف التي عددها القرآن الكريم، لذلك يكون حمد النعم باتباع ما أمر به الرسول قبل وفاته. إذن فالنعمة هي ما من الله به على الأنبياء ﷺ؛ وكل ما دون ذلك لا يمكن أن نطلق عليه مصطلح النعمة إلا مجازاً.

نستنتج مما سبق أن النعمة هي كل ما يوصل الإنسان إلى المحطة الأخيرة من حياته بخير وصلاح، ولكن كيف يمكن أن نصل إلى بلوغ الكمال في شكر النعمة الحقيقية؟ إذ يمكن أن نصل إليه من خلال إطاعة الله والرسول ﷺ، وبذلك نصبح مصداقاً للآية الشريفة التي تقول ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة ٦٠٤.

(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣.

ثم قالت ﷺ: (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها)<sup>(١)</sup>. هذه الكلمات تضمنت جانباً إعلامياً مهماً جداً، وجانباً إقناعياً عجبياً، فالتأمل فيها يصل إلى أعماق الكفر التوحيدي على لسان الصديقة الطاهرة. فكلمة الشهادة عند الناس هي عبارة عن العلم والتسليم، أما عند الزهراء ﷺ في تمثل ذلك الجانب الإدراكي أو الإقناعي، فهي تشير إلى الذات المقدسة التي لا يمكن أن تكون لها شراكة على الإطلاق، وهي تريد أن تصل إلى شيء مهم، وهي إن الشهادة لا يمكن أن تكون لقلقة لسان أو حقيقة عبارة، لكن يجب أن تقترن بالإخلاص فقالت (كلمة جعل الإخلاص تأويلها)، أي إن الإخلاص ليس كلمة كما يظنّها بعضهم نتيجة عبارة، فتأويل هذه الكلمة ما ينبغي أن تنتهي إليه هي أن يكون الإنسان مخلصاً في أن يوحد الله عزّ وجلّ، ويجب أن يكون مخلصاً في توحيدة الله، فهي تريد أن تُعلم أن التوحيد الخالص يتمثل في أهل البيت ﷺ وبمن تبعهم وسار على نهجهم، كذلك لا بدّ أن يتجسّد هذا الإخلاص في الاعتقاد، وفي العمل فتقول (وأنا في الفكر معقولها)<sup>(٢)</sup>. إن الله عزّ وجلّ ضمن قلوب البشر أن تصل إلى الإخلاص، وتأويل كلمة الإخلاص يعني أن الإنسان بقلبه يستطيع أن يصل إليها؛ لأنّه مفطور على ذلك، وبفكره لو فكّر بصورة صحيحة يستطيع أن يصل إلى معرفة الله عزّ وجلّ<sup>(٣)</sup>، لا سيما أن الطابع السيكولوجي للتفكير المنطقي أمر لا مفرّ منه؛ لأنّ قواعد التفكير ما هي إلّا قواعد الارتباط العلمي بين الظواهر والأحداث النفسية المؤدية إلى اليقين، فضلاً عن إنّ العمليات المنطقية في تيار الشعور حيث يكون هناك تأثير متبادل بين النوعين<sup>(٤)</sup>.

(١) بحار الانوار، ٢٩/ ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٣) ينظر: فاطمة الزهراء قدوة الصديقيين، ٣٥.

(٤) ينظر: المدخل إلى المنطق الصوري، محمد مهران، ٢٧.

وإن الزهراء قد ألفت خطبتها وهي تمثل الروح التي تسري في المذهب الجعفري إلى يومنا هذا وهي تعرج بجناحين: الجناح الأول فيه العلم، والإعلام، والحكمة، والإقناع، والقيم المثلى، والعقلانية، والجناح الآخر الذي تمثل في الخطبة؛ فقد ظهرت فيه الحماسة، والتضحية، والولاية، والعواطف، وقد أجهدت الزهراء عليها السلام نفسها في الإعلام عما بذله أهل البيت عليهم السلام من طاقات جبارة ودماء زكية فإنهم لم يدعوا طاقة في أنفسهم ولا شيئاً أو إمكانية لديهم إلا وبذلوها في سبيل الله؛ لذلك كانت هي تحرص على إعلام الناس وإقناعهم على أنهم أهل الحق في تولي شؤون الأمة بعد الرسول ﷺ <sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الإعلام بحق الرسول ﷺ المسلوب:

بعد أن شهدت السيدة الزهراء عليها السلام بشهادة التوحيد وبعض الآثار والمتلازمات المترتبة على التوحيد التي أشرنا إليها، تطرقت إلى بيان الشهادة الثانية، وقد أولتها جانباً إعلامياً كبيراً؛ لأنّ القوم حديثو العهد بفقد الرسول الكريم ﷺ، ومن باب ذكرّ لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين، وإعلامهم بأنّ الشهادة الأولى والشهادة الثانية متلازمتان، فمن أراد إطاعة الله تبارك وتعالى عليه أن يتشهد بالشهادة الثانية، وأنّ مفردة (اشهدوا) تعني العلم فضلاً عن الإعلام والإخبار <sup>(٢)</sup> أي إنّ الإنسان عندما يخبر عن شيء إنّما يخبر عن شيء شاهده وعينه. واللافت للانتباه في هذه الشهادة التي تشهدت بها الزهراء عليها السلام أنّها لم تقل أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وإنّما قالت (وأشهد أنّ أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله) <sup>(٣)</sup>، فقد ذكرت الأبوة تريد الإعلام بأنّ هؤلاء المتخاذلين الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم أنّهم ما كانوا ولا صاروا إلّا بأبي محمد ﷺ، وفي هذه الكلمة عمق كبير وذات مضامين كثيرة، وهي تريد

(١) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٢) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري، ١/ ٣٢.

(٣) بحار الانوار، ٢٩/ ٢٢١.



أن تقول: إنَّ كلَّ ما موجود من خير في هذا الكون هو ببركة أبي محمد ﷺ<sup>(١)</sup> ويجب أن تكون الشهادة واضحة كوضوح الشمس، وليس شهادة حيزية مكانية أو معتمة. وقد بيَّنها الرسول ﷺ بقوله عندما سئل عن الشهادة قال: (هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دع)<sup>(٢)</sup>. كذلك نتلمس من خطابها الحجاجي أنَّ فيه إيجاءً إعلامياً للناس الذين خصَّتهم بقولها: (اعلموا أنني فاطمة، وأبي محمد) هم يعلمون أنَّها من تكون، وإلى أي بيت تنسب، وكأنَّها أرادت أن تذكَّركم وتوبِّخهم بفعلهم الشيطاني المنحرف الباطل، من حيث هم مع من هم يقفون بالضدِّ والحرب والظلم لتلقي عليهم الحجَّة الكاملة.

كذلك استخدمت الزهراء ﷺ مفردة (أبي)، وبعدَّ استخدامها لطيفاً ومؤثراً جداً؛ لأنَّ كلَّ البشر لا يستطيعون أن ينطقوا بهذه المفردة؛ لأنَّها مفردة قد اختصَّت بها الزهراء ﷺ، وأنَّ استخدام هذه الكلمة يبين الجانب الإعلامي والإقناعي لأنَّها ستكون سبباً في تهيج عواطف الناس في ذلك المقام ولكي يقع كلامها موقع القبول فيتذكروا أيام الرسول ﷺ، وكيف كان يجلَّها ويحترمها ويعظمها فإنَّ هذا التذكير سبب رقة القلوب لديهم فيؤثر كلامها فيهم ليتقبلوه، فإنَّ المرء يحفظ في ولده؛ فضلاً عن أنَّ السيدة الزهراء قد أملت بديمغرافية المتلقي سواء في وقتها - حيث الحاضرون في المسجد النبوي الشريف - فقد كانوا ما بين صحابي وراوٍ وقارئٍ حامل لكتاب الله القرآن العظيم؛ لذلك كان استدلال الزهراء ﷺ عليهم مخصوصاً دقيقاً مما لا يقبل الريب ولا الشكَّ أبداً، فكان الإعلام متجسداً في خطبتها، فهي وجهت خطابها إلى الشعب الحاضر في المؤتمر الإسلامي، لأنَّهم بايعوا رئيس الدولة، ولم توجه الخطاب إلى رئيس الدولة مباشراً، لأنَّه أحد طرفي المحاكمة، وهو المقصود بالمخاصمة والإدانة؛ ولهذا عرفت نفسها للحاضرين كما هي الأصول المتبعة في الوقائع

(١) ينظر: الفكر الكلامي عند السيدة الزهراء - الخطبة الفدكية أنموذجاً، سلام الخرسان، مجلة العقيدة،

العدد الثامن، ١٤٣٧هـ، ص ٢٢١.

(٢) وسائل الشيعة، ٢٧ / ٣٤٢.

الإعلامية والوقائع المحاكمية فهي تمثل الطرف الآخر، وهي تمثل آل بيت الرسول ﷺ، بل هي ملكة الإسلام<sup>(١)</sup> فقالت: (أيها الناس أني فاطمة وأبي محمد)<sup>(٢)</sup>، وقد استخدمت أيها الناس هذا الخطاب التنبيهي الإعلامي لكي تهيم أذهان المتلقي إلى ما يأتي من الخطاب، وقد حركت أذهان الحضور بأمور هي قارة عندهم إذ نجد تكراراً في تلك الخطبة لعبارة (فاطمة وأبي محمد). فقد تكررت في هذه الخطبة اثنتي عشرة مرة، وهي من استراتيجيات الخطاب الناجح، فقد ذكرت اسمها مرتين مقروناً بالرسول ﷺ تريد أن تعلمهم أن ذلك الاسم لا يجهله أحد، هو ذلك الاسم الذي طالما سمعه الناس مراراً وتكراراً من الرسول ﷺ، وهو يعظم ويبجل فاطمة، وهي تريد أن تقول: نعم إني فاطمة بنت سيد الأنبياء أشرف الخلائق، وأطهر المخلوقين هذا التكرار الجميل يعد من أبرز الأساليب الإقناعية لما يمتلك من دور مؤثر وفعال في مكونات الخطاب الإقناعي، ليس فقط لما يمتلكه من جانب بديعي جمالي، وإنما لما يحمله من رسالة إعلامية إقناعية؛ وذلك لمنح الحجج والبراهين طاقة مضاعفة تحدث في المتلقي أثراً جميلاً، وتعمل بفاعلية قصوى في إقناعه وحمله على الإذعان<sup>(٣)</sup>. وقد ألفت الحجة على الموجودين في ذلك المؤتمر، فهي كثيراً ما تعرّف عن نفسها كي لا يقول قائل ما عرفناها، وهي بذلك أتمت الحجة عليهم، وقالت اسمها الصريح ونسبها الواضح توبيخاً وتقريعاً لهم<sup>(٤)</sup>، وتقول (أقول عوداً وبدءاً)<sup>(٥)</sup> أي أقول أولاً وآخر، وآخر أولاً وأولاً، وأنا على

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد، ٣٤٤.

(٢) بحار الأنوار، ٢٩ / ٢٢١.

(٣) ينظر: الإقناع في الخطاب القرآني، هشام بلخير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بانيّة، الجزائر، ٢٠١٢م، ص ١٣٦.

(٤) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد، ٣٤٥.

(٥) بحار الأنوار، ٢٩ / ٢٢٢.

يقين على ما أقول<sup>(١)</sup> ثم قالت ﷺ: ولا (أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً)<sup>(٢)</sup>. هنا تشير الزهراء إلى مسألة العصمة في خطابها ثم قرنت ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>، وأسندت خطابها بالتداخل مع خطاب الآية القرآنية المذكورة التي هي خطاب موجه إلى العرب خاصة، (وإنما ذُكر ذلك، لأنه أقرب إلى الألفة، وأبعد من المحك واللجاج، وأسرع إلى فهم الحجة، فهو من أنفسكم في أشرف نسبة منكم، ومن أنفسكم في القرب منكم، ومن أنفسكم بالاختصاص بكم)<sup>(٤)</sup> فقد كانت تدعوهم إلى الوحدة، وتذكرهم كيف كانوا متفرقين، وقد جمعهم الله بأبيها -رسول الله- وهذه من صفات الإعلامي الفذ إذ عدّ الخطاب الإقناعي الحديث على أنه رغبة البشر في تجاوز الانقسامات الحاصلة في المجتمع، وهو وسيلة لرفع التوتر بين الأفراد والجماعات بشكل يسمح باجتماعها عن قناعة.<sup>(٥)</sup>

ومن مقومات نجاح الخطاب الإعلامي وبلوغ غايته في الإقناع أن يكون المتكلم ذا بلاغة واضحة ومقنناً في هيأته وشخصه، وفي ذلك يقول الجاحظ: (أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية)<sup>(٦)</sup>.

(١) فاطمة من المهد إلى اللحد، ٣٤٥.

(٢) أعيان الشيعة، السيد محسن الامين، ٣١٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٤) التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني ١١ / ٣٢٨-٣٢٩.

(٥) ينظر: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، حسن مودن، ص ٨.

(٦) البيان والتبيين، الجاحظ، ١ / ٩٥.

فالخطيب البارع يجب أن يكون واثقاً من نفسه تبدو عليه السكينة، عارفاً بديموغرافية الحاضرين، فيكلمهم بما يفهمون ويحاججهم بما يقتنعون؛ وهذا الشيء تجلّى واضحاً في تلك الخطبة، وفي الزهراء ذاتها، وهذا ديدن أهل البيت (عليه السلام)، إذ تمثل هذه الخطبة رسالة إصلاحية في الدين والدولة، بنيت على أسس تبليغية إعلامية إقناعية على وفق مقدمات خطابية تواصلية، تحاور الموجودين عبر بوابة الإقناع والتأثير في المتلقي، واعتماد استراتيجيات توجه عقل المخاطب وروحه وضميره بعيداً عن العنف والإكراه والمغالطة<sup>(١)</sup>. وهذه الخطبة تبين الخطأ الذي بيّنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وتبين الخطأ الذي انتهجه الخطأ الآخر، وبذا نتلمس أهمية الخطاب الإعلامي عند السيدة الزهراء في خطبتها الفدكية؛ فقد كان يركز على أسس قيمة أخلاقية. بعدها انتقلت السيدة الزهراء إلى المحور الآخر، وهو الحديث أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عالمٌ من الله بما تؤول إليه الأمور، وذلك علمٌ من الله أنّ البشر يحتاجون إلى من يأتي إليهم، ويبين لهم الطريق فقالت (ابتعثه الله إتماماً لأمره)<sup>(٢)</sup>، وهنا يظهر لنا الجانب الإعلامي أو سيكولوجية الإعلام في خطبتها؛ فبعد الكلام عن نعم الله، وأن هذه النعم ستستصل وتستمر إذا الناس شكروا هذه النعم بعدها تتكلم الزهراء عن التوحيد، وأن الله خلق الخلق لهدف، وهذا الهدف لا يرجع إلى الله، ومرتبطة بالناس وسائر المخلوقات كلّها مقدمات لخلق الإنسان ولهداية الإنسان للطرق القويم. بعد ذلك الله عزّ وجلّ لم يكتف بخلق الإنسان بصورة طبيعية وهو مفطور من ناحية القلب يستطيع أن يعرف الله، ومن ناحية الفكر يستطيع أن يدرك الله، ولكن احتاج هذا الإنسان إلى متممة، وهي إرسال الرسل، وقد ركزت الزهراء في خطبتها على مسألة اختلاف الناس في أديانها فقالت: (فرأى

(١) ينظر: الخطاب الحجاجي في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء - الروابط الحجاجية اختياراً، عبد الإله عبد الوهاب العرداوي السوداني، عتاب بسيم، مجلة كلية الآداب - جامعة الكوفة، ٢٠٢٠ م، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) الاحتجاج، الطبرسي ١٣٣.

الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله تعالى مع عرفانها<sup>(١)</sup> وتريد أن تشير إلى أن الناس إذا افترقتم عن الذي يأتي بعد رسول الله ووصي رسول الله سوف تعودون إلى المصير نفسه، وتفقدون هدف الحياة، إذ إن رسول الله ﷺ جاء في لحظة كان الجميع مختلفاً في ديانته، وتريد أن تبين أن تلك النعم التي يجب أن تكون متصلة، أنتم بهذه الطريقة لم تشكروها؛ هذه المقدمات تبين لنا عمق التفكير الذي كانت تتمتع به الزهراء كذلك تبين أهمية الجانب الإعلامي في إظهار حقيقة ما. وقد قدمت هذا القواعد وطرحتها؛ لتبين لهم أنهم إذا انحرفوا عنها ستؤول أمورهم إلى الشتات، فقد أوضحت الزهراء ﷺ هذا الجانب بأروع بيان وأشارت إليهم بأنه من الطاف الله وعنايته بهم أن يبعث رسلاً لهدايتهم رافةً وتحنناً منه عليهم، وأن أباهما هو النور المبين الذي تمثلت به رحمة الله.

(١) المصدر نفسه، المكان نفسه.

## المبحث الثالث

### الإعلام بحق أهل البيت (عليه السلام) المسلوب

بعد أن أجادت الزهراء (عليها السلام) في اجتذاب الحضور نحوها واشترأت الأعناق إلى خطابها، وهذا الشيء يسمى بعتبة البداية في الخطاب الإقناعي، فتشكّلت بنية تحفيزية لاستشارة اهتمام المتلقين وتنبيههم إلى منطقة البؤرة في الخطاب، إذ بدأت بمحور التذكير والتنبيه، وهو ما بيناه في المبحث السابق لتنتقل بعده إلى المحور الثاني الذي يمثل صلب الهدف أو لبّ الموضوع أو ما يسمى بالمتن الرئيس في الخطبة الذي خرجت من أجله، فقدمت له مقدماته. فالتفتت السيدة الزهراء (عليها السلام) إلى القوم الجالسين فقالت: (أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحمله دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم)<sup>(١)</sup> نلاحظ هنا أنّ الزهراء (عليها السلام) بدأت بمدح القوم رغم ما فيهم من الشوائب، فربما كانت الغاية من ذلك المدح هو من أجل تحفيز المقابل بتقبّل ما سوف تقول به الزهراء، وهذا له أثر نفسي أو ربما أرادت أن تبين دور صحابة رسول الله المتواجدين في ذلك المجلس فتقول لهم المفروض بكم أن تكونوا بهذه الصفات، فقالت: ( تكونون نصب أمره... وبلغائه إلى الأمم) أي ينبغي أن يكون دوركم الطبيعي، هو هذا الدور أي بعد قبض رسول الله أنتم وظيفتكم هذه، وهي أمانة بيدكم؛ لأنكم عاصرتم الرسول ﷺ وسمعتهم أحاديثه وتعلمتم سنته، وهي تريد أن تقول لهم إنّهم يجب عليكم تبليغ تلك الأوامر والتعاليم والأحاديث والسنن إلى الأجيال القادمة، فيجب عليكم أداء هذه المسؤولية الكبيرة تجاه الإسلام والمسلمين، وأداء الأمانة سليمة من التلاعب، وتبليغ الأحكام دون تحريف أو تزيف كما أنزلها الله تعالى، لأنكم الوسائل بين الرسول ﷺ وبين بقية المسلمين، وهي تريد أن تبين لهم إن أنتم أحسستم الأداء فلکم الأجر

(١) بحار الأنوار، ٢٩ / ٢٢٢.

الجزيل، وإن خنتم في الأداء والتبليغ فعليكم أوزار كل انحراف في الدين والمسلمين<sup>(١)</sup>. من هذا تريد الزهراء (عليها السلام) تحقيق المنطق العقلي في التغيير الفكري والسلوكي في ذهن المتلقي العام، وتوجيهه نحو تبني موقف وسلوك واقعيين منطقيين تجاه القضايا المطروحة مما يعكس قوة الخطاب وتأثيره الإقناعي، إذ تلتفت إلى فتية القوم الحاضرين الذين مالوا إلى نصره الآخر الظالم فقالت لهم: (يا معشر النقية وأعضاء الملة، وحصنة الإسلام، ما هذه الغمزة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟!)<sup>(٢)</sup>. نجد أن الزهراء (عليها السلام) تشخص فئات محددة لتخاطبها، وهنا تخص الأنصار بخطابها. وربما السبب في ذلك تريد أن تستنهض همهم لعلهم أتهم ما زالوا في عنفوان طاقتهم العمرية والعقلية فلا يكون الإصلاح والتغيير الإلهيان في أهل الإسلام والملة إلا بهم، وهي تريد أن تصل بهم إلى أن الله خلقهم وجعلهم النقية ليكونوا أعضاء ملة الإسلام الحققة وأنصارها، لا أن يجاربوا حق الله وملته وإسلامه فشجبتهم فعلتهم تلك. وقد قصدت السيدة الزهراء (عليها السلام) إقرار المخاطبين بحجتها ودفعهم إلى التسليم بصحة ما جاءت به من أدلة وشواهد إقناعية، لتصوير التغافل عن ظلامتها ورغد مهمتها الإقناعية، وذلك بحسن التوظيف للوسائل فالزهراء (عليها السلام) خريجة الدوحة المحمدية والعلوية، فأفادت من المؤهلات التي حصلت عليها من المدرستين فوظفتها في تعزيز مستوى الإقناع في كلامها وانعكاسه في حسن الأداء بما أفنع الآخرين بحقها.

وقد استخدمت أسلوباً فيه شيء من المدح، لأن هذا اللون من الإعلام له دلالات إقناعية. فقد استثمرت الزهراء (عليها السلام) طاقاتها الإيحائية الإقناعية من أجل جذب انتباه المتلقين؛ لأنها تعدّ من أكثر وسائل الإعلام الإقناعية أثراً في لفت الانتباه وزيادة درجة الإقناع. وهنا نلاحظ أن الزهراء (عليها السلام) قد تنوعت لديها أشكال الإقناع لتنوع المواضيع

(١) ينظر: فاطمة من المهدي إلى اللحد، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) الاحتجاج، ١٣٩.

التي تناولتها في الخطبة؛ فمنها ما كان دينياً، وقد تناولناه، ومنها ما كان اجتماعياً، ودينياً، وسياسياً؛ لذلك نراها عليه السلام تعمل على إثارة الجانب الانفعالي العاطفي كما فعلت في افتتاح خطبتها أو إثارة الجانب العقلي المنطقي، وهو ما تعتمد عليه كثيراً وبعدها أشارت إلى عبارة مهمة فقالت عليه السلام: (وزعمتم حق لكم الله فيكم)<sup>(١)</sup> أي إن ذلك ليس حقاً لكم، وإنّما تدعون زوراً وبهتاناً.

وقد كان الجانب الإعلامي حاضراً في خطبتها هذه المرة بحق الإمام علي عليه السلام المسلوب المغتصب، فتكون أول إشارة إلى الإمام عليه السلام إذ تقول: (نجم قرن للشيطان، وفغرت فاعرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطأ صماخها بأخمسه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، ومجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيد أولياء الله)<sup>(٢)</sup>، وفي هذا النصّ تظهر مركزية الخطاب، وهي إتمام الرسالة المحمدية الحقّة، والكشف عن الحلقة الصحيحة التي يجب أن تأخذ مكانها المناسب في سلسلة الرسالة المحمدية، والملاحظة المهمة هنا في خطاب الزهراء عليها السلام أنّها لم تذكر آية صفة من صفات الإمام علي عليه السلام بل اكتفت هنا بذكر كلمة (أخاه) في إشارة منها إلى رواية المؤاخاة التي تظهر الرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام صورتين في آن واحد. وكان الإمام علي عليه السلام يعتزّ بهذه الأخوة فيقول: (أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، والفاروق الأعظم لا يقوله غيري إلا كذاب)<sup>(٣)</sup>. ثمّ تكمل الزهراء الخطاب الإعلامي بمواقف الإمام عليه السلام في الإسلام لتذكر القوم بها، والإشارة في عمق الخطاب الإقناعي إلى أحقيّته بالخلافة، وأنّه أولى بها من غيره بها فقالت: (قريباً من رسول الله، سيداً في ذات الله)<sup>(٤)</sup>، وهنا تشير الزهراء عليها السلام إلى القرابة، ولكنها لم تقصد القرب

(١) بحار الأنوار ٢٩/ ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٩/ ٢٢٥.

(٣) الأمالي، الشيخ الصدوق، ٢٧٤.

(٤) الاحتجاج، ١٣٦.



المكاني، وإنما كانت تعني القرب المعنوي من حيث اندماج الروح، وقرابة النسب، ووحدة النفس، واتحاد الروح استناداً إلى آية المباهلة ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وهي تستعرض الخدمات الجليلة التي قدّمها الإمام علي عليه السلام في خطابها التسلسلي والإقناعي تريد أن تصل إلى أن من يقدم مثل تلك التضحيات يكون مقامه على رأس القوم، ثم تُعلن عن مقارنة بين ما كان يتنعم به هؤلاء الذين تصدّوا لأمر الأمة بعد الرسول ﷺ، فقالت: (وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون)<sup>(٢)</sup>، لتُجري في هذا الخطاب مقارنة جميلة بين من هو أحقّ بالخلافة، وبين الطرف الآخر، فقد بينت موقف الإمام علي عليه السلام تجاه الإسلام والرسول ﷺ، وهذه مواقف غيره من أولئك الشخصيات التي ظهرت شجاعتهم بعد وفاة الرسول ﷺ فأبرزوا شجاعتهم عندما خلا لهم الجوّ وساعدتهم الظروف. وهنا تظهر شجاعة الزهراء عليها السلام إذ تتصدى بنفسها للدفاع عن الحقّ، إذ إنّ الدفاع في حد ذاته يمثل قيمة إلهية، ولا سيما عندما تنطلق صرخات الاحتجاج من فم امرأة مظلومة كفاطمة عليها السلام<sup>(٣)</sup>.

ومن الجليّ الواضح أن الزهراء عليها السلام تتحدث بلسان الجماعة، وهم أهل البيت عليها السلام، وتذكّر بالظلم الذي حاق بهم من القوم في حياة الرسول ﷺ، وهذه تمثل إشارة أو تعبيراً عن بيت النبوة الذي هو الامتداد الطبيعي للرسالة المحمدية، وتستمر الزهراء عليها السلام في خطابها في كشف زيف القوم والدفاع عن حقّ أهل البيت عليها السلام، المغتصب فتقول: (فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفیائه، ظهر فيكم حسكة النفاق)<sup>(٤)</sup>. هنا الزهراء عليها السلام تشير إلى نقطة جوهرية وقضية مصيرية لتعود بالقوم إلى يوم السقيفة وإظهارهم للناس كذباً وخديعة، أنّهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة دفعاً للفتنة مع أن الهدف كان هو غضب الخلافة من

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) بحار الأنوار، ٢٢٥.

(٣) ينظر: فاطمة الزهراء قدوة الصديقين، ٨.

(٤) الاحتجاج، ١/١٣٦.

أهلها الحقيقيين. ومن هذا الخطاب عملت الزهراء (عليها السلام) على توجيه الإعلام الحجاجي إلى المنحى المطلوب وتحقيق غايته المنشودة، وهي بطلان ذلك الزعم من الوقوع بالفتنة، فعملكم هذا هو الفتنة المفسدة؛ غصبتكم الحقوق من أهلها لأجل الوقاية من الفتنة حسب ادّعاءكم، فأَيُّ فتنة أعظم من تغيير مجرى الإسلام وتبديل أحكامه، وغصب حقوق أهل البيت ومعاملتهم بتلك القسوة والخشونة<sup>(١)</sup>.

ثم تقول (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)<sup>(٢)</sup>، وهنا جانب إعلامي إقناعي مهم جداً يكمن في الدلالات التي تكمن في الاستدلال الإقناعي بالشاهد القرآني لدى الزهراء (عليها السلام) معززاً للدلالات الإقناعية المتعددة إذ تريد الزهراء (عليها السلام) لإعلامها أن يصل إلى ذروته فتهيئ الأدوات الإعلامية المتداخلة المتعانقة مع بعضها لتكون أكثر إقناعاً، فتقدم الحجج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع على المعاند حجته، وهذا ما يسمى إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية.<sup>(٣)</sup>

مما سبق نجد أن الزهراء (عليها السلام) في خطبتها قد وضعت النقاط على الحروف بين فريقين متخاصمين أحدهما على الحق، وآخر على الباطل. وقد قصدت السيدة الزهراء في إجراء تلك المقارنة الجميلة بين الطرفين وبيان أفعال كل منهما على حدة، وذلك لتثبيت الحقوق وحفظها ولتوثيق الحقائق وصونها من الضياع والتزييف والتدليس، وهي بذلك أرادت أن تبين حق الفريق الأول المتمثل بأهل البيت (عليهم السلام)، وتثبيت حقوقهم التي نصّ عليها الله ورسوله سواء بالقرآن الكريم أو بالسنة المطهرة؛ كذلك تبين أن الآخر ليس على حق، وأنه مغتصب حقاً ليس له؛ لذلك حرصت على ذكر الصنفين معاً وأعطت كل واحد منهما

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد، ٣٦٤

(٢) الاحتجاج، ١/ ١٣٦، وقول السيدة الزهراء تناص قرآني للآية ٤٩ من سورة التوبة.

(٣) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدواني، ١١٩.

ملاحمه الدققة فهى ﷺ لم تذكر أحدهما دون الآخر، وربما كان السر من وراء ذلك الفعل هو الإعلام الإقناعى للجالسين فى ذلك المؤتمر أو الذين يأتون من بعدهم، لكى لا تختلط الأمور عليهم، وتضع الحقوق والحقائق. وأيضاً تريد أن تضع حداً للترزيف الإعلامى للحقائق، لأنها كانت تعلم أن من يأتون بعد ذلك، ويحكمون سوف يزيفون التاريخ لصالح هؤلاء المغتصبين فيجعلونهم أهل الحق الشرعيين، ويستبعدون أهل الحق الإلهى لذلك قطعت الطريق بخطابها هذا الذى حوى تفصيلات يمكن وصفها بالدقة الفائقة بالتشخيص والاستشراف بالمستقبل.

إن خطاب الزهراء ﷺ الإعلامى لم يكن خطاباً مادياً التماسياً كما صورته بعض الكتب غايته مادية بل كان خطاباً متداخلاً مع روح الإسلام الحقيقى بل يمثل المنهج القرآنى، بل يعد ثورة كلامية وانتفاضة إعلامية إقناعية بلاغية على الانحراف العقدي عن قواعد الإسلام التى أرساها الرسول ﷺ، وهى بالحقيقة ثورة إصلاحية كاملة لمنظومة الإسلام التى حاول المنحرفون تغييرها، بل هو يمثل بياناً رسمياً تعلن فيه بالإنباء عن أهل البيت ﷺ رفضها للمنهج الذى انتهجه الآخر بعد وفاة الرسول ﷺ مثلاً بركن الشيطان الذى وجد فى بناء منظومة جديدة مهمتها إقصاء أهل البيت عن مكانهم الحقيقى وبث روح الفرقة بين المسلمين.

وفى ختام خطبتها وجهت الزهراء ﷺ خطابها المباشر إلى حاكم الدولة أبى بكر، فقالت له: (يا ابن أبى قحافة، أفى كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبى؟! لقد جئت شيئاً فرياً)<sup>(١)</sup> من هذا القول نلاحظ أن موضوع الإرث بفدك لم يكن هدفاً مركزياً، فلو كان همها إرث فدك لقدمته فى بدايته كلامها، وإنما كان عرضياً من أجل فضح الحاكم، وكيف أصبح يتلاعب بنصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف؛ وهذا دليل آخر على أن السيدة

الزهراء عليها السلام تمثل حلقة وصل لإتمام الرسالة المحمدية إذ لم تعدّ هذا الخطاب من أجل المطالبة بإرث مادي.

وهنا ملاحظة إعلامية مهمة فيبينها الحضور مشدودون إليها إذ نادتهم (أيها المسلمون) تلتفت مباشرة إلى الخصم الظالم رأس القوم وتقول له: (أأغلب على إرثيه؟! يا ابن أبي قحافة)<sup>(١)</sup>. بعد ذلك ترتقي الزهراء عليها السلام بالإعلام الحجاجي إلى مرتبة عظيمة، فهي تقدم الحجج الدامغة المشفوعة بالآيات القرآنية التي لا يمكن للخصم نكرانها، فهي تورد خطابها مرتكزاً على آيات القرآن الكريم فاستشهدت بآيات الميراث لتنفيد ما زعم هؤلاء أنّ لا حظ لها، ولا إرث لها من أبيها في حين ترث أباك أنت؟ سبحان الله لقد جئتم شيئاً فرياً.

والشيء الإعلامي المهم في هذا الخطاب هو أن الزهراء عليها السلام لم تنادِ الحاكم باسمه (أبي بكر)، إنما استخدمت كنية أبيه، وربما كان القصد من وراء ذلك هو التناغم مع ما جاء في نهج البلاغة عندما خطب أمير المؤمنين فقال (والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنّه ليعلم أنّ محلي منها محلّ القطب من الرحي)<sup>(٢)</sup> فضلاً عن ذلك إثبات للحقائق وحفظها من التزوير فعملت على تثبيت الشخص الخصم؛ لأنّه كان مشهوراً بين القوم بهذه الكنية، ولم يكن أحدٌ من القوم يعرف بها سواه؛ أما اسمه فهناك العديد ممن يعرفون به، وبذلك تحول دون التزييف والتزوير في قادم الأيام.

كذلك نلاحظ تقلص مساحة محور الإرث بالمساحات الأخرى في الخطاب الفدكي، وهذا يدلّ على شيء مهمّ هو أنّ هذا المطلب هو شيء ثانوي بل إنّهُ محفّز إعلامي فقط لإنتاج الخطاب البنائي الذي استهدف الخطاب الإسلامي، وليرمّم ما حصل فيه من انحراف، والعمل على تغيير الفكر المغاير، وإنقاذ ما تستطيع من الآخر من التيه والضلالة.

(١) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٢) الاقتصاد، الشيخ الطوسي، ٢١٠.

## الخاتمة

بعد نهاية البحث توصل الباحث إلى استنتاجات؛ من أبرزها:

أنّ الخطاب الإعلامي عند السيدة الزهراء عليها السلام قد ارتكز على استراتيجيات أساسية مهمة في الإعلام الحديث، فكان يمثل فكراً عقدياً عميقاً يتماشى مع مضامين السياق المنتج، أسهمت في صناعته بلاغة عالية ودقّة كبيرة، استطاعت الدمج ما بين ما هو قرآني أصيل، وحديثي صحيح، وواقع حتمي.

استخدمت السيدة الزهراء عليها السلام كلّ أدوات الإعلام التي من شأنها تؤدي بالفرد إلى الإقناع أمام الحقائق المخفية، وهي بذلك قد خاطبت ديموغرافيات مختلفة؛ منها ما هو حاضر في ذلك المؤتمر، ومنها ما هو سيولد بعد ذلك الزمن فاستخدمت أدوات التنبيه والتذكير والحجاج والتهويل والتفريع.

من أهمّ الفنون البلاغية الإقناعية التي ضمنها الزهراء في خطبتها تلك توظيفها الشاهد القرآني بشكل جميل جداً فأحياناً تورد الآية بالنصّ إذا كان التغيير فيها ينقص من دلالة الإقناع، بينما توردّها بشيء من التغيير عندما تستدعي ذلك حاجة السياق من غير أن يؤثر ذلك في جماليات الإقناع الاستدلالي.

إنّ موضوع الإرث بفدك لم يكن هدفاً مركزياً، فلو كان همّها إرث فدك لقدّمته في بدايته كلامهما، وإنّما كان عرضياً من أجل فضح الحاكم، وكيف أصبح يتلاعب بنصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ وهذا دليل آخر على أنّ السيدة الزهراء تمثل حلقة وصل لإتمام الرسالة المحمدية، إذ لم تعد هذا الخطاب من أجل المطالبة بإرث مادي.

الشيء الإعلامي المهم في هذا الخطاب هو أنّ الزهراء (عليها السلام) لم تنادِ الحاكم باسمه (أبي بكر)، إنّما استخدمت كنية أبيه، فضلاً عن ذلك، إثبات للحقائق وحفظها من التزوير، فعملت على تثبيت الشخص الخصم، لأنه كان مشهوراً بين القوم بهذه الكنية، ولم يكن أحدٌ من القوم يعرف بها سواه. أما اسمه فهناك العديد ممن يعرفون به، وبذلك تحول دون التزييف والتزوير في قادم الأيام.

نلاحظ تقلص مساحة محور الإرث بالمساحة الأخرى في الخطاب الفدكي، وهذا يدلّ على شيء مهم هو أنّ هذا المطلب هو شيء ثانوي بل إنّهُ محفّزٌ إعلاميٌّ فقط لإنتاج الخطاب البنائي الذي استهدف الخطاب الإسلامي، وليرمّم ما حصل فيه من انحراف والعمل على تغيير الفكر المغاير، وإنقاذ ما تستطيع من الآخر من التيه والضلالة.

تميزت السيدة الزهراء ببراءة تسلسل الإعلام فقد بدأت بحمد الله والثناء عليه، فهي عندما حمدت الله حمدته من زاوية مختلفة، وقد قدمت الزهراء ببعض الكلمات، لأنّها لها علاقة بالمطالب التي ستأتي بعدها أو بمباني الأمور التي ستحللها الزهراء عن وضع الأمة. كان الجانب الإعلامي حاضراً في خطبتها بحق الإمام علي المسلوب المغتصب، وظهرت مركزية الخطاب في إتمام الرسالة المحمدية الحقّة، والكشف عن الحلقة الصحيحة التي يجب أن تأخذ مكانها المناسب في سلسلة الرسالة المحمدية.

إنّ خطاب الزهراء الإعلامي لم يكن خطاباً مادياً التماسياً كما صورته بعض الكتب غاية مادية، بل كان خطاباً متداخلاً مع روح الإسلام الحقيقي، بل يمثل المنهج القرآني، بل يعدّ ثورة كلامية وانتفاضة إعلامية إقناعية بلاغية على الانحراف العقدي عن قواعد الإسلام التي أرساها الرسول، بل هو يمثل بياناً رسمياً تعلن فيه بالإنباء عن أهل البيت (عليهم السلام) رفضها للمنهج الذي انتهجه الآخر بعد وفاة الرسول ممثلاً يركن الشيطان الذي وجد في

بناء منظومة جديدة مهمتها إقصاء أهل البيت عن مكانهم الحقيقي وبث روح الفرقة بين المسلمين.

إنَّ الزهراء (عليها السلام) تتحدث بلسان الجماعة، وهم أهل البيت (عليهم السلام) وتذكر بالظلم الذي حاق بهم من القوم في حياة الرسول، وهذه تمثل إشارة أو تعبير عن بيت النبوة الذي هو الامتداد الطبيعي للرسالة المحمدية، وتستمر الزهراء في خطابها في كشف زيف القوم والدفاع عن حق أهل البيت المغتصب.

## المصادر والمراجع

أولاً/ القرآن الكريم

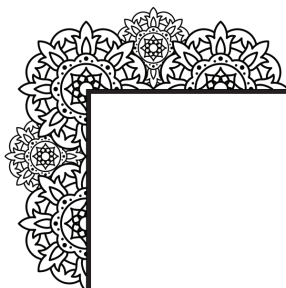
١. الاحتجاج، الطبرسي، تعليق: السيد محمد باقر الخراسان، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٩٩٦م.
٢. الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
٣. أعظم شكوى وأبلغ بيان- شرح الخطبة الفدكية، محمد تقي اليزدي، تحقيق عباس كرائي، ترجمة، وائل علي، ط١، دار المعارف، لبنان، ٢٠٢٠م.
٤. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، (د.ت.).
٥. الاقتصاد، الشيخ الطوسي، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠٠هـ.
٦. الإقناع في الخطاب القرآني، هشام بلخير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بانيّة، الجزائر ٢٠١٢م.
٧. الأمالي، الشيخ الصدوق، ط١، مركز البعثة، بيروت، (د.ت.).
٨. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: الشيخ عبد الزهراء العلوي، الناشر: دار الرضا - بيروت - لبنان، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.
٩. بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، حسن مودن، ط١، كنوز المعرفة، ٢٠١٤م.



١٠. بهاء الدين من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية، محمد مزيد، ط١، مطبعة شمس، القاهرة، ٢٠١٠م.
١١. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٨م.
١٢. التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، مكتبة البشري، باكستان، (د.ت).
١٣. تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، (د.ت).
١٤. تيار الوعي في الرواية الحديثة، همفري روبرت، ترجمة د. محمود العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.
١٥. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠١م.
١٦. الخطاب الحجاجي في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء الروابط الحجاجية اختياراً، عبد الإله عبد الوهاب العرداوي السوداني، وعتاب بسيم، مجلة كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٢٠م.
١٧. خطبة الزهراء سيدة النساء - قراءة وحوار جديد، د. مهدي صالح سلطان، ط١، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة، مطبعة دار الكفيل للطباعة والنشر، رجب الأصب ١٤٣٦هـ - آيار ٢٠١٥م.
١٨. الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري، تحقيق، د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

١٩. الزهراء وخطبة وفدك شرح الخطبة الفدكية، محمد باقر المجلسي، ط ١، دار كلستان كوثر، ايران، ٢٠٠٣.
٢٠. فاطمة الزهراء قدوة الصديقين، محمد تقي المدرسي، دار محبي الحسين، أصفهان، (د.ت.).
٢١. فاطمة من المهدي إلى اللاح، محمد كاظم الزبيدي، المطبعة العلمية، قم، ١٩٩٩ م.
٢٢. الفكر الكلامي عند السيدة الزهراء الخطبة الفدكية أنموذجاً، سلام الخراسان، مجلة العقيدة، العدد الثامن، ١٤٣٧ هـ.
٢٣. في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية - الخطابة في القرن الاول أنموذجاً، محمد العمري، الناشر: إفريقيا الشرق، (د.ت.).
٢٤. المدخل إلى المنطق السوري، محمد مهران، مطبعة بولاق، دمشق، ١٩٩٩ م.
٢٥. مفاهيم أولية، بيار ماشيري ترجمة سامي سودان، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد ١، ١٩٨٨.
٢٦. مناقب أهل البيت (عليهم السلام)، المولى حيدر الشيرواني، تحقيق محمد الحسون، ط ١، مطبعة المنشورات الإسلامية، بيروت، ١٤١٤ هـ.
٢٧. كيف تقنع الآخرين بآرائك وأفكارك، مصطفى الدباغ، ط ١، دار الإسراء القاهرة، ٢٠٠٤ م.





## التنمية المستدامة

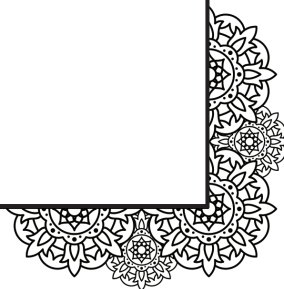
في كلام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء عليهما السلام

ومرجعيتها القرآنية

الباحث

م.د. سجاد هادي صاحب العنبي

جامعة الكوفة / كلية الفقه



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

لقد انشغلت الإنسانية بمجتمعاتها، وحكوماتها في العقود الأخيرة بمسألة عُدَّت من أهم القضايا التي ينبغي إيلاؤها الأهمية والقصوى، وجعلها ثقافة لدى كل فرد وأسرة ومجتمع، ألا وهي ( التنمية المستدامة). فبعد أن اتّضحت خطورة التنمية على إنسان المستقبل، وما تقوم به من تهديد كبير للثروات، وتلوث خطير للبيئة، يهدّد الإنسان وينذر بمستقبل فيه الجفاف، والجوع، والفقر، والتلوث، وانحسار الثروات الطبيعية، من هنا كانت (الاستدامة) في التنمية عنصراً أساسياً لديمومة الحياة، واستمرارها، والعيش في رفاه، وسعادة، وقد حددت أهدافاً لتحقيق تلك الحياة الهائلة، منها القضاء على الفقر، وعدم الاستهلاك، والقضاء على الجوع، والاعتناء بالصحة والتعليم، والمساواة بين الناس في أجناسهم وألوانهم... الخ.

إنّ من العقائد التي يؤمن بها المسلمون صلاحية القرآن الكريم لكلّ زمان ومكان، واحتواءه على تشريعات كبرى تخصّ المشروعات السياسية والاقتصادية وغيرها مما تتقوّم به سعادة الإنسان ورخاؤه، وكذا اعتقاده بأنّ القرآن الكريم غير منفصل عن العترة الطاهرة، وهي المبيّنة لتلك التشريعات والأحكام.

من هنا جاءت أهمية هذا البحث، ليؤكد هذا الاعتقاد بالاعتقاد على أحاديث سادة العترة الطاهرة بعد رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين والسيد فاطمة الزهراء ﷺ، متخذاً بعض النماذج الأساسية في هذا الموضوع، والاستشهاد ببعض أقوالهما ﷺ بما يسعه المقام. وبعد ذلك قام البحث ببيان منطلقات تلك الأحاديث الشريفة، وأسسها من القرآن الكريم لبيان تلك الثنائية غير القابلة عن الافتراق إلى يوم القيامة.

وقد اقتضت هيكلية البحث أن تكون بمطلبين تسبقهما مقدمة، وتلحقها خاتمة:

الأول: بحث في التنمية المستدامة من حيث بيان مفهومي التنمية والاستدامة وأهمية  
الثنائية بينهما.

الثاني: كان في بيان مجالات التنمية المستدامة

داعياً الله تعالى أن يأخذ بأيدينا لما ينفع به آخرتنا ودينانا، وأن يكتبنا ممن يبين شيئاً  
من تراث آل محمد الأطهار، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

### توطئة:

قبل الدخول في طيّات البحث، ينبغي الإشارة إلى أمرين وخلاصة لهم مدخلية أساسية في البحث؛ ليُفهم ما نروم بيانه فيه:

أولاً: إنّ القرآن الكريم كتاب إلهي معجز؛ ومن خصائص إعجازه ووجوده أنّه صالح لكلّ زمان ومكان، أيّ أنّه لا يختص بزمان نزوله ولا مكانه، بل يستمر في غيرهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد عبّر الأعلام عن هذه الخاصية في القرآن الكريم بقاعدة (الجري والانطباق)، مستلهمين ذلك من أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ القرآن حيّ لا يموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضي... إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا»<sup>(١)</sup>.

ولعلّ من مقتضيات الاستمرارية هو عدم الثبات على ظاهر ألفاظه فقط، بل في بعض الأحيان يجب عدم الأخذ بظاهر اللفظ؛ لأنّه يؤدي إلى التجسيم والتشبيه كما في آيات الصفات، كما هو مبحوث في محله؛ ولأنّه يخاطب الناس جميعاً، باختلاف تخصصاتهم، وأصنافهم، ويرسم خارطة علاقاتهم وتنظيم حياتهم، على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي، بل على مستوى الدولة وعلاقاتها السياسية والمالية، ضمن أطر وتشريعات دقيقة، كان من اللازم صبّ ذلك كلّه بألفاظ لها القابلية على حمل تلك التفصيلات، وحمل تلك الدلالات المتعددة، لتنتج أفهاماً متكثرة مسايرة لكلّ زمان ومكان ضمن حدود رُسمت لها. من هنا جاء القرآن بهذا الإعجاز البياني، والنظم اللغوي المبهّر، الخارق للعرب قبل غيرهم، وإن كان من جنس ما يحسنون.

(١) تفسير العياشي، العياشي: ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

الثاني: لقد نصّ النبي الأكرم ﷺ على أن عترته من أهل بيته هم عدل القرآن، وثقله الثاني، بنصّ حديث الثقلين الذي قال فيه ﷺ «إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين - وجمع بين مسبحتيه - ولا أقول كهاتين - وجمع بين المسبحة والوسطى - فتسبق إحدهما الأخرى، فتمسكوا بهما لا تزلوا ولا تضلوا ولا تقدّموهم فتضلّوا»<sup>(١)</sup>.

ثم إن القرآن الكريم قد صرح قبل ذلك بأنّ فيه من الآيات المحكمة والآيات المتشابهة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: الآية: ٧]، وقد نصّت الروايات عن المعصومين (عليه السلام) بأنّهم هم الراسخون في العلم؛ ولأنّهم عدل القرآن وأهله، وحفظته وشاهدي وحيه، كان منطقهم حاوياً لبيان المعارف القرآنية المفهومة لمتلقيها في زمانهم، والمسيرة لزمان غيرهم؛ لأنّهم إن بيّنوا القرآن بفهم يخصّ ذلك الزمان لوقفت الآية وماتت على ذلك الفهم، بل كان بيانهم قابلاً لفهم جديد غير خارج عن المراد القرآني، والثوابت التي أسسوها.

هذا في عموم أهل بيت العصمة ثابت، إلّا أن لأمر المؤمنين والسيدة الزهراء من الخصوصية والمزية التي لم يدانهم فيها أحد، فأمر المؤمنين باب مدينة علم رسول الله ﷺ، وأعلم الناس بالقرآن وبيانه، والسيدة الزهراء (عليها السلام) وارثة علم رسول الله وبلاغته، وروحه التي بين جنبيه وبضعته.

(١) الكليني، الكافي: ٢ / ٤١٥.



وخلاصة ما نودّ ذكره، هو أنّ بيانات القرآن الكريم وألفاظه، وإن كانت بظاهرها تدلّ على مراد ما بشكل ظاهر؛ لما ذكرنا، ولأنّه نزل بلغة (إياك أعني واسمعي يا جارة)<sup>(١)</sup> فقد نجد ألفاظاً ما يُبَيّن في عالم التنمية، واصطلاحات عُهدت قد تكون غير موجودة بنصّها في القرآن الكريم، أو في الروايات الشريفة، فهذا لا يعني عدم بيانها لتلك المعارف، بل لأنّ بعضها تُرجم من لغات أجنبية، وآخر عُرب، وآخر نُحت واستُحدث، وإن كان له أصل في العربية إلّا أنه لم يعهد بهذا التصريف للدلالة على هذا المعنى.

إلّا أنّ هذا لا يعني عدم وجود كثير من اصطلاحات التنمية أو مفاهيمها والمراد منها موجود في القرآن الكريم والسنة المطهّرة، وهذا ما يريد البحث بيانه مما ورد بنصّه أو بفكرته، ومما أثر عن أمير المؤمنين والسيدة الزهراء عليهما السلام وبما يقتضيه البحث من الاختصار، وإلّا فالشواهد عنها عليهما السلام مما تمتلئ به مدونات كثير.

(١) يُنظر: الكافي، الكليني: ٢ / ٦٣١.

## المطلب الأول

### التنمية المستدامة: بيان المفهوم وأهمية الثنائية

يعدّ بيان مفهوم التنمية المستدامة من الأهمية بمكان، لحداثة بيانه -نوعاً ما- ولخفاءه عن كثير من الناس، ولتعدد تعريفاته؛ لذا سنبيّن المراد من هذا المصطلح (المركب)، ثم نبين أهمية ارتباط الأول بالثاني.

فقد عُرِفَت التنمية في اللغة بأثما الزيادة والارتفاع<sup>(١)</sup>، وهي من جذر الفعل (نما)، وهي ترادف (زكا) و (ربا)<sup>(٢)</sup>، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [سورة الروم: الآية: ٣٩]، أي «ليزيد ويزكو في أموالهم يعني ينمو فيها ثم يرجع إليه...»<sup>(٣)</sup>.

أما في الاصطلاح: فقد عُرِفَ بتعريفات عدّة منها: «هي العملية التي تبذل بقصد، ووفق سياسة عامة؛ لإحداث تطور وتنظيم اجتماعي واقتصادي لناس وبيئاتهم، سواء أكانوا في مجتمعات محلية أم إقليمية أم قومية بالاعتماد على الجهود الحكومية والأهلية المنسقة، على أن يكتسب كلّ منهما قدرة أكبر على مواجهة مشكلات المجتمع نتيجة لهذه العمليات»<sup>(٤)</sup>. ويُلاحظ من هذا التعريف أنها تُبذل بقصد؛ وهذا يُشير إلى وجود فرق لغوي أساسي بين لفظ (النمو) و (التنمية)؛ فالأول يدلّ على الزيادة والكثرة الطبيعية، دون تدخل عامل خارجي، أما الثاني فهو يدلّ بفعل (التاء) على تدخل عمدي في النماء لاستحصال

(١) ينظر: العين، الفراهيدي: ٨ / ٣٨٤؛ وتهذيب اللغة، الأزهرى: ١٥ / ٣٧١؛ والصحاح، الجوهري: ٦ /

٢٥١٥؛ ومقاييس اللغة، ابن فارس: ٥ / ٤٧٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس: ٢ / ٤٨٣.

(٣) الصافي، الكاشاني: ٤ / ١٣٣.

(٤) تنمية المجتمع وتنظيمه، عبد المنعم شوقي، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ط ٢، ١٩٦١ م، ٤٣.

الزيادة، وكذا استعمل لفظ (التطور)، فهو يفترق عن (لتغيير) فالأخير، وإن كان يقصد منه إحداث تحوّل بين القديم والحديث، بينما التطور - فهو بالإضافة إلى إيجاد تحوّل بين الواقع والمستقبل - إلا أنّه يهدف إلى الازدهار والتطور والتقدم الحتمي، بخلاف (التغيير) الذي لا يشترط فيه هذا الفارق والهدف.

وهذا الفارق عند محمد توفيق بعد أن عرّف التنمية بأنّها: «عملية تراكمية، تتمّ في إطار نسيج من الروابط، بالغ التعقيد؛ بسبب تفاعل متبادل بين العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية، الإنسان هدفها النهائي ووسيلتها الرئيسية»<sup>(١)</sup> ثم يقول: «إنّ الحصيلة النهائية لهذه العملية ليست مجرد حاصل جمع التغيرات التي تطرأ على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية، بل حصيلة نسيج التفاعلات المتبادلة بينها، والتي تشكّل كلّ منها عاملاً مستقلاً وتابعا في آن واحد، وتتوقف درجة أثر وتأثر، وبالتالي أهمية كلّ جانب من جوانب هذه العملية المجتمعية على الظروف التي تتمّ في ظلها عملية التنمية من جهة، وعلى الشوط الذي قطعته مسيرة التنمية من جهة أخرى»<sup>(٢)</sup>.

وكذا عرّفت بأنّها «التحريك العلمي المخطّط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال إيديولوجية معينة لتحقيق التغير المستهدف من أجل الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها»<sup>(٣)</sup>.

ونستطيع أن نعرّف التنمية أنّها: عملية تهدف إلى سعادة الإنسان واستقراره، بالاعتماد على المجهود الحكومي أو الأهلية في إحداث تطوّر إيجابي في المجال الاقتصادي والاجتماعي والبيئي.

(١) التنمية في دول مجلس التعاون، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٠٣، شوال ١٤٠٦ هـ تموز ١٩٨٦ م: ٥٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) دراسات في التنمية الاجتماعية، عبد الهادي الجوهري وآخرون، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٢، ١١١.

وفي هذا التعريف المختصر ذكرنا غاية التنمية وهدفها الأساس وهو (سعادة الإنسان)، وتناولنا آليات الوصول إلى ذلك بتطوير المجال الاقتصادي والاجتماعي والبيئي. وهذا التطور مشروط بأن يكون إيجابياً؛ فليس كلّ تطوّر يهدف إلى سعادة الإنسان؛ ولعلّ هذا الشرط غفلت عنه أغلب تعريفات التنمية. فصناعة القنبلة النووية، والفايروسات والمخدرات - وإن كانت تدلّ على تطور في ذلك المجال - إلا أنّها لا تهدف إلى سعادة الإنسان، بل العكس فهي تهدف إلى تعاسة الإنسان وتفكّك المجتمع أو القضاء عليه. ثم أشرنا إلى من يقوم بذلك التطوّر، فهل هو واجب الحكومات فقط، أم الأفراد... الخ، فذكرنا أنّه واجب المؤسسات الحكومية، لأنّ بعض المجالات محصورة بيد الدولة، أو هي المسؤولة عنها، كمجال السياسات الخارجية والداخلية، وكذلك هي منوطة بالأفراد أو المواطنين، سواء على مستوى المؤسسات الأهلية، أو المجتمع عموماً، أو الأسرة، أو الفرد، والأخير هو اللبنة الأساسية في هذا المجال.

الاستدامة: يراد بها الدوام والاستمرار والسكون، وعدم الانقطاع<sup>(١)</sup>.

أما مصطلح (التنمية المستدامة) فقد ظهر أول مرة في التقرير الخاص باللجنة العالمية للبيئة والتنمية الذي وُسِمَ بـ (our common future) أي: مستقبلنا المشترك، وتمّ نشر ذلك التقرير عام ١٩٨٧، وعرّف التنمية المستدامة بأنّها «تلك التنمية التي تلبي حاجات الحاضر من دون المساومة على قدرة الأجيال المقبلة في تلبية حاجياتهم»<sup>(٢)</sup>.

وفي عام ١٩٩٢ عرّفها مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية، المنعقد في ريو دي جانيرو، بأنّها: «ضرورة إنجاز الحقّ في التنمية، إذا تحقّق على نحو متساوٍ كلاً من الحاجات التنموية والبيئة للأجيال الحاضرة والمستقبلية»<sup>(٣)</sup>.

(١) ظ: وتهذيب اللغة، الأزهرى: ١٤ / ١٤٧؛ والصحاح، الجوهري: ٥ / ١٩٢٢؛ ومقاييس اللغة، ابن فارس: ٢ / ٣١٥.

(٢) مستقبلنا المشترك، اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، ترجمة محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة: ٧٠.

(٣) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، منظمة اليونسكو، بيروت ٢٠٠٢: ٢١.

وعرّفت كذلك بأنّها: «تلبية حاجات الأجيال الحالية دون المساس بإمكانية تلبية حاجات الأجيال القادمة»<sup>(١)</sup>.

بالنظر في هذه التعريفات وغيرها، نجدها تشير إلى أمرين أساسيين لتحقيق الاستدامة: الحقّ في التنمية (بكلّ أنواعها).  
عدم المساس باحتياجات الأجيال المستقبلية.

### ثنائية التنمية والاستدامة:

عرّفت التنمية بأنّها: «عملية تعبئة وتنظيم جهود المجتمع وجماعته، وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية بأساليب ديمقراطية لحلّ مشاكل المجتمع ورفع مستوى أبنائه اجتماعياً واقتصادياً وصحياً وثقافياً، ومقابلة احتياجاتهم بالانتفاع الكامل لكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة»<sup>(٢)</sup>. من هذا التعريف وغيره، يتّضح تركيز التنمية على الناتج القومي بزيادة دخل الفرد وبلوغه أقصى درجات الرفاه، وتأمينه لأرفع مستويات النمو والتطور في حياته.

وقد كان مفهوم التنمية يركّز في بداية نشوئه على الجانب الاقتصادي، ورفع مستوى الفرد والمجتمع اقتصادياً، ثم تطور ليشمل إشباع الاحتياجات الأساسية (الغذاء، الصحة، التعليم، العمل... الخ)، ويمكن توضيح ذلك بذكر أهداف التنمية، وأهمها:

(١) الشراكة الاقتصادية وآثارها على التنمية المستدامة، الملتقى الوطني حول البيئة والتنمية المستدامة، المركز الجامعي بالمدينة، ٦-٧ جوان، ٢٠٠٦: ١١.

(٢) محاضرات في تنمية الجماعات المحلية، صلاح العبد، دورة أخصائي التنمية الريفية، لبنان، ٧: ١٩٦٥. وقد سبق ذكر عدة تعريفات للتنمية.

تحسين حياة البشر من خلال رفع إشباع الحاجات الأساسية للفرد وتحقيق ذاته الإنسانية وتحسين فرص العدالة الاقتصادية والاجتماعية وفرص المشاركة في العمليات السياسية.<sup>(١)</sup>

تهدف التنمية إلى إحداث سلسلة من المتغيرات الوظيفية والهيكلية اللازمة لنمو المجتمع، وذلك بزيادة قدرة أفراده على استغلال الطاقة المتاحة إلى أقصى حد ممكن لتحقيق أكبر قدر من الحرية والرفاهية لهؤلاء الأفراد بأسرع من معدل النمو الطبيعي.<sup>(٢)</sup>

تهدف التنمية إلى توسيع فرص الحريات والقدرات الموضوعية للناس في التعليم والصحة والسياسة والاقتصاد وفي البحوث العلمية، وبذا تكون عاملاً فعالاً وسبباً لتوليد تغيير سريع في بناء إنسان جديد يتمتع بالرفاه والحرية معاً.<sup>(٣)</sup>

تهدف التنمية الإسلامية إلى إقامة مجتمع يتمتع بأعلى مستويات المعيشة الطيبة، والتي يصل إليها بزيادة الإنتاج إلى أقصى حد ممكن، أي تحقيق الكفاية لكل إنسان في المجتمع سواء أكان بجهوده الخاصة أم عن طريق ميزانية الزكاة لمن يعجز عن تحقيقه بنفسه، وتحقيق الوفرة الاقتصادية إلى جانب الرفاهية الاجتماعية والسعادة الروحية.<sup>(٤)</sup>

تهدف التنمية إلى تأمين زيادة مستمرة في متوسط دخل الفرد عبر فترة ممتدة من الزمن، وإلى إنشاء التنظيم السياسي الممثل لمصالح القوى صاحبة المصلحة الحقيقية في التنمية، وإلى إيجاد أعداد وفيرة من الكفاءات الإدارية والتنظيمية، وإلى إجراء تغييرات في القيم والعادات وفي بعض التنظيمات والمؤسسات السائدة أو خلق مؤسسات تنظيمات جديدة.<sup>(٥)</sup>

(١) ينظر: التنمية المستدامة، مصطفى يوسف كافي: ١٨-١٩.

(٢) ينظر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، احمد بدوي: ٣٨٤.

(٣) ينظر: أماريتا صن، التنمية حرية، ترجمة شوقي جلال، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٠٣، مايو ٢٠٠٤: ١٠.

(٤) ينظر: استراتيجية وتكتيك التنمية الاقتصادية في الإسلام، يوسف إبراهيم، الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، ١٤٠١هـ: ١٧٨-١٧٩.

(٥) ينظر: التخلف والتنمية، عمرو محي الدين، دار النهضة العربية، بيروت، بلا طبعة، ٢١٠.

تهدف التنمية إلى إزالة جميع المصادر الرئيسة لبقاء التخلف منها الفقر والطغيان، وضعف الفرص الاقتصادية، وكذا الحرمان والقهر الاجتماعي والسياسي<sup>(١)</sup>.

هدف التنمية تهيئة سيطرة الإنسان على بيئته وإمكاناته وطاقاته لبناء حاضره ومستقبله من واقع الشعور بمسؤولية الانتماء الاجتماعي والقدرة على المنافسة في عالم يحكمه منطق الصراع<sup>(٢)</sup>.

ويُلاحظ مما مرّ من هذه الأهداف هو التركيز على تأمين أفضل الخدمات السياسية والاجتماعية والمالية والعمرائية وغيرها وبأسرع وقت للفرد والمجتمع والحرص على الرفاه والسعادة.

وهذا هو من أهم الأسباب التي دعت التنمية بمفردها إلى الفشل، بل خطورة القيام بها؛ لأنها تفتقر لأهمّ قيد وهو (مع الحفاظ على موارد الأجيال اللاحقة)، وهو ما أمّنته (الاستدامة)، أي ما وجد في التنمية من تعريفات وأهداف كلّها مقرونة بالقيد الذي ذكرناه.

فبعد ملاحظة خطورة الاعتماد على الموارد البيئية، وتهديد نفادها من الأجيال القادمة؛ لأنّ الأجيال الحالية حاولت الاستفادة قدر استطاعتها من الموارد البيئية غير مكرثة للأجيال اللاحقة، وكذا بالنسبة للصناعة وما يحدث من تلوث للبيئة، وشحّة للمواد الأولية وغيرها من الموارد الأخرى.

من هنا جاءت هذه الثنائية غير القابلة للانفكاك (التنمية المستدامة)، لتحثّ هذا الجيل على التطور، والإفادة من الثروات، وعلى المستويات كافة، لكن بشرط عدم الإضرار بحاجات الأجيال اللاحقة، وعدم إحداث ذلك النمو على حساب بقائهم.

(١) ينظر: أمارتيا صن، التنمية حرة: ١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٩.

ويمكن بيان أهمية التنمية المستدامة من خلال بيان:

\*- خصائص التنمية المستدامة<sup>(١)</sup>: يمكن ذكر أهم الخصائص وبنحو الإيجاز:

١. العدالة بين الأفراد والمجتمعات.
٢. التوازن في التنمية.
٣. ملاحظة ثروات الأجيال اللاحقة، وعدم الإضرار بها.
٤. عدم الإسراف، أو سوء الاستخدام للثروات والمصادر الطبيعية.
٥. مراعاة البعد البيئي وعدم الإضرار به لأجل الحصول على الرفاه.
٦. المشاركة في التنمية المستدامة بين جميع الأفراد والمجتمعات، فلا يمكن حصول التنمية دون المشاركة.
٧. الترابط الوثيق بين الجانب البيئي والاقتصادي والاجتماعي؛ لأن التنمية المستدامة تهتم بهذه الجوانب كافة.
٨. الشمولية والتكامل، وعدم التفرد بالموارد أو تنميتها.

\*- أهداف التنمية المستدامة<sup>(٢)</sup>:

١. إنهاء الفقر بأشكاله كافة.
٢. إنهاء الجوع وتأمين الغذاء وتحسين التغذية والزراعة.
٣. ضمان حياة صحية وتعزيز مستوى معيشي مناسب لجميع الأعمار.

(١) ينظر: التنمية المستدامة مفهومها أبعادها مؤشراتنا، مدحت بو النصر وياسمين فوزي: ٨٣.

(٢) ينظر: موقع الأمم المتحدة: <https://n9.cl/nbem4> و التنمية المستدامة مفهومها أبعادها مؤشراتنا، مدحت بو النصر وياسمين فوزي: ٨٩.



٤. ضمان جودة تعليم للجميع وتعزيز فرص التعليم المستمر للجميع.
٥. تحقيق المساواة بين الجنسين وتمكين المرأة والفتاة.
٦. ضمان إتاحة خدمات المياه والصرف الصحي للجميع.
٧. ضمان الحصول على طاقة حديثة ونظيفة للجميع.
٨. تعزيز النمو الاقتصادي والتوظيف المنتج لجميع القادرين على العمل.
٩. تحقيق تصنيع مستدام وتبني الإبداع والابتكار.
١٠. تقليل عدم المساواة داخل الدول وبين الدول.
١١. بناء مدن آمنة وإنسانية ومستدامة.
١٢. ضمان استهلاك وإنتاج مستدام.
١٣. اتخاذ أفعال عاجلة لتحسين المناخ.
١٤. المحافظة على الأنهار والبحار والمحيطات والمسطحات المائية والكائنات الحية.
١٥. حماية وتعزيز الاستخدام المستدام للنسق الأيكولوجي والغابات ومحاربة التصحر والمحافظة على التنوع البيولوجي.
١٦. تعزيز السلام الدولي والعدالة للجميع والمساءلة على جميع المستويات.
١٧. تقوية وسائل التنفيذ والشراكة لتحقيق التنمية المستدامة.
١٨. مما مرّ، يتضح ما للتنمية من مائز أساسي بينها وبين التغيير فقط، أو التنمية مفردة دون الاستدامة، وهذا ما عناه المطلب في ضرورة هذه الثنائية التكاملية.

## المطلب الثاني

### مجالات التنمية المستدامة (أبعادها)

تعدّ مجالات أو أبعاد التنمية المستدامة أساس التنمية وغايتها؛ فهذه المجالات تتحقق الأهداف المرجوة منها، وبها تكون غايتها. وقد حددت بثلاثة أبعاد أو مجالات هي: البعد الاقتصادي والبعد الاجتماعي والبعد البيئي، والتي سيبتنى عليه بحثنا بالأساس، ونتخذها مجالاً تطبيقياً لما ورد عن الإمام علي والسيدة الزهراء (عليهما السلام)، مع بيان منطلقات ذلك من الأساس القرآني.

ومما ينبغي الإشارة إليه والتأكيد عليه أنّ الشريعة الإسلامية الغراء حينما تؤكد فعلاً ما وتحثّ عليه فهي تربط أداء ذلك الفعل بالأجر المترتب على إتيانه، لا لأنّ الشارع بحاجة إلى ذلك الفعل، بل لأنّه يؤدي إلى سعادة الإنسان ورخائه وتطوّره واستقراره؛ وهذا ما تنشده الشرائع السماوية. وحينما ينهى عن الإتيان بفعل ما فهو يحذر فاعله ويعده بالعقاب الأخروي، وبعضها وعيد في الدنيا والآخرة، لأنّ فعل ما نهى عنه الشارع يؤدي إلى هلاك الإنسان، وخسارته وعدم حصوله على الرخاء والسعادة والنماء والاستقرار، وهذا من لطف الله بعباده، فإنّه يرغبهم بما ينميهم ويطوّرهم ويُسعدهم، ويحذرهم ويعاقبهم على الإتيان بما يفسد ذلك.

#### الجانب البيئي:

ظهر مفهوم التنمية المستدامة في مؤتمر ستوكهولم في السويد عام (١٩٧٢) الذي نظّمته الأمم المتحدة حول بيئة الإنسان، وكان ذلك توجّهاً عالمياً للاهتمام بالبيئة، وقد سلّط الضوء على القضايا البيئية وارتباطها وانعدام التنمية والفقر.

وفي عام ١٩٨٢ أي بعد عشر سنوات أظهر برنامج الأمم المتحدة للبيئة تقريراً عن الحالة البيئية العالمية، ودعم ذلك بالوثائق، وأشار إلى الخطر المحدق بالبشرية، وقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٧ قراراً هو (المنظور البيئي في سنة ٢٠٠٠ وبعدها) هادفاً إلى تحقيق التنمية الاقتصادية المستدامة بيئياً ثم أصدر كتاباً بعنوان (مستقبلنا المشترك)، إذ بين أن التنمية المستدامة هي اهتمام أخلاقي إنساني، بقدر ما هي قضية تنمية وبيئية.

وتركز التنمية البيئية على علاقة الإنسان بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالجانب البيئي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية، لأن البيئة هي نتائج ثقافة الإنسان ومعرفته بكيفية الاستفادة من الموارد والثروات الطبيعية كالماء، والزراعة، والصناعة غير الضارة والملوثة للبيئة، وما إلى ذلك؛ لذا سوف لن يركز الباحث عليها كثيراً لما ذكرنا من أسباب.

إن في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لما لك الأشتر مصطلحاً لا نجد أدق منه في عصره يدل على التنمية البيئية المستدامة في حاضرتنا وهو (العمارة)، يقول ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «العينُ والميمُ والراءُ أصلان صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى بَقَاءٍ وَامْتِدَادِ زَمَانٍ، وَالْآخَرُ عَلَى شَيْءٍ يَعْلُو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ... وَمِنْ الْبَابِ عِمَارَةُ الْأَرْضِ، يُقَالُ عَمَّرَ النَّاسُ الْأَرْضَ عِمَارَةً، وَهُمْ يَعْمُرُونَهَا، وَهِيَ عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ»<sup>(١)</sup>.

ففي مسألة الخراج مع ما لها من أهمية قصوى في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والقضاء على الفقر والجوع، إلا أنه (عليه السلام) يعطي للبيئة وعمارة الأرض أهمية قصوى فقال: «...ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً...»<sup>(٢)</sup>.

(١) مقاييس اللغة: ٤ / ١٤٠ - ١٤١.

(٢) نهج البلاغة: ٣ / ٩٦.

وفي النصّ أعلاه إشارة واضحة لمفهوم (الاستدامة) بقوله (ﷺ) (ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً)، أي: إنَّك إن طلبت من الناس الخراج والضرائب، سيضطرون إلى استنزاف الموارد والثروات البيئية، ومن ثمّ سيشكل ذلك خطراً على تلك المواد للأجيال اللاحقة إذا لم يُراعَ النظر إلى عمارة الأرض والحفاظ على ما استخرج منها، فإنّ في عدم العمارة ستستحصل الأموال دون أن يُكتب لها الدوام طويلاً، ولا يستمر الرفاه، والاستقرار للأجيال اللاحقة، وهذه هي التنمية المستدامة بأجلى صورها.

ثم يمثل هذه الصورة الواضحة التي تحثّ على التنمية المستدامة ما كتبه (ﷺ) إلى قرظة بن كعب الأنصاري فقال: «أما بعد، فإنّ رجالاً من أهل الذمة من عملك ذكروا نهراً في أرضهم قد عفا وادّفن، وفيه لهم عمارة على المسلمين، فانظر أنت وهم، ثم أعمر وأصلح النهر، فلعمري لأن يعمرُوا أحبّ إلينا من أن يخرجوا، وأن يعجزوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النصّ أسس إنسانية وأخلاقية وتنموية، ورسالة للتعايش مع الآخر، وحثّ للقائمين على إدارة شؤون المواطنين بوجوب متابعة احتياجات الناس، والاهتمام بالتنمية، وأن لا يكون همّهم الضرائب والخراج بقدر إصلاح الأرض، والأنهار، والحفاظ على الثروة المائية والنباتية والحيوانية المترتبة على ذلك. وفي ذلك رسالة بالغة الأهمية لمن هم على رأس الهرم بعدم ترك الإداري الأدنى (الوالي) دون متابعة، وتقصي احتياجات الناس، والاستماع إلى مطالبهم واحتياجاتهم، والدروس في هذا النصّ على صغر حجمه لا تنقضي، وتدخل في كلّ الجوانب التنموية، والحثّ على جعلها مستدامة ومستمرة في كلّ المجتمعات ولكل الناس.

(١) تاريخ يعقوبي يعقوبي: ٢ / ٣٠٢.

وفي مكان آخر، يشير عليه السلام إلى أنّ العناية بالأرض والبهايم «الثروة الحيوانية» فيقول: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبَقَاعِ وَالْبَهَائِمِ»<sup>(١)</sup>، فالإمام عليه السلام يشير إلى مسؤولية كلّ واحد منّا تجاه الأرض وثرواتها، والعناية بالثروة الحيوانية وتنميتها، لأنّها تؤثر في التنمية البيئية والاجتماعية والاقتصادية المستدامة.

وكان عليه السلام يوصي الولاة برعاية الفلاحين والإحسان إليهم، فقد روي: «أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام كَانَ يَكْتُبُ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ: أُنْشِدْكُمْ اللَّهَ فِي فَلَاحِي الْأَرْضِ أَنْ يَظْلَمُوا قَبْلَكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

وقد أشارت السيدة الزهراء إلى الواقع المعيشي المزري قبل الإسلام من حيث المطعم والمشرب والملبس، وانتشار الجهل، هي كلّها من علامات المجتمعات المتخلفة، ثم بيّنت تغيير الحال بإرسال أبيها عليه السلام وما أحدثه من تنمية اقتصادية وبشرية واجتماعية وبيئية، فقالت عليها السلام: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، مَذَقَّةَ الشَّارِبِ وَنَهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقَبْسَةَ الْعَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرِيقَ، وَتَقْتَاتُونَ الْقَدَّ، أَذَلَّةَ خَاسِئِينَ صَاغِرِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَفَكُمْ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقِذْكُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ عليه السلام بَعْدَ اللَّتَايَا وَالتِّي...»<sup>(٣)</sup>.

وقد أكّد القرآن الكريم قبل ذلك أهمية الأرض، وضرورة السعي فيها واستخراج ثمراتها، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك: الآية: ١٥]، وقد أشار إلى أنّ هناك أقواماً قبلكم كانوا أكثر عناية منكم في الأرض، ومحاولة لاستخراج ثمراتها، إلّا أنّ ذلك لم يمنعهم من العذاب، لأنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يؤدوا ما حصلوا عليه حقّه، بل ظلموا وكفروا بأنعم الله. وهذا ما ينبغي أن نلاحظه بصفتنا مسلمين، وهو أن تراعى تلك النعمة، وأن لا يُتعدى فيها حقوق

(١) نهج البلاغة: ٨٠ / ٢.

(٢) قرب الاسناد، الحميري القمي: ١٣٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ٢٥٠ / ١٦.

الآخرين؛ حتى تستمر وتنمو؛ وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية: ٩].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهم قاعدة صحية، تنموية، وتربوية، هي قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية: ٣١]، ولو التزمت الإنسانية، والمجتمعات بهذه القاعدة القرآنية لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وعن أيامهم وشمائلهم دون انقطاع؛ لأن الله أودع في هذه الأرض وما خلقه ما يكفي كل حاجات الإنسان بشرط عدم الإسراف، وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين. وكذلك لم تعاني البشرية مثلما تعانيه الآن من أمراض كلها سببها السمنة والطعام الزائد. وفي ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس الدواء، وعود كل بدن ما اعتاد. لا صحة مع النهم»<sup>(١)</sup>.

### الجانب الاقتصادي:

إن بدء ظهور مفهوم (التنمية المستدامة) كان يتمحور حول الجانب الاقتصادي، ولعلّ السبب في ذلك هو اهتمام العالم آنذاك بهذا الجانب، وقد أرجع الفضل في ظهوره إلى الباحث الباكستاني (محبوب الحق) والباحث الهندي (أمارتيا سن) حينما كانا يعملان في البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، ثم لعب الوزير النرويجي (كرو هارلمبر) دورًا كبيرًا في تحديد ملامح هذا المفهوم.

(١) الدعوات، قطب الدين الراوندي، ٧٧؛ وموسوعة الأحاديث الطبية، الريشهري: ٢ / ٤٠٦.

ثم في عام ١٩٨٧، صدر تقرير الأمم المتحدة المؤكد وجوب قيام التنمية بتلبية الحاجات الأساسية والملحة الحالية، لكن دون الاعتداء أو التفريط بالاحتياجات المستقبلية، وأن توزع الثروات بشكل عادل، وعدم الإضرار بالموارد البيئية والطبيعية، وهذا الشرط يجعل من التنمية مستدامة ومستمرة.

ويمكن بيان أهم محاور التنمية الاقتصادية المستدامة وأهدافها بالآتي<sup>(١)</sup>:

١. تنمية الثروة وتطوير ومصادرهما.
٢. توزيع الثروة ومصادرهما توزيعاً عادلاً ومتكافئاً.
٣. توزيع المنتجات وعوائدها بشكل عادل.
٤. إيجاد معدلات عالية من العمالة، وخفض مستويات البطالة.
٥. الحفاظ على استقرار الأسعار والأجور.
٦. حرية العمل الاقتصادي والمحافظة عليه.
٧. ترشيد لاستهلاك (عدم الإسراف).

ويمكن تحقيق هذه الأهداف وغيرها بسياسات اقتصادية مدروسة ومنظمة وفق الشريعة الإسلامية، فالزكاة، والخمس، والجباية والخراج، والمساواة في العطاء، وعدم التبذير، والحث على العمل، وعدم تكديس رؤوس الأموال عند فئة معينة، ومنع التلاعب في السوق برفع الأسعار أو الاحتكار، ومنع الربا، والغش، والبخس في الميزان، أو الاعتداء على أملاك الآخرين، ونهب الثروات والخيرات... الخ كلها أمور من شأنها تساعد على النمو الاقتصادي المستدام، ويؤدي إلى الرفاه والسعادة، والمساواة بين الناس؛ كل ذلك دون الاعتداء على حق الآخرين من الأجيال اللاحقة، وتأمين تحقيق تلك التنمية لهم.

(١) ينظر: بحوث في الاقتصاد الاسلامي، مرتضى الشيرازي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط ١: ١٠٠.

ونجد أسس ما ذكرناه وغيره في كلمات أمير المؤمنين والسيدة الزهراء (عليهما السلام) منطلقين من كليات قرآنية، نشير إلى بعضها وبما يتسع المقام:

عدم التعدي على حقوق الآخرين والنهي عن تكديس رؤوس الأموال:

تعد مسألة الحفاظ على حقوق الآخرين، وعدم الاعتداء على ملكياتهم هو أساس الاستدامة، وأهم ركائزها لتبقى التنمية مستمرة ولا تنتهي في جيل واحد، فلا يظلم السابق اللاحق.

وكذا مسألة الحث على الزكاة والصدقات، وعدم احتكار الأموال، و تكديسها، وعدم إخراج حقوق الآخرين من تلك الأموال، هي من أسس التنمية المستدامة، وبالاصطلاح الاقتصادي والمالي المعاصر تسمى (الضرائب)، فبتلك النسب التي تؤخذ من المال يتم الصرف على الفئات الأخرى، أو القائمين على خدمات أخرى كالجيش، والحرس والصحة، أو على الفقراء والمعوزين... الخ.

ونجد هذا الجانب مما أكدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) في كثير من كلماته منها:

قوله (عليه السلام): «وإنّ لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً، وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة، وإنّا موفّوك حَقَّك فوفهم حقوقهم، وإلّا تفعل فإنّك من أكثر الناس خصوصاً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل...»<sup>(١)</sup>.

ففي هذا النصّ الرائع يصف الأمير (عليه السلام) الصدقة في المال بأنّها حقّ، لا منّة فيها من قبل المتصدّق، ويعطي مورد صرف تلك الحقوق، وأنّها تعطى للفقراء والذين لا يستطيعون العمل لأسباب صحيّة أو التقدم في السنّة، أو غير ذلك، ثم يربط الامتناع عن إخراج الحقّ بما يتبعه من العذاب والخسار يوم القيامة.

(١) نهج البلاغة: ٣: ٢٦-٢٧.



وفي نص آخر يرسم أمير المؤمنين (عليه السلام) لوحة إنسانية لم نجد لها مثيلاً، ويثبت خارطة لآلية تعامل الوالي مع الناس في غاية الرفق والإحسان فيقول: «انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدمج بالتحية لهم ثم تقول: عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل لا، فلا تراجع، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة. فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءن صاحبها فيها...»<sup>(١)</sup>.

وفي ذلك نذكر قولته (عليه السلام) المشهورة التي جرى جزء منها مجرى المثل: «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه النص المبارك قواعد وتعليقات عدة منها:

إن المال الذي يحصل الإنسان الغني في الإسلام لا يملكه كله، بل هناك حق لله فيه يجب أن يُسلم ذلك إلى من يستحقه من الفقراء، لأن ذلك يمنع تكدس الأموال بيد طبقة ما، وحرمان أخرى غير قادرة على الكسب؛ وبهذا يمنع الطبقة، ويؤدي إلى استدامة الرخاء والسعة على جميع الناس، وهذا من أكبر أهداف التنمية المستدامة.

(١) نهج البلاغة: ٣ / ٢٤-٢٥.

(٢) نهج البلاغة: ٤ / ٧٨.

إنّ المجتمعات التي تعاني من عدم التنمية، والفقر في كثير من أفرادها، مع وجود طبقة مخملية غنية فاحشة الثراء؛ هذا سببه عدم العدالة في توزيع الثروات، وعدم إخراج الحقوق من أموال الأغنياء، فيكون النماء والازدياد في الأموال والراحة لطبقة فقط لا لكل المجتمع، وهذا من أكبر معوقات التنمية المستدامة.

كما دأب أهل القانون على إصدار بعض العقوبات بحق المخالفين الممتنعين عن دفع الضرائب، لأنّها تضرّ بتنمية المجتمعات واستقرار السوق، والإنفاق على الطبقات الأخرى، فإنّ الشارع المقدس قد جعل أقسى العقوبات في الدنيا والآخرة على الممتنعين من إخراج تلك الحقوق.

وفي نصّ آخر لأمر المؤمنين، يذكر فيه أهمّ أسس التنمية المستدامة في المجال الاقتصادي يمكن الاستفادة منه بنقاط:

يوصي ﷺ بالاعتناء بأصحاب التجارة والصناعة خيراً، وأنّهم مسالمون، وينفعون البلاد فيقول: «ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً؛ المقيم منهم، والمضطرب بهاله، والمترفق ببدنه؛ فإنّهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلاها من المباعد والمطارح، في برّك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها. فإنّهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك»<sup>(١)</sup>.

يُلَمِّح ﷺ إلى أنّ هؤلاء التجار والصناع ليسوا كلّهم على خير؛ فمنهم من لم يدفع الحقوق في ماله لبخله، ويحتكرون المواد ليتحكموا في السوق، ويرفعون الأسعار لجشعهم؛ وهذا مما يُسبب الضرر بالمجتمع ويربك السوق، فيقول ﷺ: «واعلم مع ذلك أنّ في كثير

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٩٩ / ١٠٠.

منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله ﷺ منع منه»<sup>(١)</sup>.

ثم يبين عليه السلام بأي شكل يجب أن يكون البيع، والتعامل الاقتصادي والحفاظ على السوق والسيطرة على الأموال، ثم يبين عليه السلام كيفية التعامل مع غير الملتزمين، وبالرعاية للمساكين والمحتاجين فيقول عليه السلام: «وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل وأسعار لا تحجف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقب في غير إسراف. ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتزلاً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيه»<sup>(٢)</sup>.

أما في كلمات السيدة الزهراء عليها السلام، نجد لها قد أشارت بصريحة العبارة إلى أثر الزكاة في التنمية فقالت: «والزكاة: تزكية للنفس، ونماء في الرزق...»<sup>(٣)</sup>.

وقد شرحت عليه السلام وضع العرب الاقتصادي وكيفية معيشتهم وتدهور أوضاعهم الاقتصادية، وأنهم كانوا يأكلون ممّا تأكله البهائم، وأقل الناس شأنًا، لجهلهم وظلم بعضهم بعضًا، وأكل حقوق الآخرين... الخ، ثم بينت الانتقال من بعد ذلك الحال وحدوث التنمية والاستقرار ورفاهة العيش فقالت عليه السلام: كنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام تشربون الطرق تقتاتون القدّ أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر نفسه: ٣/ ١٠٠

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٠٠.

(٣) الاحتجاج، الطبرسي، ١/ ١٤٤.

(٤) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣٦؛ وينظر: بحار الأنوار، المجلسي: ٢٩/ ٢٦١.

ثم بيّنت موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) في الثبات مع رسول الله ونزاله في الحروب لأجل إنقاذهم من ذلك الواقع المزري، وتحقيق العدل والتنمية والرفاه لكل المجتمع فقالت (عليه السلام): «وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاعرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفى حتى يطأ جناحها بأخمصه، ويحمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً، كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال»<sup>(١)</sup>. وهنا إشارة إلى ما كان يتمتع به طبقة منهم من العيش الهانئ والرغيد على حساب فقر الآخرين وحاجتهم؛ فجاء الإسلام ليقضي على هذه الطبقة، ويكون هناك توزيع عادل للثروات والأموال لاستدامة التوازن المالي والاقتصادي ومنع تكسب الأموال بيد فئة محددة.

وقد صرّحت (عليه السلام) بأحد موانع التنمية واستدامتها وهو (الظلم والاستبداد) فقالت (عليه السلام)، حينما حذرهم مما سيأتي عليهم بسبب حرمانها حقها، تركهم أمير المؤمنين (عليه السلام): «... واستبداد من الظالمين: يدع فيئكم زهيداً...»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية نورانية تحث على الإنفاق وتذمّ البخل، فقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا قال: حدثني موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن جده، عن أبيه الحسين، عن أمه فاطمة (عليها السلام)، قالت: قال لي أبي رسول الله (ﷺ): (إياك والبخل، فإنّه عاهة لا تكون في كريم، إياك والبخل فإنّه شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخله النار، والسقاء شجرة في الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخله الجنة...»<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٤٩.

(٣) دلائل الإمامة، الطبري: ٧٠ - ٧١.

وهذا المعنى قد أشار إليه القرآن الكريم في كثير من المواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [سورة التوبة: الآيتان: ٣٤، ٣٥].

وهذا تنبيه منه سبحانه للناس مما يقوم به كثير من الرهبان والأحبار من اعتداء على حقوق الآخرين وثرواتهم بالباطل، ومن اكتنازهم للذهب والفضة. وذلك تحذير لهؤلاء من أن أفعالهم هذه سيعذبون عليها؛ لأنها تنافي الغرض الإلهي من بسط العدل بين الناس والعيش بسعادة وهناء.

وكذا قوله تعالى في النهي عن البخل: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية: ١٨٠].

### الجانب الاجتماعي:

عُرِفَت التنمية الاجتماعية بأنها: «عملية تعبئة وتنظيم جهود أفراد المجتمع وجماعاته وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية بأساليب ديمقراطية لحلّ مشاكل المجتمع ورفع مستوى أبنائه اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ومقابلاً احتياجاتهم بالانتفاع الكامل لكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة»<sup>(١)</sup>.

(١) معجم مصطلحات العلوم والاجتماعية، احمد بدوي، مكتبة لبنان، ناشرون، ط ٢، ١٩٧٨ م: ٧٤.

وعرّفت بأنّها: «السعي الدائم لتطوير نوعية الحياة الإنسانية مع الوضع في الاعتبار قدرات النظام البيئي»<sup>(١)</sup>.

إنّ تحقيق التنمية الاجتماعية المستدامة في المجتمعات يكون عن طريق توفير الغذاء، والرعاية الصحية، وإيجاد فرص العمل، والقضاء على الفقر، والجهل، وتساوي فرص التعليم ونشر العلم، ونشر ثقافة التكافل الاجتماعي، والسلم الأهلي... الخ.

ويقوم بتحقيق هذه اللوازم والمحاور أطراف عدّة بتكامل وعيها، ومعرفة مسؤوليتها، وهم:

الفرد: إنّ التنمية المستدامة قائمة على الفرد، وهادفة إلى سعادته، وتطوره، وإيجاد أفضل أشكال العيش المستمر له- بنوعه طبعاً لا بشخصه- فالمحور في التنمية المستدامة هو الإنسان، ومتى ما عرف مسؤوليته، وواجباته، وحقوقه، وراعى مصالح الآخرين، ولم يعتد على حقّ أحد، وساهم في التعليم والتعلم، ولم يكن جاهلاً، وكان مثابراً على طلب العلم والعمل، يصلح بذلك المجتمع وتحقق التنمية المستدامة.

الأسرة: إنّ للأسرة كبير الأثر في صقل شخصية الطفل، وزيادة وعي بعضهم البعض، ومتى حرصت على بيتها، ومحيطها، وحسّنت تربية أفرادها، وحرصت على تعليم الأبناء، كان لذلك التأثير الكبير في المجتمع وتنميته.

المجتمع: إنّ المجتمع هو حصيلة الفرد والأسرة، وهو نتاج لهما، فبمعرفة المجتمع ووعيه وتكامله تسود العدالة، والمساواة المجتمعية، ويحرص بوعيه وثقافته على الحفاظ على حقوق الأجيال اللاحقة. وهناك مهامّ تنموية، ونشاطات إنسانية لا يستطيع أن يقوم بها

(١) التنمية المتواصلة قراءة في السكان و الاستهلاك والبيئة، الجمعية المصرية للنشر والمعرفة، القاهرة،

سوى المجتمع بأكمله، لأنّ بعض النشاطات الفردية أو الأسرية لا تكفي لحصول النتيجة المرجوة، كالاشتراك ببعض المؤسسات الخيرية والتكافلية، أو الاحتجاجات السلمية لتغيير الواقع السيء... الخ.

### مقومات التنمية المجتمعية:

وسنورد باختصار بعضاً من أهم المقومات التي بها تنهض التنمية الاجتماعية:

#### أولاً: التعليم:

تنص الأمم المتحدة على أنّ «تحقيق التعليم الجيد والشامل للجميع يؤكد القناعة بأنّ التعليم هو أحد أكثر الوسائل قوة وثباتاً لتحقيق التنمية المستدامة. ويكفل هذا الهدف أن يكمل جميع البنات والبنين التعليم الابتدائي والثانوي المجاني بحلول عام ٢٠٣٠. كما يهدف إلى توفير فرص متساوية للحصول على التدريب المهني وتكون في متناول الجميع، والقضاء على الفوارق في إتاحة التعليم بسبب الجنس أو الثروة، وتحقيق حصول الجميع على تعليم عالي الجودة»<sup>(١)</sup>.

وتعدّ قضية التعليم من أهم القضايا التي ركّز عليها أمير المؤمنين والسيدة الزهراء (عليهما السلام)، فمن ذلك قوله (عليه السلام): «يا كميل بن زياد، إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك.

الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا عاتق كل ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الانفاق، وصنيع المال يزول بزواله. يا كميل بن زياد، معرفة العلم دين يُدان به، به يكسب الإنسان

(١) <https://2u.pw/ZNhmZgT1>

الطاعة في حياته، وجميل الأحداث بعد وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه. يا كميل بن زياد، هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها إن هاهنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حملة»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النصّ الجليل بالغ الأهمية، قسّم الأمير (عليه السلام) الناس على ثلاثة أصناف: الأول هو العالم، والثاني من هو في طريق العلم، والثالث هو الجاهل، وقد ذمّ الأخير، ووصفهم بأنهم في ظلمة لم يستضيئوا بنور العلم.

ثم أعطى أهمية ومكانة للعلم لم يحظَ بها في كلّ النظريات، والنصوص، والتشريعات غير الإسلامية، ولم يعط دافع للتعليم كما هذا النصّ الأساس، وهو قوله (عليه السلام): (معرفة العلم دين يداّن به)، فجعل العلم ومعرفة العلم والسير في طريقه دين يجب أن يداّن به، وإن من يكون في طريق العلم هو في طريق الطاعة.

وقد أكد من قبل هذا رسول الله ﷺ بقوله: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، ألا أنّ الله يحبّ بغاة العلم»<sup>(٢)</sup>.

ومثل ذلك ما أكّده أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: «أيّها الناس اعلّموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال. إنّ المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم وضمنه، وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله، وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه»<sup>(٣)</sup>.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٨ / ٣٤٢؛ والأُمالي، الطوسي: ٢٠.

(٢) الكافي، الكليني: ١ / ٣٠.

(٣) المصدر نفسه.



ومثله ما روي عن الزهراء عليها السلام إذ «امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك. فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، ثم ثنت، فأجابت، ثم ثلث [فأجابت] إلى أن عثرت فأجابت، ثم خجلت من الكثرة، فقالت: لا أشق عليك يا بنت رسول الله. قالت فاطمة عليها السلام: هاتي وسلي عما بدالك، أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقل، وكرأوه مائة ألف دينار، أيثقل عليه؟ فقالت: لا. فقالت: اكترت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى أن لا يثقل علي. سمعت أبي رسول الله ﷺ يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم، وجدّهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور»<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الرواية إفادات عديدة نذكر منها:

١. إن السائل يجب أن يقصد العالم حقاً للإجابة عن أسئلته، لا أن يذهب إلى كل متصدٍّ وهو مدعٍ له وليس من أهله؛ لذلك ذهبت السائلة إلى الزهراء عليها السلام لا غيرها.
٢. على السائل أن يراعي جانب الأدب والتوقير للعالم؛ لذلك حينما أحست السائل بثقل ما أقدمت عليه تجاه الزهراء عليها السلام أحجمت واعتذرت عن كثرة الأسئلة.
٣. على المتصدّي للإجابة عن السؤال أن يكون على قدر المسؤولية والعلم، لا أن يكون محدود العلم غير قادر على الإجابة؛ وهذا نلمسه من إجابة الزهراء عليها السلام لعشرة أسئلة ولم تتوقف عن إجابة سؤال ما.
٤. إن المتصدّي للإجابة عن أسئلة الناس والفتيا في دينهم ودنياهم يجب أن لا يكلّ ولا يملّ من كثرة الأسئلة ما دام المقابل طالباً للحقيقة غير معاند أو ممارٍ؛ لذا قال أمير

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٣٤٠.

المؤمنين (عليه السلام): «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»<sup>(١)</sup>.

وما ذكرناه من كلمات نورانية لها منطلقات وأسس قرآنية قد حثت على العلم وتفضيل العلماء. ولعلّ ذلك يبدأ منذ خلق آدم (عليه السلام) حينما تساءل الملائكة عن سبب خلق من يفسد في الأرض، فأراد الله تعالى أن يبين لهم أنّ هذا المخلوق بإمكانه أن يكون أعلى منهم؛ بسبب ما يملكه من العلم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠ - ٣٣].

وكذلك يشير القرآن الكريم إلى أهمية العلم والتعلم بنزول أول آية من القرآن الكريم؛ ليشير لنا أنّ هذه الرسالة لا تفهم، أو يتم السير عليها إلا بالعلم والمعرفة، فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآيات: ١ - ٥].

وقد ذمّ الجاهل في غير موضع منه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية: ٦٣]، فالجاهل أفضل ما يمكن أن تقول له (سلاماً) لأنّه سوف لن يفهم حديثك، ومغزى كلامك.

(١) نهج البلاغة: ١٦/٤.

وغيرها من الآيات الكريمة، والكلمات الشريفة عن الأمير والزهاء عليهما السلام الحاتّة على طلب العلم والتعلم، وهما كما أشرنا في البدء من مقومات التنمية الاجتماعية المستدامة التي تنشدها القوانين والتشريعات والمنظمات الانسانية العالمية.

### ثانياً: العمل والقضاء على الفقر والجوع

لقد فصلت الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية المختصة بالتنمية الاجتماعية المستدامة بين العمل وبين القضاء على الفقر وبين القضاء على الجوع، إلّا أنّنا جمعناهم في عنوان واحد، لأنّ العمل والحثّ عليه يؤدّيان إلى القضاء على الفقر، وبارتفاع الأخير ينتفي الجوع، فضلاً عن ذلك طبيعة البحث المقتضية الاختصار قدر الإمكان دون الإخلال بعموم مقومات التنمية.

يشكّل تشجيع ريادة الأعمال وخلق فرص العمل، واتخاذ التدابير الفعالة للقضاء على العمل الجبري والرقّ والاتجار بالبشر عوامل حاسمة الأهمية في سبيل تحقيق الهدف العام الساعي إلى تحقيق العمالة الكاملة والمنتجة والعمل اللائق لجميع النساء. تهدف أهداف التنمية المستدامة إلى إنهاء جميع أشكال الجوع وسوء التغذية، والتأكد من حصول جميع الناس -وخاصة الأطفال- على الأغذية الكافية والمغذية على مدار السنة.

ما يزال القضاء على الفقر بجميع أشكاله أحد أكبر التحديات التي تواجه البشرية. وتمثل أهداف التنمية المستدامة التزاماً جريئاً بإنهاء المسيرة التي بدأها العالم مع مطلع الألفية الثالثة لإنهاء الفقر بجميع أشكاله وأبعاده بحلول عام ٢٠٣٠. ويشمل هذا الجهد استهداف الفئات الأكثر ضعفاً، وزيادة فرص الوصول إلى الموارد والخدمات الأساسية، ودعم المجتمعات المحلية المتضررة من النزاعات<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: <https://2u.pw/ix4wsGV>

وقد أكد النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لا سيما أمير المؤمنين والسيد الزهراء عليهم السلام أهمية العمل، وضرورة الإنفاق على العيال، والتصدق على الفقراء والمساكين، والقضاء على الفقر والجوع، ومن ذلك:

قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الشاخص في طلب الرزق الحلال كالمجاهد في سبيل الله»<sup>(١)</sup>، أي: إن الذي يخرج لأجل العمل، لأجل الإنفاق على أهله، وكان طلبه لذلك الرزق من حلال، فينال التعب والجهد، فهذا عمله كالمجاهد في سبيل الله.

وهذا دليل على الحث والتشجيع على العمل، وليبيان مكانة العامل، وشرف العمل، وفضل طلب الرزق من الحلال.

ومثله قوله عليه السلام: «ما غدوة أحدكم في سبيل الله بأعظم من غدوته يطلب لولده وعياله ما يصلحهم»<sup>(٢)</sup>.

ويحذّر عليه السلام من الكسل والبطالة فيقول: «هيهات من نيل السعادة السكون إلى الهوينا والبطالة»<sup>(٣)</sup>.

ولقد كانت الزهراء عليها السلام من عظم قدرها، وجليل خطرها تعمل أعمال البيت بيدها، غير متكئة على خادمة، وهي سيرة عملية شريفة، فقد روي عن «أبي جعفر عليه السلام» قال: إن فاطمة عليها السلام ضمنت لعلي عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقم البيت، وضمن لها علي عليه السلام ما كان خلف الباب من نقل الحطب وأن يجيء بالطعام...»<sup>(٤)</sup>.

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي (ت: ٣٦٦هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف- القاهرة، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣: ٢ / ١٥؛ وينظر: بحار الأنوار، المجلسي: ١٠٠ / ١٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس)، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، ط: ١٢: ٥١٢؛ وميزان الحكمة، الريشهري: ٢ / ١٣٠٣.

(٤) تفسير العياشي، العياشي، ١ / ١٧١.

وروي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال لرجل من بني سعد: «ألا أحدثك عني وعن فاطمة الزهراء أنها كانت عندي فاستقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها فأصابها من ذلك ضرر شديد...»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الحديث دلالة على أمور مهمة منها: أن أمير المؤمنين (عليه السلام) يبدأ بالحديث عن كيفية إدارة أعمال البيت ليعين للناس مهام كل من الرجل والمرأة، وأنه لا ينبغي لأحد الجلوس، ومنها ما كانت تقوم به الزهراء (عليها السلام) من أمور المنزل المتعبة مع جلاله قدرها وعظيم مكانها، لأنها هي القدوة لنساء المسلمين فيقتدين بها.

وفي قوله (عليه السلام): «المسلم أخو المسلم، وحق المسلم على أخيه المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه ولا يروى ويعطش أخوه ولا يكسى ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم! وقال: أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، وإذا احتجت فسله، وإن سألك فأعطه لا يمله خيراً...»<sup>(٢)</sup>، يضع أمير المؤمنين قواعد في الأخلاق، والتربية الإسلامية، والتكافل الاجتماعي، والقضاء على الفقر والجوع بهذا النص المختصر، ليكون من أعظم النصوص التي بها تتحقق التنمية الاجتماعية المستدامة.

إن من أعظم القواعد الإنسانية التي اعتمدها العالم هي القاعدة التي وضعها أمير المؤمنين (عليه السلام) في التعامل مع الآخرين، ويلمح منها عدم التمييز بين الناس على أساس الدين أو اللون أو العرق، والإشارة إلى التعاون والتعاقد بين الناس بقوله (عليه السلام): «أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»<sup>(٣)</sup>.

(١) من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ١ / ٣٢٠.

(٢) الاختصاص، المفيد: ٢٧.

(٣) نهج البلاغة: ٣ / ٨٤.

وقد طبقت السيد الزهراء في حياتها أرقى صور التكافل الاجتماعي، والحث على المساعدة وإنفاق المال، حتى أنها روي أنها عليها السلام «تصدقت بما لها على بني هاشم وبني عبد المطلب وأنّ علياً عليه السلام تصدّق عليهم وأدخل معهم غيرهم».

وقضية تصدقهم عليها السلام يشهد لها القريب والبعيد، وقد صرح بها القرآن الكريم في غير موضع منه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآيتان: ٨-٩]، إذ بقوا جوعاً لثلاثة أيام.

وكذا ما ورد في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام حينما تصدق بالخاتم في الصلاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية: ٥٥]

وقد حثّ القرآن الكريم في غير موضع على العمل وذمّ الكسل، وأمر بالإنفاق، والتصدّق على الفقراء، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية: ١٠] من أجل صور التنمية البشرية المستدامة، والمشيعة على العمل، والتي تصرّح بأنّ الله مكّن الإنسان، في الأرض، وجعل له القدرة على استثمار مصادرها وثرواتها، وأنّ لهم فيها معاش، وأرزاقاً شتى، وهذا يدخل كذلك في الجانب البيئي، والإفادة من موارد الأرض ومصادرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية: ٢٤٥]، ومسألة الإقراض التي أشار إليها القرآن الكريم من أهمّ مسائل التكافل الاجتماعي، والتي تساعد المقرض ولا تؤذي المقرض منه؛ ويجب على المقرض أن يراعي المقرض منه ولا يهمله. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك: «واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك...»<sup>(١)</sup>؛ لأنّ إهمال التسديد سوف يمنع الخير، ولا يساعد المقرض المعسر.

## الخاتمة

لقد ضمّ التراث الروائي الوارد عن أمير المؤمنين والسيد الزهراء عليهما السلام حث كبير على مراعاة الجوانب التنموية سواء ما كان منها ببعدها البيئي، أو الاجتماعي أو الاقتصادي، والإفادة مما وهبه الله للإنسان من ثروات طبيعية، وطاقات بشرية، دون التعدي على حقوق الآخرين، أو الإسراف في استعمال تلك الثروات؛ لتحقيق الاستدامة بأجل صورها في أحاديثهم عليهما السلام.

ووجدنا أن ما أشارت إليه لجان الأمم المتحدة، والمنظمات المهتمة بجوانب التنمية والبيئة، لها أسس في كلام الأمير والزهراء عليهما السلام، منطلقين في ذلك مما أسسه القرآن الكريم؛ فكانت مقارنة بين التشريعات والقوانين الوضعية، وبين كلام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء عليهما السلام والقرآن الكريم من جهة أخرى؛ لنؤكد شمولية القرآن الكريم وديمومته، وعدم افتراقه عن العترة الطاهرة.

## المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم ونهج البلاغة

١. الاحتجاج، الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت: ٥٤٨هـ)، تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان منشورات النعمان، النجف الأشرف، حسن الشيخ إبراهيم الكتبي، بلا طبعة، ١٩٦٦م.
٢. الاختصاص، المفيد، أبي عبد الله محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، السيد محمود الزرندي، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٣. الاستراتيجية وتكتيك التنمية الاقتصادية في الإسلام، يوسف إبراهيم، الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، ١٤٠١هـ.
٤. الأمالي، الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، ط ١، ١٤١٤هـ.
٥. بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
٦. بحوث في الاقتصاد الإسلامي، مرتضى الشيرازي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط ١.
٧. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، منظمة اليونسكو، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢.
٨. تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت: ٢٨٤هـ)، مؤسسة فرهنك أهل البيت (عليه السلام)، دار صادر بيروت، بلا طبعة.
٩. تخلف والتنمية، عمرو محي الدين، دار النهضة العربية، بيروت، بلا طبعة.
١٠. تفسير الإمام العسكري (عليه السلام)، المنسوب للإمام الحسن العسكري (ت: ٢٦٠هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، ط ١، ١٤٠٩هـ.



١١. تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، محسن (ت: ١٠٩١ هـ) تحقيق: حسين الأعلمي، منشورات الصدر، طهران - إيران، ط: ٢، ١٤١٥ هـ.
١٢. تفسير العياشي، العياشي، أبو النصر محمد بن مسعود (ت: ٣٢٠ هـ)، تصحيح وتعليق: هاشم رسولي المحلاقي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط: ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
١٣. التنمية المتواصلة - قراءة في السكان والاستهلاك والبيئة، الجمعية المصرية للنشر والمعرفة، القاهرة، ١٩٩٤.
١٤. تنمية المجتمع وتنظيمه، عبد المنعم شوقي، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ط ٢، ١٩٦١ م.
١٥. التنمية المستدامة - مفاهيمها، أبعادها، مؤشرات، مدحت بو النصر وياسمين فوزي، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧ م.
١٦. التنمية المستدامة، مصطفى يوسف كافي، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط ١، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٧ م.
١٧. التنمية حرة، أمارتيا صن، ترجمة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ٢٠٠٤.
١٨. التنمية في دول مجلس التعاون، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٠٣، شوال ١٤٠٦ هـ تموز ١٩٨٦ م.
١٩. تهذيب اللغة، الأزهرى، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي (ت: ٣٧٠ هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.
٢٠. دراسات في التنمية الاجتماعية، عبد الهادي الجوهري وآخرون، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٢.

٢١. دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي ت: ٣٦٣هـ، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف - القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
٢٢. الدعوات، قطب الدين الراوندي، أبو الحسين سعيد بن هبة الله (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، قم، ط ١، ١٤٠٧هـ.
٢٣. دلائل الإمامة، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم (ت: ٤١١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، ط ١، ١٤١٣هـ.
٢٤. الشراكة الاقتصادية وآثارها على التنمية المستدامة، الملتقى الوطني حول البيئة والتنمية المستدامة، المركز الجامعي بالمدينة، ٦-٧ جوان، ٢٠٠٦م.
٢٥. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط ١، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
٢٦. الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٧. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي من أعلام القرن السادس، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، ط ١.
٢٨. قرب الإسناد، الحميري القمي، أبو العباس عبد الله بن جعفر (ت: ٣٠٠هـ)، مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث، قم، ط ١، ١٤١٣هـ.
٢٩. الكافي، الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ)، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٣٠. كتاب العين، الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال.

٣١. محاضرات في تنمية الجماعات المحلية، صلاح العبد، دورة أخصائي التنمية الريفية، لبنان، ١٩٦٥م.
٣٢. مستقبلنا المشترك، اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، ترجمة محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة.
٣٣. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد بدوي، مكتبة لبنان، ناشرون، ط٢، ١٩٧٨م.
٣٤. مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٥. من لا يحضره الفقيه، الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، ط٢.
٣٦. موسوعة الأحاديث الطبية، الريشهري، محمد، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث، قم، ط١، ١٤٢٥هـ - ١٣٨٣ش.
٣٧. ميزان الحكمة، الريشهري، محمد، تحقيق: دار الحديث، قم، ط١، ١٤١٦هـ.

#### المواقع الإلكترونية:

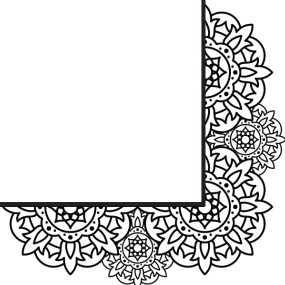
38. <https://2u.pw/ZNhmZgT1>
39. <https://n9.cl/nbem4> موقع الأمم المتحدة
40. <https://2u.pw/ix4wsGV>



**بناء المجتمع الإسلامي وفق منظور حدائوي**  
**دراسة مقارنة بين عهد الإمام علي (عليه السلام)**  
**للسحابي مالك الأشتر (رضي الله عنه) وهرم ماسلو**

الباحثة

م.د. سحر ناجي فاضل عباس المشهدي



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله المتجلي لخلق بهائه، والصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وخاتمهم المهدي المنتظر الموعود ﷺ، ومن أعدائهم نبراً إلى قيام الدين، وبعد:

لقد واجهت المجتمع الإسلامي تحديات وعقبات كثيرة، ومن بينها: الجهل والإلحاد والتخلف، فتطلب منه أن تتولى قيادته قيادة ميدانية لتحقيق قيم الأهداف المنشودة التي رسمها الإسلام والتي تمثلت برسائل الأنبياء والأوصياء وخاتمهم نبينا الكريم ﷺ، ومن بعده آل محمد ﷺ، لإيصالهم إلى بر الأمان؛ فمثّلوا التهذيب الإنساني الأسمى والذي أنتج بدوره نظاماً تربوياً متكاملًا.

لقد أقام الإسلام مجتمعه على وفق أسس ومرتكزات صلبة وقوية تتصدى لكل محاولات هدمها. فديننا الإسلامي اختتم الأديان السابقة، ومنذ هبوط نبي الله آدم ﷺ إلى الأرض سعى إلى تكوين نظام إجتماعي إنساني، فمرّ بأطوار عمره المختلفة من طفولته إلى أن بلغ أشده متحملاً أعباء المسؤولية التي أنيطت به من استخلاف، وهي مسؤولية كبيرة اعتماداً على تشريعات سماوية إلهية تمثلت في شريعة الله التي أنزلت على الأنبياء عامتهم، ابتداءً من سيدنا آدم ﷺ وحتى خاتمهم نبينا محمد، ومن بعده آل محمد. وبنشوء الاستخلاف، أوجد المجتمع (الإنسان والأرض والعلاقة بينهما).

وعلينا أولاً التعريف بالمجتمع، وهو لفظ مشتق من (الجمع)، وهم الجماعة من الناس تطلق على الكثير والقليل، ففي «الجيم والميم والعين أصل واحد، يدلُّ على تضام الشيء». يقال جمعتُ الشيء جمعاً<sup>(١)</sup>.

والجمع أيضاً ضمُّ الشيء بتقريب أجزائه مع بعضها<sup>(٢)</sup>، ويطلق على تأليف الشيء المتفرق<sup>(٣)</sup>، وجمع الناس شهدوا الجمعة والصلاة. ومنه اشتق (علم الاجتماع)، ويختصُّ بأنه يبحث في نمو نشوء التجمعات الإنسانية وقوانينها ويقال رجل اجتماعي، لكثرة مخالطته للناس وما تجمع هو ما انضمَّ بعضه إلى بعض، واجتمع القوم تجمعوا، وجاء القوم جميعاً أي مجتمعي<sup>(٤)</sup>.

ولم يشر التعريف اللغوي إلى أية علاقة بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض أو يبين تلك العلاقة، إلا أن الأصل اللاتيني أشار إلى تلك العلاقة فلفظ (society) يعني جماعة بينهم شركة ومصلحة مشتركة<sup>(٥)</sup>، واشتقاقها من أصل لاتيني مكون من مقطعين (socius) ومعناه رفيق ومشتق من أصلين لاتينيين هما (con \_ pains)، ومعناها الأكل معاً أو المؤكلة. يسمى العلم الذي يُعنى بدراسة المجتمع بعلم الاجتماع<sup>(٦)</sup>، وهو لفظ يطلق على جماعة من الأفراد تؤلف بينهم روابط واحدة تثبتها المؤسسات والروابط الاجتماعية ويكفلها القانون والرأي العام فلا يستطيع أحد مخالفتها والانحراف عنها<sup>(٧)</sup>.

(١) مقاييس اللغة: ١ / ٤٧٩.

(٢) ظ: المفردات: ١٢٦.

(٣) ظ: المثلث: ٨٩.

(٤) ظ: المعجم الوسيط: ١٣٥.

(٥) ظ: المعجم الفلسفي: ٢٠٧.

(٦) ظ: الإسلام يقود الحياة: ٩٠.

(٧) ظ: المجتمع الإنساني: ٨٩-٩٧.

وموضع الاجتماع بين الناس كاجتماعهم في الأسرة والقراة والقبيلة والمدينة المعمورة، إشارة إلى وحدة المكان الذي ينتمون إليه. وهذا التعريف - في نظر أهل الاجتماع - نمط يتكون من أعراف متنوعة وإجراءات مرسومة، وسلطة ومعونة متعارفة في كثير من المجتمعات والأقسام<sup>(١)</sup>.

وقال بعض من علماء الاجتماع: مجموعة من الأفراد يعيشون في منطقة متصلة الأجزاء ويشتركون في تقاليد ونظم معيشية، ولهم أهداف ومصالح مشتركة فيتلونون بألوان مختلفة من التفكير والسلوك<sup>(٢)</sup>.

والمجتمع الإسلامي الملتزم بالتعاليم الإسلامية يلتزم بأوامر الله تعالى ونواهيه، فرى قواعده تسير في وفق منظور القرآن والسنة النبوية: «إذا كانت قواعده غربية النزعة كان المجتمع غربي الملامح غربي التفكير؛ وكذلك إذا كانت القواعد شرقية المأخذ كان المجتمع شرقي الصفات شرقي العقلية. وهكذا يتأثر كل مجتمع بالقواعد التي يؤسس عليها بناءه، ومصادر تكوينه»<sup>(٣)</sup>.

وعرفه الشهيد الأوّل محمد باقر الصدر رحمه الله بأنه: «الوجود المجموعي للناس باعتبار ما بينهم من علاقات وصلات قائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابلات»<sup>(٤)</sup>، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بلفظ (الأمة).

وعرف أيضاً بأنه مجموعة من الناس تعيش على بقعة جغرافية محددة، وتتبنى رؤى مشتركة للذات والحياة والكون<sup>(٥)</sup>.

(١) ظ: المصدر نفسه.

(٢) ظ: النظرية الاجتماعية الإسلامية: ١٩ و ظ: مبادئ علم الاجتماع: ٢٧٧.

(٣) قواعد البناء في المجتمع الإسلامي: ٧.

(٤) ظ: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم: ٢٧٧.

(٥) ظ: دور التوحيد في بناء الحضارات والمجتمعات: ٢٣.

ومن ناحية علم النفس، فقد مرّ المجتمع البشري في مسيرته التاريخية بثلاث مراحل (مرحلة الحضانة التي اختصت بسيدنا آدم وزوجه حواء فقط، فكانت اللجنة الحاضنة لهما، وكانت أمامهما أعباء ومسؤوليات لتحمل الخلافة الربانية رغم اختلاف الآراء في مكان تلك اللجنة ونوعها و) (مرحلة نشوء الفطرة البدائي) في مجتمع بسيط تسوده السليقة المستقيمة قبل أن ينحدر الإنسان في مزالق الذات والاستغلال فتمثل إنساناً قوياً يصيد الحيوانات ليأكل منها، فبدأ حب التملك لأشخاص أقوى وأظهر الجشع والطمع واستضعاف الإنسان البسيط مما جعل مسألة النبوة تصعد في هدايتها. وفي كل ما تقدم يتبين أن التشريع الرباني إن لم يكن قائماً في بناؤه، فهو مجتمع فرعوني. وهذه تسمية خاصة أطلقها السيد الشهيد<sup>(١)</sup> في كتبه المتنوعة (اقتصادنا وفلسفتنا)، فأشار إلى أن المجتمع الأوربي شهد تطوراً صناعياً كبيراً؛ فالثورة الصناعية الكبرى التي جعلت الآلة بديلاً للصناعة اليدوية، وأحدثت ثراءً فاحشاً لوسائل الإنتاج منحت المجتمعات الغربية الحرية الاقتصادية. وهذا المجتمع تبعد ركائزه عن السعادة والاستقرار؛ فغياب التراحم والتعاطف بين أفرادها جعلته فرداً يعيش في دوامة العزلة وانعدام التواصل، وأنه مسؤول عن نفسه لوحده، وهذا من عيوب النظام الرأسمالي. والإنسان مجبول على دوافع داخلية تهديه لحاجاته الأساسية، فالاجتماع غريزة إنسانية فطرية.

وأول ظهور للمجتمع الإنساني طرحه الأنبياء وأولهم نبي الله نوح عليه السلام. ولم تأت شريعة سيدنا موسى عليه السلام إلا بعد (٦٠٠) حكم، بينما كان الديانات والكتب تشير إلى محمد عليه السلام فجعله مجتمعاً واحداً. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة الانعام: ١٥٣.

(١) ظ: المدرسة القرآنية: ٥٦ - ٥٧.



وقيامه ببناء الملكية الخاصة، وتمليك الثروة إلى الدولة، وهي الوكيل الشرعي عن المجتمع، وهذا مذهب الشيوعية تأميم مطلق، فيلغي الرأسمالية ويوحد الشعب في طبقة واحدة. ومن سلبيات هذا النظام أنّ من نادى به لم يطبقه، وأجريت عليه تعديلات سواء أكان على الجانب الاقتصادي أم الجانب السياسي، وجعلوا فوارق في أجور العمال، وفرضوا القروض الربوية، وهي من أساسيات الفساد الاجتماعي<sup>(١)</sup>.

إنّ رؤية القرآن الكريم تؤكد أنّ صمّام أمان المجتمع الرشيد الإيمان والتوحيد؛ وبهذا ينجو المجتمع من العواصف والآفات التي تعصف بالحضارات<sup>(٢)</sup>.

ونجد فكراً عبقرياً ثاقباً نابعاً من صميم المعاناة الإسلامية، والذي رسم بريشته نظاماً هندسياً متكاملًا لو قدّر له البقاء لكان أول المتصدّين لأفكار النظام الغربي، وهو السيد الشهيد السعيد محمد باقر الصدر رحمته الله. فقد سعى بمبادئه ومن بعده تلامذته، فطرح نظرية استخلاف الإنسان، وهي نظرية اجتماعية. وفي أعماق هذه النظرية نجد (دراسة العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد) والتي تتطلب مجموعة من القوانين والضوابط (أخلاقية وتربوية وإنسانية قبل كلّ شيء). وفي فكر السيد الشهيد يتجسد المعنى القرآني، وهذا ما وصفه السيد الطباطبائي في تفسيره (الميزان)<sup>(٣)</sup> بأنّ المجتمع الإسلامي يسعى إلى بناء مجتمع متكامل، وإلى قتل التشتت والفرقة؛ فإن تحققت العدالة والمساواة تحقّق التوازن الاجتماعي، ومن ثمّ ساد التقريب بين فئاته المختلفة، وقد تنبه إلى هذه القضية السيد الشهيد الصدر. ففي المنهج الأرسطي، نرى أنّ النتائج في العلوم الطبيعية لا بدّ أن تسير من الكلّي إلى الجزئي وناقضهم في ذلك، فرأى أنّ النتائج تنتهي في علوم الطبيعة إلى سير من الجزئي إلى الكلّي. فلم ينقض

(١) ظ: فلسفتنا: ٢٩.

(٢) ظ: دور التوحيد: ٢٨.

(٣) ظ: مجتمعتنا: المقدمة بقلم منذر الحكيم: ٤٥ - ٤٨.

فكرة الأساس المنطقي لأرسطو، لأنّه قائم على مبدأ عدم التناقض، وإنّما أضاف إليه طريقين: (السير من الكلي إلى الجزئي، والاستدلال القياسي)؛ ففي العقل النظري يضيف السيد الشهيد عبارة (أضفنا) ولم يناقض أو يخطأ مشيراً إلى أنّ اقتطاعه جزء، كان المنهج الارسطي يعدّه أساساً قياسياً<sup>(١)</sup>؛ فأولى الإنسان أهمية كبيرة، فلولا وجود اليد العاملة لا تتحقق السعادة التامة للمجتمع؛ وهو بفكره هذا يناقض المجتمع الغربي الذي أولى الآلات الأهمية القصوى. فأهمية تحقيق الأرباح لديه تطفئ على الفرد والمجتمع؛ ومن هنا نجد نظرة الإسلام للفرد في بناء المجتمع العربي.

وحين نتمعن في ألفاظ القرآن الكريم لا نجد ذكراً للفظ (المجتمع)، وإنّما عبّر عنه بألفاظ مرادفة كـ (الذرية والشعب والقبيلة والعترّة والعامرة والعشيرة... الخ)؛ وكلّ لفظ منها له مرتبة خاصة أوضحها الثعالبي في فقه اللغة.

فالشَّعب بفتح الشين أكبر من القبيلة، والقبيلة من بعده، وتأتي العامرة بكسر العين، والبطن ثم الفخذ<sup>(٢)</sup>، ومن بعد الشعب يأتي القبيلة والفصيلة والعشيرة ثم الذرية ثم العترّة فالأسرة<sup>(٣)</sup>.

وبناء على ما تقدم، فإنّ البناء الاجتماعي يتكون من أجزاء متشابكة تكوّن نظاماً مُحكماً صعب التفكيك، ومنها: التجمعات، ومن بينها (الأسرة، والمدرسة، والهيئات)، والنظام الاجتماعي ويمثل الجهاز الذي يستمر بناء المجتمع، ويبقى على مرّ الزمن النظام (التربوي، والثقافي، والصحي، والسياسي، والعسكري، ومراكزهم الاجتماعية التي يحتلها الأفراد، والأدوار التي يقومون بها (القائد، والمدير، والطبيب، والنجار).

(١) ظ: مباحث الاصول: ٥٤٦.

(٢) ظ: فقه اللغة: ١٥٥.

(٣) ظ: المصدر نفسه: ١٥٦.

فبناء المجتمعات تراه أغلب دول العالم من أولويات خططها في تتبع التطور والتنمية بخطوات متسلسلة لتتجه نحو أسس معرفية تعتمد على التميز في التطور العلمي؛ ولهذا فإنّ التطلع لأيّ مجتمع يرتبط بالاهتمام بالفرد؛ ولكي يتحقق بناء الفرد يجب أن يخضع في بنائه إلى مجتمع تسوده (وحدة الفكر والمحبة: من أواصر المادية تذهب وتبقى بين المؤمنين علاقات روحية، والتعاون) فوجود مجتمع صالح يقوي من بنائه، لذا قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ لِكِتَابٍ لَّكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ لُمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ لَفَاسِقُونَ﴾ سورة آل عمران: ١١٠

فقد نظر العلماء إلى الفكر الإسلامي فوضعوا قواعد وتشريعات مصدرها الإسلام ونهجها تربوي، وفرض العقوبة الرادعة هي حدّ لتعليم الأمة؛ وبالمقابل حاول الفكر الغربي فرض حروب على هذه الحدود فيرون فيه تشويهاً لنهضتهم الحديثة -على حد قولهم<sup>(١)</sup>.

إنّ الاستقرار والاستمرار هما من الشروط الأساسية لأيّ مجتمع؛ فحتى يقوم أيّ مجتمع من المجتمعات بوظيفته الأساسية (الحفاظ على تماسكه وكيانه)، فلا بدّ من توافر شرط أساسي لذلك، يتجسد في وجوده مدة طويلة من الزمن تكفي لظهور بناء مميز له، ثم استمرار هذا المجتمع واستمرار بنائه فيما بعد.

(١) ط: قواعد البناء في المجتمع الإسلامي: ٦٢.

## المبحث الأول

### بناء المجتمع في ضوء رؤية الإمام علي عليه السلام

إنَّ رسالة الإسلام تهدف إلى بناء الفرد روحياً، ليكون لبنة صالحة في مجتمع صالح تسوده الألفة والمحبة والوئام. وتعدُّ الأسرة الواحدة التي تسكن بيتاً معيناً أصغر وحدة اجتماعية للمجتمع العام، وحثَّ الإسلام على إشاعة الفضيلة والآداب بين المسلمين وأمرهم بالتودّد والتآلف إلى بعضهم؛ فالإسلام يوجب التماسك الاجتماعي ويقوّيه، وكان من اهتمامه بذلك أنّه جعله في الأهمية بعد الإيمان بالله؛ فالإيمان عنصر أساسي من عناصر التماسك الاجتماعي؛ فهو يدفع أفراد المجتمع نحو التعاون والتفاهم ويبعدهم عن المشاكل والتفرق والتنازع.

لقد حرص الإمام عليه السلام على تربية أفراد بيته والمجتمع بأكمله مما يوجب اليقظة والشعور بالمسؤولية؛ وهذا يتوافق مع ورود النصوص القرآنية والأحاديث. قال رسول الله ﷺ: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلّكم راع ومسؤول عن رعيته»<sup>(١)</sup>.

فعلم الأخلاق هو أحد الأسس التي تسمو بالمجتمع وترفعه؛ فنجدّه في عهده للصحابي مالك الأشتر رضي الله عنه يبيّن هراً للمجتمع يتبدأ فيه بطبقة تعيل المجتمع بأكمله. فلا وجود لعاطل ولا فقير، بل جميع الرعية لها عمل خاص وتعيّلها فئة خاصة. يقول الإمام عليه السلام: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والطف بهم. ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق»<sup>(٢)</sup>.

(١) رياض الصالحين: ٢٣٥.

(٢) نهج البلاغة: ك ٥٣، ٣٢٤.

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى يَبْعُضُهَا عَنْ بَعْضٍ»<sup>(١)</sup>.

يبدأ بالعموم للحديث عن طبقات المجتمع الإسلامي قائلاً: «فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْحَرْبِ وَالْحِرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ. وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةٍ نَبِيَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مُحْفُوظًا.»<sup>(٢)</sup> ثم يبدأ بتفصيل هذه الطبقات من المجتمع.

يقول (عليه السلام): «فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ»<sup>(٣)</sup>، ويبدأ بأعظمهم أثراً وهو حماة الوطن والمدافعون عنه من الاعتداءات الخارجية.

الجنود: «فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وَزَيْنُ الْوُلَاةِ وَعِزُّ الدِّينِ وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ».

أهل الخراج: «ثُمَّ لَا قِيَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ هُمْ مِنَ الْخَرَاجِ».

القضاة والعمال والكتّاب: «ثُمَّ لَا قِيَامَ لَهُذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنَفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقَضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكَتَّابِ».

التجار وذوو الصناعات: «وَلَا قِيَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ».

(١) المصدر نفسه.

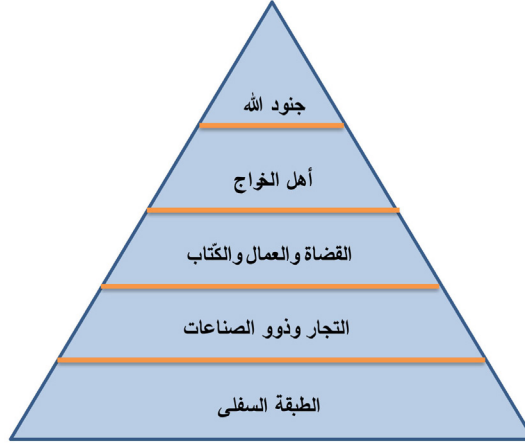
(٢) نهج البلاغة: ك ٥٣، ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٣) المصدر نفسه.

ثم الطبقة السفلى: «ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ».

فقد قسم الإمام (عليه السلام) بناء المجتمع على وفق (خريطة مفاهيم) كما يسمّى في -علم النفس الإداري- ببناء هرمي تنظيمي يحدّد فيه الطبقات الرئيسة للمجتمع، كلّ بحسب دوره ومنصبه ومستواه ووظيفته.

ووفقاً لما تقدّم، يتبين لنا أنّ وضع الترتيب الهرمي لطبقات المجتمع كلّ بحسب عمله أو طريقة معيشته، يعود الفضل فيه للإسلام ورواده. وهذا يعني أنّ كلّ فرد من هذا المجتمع له موضع ومسؤولية وحقوق، حتى الفقير والمسكين والمريض، ومن أسماهم الإمام (أهل الزّمنى) ورسمنا ما قدمه الإمام، فكان لهذا البناء الهرمي قاعدة (أساس) وقمة يصل إليها.



بناء المجتمع في ضوء عهد الإمام علي (عليه السلام) إلى الصحابي مالك الأشتر (رضي الله عنه).

وفيه يتبين أنّ مراعاة شرائح المجتمع المختلفة حتى (الفقير والمسكين والمحتاج وأهل الزّمنى والأمراض) تبنى على بقية الطبقات فالجميع متساوون؛ لأنّ في أموال الغني حقوقاً توجب عليه أن يؤدّيها إلى مستحقيها. ففي المجتمع طبقات تساهم في بنائه، وكلّ من المجتمع والدولة مادة واحدة.

وبهذا نجد الإمام أول مفكر اجتماعي عبقرى عامل على القضاء على وجود الطبقات؛ وأهمها حق الله تعالى وحق المجتمع «وقد جعل الله (سبحانه وتعالى) حقوق عباده مقدّمة لحقوقه»، فخير عمل الإنسان توصيل الحقوق إلى أهلها.

وكذلك يوصي جنوده بأهمية القيادة العسكرية فتشترط وجود القائد الفذ؛ فقد حرص على تنظيم الجنود وإعدادهم على وفق بناء عسكري هادف. وبهذا يقول جورج جرداق: «نضجت في ذهن الإمام القوي فكرة العدالة الاجتماعية على أسس من حقوق الجماعة التي لا بدّ لها أن تنتهي بإزالة الفروق الهائلة بين الطبقات»<sup>(١)</sup>. وقد نظر في أمر الجنود، فعالج مسألة توليهم للحكم، وهم شريحة كبيرة؛ فمنهم من حمل ماله وصرفه على أهله من نساء وبنين ممن لا عائل لهم<sup>(٢)</sup>.

فالجميع أحرار ولا عبيد لجنس أو نحلة؛ فيقول في اختيار الجند: «فَوَلَّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ وَأَنْقَاهُمْ جَبِيًّا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا مِمَّنْ يُطِئُ عَنِ الْغَضَبِ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعَذْرِ وَيَرَأْفُ بِالضُّعْفَاءِ وَيَتَّبِعُ عَلَى الْأَقْوِيَاءِ وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضُّعْفُ، ثُمَّ الصَّقَ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلَ التَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّامَحَةِ فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ وَشَعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ»<sup>(٣)</sup>.

ويشير إلى (استقامة العدل) ففيه قرّة عين الوالي: «وَإِنْ أَفْضَلَ قُرَّةَ عَيْنِ الْوَلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ»<sup>(٤)</sup>.

(١) الامام علي صوت العدالة: ١١٢.

(٢) ظ: ألفاظ طبقات الرعية في عهد الامام علي (عليه السلام) إلى الصحابي مالك الأشتر (رضي الله عنه): ٢١.

(٣) نهج البلاغة: ك ٥٣، ٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه.

ويشير إلى صفات القضاة: «ثُمَّ اخْتَرَ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ وَلَا تُحْكِمُهُ الْخُصُومُ وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ وَلَا يَخْصُرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَأَخَذَهُمْ بِالْحَجَجِ وَأَقْلَهُهُمْ تَبَرُّمًا بِمَرَاجَعَةِ الْخُصْمِ وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ»<sup>(١)</sup>.

ويوصي بالتجار وأهل الصناعات: «ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمُنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمُرَافِقِ وَجَلَاءُهَا مِنَ الْمُبَاعِدِ وَالْمُطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ»<sup>(٢)</sup>.

ويوصي بالطبقة السفلى بما فيها من: «ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى»<sup>(٣)</sup>.

ولما كان المجتمع الإنساني مبنياً على تفاوت قابليات الأفراد في التحصيل وبذل الجهد أولاً. ولما كانت الثروة العينية والقيمية في تحرك وتداول مستمر بين الأفراد ثانياً، أصبح نشوء الاختلاف في تملك الثروة وبذرها أمراً حتمياً. ويدل هذا الاختلاف على تنوع الأدوار والوظائف الاجتماعية وتفاوتها بين الأفراد؛ وهذا التنوع يتطلب اختلافاً في درجات العيش ضمن الطبقة الواحدة فحسب، ولا يتطلب تعدداً للطبقات الاجتماعية كما تؤكد المدرسة التوفيقية.

وبالمجمل، فلم يتعامل الإسلام مع الفقر تعاملاً ثانوياً، بل تسلح تسليحاً بليغاً مؤمناً بالضوابط الشرعية الدقيقة التي تؤدي إلى إزالة الفوارق الطبقيّة<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ظ: النظرية الاجتماعية في القرآن: ٢٤ - ٢٥.



## المبحث الثاني هرم ماسلو

وهو هرم وضعه عالم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو Abraham Maslo عام ١٩٥٨؛ ومن خلال هذا الهرم نال شهرة واسعة. وتعدّ نظريته في تحقيق الذات للفرد فوضع هرمًا لكل إنسان واحتياجات يليها؛ فوضع نظرية في تصنيف حاجاته بدءاً من حاجاته الأساسية واختتاماً بالتكاملية وطبقها على الحيوانات وبالخصوص (القرد)، وهي النظرية التي نسبت إليه باسمه؛ فالمدارس الفكرية في عصره ركزت على السلوك البشري، وحاول أن يعرف ما يجعل الإنسان سعيداً، وتوصل في نهاية تجربته إنّ الحاجة الضرورية أو الهدف الأسمى لتحقيق الذات يسبقه تلبية لحاجات أخرى. وعلى سبيل المثال حاجة الفرد إلى الماء تسبقها حاجته للتواصل الاجتماعي (الأسبقية)، فتلبية حاجتنا للشراب قبل أن نلتفت لحاجتنا الإجتماعية، وهذا يعني أنّ الماء يملك الأسبقية على الحاجات الاجتماعية.

وقد انمازت نظريته ببنائها على الشكل الهرميّ أو البناء الهرمي وهو يمثل (خريطة مفاهيم): وهي رسم تخطيطي تنظم المفاهيم العامة فيه من قمة إلى خصوصية في قاعدته وتوجد روابط توضح العلاقة بين المفاهيم. واقترح أوسلو خمسة أنواع رئيسة من حاجات الإنسان. وهذا يختلف عن آلاف الحاجات التي اقترحها الباحثون الآخرون كما إنّها أقل من الحاجات التي عرفها موراي في نظريته. اختصر ماسلو الحاجات إلى مجموعة صغيرة. وهذه الحاجات الخمس هي كما يلي (بحسب ترتيب أسبقيتها على السلوك الإنساني):

حاجات البقاء: أو الفيزيولوجية: وتعني حاجاته الإنسانية وتتضمن الحاجة للطعام والشراب والهواء والمأوى والنوم والجنس والنشاط والتبّه والأوكسجين... الخ.

حاجات الأمان: هذه الحاجات التي تحمي حرّية الفرد من الخطّ، وتعني مواجهة مخاطر الوجود، كالظروف البيئية الشديدة (الرياح، والبرد، والمطر، والشمس) والخوف والاعتداء من الآخرين والطُغيان.

الحاجات الاجتماعية: تعكس هذه الحاجات الرغبة في الإنسان بأن يتلقّى العطف والمحبة من الآخرين. ويكونون راضين تحديداً عند وجود الشريك والأطفال والوالدين والأصدقاء والأقرباء والمقرّين. تعبّر أحاسيس الوحدة ورفض إنعدام إشباعها.

الحاجة للتقدير: وتعني الرغبة في الإنجاز والقوّة والكفاءة والثقة والاستقلالية.

الحاجة لتحقيق الذات: وهذه الحاجة لا يمكن إشباعها أبداً بشكل كامل، فتحقيق الذات والرغبة في إشباعها فتصبح أكثر وأكثر ما أنت عليه وأن تصل لكلّ ما أنت قادر عليه». يختلف معنى تحقيق الذات بشكل كبير بسبب اختلاف الأشخاص في نقاط قوّتهم وضعفهم وقدراتهم وحدودهم. يعني إشباع حاجة تحقيق الذات أن نطوّر كلّ قدراتنا الخاصّة إلى أقصى درجة ممكنة.

وهكذا، فقاعدة الهرم الأدنى تتدرج بالحاجات الضرورية أو الأساسية بينا الحاجات. فوضع الحاجة إلى الأمان والسلام في المستوى الثاني؛ ومنها (الأمان المالي والصحة والسلامة ضد الحوادث). فوجود الوظيفة للفرد تجعله يفكر في رعاية صحية للعيش في أمان، ووضع حاجاته الاجتماعية في الطبقة الثالثة (الحبّ والقبول والانتماء) مما يتعمق مع العلاقات العاطفية للابتعاد عن الفرقة والوحدة والعزلة والاكْتئاب، وهذا يتحقق بوجود (الأصدقاء والعائلة).

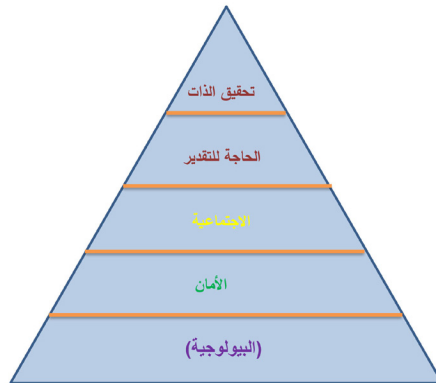
ثم المستوى الرابع؛ وهو الحاجة إلى الإهتمام والتقدير؛ فحاجات تحقيق الذات تمرّ بكلّ ما تقدّم. وقد توجهت لموسلو انتقادات كثيرة في نظريته، ومنها حاجاته لا تسيّر وفق أبحاث

تخصّصية فالحاجات البشرية التي ذكرها لا تتبع تسلسل هرمي فقد عارضه مجموعة من العلماء، وقاموا بإجراء دراسة موازنة تطبيقية فوجدوا أنّ تلبية الحاجات يرتبط بالسعادة، فبذلك وضع نظريته وفقاً لأفراد معينين.

ونظريته في علم النفس أثرت في التعليم والتربية، فيبدأ بحاجات أساسية (طعام وشراب ومأوى) ثم التقدير والاحترام إلى أن يصل قمة الهرم في تحقيق الذات من خلال (فهم دوافع المتعلمين وتخطيط منهجهم الدراسي وتقديم الدعم والإسناد لهم، وتحسين علاقاتهم مع بعضهم داخل البيئة التربوية وتطوير السياسات التعليمية؛ وبدوره يؤدي إلى تدريب المعلمين.

وفي ضوء تلك النظرية فإنّ بناء الفرد يبدأ من قاعدة الهرم إلى أن يصل إلى أعلاه، وهو تحقيق الذات؛ فتحقيق الأمن يتحقق في ضوء البعض بتحقيق الديمقراطية في تحسين أوضاع العدالة والاقتصاد والمعيشة في وجود استقرار أمني بوجود جيش قوي.

وبذلك فإنّ الفكر الغربي جعل المستوى الفردي هو الأهم، وماسلو (مازلو) حاول أن يتبع هرمه ويكمّله وفق تصوره الخاص؛ فربط بين علم النفس والسياسة، فجعل الديمقراطية جزءاً أساسياً من التمتع بالسلامة النفسية والعقلية للفرد.



بناء المجتمع وفق الهرم الغربي (هرم ماسلو)

وفيه يتبين أنَّ الحاجات الفردية هي الطموح المنشود في الفكر الغربي.  
ووفقاً لرأيه، فإنَّ كلَّ واحد من مائة شخص قادر على تحقيق ذاته؛ فالمجتمع برأيه يكافئ  
الدافع ويبنى ذلك على احترام الذات<sup>(١)</sup>.

وبالمقارنة بين البنائين يتضح لنا:

وضع الإمام عليه السلام في قمة البناء الهرمي (الجنود) فأدرك بأنَّ حاجة المجتمع الأساسية  
حماية البلاد من الاعتداء الخارجي، فالحاجة إلى (أمن البلاد) هو أولى متطلبات بناء المجتمع؛  
بينما وضعه ماسلو في الطبقة الثانية لتقديمه الحاجات البيولوجية الفردية من (طعام وغذاء  
وشراب... الخ)، وبذلك يتضح الفارق بين الفكر العربي الإسلامي بأمره، والفكر الغربي  
بفلاسفته.

اهتم الإمام عليه السلام بصلاح الفرد والمجتمع؛ ففي تشريع الأحكام وسنّ القوانين اختيار  
لأرضية صالحة في بناء أرضية صالحة في سبيل القضاء على الطبقة لتحقيق المساواة بين  
الجميع.

أولى الإمام عليه السلام طبقة العمال أهمية كبيرة دون الأخذ بالكفاءة والجهد؛ فالأجر مقابل  
عملهم؛ أما ماسلو فقد عبر عن أنَّ العامل لا يقوى على إشباع حاجاته الفيزيولوجية، لذلك  
لم يولِ للعمل الجماعي أهمية ولم ينظر إلى راحته<sup>(٢)</sup>.

لجأت المجتمعات الإنسانية إلى تبني آليات وسياسات لتشغيل العمالة لمنع انتشار  
البطالة.

(١) ظ: عقود العمل ودورها في إشباع حاجات خريجي الجامعة حسب هرم ماسلو: ٦.

(٢) ظ: المصدر نفسه.

كلا الهرمين في بنائه خماسي تجمع فيه الطبقات أو الحاجات؛ فإشباع حاجات الفرد يخلق العمل.

ما أشار إليه الإمام علي (عليه السلام) في بنائه هذا أكدّه الفلاسفة والعلماء والمراجع من بعده؛ وكذلك نجد هذا البناء العظيم في مؤلفات السيد (محمد باقر الصدر) في نظر المجتمع الإنساني من خلال أفراد العاملين، فهم (اليد العاملة)؛ وكما يتحقق في المجتمع من سعادة إذا كدّ العامل من يمينه، على العكس من الفكر الغربي الذي لا يهتم سوى الربح في الإنتاج سواء أكان بألة عاملة أم يد عاملة؛ وبهذا خسر الفكر الغربي تحقيق السعادة للفرد وجعل أبنائه منعزلين عن بعضهم بعضاً.

تبين أنّ الدين الإسلامي قادر على إقامة حضارة عظيمة؛ وهو ما تبين في مجتمعه الإسلامي ضارع بها الحضارات التي تعددت في التاريخ التي تواكب المجتمعات المدنية. وبهذا عدّ القرآن الكريم الدستور الحقيقي البعيد الصالح لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سورة الإسراء: ١٠

إنّ حقيقة البناء الهرمي في المجتمع تنظيم لإدارة البلاد اقتصادياً واجتماعياً، وفيه يتبين أنّ الرتبة أو المنصب، لا عبرة لهما، وإنّما العبرة باتساع عدد وجودهم مقارنة ببقية المراتب. وكلّما اقترب من القمة هم الأغلب والأكثر مما هم في القاعدة. ويعتقد الغرب أنّ هذا التنظيم أوجده لورانس جونستن بيتر فوضع مبدأ بيتر فدرس التنظيمات الهرمية وسلوك أعضائه.

علم الاجتماع البنائي = (وضع اجتماعي + بناء فردي) هذه القاعدة الأساسية في النظريات البنائية التي اهتم بها علم الاجتماع.

وهي نظريات بنائية، اهتم علم الاجتماع التأويلي بها من حيث كيفية قيام الأفراد والجماعات. وبهذا، فإنَّ الإمام لم يبين مجتمعه على وفق بعض الثقافات الغربية (كالإقطاعية والعمالية والتجارية)، فلم يتخذ الأصل الاجتماعي أو السلطوي أو المالي للفرد، وإنَّما كان لكلِّ فرد حقوق وواجبات معينة فلن تكون للقوة والمركز الاجتماعي سلطة على بقية الطبقات، بل العكس من ذلك، فقد جعل أفقر الطبقات هي قمة الهرم؛ وهو البناء الصحيح الذي يتولاه؛ وبهذا، فإنَّ الفرد يشعر بالانتماء إلى مجتمع. وبهذا، فإنَّ للإنسان حقوقاً ورعاية من لدن الحاكم (حقوق الإنسان والرعاية الاجتماعية).

## الخاتمة

بعد رحلتنا المتقدمة مع بحثنا الموسوم بـ (بناء المجتمع الإسلامي وفق منظور حداثي) توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها في ما يأتي:

١. سعى الإسلام بقادته، ومنذ عهد مبكر، إلى بناء مجتمع إنساني رصين؛ فرسم طريقة إيجابية في إعداد الأفراد وتهيتهم وتقوية أواصر أفراد المجتمع بعضهم ببعض بزرع روابط وثيقة. فلم يرسم طريقة معينة لفرد بذاته بمعزل عن أبناء مجتمعه الآخرين؛ بل شمل بناؤه المجتمع بأكمله.

٢. أوجد الإمام عليه السلام بفكره النير من خلال عهده للصحابي مالك الأشتر رضي الله عنه بناءً هرمياً سبق فيه الفكر الغربي في تلبية حاجات المجتمع؛ فلا وجود لعاطل فيه؛ بل وجدنا الأفراد جميعهم لهم حقوق وواجبات عاملين في عالم تسوده العدالة بعيداً عن الظلم والطبقية: «فما جاع فقير إلا بما مُتَّع به غني».

٣. اهتم العالم الأمريكي ماسلو ببناء هرم وُسم باسمه لبي فيه حاجات بيولوجية فردية؛ فاهتم بالبناء الفردي بمعزل عن مجتمعه، فلا نكاد نجد الروابط الوثيقة فيما بين أفرادهِ؛ لذا وجدنا التفكك والتنافر فيما بين أفرادهِ لانعدام السعادة ولو تحققت الأرباح في مجتمعهم.

٤. وجدت فكرة البحث أنموذجاً للمقارنة بين بناء المجتمع في الفكرين (العربي والغربي) فوجدنا مثلاً للإمام عهده في ولاية مصر حين عيّن الأشتر رضي الله عنه عليها وقلده بأخلاقيات عامّة يجب أن يتحل بها الوالي العربي الأصيل. وبالمقابل قارناه مع هرم لعالم أمريكي ساد فكره الهرمي الدراسات النفسية والاجتماعية عجباً ببناء تربوي واقتصادي؛

فتصدر الفكر العربي متمثلاً بأميرنا وولينا علي بن أبي طالب أفكار الغرب أجمعهم في هذا البناء الذي أوجب وجود قاعدة وقمة؛ فلا وجود للقمة ما لم تكن هنالك قاعدة قوية ومتينة وجعلها الإمام للفئات التي وُسِّمت بالفقر والضعف والمرضى وأسماهم بـ(الطبقة السفلى) فوجودهم وحفظ أقواتهم وأرزاقهم منوط بما تقدمه الطبقات المتقدمة لمعونتهم؛ فكم هو عبقرى وعظيم إمامنا(صلوات ربي وسلامه عليه).

٥. حين نتبع التأريخ نجد أنّ الفكر الإسلامي سبق الغرب في تطبيق النظرية والتي جعلت فيها بعد دراسات للمجال التربوي والنفسي والاقتصادي، وهي نظريات أصلها منبثق من الفكر الإسلامي، فلا مجال للتفاخر بل الفخر كلّ للإسلام وقادته وأهل بيت رسوله.



## المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

١. الإسلام يقود الحياة: محمد باقر الصدر، وزارة الارشاد الإسلامي، ط ٢، طهران، ١٤٠٣ هـ.
٢. الامام علي صوت العدالة: جورج جرداق، ط ١، بيروت - لبنان، ٢٠١٠.
٣. ألفاظ طبقات الرعية في عهد الإمام علي عليه السلام إلى الصحابي مالك الأشتر (رضوان الله عليه) - دراسة في اللفظ و التركيب - د. سحر ناجي المشهدي، ط ١، مؤسسة علوم نهج البلاغة - العتبة الحسينية المقدسة، ٢٠١٧.
٤. دور التوحيد في بناء الحصارات والمجتمعات (رؤية قرآنية): السيد حسن النمر الصائغ الموسوي، ط ١، دار الولاء، بيروت - لبنان، ٢٠١٠.
٥. رياض الصالحين: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ م.
٦. عقود العمل ودورها في إشباع حاجات خريجي الجامعة حسب هرم ماسلو (دراسة ميدانية ببعض المؤسسات الخدمانية والتربوية بمدينة بسكرة)، أطروحة دكتوراه في تخصص علم النفس: شريفة جنان باشراف: أ. نصر الدين جابر، الجمهورية الجزائرية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٥ / ٢٠١٦.
٧. فقه اللغة وسرّ العربية: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ١، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢ م.

٨. فلسفة التربية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني، ط ١، دار المنارة، جدة.
٩. فلسفتنا: محمد باقر الصدر، قم، ١٩٥٩.
١٠. قواعد البناء في المجتمع الإسلامي: د. محمد السيد الوكيل، ط ٢، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٩.
١١. مباحث الأصول (تقرير لبحاث سماحة السيد محمد باقر الصدر): كاظم الحسيني الحائري، قم، ايران، ١٩٨٦.
١٢. مبادئ علم الاجتماع: فادية عمر الجولاني، ط ١، المكتبة المصرية، ٢٠٠٢.
١٣. المثلث: ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ): تحقيق: صلاح مهدي الفرطوسي، د. ت
١٤. المجتمع الإنساني: محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، ط ٢، العترة الطاهرة، ٢٠٠٦.
١٥. مجتمعا (المجتمع الفرعوني): مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الشهيد السعيد: محمد علي أمين، ط ١، مكتبة سلمان المحمدي، لبنان، ٢٠١٣.
١٦. مجتمعا في فكر وتراث الشهيد السيد محمد باقر الصدر: منذر الحكيم، ط ١، ايران - طهران، ٢٠٠٩.
١٧. المدرسة القرآنية: التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي والسُّنن التاريخية وعناصر المجتمع في القرآن الكريم: محاضرات الشهيد السيد محمد باقر الصدر رَحِمَهُ اللهُ، ط ٢، دار الكتاب الإسلامي مطبعة ستار.
١٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (٧٧٠ هـ)، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، ط ٢، دار المعارف، د. ت.

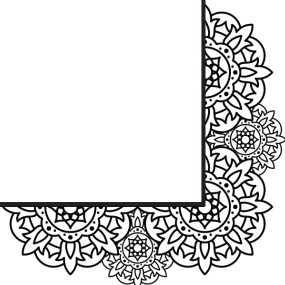
١٩. المعجم الفلسفي: يوسف كرم، القاهرة، ١٩٧١.
٢٠. معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د. ت.
٢١. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، د. ت.
٢٢. المفردات في غريب إعراب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث في مكتبة نزار مصطفى الباز، د. ت.
٢٣. نظرة على هرم موسلو للحاجات الإنسانية: الكاتب المصري: طه عبد الباقي الطوخي، مقال نشر في مجلة النفس المطمئنة، ع ٢٤ سبتمبر، ٢٠١٧.
٢٤. النظرية الاجتماعية الإسلامية: دراسة في فكر السيد محمد باقر الصدر: منذر الحكيم، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، د. ت.
٢٥. النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم: د زهير الأعرجي، مكتبة أنوار الهدى - قم، ١٤١٤هـ.



**مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة  
من منظور أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة**

الباحثة  
د. سمية حسنعلیان

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها  
جامعة أصفهان، إيران



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

قد احتلت الشخصية مكانة مهمة في الدراسات النفسية، ذلك لأنَّ شخصية الإنسان محور أساسي لسلوكه، وهي ترجمة لسلوك عام يظهر في صفات معينة، فعندما يطلب شخص من آخر تحديد السلوك العام لشخص ثالث فإنَّ أول شيء يذكره هو الطابع العام لشخصيته، وذلك باعتبار أنَّ الشخصية تحدّد السلوك العام للأفراد<sup>(١)</sup>، ولأنّها وحدة متكاملة فيها كلّ ما ينطوي عليه من عناصر ودوافع؛ فـ«الشخصية الإنسانية» من الموضوعات التي لها جوانب عدة وما تزال تهتمُّ بها الدراسات المختلفة الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والنفسية والدينية...؛ ولعلَّ مردّد هذا الاهتمام هو قيمة الإنسان في العالم، وأنَّ كلّ إنسان عالم منفرد عن غيره؛ فليس كلّ إنسان كأخيه الشقيق، ولكلّ إنسان ميزاته الخاصة؛ مع العلم بأنَّ هذا التميز لا يكون بحيث يطمس الملامح الشخصية العامة التي تجعله ينتمي إلى قومه وأمته.

ولا شكَّ أنَّ هناك صلة وثيقة بين بناء الحضارة وكذلك تنمية المجتمع وبين الشخصيات السليمة في المجتمع وصحتهم النفسية إذ «يعدّ تكامل الشخصية - بالمفهوم الإسلامي الذي يقوم على غرس الدوافع الإيمانية المكتسبة التي تستند إلى أساس فطري وهو الفطرة السليمة - شرطاً ضرورياً للصحة النفسية والتوافق الاجتماعي السوي. ومن أهمّ العوامل التي تخلّ بهذا التكامل غياب العقيدة السليمة التي تفسر للإنسان وجوده وحياته والكون والمصير إلى جانب الصراعات النفسية العنيفة والموصولة - سواء الشعورية أو اللاشعورية - وترتبط الصحة النفسية أشدّ الارتباط بنوعية التربية وأساليبها ومضامينها. يضاف إلى هذا

(١) بدران، د.ت، ١١.

أنّ من أهمّ سمات الشخصية المفككة غير المتكاملة - غياب الإيمان والدوافع الإيمانية، وكثرة الصراعات الداخلية والخارجية - الشعورية واللاشعورية - والعجز عن التوافق السويّ مع المجتمع والآخرين، والعجز عن العمل والإنجاز والعجز عن العطاء»<sup>(١)</sup>.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فلقد بُدِّع العهد بالمسلمين الأوائل الذين كانوا يمثلون الشخصية الإسلامية السليمة كما عرفوها في مثلها القدوة الرسول الكريم ﷺ. وللتعرف على مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة فلا بدّ من العودة إلى ما عندنا من تراث ديني، وفي مقدمته القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ومعارف أهل البيت (عليهم السلام)؛ إذ إنّ من الخطأ أن نتصوّر أنّ التراث شيء مضى وانقضى وأصبح جزءاً من التاريخ، بل لا بدّ أن نعتبره مظهراً لعبقرية الأمة الإسلامية، وخاصة إذا كان هذا التراث يتعلق بالأئمة الأطهار (عليهم السلام)؛ وهذا هو الذي يبعث آمال الأمة ويلهمهم مشاعرهم؛ والانقطاع عنه يؤدي إلى هدم الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإسلامية. وفي زماننا هذا إذا أردنا أن نستعيد أمجادنا وحضارتنا ما علينا إلّا أن نتوجه إلى ما ترك هؤلاء الطيبون لنا بما يناسب وحاجات مجتمعاتنا الإسلاميّة؛ فضلاً عن إنّ عدم الاهتمام بهذا التراث أو ضعف الاهتمام به يؤدي إلى أزمة فكرية في تربيتنا المعاصرة تتمثل في تجاهلنا لقيّمته وأهميته في بناء شخصية الأمة وإعطائها الهوية الثقافية المميزة<sup>(٢)</sup>؛ فعلينا العودة الصحيحة والسليمة إلى ينبوع الذي هو من مظاهر الفخر والمجد للحضارة الإسلامية. ومن هذه الينابيع التراث الفكري والأدبي لأئمة المؤمنين (عليهم السلام) المتمثل في نهج البلاغة.

من هذا المنطلق استهدف هذا البحث دراسة مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة من منظور الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة.

(١) السالموطي، ١٩٩٨م، ١٥٥.

(٢) حسنعليلان، ١٤٤١هـ، ٣٤٢.

### أسئلة البحث:

١. ولذلك جعل البحث عدة أسئلة نصب عينيه لتسعى الإجابة عنها؛ منها:
٢. ما هي مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة في نهج البلاغة؟
٣. كيف تتطابق مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة في نهج البلاغة مع ما ورد في علم النفس؟

### منهج البحث:

وللإجابة عن الأسئلة فلا بدّ من توخي المنهج العلمي لعرض المطالب والوصول إلى النتائج الصحيحة؛ فانسياقاً مع هذا، اختار البحث المنهج الوصفي - التحليلي لدراسة مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة في نهج البلاغة؛ وذلك لأنّ هذا المنهج من أكثر المناهج انتشاراً وتوظيفاً في الدراسات للعلوم الإنسانية وهو «محاولة الوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية لعناصر مشكلة أو ظاهرة قائمة للوصول إلى فهم أفضل وأدق ووضع السياسات والإجراءات المستقبلية الخاصة بها»<sup>(١)</sup>.

### الدراسات السابقة:

وأما بالنسبة للدراسات السابقة فيمكننا تقسيم هذه الدراسات على محاور عدة؛ منها:

الدراسات عن الشخصية والشخصية السليمة:

مقالة «سمات الشخصية السويّة لدى طلبة كلية التربية الأساسية» لخوشي لطيف طه، (٢٠١٥م)، في مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد ٤١، صص ٤٦٠ - ٤٩٦.

(١) الرفاعي، ٢٠٠٩م، ١٢٢.

كتاب «الشخصية» لعمر و حسن أحمد بدران، (د.ت)، القاهرة: مكتبة الإيمان.  
لا بدّ من الذكر أنّ هناك دراسات كثيرة بعنوان الشخصية وتحليل الشخصية والشخصية  
القوية، لكلّ منها سماتها.

### الدراسات عن الشخصية الإسلامية:

كتاب «الشخصية الإسلامية دراسة قرآنية» لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، (د. ت)،  
بيروت: دار العلم للملايين.

مقالة «بناء الشخصية السويّة في ضوء الثقافة الإسلامية، لعبد المعبود إسماعيل إبراهيم  
إسماعيل، (٢٠١٥م)، مجلة الدراية، العدد ١٥ ف الجزء ٢، صص ١٠٣ - ٢٤٠.

### الدراسات عن نهج البلاغة:

فمن البديهي أنّ هذه الدراسات كثيرة تكاد لا تعدّ وتحصى وتناولت جوانب عدة من  
نهج البلاغة، منها تاريخية وسياسية وأدبية وبلاغية ودينية وفلسفية واجتماعية وغيرها،  
وذلك لأهمية هذا النص التراثي الديني وأسلوبه الخاص وقيمة المعارف والمضامين التي  
وردت فيه. فصار نصب عين كثير من الدارسين والباحثين والمتخصصين في مجالات مختلفة،  
ومن جراء ذلك كان تطبيق كثير من النظريات الحديثة في العلوم المتعددة على هذا النص.

### أهم مصطلحات البحث:

في هذا القسم من البحث سنشير إلى بعض التوضيحات للمفاهيم والمصطلحات التي  
وردت في هذا البحث بصورة موجزة:



### الشخصية:

ليس من السهل تعريف الشخصية تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً لأنها عادة تعرف من آثارها؛ لكن هناك عدة تعريفات مختلفة منها:

«الشخصية كلّ الاستعدادات والنزعات والميول والغرائز والقوى البيولوجية الفطرية والموروثة؛ وهي كذلك كلّ الاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة؛ وقيل إنها نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التي تتميز بالثبات النسبي والتي تميز الفرد عن غيره من الأفراد، كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله من البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التي يعيش فيها؛ وقيل: هي نظام متسق بين عوامل التكوين العقلي وعوامل التكوين الانفعالي للفرد يسهم هذا التنظيم في تحديد استجابات الفرد الدالة على اتزانه الانفعالي وتوافقه الشخصي والاجتماعي وتحقيق ذاته»<sup>(١)</sup>.

### العقل:

العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان<sup>(٢)</sup>؛ وقيل في تعريفه اصطلاحاً: «العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كلّ أحد بقوله: أنا. وقيل: العقل جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقاً ببدن الإنسان وقيل: العقل: نور في القلب يعرف به الحقّ والباطل وقيل: جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير بالنسبة إلى القاطع وقيل: العقل والنفس والذهن واحد، إلا أنها سميت عقلاً لكونها مدركة، وسميت نفساً لكونها متصرفة وسميت ذهنًا لكونها مستعدة للإدراك. والعقل: ما يعقل به حقائق الأشياء، قيل: محله الرأس، وقيل: محله القلب، والعقل مأخوذ

(١) طه، ٢٠١٥م، ٤٦٥.

(٢) ابن منظور، ١٤١٤هـ، «عقل».

من عقل البعير لأنه يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل، والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الفانيات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة»<sup>(١)</sup>.

### نهج البلاغة:

كتاب يحتوي على كلمات وكتابات وخطابات أمير المؤمنين (عليه السلام)؛ أمير البيان الذي كان يقول في مواقف مختلفة أو يكتب إلى أشخاص مختلفين. جامع هذا الكتاب القيم هو السيد الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (٣٥٩-٤٠٦ هـ)؛ هذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء، منها المواعظ والرسائل وبعض الكلمات القصيرة والمهمة.

### ٢. الشخصية السليمة؛ التعريف والمواصفات:

من الجدير أن ننوه في هذا القسم من البحث على تعريف الشخصية السليمة، ونأتي بأهم المواصفات التي ذكرت في علم النفس وكذلك من منظور إسلامي، لأن هذا الموضوع، أي بناء الشخصية السليمة على منهاج إسلامي أمر يجب أن يتوجه إليه العلماء المخلصون في كل مجالات الثقافة الإسلامية، لأن له من الأهمية بمكان ولأن تكوين الشخصية السليمة كان من الأهداف العظيمة للثقافة الإسلامية إذ من هذا المنطلق سيكون صاحبها عضواً إيجابياً فعالاً في المجتمع الإسلامي، ويعمل على رقي مجتمعه ووطنه وأمتة.

أما الشخصية- فقد اختلف العلماء في تعريفها كما مرّ آنفاً في تعريف الشخصية في تعريف مصطلحات البحث وقيل «هي المجموع الإجمالي لكل الأمزجة والدوافع والميول والشهوات والغرائز الفطرية والبيولوجية، وكذلك الميول والاتجاهات المكتسبة عن طريق التجربة»<sup>(٢)</sup>.

(١) الجرجاني، ١٩٨٣ م، ١٥١.

(٢) وصفي، ١٩٨١ م، ١٠٢.

ولا بدّ من الذكر أنّ معظم التعاريف التي وردت لهذه المفردة تتمتع بالخصائص المشتركة هي:

أهمية التفرد أو التميز، وتعكس الشخصية الخصائص المتميزة والتي تجعل الشخص بارزاً عن جميع الآخرين، إضافة إلى أنّه من خلال دراسة الفروق الفردية يمكن للصفات الخاصة أو مجموع الصفات الخاصة والتي تميز الشخص عن الآخرين أن تتضح وتفهم. الشخصية هي المسؤولة عن تكامل السلوك وتنظيمه أو إنها تمثل تجريداً مؤسساً على استنتاج مشتق من الملاحظة السلوكية.

تمثل الشخصية عملية نهائية معتمدة على عوامل مؤثرة داخلية وخارجية مشتملة على نزعات جيلية وبيولوجية وخبرات اجتماعية وظروف بيئية متغيرة<sup>(١)</sup>.

أما الشخصية السليمة الإسلامية فهي «الشخصية التي تقوم على عقيدة التوحيد وعلى تطبيق الشريعة الإسلامية والأخلاق الإيمانية المستقاة من مصادر إسلامية»<sup>(٢)</sup>؛ ويبدو أنّ الثقافة من لوازمها لأنّها وصف إيجابي يطلقونه على الشخصية السويّة المثالية التي أعجبوا بسماتها وأدائها<sup>(٣)</sup>؛ أو هي الشخصية المثقفة التي يتمتع صاحبها بصفات منها: الفطنة والذكاء والرزانة وعلوّ الهمة ودوام التطلع إلى معالي الأمور وعظائمها، كثير المعرفة والاطلاع على علوم شتى، الخبير الماهر الذي لديه ملكة حسن الفهم مع حسن العرض لما يقرأ ويطلع من مسائل وقضايا<sup>(٤)</sup>؛ كما إنّ صاحب الشخصية الإسلامية السويّة يتزود بأنواع العلوم والفنون والمعارف المتصلة بالدين الإسلامي ومختلف علوم عصره ومعارفه

(١) هريدي، ٢٠١١م، ٢٢.

(٢) العمري، ٢٠٠١م، ١٧.

(٣) حياني، ٢٠١٠م، ٣٥.

(٤) المصدر السابق، ٣٧.

بحيث تساعده على ترسيخ وتعميق أمور هذا الدين كأمر العقيدة والشرعية والأخلاق الإسلامية كما تكسبه الفهم والفطنة والذكاء في الحكم على الأمور والإصابة فيها، والظفر بالخصوم والانتصار عليهم، بالحكمة والموعظة الحسنة وبالحجة والإقناع بالتي هي أحسن<sup>(١)</sup>.

وكذلك من المفيد الإشارة إلى مجموعة من المؤشرات والمواصفات التي يمكن من خلالها الحكم على شخصية الإنسان بالاستواء والسلامة، ومن ثم المعرفة على مدى الصحة النفسية والسلامة التي يحظى بها. منها:

الإيمان الكامل اليقيني بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وهذا العامل يستغرق كل العوامل التالية كالتوافق الاجتماعي مع الغير، التوافق الذاتي، الشعور بالسمو والعزة والعلو والقدرة على مواجهة الصعاب والأزمات، الشعور بالرضا والسعادة، والقدرة على العطاء والإنجاز والعمل<sup>(٢)</sup>.

وذكر صاحب مقالة «بناء الشخصية السوية في ضوء الثقافة الإسلامية» بعض السمات للشخصية الإسلامية السليمة منها: الفهم الصحيح للإسلام، الاستقامة والثبات، الجدية والانضباط، الإيجابية وحب الوطن، الحفظ والعلم<sup>(٣)</sup>.

### ٣. مواصفات الشخصية السليمة في نهج البلاغة:

قد سلط البحث الحاضر الضوء على أهمّ المواصفات للشخصية السليمة في نهج البلاغة، ومن خلال ذلك ركز على الأبعاد الثلاث للإنسان والوجود الإنساني، ألا وهي:

(١) محمود، ٢٠٠٠م، ١٤؛ عليان، ١٩٩٦م، ١٢.

(٢) انظر: السمالوطي، ١٩٩٨م، ١٦٠ - ١٦٣.

(٣) انظر: إسماعيل، ٢٠١٥م، ١٨٧ - ١٩٢.

### ٣. ١. العقل السليم؛ الميول والاتجاهات:

لا شك أنّ من أهداف الدين الإسلامي بناء العقول السليمة والمحافظة عليها في المجتمع لأنّ العقل مناط التكليف؛ ولقد ميز الإسلام الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل واعتبره نوراً ينيّر للإنسان طريق المعرفة، ولا غرو، فلكل شيء أساس وأساس الإنسان العقل؛ وبقدرة يكون دينه وعلمه. ولذلك فالإعلام القرآني موجه إلى عقل الإنسان. ولهذا يحثنا الله سبحانه على أن نستخدم العقل في الأمور. فأحكام الإسلام لا تتناقض مع العقل، وواجب الإنسان أن يستخدم كلّ المعارف ليصلح من أحواله في المجتمع ويتصرف بعقله ويفكر ويتدبر كلّ أمر يعرض عليه. وينمو هذا العقل بالبحث المستمر والاجتهاد في الحياة الدنيا ليسعد في الدنيا والآخرة. وإذا ما أطفأ الإنسان نور عقله فإنّه ينساق كالأنعام ويتبع هواه ويتعصب لشهوته وللعادات القديمة الجامدة ويتخبط في الحياة. ولذلك يعاقب الله الإنسان إذا ما فعل شيئاً يؤثّر في عقله بالضرر سواء أكان ضرراً مادياً أم معنوياً؛ ومثلهما شرب الخمر والغزو الفكري بتضليل العقول عن طريق نشر الأكاذيب والافتراءات على أنّها حقائق.<sup>(١)</sup>

فالإنسان السليم من منظور الإمام علي عليه السلام يتمتع بالنظرة التوحيدية إلى الكون ونظام العالم، ويعتقد أنّ للعالم رباً واحداً خالقاً عالماً حكيماً، ومحطى باطمئنان قلبي لأنّه يعرف أنّ الأمور كلّها بيد الله تعالى.

(١) مكتبي، د.ت، ٦٤٧.

### صفات الإنسان السليم من هذه الجهة هي:

#### معرفة الله تعالى والإيمان به:

هذا من أهم الموضوعات التي ركّز الإمام علي (عليه السلام) في خطبه وحكمه لأن له أثراً مهمّة في حياة الإنسان، ولأنّه من العناصر الدالّة على سلامة الشخصية. ظهرت قضية الإيمان عند الإمام (عليه السلام) في جوانبه المختلفة؛ إليك بعض النماذج منها:

١. علامات الإيمان: الإيمان أن تُؤثّر الصّدق حيث يُضرك، على الكذب حيث يُنفعك؛ وألا يكون في حديثك فضل عن عملك؛ وأن تتقي الله في حديث غيرك<sup>(١)</sup>. وقال أيضاً: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان<sup>(٢)</sup>.

٢. طريقة حفظ الإيمان: سوسوا إيمانكم بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء<sup>(٣)</sup>.

٣. علاقة الإيمان بالتوكل على الله سبحانه: لا يصدّق إيمان عبد، حتّى يكون بما في يد الله، أوثق منه بما في يده<sup>(٤)</sup>.

٤. أركان الإيمان: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهد<sup>(٥)</sup>.

٥. أفضل وسيلة للتوسل: إن أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى: الإيمان به وبرسوله والجهد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص<sup>(٦)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤٥٨.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٧.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٦.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٣١٠.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٣١.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.

٦. آفات الإيمان: مُجَالَسَةُ أَهْلِ الْهُوَى مَنَسَاةٌ لِلْإِيمَانِ وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنَجَاةٍ وَكَرَامَةٍ.<sup>(١)</sup>

### معرفة عالم الوجود وما حوله:

وذلك لأنّ لهذا العامل أثراً كبيراً في أخلاق الإنسان وتصرفاته، لأنّه إذا عرف العالم حوله وأدرك سعة هذا العالم وصغره أمامه، سيترك الكبر والغرور، ويجد التأمل في نهج البلاغة إشارات العلم إلى كيفية خلق العالم والموضوعات التي ترتبط بها، وهي التي إن دلّت على شيء فهي تدلّ على علم الإمام الغزير ومعرفته الكبيرة بالعالم. وللإنسان ذي الشخصية الإسلامية السليمة هذه الاتجاهات:

يُعَدُّ الكون هدفاً ينبع من الحكمة: وذلك أنّ هناك كلاماً كثيراً للإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة عن كيفية خلق الأرض والقمر والظواهر الطبيعية الأخرى؛ وطبعاً إشارة الإمام إلى مثل هذه الموضوعات لتدلّ على أنّ هذا الخلق العظيم لم يكن سدى وبدون هدف معين؛ كما قال الشهيد المطري في هذا المجال: «إنّ مخلوقات العالم، ذات النظام المتناغم، تتطور في اتجاه واحد ونحو المركز. إنّ خلق أي مخلوق لا يكون عبثاً وبلا هدف. العالم محكوم بمجموعة من الأنظمة المحددة تسمى «التقاليد الإلهية». للإنسان شرف وكرامة خاصة بين المخلوقات، وله واجب ومهمة خاصة. فهو مسؤول عن إكمال وتثقيف نفسه وإصلاح مجتمعه. العالم مدرسة الإنسان، والله يكافئ كلّ إنسان بحسب نيّته وجهده»<sup>(٢)</sup>؛ إليك بعض إشارات الإمام للخلق في نهج البلاغة، إذ قال (عليه السلام):

خلق العالم: أَنشَأَ الْخَلْقَ إِنشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةَ أَجَاهَا، وَلَا تَجَرِبَةَ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةَ أَحَدَثَهَا، وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا...<sup>(٣)</sup>

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

(٢) مطهرى، ١٣٧٧، ش، ٢٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١.

خلق الإنسان: اعْجَبُوا هَذَا الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ حَرَمٍ<sup>(١)</sup>.

استمرارية الكون: خالق الوجود واحد. هناك نظام مستقر ومتربط ومتناسك يحكم جميع مخلوقات العالم، وهو نظام قائم على علم وإرادة وقوة من الله الواحد الأحد. إنَّ نظام السبب والنتيجة الذي وضعه الله في الوجود هو مظهر من مظاهر الارتباط نفسه. وحتى العلاقة بين أفعالنا وما أحدثته من آثار ونتائج تظهر جزءاً من هذا الارتباط.

قال أمير المؤمنين عليه السلام مشيراً إلى هذه العلاقة بين الأعمال والنتائج: أَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصَبُ أَعْيُنِهِمْ فِي [أَجَلِهِمْ] آجَلِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

هذا الفهم للوجود يجعل الإنسان يحظى بعناية خاصة وسيطرة على سلوكه وألا يفكر في نفسه على أنه مهجور ومنفصل عن الوجود كله، وأن يعرف أن أفعاله (سواء كانت إيجابية أو سلبية أو جيدة أو سيئة) لها عواقب، لا مفر منها.

علاقة العمل والنتيجة في هذه الدنيا: وذلك أنه على الرغم من أن معرفة العلاقة بين الدنيا والآخرة ترتبط بطريقة أو بأخرى بالعلاقة بين الفعل وردّ الفعل، إلا أن نتائج جميع الأعمال الصالحة والسيئة وآثارها لا تؤجل إلى الآخرة. وفي الدنيا يعاني بعض الناس فيراقبون عواقب سيئاتهم أو يراقبون حسناتهم. قال الإمام علي عليه السلام: من عاب عيب، ومن شتم أجيب، ومن غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى<sup>(٣)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٨.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٧.

(٣) الإرابي، د، ت، ٢: ٨٦٠.



### معرفة النفس:

أهمية هذا الأمر تكمن في أنّ الوعي الذاتي وإيجاد الخصائص والمواهب الكامنة هو الخطوة الأولى في متابعة طريق التطور في الحياة. إذا لم يكن الشخص على علم بمواهبه، فلن يتمكن من اتخاذ خطوات نحو تنميتها.

كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «العالم من عرف قدره؛ وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره»<sup>(١)</sup>؛ كما قال: «معرفة النفس أنفع المعارف»<sup>(٢)</sup>.

ولعل نفع هذه المعرفة الأول في معرفة الله؛ لأن هذه المعرفة السامية والشمينة هي أفضل وسيلة لمعرفة الحقيقة: «أفضل المعرفة، معرفة الإنسان نفسه»<sup>(٣)</sup>؛ التوحيد والإيمان بالله تعالى هو جوهر الدين كله و«هذا الإيمان موكول إلى ضمير الإنسان أو النفس اللوامة بالتعبير القرآني، وهي التي تفرض عليه أن يذكر الله في كل أمره، وعليها يعتمد الإسلام أساساً فيما يأخذ به أمته من شعائر وتكاليف وسلوك، وكل مؤمن رقيب على نفسه، خاضع لرقابتها، وهو أدري بما يفرط فيه وما يندم عليه ويستغفر له»<sup>(٤)</sup>.

وهناك علاقة وثيقة بين معرفة النفس ومعرفة الآخرين، ويسعى الإنسان لأن يحترم القيم عند الآخرين ويأخذ المكارم منهم ويقويها في نفسها، لأن من جهل قدر نفسه يجهل قدر كل أمر وكل شيء، كما ورد في كلام الإمام علي (عليه السلام): «من جهل قدره، جهل كل قدر»<sup>(٥)</sup>. كما ربط أمير المؤمنين (عليه السلام) بين معرفة النفس والإيمان والعمل الصالح إذ قال: «فالنّاظر

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

(٢) غرر الحكم، ح ٧٠٣٦.

(٣) غرر الحكم، ١١٨.

(٤) بدران، د. ت، ٢٥.

(٥) غرر الحكم، ٦٤٤.

بِالْقَلْبِ الْعَامِلِ بِالْبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَصَى فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلَا يَزِيدُهُ بَعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ؛ فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ أَسَائِرُ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ»<sup>(١)</sup>.

الإنسان العارف بنفسه يؤمن بأنه خليفة الله تعالى إذ قال الله عزّ وعلا في كتابه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾<sup>(٢)</sup>؛ وكما يذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) أوصاف خلفاء الله والقائمين على دينه قائلا: «لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ، وَكَمْ ذَا وَابْنٍ أَوْلَيْكَ؟ أَوْلَيْكَ وَاللَّهُ الْأَقْلُونَ عَدَدًا وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظْرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ؛ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلْثَمُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُّونَ وَأَنْسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحَّبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى؛ أَوْلَيْكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالِدُّعَاءُ إِلَى دِينِهِ؛ آه آه، شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ»<sup>(٣)</sup>.

معرفة النفس عند الإنسان تجعله يذكر الموت دائما، وأن الحياة الدنيوية زائلة فانية لا بقاء لها، ولذلك لا يخاف من الموت؛ يجد المتأمل في كلام الإمام علي (عليه السلام) العوامل التي تؤدي إلى خوف الإنسان من الموت منها:

حُبُّ الحياة الدنيوية: وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلَأُ إِلَّا الْحَيَاةَ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ،

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٣.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٣٠.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ<sup>(١)</sup>.

الموت هادم اللذات: فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لَذَاتِكُمْ وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ وَمُبَاعِدٌ طَيِّبَاتِكُمْ، زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرٌ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرٌ مَطْلُوبٍ<sup>(٢)</sup>.

عدم العلم بكيفية الموت: وذلك أن ليس إنسان يجرب الموت ويرجع إلى الدنيا. ومن الطبيعي أن يقلق الإنسان بشأن الموت وكيفية حدوثه، لأنَّ الموت يحدث بكلِّ جلاله وهيبته ويفاجئ الإنسان: «قَدْ أَعْلَقْتُكُمْ حَبَائِلُهُ وَتَكَنَّفْتُكُمْ غَوَائِلُهُ وَأَقْصَدْتُكُمْ مَعَابِلُهُ وَعَظُمْتُ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَعْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ وَخَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ وَ[خُسُونَةُ] جُشُوبَةِ مَذَاقِهِ؛ فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ وَعَفَى آثَارَكُمْ وَعَطَلَ دِيَارَكُمْ وَبَعَثَ وُورَاتِكُمْ يَقْتَسِمُونَ تَرَاتِكُمْ بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ»<sup>(٣)</sup>.

كثرة الذنوب: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ»<sup>(٤)</sup>.

وانسياقاً مع ما ذكر، فالإنسان الذي يعرف نفسه يتعد عن هذه العوامل ولا يخاف من الموت، ويراه صراطاً وجسراً إلى الآخرة ويستعد للموت، ويجهز نفسه كما ورد في كثير من المواضع في نهج البلاغة؛ منها:

«يَا بُنَيَّ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتَقْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ وَشَدَدَتْ لَهُ أَزْرَكَ وَلَا يَأْتِيكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرُكَ»<sup>(٥)</sup>؛ وقال أيضاً: «فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٠.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

كَرَامَةً يَقْبُوهَا وَلِيَحْذَرَ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا وَلِيُنْظُرَ امْرُؤًا فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوِّلِهِ وَمَعَارِفِ مُتَتَقِّلِهِ»<sup>(١)</sup>.

### ٣. ٢. القلب السليم؛ البصيرة والموقف:

فلا بد من التنويه على أن من مميزات الشخصية السليمة أن يكون لها ظل خارجي ممتد، وعندما يصير الهدف إنسانياً أو اجتماعياً يكون فجر الشخصية قد انبثق، فإذا صار الهدف روحانياً فقد يبلغ الإنسان إلى مستوى أعلى الذي هو مستوى الإيمان، وهو تلك القوة الخارجية التي تشع في داخل الإنسان الصبر والعزيمة.

ومن هذا المنطلق تظهر أهمية القلب الإنساني الذي هو مركز البصيرة ويحدد موقفه في مواضع مختلفة، ولذلك من أبعاد الشخصية الإسلامية السليمة من منظور الإمام علي (عليه السلام) هو القلب. وفي التالي، نشير إلى ما وجدنا في كلام الإمام (عليه السلام) والذي يدل على هذه الأهمية: القلب السليم يقبل المواعظ: «فَطُوبَى لِمَنْ لَدَى قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرِيدُهُ وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنْ بَصَرَهُ وَطَاعَةَ هَادٍ أَمَرَهُ وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَأَمَاطَ الْحُوبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ»<sup>(٢)</sup>.

أهم موانع القلب السليم والحجب التي تستره هو:

القساوة؛ كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾<sup>(٣)</sup>؛ وقال الإمام علي (عليه السلام) موصياً مالك الأشتر النخعي بالشفقة على الناس والرحمة عليهم؛ لأن القلب القاسي لا يعرف الرحمة: «أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ»<sup>(٤)</sup>؛

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٤.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٧٤.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

الذنوب والمعاصي: ويعتبر الإمام أشدّ الذنوب تلك التي يستخفّ بها صاحبها: «أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعْظِ مُتَعِظٍ وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ»<sup>(١)</sup>؛ وينهى عن الإصرار على صغار الذنوب: «وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

عدم قبول المواعظ: يوصي الإمام الناس بأخذ المواعظ من الوعاظ العاملين بها أولاً: «أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعْظِ مُتَعِظٍ وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ»<sup>(٣)</sup>.

عدم الاهتمام بالبصيرة والتبصير: التبصير منهج واضح في السيرة العلوية في تذكير الحقيقة للناس ليهديهم إلى الرشد والصراط المستقيم. قال (عليه السلام) في توضيح هذا المنهج: «أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ وَأَتْرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ، قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَفَّقْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي»<sup>(٤)</sup>؛ عدم الاهتمام بالبصيرة والتبصير من العوامل التي تجعل قلب الإنسان قاسياً بعيداً عن الحق.

يعدّ الإمام علي (عليه السلام) الزهد عاملاً مهماً في بصيرة الناس لملاحظة سيئات الحياة الدنيوية: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا، يُبْصِرُكَ اللَّهُ عَوْرَاتِهَا، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ»<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٤٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٠.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٥.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٨٧.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٣٩١.

### ٣.٣. السلوك السليم؛ المنهج والطريقة:

أما البعد الثالث من أبعاد الشخصية السليمة في نهج البلاغة، والتي هي رمز وتعبير عن القيم والمعتقدات والدوافع والأفكار وتأثيرها، فهي صفة سلوكية. وقد أكد أمير المؤمنين (عليه السلام) كثيراً دور العمل الصالح في النجاة والوصول إلى الحياة الطيبة. في التالي أهم مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة التي تتمثل في الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الطيبين الطاهرين (عليهم السلام)، وذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة:

الصبر: ترجع عناية أمير المؤمنين (عليه السلام) البالغة بالصبر إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملّة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً، ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر. قد ظهر الصبر في نهج البلاغة بصور مختلفة، منها:

الصبر وسيلة النجاة: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى وَ دُعِيَ إِلَى رِشَادٍ فَدَنَا وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنجَا، رَاقِبَ رَبَّهُ وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصًا وَعَمِلَ صَالِحًا،...، جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ<sup>(١)</sup>.

الصبر نعم الخلق: عَوَّذَ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ وَنِعَمَ الْخُلُقِ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ<sup>(٢)</sup>.

الصبر قيمة الإيمان: عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ، وَلَا [خَيْرَ] فِي إِيْمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ<sup>(٣)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٧٦.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٨٢.

أنواع الصبر: الصَّبْرُ صَبْرَانِ، صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ<sup>(١)</sup>.

الصبر قبر العيوب: الْإِحْتِمَالُ قَبْرِ الْعُيُوبِ<sup>(٢)</sup>.

الصبر على الطاعة: عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْمُجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ؛ فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>.

العدالة الاجتماعية والاقتصادية: أساس مواجهة الإنسان القضايا الاجتماعية العدالة وهي الموازنة والموازنة بين الأمور بأن يوضع كل في موضعه الذي يستحقه، وعلى كل مسلم أن يؤمن بهذا الأمر ويهتم به؛ ولذلك جاء الأمر الإلهي بالعدل ليكون أساس العمل في المجتمع والحجر الأساس في بنائه. ولأمير المؤمنين عليه السلام آراء صائبة في العدل وكيفية تطبيقه في المجتمع في الجوانب المختلفة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، كما إن مدة خلافته مع قصرها كانت نموذجاً كاملاً لتطبيق العدالة في المجتمع ولن ينسى التاريخ عدالة علي عليه السلام طوال الدهر؛ إليك بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام في العدالة:

العدل أشرف من العفو: سُئِلَ عليه السلام أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، الْعَدْلُ أَوْ الْجُودُ؟ فَقَالَ عليه السلام: الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا؛ وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ؛ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا<sup>(٤)</sup>.

استعمال العدالة في الخراج: اسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، وَاحْذَرِ الْعُسْفَ وَالْحَيْفَ؛ فَإِنَّ الْعُسْفَ يَعُودُ بِالْجُلَاءِ، وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٥٥.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٦.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٤٣٧.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٤٧٦.

وصية العمال والحكام بالعدالة: فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرِّعِيَّةِ وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ وَسَفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ<sup>(١)</sup>.

نتيجة العدل: بِالسَّيْرِ الْعَادِلَةِ يُقْهَرُ الْمُتَنَاوِي<sup>(٢)</sup>.

الاهتمام بالقانون: لا يمكن للحياة الإنسانية أن تتكامل من دون سيادة القانون، وسيكون استمرارها صعباً. ولهذا السبب، بدأ نبي الإسلام بتشكيل الحكومة مباشرة بعد اجتماع المسلمين، وذلك لتوفير أسس إقامة الشريعة. السيرة العلوية تدل على أهمية إقامة القوانين الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة النبوية في المجتمع. الكتاب ٥٣ من نهج البلاغة، المعروفة بوصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر، هي مجموعة مقننة من قوانين إدارة الدولة. وفي هذا الكتاب كُتبت المبادئ العامة للإدارة السياسية والإدارية والتنفيذية للحكومة، وسُلِّمت إلى مالك الأشتر لإدارة دولة مصر، تلك الحضارة العريقة.

السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا كتب الإمام (عليه السلام) مثل هذا العهد العلمي الدقيق والتفصيلي لصاحبه فقط ولم يوجه أي تعليمات لعماله الآخرين؟! أجب أحد العلماء هكذا: لأن مصر لها تاريخ طويل، وكانت مركز العلوم والفلسفة منذ زمن بعيد، وكانت الفلسفة اليونانية تدرس هناك، وعلى هذا المبدأ فإنَّ تعليمات الرسول الكريم غنية جداً ومناسبة للنمو<sup>(٣)</sup>.

اتباع الحق والابتعاد عن الباطل: من مظاهر هذا السلوك في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)

هي:

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٤.

(٣) منتظري، ١٣٩٧، ش، ٢: ٢٤.



عدم التقصير في أمر الحق: وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ مِنْ إِذْهَانٍ وَلَا إِيْهَانٍ<sup>(١)</sup>.

طريق الحق واضح: اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْصَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ، فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ<sup>(٢)</sup>.

التشجيع على قبول الحق: فَلَا تَنْفَرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرِبِ وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ<sup>(٣)</sup>.

إقامة الحق من حقوق الله: مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ [سُبْحَانَهُ] عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهِدِهِمْ وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ؛ وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup>.

الحكومة لإقامة الحق: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاللَّهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا<sup>(٥)</sup>.

نتيجة معرفة الحق: فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحٍ عَمَلِهِ<sup>(٦)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

عدم إيذاء الناس: إنَّ إيذاء الآخرين من الرذائل الأخلاقية، وعامل مهم في إخلال التوازن في الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ [مَا] لَا يَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup>.

العطاء والسخاء: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يحثُّ على العطاء والسخاوة في كلامه كما إنَّ سيرته العطرة تدلُّ على كثرة جوده وكرمه؛ هو الذي تصدَّق بخاتمه وهو راعع ونزلت الآية المباركة في شأنه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>؛ وقال (عليه السلام): السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً؛ فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ<sup>(٣)</sup>؛ ويعتبر السخاء نتيجة الاطمئنان بثواب الله تعالى: مَنْ أَقْبَنَ بِالْخَلْفِ، جَادَ بِالْعَطِيَّةِ<sup>(٤)</sup>.

اجتناب الرذائل الأخلاقية كالكذب والتهمة والغيبة... إنَّ لترسيخ القيم والفضائل الأخلاقية أثراً كبيراً في النمو الروحي والكمال للإنسان، ويجب على كلِّ إنسان في حياته الشخصية والاجتماعية أن يتحلَّى بالفضائل والقيم الأخلاقية حتى يصل إلى المراكز الروحية الرفيعة والنمو الديني والكمال وتحسين الذات، وحتى في المجالات الأخلاقية الأخرى. ولذلك يجد المتأمل في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) الإشارة إلى القيم والفضائل الأخلاقية كما أنَّه أشار إلى الرذائل الأخلاقية التي يجب على كلِّ إنسان على وجه العموم وكلِّ مسلم على وجه الخصوص أن يتجنبه لأنَّ وجودها في المجتمع أمر خطير لسلامة الناس النفسية. من هذه الرذائل التي أشار إليها الإمام علي (عليه السلام) هي الغيبة إذ يعتبرها الإمام جهد العاجز:

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٥.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٥٥.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٥٣.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ١٣٨.

«الْغَيْبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ»<sup>(١)</sup>. ويحث الناس على أن يجتنبوا مواضع التهمة: «مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهْمَةِ، فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ»<sup>(٢)</sup>؛ وقال في العجب والتكبر: «اعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ»<sup>(٣)</sup>؛ والكذب في رأي أمير المؤمنين عليه السلام يتنافى مع الإيمان، وأشار إلى أن الكذب يشكل سبباً للفضيحة، كما إنه يشكل سبباً فكرياً وثقافياً وأخلاقياً لسقوط الإنسان: «جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ؛ الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ وَالكَاذِبُ عَلَى شَرَفٍ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ»<sup>(٤)</sup>.

الأمانة: يعدّ فهم الأمانة للعمل والمسؤولية والقيام بالأشياء من خلال النهج الائتماني مبدأ أساسياً في الأخلاقيات والتعاملات الإنسانية؛ إذا اعتبر الإنسان العمل والمسؤولية أمانة فلا شك أنه سيحترمها ويحاول تعزيزها بشكل جيد؛ لذلك كتب الإمام إلى أشعث بن قيس: «إِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ»<sup>(٥)</sup>؛ وكتب إلى أحد عماله: «مَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنْزِرْهُ نَفْسُهُ وَدِينُهُ عَنْهَا فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذَّلَّ وَالْخُزْيَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ وَأَفْظَعَ الْغَشِّ غَشُّ الْأَيْمَةِ»<sup>(٦)</sup>.

العفة: قال أمير المؤمنين عليه السلام في قيمة العفة: مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة<sup>(٧)</sup>؛ في الروايات الإسلامية، تشمل العفة مجالات مختلفة من حياة الإنسان. ومن حالات العفة يمكن أن نذكر العفة في الكلام

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤٦١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٩.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب ٥.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب ٢٦.

(٧) نهج البلاغة، الحكمة ٤٧٤.

والبطن والستر والجمال وغيرها. قال (عليه السلام) في صفات المتقين: «بَعِيداً فُحْشُهُ لَيْنًا قَوْلُهُ... لَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ... لَا يَسْمَتُ بِالمَصَائِبِ... لَا يَدْخُلُ فِي البَاطِلِ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ... إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغْمَهُ صَمْتُهُ وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ»<sup>(١)</sup>؛ ومن أنواع العفة الاعتدال في الأكل والشرب: «يَا ابْنَ حَنِيفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْحِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ يَجْفَوْنَ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ؛ فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْصُمُهُ مِنْ هَذَا الْمُقْصَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظَةُ وَمَا أَقْنَعَتْ بِطِيبِ [وَجْهِهِ] وَجْوهِهِ فَنَلَّ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup>؛ ويرى الإمام علي (عليه السلام) أَنَّ العفة في اللباس هي مراعاة الشعائر والمعايير الدينية التي حددها القرآن الكريم وأوضحها: وَاكْتَفَى عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكِ إِيَّاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ<sup>(٣)</sup>.

كل ما ذكر في قسم السلوكيات، وهو أكثر مما ذكرنا، يندرج تحت الأخلاق التي لها «مكانة عظمى وأهمية كبرى في حياة الأمم والشعوب بعامة وفي حياة المجتمع المسلم بخاصة، فبقدر ما يتحلى أبناء المجتمع أفراداً وجماعات بمكارم الأخلاق وجميل الصفات ومحاسن العادات بقدر ما تبقى أمتهم قوية ومعمرة ما دامت متمسكة بذلك وأما إذا تدهورت الأخلاق وضعفت أو فسدت كان هذا نذير شؤم على تلك الأمة وذلك المجتمع»<sup>(٤)</sup>؛ وذلك لأنَّ الأخلاق ركنية أساسية في بناء الحضارة لما تثمره في الفرد من الإيجابية والعطاء وحسن التعامل مع الآخرين ومنع الإيذاء لهم إضافة لما تعكسه الأخلاق على المجتمع من الرقي في العلاقات والفاعلية في الإنجازات»<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٤) إسماعيل، ٢٠١٥م، ١٦٨.

(٥) الغامدي والآخرين، ١٤٣٢هـ، ١٩.

## الخاتمة والنتائج

١. بعد التأمل ودراسة مواصفات الشخصية الإسلامية السليمة في نهج البلاغة من منظور الإمام علي (عليه السلام)، فقد عثرنا على عدة نتائج في الإجابة عن السؤال الرئيس لهذا البحث؛ من أهمها:
٢. مواصفات الشخصية السليمة تتحدد في ثلاثة أبعاد: العقل والقلب والسلوك.
٣. يشمل العقل السليم للشخصية الإسلامية السليمة هذه الجوانب: معرفة الله تعالى والإيمان به؛ معرفة عالم الوجود وما حوله؛ معرفة النفس.
٤. القلب السليم الذي ذكره القرآن الكريم بأنه لا نجا إلا به هو الذي يقبل الموعظة ويتعد عن الموانع والحجب التي يمكن خلاصتها في أمور عدة منها: القساوة، الذنوب والمعاصي، عدم قبول المواعظ، عدم الاهتمام بالبصيرة.
٥. الشخصية السليمة تهتم بسلوكياته وأخلاقه وكيفية تعامله مع الناس في المجتمع، ويجعل العلاقات الاجتماعية السليمة نصب عينيه.
٦. السلوك السليم يشمل مواصفات عدة منها: الصبر، العدالة الاجتماعية والاقتصادية، الاهتمام بالقانون، اتباع الحق والابتعاد عن الظن، عدم إيذاء الناس، الاطمئنان في الكلام والسلوك، السخاوة، اجتناب الرذائل الأخلاقية كالكذب والتهمة والغيبة، الأمانة، العفة، الإحسان إلى الوالدين، الاعتدال في الأمور.
٧. الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته الطاهرون هم النموذج الأعلى للشخصية الإسلامية السليمة، وهم خير تمثيل لها بأخلاقهم وتصرفاتهم، وهم القدوة المثالية للناس في كل الأزمان.
٨. بالاهتمام بالأبعاد الثلاث (العقل والقلب والسلوك) في الشخصية السليمة تتكون الشخصية المتوازنة التي تجمع بين مقومات الدين الإسلامي ومقومات العصر الجديد.

## المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدى به القرآن الكريم.

١. الإربلي، علي بن عيسى (ت ٦٩٢هـ)، (د. ت). كشف الغمّة في معرفة الأئمة، د.م: الراضي.

٢. إسماعيل، عبد المعبود إسماعيل إبراهيم، (٢٠١٥م)، «بناء الشخصية السويّة في ضوء الثقافة الإسلامية»، مجلة الدراية، العدد ١٥ ف الجزء ٢، صص ١٠٣ - ٢٤٠.

٣. بدران، عمرو حسن أحمد، (د.ت). الشخصية، القاهرة: مكتبة الإيمان.

٤. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت ٨١٦هـ)، (١٩٨٣م). كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت: دار الكتب العلمية.

٥. حسنعليان، سمية، (١٤٤١هـ). قراءة جمالية بلاغية في مكاتيب الإمام الصادق (عليه السلام)، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد ٥٦، الجزء ١، ٣٤١ - ٣٦٥.

٦. حياني، محمد عبد الله، (٢٠١٠م). الثقافة الإسلامية وقضايا ثقافية معاصرة، السعودية: فهرسة الملك فهد الوطنية.

٧. الرفاعي، أحمد حسين، (٢٠٠٩م). مناهج البحث العلمي (تطبيقات إدارية واقتصادية)، عمان: دار وائل للنشر والتوزيع.

٨. السمالوطي، نبيل، (١٩٩٨م). بناء المجتمع الإسلامي، ط ٣، د. م: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة.

٩. طه، خوشي لطيف، (٢٠١٥م)، «سمات الشخصية السوية لدى طلبة كلية التربية الأساسية»، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد ٤١، صص ٤٦٠ - ٤٩٦.

١٠. عليان، شوكت محمد، (١٩٩٦م). الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط ٢، الرياض: دار الشواف.

١١. العمري، نادية شريف، (٢٠٠١م). أضواء على الثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٢. الغامدي، سعيد بن ناصر، وآخرون، (٢٠١١م). الثقافة الإسلامية، ط ٢، جدة: دار حافظ.

١٣. محمود، أحمد فؤاد، (٢٠٠٠م). أضواء على الثقافة الإسلامية، السعودية: إشبيليا للنشر والتوزيع.

١٤. مطهري، مرتضى، (١٣٧٧. ش). جهان بيني توحيدى، طهران: انتشارات صدرا.

١٥. مكتبي، محمد غياث، (د. ت). الإعلام الإسلامي، دمشق: دار المكتبي.

١٦. منتظري، حسين علي، (١٣٩٧. ش). درسهای از نهج البلاغه، ط ٢، قم المقدسة: مركز جهاني علوم اسلامي.

١٧. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، (١٤١٤هـ). لسان العرب، بيروت: دار صادر.

١٨. وصفي، عاطف، (١٩٨١م). الثقافة والشخصية، بيروت: دار النهضة العربية.

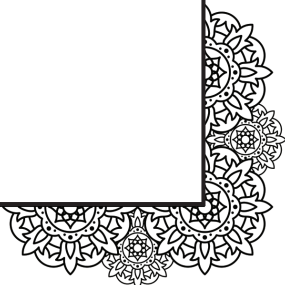
١٩. هريدي، عادل محمد، (٢٠١١م). نظريات الشخصية، ط ٢، القاهرة: مكتبة إيتراك.



**بواكير التفسير الموضوعي**  
**عند السيدة الزهراء عليها السلام**  
**آيات الإرث مصداقاً تطبيقياً**

الباحثة  
أ.د. سيروان عبد الزهرة الجنابي

كلية التربية / جامعة الكوفة





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

إذا كان النصّ القرآني قد هبطَ على أهل الأرض بداعي هدايتهم إلى الرشاد وانتشالهم من غياهب الضلالة إلى فيافي النور الساطع، فإنّ هذا يلزم عقلاً أن ينطوي على جملة من الحلول الناجعة التي تتولّى تهذيب السلوك البشري، وتتعهّد بتشذيبه وإعادة تأهيله تارة أخرى ليغدو مُمنهجاً ومُنسقاً على وفق مرادات السماء نفسها. فإذا ما تمّ لنا ذلك منطقاً، فإنّ هذا المنطق العقلي يوجب على الإنسان نفسه أن ينظر إلى هذا النصّ نظرة استنطاق، ويوغل فيه توغّل استنتاج ليصل منه محصلة إلى المراد الذي يبلّغُه الغاية في حلّ المشكل الخارجي الذي يتحدّى عقله من جهة، ويعرقل حياته تعثراً من جهة أخرى؛ ذلك بأنّ حياة الإنسان طويلة، وحاجاته فيها غزيرة. وفي خضمّ هذا الطول وتلك الغزارة، يتنامى أمام الإنسان الإشكال المعرفي، ويتمهى أحياناً أخرى المشكل الواقعي، مما يدخله من حيز الحيرة ويولجه في نطاق التردّد وعدم القدرة على الحسم. من هنا يركنُ المرءُ إلى جمع جملة نصوص قرآنية تتعلق بهذا المشكل الخارجي سواء أكان فكراً أم واقعياً من الوصول إلى نتيجة مرضية، أو علاج ناجع، أو وصلة حلّ شافية يعتمدُها للخلاص، مما يقف أمامه شاخصاً ويهيمن عليه مُتفرعاً.

من هنا، ومن أجل هذا، نشأ ما يسمى بـ (التفسير الموضوعي للنصّ القرآني)، وهو عملية جمع نصوص من التعبير القرآني تقوم تلك النصوص على موضوع واحد، وتفسيرها تفسيراً شمولياً لا انتزاع رؤية قرآنية متكاملة عن ذلك الموضوع المراد بيانه<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير: ٣٦٨/٥، ومحمد حسين الصغير: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: ١٢٤، وعبد الستار حامد: مباحث في علم التفسير: ١٩٧، وأحمد الشرباصي: قصة التفسير: ٢٦٢.

ومن جنس الذين عرضوا لمفهوم التفسير الموضوعي أمين الخولي؛ إذ يرى أنَّ مفهوم هذا النمط من التفسير يكمن في (أنَّ تجمع آياته الخاصة بالموضوع الواحد جمعاً إحصائياً مُستفيضاً، ويعرف بترتيبها الزمني، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتُفسَّر وتُفهم، فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى، وأوثق في تجديده)<sup>(١)</sup>.

وذهب السيد محمد باقر الصدر إلى أنَّ التفسير الموضوعي ينطلق من وجود مُشكل خارجي يمثل موضوعاً للبحث في طيّات النصوص المعجزة سعيّاً وراء استكناه حلٍّ لذلك المشكل<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإنَّ تسمية هذا النمط البياني بـ(التفسير الموضوعي) ينصُّ على أنَّه قد أُطلقت عليه هذه التسمية (تأسيساً على أنَّه يبدأ بموضوع مُستعصٍ من الحياة وينتهي إلى استفهام دلالي من النص لقراءة ذلك المشكل على أساس منطق الحلِّ؛ وبذلك يدور بين قطبين هما (التساؤل عن إشكالية خارجية) و(البحث داخل النص)؛ والرابط بينهما هو (العقل البشري) فهو الذي يُشخّص ما في الخارج ليركن نحو البحث إلى ما في الداخل (النص المقدّس) ليخرج بإيفاءات عن ذلك التساؤل<sup>(٣)</sup>.

ويسمى هذا النمط من التفسير بـ(الموضوعي) تارةً وبـ(التوحيدي) تارةً أخرى<sup>(٤)</sup>؛ إذ يقول السيد الصدر: (اصطلاح الموضوعية هنا ... بمعنى أنَّه يبدأ من الموضوع من الواقع الخارجي من الشيء الخارجي، ويعود إلى القرآن الكريم، .... وتوحيدي باعتبار أنَّه يوحد

(١) أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير: ٣٦٨/٥.

(٢) ينظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية: ٣٥.

(٣) سيروان عبد الزهرة الجنابي: مناهج تفسير النص القرآني: ٢٣٦-٢٣٧.

(٤) وقد أطلق بعض الباحثين على هذا النمط من التفسير تسمية (التفسير التجميعي) لأنَّه يقوم على أساس جمع الآيات القرآنية بعضها إلى بعض على موضوع واحد، ينظر: أحمد رحماني: التفسير الموضوعي نظريّة وتطبيقاً: ١٠٨.

بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم، لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن، لا بمعنى أنه يخضع القرآن للتجربة البشرية؛ بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث، يستخرج المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام من هذه التجربة أو المقولة الفكرية التي أدخلها في سياق بحثه<sup>(١)</sup>.

بهذا نفهم بأن (الموضوع المراد تفسيره أو استنتاجه بياناً من النص لا بد من أن ينبثق من الواقع المعاش وبهذا يعدُّ نشوء الإشكالية في الحياة المنطلق الأول أو المكوّن الأساس لعملية وجود المنهج الموضوعي وتكامله، فلو لا وجود المشكل الخارجي (الموضوع) ما توجه العقل للبحث في طيّات النص لاستخراج الإجابة؛ وهنا يردُّ المنطلق الثاني والأخير من المنهج الموضوعي في التفسير ألا هو (النص القرآني)، فهو المجيب عن إشكال ذلك الواقع، والوافي بمراد سؤال الحياة<sup>(٢)</sup>.

إذا كان الحال بهذا التصوّر فإنه يمكن القول بأن هذا النمط من الممارسة التفسيرية في النصّ القرآني إنّما هي من مُتَبَنِّيات العصر الحديث؛ ذلك بأنّ المفسرين الماضين كانوا يعتمدون منطق التفسير التجزيئي الذي (يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف)<sup>(٣)</sup>، ذلك بأنّ (المفسّر في هذا اللون من التفاسير لا يدعوه مُعضل خارج النصّ للبحث داخل النص - كما هي الحال في التفسير الموضوعي - بل يبدأ مباشرة بتفسير الآيات القرآنية بشكل تسلسلي جزءاً فجزءاً؛ ولهذا سُمِّيَ هذا النمط بـ (التفسير التجزيئي أو التسلسلي)، وهو من أكثر أنواع التفاسير شيوعاً واستعمالاً، وأقدمها ضرباً في العمق التاريخي لحركة التفسير القرآني)<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية: ٣٥.

(٢) سيروان عبد الزهرة الجنابي: مناهج تفسير النصّ القرآني: ٢٣٦.

(٣) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية: ٢٠.

(٤) سيروان عبد الزهرة الجنابي: الاشكاليات النظرية للتفسير الموضوعي: ١٠٢.

وعليه فإن التفسير الموضوعي لم يظهر إلا بعد أن تطوّرت العقلية التفسيرية وغدا لدى المُفسّر القدرة على ربط الآيات القرآنية وقرأتها على محور واحد من أجل انتزاع علاج لمعضل أو مشكل يشغل تفكيره؛ وبهذا ف (إنّ التفسير الموضوعي ولد بفعل مُتطلبات العصر الحديث، واستجابةً لحاجة المسلمين للعودة إلى كتاب الله حاضراً... وبهذا اللحاظ فإنّ الاتجاه الموضوعي هو وليد عصر بخصائص وأوضاع محددة تختلف عن العصور السابقة، ومن ثمّ فلا معنى لنسبته إلى تلك العصور)<sup>(١)</sup> القديمة.

وإذا كان الأمر بهذا التصور فإنّ فرضية هذا الجهد العلمي تنطلق من التساؤل الذي ينصّ على أنّه هل حقاً أنّ التفسير الموضوعي هو وليد العصر الحاضر لحاجة الناس إلى حلّ المشكلات من جهة، ولتطور العقلية التفسيرية من جهة أخرى؛ أو أنّ للبحث في هذا الموضوع رأياً آخر يمكنُ الركون اليه باطمئنان، والسكون إليه بثقة ويقين عاليين.

وللإجابة عن هذه الفرضية، يمكن القول بأنّ السيدة الزهراء (عليها السلام) قد أجهضت المنظور الذي يقول بأنّ التفسير الموضوعي من مُتبنّيات العصر الحديث، وبأنّ القاعدة المعرفية لما اتسعت للمُفسّر غدا قادراً على ممارسة هذا النمط من الفهم القرآني؛ ذلك بأنّ السيدة الزهراء نفسها قد مارست هذا العمل التفسيري كما سيبدو لاحقاً، وإذا ثبت لنا هذا فإنّ المنظور الحديث لهذا الأداء المضموني للقرآن الكريم سيذهب سدى، وسيتحطم على أرض الواقع الفعلي المؤدّي من السيدة الزهراء (عليها السلام) لا محالة.

### التفسير الموضوعي للسيدة الزهراء (عليها السلام) في إثبات أحقيتها في الإرث:

إذا كان ثمة معتقد سائد ينصّ على أنّ التفسير الموضوعي هو من منتجات العصر الحديث، وأنّه لم يثبت نشوؤه في زمن الرسول الأكرم، ولم يكن قد مورس على يد الصحابة

(١) جواد علي كسار: التفسير الموضوعي مقارنة بين السيد الصدر وآخرين: ٤٥.

كما حَسَبَ ذلك الباحثون، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ القولُ بأنَّ التفسيرَ الموضوعي قد نشأ على يد سيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)؛ فهي أول مَنْ مارَسَتْ التفسيرَ الموضوعي تطبيقاً ووجوداً على أرض الواقع. وقد تحقَّق ذلك تجسيداً فيما احتجَّت به (عليها السلام) على أحقية قولها بالمطالبة بإرثها من أبيها - الرسول الأكرم - بعد أن مُنِعَتْ منه<sup>(١)</sup>؛ إذ تقول (عليها السلام): (أيُّها المسلمون أأغْلَبَ على إرثي؟ يا ابن أبي قحافة: أفي كتاب الله ترث أباك ولا إرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلی عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: فيما اقتَصَصَ من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup> وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَى﴾<sup>(٥)</sup>، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٦)</sup>، وزعمتم: أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنَّ أهلَ ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهلِ ملةٍ واحدةٍ؟<sup>(٧)</sup>.

(١) ينظر: سكينه عزيز عباس الفتلي: المنهج التطبيقي لتفسير القرآن الكريم عند أهل البيت (عليهم السلام)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د. محمد حسين علي الصغير، كلية الفقه - جامعة الكوفة، ٢٠٠٩م: ١١٥ وما بعدها، وغفران ياسين محمد الهاشمي: دور السنة المطهرة في تأصيل علم التفسير، رسالة ماجستير، بإشراف: أ.م.د. سيروان عبد الزهرة الجنابي، وأ.م.د. علي خضير حجي، كلية الفقه - جامعة الكوفة، ٢٠١٢م: ١٨٢.

(٢) سورة النمل: الآية: ١٦.

(٣) سورة مريم: الآيتان: ٥-٦.

(٤) سورة الأحزاب: الآية: ٦.

(٥) سورة النساء: الآية: ١١.

(٦) سورة البقرة: الآية: ١٨٠.

(٧) الطبرسي: الاحتجاج: ١/١٣٨، وينظر: المجلسي: بحار الأنوار: ٢٩/٢٢٦-٢٢٧.

فعند النظر في مقولة الزهراء (عليها السلام) نجد أنَّها قد اعتمدت نمط التفسير الموضوعي؛ إذ ثمة إشكال خارجي وهي حرمانها من الإرث من دون وجه حق؛ ولهذا ركنَت سيدة نساء العالمين (عليها السلام) إلى جمع كلِّ النصوص القرآنية التي تتعلق بحل هذا المشكل الخارجي من أجل إثبات أحقيتها في إرث أبيها مطلقاً<sup>(١)</sup>؛ وبذا تحقَّق التفسير الموضوعي عياناً ووجوداً على يديها.

(١) ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: الإشكاليات التنظيرية للتفسير الموضوعي: ٣٦.

## المبحث الأول

### الاستدلال بوارثة سليمان من النبي داود ﷺ

عند معاودة النظر في نص السيدة الزهراء عليها السلام نجدها قد استدلت بقوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾<sup>(١)</sup> فإذا كان الله تعالى - هنا - يبيح شرعاً وراثته سليمان من داود وأن داود نبي فإن هذا - محصلة - يميز الوراثة من الأنبياء قطعاً.

وقد ذهب أرباب التفسير إلى أن مورد الوراثة - هنا - من داود هو وراثته العلم إلى سليمان وليس وراثته المال؛ وهذا ما اتفق عليه الجمهور<sup>(٢)</sup>؛ إذ (قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ وَرَاثَةُ الْمَالِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهُ إِرْثُ الْمَلِكِ وَالنَّبُوَّةِ)<sup>(٣)</sup> فالمعنى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ) أباه (دَاوُدَ) العلم الذي كان آتاه الله في حياته<sup>(٤)</sup>.

وعليه فإن نطاق الوراثة ههنا هي وراثته (العلم والحكم لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير)<sup>(٥)</sup>.

ولرد على هذا الاتفاق الواقع بين المفسرين يمكن القول بأن القول بوارثة العلم والنبوة هو محل نظر وموئل تأمل وموطن استرجاع؛ ذلك بأن الله تعالى قد قَدَّمَ ابتداءً قبل قوله ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾<sup>(٦)</sup> قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٧)</sup>؛ من هنا نفهم بأن قوله تعالى تنصيصاً ﴿وَلَقَدْ

(١) سورة النمل: ١٦.

(٢) ينظر: ابن الجوزي: زاد المسير: هامش: ٣/ ١٢٠.

(٣) السمعاني: تفسير السمعاني: ٤/ ٨١.

(٤) القرطبي: جامع البيان: ١٩/ ٤٣٧، وينظر: البغوي: معالم التنزيل: ٣/ ٤٩٢.

(٥) السمرقندي: بحر العلوم: ٢/ ٥٧٥.

(٦) سورة النمل: ١٦.

(٧) سورة النمل: ١٥.

آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ يَدَّلْ عَلَى أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ قَدْ مَنْحَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ ابْتِدَاءً؛ وبدا لم يكن العلم الذي استحصله سليمان والنبوة التي أحرزها هي وراثته من داود؛ بل استوفاهما من الله تعالى فضلاً كما استوفاهما داود أبوه من قبل؛ والدليل هو أَنَّ كليهما حمداً لله تعالى على هذا الإيتاء - أي على إيتاء النبوة والعلم لهما - إذ قال سبحانه على لسانهما ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وعليه لا وراثته ولا توارث في الحكمة والعلم والنبوة بينهما؛ بل يمكن القول بأنَّ الله تعالى يفضِّل أحياناً نبياً على آخر في مقام ما أو مسألة معينة، بدلالة قوله تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup>.

ومن سنخ مصداق هذه الأفضلية أَنَّ الله تعالى قد فَضَّلَ النَّبِيَّ سُلَيْمَانَ عَلَى النَّبِيِّ دَاوُدَ فِي مَسْأَلَةِ فَصْلِهِ فِي حَكْمِ الْغَنَمِ؛ إذ قال تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>(٢)</sup>؛ إذ روي (أَنَّ غَنَمَ قَوْمٍ وَقَعَتْ فِي كَرَمٍ قَوْمٍ لِيلاً حِينَ خَرَجَ عَنَايِدُهُ، فَأَفْسَدَتْهُ، فَاخْتَصَمُوا إِلَى دَاوُدَ فَقَوَّمَ دَاوُدَ الْكَرْمَ وَالْغَنَمَ، فَكَانَتِ الْقِيَمَتَانِ سَوَاءً؛ أَي: قِيَمَةُ الْغَنَمِ وَقِيَمَةُ مَا أَفْسَدَتْ مِنَ الْكَرْمِ، فَدَفَعَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرْمِ، فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، فَمَرَّوْا بِسُلَيْمَانَ)<sup>(٣)</sup>

(١) سورة البقرة: ٢٥٢.

(٢) سورة الانبياء: ٧٩٧٨.

(٣) السمرقندي: بحر العلوم: ٤٣٣/٢ - ٤٣٤، وفي رواية أُخرى قيل: (إِنَّ رَجُلَيْنِ دَخَلَا عَلَى دَاوُدَ؛ أَحَدُهُمَا صَاحِبُ حَرْثٍ وَالْآخَرُ صَاحِبُ غَنَمٍ. فَقَالَ صَاحِبُ الزَّرْعِ: هَذَا انْفَلَتَتْ غَنَمُهُ لِيلاً فَوَقَعَتْ فِي حَرْثِي، فَلَمْ تَبْقَ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَالَ لَهُ دَاوُدَ: اذْهَبْ فَإِنَّ الْغَنَمَ لَكَ، فَأَعْطَاهُ رِقَابَ الْغَنَمِ بِالْحَرْثِ، فَخَرَجَا فَمَرَّا عَلَى سُلَيْمَانَ فَقَالَ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَوْ وَلَّيْتُ أَمْرَهُمْ لَقَضَيْتُ بَغْيَهُ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ دَاوُدَ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: ادْفَعِ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ نَسْلُهَا وَرَسْلُهَا وَحَرْثُهَا وَعَوَارِضُهَا وَمَنَافِعُهَا، وَيَبْذُرُ أَصْحَابُ الْغَنَمِ لِأَهْلِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ، فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ وَصَارَ الْحَرْثُ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ أَكَلَ دَفْعَ إِلَى أَهْلِهِ وَأَخَذَ صَاحِبُ الْغَنَمِ غَنَمَهُ)، الثعلبي: الكشف والبيان: ٢٨٥/٦.



فسألهم عن مسألتهم فقصّوا عليه الحادثة فحكم لهم بحكم آخر؛ إذ (قال سليمان: ياخذ أهل الكرم الغنم، ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها، ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم، حتى إذا عاد الكرم كما كان ردّوه، فقال داود: نَعَمْ ما قضيت به، ففضى داود بينهم بذلك)<sup>(١)</sup>؛ بهذا نفهم بأن سليمان قد فُضِّلَ على أبيه داود بهذا الحكم، وهو تماماً ما يُفسَّرُ قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾<sup>(٢)</sup>.

من هنا نقول بأنه لو صحَّ أن سليمان كان قد ورث العلم والنبوة والحكمة من أبيه داود وأن ما لدى داود هو ما لدى سليمان بالوراثة؛ لو تحقق ذلك فعلاً لكان بإمكان داود الحكم كما حكم سليمان، باعتبار أن ما عند سليمان من العلم والحكمة هو ما عند داود دون زيادة أو نقصان، ولكن الحقيقة وما تجسد على أرض الواقع هو غير هذا تماماً؛ إذ لكل منهما علم وحكمة، ولكن يُفَضَّلُ الله تعالى أحدهما على الآخر لحكمةٍ لديه ولغايةٍ عنده سبحانه<sup>(٣)</sup>.

أما قوله تعالى ﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فلا يقدر بمسألة أفضلية حكم سليمان مقابل حكم داود؛ ذلك بأن لكل نبي علماً وحكمة، ولكن فَضَّلَ الله تعالى بعضهم على بعض درجات على الرغم من اشتراكهم في أساس الحكم وحيز العلم ومنطلق النبوة، إلا أن لكل شأنه الخاص ومكانته المحددة وعلمه المشخص له دون نظيره.

(١) السمرقندي: بحر العلوم: ٢/ ٤٣٤.

(٢) ينظر: مكي بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النهاية: ٧/ ٤٧٨٦.

(٣) ذلك بـ (أنهما جميعاً حكماً بالوحي، إلا أن حكومة سليمان نسخت حكومة داود؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يحكموا بالظن والاجتهاد، ولهم طريق إلى العلم. وفي قوله: ﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دلالة على أن كليهما كان مصيباً، الطبرسي: تفسير جوامع الجامع: ٢/ ٥٣٣، ولكن فَضَّلَ الله تعالى حكم سليمان على داود محصلة؛ وهذا دليل على أن لكل علمه وحكمته التي منحه الله إياها، وليس ثمة وراثة أو توافق في العلم من حيث المقدار أو النوع أو الكم، لأن هذا الأمر بيده تعالى، فهو من يمنح الحكمة والمعرفة والعلم بحسب حكمته لكل نبي، وإن اتحدوا جميعاً بالنبوة مآلاً ونهايةً.

وبناءً عليه يمكن التقرير - باطمئنان - بأنّ حيز الوراثة في قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ هي وراثة الملك<sup>(١)</sup>؛ أيّ إنّه (ورث المال والملك لا النبوة والعلم، لأنّ النبوة والعلم فضل الله تعالى، ولا يكون بالميراث)<sup>(٢)</sup> قطّ؛ بل بالانتقاء والاصطفاء منه تعالى لعباده - على وفق معايير إلهية خاصة - فلا يأتي الأمر وراثة ولا توارثاً قطّ.

وبذا فإنّ ما ذهبت إليه الزهراء عليها السلام من الاستدلال بهذه الآية الكريمة هو حق قائم وصدق ماثل؛ ولا غضاضة فيه لأنّها تنصّ على أحقية وراثة الابن من أبيه النبي ملكاً ومالاً.

(١) ينظر: السمرقندي: بحر العلوم: ٥٧٥ / ٢.

(٢) السمرقندي: بحر العلوم: ٥٧٥ / ٢.

## المبحث الثاني وراثه يحيى من النبي زكريا

بعد استدلال الزهراء عليها السلام بصحة وراثه سليمان من النبي داود عليه السلام استدلت - على ما تبغى إثباته - بقوله تعالى ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾<sup>(١)</sup>، والوراثه هنا تعني الوراثه المادية وليست الوراثه المعنوية التي هي النبوة والعلم<sup>(٢)</sup>، ف(الإرث في الآية بمعنى إرث المال؛ لأنه هو الذي ينتقل حقيقة من الموروث إلى الوارث، وأما العلم والنبوة فلا ينتقلان انتقالاً حقيقياً<sup>(٣)</sup>، وامتناع انتقال العلم على نظرية اتحاد العاقل والمعقول واضح كلّ الوضوح)<sup>(٤)</sup> أي إنّ المعقول (العلم) متحد في العاقل من حيث هو صورة ذهنية، ولا يمكن الانفكاك عنه كحال الماديات حتى يتسنى انتقاله بالوراثه<sup>(٥)</sup>. وما يدلّ على صحة

(١) سورة مريم: الآيتان: ٥-٦.

(٢) ينظر: الطوسي: التبيان: ١٠٦/٧، والطباطبائي: الميزان: ١٠/١٤ - ١١، وابن عاشور: التحرير والتنوير: ٦٦/١٦.

(٣) ينظر: الطوسي: التبيان: ١٠٦/٧، وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٢٤١/١٦.

(٤) محمد باقر الصدر: فذلك في التاريخ: ١٧٥-١٧٦.

(٥) ويعلل السيد محمد باقر الصدر هذا الأمر تفصيلاً بقوله: (إنّ الصور المعقولة - وهي عبارة عن وجود مجرد عن المادة - لا قوام لها إلّا بكونها معقولة، فالمعقولة نفس هويتها، وتجريدها عن العاقل تجريد لها عن نحو وجودها الخاص، وهذا آية الوحدة الوجودية؛ وإنّ تدرّج النفس في مراتب العلم هو تدرّجها في أطوار الوجود، وكلّما صار الوجود النفسي مصداقاً للمفهوم عقلي جديد زاد في تكامله الجوهرى وأصبح من طراز أرفع، ولا مانع مطلقاً من اتحاد مفاهيم متعددة في الوجود كما يتحد الجنس والفصل، وليس ذلك كالوحدة الوجودية لوجودين أو الوحدة المفهومية لمفهومين، فإنّ هاتين الوحدتين مستحيلتان في حساب العقل دون ذاك الاتحاد) هامش: فذلك في التاريخ: ١٧٥، ثم يقول السيد الصدر موضحاً فكرته بشأن عدم القول بوراثه العلم: (وأما إذا اعترفنا بالمغايرة الوجودية بينهما، فلا ريب في تجرّد الصور العلمية وأنها قائمة بالنفس قياماً صدورياً، بمعنى أنّها معلولة للنفس والمعلول الواحد بحسب الذات - لا بمجرد الاتصال فقط - متقوم بعلته ومرتبطة الهوية بها، فيستحيل انتقاله إلى علّة أخرى، ولو افترضنا أنّ الصور المدركة أعراض وكيفيات قائمة بالمدرك قياماً حلولياً، فيستحيل انتقالها لاستحالة انتقال العرض =

ذلك هو قول زكريا عليه السلام نفسه؛ إذ يقول ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾<sup>(١)</sup> فقله هذا يعني (أنه يطلب ولداً يرثه وينتقل إليه ما لولاه لا تنتقل ذلك إلى الموالى، وهو يخاف منهم أن يتلبسوا بذلك بعد وفاته)<sup>(٢)</sup>؛ ولهذا (سأل زكريا ربّه وارثاً يرثه بعد موته؛ ولذا قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾؛ أي بعد موتي، فإنّ كلامه يدلّ بوضوح على أنّه أراد وارثاً يخلفه ولم يرد نبياً يعاصره، وإلاّ لكان خوفه من الموالى بعد وفاته باقياً)<sup>(٣)</sup>؛ فضلاً عن أنّ (وراثه النبوة ليست ملازمة لوجود الذرية إطلاقاً؛ بل قد لا تتفق في مئات الملايين من الأشخاص لما يلزم في هذا المقام من كفاءة فذة وكمال عظيم، فلا يجوز أن توضع النبوة بجلالها الفريد جواباً لسؤال الله تعالى...؛ لأنّ النسبة بين الذرية الإنسانية وبين الجديرين بتحمل أعباء الرسالة السماوية هي النسبة بين الآحاد والملايين، وأما وراثه المال فيمكن أن تكون جواباً لدعاء زكريا عليه السلام لأنّ الولد يبقى بعد أبيه على الأكثر فوراثه للمال مما يترتب على وجوده غالباً. وأضف إلى ذلك أن زكريا نفسه لم يكن يرى النبوة ملازمة لذريته؛ بل ولا ما دونها من المراتب الروحية، ولذا سأل ربّه بعد ذلك بأن يجعل ولده رضيعاً)<sup>(٤)</sup>، وذلك في قوله تعالى على لسان زكريا بعد أن طلب الوراثه لولده ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾<sup>(٥)</sup>، وفي طلب زكريا بأن يكون ولده رضيعاً دليل آخر على أنّه أراد وراثه المال لا النبوة ذلك بـ (أنّ اشتراطه أن يجعله -رضيًّا- لا يليق بالنبوة؛ لأنّ النبي

= من موضوع إلى موضوع كما برهن عليه في الفلسفة سواء أقلنا بتجردها أو بآديتها بأنّ اعترافنا باشتغال الصور المدركة على الخصائص العامة للمادة من قابلية الانقسام ونحوها، وإذن فالعلم يستحيل انتقاله في حكم المذاهب الفلسفية الدائرة حول الصور العلمية جميعاً، فذكر في التاريخ: ١٧٥-١٧٦.

(١) سورة مريم: الآية: ٥.

(٢) الطباطبائي: الميزان: ١٢/١٤.

(٣) محمد باقر الصدر: فذكر في التاريخ: ١٧٧.

(٤) م.ن: ١٧٩.

(٥) سورة مريم: الآية: ٦.

لا يكون إلا رضيعاً معصوماً، فلا معنى لمسألته ذلك، وليس كذلك المال؛ لأنه يرثه الرضي وغير الرضي<sup>(١)</sup> على حدٍّ سواء؛ وعليه فإنَّ اشتراط زكريا في طلبه بأن يكون ولده رضيعاً إنَّما يدلُّ دلالة جازمة على أنَّه أراد ورثة المال له لا غير، لأنَّه (متى لم يحمل الميراث في الآية على المال دون العلم والنبوة لم يكن للاشتراط معنى وكان لغواً وعبثاً؛ لأنَّه إذا كان إنَّما سأل مَنْ يقوم مقامه ويرث مكانه، فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في جملة كلامه وسؤاله، فلا مقتضى لاشتراطه؛ ألا ترى أنَّه لا يحسن أن يقول: (اللهم أبعث إلينا نبياً واجعله عاقلاً ومكلفاً)، فإذا ثبتت هذه الجملة صحَّ أن زكريا موروثٌ ماله<sup>(٢)</sup> مرادٌ ذلك منه لا محالة.

فضلاً عن هذا وذلك، فإنَّه لو كان قد طلب النبوة لذريته فإنَّه لم يكن ثمة معنى لقوله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾؛ ذلك بـ (أنَّ الخوف على الدين والعلم من أبناء العم لا معنى له؛ لأنَّ اللطف الإلهي لا يترك الناس سدى بلا حجة بالغة. فمعالم الدين، وكلمة السماء محفوظة بالرعاية الإلهية، والنبوة مخصوصة أبداً بالأقليات من نوابغ البشر لا يخشى عليها من السطو والنهب؛ وإذن فماذا كان يحسب زكريا ربُّه صانعاً لو لم يمن عليه بيحيى؟ أكان يحتمل أن يكلف برسالته مواليه؟ أعني بني عمومته مع عدم كفاءتهم للقيام بواجب الرسالة الإلهية وعدم جدارتهم بهذا الشرف؟! أو كان يرى أن الله تعالى يهمل أمر خلقه ليكون لهم الحجة عليه؟ ليس هذا ولا ذاك مما يجوزه نبي، وإنَّما خاف زكريا من بني أعمامه على أمواله فطلب من الله ولداً رضيعاً يرثها ولا جناح عليه في ذلك، إذ يحتمل أن تكون رغبته في صرف أمواله عن بني عمومته بسبب أنَّها لو آلت إليهم لوضعوها في غير مواضعها، وأنفقوها في المعاصي وألوان الفساد لما كان يلوح عليهم من علامات الشرِّ وإمارات السوء حتى قيل إنَّهم شرار بني إسرائيل<sup>(٣)</sup>.

(١) الطوسي: التبيان: ١٠٦/٧.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٤١-٢٤٢.

(٣) محمد باقر الصدر: فدك في التاريخ: ١٨١-١٨٢.

بهذا نجد أنَّ طلب زكريا بالوراثة لذريته إنَّما كانت وراثة مادية وليست وراثة معنوية تكمن في النبوة والعلم؛ (لأنَّ النبوة والعلم لا يورثان، لأنَّ النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها، والعلم موقوف على من يتعرض له ويتعلمه)<sup>(١)</sup>؛ وعليه فإنَّ الوراثة التي أرادها زكريا ههنا هي وراثة المال لا غير<sup>(٢)</sup>؛ وإذا كانت الحال هذه فإنَّ هذا يثبت - بما لا يقبل الشك مطلقاً - أحقية وراثة السيدة فاطمة الزهراء من أبيها، لأنَّ زكريا قد طلب من الله تعالى الوراثة لذريته واستجاب سبحانه له ولبي ما يريد<sup>(٣)</sup>.

(١) الطوسي: التبيان: ١٠٦/٧.

(٢) ينظر: الطباطبائي: الميزان: ١١/١٤ - ١٢.

(٣) ولعلَّ معترضاً يعترض ههنا فيقول إنَّ طلب الأنبياء ورثة النبوة لإبنائهم جائزة؛ ودليل ذلك هو طلب ابراهيم النبوة لإبنائه وذلك بيِّن في قوله تعالى ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة: ١٢٤، وعليه فإنَّ قول زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يمكن أن ينصرف إلى طلب وراثة النبوة - كما هي الحال مع طلب ابراهيم - وليس طلب وراثة المال، نقول إنَّ ابراهيم عليه السلام لم يطلب وراثة النبوة لأبنائه في قوله ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ بل كان مستفهماً سائلاً عن ذلك وليس طالباً إياه، ف (إنما ذلك التقدير على سبيل الاستفهام والاستعلام؛ هل تحصل الإمامة لبعض ذريته أم لا تحصل؟ فأجابه الله: إلى أنَّ من كان ظالماً لا يناله عهده) وعليه فإنَّ قول ابراهيم (معناه: وأجعل أنت يا رب؟، أو أتجعل يا رب من ذريتي؟ والاستفهام يؤول معناه إلى السؤال) أبو حيان الاندلسي: البحر المحيط: ٥٤٩/١، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع: ١/١٤٦، ومحمد رضا المشهدي: تفسير كنز الدقائق: ١٣٧-١٣٨؛ وبهذا نجد أنَّ ابراهيم لم يطلب النبوة لأبنائه؛ بل استفهم عن ذلك لا غير؛ وبذا يُردُّ اعتراض مَنْ يعترض فيقول إنَّ طلب ابراهيم للنبوة يُسوِّغ القول بصحة طلب زكريا النبوة لولده؛ ذلك بأنَّ ابراهيم لم يطلب النبوة لولده قط؛ وعليه فإنَّ زكريا لم يكن طلبه هو وراثة النبوة لولده؛ بل كان طلبه منصباً على وراثة المال له لا غير، ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: الإشكاليات التنظيرية للتفسير الموضوعي: هامش: ٤٠.

## المبحث الثالث صحة التوارث بالرحم

بعد أن استدلَّت السيدة الزهراء عليها السلام على أحقية وراثته ابن النبي من النبي نفسه؛ ركنَتْ إلى قاعدة عامة توجب الإرث، وأنَّ هذه القاعدة مبنية على أساس صلة الرحم بين الابن وأبيه؛ وذلك باستنادها إلى قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>؛ ذلك بأنَّ المراد من هذه الآية هو أنَّ (وَأُولَى الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْإِرْثِ وَغَيْرِهِ)<sup>(٢)</sup>؛ وعليه فإنَّ الإرث هو حقٌّ لأولي الأرحام. ولما كانت البنت ولية رحم لأبيها من هنا وجَبَ لها الإرث من أبيها لا محالة فهي أولى به من الغرباء غير أولي الرحم له<sup>(٣)</sup>.

ثم بعد ذلك اعتمدت سيدة نساء العالمين عليها السلام على قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾<sup>(٤)</sup>؛ إذ في النصِّ الكريم أمر بإعطاء الإرث للأبناء. وقد صيغ مضمون الأمر بأسلوب الخبر «يُوصِيكُمُ»<sup>(٥)</sup>، فقلوه ((جلَّ جلاله: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ» أي: يأمركم ويعهد إليكم ... في بيان ميراثهم)<sup>(٦)</sup>، ويبدو أنَّ الزجاج قد تنبَّه إلى هذا

(١) سورة الأحزاب: ٦.

(٢) الشوكاني: فتح القدير: ٤ / ٣٧٢.

(٣) إذ كان قبل نزول هذه الآية يرث المتأخون في الهجرة بعضهم بعضاً؛ إذ ((آخى رسول النبي الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية فتوارثوا بالنسب)) دون غيره، ابن الجوزي: زاد المسير: ٣ / ٣٨٧؛ من هنا فإنَّ هذه الآية مُتَّبَعَةٌ بِأَنَّ النسب الرَّحْمِيَّ هو الأصل في الإرث دون غيره مُطلقاً.

(٤) سورة النساء: ١١.

(٥) ينظر: عبد الأمير كاظم زاهد: قضايا لغوية قرآنية: ٩٩، و عبد الأمير كاظم زاهد: محاضرات في تفسير آيات الأحكام: ٣٥.

(٦) ابن عجيبة: البحر المديد: ٢ / ١٨، وينظر: الزمخشري: الكشاف: ١ / ٥١٠.

المعنى من ذي قبل؛ إذ يقول ما نصّه: إِنَّ (معنى قوله هاهنا «يُوصِيكُمْ» أي: يَفْرُضُ عليكم؛ لأنّ الوصية من الله إيجابٌ) <sup>(١)</sup> حتميّ وأمر لازم الأداء لا محالة؛ وعليه يكون المراد هو (يأمركم الله في أولادكم أن تؤدّوا الإرث إليهم للذكر مثل حظ الأنثيين)؛ بذا نجد أنّ هذه الآية الكريمة مثبتة على وجه التصريح والجزم بأحقية الإرث للابن والبنت من أبيهما من جهة ووجوب إعطائهم ذلك الإرث إلزاماً من جهة أخرى.

ثم انتهت السيدة الزهراء إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ <sup>(٢)</sup>؛ إذ إنّ لفظة -حقاً- في هذه الآية الكريمة تنصّ على وجوب إعطاء الموصى به إلى الموصى إليه لا محالة فالمعنى (أعطوهم ما أوصى به الموصي إذ حقّ حقاً على المتقين فعل ذاك)؛ ذلك بأنّ تمام الآية هو قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ من هنا نفهم بأنّ السيدة الزهراء تريد أن تقول بأنّ أباهما الرسول الأكرم كان قد أوصى بفدك على حياته لها <sup>(٣)</sup>؛ فإذا كنتم لا ترون أنّه يحقّ لي أن أرث أبي فينبغي عليكم أن تكونوا منصفين وتعطوني حقي؛ إذ إنّ هذه الأرض (فدك) قد نحلها أبي إليّ على حياته <sup>(٤)</sup>؛ وعليه فهي بحكم الوصية منه إليّ، فإن كنتم تؤدون الوصية بناءً على قوله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فأعطوني حقي وأعيدوا نحلي إلي <sup>(٥)</sup>.

(١) الدمشقي: الباب في علوم الكتاب: ٢٠٨/٦.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٨٠.

(٣) ينظر: الطبرسي: الاحتجاج: ١/١٤٥، وجعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام: ١٢٥/١٠.

(٤) إذ روي عن محمد بن مسلم أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الوصية إن أوصى بها الموروث لوارثه أيجوز ذلك؟ فقال الإمام عليه السلام: (مَجُوزٌ قَالَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، الكليني: الكافي: ١٠/٧.

(٥) ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: الإشكاليات التنظيرية للتفسير الموضوعي: ٤٢-٤٣.



## الخاتمة

من النظر في نصّ الزهراء (عليها السلام) واستدلالها على أحقيتها في الإرث من أبيها نتوصل إلى جملة من الثمار والنتائج العلمية التي يمكن أن نوجزها على النحو الآتي:

١- إنَّ اعتماد السيدة على هذه الآيات الكريمة يدلّ دلالة قاطعة على أنَّها قد اعتمدت مبدأ التفسير الموضوعي لحلّ المشكل الخارجي الذي يكمن في غمطها حقّها وإبعادها على إرثها دون وجه حقّ؛ لذا عمَلْتُ (عليها السلام) على جمع كلّ الآيات القرآنية التي تُثبِتُ حقّها في إرثها؛ فكشفتُ بذلك موقف القرآن الكريم من هذا المشكل وبيّنتُ نظرة السماء تجاه هذا المعضل الواقعي الذي مُنيتُ به (عليها السلام).

٢- بناءً على تحقق النتيجة الأولى يمكن أن نقول بأنّ التفسير الموضوعي كان موجوداً تطبيقاً وعملاً في بدايات الإسلام، وأنّ ما فعلته السيدة الزهراء (عليها السلام) إثباتٌ جليٌّ على وجوده وثباته واقعاً وبياناً يومذاك.

٣- بلحاظ النتيجة السابقتين، يتقرر بأنّ نشأة التفسير الموضوعي لم تكن وليدة العصر الحديث، ولم يكن من مُتبنّيات الزمن المعاصر أو انبثاقات العلماء المحدثين؛ بل إنّ هذا النمط من الممارسة التفسيرية هو ضاربٌ في القدم، غير أنّ الجذور الوجودية له لم تكن في عصر الرسول الأكرم أو في زمن تنزيل النصّ القرآني المعجز؛ بل ظهر هذا النمط من التفسير بعد عصر النزول ورحيل الرسول الأكرم، وأنّ من أوائل من مارسه فعلياً هي السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)؛ إذ كان لها الفضل الأول في توظيفه حلاً وظهوره تطبيقاً على أرض الواقع الفعلي والعلمي على حد سواء.

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن أبي الحديد: أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (ت ٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.
٢. أحمد رحمانى: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، منشورات جامعة باتنة - الجزائر، د.ت.
٣. أحمد الشرباصي: قصة التفسير، مطبعة دار العلم - القاهرة - مصر، ١٩٦٢م.
٤. أمين الخولي: دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير، د.ت.
٥. البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء (ت ٥١٦هـ): معالم التنزيل المعروف بـ (تفسير البغوي)، د.د. مط. د.ت.
٦. الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم: الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
٧. جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة الإمام علي (عليه السلام)، المطبعة دفتر تبليغات اسلامي، الناشر: ولاء المنتظر (عليه السلام)، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ١٣٨٨ ش.
٨. جواد علي كسار: التفسير الموضوعي مقارنة بين السيد الصدر وآخرين، مؤسسة الثقلين الثقافية، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
٩. ابن الجوزي: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، مطبعة المكتب الاسلامي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٤ هـ.

١٠. أبو حيان الأندلسي: أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ): البحر المحيط، تحقيق: شيخ عادل أحمد وآخرون، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
١١. سكيئة عزيز عباس الفتلي: المنهج التطبيقي لتفسير القرآن الكريم عند أهل البيت (عليه السلام)، أطروحة دكتوراه بإشراف: أ.د. محمد حسين علي الصغير، كلية الفقه - جامعة الكوفة، ٢٠٠٩م.
١٢. السمرقندي: نصر محمد بن أحمد (ت ٥٣٩هـ): بحر العلوم، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار النشر: دار الفكر - بيروت، د.ت.
١٣. السمعاني: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ): تفسير القرآن المعروف بـ (تفسير السمعاني)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- سيروان عبد الزهرة الجنابي:
١٤. - الإشكاليات التنظيرية للتفسير الموضوعي، مطبعة دار الرافد للطباعة - بغداد، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع - لبنان - بيروت، ط ١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
١٥. مناهج تفسير النصّ القرآني - دراسة في النظرية والتطبيق، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط ١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١٦. الطباطبائي: السيد محمد حسين (ت ١٤٠٢هـ): -الميزان، مطبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم، ط ٤، ١٤١٧هـ.
١٧. الطبرسي: أحمد بن علي (ت ٥٦٠هـ): الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، مطبع دار النعمان - النجف الأشرف، د.ت.

١٨. الطبرسي: أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ): تفسير جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤٢٠هـ.
١٩. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة قم - مكتبة الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٣٧٩هـ.
٢٠. ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر (ت ١٩٧٣م): التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، ١٩٩٧م.
٢١. عبد الستار حامد: مباحث في علم التفسير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - جامعة بغداد، العراق، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٢٢. غفران ياسين محمد الهاشمي: دور السنة المطهرة في تأصيل علم التفسير، رسالة ماجستير بإشراف: ا.م.د. سيروان عبد الزهرة الجنابي، وأ.م.د. علي خضير حجي، كلية الفقه - جامعة الكوفة، ٢٠١٢م.
٢٣. القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن المعروف بـ (تفسير القرطبي)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٤. الكليني: الكافي، تصحيح وتحقيق: علي أكبر غفاري، مطبعة حيدري، الناشر دار الكتب الإسلامية، إيران، ط ٣، ١٣٨٨هـ.
٢٥. المجلسي (ت ١١١١هـ): بحار الأنوار، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.

محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠ هـ):

٢٦. فدك في التاريخ، تحقيق: عبد الجبار شرارة، الناشر مركز الغدير للدراسات الإسلامية،

ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٧. المدرسة القرآنية، مكتبة سلمان المحمدي، بغداد - العراق، طبع في لبنان، ط ١،

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٢٨. محمد حسين الصغير: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار

المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

محمد رضا المشهدي: محمد بن محمد رضا القمي المشهدي: تفسير كنز الدقائق وبحر

الغرائب، تحقيق: حسين درگاهي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والإرشاد

الإسلامي، ط ١، ١٣٦٧ هـ. ش.

٢٩. مكّي ابن أبي طالب: حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي

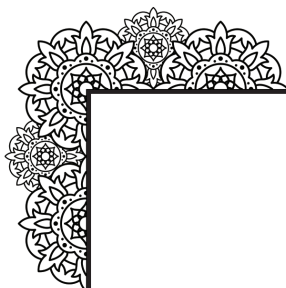
القرطبي المالكي (ت ٤٣٧ هـ): الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره،

وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات

العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر:

مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة

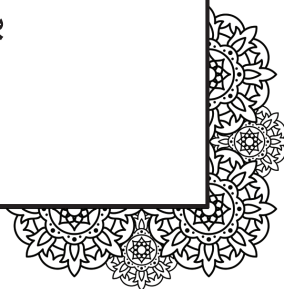
الشارقة، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.



**جدل التاريخ والمتخيل**  
**في سيرة السيِّدة الزهراء عليها السلام**  
**قراءة نقدية في طروحات بسام الجمل**

الباحث  
أ.د. شهيد كريم محمّد

جامعة ميسان - كلية التربية  
باحث في مركز تراث الجنوب



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

في كتابه الموسوم: (جدل التاريخ والتخيّل - سيرة فاطمة) يزعم بسّام الجمل (١) دراسة حياة السيّدة الزهراء (عليها السلام) وتفكيك صورتها التاريخيّة وصولاً للأسباب التي حملت العلماء المسلمين على الانتقال بسيرتها من دائرة التاريخ إلى دائرة التخيّل، وما اصطنعوه من طرائق وآليات مكنتهم من تحقيق هذا الانتقال.

وادّعى في هذه الدراسة أنّه سيتجاوز أعمال تأسيسية أخرى كتبت عن سيرتها، ولا سيّما الاستشراقية منها، على الرغم من صعوبة هذه المهمة، فصدر بحثه بالتساؤل الآتي: ما الذي يمكن أن يضيفه هذا العمل إلى المؤلّفات الكثيرة المفردة لفاطمة ابنة النبي؟ بأستطاعة الدارس المعاصر أن يظفر بجديد في هذا الغرض ذهل عنه أصحاب تلك الدراسات أم سيراوح مكانه؟ حيث لن يكون عمله سوى رجوع صدى أعمال سابقة في هذا الباب؟!

وأجاب الجمل عن هذا التساؤل بادعاء أنّ تلك الأعمال على كثرتها، أهملت النظر إلى الجانب التخيّل، أو بالأحرى عملية الانتقال إليه، وظلّت تدور في فلك القراءة التمجيدية، وهي قراءة حاضرة في الأدبيات السنيّة، ومتفشية - بشكل لا مثيل له - في الأدبيات الشيعية، والقراءة الاستشراقية (٢).

وهذا الجواب الأخير انضمّ لأسباب ثلاثة أخرى حدث بالجمل إلى الخوض في هذا الموضوع، وهي:

١. صلته بموضوع التخيّل الدينيّ في مجال الإسلاميات من خلال أعمال سابقة.

٢. محورية شخصية السيِّدة الزهراء عليها السلام في التراث الديني الإسلامي.

٣. محاولة فهم علّة التأليف في موضوع فاطمة قديماً وحديثاً.

ولئن بدت هذه المبررات غير مقنعة بالمرّة للالتفات إلى هذا الموضوع، فإنّ الأغرب بينها، هو ربط الجمل بين السبب الثالث منها وبين نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام (١٩٧٩م)، وإعلان نظام (ولاية الفقيه)، والترويج للفكر الشيعي الإمامي داخل إيران وخارجها، وهو ما أتاح لمؤلفي الإسلام الالتفات مجدداً إلى فاطمة، يستلهمون منها قيماً، ومطالب، ورهانات محدّدة، في فاطمة تُهدى بعض الكتب المؤلّفة فيها، وحول فاطمة تُعقد الندوات، وفي شأن فاطمة تُنظم المسابقات، بل إنّ بعض ما كُتب فيها يُباع في الأسواق ويعود ريعه لإنشاء مشروع خيري، فضلاً عن بثّ قنوات تلفزيونية فضائية باسم (Zahra TV = الزهراء) أو (Fatima TV = فاطمة) (٣).

والأشدّ غرابة مما سبق أنّ الجمل يستدلّ على فكرته الأخيرة بأنّ أحد المؤلّفين وهو (نزيه القميحا) ألّف كتاباً عن السيِّدة الزهراء عليها السلام فأهداه إليها رجاء شفاعتها، وأنّ مؤتمراً عُقد في دمشق حول سيرتها، وأنّ كتاباً لفاضل الميلاني فاز بمسابقة أقيمت حول سيرتها الشريفة؟! (٤). فبحسب القاعدة التي وضعها الجمل نفسه لتمييز ما هو تاريخي وما هو متخيّل، وهي قاعدة (سنن الاجتماع الإنساني) (٥)، أليس من هذه السنن أن يُهدى الكتاب إلى الشخصية التي ألّف حولها، ولا سيما إن كانت مرتبطة بمعتقد ديني وروحي؟ ألا تُهدى الكتب إلى ذكرى الأحبة، والأصدقاء، والأبطال، والمفكرين، والعلماء؟ ألم يهد الجمل كتابه (أسباب النزول) إلى زوجته وأستاذه عبد المجيد الشرفي، ألم يهد كتابه (من الرمز إلى الرمز الديني) إلى أولاده؟! (٦).



ويا ترى أين المبالغة في أن يُعقد مؤتمر علميٍّ حول سيرة الزهراء عليها السلام، أو أن تُقام مسابقة تأليفية عنها، أو أن تحمل قناة تلفزيونية فضائية اسمها، أليست شخصية تاريخية حقيقية لها فعلها في التاريخ وحركة التدوين قديماً وحديثاً، وهي جديرة بالدراسة كما قال؟! (٦)، أليست القنوات تحمل أسماء بعض مُلاكها، أو تخصصها الفني والإعلامي، أو أسماء المدن أو الشخصيات التاريخية، بل أسماء من هبّ ودبّ، أليست المؤتمرات تُعقد حول شخصيات التاريخ وأحداثه، وفي مجمل العلوم والمهموم البحثية؟!

وبحسب قاعدته الثانية في التمييز أعلاه، وهي قاعدة (ما ينسجم مع سنن التاريخ) (٧) كان الأحرى بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أن تزداد التأليفات حول الحكومة الإسلامية، والسيرة النبوية، وسيرة الإمام علي عليه السلام، فهي موضوعات أكثر مساساً بالفاعل السياسي المعاصر من سيرة الزهراء أو غيرها من الأئمة، ولكنّ المتخيل المتولد ابتداءً في ذهنية الجمل حول موضوعه، وتحيزه الفكري المسبق، والوظيفة التي رُسمت له لينتهجها ويؤديها في كتبه، أدّى به إلى الانسياق خلف النظرة الجانبيّة القاصرة علمياً ومنهجياً، بل وحتى تاريخياً، هذا فضلاً عن بعده عن الأمانة التاريخية في انتحال آراء الآخرين وطروحاتهم كما سيتضح.

### أولاً: بين الجمل والدراسات السابقة

انطلق الجمل في هذا الكتاب من فرضية مفادها أنّ هناك قراءتين بارزتين لسيرة السيّد فاطمة عليها السلام هما: القراءة التمجيدية، وهي قراءة حاضرة في الأدبيات السنية، ومتفشية- بشكل لا مثيل له- في الأدبيات الشيعية، والقراءة الاستشراقية، وانتخب منها قراءة القسّ والمبشر الفرنسي (Henri Lammens= هنري لامنس ١٨٦٢-١٩٣٧م) (٨) في كتابه ( Fatima et les Filles de Mahomet, notes critiques pour l'etude de

la Sira = فاطمة وبنات محمد: آراء نقدية حول السيرة)، وهو أهم كتبه وأكثرها تحاملاً وتعصباً، فقد بالغ فيه بتهكمه وآرائه المتطرفة وتحليلاته المغرضة والمحرفة للتدوين السيري الخاص بالنبي وأهل البيت وخصوصاً السيدة الزهراء (عليها السلام)، حتى كان محل استهجان ورفض من المستشرقين أنفسهم (٩).

وكذلك قراءة مواطنه المستشرق المشيع بمبادئ التصوف (Louis Massignon = لويس ماسينيون ١٨٨٣-١٩٦٢م) (١٠)، في بحوثه:

١- La Mubahalà de Médine et l'hyperdulie de Fatima = مباهلة المدينة وقداسة فاطمة.

٢- La notion du vœu et la dévotion musulmane à Fatima = مفهوم النذر وعبادة المسلمين لفاطمة.

٣- L'hyperdulie de Fatima: ses origines historiques et dogmatiques = الغلو في فاطمة: أصوله التاريخية والعقائدية.

٤- L'expérience musulmane de la compassion ordonnée à l'universel A propos de Fâtima et de Hallâh = التجربة الإسلامية في التعاطف نحو العالمية عن فاطمة والحلاج.

٥- L'oratoire de Marie à l'Aqça vu sous le voile de deuil de Fatima = فصاحة مريم وبلاغتها نظرة إلى خيمة عزاء فاطمة.

والواقع إن قراءة ماسينيون، وإن كانت على النقيض من القراءة السابقة، إلا أنها هي الأخرى مشوهة أيضاً؛ إذ انطلقت من فكرة تأثر السيدة الزهراء (عليها السلام) بمريم العذراء (عليها السلام)،

ورغبتها الملحة في محاولة تقليدها وترسم خطاها في الإسلام؛ هذا فضلاً عن استمداد ارتكازها النصي من الفكر الغنوصي (١١) لفرق الغلاة والمتطرفين وممارساتهم التعبدية كالإسماعيلية (١٢)، والنصيرية (١٣)، والدروز (١٤)، فغادر في أحيان كثيرة -عن عمد- الواقعية التاريخية والموضوعية، وتناول سيرتها منطلقاً من انعكاسها في كتابات تلك الفرق، وبوحي من عقيدته الكاثوليكية وتوجهاته الصوفية المتحمسة. فبحسب الرسائل المتبادلة بينه وبين مواطنه المستشرق هنري كوربان (١٥) أفصح ماسينيون عن أنه أدرك مؤخرًا نوعاً من العلاقة والترابط بين فاطمة الزهراء عليها السلام والحلاج (١٦)، وأنه يخشى أن يفارق الحياة من دون إكمال هدفه الأسمى في ربط التصوف الحلاجي بفاطمة؛ فكتب لكوربان: اعتمد عليك أولاً للدفاع عن الصداقة المقدسة التي ألهمني الله بها للحلاج وفاطمة، ومن خلاهما لسلمان ومحمد، وأنا مع (وحدة الشهود) (١٧) من أجل تفوق شأن مريم العذراء ومن ثم الإنسان المضحى (١٨).

وعلى الرغم من تصريح الجمل ضمناً بأن دراسات ماسينيون مستمدة من ممارسات بعض الفرق الغالية وطقوسهم في الاحتفالات والمآتم، وعلى وجه الخصوص من تراث الإسماعيلية السلمانية (نسبة إلى سلمان الفارسي)، وتراث النصيرية والدروز وممارساتهم التعبدية، التي عادة ما نقلت الفضائل التي منحها القرآن الكريم لمريم العذراء في الدور العيسوي إلى فاطمة في الدور المحمدي، انطلاقاً من تأثيرها المباشر في المواجهة الإسلامية - النصرانية في حدث المباهلة، إلا أنه فضل أن يباشي قراءة لامنس المجحفة والمتعصبة، بدعوى أنه لم يحتف من جميع المرويات المتعلقة بفاطمة إلا بما كان منها ثابت الوقوع من منظور تاريخي. ولذا فإنه قدر أن المعلومات التاريخية الثابتة بشأن فاطمة قليلة ونزرة، حتى أنه ذهب إلى التشكيك في الوجود التاريخي لأشقاء فاطمة من الذكور والإناث، على نحو مخالف لما أثبتته كتب التاريخ والتراجم والسير المتداولة منذ القرون الهجرية الأولى (١٩).

وحقيقة الحال أنّ ترجيح الجمل لقراءة لامنس أو بالأحرى تبنيها بشكل قاطع ومستमित في كتابه - على الرغم من عدم تصريحه بذلك أو محاولته التمويه بأنّها قراءته الخاصة والخالصة - لا ترتدّ إلى الرغبة العلميّة في التثبت التاريخي بقدر ما ترتدّ إلى انسجامها مع الأيديولوجيّة الفكرية والمذهبيّة للكاتب ومسار بحثه الذي اختطّه منذ اللحظة الأولى فصدّره عنواناً لكتابه!

وبغض النظر عن الخيانة العلميّة للكاتب في التعكّز على أفكار لامنس وطروحاته، بل وانتحالها صراحة ونسبتها إلى نفسه! فإنّه من جانب آخر لم يكن أميناً في ترجمة بعض أفكاره، فعلى سبيل المثال، الأخير لم يذهب إلى التشكيك في الوجود التاريخي لأخوات فاطمة كما يدعي الجمل (٢٠)، وإنّما حاول إبراز فكرة أنّ المدونة التاريخيّة الإسلاميّة عملت على تغييب دورهن ونقل دائرة الانتباه نحو فاطمة على الرغم من أنّهن لم يكنّ بأقلّ أثراً منها إن لم يكن يفقنها في بعض الأوجه (٢١)، وواضح أنّ تمحل الجمل لرأي لامنس وتحريفه، إنّما يُراد منه الإيحاء للقارئ بأنّه على منهجه، وأنّه يتوخى الدقة والموضوعيّة في كتابه على خلاف لامنس؛ إذ قال واصفاً قراءة الأخير: والذي أرى صوابه أنّ هذه القراءة مفيدة من وجه، وقاصرة من وجه آخر، فهي مفيدة لأنّها وفّرت للدارسين مادّة في شأن فاطمة أقرب ما تكون إلى الحقيقة التاريخيّة.. ولكنها تبقى قاصرة لأنّها أهملت النظر في خطاب مهمّ بذلت أجيال متعاقبة من علماء الإسلام جهوداً لترويجه وتعهده بالاستمرار، وهو الخطاب الذي أسّس على التدرج صورة لفاطمة في المتخيّل الإسلامي (٢٢).

وهنا يحاول الجمل مرّة أخرى أن يضلّل القارئ بادّعاء أنّ قراءته مفارقة لقراءة لامنس، من خلال لفت النظر إلى القصور المذكور في قراءة الأخير، وما عمل عليه هو من استكمالها وتتميمه. والحقيقة أنّ هذا الادّعاء غير دقيق بالمرّة، فلامنس لم يكن غافلاً عن هذه الزاويّة في دراسته، بل أشار إليها دون الإسهاب في التقاط الشواهد النصيّة عليها بعدّها نتيجة بديهيّة

ومسلمة في بحثه؛ وغاية ما فعله الجمل أنه وسع دائرة الشواهد النصية الملتقطة من المصادر المتأخرة، أي أنه -ومن وجهة نظر علمية- لم يزد على ما قدمه لامنس سوى أن راكم الأمثلة النظرية على أصل الفكرة! فقد قال لامنس في مفتتح كتابه: لأجل الحصول على صورة واضحة ودقيقة عن شخصية فاطمة، يجب علينا تجريد تلك الشخصية من الأكاليل الذهبية التي عقدها المؤرخون على مفرقها. وأن نعرض لها وفقاً للنقد التاريخي المعاصر، فقد كانت فاطمة في حياتها، وفي بيت والدها تعامل معاملة عادية، سواء من والدها أو من الصحابة وغيرهم، ولم نرها تتمتع بحظوة واحترام يفوقان ما كانت تتمتع به بدويات ذلك الزمن. لم يكن لها أي مكانة أو دور مهم تلعبه، ولا أي اعتبار أو سمو في ذلك المجتمع الأعرابي. ولم يكن شأنها في بيت والدها خطيراً ظاهر الأثر، بل نجدها أقل شأنًا من عائشة وحفصة وزينب وغيرهن من أزواج النبي ولإثبات ذلك يكفي النظر لحجم الملف الذي منحه لها قدماء المحللين، كما في كتاب السيرة لابن هشام، فقد نالت شخصية فاطمة إشارتين فقط في كل هذا المصنف، مع أنه محابٍ لعلي، كما إن ابن سعد في طبقاته ترجم لعلي دون أن يذكر اسم زوجته مطلقاً، وفي مسند ابن حنبل الكبير وخلال (٢٣٠ صفحة) من المسند، لم نجد المؤلف يكرس لفاطمة سوى صفحة واحدة، وهي غير ذات قيمة، كما أن ظهورها كان قليلاً في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني المشهور بولائه للعلويين، ثم بدأ ظهورها عند اليعقوبي، والمسعودي في (مروج الذهب) ومن تبعهم. إن التعظيم لأهل البيت بدأ في الواقع خلال القرن الثاني الهجري (٢٣).

وقد حاول لامنس جاهداً نحت صورة نمطية للسيدة الزهراء (عليها السلام) قوامها ضعف الشخصية، ووهن البنية الجسدية، وأنها كانت هزيلة، نحيفة، مصفرة اللون غالباً بسبب المرض، فضلاً عن محدودية الفكر والفاعلية في الحياة فقال: من ناحية الشكل لم نجد فاطمة أفضل حالاً، فقد كانت واهية البنية، ونحيفة، صفراء، شاحبة اللون، دائمة العلل، وقد

أقعدتها عللها عن الأعمال الشاقة التي كانت تقوم بها النساء العربيات آنذاك؛ ولذلك ماتت وهي شابة، وترجع تعاستها إلى فترات سابقة، حيث أدركت عدم اهتمام محمد بها، وحتى المؤرخين المؤيدين لعلّي نادرًا ما يتباهون بجمال فاطمة، بعكس أختها رقية، حيث طوروا حول هذه الأخيرة مجموعة من القصص أو الكتابات التي تتحدث عن جمالها، وقد قيل أنّ عثمان وهو أجمل رجال قريش أنّما اعتنق الدين الجديد بهدف الزواج منها، وكان الناس في الحبشة يقفون لكي يتأملوا جمالها، وقد انتهى بها الأمر إلى أن تقف محاصرة، وهي تلعن معجبيها المتطفلين، والأمر مختلف مع فاطمة، إذ حرمت حتى من الاطراء الذي كان محمد يبيده لابنته الأخرى (زينب) فلم تحصل فاطمة، في أي لحظة أو مكان على نفس المدح الذي حصلت عليه أختها، أمّا بالنسبة لذكائها فإننا نادرًا ما نجد من يمدحها، وفي هذه الحالة كان من الصعب عليها الكفاح ضد خصم ذكي كعائشة (٢٤).

وبالمقابل شكك لامنس في أي مورد يُشَمّ منه رائحة الإنصاف أو الموضوعية في الحديث عن آل البيت، إذ قال بصدد الأخبار الواردة في الاحتفاء النبويّ بزواج الإمام عليّ والسيدة الزهراء (عليها السلام): يفضل الكتاب المسلمون إمعان النظر في مراسيم هذا الزواج التي يشرف عليها النبي بنفسه، ونجد في أوصافهم المطبنة هذه كثيرًا من الأمور التي تدلّ على قلة معرفتهم بالتسلسل التاريخي للأحداث، وكذلك نرى رغبتهم الجاحمة للتعظيم من شأن أفراد العائلة الهاشمية، ونراهم تملقوا كثيرًا لحساب بلاط بغداد، وما كانوا يراعون الأمانة المطلوبة.. (٢٥).

إذن فلامنس لم يغادر أي فرصة للتشكيك بالموروث الروائي الذي يشمّ منه أدنى رائحة للتمجيد بالسيدة الزهراء (عليها السلام) أو بالأحرى ذلك الذي يتحدث عنها بشيء من الموضوعية! ولذا كانت كتابته محلّ استهجان المستشرقين ورفضهم كما ألمحنا سابقًا، فقد قال عنه المستشرق الألماني (Karl Heinrich bekker = كارل هاينرش بكر ١٨٧٦ - ١٩٣٣) (٢٦): بها أنه

سبق وأن أطلقت بعض التحذيرات فإن عمل (Lammens) الأخير (Fatima et les Filles de Mahomet, notes critiques pour l'étude de la Sira وبنات محمد: آراء نقدية حول السيرة) يمنحني الفرصة في أن أبرز شكوكي، بشكل أكثر تفصيلاً بشأن تعامله مع المصادر التاريخية والسيرة بتفاصيلها العريضة...، لو قلنا أن شعائر التمجيد مردها إلى الشيعة ولذلك فأثما لا تمت للتاريخ بشيء، فيجب اعتبار الوصف السيئ لصورة فاطمة في أحاديث التيار الأرثوذكسي ليس من التاريخ بشيء أيضاً؛ فقد تكون هذه الإساءات مجرد رد فعل على تمجيد الطرف الآخر. أن (Lammens) ينظر في طروحاته إلى كل الصفات السيئة كحقائق تاريخية دون الخوض فيها، أن الصفات السيئة في حياة المقدسين ممكن أن تؤرخ لصالحهم في كل الأحوال، هل على من يعلم الأثر الذي خلفته معركة صفين أن يؤمن دون تحقيق أن أعداء العلويين كانوا ينتهجون نهجاً تاريخياً موضوعياً عندما يحاولون إظهار دور فاطمة وكأنه دور سطحي، أو عندما يعطونها القليل من الملامح اللطيفة؟ صُورت وكأنها لم يكن لها أثر على الرسول، وأثما لم يكن لها أدنى هبة عنده، وأن طلعتها ليست ذات تأثير، ولم تكن زيجتها مع العدو اللدود (علي) مليئة بالسعادة، ولم تكن تتمتع بالاحترام في هذه الزيجة، وبهذا النوع من الأحاديث تم ضرب أتباع علي دون المساس بالرسول، الذي طالما جهد نفسه في أن يخلق علاقة متوازنة بينه وبين ابنته. يجب ألا ننسى أن علياً قد لعن على المنابر في بداية نشأة الحديث! . واستناداً إلى بعض الأحاديث غير اللطيفة حول مفاتن فاطمة، يرسم لنا (Lammens) صورة مقززة عن هذه الشخصية المسكينة. لكن عالم الدموع صفة مألوفة في حياة القديسين، وضعفها البدني ربما يكون بدعة قبال السمينة كميّار للجمال أكثر منه كحقيقة تاريخية. (Lammens) يجد المتعة في إظهار أهل بيت الرسول بصورة محتقرة ومبتذلة. وفيما يخص علي وفاطمة فإن هناك ما يكفي من النعوت المبتوثة في بطون الأحاديث، وهي غاية في الفطاعة من جانب تلك المجموعة التي

لا تعرف الرحمة، فاستطاع (Lammens) بحنكته الاستعراضية أن يجمع هذه المعطيات المتفرقة مع بعضها، وانقلب عندها لمؤرخ مهاجم ذا نزعة عقدية، فتكون شعور مسيحي معارض للإسلام وجد في فرضية (Lammens) متكاً له، فكل النعوت السيئة بحق حرم النبي أو علي هي من التاريخ بالنسبة له! وعليه أليس من الغريب أن ندعي من جهة أن أهم الحقائق التي تتعلق بحياة عائلة الرسول هي مختلقة ومحرقة، ومن جهة أخرى ندعي تاريخية التفاصيل المتعلقة بمحيط النبي من حياة زوجاته، وما يختص بحياة علي وفاطمة؟ أنا أشك كثيراً في تاريخية كل التاريخ المتعلق بحرم النبي، وبما أن (Lammens) يشك بتاريخية تفسير الأحداث الكبرى في الإسلام، أفلا تستحق تلك الأحداث التي لم يشهد بها شاهد أن يُشك بها؟ إحساسي يقول أن (Lammens) يخلط ما بين التاريخي وغير التاريخي، ولا اعتقد أنني قد ذهبت بعيداً حين رميته بعدم الاتساق في تطبيق نظريته؛ فهو يرى كل شيء مغرض ومختلق، وحجر الأساس الذي يبنى عليه طروحاته يبدأ حين يجد ما هو مغرض من الحديث (٢٧).

وقال مؤرخ حركة الاستشراق (Johann Fuck = يوهان فوك): تعرضت العلوم الإسلامية لحقبة متطرفة من الشكوك والنقد اللاذع شأن غيرها من الفروع التاريخية الأخرى بوصفها نتيجة محتمة لمذهب النقد التاريخي، ولا سيما أن العضلات المرتبطة بشخصية محمد ونشوء الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قدمت حقلاً شاسعاً للتأويل التأملية، وأحد أبرز ممثلي هذا الاتجاه البلجيكي (Lammens) فبتحريض من نقد (Goldziher = جولدتسيهر) للأحاديث الصحيحة، حاول أن يقدم الدليل على أن النقولات التاريخية الإسلامية تدين بوجودها من حيث الجوهر إلى اتجاهات الفئات والأحزاب المتصارعة، وبصفته قسيساً كاثوليكياً رفض (Lammens) نبوة الرسول رفضاً تاماً، بل ذهب لأبعد من ذلك حين رفض أيضاً القول بصدقه، وهو في كتابه (فاطمة وبنات محمد) قدم الروايات



السلبية الخاصة بالرسول، وهكذا فقد كانت الصورة المرسومة جانبية بالضرورة، ولم تتمكن سواء غزارة المصادر ولا حنكة العرض، من سدّ ثغرات ضعف الحجج المقدمة (٢٨).

إذن فما ادعاه الجمل من أنّ لا منس أهمل النظر في الخطاب التمجيدي حول السيدة الزهراء (عليها السلام) غير صحيح بالمرّة، وغاية ما عمله الجمل أنّه أبدل اسمه إلى خطاب متخيّل وراكم بعض النصوص حوله من المصادر المتأخرة ولا سيّما كتاب (بحار الأنوار) (٢٩).

وكذلك الحال بالنسبة لدراسات ماسينيون، فالأخير - كما أسلفنا - أنّها عمل على استمداد صورتها من كتابات فرق الغلاة وممارساتهم التعبدية، التي ترشح بالخطاب المفارق للواقعية التاريخية كما أشارت لذلك بحوثه التي اتخذها الجمل عينة للبحث، ولا سيما بحث: (L'hyperdulie de Fatima: ses origines historiques et dogmatiques = الغلو في فاطمة: أصوله التاريخية والعقائدية). وعليه عندما يدعي الجمل أنّه تجاوز في كتابه أعمال ماسينيون في أمرين اثنين: الأول - أنّه عالج محاور لم يتطرق إليها ماسينيون البتة، من قبيل تدبّر مسالك الانتقال في أخبار فاطمة من التاريخ إلى المتخيّل وضبط أهمّ تقنياته، والثاني - اتّخاذ المصادر التي درسها ماسينيون منطلقاً لإنجاز مقاربتة التأويلية المختلفة بشأنها، إلى غير ذلك مما فات ماسينيون التوقف عنده (٣٠)، فإنّ هذا الادّعاء في الحقيقة لا يخرج عن مستوى التلاعب ببعض الألفاظ، واجترار

بعض المفاهيم الفضفاضة تحت مفهوم تقنيات أو طرائق الانتقال، والمعايير التي يمكن من خلالها التمييز بين الصور المنتقلة من التاريخ إلى المتخيّل (٣١)، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإنّ الجمل، ولكي ينأى بنفسه عن تهمة التحيز للخطاب السنيّ الإقصائي المبكر لسيرة السيدة الزهراء والإمام علي (عليهما السلام) مقابل وسم الخطاب الشيعيّ بالمتخيّل واللاواقعي، فإنّه حاول القفز على حقيقة أنّ الخطاب الذي وسمه بالمتخيّل، وإن

صدّر عن فرق الغلاة والمتأخرين من مؤلّفي الشيعة وغيرهم، فهو لا يعدو كونه ردّة فعل ونتيجة طبيعة لخطاب الإقصاء الأول، وذلك عبر تعميم فكرة المتخيّل على مجمل الفضاء التدويني الإسلاميّ بشقيه الشيعيّ والسنيّ، فغادر-عن قصد- جملة من الحقائق العلمية والمنهجية الواضحة (٣٢). وبعبارة أخرى، إنّ الجمل اكتفى بإبراز النتيجة دون البحث عن أسباب تشكّلها، وهو بذلك لم يتعدّ عما قرّره لامنس وماسينيون، وكان مجرد مجرّ طروحاتها على الرغم من الادّعاء العريض بالإتيان بقراءة مغايرة.

وليت الجمل اكتفى بهذا الانتحال والادّعاء، فقد تجاوزه إلى الكذب عليهما! ففي تعليقه لمبررات الانتقال بسيرة السيّدة الزهراء (عليها السلام) من التاريخ إلى المتخيّل، قال: إنّ من أقوى المبررات التي حملت علماء الإسلام على الانتقال بفاطمة من التاريخ إلى المتخيّل ما لاحظوه من أنّ الاقتصار على ما هو ثابت عنها في التاريخ مخيّب للأمال، وعلة ذلك هو الحضور الباهت، والمحدود، والمهمّش لهذه الشخصية في التاريخ. وهذه الحقيقة استدلّ عليها المستشرق هنري لامنس وبنى عليها كتابه (فاطمة وبنات محمّد). ومن البديهيّ أن يعترض ممجّدو شخصية فاطمة على هذا المنهج في الكتابة عنها، وهو موقف لم يسر فيه بعض المستشرقين، الذين استفادوا ممّا كتب لامنس، وقال في الهامش: لم يبد ماسينيون أيّ اعتراض على لامنس في ترجمته المفصلة لحياة فاطمة في كتابه (فاطمة وبنات محمّد) (٣٣).

والواقع أنّ هذا الادّعاء هو الآخر لا صحة له، بل أنّ ماسينيون صرّح بخلافه في أكثر من موضع! فعلى الرغم من أنّ الرؤية الغربية الاستشراقية الحديثة حول السيّدة الزهراء (عليها السلام) تشكّلت من خلال ما قدّمه لامنس في كتابه (Fatima et less Filles de Mahomet = فاطمة وبنات محمّد) الذي أصدره في روما عام (١٩١٢م) فإنّ ماسينيون، وإنّ أشار إلى أنّه كان مضطراً إلى الاعتماد على هذا الكتاب لأنّه الكتاب الغربي الوحيد حول سيرتها في ذلك الوقت، إلّا أنّه أكّد استخدامه بحذر فاحص، وريبة كبيرة، سواء ممّا قدّمه

لامنس، أم من المتن التاريخي الإسلامي، الذي لا يخلو هو الآخر - بحسب ماسينيون - من الاختراع، والإسناد الباطل، والتزييف، والأكاذيب؛ لأنه كتب بعد ثلاثة قرون من الاضطهاد السلطوي للعلويين. إن لامنس (مدّاح الأمويين) قد تحامل كثيراً على الصورة التاريخية لفاطمة، فأظهرها على أنها شخصية حزن وبكاء، وتعاني من عدم التقبل، والمرض، وفقر الدم، وأنّ علاقتها مع زوجها علي كانت سيئة للغاية، وبذلك فقد انساق أمام تفضيله للأمويين، فردّد الزيف التاريخي الذي صنعوه بسبب العداء بينهم وبين العلويين، وفي حقيقة الأمر إنّ الواقع مخالفٌ لذلك تماماً؛ فقد ظلّت فاطمة الزوجة الوحيدة لعلي طيلة حياتها، مثلما كانت أمّها خديجة الزوجة الوحيدة لأبيها محمّد بالرغم ممّا اشتهر به ذلك العصر من تعدّد الأزواج، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على مدى الانسجام والألفة المتبادلة والحبّ بينهما، لقد كانت حياتها خاصّة واستثنائية (٣٤).

وقال في موضع آخر: على الرغم من الصورة التاريخية الباهتة التي قدّمها لامنس عن فاطمة، وهي صورة قوامها السخرية والازدراء، إلّا أنّنا - ومن جانب آخر كغربيين - حتى ذلك الوقت لا نمتلك سوى القليل من المعرفة عن الحياة القصيرة لفاطمة، لا سيّما أنّ التقاليد الإسلامية (المدونات) لا تتحدّث عن مجرى حياتها بشكل مفصّل وواضح (٣٥).

وأكد على رفضه لطروحات سلفه في موضع آخر فقال: إنّ لامنس هذا المسيحي المتدين الذي عاش لمدة طويلة في سوريا، بحماقته الشديدة يوّخ امرأة مثل فاطمة لتواضعها الجسدي، ويرفض كلّ حياة داخلية لهذا الدعاء الأبدي، وهذا يشي بأنّه فقد هذا الحبّ الإلهي الذي وجد فيه المسلمون الأوائل ما يجعلهم مميزين في ظلّ الحرمان والفقر والمرض (الكائنات المضطهدة)، كاتمتحان إلهي (زيارة إلهية)، وأنهم بسبب ذلك سيكونون شفعاء للآخرين، وقد كان النبيّ محمّد من دون أمل شخصي ومن دون ذرية يُنعت بالأبتر، وحكم عليه بزواج عقيم، وحرم من ولده الصغير إبراهيم؛ فالتفت إلى ابنته فاطمة الوحيدة المثمرة، وزوجها

علي ربييه، فكان أولادها الذين ولدوا منها، والأجيال القادمة التي لا تعد ولا تحصى بمنزلة أولاده، مما سوف يكسبه إخلاصه لتحقيق دعوة النبي إبراهيم وبشارته (٣٦).

وعليه لنا أن نسأل عن مدى مصداقية الجمل في الاطلاع على إدانات ماسينيون أو غيره من المستشرقين لعمل لامنس؟! أم أنه - وكما أسلفنا - كان متيماً بالصورة التي رسمها الأخير فاهتبلها وتبناها كحقيقة مطلقة تحظى بقبول الجميع؟!

### ثانياً: منهج الجمل وإشكاليته الفرز والانتقاء

إذا كان الجمل قد صدر كتابه بالتساؤل عما يمكن أن يضيفه في حقل التأليف عن السيدة الزهراء (عليها السلام) ومدى مغاييرته للأعمال السابقة في هذا الباب، وأجاب بأنه سيدرس الجانب المهمل فيها، وهو جانب المتخيل وعملية الانتقال إليه (٣٧)، فإنه أدرك أن هذا الوجه الجديد الذي يحاول دراسته وإبرازه هو إشكالي ومعقد بحد ذاته، ولذا أعاد طرح المشكلة البحثية من زاوية أخرى فقال: لعل من أهم الصعوبات التي يمكن أن تقلق الباحث في موضوعنا، هو التعالق والتداخل بين خطابين أساسيين في مدونة البحث هما: خطاب التاريخ، وخطاب المتخيل، حتى إنه يصعب - أحياناً - تخلص هذا من ذاك، وتعرُّس إقامة حدود فاصلة بينهما؛ فخطاب المتخيل يتأسس في - حالات معينة - على نواة تاريخية، ويتغذى من بعض معطياتها، ويتخذها رافداً ليستمر وجوده من ناحية، ويتجاوزها لبناء خطابه الخاص به من ناحية أخرى. فكيف تتسنى لي دراسة فاطمة في المتخيل الإسلامي، والحال أن التداخل بين ذينك الخطابين لا يمكن إنكاره، أو غض الطرف عنه؟

وكحل لهذه الإشكالية قال الجمل: إن وعيي بهذه الصعوبة المعرفية حملني على مواجهتها بضرورة مقارنة موضوع فاطمة مقارنة تاريخية موظفة في اتجاه فهم مختلف تمثيلات الدارسين لشخصيتها في المتخيل الإسلامي؛ فهناك حقيقة تاريخية مدارها على الأقوال والأفعال

المنسوبة لفاطمة، وحقيقة متخيلة تعكس ضمير الجماعات الإسلامية، وتعبر عن لا وعيها الجمعي حيال ابنة النبي (٣٨).

وهذه الإجابة ليست سوى إعادة للسؤال في الحقيقة! وأجدها تستحضر فينا قول الحاجبي أحد شعراء القاهرة في القرن الثامن الهجري:

أقول شبه لنا جيد الرشا ترفا      يا معمل الفكر في نظم، وإنشاء  
فظل يجهد أياما قريحته      وشبه الهاء بعد الجهد بالهاء<sup>(١)</sup>

ومع حقيقة الثراء والتنوع في الاختيارات الفكرية الإسلامية القديمة حيال الموضوعات والشخصيات التاريخية، والركام الثقافي المتشكل جراء الصراعات المذهبية والسياسية، ومتباينة السائد والمهمش التي حكمت المشهد الإسلامي منذ بواكيره الأولى وحتى عصر التدوين وما بعده، وبقاء الأبواب مشرعة لإنتاج الآراء والمواقف وتبنيها من قبل الأطراف المتصارعة، لا شك أهمل العديد من الخصوصيات، وأهدر الكثير من الحقائق، وبالمقابل برزت الشمولية والصيغ المطلقة، والصور المكونة للأحداث لا حقيقتها الكائنة.

وأمام هذا الواقع المشوه، لا شك أن انتخاب آليات علمية وموضوعية صارمة لترجيح الاحتمالات التفسيرية، والفرز بين ما هو تاريخي وما هو متخيل يغدو ضرورة ملحة، ولكنها في الوقت ذاته يجب أن تتأسس على وفق معايير واضحة ومحكمة. ولكن الجمل لم يضع أيًا من تلك المعايير، واعتمد على ما بدا له أنه:

ممكن الحصول من منظور تاريخي.

مما ينسجم مع سنن الاجتماع الإنساني.

(١) يُنظر: جدل التاريخ والتخيل، ٩-١٠.

مما يتفق مع القيم الاجتماعية السائدة في الوسط القبلي في شبه الجزيرة العربية في بدايات القرن السابع للميلاد (٣٩).

وفي الحقيقة أنّ هذه المرجّحات التي اعتمدها الجمل ليست إلّا مبررات احتيالية لعملية انتقاء ما يلائم فكرة البحث التي أعدها سلفاً، وما ينسجم مع توجهاته ومتخيلّه؛ إذ جعل الحكم الفصل على الروايات في سيرة الزهراء (ع) بين ما هو التاريخيّ منها وما هو متخيل، ما أورده ابن سعد دون غيره من المؤرخين!! فقال بعد أن أورد الجدول التالي:

| المؤلف                          | المصدر                                             | مواطن الاهتمام (على التوالي)                                                          |
|---------------------------------|----------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------|
| ابن سعد<br>(ت 230هـ)            | الطبقات الكبرى<br>(ج 5، ص 14-22)                   | مولدها - زواجها بعليّ - شدته عليها - مرضها - وفاتها.                                  |
| الطبراني<br>(ت 360هـ)           | المعجم الكبير<br>(ج 22، ص 397-412)                 | موتها - دفنها - مناقبها يوم القيامة - منزلتها عند أبيها - تزويج فاطمة بأمر من السماء. |
| أبو نعيم الأصفهاني<br>(ت 430هـ) | حلية الأولياء<br>وطبقات الأصفياء<br>(ج 2، ص 39-43) | حظوتها عند الرسول - معاناتها الفقر والخصاصة - فضلها على مريم بنت عمران - وفاتها.      |
| ابن عبد البرّ<br>(ت 463هـ)      | الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج 4، ص 1893-1899)      | مولدها - اعتبارها من خير نساء العالمين (مريم، خديجة، آسية امرأة فرعون) - وفاتها.      |
| ابن الجوزي<br>(ت 597هـ)         | صفوة الصفوة (ج 4، ص 9-15)                          | مولدها - زواجها - حظوتها عند أبيها - معاناتها في حياتها اليومية - وفاتها.             |
| ابن الأثير<br>(ت 630هـ)         | أسد الغابة في معرفة الصحابة (ج 7، ص 220-227)       | زواجها بعليّ - منزلتها عند أبيها - مرورها بين الرجال يوم القيامة - وفاتها.            |

أهم ما يلاحظ في الجدول أعلاه أنّ ترجمة فاطمة في المصادر السنية إلى حدود منتصف القرن الثالث للهجرة (مع ابن سعد) هي أقرب ما تكون إلى التاريخ؛ فكلّ الأحداث المتعلقة بهذه الشخصية ممكنة الحصول من منظور تاريخي، وليس فيها ما يخرج عن سنن التاريخ وقوانينه المعروفة: (ولادة، زواج، معاملة الزوج لها، المرض، الوفاة)، ولكن يبدو أنّه من نحو منتصف القرن الرابع للهجرة (مع الطبراني)، بدأت تتسلل إلى هذه الترجمة معطيات ومواد لا يمكن قبولها إلّا من وجهة نظر إيمانية لا علاقة لها بالتاريخ، من قبيل الكلام على مناقب فاطمة يوم القيامة، وتزويجها بأمر من السماء، ومرورها بين الرجال في اليوم الآخر.

ثم تساءل متظاهراً بالبحث الموضوعي والدقة بالفحص: والحق أنّ الملاحظة السابقة ولدت فينا أسئلة عديدة نراها مهمة، من نحو ما الذي يفسر الالتفات إلى المواد غير التاريخية في ترجمة فاطمة في منتصف القرن الرابع الهجري؟ أهذا الأمر علاقة بالشأن السياسي المروج لفكر آل البيت؟ ..، لا شكّ في أنّ كلّ اعتقاد أو فكر ديني يحتاج، كي يسود ويروج لأطروحاته، إلى نفوذ سياسي يشدّ أزره، ويفرضه على الناس، سواء بحسن الأحداث، أم بقوة السلطان... والمؤكد عندنا أنّ تمجيد آل البيت وتقديس رموزهم (علي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وسائر الأئمة)، بدأ مع بروز الدولة المنتصرة للمقاتلات الاعتقادية الشيعية وقيامها، ومن ثمّ لا نستبعد وجود علاقة متينة بين التطور الذي شهدته ترجمة فاطمة - وقد وجدنا أثره الباهت نسبياً في المصادر السنية القديمة - وتحكم البويهيين في دوايب الخلافة الإسلامية (٤٠).

ولكي يدلّل على هذه الفكرة استعرض الجمل جدولاً آخر صنف فيه بعض المؤلّفات الشيعية من القرن الرابع الهجريّ وحتى القرن الحادي عشر، وتحديدًا عصر المجلسي (ت ١١١١هـ) وكتابه بحار الأنوار، وأشار إلى مفاصل ترجمتها في هذه الكتب

بدأت تتناول مواضيع من قبيل: أئمة تزهرو لأهل السماء، وأئمة تحدث بالمغيبات، وطهارتها، وتزويجها في السماء، وأئمة تحدث أمها خديجة وهي في بطنها، وتفضيلها على النساء، ومنزلتها عند النبي، ومعجزاتها، ورؤية النبي لاسمها مكتوباً على باب الجنة، وحديث الكساء، وتظلمها يوم القيامة، ومجيئها في المحشر...، ومن ثم علق على ذلك بالقول: إن الناظر في هذا الجدول ليلفت انتباهه المنعطف البارز الذي أخذته ترجمة فاطمة في المصادر الشيعية منذ القرن الخامس للهجرة، ومضمونه اكتساح عدد من العناصر غير التاريخية تلك الترجمة، وتنامي حضورها ومداها، كلما تأخرنا في الزمان، حتى أصبحت المواد التاريخية في تلك الترجمة ضامرة جداً مقارنة بالحضور المكثف والواسع للمواد المنتمية إلى دائرة المتخيل الديني، وقد بلغت هذه الظاهرة مداها الأقصى في الجزء الذي خصصه المجلسي لفاطمة، ضمن موسوعته الضخمة (بحار الأنوار)، حتى أن الأحداث التاريخية المتعلقة بفاطمة أصبحت تُروى بطريقة مغايرة لما كان عليه الحال في القرون الهجرية الثلاثة الأولى (٤١).

وبغض النظر عن التباين في مفصلات ترجمة السيدة الزهراء (عليها السلام) وسيرتها بين المؤلفات في الجدولين، فإن المسألة لا يمكن ترحيلها إلى خانة المتخيل دفعة واحدة، وقبل النظر في الظروف الموضوعية والتوجهات المذهبية والاعتقادية لكل من هؤلاء المؤلفين من جهة، وخصوصية المترجم له من جهة أخرى، فليس بالإمكان معاملة الأنبياء ومن يقترب من دائرتهم كالأوصياء والأئمة كما سواهم من البشر، فهناك حيثيات ترتبط بالعناية الإلهية لهذه الفئات تدور مدار الإعجاز والكرامة، وتند عن القوانين الطبيعية التي تحكم سير غيرهم من البشر، ومشكلة الجمل أنه حاول تجريد السيدة الزهراء (عليها السلام) من كل أثر للعناية الإلهية، والنظر إليها كغيرها من النساء والشخصيات التاريخية.

أضف إلى ذلك أن الأخبار التي وسمها الجمل بـ: (المتخيل) أو ما عبر عنه بـ: (مقالة البدايات)، و(مقالة الدنيويات)، و(مقالة الأخرويات) من قبيل: (نور فاطمة، وحملها



وولادتها العجيبة، وطهارتها وأفضليتها على النساء، وفاطمة في القبر، وفي القيامة، وعلى الصراط، وفي القصاص والشفاعة (٤٢)) لا تنتمي إلى حقل الرواية التاريخية بقدر انتمائها إلى حقل الحديث النبوي، وعليه لا يمكن أن تُطبق عليها المعايير ذاتها التي تطبق على الرواية التاريخية، أو أن يُصنف كلاهما في خانة بحثية واحدة!

هذا فضلاً عن المؤاخذات الأخرى على السردية التاريخية التي انتخبها الجمل للتدليل على فكرته، وأهمها الانتصار لمعنى من المعاني التفسيرية على حساب الآخر أو ترجيحه من دون أدنى مبرر أو ضابطة موضوعية، كما في تبني فكرة دوام حزن السيدة الزهراء (عليها السلام) وبؤسها، وتواضعها من الجمالي قياساً بغيرها من النساء، ومرضها المستمر، وتأخرها في الزواج، ورفضها للزواج من الإمام علي (عليه السلام) في بادئ الأمر لفقره وتواضعه هو الآخر، ومن ثم سوء العلاقة بينهما، ومحاولته الزواج بغيرها في حياتها...، مقابل الاحتمالات الأخرى المغايرة تماماً، فهي لم تكن حزينة إلا بعد وفاة أبيها وغضبها حقها وإرثها والاعتداء عليها. ومن المعلوم أنها كانت تشبه أبيها (عليه السلام) وكم تغنى الشعراء بجمال طلعتها وبهائه، بل أن تلقبها بالزهراء يرتد لذلك (٤٣)، وهي لم تتأخر في زواجها كما تبني لامنس (٤٤) وتابعه الجمل، بل على العكس من ذلك تماماً في نصوص وروايات عدة، كما لم تكن مريضة ابتداءً بدليل ولادتها لأربعة أبناء، إلى غير ذلك من الروايات المغايرة عن طبيعة هذا الزواج المبارك، والاحتفاء النبوي به، وما تبعه الانسجام التام بين الزوجين، وتشكل مفهوم أهل البيت، وأصحاب الكساء، وشخص المباهلة، والعترة الطاهرة... الخ، فبأي مقياس يا ترى تكون هذه الأخبار من صنف المتخيل، وتكون الأخبار الإقصائية والتشويه المتعمد الذي مارسه ابن سعد في الطبقات الكبرى إزاء أهل البيت من صنف التاريخ والمقول؟!!

### ثالثاً: العلاقة بين الزهراء والإمام علي عليهما السلام من تشويه التاريخ إلى تجني لامنس والجمل

أشرنا - فيما سبق - إلى أنّ الجمل جعل من مرويات (ابن سعد) في كتاب (الطبقات الكبرى) ميزاناً للحكم على الأخبار المتعلقة بسيرة السيّد الزهراء عليها السلام بين التاريخي منها والمتخيّل، والواقع أنّ هذا الاختيار لا يرتدّ إلى مبررات

علمية ومنهجية من قبيل: تقدم المؤلّف زمنياً، وتخصّصه وريادته في حقل التراجم والطبقات، وإنّما لأنّه مارس دوراً إقصائياً واضحاً ومتعمداً لسيرتها؛ بعدّه مؤرخاً للسلطة العباسيّة، ومنفذاً لمهمة موضوعه أمامه وبعهدته، وقد مثّل بحق المدرسة التي سيطرت على تطور المفهوم السنّي للإسلام، كما عبر (جيفري S.H.M.) (٤٥)، فقد صاغ ترجمته للسيّدة الزهراء عليها السلام في ضوء الخلاف المبكر الناشب بين أولادها من آل الحسن تحديداً والسلطة العباسية، على أثر ثورة محمد ذي النفس الزكيّة وأخيه إبراهيم، وما تخلّلها من مراسلات بين ذي النفس الزكيّة والمنصور الدوانيقيّ (١٣٦-١٥٨هـ) عرّض فيها المنصور بالسيّدة الزهراء عليها السلام، فمن يطّلع على هذه المراسلات يلمس بوضوح تامّ الشروع بمنهج الإقصاء الذي مورس تحت رعاية السلطة وتوجيه مباشر منها (٤٦).

وسنحاول - فيما يلي - التوقّف عند أبرز المحطّات التي ادّعى فيها الجمل الانتقال بسيرة السيّدة الزهراء وعلاقتها بالإمام علي عليهما السلام من حقل التاريخ إلى حقل المتخيّل، ونبيّن عدم جِدّة هذه الأفكار وأصالتها، وكيف أنّه اجتريّها بتقليد أعمى ومخادع من لامنس، فكان مجرّد صدى لرجع كلماته وطروحاته، التي أسسها اعتماداً على منهج الإقصاء والتشويه ضدّ أهل البيت منذ أن مثله (ابن سعد) وغيره من مؤرخي السلطة العباسيّة والإسلام السنّي، وذلك على وفق النقاط الآتية:

### تأخر زواج السيّد الزهراء عليها السلام

مع استعراضه للآراء التي قيلت في تاريخ مولد السيّد الزهراء عليها السلام إلّا أنّ الجمل رجح الرأي القائل بولادتها قبل البعثة بسنة واحدة أو خمس سنوات (٤٧)؛ بدعوى أنّ إنجاب السيّد خديجة وهي في عمر (٦٠ سنة) أمرٌ وإن لم يكن مستحيل الحدوث، فإنّه نادر التحقق في التاريخ، وإذا ما حدث فسيكون موضوع حديث أنديّة قريش، ومجالسها، وبيوتاتها، تتعهده الذاكرة الجمعيّة بالرواية والتداول، ولربّما خلّدتها الأشعار والأمثال، وهو ما لم تنقله كتب التراجم والطبقات. وأشار إلى أنّ الرأي الذي فرضه كتّاب الحوّلّيات والتراجم قضى بأن تكون فاطمة أصغر شقيقاتها، في المرتبة الرابعة بعد زينب، ورقية، وأم كلثوم، مع وجود آراء أخرى لم يكتب لها الشيوع من قبيل: أنّ رقية أصغر منها، ولكنّ القدامى شدّدوا على أنّها الصّغرى؛ لما في ذلك من دلالة مهمّة في تعيين خصوصيّات علاقة الأب بال بنت الصّغرى. وغير خفيّ أنّ الجمل قدّم هذا السرد الذي ادّعى فيه تحليل الروايات ومقاربتها ومناقشتها، لينتهي إلى القول: أنّ السيّد الزهراء عليها السلام تزوّجت في سنّ تتراوح بين (١٥-٢١ سنة)، وهي سنّ متقدمة جدّاً بالنسبة إلى سنّ الزواج المألوفة في الجزيرة العربيّة إبّان القرن السابع للميلاد؛ ففي سنّ الحادية والعشرين يمكن للمرأة أن تصبح جدّة (٤٨).

إذن فالجمل خلص إلى هذه النتيجة بناءً على فكرة استحالة أو غرابة أن تكون السيّد خديجة عليها السلام قد أنجبت

السيّد الزهراء عليها السلام وهي بعمر (٦٠ سنة) على اعتبار زواجها من النبيّ بعمر (٤٠ سنة) (٤٩) حسب الرأي المشهور والشائع في التاريخ.

ولكن من الغريب أنّ الجمل الذي أجهد نفسه في مقارنة الروايات حول تاريخ ولادة السيّد الزهراء عليها السلام ومناقشتها وتحليلها، لم يحاول أن يلتفت مجرد التفاتة بسيطة إلى الآراء

والروايات الأخرى المطروحة في سنن السيّد خديجة عليها السلام عند زواجها من النبي ﷺ على الرغم من كثرتها ورجاحتها قياساً برواية الأربعين - إن كان يعلم بها أصلاً - فقد ورد أنّها تزوّجته بعمر (٢٥ سنة) (٥٠)، أو بعمر (٢٨ سنة) (٥١)، أو بعمر (٣٠ سنة) (٥٢)، أو بعمر (٣٥ سنة) (٥٣)، وذهبت روايات أخرى إلى أنّها كانت فوق الأربعين (٥٤). وقد ناقش ذلك نقاشاً مستفيضاً الدكتور (حسين الشراهاني) في دراسته عن السيّد خديجة (٥٥).

وعلى أية حال، فقد بنى الجمل هذه النتيجة ليتدرّج إلى القول بعدها: والحقّ أننا لا نعثر على أسباب صريحة تفسّر عزوف شباب أهل مكة خاصّةً عن التقدّم لخطبة ابنة الرسول، وإن حاولت بعض الروايات أن ترجع ذلك إلى رفض الرسول وصده للمتقدّمين. ولكن هذه الرواية - وعلى فرض صحتها تاريخياً - لا تعين دواعي ردّ الرسول طالبي يد ابنته فاطمة، فهل لهذا الصّدّ علاقة بالشخوص الراغبين في الزواج بها (نسبهم، حسبهم، منزلتهم الاجتماعية، سنهم، جاهلهم...)، ومقابل تشدّد الرسول في تزويج فاطمة، نرى مرونته وتساهله في تزويج بناته الأخريات من مشركي قريش. وأشار إلى أنّ الروايات الشيعيّة تدرج بين أولئك الخاطبين أبا بكر، وعمر، ولكن طلبهما لم يحظَ بالقبول (٥٦).

ولنا أن نسأل الجمل هنا، أليس المعقول والمقبول، وبحسب قاعدتي: (سنن الاجتماع التاريخي) و(الأعراف القبليّة السائدة آنذاك) اللتين أقرّهما الجمل للحكم على الأخبار والروايات، ألا يكون (عزوف شباب مكة والمدينة عن التقدّم لخطبة ابنة الرسول) مناقضاً للواقع والمنطق، فهي ابنة صاحب الرسالة الجديدة التي آمنوا بها، وهو زعيمهم الدينيّ والسياسيّ، وواضح أنّ المستقبل يبشر بخير في نمو دولته وسلطانه، فضلاً عن الأبعاد والمزايا الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي ستترتب على ذلك الارتباط، وعليه لا شك ولا ريب أنّ لهم كلّ الشرف بأن يطلبوا التقرب منه ومصاهرته؛ هذا من جانب.

ومن جانب آخر، كان المسلمون الأوائل مُحاصرين من قبل قريش، ووصل الأمر في حصار الشعب إلى أن شملت المقاطعة حتى التزويج والمصاهرة (٥٧)، وبطبيعة الحال كان المسلمون لا يتزوجون غير المسلمات، وإذن فهم يعيشون في مجتمع وبيئة محدودة الخيارات، فضلاً عن قلة إمكاناتهم المادية، والمنطق، والواقع التاريخي يحكم مع هذه الأمور أن لا تحتل مسألة الجمال سُلّم الأولويات في الاختيارات الزوجية، ولكنّ الجمل تجاهل كل ذلك، ولم يأخذه بعين الاعتبار؛ لأنّه وببساطة ينسف ما تبناه ويهدمه من الأساس!!

والحقيقة أنّ الجمل قد أخذ هذه الفكرة في (تأخر زواج السيّد الزهراء عليها السلام)، ورفض الروايات التي تقول بخطبتها من بعض المسلمين، وفي مقدّمهم أبو بكر وعمر، وردّهم من قبل النبيّ) أخذها نصّاً عن لامنس (٥٨). ومما قاله الأخير في ذلك: أنّ النبيّ برفضه تزويج فاطمة على أساس صغر سنّها ناقض نفسه بشكل يرثى له، فلو فرضنا أنّا صغرنا عمر فاطمة إلى أقصى حدّ وقت الهجرة، فإنّها ستكون بلا شك قد تعدّى عمرها آنذاك عمر عائشة، ونحن في حقيقة الأمر نجد أنفسنا أمام مسرحية الهدف منها إخفاء العنوسة والعزوبة الطويلة التي عانت منها فاطمة، لقد فعل ذلك كي ينقذ اعتباره واعتبار ابنته بين الناس، غير مبال في سبيل ذلك بأيّ ثمن يدفعه، ولكن ما هي مصلحته في أن يمنحها أخيراً، وبقوة لعلّي؟ إنّ هناك إشكالات على العديد من الأسباب والتوضيحات المزعومة التي ساقها لذلك، فقد كان ردّه: لم يكن لي أي دور في هذا الأمر، لأنّ الله هو من أمر بهذا الزواج، ونعتقد بأنّ تدخل السماء في أبسط أمور حياة النبيّ المنزلية أنّها هو شيء لا يقبله العقل (٥٩).

وكذلك الحال في فكرة زواجها بين (١٥-٢١ سنة، وأنّها سنّ متقدمة جدّاً بالنسبة إلى سنّ الزواج المألوفة في الجزيرة العربيّة) فهي الأخرى فكرة متحلّة عن لامنس، وليست من ابتداء الجمل وتفكيره الخالص، فسلّمًا قد قال لامنس: إنّ العمر المعروف آنذاك للزواج

بالنسبة للنساء العربيات يتراوح بين (٩-١٢ سنة)، ويبدأ أهل الفتاة بالقلق على مستقبل ابنتهم حينما تبلغ العشر سنوات، نرى كتابنا يبذلون قصارى جهدهم لتصغير عمر فاطمة حين زواجها.. فقد أكثروا وبخجل ترديد رقم (١٥ أو ١٥ سنة ونصف) تاركين المجال لإمكانية أن يكون الرقم أكبر من ذلك، وفي الحقيقة أننا وجدنا أن من بين قدامى الكتاب من يتكلم عن أنها وقت زواجها قد بلغت (١٨ سنة)، ومع أن هذا الرأي يقترب قليلاً من الحقيقة إلا أنه لا يمثلها، فإذا افترضنا أن فاطمة عاشت حسب متوسط الآراء (٣٠ سنة) فأنها تكون تجاوزت (٢٠ سنة) عند حدوث معركة بدر، ولو فرضنا جدلاً أنها لم تكن قد تجاوزت عمر الزواج المألوف آنذاك، فما معنى أن تفترض بعض الروايات أنها أكبر سنًا من زوجها. كما أن النبي بلغ من العمر (٢٥ سنة) وهو بعد لم يدخل حياة الزوجية، فإن حالة علي وفاطمة كانت كحالته.. ولغرض أن يزوج جميع بناته، نجد أبا القاسم قام باتباع مبدأ (السبق للبنات الكبرى في الزواج)، وعلى افتراض أن فاطمة هي الثانية في تسلسل أخواتها، فإنها طبعاً لم تسبق أم كلثوم التي تزوجت من عثمان في المدة الواقعة بين بدر وأحد، رغم كل هذه التناقضات والفوضى المتعمدة في نقل الأخبار، فإن وثائقنا أوضحت ما حاولوا كتمانها محاباة لمحمد في أنه كان من الصعب عليه أن يجد من يتزوج بناته (٦٠).

## ٢- ترددها في الزواج بالإمام علي (عليه السلام):

نظراً لأن الجمل كان متابعاً ومقلداً أعمى للامنس، ولأنه كان مشبعاً بفكرة التخيّل، ويريد إثباتها بكل وجه، وبأي طريقة، فإنه - كسابقه - لم يلتفت إلى التناقضات التي تبرز في أفكاره بين الحين والآخر! ففي سياق تعليقه لتقدّم الإمام علي (عليه السلام) خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) وموافقة النبي (ﷺ) على تزويجها له، مقابل رفضه لطلب أبي بكر وعمر، أشار الجمل إلى أنه يستبعد أن رفض الرسول (ﷺ) لطلب الأخيرين كان بسبب فارق السنّ بينهما وبين فاطمة، وأن رفضه مردود إلى: عدم رغبة النبي بتزويج ابنته من رجال متزوجين، بغض النظر عن

القيمة الاعتباريّة لأيّ منهم، ولعلّ علي بن أبي طالب فسّر موقف الرسول على هذا النحو من التفسير، فإذا به يطلب الزواج من فاطمة، وقد بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة (٦١).

وقد أثبت الجمل هنا - ومن حيث لا يشعر - ما كان نفاه في الصفحة السابقة من كثرة خطّاب السيّدة الزهراء (عليها السلام)، حين أشار إلى (عزوف شباب مكّة عن التقدّم لخطبة فاطمة، وشكّك برواية صدّ الرسول (صلى الله عليه وآله) لجملة من الخاطبين)، ووضح أنّ ما دعاه لهذا الإثبات هنا هو الالتزام بالدفاع عن الشيخين، وتبرير رفض الرسول (صلى الله عليه وآله) لطلبها بالزواج من السيّدة الزهراء (عليها السلام) مقابل تزويجها للإمام علي (عليه السلام) بمحاولة منه لجعل هذا التفاوت في موقف الرسول (صلى الله عليه وآله) مردود لا إلى عناية وتدخل إلهي في مسألة زواجها، ولا إلى أفضلية الإمام علي (عليه السلام) على الشيخين، ولا إلى فارق السنّ بينها وبينهما، وأنّما لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يرغب بتزويج ابنته من رجال متزوجين!! فلما أدرك الإمام (عليه السلام) ذلك تقدم لخطبتها. فإن كان الجمل قد أثبت شيئاً في هذه المناقشة فإنّه أثبت ما سبق وإن نفاه.

وبالعودة إلى موقف السيّدة الزهراء (عليها السلام) من الزواج بالإمام علي (عليه السلام) فإنّ الجمل وعلى نهج سلفه لامنس، وترديداً لطروحاته، وللخطاب الإقصائي المبكر لسيرة أهل البيت لم يُتوقع منه إلّا أن يميل لدعوى عدم قبولها في بادئ الأمر، على الرغم من أنّ قبولها هو الراجح بحسب النصّ، وبحسب سنن الاجتماع الإنسانيّ التي ادّعاها الجمل سابقاً!! فقال في هذا الصدد: والحقّ أنّنا لا نعلم موقف فاطمة الصريح من هذا الطلب، سوى أنّها التزمت الصمت، وقد أوّل سكوتها في اتجاه الدلالة على رضاها بهذه الزيجة، بل قد استخلصت منه إحدى قواعد النكاح في الإسلام - استحباب استئذان البكر، وأنّ إذنها سكوتها-، ولكن لم لا يكون سكوت فاطمة تعبيراً غير مباشر عن رفضها الزواج من عليّ؟ لا سيّما وأنّ نساء قریش قد بسطن ألسنتهنّ في تزويج فاطمة عليّاً، وأنّها نقلت لأبيها بعض كلامهنّ، ولم يكن المهر الذي قدّمه عليّ لفاطمة سوى درع باعها، ويبدو أنّ فاطمة

لم تكن راضية النفس عما قُدِّم لها من صداق أو مهر؛ لذلك نراها تحتجّ على الرسول قائلةً: زوّجتنني بالمهر الخسيس، وفضلاً عن ذلك كان متاع بيتها متواضعاً جداً، لا يكاد يكفي الحاجيات الحيّاتيّة الضروريّة (٦٢).

والواقع أنّ الجمل هنا يناقض نفسه بشكل يرثى له، حتى أنّك لترى صبيانيّة وعشيّة في البحث لا حدّ لها، وإلّا فبحسب ما كان ادّعاءه من (عدم تمتع السيّد الزهراء عليها السلام بصفات جماليّة، وعزوف شباب مكّة عن خطبتها) وبحسب قاعدتي: (سنن الاجتماع التاريخي) و(الأعراف القبليّة السائدة آنذاك)، تكون المواصفات المتوافرة في الإمام علي عليه السلام من ناحية صغر سنّه وفتوّته، وبنيتة الجسمانيّة القويّة، وقربه النسبيّ والنفسيّ منها ومن أبيها، وحبّ أبيها له ورضاه عنه، ورغبته في تزويجها إيّاها، وما بذله من بطولة وجهد وفداء لأبيها ليلة الهجرة، ولها فيما بعد في هجرتها إلى المدينة والحاق بأبيها، إضافة لمكانته الاجتماعيّة والدينيّة المتميزة في ذلك المجتمع الناشئ، ولا سيّما بعد أن برز نجمه في معركة بدر لبطولاته واستبساله الفاعل في حسم المعركة لصالح المسلمين، وهي صفة ترجح على جميع الصّفات في ذلك المجتمع القبلي، وتلك البيئة التي تحدّق بها الأخطار من كلّ جانب ومكان، حيث كان المسلمون في مرحلة النشوء والتحدّي وإثبات الذات أمام قريش وجبروتها، ومحيط الجزيرة المشرك المتوثّب للقضاء على الإسلام ودعوته الجديدة، بحسب ما تقدّم يكون رضاها أمراً مفروغاً منه ولا يحتاج إلى ما يدلّ عليه، بل إنّ خلافه هو ما يكون متخيلاً وبعيداً عن الواقع والمنطق، ولكنّ الهوى والتعصب والبغض يعمي ويصمّ!!

وزد على ذلك أنّ الجمل قد تنزى في هذه الفكرة أيضاً على ما قد سبق وإن طرحه لامنس بفضاضته المعهودة، حين قال: حسب ما يراه معاصروها فإنّ فاطمة جازفت بمكانتها كونها قبلت أن تكون قرينة لعليّ؛ فعليّ بدا منقاداً بقصوره الذاتي الذي عدّ سمة بارزة من سمات شخصيته. وهو على أي حال رفض دفع أيّ مهر متذرعاً بفقره، فتوجب على النبي أن يصرّ



على تذكيره بالدرع الجميل الذي كان قد تأمله فيه في معركة بدر، وأمر النبي علياً في أن ينفق ثلثي المهر المتواضع (٤٠٠ درهم) في شراء العطور، وما تبقى من المهر في تأثيث منزل الزوجية الجديد، بمثل هذه الطريقة كان كتابنا يظنون أنهم يستطيعون أن يصوروا لنا كيف كانت الفاقة التي كان عليها هذان الزوجان الشابان. هؤلاء الكتاب في الحقيقة جعلوا من محمد ذلك الرجل الذي يضمن الحرية للزوجين في اختيار أحدهما الآخر. ولأن الصمت يعني الرضا، فإن فاطمة بدت وقد التزمت الصمت بعد أن استشارها أبوها حول زواجها المستقبلي من علي. إنه صمت المفاجأة والذهول! حيث أن البنت المسكينة لم يبد عليها أنها كانت تنتظر مثل هكذا مقترح، ولم تتأخر في إبداء عدم رضاها، وبشكل مسموع قائلة: أتريد تزويجي من معدم؟! وتوجب على محمد أن يصمت، ثم لأجل تهدئتها توسل بتعداد صفات علي: أقدمهم إيماناً، وأكثرهم علماً، الله هو الذي اختاره زوجاً لها. وإذا كان محمد مقتنعاً بذلك المدح فإنه لم ينل أي اهتمام من ابنته! برغم كون زوج المستقبل ابن عمها ونشأ بجنبها في بيت والدها، وبرغم المخاطر الكثيرة التي تعرض لها وهو ينقلها من مكة، إذن يجب علينا أن نتساءل لماذا لم تقم فاطمة وزناً لكل ذلك الماضي؟ إنه القلب وما يهوى. ولماذا تقاوم والدها في كلامه البليغ فيما يخص علي؟ إن بنت النبي لم تكن جميلة المنظر، فإن علياً هو الآخر أبعد ما يكون عن الجمال الرجولي في منظره. كان العرب يحبون في أبطالهم طول القامة، وكان الهاشميون معروفين بطول قاماتهم، وهذا ما لم يوجد عند خطيب فاطمة، في الأعلى جذع قصير جداً، وأسفله حدة مفرطة، وبرزت ذراعه النحيفتان بشكل يثير السخرية، وفي المنتصف يتوسط رأس ضخم، مع عينان هامدتان وأرمدتان، مع أنف أفطس وهذا الأنف كان يميز علياً عن بقية بني هاشم، الذين كانوا ذوي أنوف طويلة تشرب قبل الشفاه، وقد صاحت إحدى النساء عندما شاهدته للمرة الأولى: يا له من شخص غريب، كأنه كسر ثم جبر. إذن هذه هي المواصفات الجسمية لخطيب فاطمة، أضف على

ذلك فقدان تام للذكاء يغلب على كفة جميع صفاته الأخرى، وفي النهاية فقر مدقع، وهي سمة كان يعرف بها جميع أبناء أبي طالب، وقد تحجج عليّ بفاخته كي لا يدفع مهرًا لفاطمة في بادئ الأمر، مما جعل محمدًا يضمّر له الضغينة، كما إنّ ذلك يعدّ بداية تتسم بسوء الحظ للحياة الزوجية القادمة (٦٣).

### ٣- سوء العلاقة بينهما في بيت الزوجية

كثيرًا ما يناقض الجمل نفسه وقواعده التي وضعها لتعين المتخيل في سيرة السيدة الزهراء (عليها السلام)، ويارس عبثية انتقائية في الحكم على الأخبار والروايات، فهو يشكّك بها إن كانت تخالف فكرته وتوجهاته، على الرغم من انسجامها مع القواعد التي عينها سابقاً: (سنن الاجتماع الإنساني)، و(الممكن الحدوث من وجهة نظر تاريخية)، أما إن كانت توافقه فيتمسك بها ويرجحها، وإن كانت متعارضة مع هاتين القاعدتين، ومع المنطق، بل حتّى وإن تعارضت مع التواتر والمشهور التاريخي! ولا شكّ أنّ ذلك مردود لاستحكام المتخيل المتشكل في وعيه، ولتقليده الأعمى للامنس، حتّى أنّه شلّ عقله بالكامل، ولم يمنحه فرصة للتفكير والتأمل فيما يدعي!

وليس أدلّ على ذلك من أنّنا نجده يقول: يبدو أنّ إنجاب الأبناء لم يحقق لفاطمة الاستقرار الأسري، والتوازن النفسي المطلوبين، نظرًا إلى ما كانت تلقاه من صعوبة في العيش، ومن قسوة الحياة عليها؛ إذ كانت تلقى في حياتها اليومية ألوانًا من الضنك والتعب، حتّى أنّ عليًّا تحدث عنها يومًا، فقال: جرّت بالرحى حتّى أثّرت بيدها...، واستقت القربة حتّى أثّرت بنحرها، وأقمت البيت حتّى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتّى دنست ثيابها، وقد سألت النبيّ أن يوفرّ لها خادمًا، ولكنّه امتنع عن إجابة طلبها، وتضافرت الروايات القديمة في إبراز جوع فاطمة وأبنائها، فقليل إمّا كانت تقضي ليالي دون أن تجد ما

تسدّ به الرمق...، ومن المرجّح تاريخياً أنّ ما كانت تعانيه فاطمة من مشقّة كبيرة في حياتها اليومية من أعباء، وخصاصة، وجوع، مثل سبباً من أسباب ما عرفته حياتها الزوجيّة من توتر مستمرّ. وتشير بعض الروايات إلى أنّ عليّاً كان يعاملها بشدّة وقسوة. وربّما انقطعت بينهما لغة الحوار والتواصل، في أكثر من مناسبة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من ردود أفعال تهدد أسس الحياة الزوجيّة. فعن المنهال بن عمرو أنّه كان بين عليّ بن أبي طالب وبين فاطمة كلام وأنّه هجرها، فخرج من بيتها، فأتى المسجد، فنام في التراب؛ ولذلك تعدّدت محاولات تدخّل الرسول لإصلاح ذات الين بينهما، وتمتّ المصالحة بينهما بطريقة طقوسيّة بأن اضطجعا على جنبيه وهو بينهما، فأخذ بيديهما ووضعهما على سرته، ولم يزل حتّى أصلح بينهما (٦٤).

وبحسب القاعدتين السابقتين، لا شكّ تكون ولادة (٥ من الأبناء: الحسن، الحسين، أم كلثوم الكبرى، زينب الكبرى، المحسن) في ظرف (٨ سنوات) (٦٥)، والقيام بأعباء منزليّة كالطحن بالرحى، والاستقاء بالقربة، وتنظيف البيت...، دليل على القوّة البدنيّة والصحة، لا على المرض والهزال والضعف!، فضلاً عن أنّ ذلك يقوم دليلاً على التقبل والسعادة والانسجام، لا على التباغض والضجر والبؤس!!

والأغرب من ذلك، بأيّ ميزان يحكم الجمل على حديث الإمام عليّ عليه السلام السابق عما كانت تقوم به السيّدة الزهراء عليها السلام من أعباء المنزل على أنّه واقع تاريخيّ مُسلم به، ولا يكون حديثه عن طيب العلاقة بينهما وصفائها تاريخيّ وواقعي أيضاً! لماذا عندما يتكلم أعداء أهل البيت عنهم يكون كلامهم عين الحقيقة والتاريخ، وعندما يتكلمون هم عن أنفسهم يكون كلامهم متخيلاً وموضوعاً، وليس القاعدة تقول: أهل مكة أدرى بشعابها؟! ففي مقابل خطاب الإقصاء وردّ عن مؤرخي السنّة أنفسهم أنّ رسول الله ﷺ قال للسيّدة الزهراء عليها السلام: كيف أنت يا بنية، وكيف رأيت زوجك؟ قالت: يا أبة، خير زوج، إلّا أنّه دخل عليّ نساء

قريش وقلن لي: زوجك أبوك من رجل فقير، لا مال له فقال لها النبي ﷺ: ما أبوك بفقير، ولا بعلك بفقير، ولقد عرضت عليّ خزائن الأرض من الذهب والفضة فاخترت ما عند ربي عز وجلّ... يا بنية.. زوجتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حليماً، يا بنية، إنّ الله عز وجلّ اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختر من أهلها رجلين، فجعل أحدهما أباك، والآخر بعلك، يا بنية نعم الزوج زوجك، لا تعصين له أمراً، ثم قال النبي ﷺ: يا عليّ ادخل بيتك، والطف بزوجتك، وارفق بها، فإن فاطمة بضعة مني، يؤلمني ما يؤلمها، ويسرني ما يسرها، استودعكم الله، واستخلفه عليهما، قال عليّ عليه السلام: فوالله ما أغضبتهما، ولا أكرهتهما من بعد ذلك على أمر حتى قبضها الله عز وجلّ إليه، ولا أغضبتهن، ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتكشف عني الغموم والأحزان بنظري إليها(٦٦).

ومن المضحك المبكي أنّ هذا الباحث الذي يدّعي القدرة على الفرز بين التاريخي والمتخيّل، تتعطل حواسه البحثية تماماً عندما يتعلق الأمر بتزوير الأحداث التاريخية وعكسها، فيمارس الانتقائية ببلاهة مفضوحة، وكأنّه يصمّ أذنيه ويستغشي ثيابه عن رؤيتها! وإلا فكُتِية (أبي تراب)، كانت من أحبّ كُنَى الإمام ﷺ إلى قلبه وقلوب شيعته، وهي أشهر من أن تُنكر، قد كنّاها بها النبي ﷺ في غزوة (ذات العشيرة)(٦٧). ولذا عمل الأمويون ورواتهم على تحريفها وتشويهها، فقالوا: إنّّه كان عندما يغضب على فاطمة يضع التراب على رأسه فلقب بأبي تراب(٦٨). ويكفي لتكذيب هذه الفرية أنّ الحسن البصري - وهو فقيه الأمويين - علّق على ذلك فقال: حاول بنو أمية عن طريق خطبائهم أن يسبّوه بهذه الكنية على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه، فكأنّا كسوه بها الحلي والحلل(٦٩).

ولكنّ الجمل وسلفه لا تطيب لهم هذه الأخبار والمرويات إلّا أن تكون متخيّلة وغير صحيحة، فراحا يبحثان عن مبررات وأسباب أخرى لسوء العلاقة بين السيّدة الزهراء والإمام عليّ عليه السلام، فردّد الجمل ما سبق وأن ادّعاه لامنس، من دعوى خطبة جويرية بنت أبي

جهل فقال: ومن غير المستبعد أن تكون مثل هذه العلاقة الزوجية المضطربة من دواعي ما أقدم عليه عليّ من خطبة جويرية بنت أبي جهل، ما يعني رغبته في التزوّج على فاطمة، بعد أن أنجبت الحسن، والحسين، وأمّ كلثوم، ومن الطبيعي أن تتملّك الغيرة فاطمة، وأن يشتدّ غمّها، فلاذت بأبيها تطلب منه التدخّل العاجل لمنع حصول الزيجة، وكان موقف الرسول حاسماً وقطعيّاً، يظهر في قوله: لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله عند رجل واحد أبداً. وفضلاً عن ذلك فقد خطب عليّ - في وقت لاحق - أسماء بنت عميس، ويظهر أنّ الرسول تدخّل لدى أسماء حتّى تقطع الطريق على رغبة عليّ في الارتباط بها. وتؤكد بعض الروايات الشيعيّة خاصّة بحث عليّ عن (مغامرات عاطفيّة) خارج إطار الزواج، وهذا ما أتاه فعلاً مع جارية كانت قائمة على خدمته في بيت فاطمة، (فمما رواه أبو ذرّ الغفاريّ: دخلت فاطمة يوماً، فنظرت إلى رأس عليّ في حجر الجارية، فقالت: يا أبا الحسن فعلتها؟ فقال: لا والله يا بنت محمّد ما فعلت شيئاً، فما الذي تريدين؟ قالت: تأذن لي في المصير إلى منزل أبي رسول الله). وإذا كانت الرواية الرسميّة السنيّة والشيعيّة تشدّد على أنّ عليّاً لم يتزوّج قبل فاطمة، ولا عليها، حتّى وفاتها، فإنّ رواية أخرى تناقضها يبدو أنّها أفلتت من رقابة الرواية الرسميّة الرائجة، فعن عبد الملك بن ميسرة: سمع زيد بن وهب، عن عليّ، أنّ النبيّ أهديت له حلة سبراء، فأرسل بها إليّ، ففرحت بها، فعرفت في وجه رسول الله الغضب، فقسّمتها بين نسائي. وفي ذلك دليل على أنّ لعليّ نساء، ولا يزال الرسول على قيد الحياة (٧٠).

وكان لامنس قد سبقه إلى الادّعاء أنّ الإمام عليّ (عليه السلام) رغم أنّه هزم بني أميّة وبني مخزوم في معركة بدر، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من أن يصغي لمقترحات الزواج القادمة من قبل بني مخزوم، ولم يستنكرها، ويمكن أن يكون هذا الأمر بمثابة مناورة من قبل عليّ الذي اتهم محمد بالبرود تجاهه، كما طلب الزواج من إحدى بنات أبي جهل، وكان طلبه مؤلماً لمحمّد؛

بسبب موقف أبي جهل العدائيّ، ونرى أنّ محلّينا يعرفون كلّ ذلك، فيجبرون أنفسهم على وضع ملطفات للتاريخ، مثال ذلك تأكيدهم على أنّ عليّاً لم يفكر بأنّ يتسبب بحزن فاطمة، وبالنسبة لعليّ فاقد الإحساس فإنّ وضعه من غير المعقول أن يؤدي به إلى أيّ فضيلة (٧١).

إذن فالجمل كان- في كلّ ما سبق- مجرد مجرّب بائس لطروحات لامنس وأفكاره، وهو الذي ادعى القدرة على كشف المتخيّل! فهلّا أبصرت عيناه المتخيّل والتزوير في خبر خطبة ابنة أبي جهل، فواضعي الخبر تناسوا أنّ المرأة ظلت مشرّكة حتى السنة الثامنة للهجرة! وأسلمت كما أسلم قومها كرهاً وخوفاً، حتّى أنّها قالت- وقد سمعت بلاّلاً يصدّح بالأذان على ظهر الكعبة-: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة، وروي أنّها قالت: لقد رفع الله ذكر محمّد، وأما نحن فسنصلي، ولكن لا نحب من قتل الأحبة (٧٢)، وقالت: لقد جاء لأبي الذي جاء لمحمّد من النبوة، فردّها، ولم يُردّ خلاف قومه (٧٣). إذن فهي بقيت تحمل قناعات الشرك وإنّ أعلنت ظاهراً الإسلام، فكيف يُقدّم من لم يشرك بالله طرفة عين على خطبة مشرّكة؟!، والقرآن قد نهى المسلمين عن ذلك، فمن باب أولى أن لا يتقدّم المسلمون لخطبة الكوافر والمشرّكات، فكيف بمن هو روح الإسلام وجوهره؟! نعم تصبح الأمور كذلك عندما يتحكّم المتخيّل في أدمغة النواصب وعقولهم، كما تحكّم الكُره والحدّ في قلوب أسلافهم.

والأنكى من ذلك أنّ هذا المتذاكي الذي يدّعي الكشف عن المتخيّل، في الوقت الذي يعترف أنّ (الرواية الرسميّة السنيّة والشيعة تشدّد على أنّ عليّاً لم يتزوّج قبل فاطمة، ولا عليها، حتّى وفاتها) فإنّه يُصرّ على تكذيبها وتبني رواية خطبة ابنة أبي جهل، وأسماء بنت عميس، على الرغم مما يعتريهما من الوضع الواضح، فالأولى مروية عن عبد الله بن الزبير المشهور بعدائه للإمام عليّ (عليه السلام) والرواية الثانية تأتي في سياقها (٧٤)، وقد صرّح الهيثمي أنّ في سند هذين الخبرين من هو ضعيف، ومن لا يُعرف (٧٥). هذا فضلاً عن الثابت

تاريخياً بأن أسماء بنت عميس قد تزوجت بعد شهادة جعفر الطيار من أبي بكر، وبعد موته تزوجها الإمام علي عليه السلام في السنة الثالثة عشر للهجرة، أي بعد شهادة السيدة الزهراء عليها السلام بستين. ولكنّ الجمل كان منقاداً للهوى والتعصب والبغض، فأعماه عن الحقيقة، وأصمّه عن سماعها! بل راح يتجنّى على الحقيقة، ويتّهم التاريخ بما فعله هو! إذ قال: ونحن لا نتردّد في القول: أن تدوين الأخبار الخاصّة بفاطمة اقتضى من مدوّنيها، إخضاعها إلى عمليّة اختيار وانتقاء، في ضوء اعتبارات عديدة أهمّها الانتهاء المذهبي للمؤلف، وتكوينه المعرفي، وانتظارات قرائه، وأنّ العلماء المسلمين، قدامى ومحدثين، لا يتكلّمون -في الغالب- عن فاطمة بصفتها التاريخية الواقعيّة، بقدر ما يتكلّمون عن صورتها مثلاً تمثّلوها في وجدانهم، وروّجوها في صفوف متقبّليهم (٧٦).

والحق أنّك عندما تقرأ هذا لا تستذكر إلّا ذلك المثل الذي يقول: رمتني بدائها وأنسلت (٧٧)، فكتابه في الواقع لا يمثل إلّا البعد كلّ البعد عن الأمانة العلمية، والممارسات الصبائية والعشيرة في قراءة التاريخ والحكم على شخصه، وهو بحق صورة من صور الانتكاس والتردي البحثي، وانعدام المقاييس العلمية والموضوعية، وممارسة مهلهلة ومفضوحة وبائسة لمنهج الانتقاء والاختيار السلبيّ في ضوء اعتبارات عديدة أهمّها الانتهاء الفكري والمذهبي للباحث، وانتظارات قرائه، فهو لم يتكلم عن السيدة الزهراء عليها السلام بصفتها التاريخية والواقعيّة، بقدر ما تكلم عن صورتها التي تمثّلها في مخيلته وفكرة بحثه، وروّجها بين صفوف متقبّليه!

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر الأولية:

- ابن الأثير: عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم. ت (٦٣٠هـ).
- ١/ أسد الغابة في معرفة الصحابة (المطبعة الوهبية: مصر - القاهرة ١٢٨٠هـ).
- ٢/ الكامل في التاريخ (دار صادر: بيروت - لبنان ١٣٨٥هـ).
- ابن الأثير: أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري. ت (٦٠٦هـ).
- ٣/ منال الطالب في شرح طوال الغرائب. تح: محمد محمود الطناحي (ط١)، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي: مكة المكرمة - السعودية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).
- الأشعريّ القميّ: أبو خلف سعد بن عبد الله (٣٠١هـ)
- ٤/ كتاب المقالات والفرق. تصحيح وتقديم: محمّد جواد مشكور (ط٢)، مركز انتشارات علمي وفرهنكي: إيران ١٣٦٠هـ).
- الأصبهاني: موفق الدين أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل. ت (٥٣٥هـ).
- ٥/ دلائل النبوة. تحقيق وتعليق وتخريج: مساعد سليمان الراشد (دار العاصمة: الرياض - السعودية د. ت).
- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. ت (٢٥٦هـ).
- ٦/ صحيح البخاري (دار الفكر. بيروت - لبنان ١٤٠١هـ).
- ابن بدران: عبد القادر (ت ١٣٤٦هـ).



- ٧ / تهذيب تاريخ دمشق الكبير (ط١، دار المسيرة: بيروت - لبنان ١٩٧٩م).
- البلاذري: أبو جعفر احمد بن جابر. ت (٢٧٩هـ).
- ٨ / أنساب الأشراف. تح: محمد حميد الله (دار المعارف. مصر - القاهرة ط١ / ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م).
- البيهقي: أبو بكر احمد بن الحسين. ت (٤٥٨هـ).
- ٩ / السنن الكبرى. (دائرة المعارف النظامية: حيدر آباد الدكن - الهند / ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م).
- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى. ت (٢٩٧هـ).
- ١٠ / الجامع الصحيح، المعروف بسنن الترمذي. تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف (ط٢، دار الفكر: بيروت - لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ).
- ١١ / صفة الصفوة. تح: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي (ط٣، دار المعرفة: بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
- الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد. ت (٤٠٥هـ).
- ١٢ / المستدرک علی الصحيحین. (دار المعرفة: بيروت - لبنان. د. ت).
- ابن حبيب: أبو جعفر محمد. ت (٢٤٥هـ).
- ١٣ / کتاب المحبر (ط١، دائرة المعارف النظامية: حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م).

ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني. ت (٨٥٢هـ).

١٤ / الإصابة في تميز الصحابة. دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).

- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله محمد. ت (٦٥٦هـ).

١٥ / شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط١، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة - مصر ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م).

- الحلبي: نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن عمر. ت (٩٧٥هـ).

١٦ / إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. المعروفة بالسيرة الحلبية. (دار المعرفة: بيروت - لبنان ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).

- ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد. ت (٢٤١هـ).

١٧ / المسند. (المطبعة الميمنية، القاهرة - مصر ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م).

- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي. ت (٤٦٣هـ).

١٨ / تاريخ بغداد. دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

الخوارزمي: الموفق بن أحمد بن محمد المكي. ت (٥٦٨هـ).

١٩ / المناقب. تح: مالك الحمودي (ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين: قم - إيران ١٤١١هـ / ١٩٩٠م).

الديار بكرى: حسين بن محمد بن حسن. ت (٩٦٦هـ).

٢٠ / تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (ط١، مؤسسة شعبان: بيروت - لبنان د.ت).

-الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان. ت (٧٤٨هـ).

٢١ / سير أعلام النبلاء. تح: شعيب الأرناؤوط و حسين الأسد (ط٩، مؤسسة الرسالة: بيروت - لبنان ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

-الزيعلي: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد. ت (٧٦٢هـ).

٢٢ / تخريج الأحاديث والآثار. (ط١، دار ابن خزيمة: الرياض - السعودية ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع. ت (٢٣٠هـ).

٢٣ / الطبقات الكبرى، تح: علي محمد عمر (ط١، مكتبة الخانجي: القاهرة - مصر ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).

-السهمي: أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم. ت (٤٢٧هـ).

٢٤ / تاريخ جرجان (ط١، دائرة المعارف النظامية: حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد. ت (٩١١هـ).

٢٥ / الثغور الباسمة في مناقب سيدتنا فاطمة. تح: حسن الحسيني (ط١، دار البشائر الإسلامية: بيروت - لبنان ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م).

-الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر. ت (٥٤٨هـ).

٢٦ / الملل والنحل. تح: أمير علي مهنا و علي حسن فاعور (ط٣، دار المعرفة: بيروت - لبنان ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

-الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد. ت (٣٦٠هـ).

٢٧ / المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد السلفي (ط٢، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان ١٣٩٧هـ / ١٩٧٦م).

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. ت (٣١٠هـ).

٢٨ / تاريخ الرسل والملوك. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم (ط٢، دار المعارف: القاهرة - مصر ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م).

الضبي: محمد بن يعلى بن عامر (ت ١٦٨هـ)

٢٩ / أمثال العرب. تحقيق وتصحيح: قصي الحسين (ط١، دار ومكتبة الهلال: بيروت - لبنان ٢٠٠٣م).

ابن أبي عاصم: أبو بكر أحمد بن عمرو الضحاك. ت (٢٨٧هـ).

٣٠ / الأحاد والمثاني. تح: باسم فيصل أحمد الجوابرة (ط١، دار الدراية: الرياض - السعودية ١٤١١هـ / ١٩٩١م).

العامري: أبو بكر عماد الدين يحيى (ت ٨٩٣هـ)

٣١ / بهجة المحافل وبغي الأمثال في تلخيص المعجزات والسير والشئال. (ط١، دار صادر: بيروت - لبنان د.ت).

ابن عبد ربه الأندلسي: أحمد بن محمد. ت (٣٢٨هـ).

٣٢/ العقد الفريد. تح: مفيد محمد قميحة (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م).

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ)

٣٣/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (طبعة دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان د. ت).

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي. ت (٨٢١هـ).

٣٤/ صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرح وتحقيق: محمد حسين شمس الدين (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان د. ت).

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل الدمشقي. ت (٧٧٤هـ).

٣٥/ البداية والنهاية في التاريخ. تح: علي شيري (ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. ت (٣٤٦هـ).

٣٦/ التنبيه والإشراف (ط١، دار صعب: بيروت - لبنان د. ت).

المقدسي: مطهر بن طاهر. ت (بعد ٣٥٥هـ).

٣٧/ البدء والتاريخ (ط١، مكتبة الثقافة الدينية: مصر د. ت).

-المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد. ت (٨٤٥هـ).

٣٨/ إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تح: محمد عبد الحميد النميسي (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

-مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. ت (٢٦١هـ).

٣٩ / الجامع الصحيح (ط١، دار الطباعة العامرة: تركيا ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م).

-المناوي: محمد عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين (ت ١٠٣١هـ).

٤٠ / إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب. دراسة وتحقيق: عبد اللطيف عاشور ط١،

مكتبة القرآن: مصر ١٩٨٧م).

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. ت (٧٣٣هـ).

٤١ / نهاية الإرب في فنون الأدب. تح: مفيد قميحة و حسن نور الدين (ط١، دار

الكتب العلمية: بيروت - لبنان ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م).

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. ت (٢١٨هـ).

٤٢ / السيرة النبوية. تحقيق وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد (ط١، مكتبة محمد

علي صبيح: مصر - القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م).

الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر. ت (٨٠٧هـ).

٤٣ / مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت -

لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

### ثانياً- المراجع العربية والمعرية:

بدوي: عبد الرحمن.

١ / موسوعة المستشرقين (ط٣، دار العلم للملايين: بيروت - لبنان ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

-الجميل: بسام.

٢/ جدل التاريخ والمتخيل - سيرة فاطمة. (ط١، مؤسسة مؤمنون بلا حدود: المغرب - الرباط ٢٠١٦م).

جيفري: س. ٥٠ م.

٣/ أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر (المعارضة). ترجمة: مهيب عيزوقي ط١، دار الكنوز الأدبية: بيروت - لبنان ٢٠٠٨م).  
- الرويلي: ميجان وسعد البازعي.

٤/ دليل الناقد الأدبي (ط٣، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء - المغرب ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م).

هالم: هاينس.

٥/ الشيعة. ترجمة: محمد كيبو (ط١، شركة الوراق: بغداد - العراق ١٤٣٣هـ / ٢٠١١م).  
يوهان فوك.

٦/ تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بدايات القرن العشرين. ترجمة: عمر لطفي العالم (ط٢، دار المدار الإسلامي: بيروت - لبنان ١٤٢هـ / ٢٠٠١م).

### ثالثاً. المصادر الأجنبية:

.Christian: Jambet

Parfrancois Angeler Francois Lyvoneet Souad Ayada 257-

. Louis Massignon Écrits Memorables Paris 2009

.Lammens: Henri-

Fatima et les Filles de Mahomet: Notes critiques pour -1

.L'étude de la Sira . Rome 1912

Bekker: Karl Heinrich-

Prinzipiellen zu Lammens Sirastudien.in Der Islam -2

Zeitschrift für Geschichte und Kultur des Islamischen

.Orient. Strassburg, 1913

Ollivry: Florence

Louis Massignon et la mystique musulmane Analyse his- -3

toriographique, méthodologique et réflexive d'une contribu-

tion à l'islam, Thèse de Doctorat, l'Université de Montréal et de

l'Université de recherche, Paris Sciences et Lettres – École Pra-

.tique des Hautes, 2009

.Y. Moubarac

Oeuvre de Louis Massignon, Library of France Islamo, -4

. Beyrouth, Liban, 1986

Recherches Et Documents Louis Massignon Opera Mino- -5

.ra, du Centre d'Etudes Dar El-Salam, Beirut , 1993



## هوامش البحث

١. باحث حاصل على الدكتوراه في الآداب واللغة العربيّة من جامعة منوبة في تونس، وأستاذ مساعد في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس - تونس، وله مجموعة من الأعمال المنشورة منها: اطروحته للدكتوراه (أسباب النزول - علمًا من علوم القرآن) التي أنجزها تحت إشراف أستاذه عبد المجيد الشرفي، وصدر ككتاب عن: (المؤسسة العربيّة للتحديث الفكري- المملكة المغربيّة ٢٠٠٥م)، وكتاب (الإسلام السنيّ) عن (رابطة العقلايين العرب ودار الطليعة في بيروت ٢٠٠٦م)، وكتاب (من الرمز إلى المعنى الدينيّ - بحث في المعنى والوظائف والمقاربات، صفاقس ٢٠٠٧م)، وكتاب (ليلة القدر في المتخيل الإسلامي. مؤسسة القدموس الثقافيّة - دمشق ٢٠٠٧م).

٢. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٩-١٠.

٣. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ١٠-١٨.

٤. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ١٨ (الهوامش).

٥. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٣٦.

٦. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ١٧.

٧. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٣٦.

٨. من أبرز مستشرقى الرهبان اليسوعيين وخريجي جامعة القديس يوسف في بيروت وأساتذتها، ولد في مدينة (خنت Gent) البلجيكيّة عام (١٨٦٢م)، وسافر إلى لبنان واستقر فيها حتى وفاته عام (١٩٣٧م)، وترك مجموعة كبيرة من الدراسات حول السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي. ينظر: بدوي: موسوعة، ٥٠٣.

٩. عنه وعن مجمل طروحاته ينظر: الكعبي، صورة أصحاب الكساء بين تحني النص واستباحة الخطاب الاستشراقي - هنري لامنس أنموذجا.

١٠. درس الطب وفن النحت والآثار والفن والإسلامية واللغة العربية وسافر إلى الجزائر ومصر والمغرب ومن هناك بدأ نتاجه الاستشراقي بكتاب: (لوحة جغرافية للمغرب تبعاً لليون الأفريقي ١٩٠٦م)، ثم عهد إليه بمهمة التنقيب في العراق خلال المدة (١٩٠٧ - ١٩٠٨م) فاهتم بشخصيتي الحلاج وسلمان المحمدي، وآثار إيوان كسرى وغيرها. وانتهت حفائره في الصحراء باكتشاف قصر الأخيضر، وكتاب ضخيم مع عدد من المقالات عن تلك البعثة، وقدم بعدها دراساته عن الحلاج خلال المدة (١٩١١ - ١٩١٤م). والتحق بالجيش الفرنسي في سوريا وفلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، ومن ثم عاد للتدريس في باريس، وليكتب اطروحته للدكتوراه بعنوان (عذاب الحلاج: شهيد التصوف في الإسلام ١٩٢٢م)، وبحوث ودراسات كثيرة أخرى عن الشخصيات الصوفية والإسلامية الأخرى، كسلمان المحمدي والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام. بدوي: موسوعة المستشرقين، ٥٢٩ - ٥٣٥.

١١. تنحدر كلمة الغنوصية (Gnosticism) من أصل يوناني بمعنى (المعرفة)، ومن ثم تطورت إلى تيار ديني - فلسفي، ابتداءً مسيحياً وازدهر في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وهو يقوم على خليط من المعتقدات اليهودية - المسيحية، وبعض المذاهب والأفكار الدينية والفلسفية الشرقية، كالزرادشتية والأفلاطونية، وقد عدّ أحد تيارات الهرطقة والزندقة المسيحية المناهضة للإيمان الخالص، وربط المسيحيون الأوائل بين الغنوصية وبين يهودي اسمه (سيمون الساحر)، أو (سيمون ماغوس)، الذي أظهر التنصر ولكنه نشر مبادئ الغنوصية. وقد أثر هذا المركب اللاهوتي المهجين على التيارات الإسلامية التي ظهرت فيما بعد، ولا سيما التصوف والعرفان، وظهر جلياً في البنية

الاعتقاديّة للحركات المتطرفة ومذاهب الغلاة، إذ كانت الغنوصيّة ضمن تيارات المعرفة الشرقيّة التي انفتحت عليها المسلمون، ومع أنّها مرّت بتغيّراتٍ كبيرةٍ منذ بداياتها إلّا أنّ الاعتقاد الذي لم يتغير فيها وبقي سمةً ملازمةً لجوهرها، هو القناعة الأساسيّة بأنّ المعرفة هي أقدس ما يملكه الإنسان، وأنّها توجد على نحوٍ فرديٍّ وإلهاميٍّ، وأنّ بإمكان الفرد الوصول إلى معرفة أسرار الكون من دون الحاجة إلى عون خارجيٍّ من نبيٍّ أو كتاب منزل، وهو اعتقادٌ قائمٌ على مجموعة من الأساطير المتعلقة بأصل الخليقة، ومنها فكرة أنّ شرّاً من الوجود المقدّس المتعالّي سقط على الكون الماديّ المليء بالشروخ ولم يجد ملاذاً من تلك الشرور إلّا في الجسد الإنسانيّ، وحين تأتي المعرفة يتمكّن ذلك العنصر المقدّس في الإنسان من العودة إلى مكانه الطبيعيّ في المملكة الروحانيّة المتعالّيّة. ومع أنّ هذه الأساطير قد اختفت في العصر الحديث إلّا أنّ الغنوصيّة ظلّت تحتفظ بفكرة قدسيّة الإنسان أو ألوهيته الضمنيّة، متمثّلةً بقدرته الذاتيّة على استبطان المعرفة (المعرفة المُلهمة)، أي الوصول إلى المعرفة عن طريق الحدس الشخصي والتأمّل، وهو اعتقادٌ ظلّ تأثيره مستمراً في الثقافة الغربيّة الحديثة، ولا سيّما في الحركات والمدارس الفلسفيّة والأدبيّة، كالرومانطيّة في نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، والوجوديّة في النصف الأول من القرن العشرين، وما بعد الحداثة في النصف الثاني منه، وقد مثل هذا التيارُ نقاداً وأدباءً وفلاسفةً أوروبيون كثر. يُنظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ١٩٦-٢٠٠؛ هاينس هالم، الغنوصيّة في الإسلام، ٥-٢٠.

١٢. سُمّيَت بهذا الاسم نسبةً إلى إسماعيل بن الإمام الصادق عليه السلام، وكان البعض يعتقد بإمامته بعد أبيه، ولكنّه توفي في حياته، فانقسمت الفرقة إلى فرقتين هما: الإسماعيليّة الخالصة، وهي التي أنكرت موت إسماعيل، وأنّه اختفى، وسيعود ليملك الأرض،

ويقوم بأمر الناس، وهو القائم. والمباركية، وهي التي قالت بموت إسماعيل وانتقال الإمامة إلى ولده محمد، ونسبوا إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل. يُنظر: الأشعري: المقالات والفرق، ٨٠-٨١.

١٣. فرقة تُنسب إلى محمد بن نُصير النميري من أصحاب الإمام الجواد أو الإمام علي الهادي (عليه السلام)، وقد ادعى البائية والسفارة، وكان يقول بالإباحة للمحارم واللواط، وغيرها من المحرمات، والفرقة تتبنى العديد من الأفكار المنحرفة وأفكار الغلو. يُنظر: الأشعري القمي، والمقالات والفرق، ١٠٠-١٠١، ٢٤٦-٢٤٧؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ١/١٨٨-١٨٩، القلقشندي: صبح الأعشى، ١٣/٢٥٣.

١٤. فرقة تنسب إلى أبي محمد الدرزي، وكان من أهل موالاة الحاكم أبي علي المنصور بن العزيز خليفة مصر، وكانوا أولاً من الإسماعيلية، ثم تبنا فكرة رجعة الحاكم وألوهيته، وأن الألوهية انتهت إليه وتغيرت ناسوته، وهو يغيب ويظهر بهيئته، ويقتل أعداءه قتل إبادة لا معاد بعده، وهم يستباحون المحارم، وهم أشد كفراً ونفاقاً من النصيرية. يُنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ١٣/٢٥١-٢٥٢.

١٥. ولد لأسرة بروتستانتية في إقليم نورمانديا شمال فرنسا عام (١٩٠٣م) وأتقن عدة لغات منها: اللاتينية، واليونانية، والألمانية، والروسية، والعربية، والفارسية، وعُرف بنزعه الصوفية، واهتمامه بميدان التصوف والفلسفة الإسلامية، وكان حريصاً على حضور محاضرات لويس ماسينيون في المدرسة العملية للدراسات العليا في السوربون، وربطت بين الاثنين علاقة قوية بدأت منذ عام (١٩٢٨م)، وقاما بعددٍ من المشاريع البحثية المشتركة وتبادل المخطوطات، ومثلما اهتم ماسينيون بالحلاج انصب اهتمام كوربان بالسهروردي وفلسفته وتحقيق كتبه ونشرها. ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (ابن

سينا والحكاية ذات الرؤيا)، وكتاب (التخيل الخلاق في تصوف ابن عربي)، وكتاب (الإسلام الإيراني - مشاهد روحية وفلسفية للإسلام في الإطار الإيراني ١٩٧٩م بأربعة أجزاء)، وغيرها الكثير من الكتب والتحقيقات الفلسفية والصوفية الأخرى حتى وفاته عام (١٩٧٨م). يُنظر: بدوي: موسوعة المستشرقين، ٤٨٢-٤٨٥.

١٦. أبو مغيث الحسين بن منصور. أصله من فارس، نشأ بواسط، ثم قدم إلى بغداد، وخالط الصوفية، وتلمذ على أيديهم، تنقل بين عدد من البلدان الإسلامية كالْبصرة والأهواز ومدن بلاد فارس والهند وما وراء النهر وغيرها. اتهم بسبب أفكاره بالزندقة والشعوذة، والقول بالتناسخ والحلول، وهناك الكثير من أشعاره تدور في هذا المنوال عوقب على أثر ذلك من قبل السلطة العباسية، فأمر الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ) بقتله وضربت عنقه، وقطعت أطرافه، وحرقت جثته مصلوباً بجانب السجن ببغداد. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٨/ ١١٢.

١٧. مصطلح صوفي - عرفاني، يعبر عن الحال التي يشعر فيها الصوفي بوحدة الحق والخلق (الله والخلق)، ويفنى عن نفسه وعن كل ما سوى الله. للمزيد يُنظر: ابن عربي، فصوص الحكم، ٢/ ٦٦.

18. Ollivry: Louis Massignon Et La Mystique Musulmane. p175.

١٩. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل - سيرة فاطمة، ١٠-١٣.

٢٠. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ١١.

٢١. يُنظر: صورة أصحاب الكساء، ٣٨٠-٣٨٥.

٢٢. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ١١.

٢٣. Fatima et les Filles de Mahomet, p.15. ، ويُنظر ردّنا على ذلك في:

صورة أصحاب الكساء، ٣٦٧-٣٧٩.

٢٤. Fatima et les Filles de Mahomet, pp.16- 18. ، ويُنظر ردّنا على ذلك

في: صورة أصحاب الكساء، ٣٨٠-٣٩٦.

٢٥. Fatima et les Filles de Mahomet. pp,38-52.

٢٦. نال الدكتوراه عام (١٨٩٩م) وسافر إلى باريس وإسبانيا، وهناك بدأت دراساته

الشخصية في المشرقيات، ثم سافر إلى القاهرة وتمكّن من إجادة اللغة العربية، ورجع

إلى ألمانيا عام (١٩٠١) ماراً بإيطاليا واليونان واسطنبول. ورجع إلى مصر في نفس

العام وبقي فيها حتى عام (١٩٠٧). أنشأ (مجلة تاريخ الشرق الإسلامي وحضارته،

واختصارها (Der Islam = الإسلام عام ١٩١٠م)، وبقي مهتماً بالدراسات

الاستشراقية حتى وفاته في (١٠ / فبراير / ١٩٣٣م). يوهان فوك: تاريخ حركة

الاستشراق، ٣٣٧؛ بدوي، موسوعة المستشرقين، ١١٣-١١٦.

٢٧. Prinzipiellen zu Lammens Sirastudien. Der Islam. 1913.

...,pp,263-269

٢٨. تاريخ حركة الاستشراق، ٣٠٦-٣٠٧.

٢٩. يُنظر: جدل التاريخ والتمثيل، ١٣.

٣٠. يُنظر: جدل التاريخ والتمثيل، ١٢-١٣.

٣١. استخدم مصطلحات: (التبئير)، و(التحويل)، و(الإنتاج). يُنظر: جدل التاريخ

والتمثيل، ٣٦، ٣٩، ٤٥-٥٤.

٣٢. ستأتي الإشارة إليها في ثنايا البحث.
٣٣. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٣٨.
34. Jambet: Écrits Memorables. vole1, pp,243.
35. Moubarac: Opera Minora. vole1, p.515. (3).
36. Jambet: Écrits Memorables. vole, 1. P,273.
٣٧. يُنظر: صورة أصحاب الكساء، ٣٨٠-٣٨٥.
٣٨. الصفدي: أعيان العصر، ١/٢٣١.
٣٩. يُنظر: جدل المتخيل، ٢٦، ٣٦.
٤٠. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٣٩-٤٠.
٤١. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٤١-٤٣.
٤٢. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢١، ٥١-٥٦-١١٤.
٤٣. يُنظر: الترمذي: سنن، ٥/٣٦١؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک، ٣/١٦١، ٤/٢٧٢؛ السهمي: تاريخ جرجان، ١٢٩؛ ابن الأثير، منال الطالب، ٥٠٨؛ السيوطي: الثغور الباسمة، ٥٠؛ الزيعلي: نصب الراية، ٦/١٥٦.
44. Fatima et les Filles de Mahomet, pp.16- 18. ويُنظر ردنا على ذلك في:
- صورة أصحاب الكساء، ٣٨٠-٣٩٦.
٤٥. يُنظر: أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر (المعارضة)، ٣٨-٤٤.
٤٦. يُنظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/٣٣٧-٣٤٢.

٤٧. وأشار إلى أنَّ أبويها على دين، أو أديان أجدادهما، واحتمالية أن تكون السيدة خديجة عليها السلام على دين النصرانية مثل ابن عمها ورقة بن نوفل، وأنَّ النبي ﷺ أيضاً كان على غير الإسلام اعتماداً على قوله تعالى: (ووجدك ضالاً فهدى). الضحى / ٧. وعلى بعض الإشارات التي أوردها ابن الكلبي في كتاب الأصنام. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٤.

٤٨. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٣-٢٦.

٤٩. يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٧/٨، البلاذري، أنساب الأشراف، ٩٨/١، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٠٨/٢، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢١٥، المقدسي، البدء والتاريخ، ٤/ ١٣٨، ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٧/٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٩/٢، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨٢/ ٢، المقرئ، إمتاع الأسماع، ٩/١، ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٢٨٢.

٥٠. البيهقي، دلائل النبوة، ٧/٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٤/٢، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٤٠.

٥١. يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٧/٨، ابن حبيب، المحبر، ص ٧٩، البلاذري، أنساب الأشراف، ٩٨/١، النويري، نهاية الأرب، ٩٩/١٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨٢/٢، مغلطاي، سيرة مغلطاي، ص ١٢، العامري، بهجة المحافل، ٤٨/١، الديار بكري، تاريخ الخميس، ٢٩٤/١، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤١/١.

٥٢. يُنظر: مغلطاي، سيرة مغلطاي، ص ١٢، الديار بكري، تاريخ الخميس، ٢٩٤/١، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٤٠.

٥٣. يُنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٥، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٤٠.



٥٤. يُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ٩٨/١. ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، ٣٠٣/١. مغلطاي، سيرة مغلطاي، ص ١٢، الديار بكري، تاريخ الخميس، ٣٠١/١، الحلبي، السيرة الحلبية، ١٤٠/١.

٥٥. يُنظر: السيدة خديجة بنت خويلد الزوجة المثال - قراءة في سيرتها، ٣٨-٨٨.

٥٦. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٦-٢٧.

٥٧. يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١/٢٣٤.

58. Fatima et les Filles de Mahomet, pp,17-29. ، ويُنظر ردّنا في: صورة أصحاب الكساء، ٤٠٣-٤٥٢.

59. Fatima et les Filles de Mahomet, pp,29-30.

60. Fatima et les Filles de Mahomet, pp,31-34. ، ويُنظر ردّنا في: صورة أصحاب الكساء، ٤٠٨-٤١٧.

٦١. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٧. والعمر المذكور فيه آراء أخرى.

٦٢. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٧-٢٨.

63. Fatima et les Filles de Mahomet, pp.34- 38 ويُنظر ردّنا في: صورة أصحاب الكساء، ٤١٩-٤٥٢.

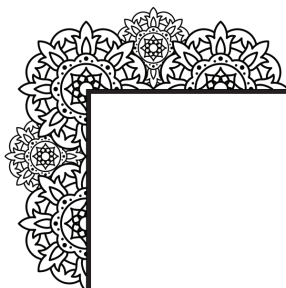
٦٤. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٩-٣٠.

٦٥. على اعتبار زواجها في نهاية السنة الثانية للهجرة، ووفاتها في بدء السنة الحادية عشرة

٦٦. يُنظر: جدل التاريخ والمتخيل، ٢٧-٢٩، ٣٦.

٦٧. يُنظر: الموفق الخوارزمي، المناقب، ٣٥٣-٣٥٤.
٦٨. يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١/٥٩٩-٦٠٠؛ ابن سعد: الطبقات، ٢/٩؛ أحمد بن حنبل: مسند، ٤/٢٦٤؛ البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ٢/٣٤٥؛ النسائي: السنن الكبرى، ٥/١٥٣؛ الحاكم النيسابوري: المستدرک، ٣/١١٤؛ المزي: تهذيب الكمال، ٣٢/٢٤٣؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ١/٣٦٤.
٦٩. يُنظر: البخاري، صحيح، ١/١١٤؛ ٤/٢٠٨؛ ٧/١١٩؛ ١٤٠؛ مسلم: صحيح، ٧/١٢٤؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٢/٤٤٦؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ١/٣٦٤.
٧٠. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/١١-١٢.
٧١. جمل التاريخ والمتخيل، ٣١-٣٢.
٧٢. Fatima et les Filles de Mahomet, p50. ، ويُنظر ردّنا على ذلك في: صورة أصحاب الكساء، ٤٣٦-٤٤٧.
٧٣. ابن الأثير: الكامل، ٢/٢٥٤؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١٧/٢٨٣؛ المقرئزي: إمتاع الأسماع، ١/٣٩٦.
٧٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١٧/٢٨٣؛ المقرئزي: إمتاع الأسماع، ١٣/٣٨٥؛ الحلبي: السيرة الحلبية، ٣/٥٥.
٧٥. يُنظر: الضحاك، الآحاد والمثاني، ٥/٣٦٢؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢/٤٠٥.
٧٦. يُنظر: مجمع الزوائد، ٩/٢٠٣.
٧٧. يُنظر: جمل التاريخ والمتخيل، ١١-١١٤.
٧٨. يُنظر: الضبي، أمثال العرب، ٤٧.





**دور قيم النزاهة والشفافية**

**في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية**

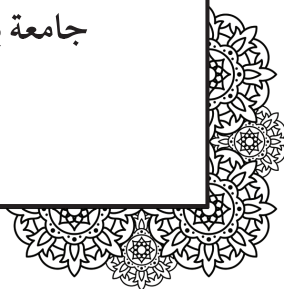
**في ضوء تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)**

**لمكافحة الفساد وتوظيفها في مؤسسات الدولة مستقبلاً**

**الباحث**

**أ.د. صباح حسن عبد الزبيدي**

**جامعة بغداد - مركز البحوث التربوية والنفسية**



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

يوقف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من رواد العدالة الإلهية في محاربة الفساد بكل أشكاله. وبذلك بما يحمله من (علم وعدل وصدق وأمانة وأخلاق فاضلة) جاءت من خلال استنباط مفاهيم القرآن الكريم، وكذلك أحاديث الرسول محمد ﷺ إذا كان علي طوال حياته يصاحب الرسول الأعظم محمد ﷺ فأخذ منه الشيء الكثير من قيم أخلاقية فاضلة، وعلم؛ ومنها قيم النزاهة والشفافية في بناء المجتمع الإسلامي ومؤسساته المختلفة، وطرق مكافحة الفساد بكل أشكاله.

وبذلك يرى الباحث أنه سيبقى تراثه الخالد وعلامة مضيئة في التاريخ الإسلامي والإنسانية، يقتدى به في تطبيق عدالة السواء لمحاربة الفساد بكل أشكاله في بناء المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

وفي ضوء ما تقدم، تكون ظاهرة الفساد المنتشرة بالوقت الحاضر في الدول سواء الدول المتقدمة منها أو الدول النامية، جاءت نتيجة سوء تقديم الخدمات العامة في التربية والتعليم والصحة والمجالات الأخرى التي تمس حياة المواطنين، أو نتيجة انتشار الحروب والعنف والإرهاب. وقد بينت بعض الدراسات أن ظاهرة الفساد التي تعاني منها أغلب الدول بسبب فقدان التأمين وسوق العمل ووجود قوانين وقواعد أخلاقية ضعيفة، بسبب ضعف الرقابة والمساءلة، التي ساهمت في انتشار السلوكيات (الغش، والسرقة، واستغلال النفوذ، والنهرب من الضريبة، وسوء الأمانة، والصرف المفرط دون الحاجة إليه، وتسريب المعلومات لخدمة مصالح الآخرين مقابل بدل أو نسبة من الأرباح، وقبول الهدايا الناهضة،

والتلاعب بالأرقام والبيانات المالية، والكذب، والرشوة، والاختلاس، وسوء استعمال السلطة، وهدر المال العام، والوساطة أو القرابة، وتوظيف الأموال العامة لمصلحة فرد أو مؤسسة، والحصول على نسب من العقود أو المناقصات الرسمية، وتفضيل ذوي القربى في العقود أو التعيينات، وفرض الضرائب دون حق أو مرجع قانوني..... الخ.

وبناء على ما تقدم، يظهر الفساد في تلك الدول استناداً إلى عوامل منها اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وطبيعية، وثقافية؛ فالفساد الاقتصادي يرجع إلى عدة عوامل منها (الفقر والعوز، وتفاقم الوضع الاقتصادي، وارتفاع نسب البطالة، وتفشي البيروقراطية الحكومية، وهيمنة القطاع العام على الحياة الاقتصادية، وضعف أداء السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. أما العوامل السياسية منها (غياب القدرة السياسية وتفشي البيروقراطية الحكومية أو المغالاة في المركزية في إدارة الحكومة، أو ضعف في أداء السلطات الثلاث التشريع وتنفيذ والقضاء، وأما العوامل الثقافية فهي (الولاءات الأسرية، الولاءات القبلية، وميول عرقية وعنصرية... الخ).

وتظهر مشكلة البحث الحالي من خلال ما يلي (هل بالإمكان الاقتداء بتراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في محاربة الفساد بكل أشكاله في ضوء استخدام قيم النزاهة والشفافية في بناء مجتمع إسلامي خالٍ من الفساد والمفسدين؟ وهل بالإمكان تطبيقه في مجال المناهج العامة؟ وكيف؟

إنّ البحث الحالي يتكون من (٤) مباحث:

المبحث الأول:- مدخل عام

المبحث الثاني:- قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في ضوء

تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومكافحة الفساد.

المبحث الثالث:- دور القيم النزاهة والشفافية في مكافحة الفساد المستمدة من تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في بناء المجتمع الإسلامي وطرق مكافحته وتوظيفه في بناء مؤسسات الدولة مستقبلاً.

المبحث الرابع: ضمّ الاستنتاجات - التوصيات - المقترحات

## المبحث الأول مدخل عام

### مشكلة البحث:

من المعلوم أنّ جريمة الفساد، التي أصبحت من الجرائم الخطرة في المجتمع التي تساهم في قتل القيم الحميدة لدى الإنسان والمجتمع، وكذلك تعرقل مسيرة التطور الحضاري والتنمية الشاملة في البلد لأنها تخرب المجتمعات خصوصاً الفقيرة والنامية التي تريد أن تنهض بالبلاد في ضوء التطورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والرفاه الاقتصادي والاجتماعي.

وعليه، إنّ جريمة الفساد تترك أثراً كبيراً لدى الناس، وخصوصاً إذا انتشرت في البلاد؛ ولذلك، بادرت كثير من دول العالم إلى توعية أبنائها عن طريق التربية والتعليم والإعلام ومؤسسات المجتمع المدني؛ ومنها هيئة الأمم المتحدة، ومنظمة الشفافية الدولية والبنك الدولي؛ وبذلك، فهي ساهمت في مكافحة الفساد بكل أشكاله من خلال تعزيز (قيم النزاهة والشفافية). فقيم النزاهة والشفافية في مؤسسات الدولة ولا سيما في الخدمة العامة التي تعتمد أساساً على الموظف النزيه والعمل بنزاهة بعيداً عن المحسوبية والمنسوبية أو الحزبية، والحفاظ على أموال الدولة والوظيفة وأخلاقية العمل<sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أنّ الإسلام أكّد قيم النزاهة والشفافية؛ وهذا ما أكده القرآن الكريم وسيرة الرسول محمد ﷺ. وقد وصف القرآن الكريم الشخص النزيه بأنّه الصادق والأمين، والصادقون أحباب الله، والإنسان الصادق يحظى باحترام الناس وثقتهم ومحبتهم.

(١) صباح حسن عبد الزبيدي، البحث الموسوم: مقترح تصميم مساق تعليمي في مضمون النزاهة، ودليل تدريسه لطلبة المرحلة الابتدائية في العراق؛ بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي لهيئة النزاهة، بغداد للفترة من ٣٠-٣٢/١٢/٢٠٠٨.



وإنَّ الشخصَ الصادقَ هو أمينٌ ومخلصٌ ونزيهٌ لأنَّه يقولُ الحقيقةَ. إضافةً إلى ذلك، فهو متمسكٌ بالعهدِ وموفي بالعهدِ، وإذا عملَ شيئاً فإنَّه يعملُه بصدقٍ وإخلاصٍ، بعيداً عن الرياء والغش والنفاق.

وعليه، فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية: ١١٩]. وكذلك أكد الرسول الأعظم محمد ﷺ تعزيز القيم الأخلاقية والمثل العليا والعادات الأخلاقية الفردية والاجتماعية بما لا يرقى إليه أي دستور أخلاقي، ومنها الإخلاص في العمل وتقديسه، ومنها الصدق والأمانة وأداء الواجب واستثمار الوقت ومساعدة الإنسان للإنسان، والإيثار والاعتماد على النفس وحبَّ الناس.

وتأسيساً على ما تقدم، إنَّ تعزيز قيم النزاهة والشفافية التي تتمثل باطلاع الفرد والشعب على سير العمل في السلطة الإدارية معتمداً على المحاسبة والمساءلة والمراقبة في صنع القرار في ميادين الحياة كافة (السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية) بنشر ثقافة النزاهة والشفافية، ومن ثمَّ تجذير سلوكٍ صحيح لدى المتعلمين يبصرهم بالسلوك المنحرف تجاه (الرشوة، السرقة، الوساطة، الاختلاس، التزوير، المحاباة، الغش، الابتزاز، التلاعب بالأرقام والبيانات، وحجب المعلومات، والتستر على الجرائم، والتحرّض..)، وعدم احترام الوقت، وتبادل المعلومات لصالح المصلحة. وبناءً على ما تقدم، يبقى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يعدّ من رواد حركة إصلاح الفساد أو مكافحته، بدأً من الأسرة والمجتمع الإسلامي ومؤسساته المختلفة، وتعزيز قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية لمكافحة الفساد، وبذلك يعدّ تراث الإمام علي (عليه السلام) زاخراً في سيرته التي تمثل استنباطه للأحكام القرآن الكريم - وسيرة الرسول محمد ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي ومؤسسات الدولة الإسلامية متمثلة بأقواله وأفعاله وسلوكه؛ أي الخطب الموجهة إلى شرائح المجتمع المختلفة.

وتظهر مشكلة البحث من خلال طرح الأسئلة (من المعلوم أن الفساد أصبح ظاهرة منتشرة في المجتمعات المتقدمة والنامية. وبذلك أخذت كثير من الدول بمكافحة الفساد، وذلك بتعزيز قيم النزاهة والشفافية. ومن المعلوم أن المجتمع الإسلامي حارب الفساد بكل أشكاله من خلال القرآن الكريم الذي وضح شخصية الفاسد والمنحرفين الذين نشروا في البلاد الفساد. وكذلك أكد الرسول محمد ﷺ مكافحة الفساد من خلال تعزيز قيم النزاهة والشفافية، ومن ثم ساهمت في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية، ومن بعده جاء الإمام علي عليه السلام وعمل على تعزيز قيم النزاهة والشفافية في مؤسسات الدولة الإسلامية من خلال أقواله وأفعاله وسلوكه، ومن خلال الخطب والرسائل والوصايا الموجهة إلى فئات المجتمع الإسلامي. هل بالإمكان توظيف قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في تراث الإمام علي عليه السلام ومكافحة الفساد في تلك المؤسسات مستقبلاً؟

### أهمية البحث:

لقد أكد البيان الختامي الذي عقدته هيئة النزاهة العراقية والمعهد العراقي في مؤتمرها العلمي الأول في ٥-٦ تموز عام ٢٠٠٨ على ضرورة الحفاظ على المال العام عن طريق تبني استراتيجية طويلة الأمد لتحقيق الولاء والانتفاء الوظيفي بين الفرد والدولة، واستثمار القيم الأخلاقية والدينية لتعزيز ثقافة النزاهة وتضمين المناهج التربوية مواضيع تساهم في نشر ثقافة النزاهة والشفافية والإصلاح لكشف مظاهر الفساد (وقائع المؤتمر العلمي السنوي ٢٠٠٨).

قيم النزاهة: وهي قواعد ومعايير سلوكية أخلاقية تنبع من المجتمع، بشكل سليم دون مراقبة) والشخص النزبه يكون جديرًا بالثقة ويمنح ذلك الشخص أو الأشخاص صفات (الاحترام والثقة والمسؤولية). ويمكن تطبيقها في الشركات والمؤسسات، فهي تساعد على

جعل بيئة العمل إيجابية وتضمن الأداء الصحيح لواجبات الوظيفة العامة (١) - الصدق  
٢ - العدالة، ٣ - الاستقلالية، ٤ - الاخلاص، ٥ - التواضع ٦ - الأمانة ٧ - العدل ٨ -  
الخوف من الله سبحانه وتعالى ٩ - محاسبة النفس ومراقبتها ١٠ - طاعة الله - ١١ - حب  
الناس ١٢ - احترام قوانين العمل.

وتظهر في بناء مؤسسات الدولة السياسية، الاقتصادية التي تشمل (الزراعة - الصناعة  
- التجارة) - وخدمات العسكرية، الفني والمهني، العلمي، التكنولوجي، والمعلوماتية ولها  
مبادئ عامة. (عدم استغلال السلطة أو الوظيفة لمصلحة الشخصية عند التعامل مع الفرد  
أو أبناء المجتمع بعدم قبول الهدايا والرشوة والمحسوبية والمنسوبية والسرقة والاحتيال  
والاختلاس والتزوير والغش ونهب الثروات وسوء التصرف تجاه الآخرين على أساس  
العرق أو الطائفة أو القومية أو الدين الفئة أو الحزب أو الكتلة بعيداً عن تمييز عرقي أو  
ديني أو قومي... الخ.

قيم الشفافية وهي نظام قانوني قائم على توفير المعلومات بشكل مكشوف من المجتمع  
السياسي (الدولة) عن عمل مؤسساتها وإدارتها، وذلك بالتدفق الحر للمعلومات التي تتيح  
الوقوف على الحقائق ورصد (الإيجابيات والسلبيات) على المستويات كافة، فهو إلزام لتطوير  
أداء مؤسسات الدولة، وأفضل الطرق لنيل ثقة المواطنين بكشف الحقائق والمعلومات دون  
غموض. تتطلب الشفافية مبادئ الحوار والنقاش المتعلقة بالتخطيط والإدارة بتزويد الرأي  
العام والجهات ذات العلاقة بالبيانات المطلوبة.

إنّ الفساد يظهر في فساد (الإنسان، سواء أكان / ذكر / أنثى) موظف - عامل -  
سياسي - اقتصادي - مهني - حرفي - عسكري.... يتسم بعمل مخالف للقانون والشرعية  
الإسلامية (الرشوة:- المحسوبية - المحابة - الوساطة - الابتزاز والتزوير - نهب المال

العام - التلاعب بالأرقام -.... الخ).

إنّ الفساد يظهر في مجالات الحياة - السياسية - الاقتصادية - العسكرية - القانونية - التربوية -.... الخ من خلال الإخلال بسلوك الوظيفة أو المواطنة الصالحة في داخل المؤسسة - الحكومية - الأهلية منافية للقيم الأخلاقية - النزاهة والشفافية.

إنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يعدّ من رواد حركة إصلاح الفساد أو مكافحته، بدأ من الأسرة والمجتمع الإسلامي والمؤسسات المختلفة، وتعزيز قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية لمكافحة الفساد. وبذلك يعدّ تراث الإمام علي عليه السلام زاخراً في سيرته التي تمثل استنباطه لأحكام القرآن الكريم - وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله في بناء المجتمع الإسلامي ومؤسسات الدولة الإسلامية متمثلة بأقواله وأفعاله وسلوكه؛ أي الخطب الموجهة إلى شرائح المجتمع المختلفة.

إنّ مؤسسات الدولة الحالية تعاني من آفة الفساد؛ ولذلك لا بدّ من الاقتداء بتراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في بناء مؤسسات الدولة الحديثة في توظيف قيم النزاهة والشفافية وطرق مكافحة الفساد بكلّ أشكاله.

### أهداف البحث: يهدف البحث الإجابة على التساؤلات الآتية:

ما مضمون قيم النزاهة والشفافية والفساد بصورة عامة؟

ما مضمون مؤسسات الدولة الإسلامية في قيم النزاهة والشفافية والفساد في تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟

ما دور قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في مكافحة الفساد؟

هل بالإمكان توظيف قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في مكافحة الفساد في مؤسسات الدولة؟

### تحديد المصطلحات:

#### أولاً: الدور (Role) ويعرف بعدة تعاريف منها

يعرفه مذكور: هو وضع اجتماعي ترتبط به مجموعة من الخصائص الشخصية ومجموعة من ضروب النشاط التي يعزى إليها القائم بها والمجتمع معاً أو مجموعة من الأفعال المكتسبة التي يؤمن بها شخص في موقف تفاعلي اجتماعي<sup>(١)</sup>.

ويعرفه قمر:- هو نمط من الدوافع والأهداف والمعتقدات والقيم والسلوك الذي يتوقع أعضاء الجماعة أن يروه فيمن يشغله وظيفة ما، أو وصف للسلوك المتوقع من الشخص في الموقف المعين<sup>(٢)</sup>.

ويعرف إجرائياً:- هو إدخال قيم النزاهة والشفافية في بناء المؤسسات الحكومية في تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) المستمدة من القرآن الكريم وسيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) لمكافحة الفساد في مؤسسات الدولة مستقبلاً.

#### ثانياً: القيم وتعرف بعدة تعاريف منها:

عرفها الطهطاوي: (هي مجموعه المبادئ والقواعد والمثل العليا التي يؤمن بها الناس ويتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً يزنون به أعمالهم، ويحكمون تصرفاتهم المادية والمعنوية)<sup>(٣)</sup>.

(١) إبراهيم مذكور. وآخرون. معجم العلوم الاجتماعية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٥  
(٢) عصام توفيق قمر.. الأنشطة المدرسية والوعي البيئي. الأطر النظرية. الأدوار الوظيفية. التجارب الدولية. دار السحاب للنشر والتوزيع. القاهرة ٢٠٠٥  
(٣) سيد أحمد الطهطاوي،، القيم التربوية في القصص القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٦

عرفها الشناوي وآخرون، هي معايير وجدانيه فكرية يعتقد بها الأفراد، وبموجبها يتعاملون مع الأشياء بالقبول أو الرفض<sup>(١)</sup>.

ويعرف إجرائياً: هي مجموعه المبادئ والقواعد والمثل العليا التي يؤمن بها الناس ويتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً يزنون به أعمالهم المتمثلة بإدخال قيم النزاهة والشفافية ومكافحة الفساد في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في ضوء تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) المستمدة من القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة وتوظيفها في بناء مؤسسات الدولة مستقبلاً.

### ثالثاً:- قيم النزاهة والشفافية:- وتم تعريف كل من:

النزاهة لغة:- تأتي من التنزه، أي التباعد عن القبيح، وهو مفهوم معنوي ومن الطلاقة اللغوية، ونقول إن الإنسان نزيه الخلق، أي بعيد عن المطامع، وعفيف النفس، ومنتزه عن القبيح، ونقول فلان نزيه كريم إذا كان بعيداً عن اللؤم،..... وهكذا.

النزاهة اصطلاحاً: وهي الأفعال القيمة التي يحملها الإنسان النزيه، تدخل ضمن المبادئ السامية في المجتمع. فالنزاهة هي الحفاظ على الذات السليمة غير المنحرفة<sup>(٢)</sup>.

قيم النزاهة تعرف إجرائياً:- وهي قواعد ومعايير سلوكية أخلاقية تنبع من المجتمع، بشكل سليم دون مراقبة، والشخص النزيه يكون جديراً بالثقة ويمنح ذلك الشخص أو الأشخاص صفات (الاحترام والثقة والمسؤولية) ويمكن تطبيقها في الشركات والمؤسسات، فهي تساعد على جعل بيئة العمل إيجابية وتضمن الأداء الصحيح لواجبات

(١) محمد الشناوي وآخرون، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار الصفاء، الاردن ٢٠٠١

(٢) صباح حسن عبد الزبيدي:- مدخل في مضمون الفساد والنزاهة والشفافية. مطبعة ناثر العصامي.

الوظيفة العامة (١)-الصدق ٢-العدالة، ٣- الاستقلالية، ٤- الاخلاص، ٥- التواضع  
٦- الأمانة ٧- العدل ٨- الخوف من الله سبحانه وتعالى ٩- محاسبة النفس ومراقبتها ١٠-  
طاعة الله ١١- حب الناس ١٢- احترام قوانين العمل.

وتظهر في بناء مؤسسات الدولة (السياسية، الاقتصادية التي تشمل (الزراعة - الصناعة  
- التجارة - وخدمات العسكرية، الفني والمهني العلمي، التكنولوجي، والمعلوماتية ولها  
مبادئ عامة (عدم استغلال السلطة أو الوظيفة لمصلحة الشخصية عند التعامل مع الفرد  
أو أبناء المجتمع بعدم قبول الهدايا والرشوة والمحسوبية والمنسوبية السرقة والاحتيال  
والاختلاس والتزوير والغش ونهب الثروات وسوء التصرف تجاه الآخرين على أساس  
العرق أو الطائفة أو القومية أو الدين أو الفئة أو الحزب أو الكتلة بعيداً عن تمييز عرقي أو  
ديني أو قومي.

أما قيم الشفافية: مفهوم الشفافية لغة واصطلاحاً:

### مفهوم الشفافية لغة:

جاء طبقاً لكلمة (شفّ)، ومعناها (الخفة ورقة الحال) والمفردة (transparence)  
وتعني الحالة التي تكون شفافة ويمكن الرؤية من خلالها وعلى أنها الواضح (obvious)  
وهي الشي الجليّ.

وكذلك جاء مفهوم الشفافية في المعجم العربي الحديث ((شفّ، الخفة، رقة الحال  
الشيء، جمع أشفاف (والشفاف هو الستر).

وكذلك جاء مفهوم الشفافية في القاموس المورد، معنى آخر للشفافية (الشيء - الجلي)  
أي زجاج جلي للعين.

### مفهوم الشفافية اصطلاحاً:

وهي حقّ من حقوق المواطن بالاطلاع على سير العمل في السلطة الإدارية في كافة النواحي والمجالات. المرافق والمؤسسات الدولية مفتوحة على ما يجري داخلها من عمل ومسائلة وتفتيش ومراقبة<sup>(١)</sup>.

وهي نظام قانوني قائم على توفير المعلومات بشكل مكشوف من المجتمع السياسي (الدولة) عن عمل مؤسساتها وإدارتها، وذلك بالتدفق الحر للمعلومات التي تتيح الوقوف على الحقائق ورصد (الإيجابيات والسلبيات) على كافة المستويات، فهو الزام لتطوير أداء مؤسسات الدولة وأفضل الطرق لنيل ثقة المواطنين بكشف الحقائق والمعلومات دون غموض، تتطلب الشفافية مبادئ الحوار والنقاش المتلقاة بالتخطيط والإدارة بتزويد الرأي العام والجهات ذات العلاقة بالبيانات المطلوبة<sup>(٢)</sup>.

وهو اطلاع الفرد على سير العمل في السلطة الإدارية في المؤسسات الدولة في المجال السياسي - الاقتصادي ويشمل (الزراعة - الصناعة - التجارة - الخدمات - العسكري - الفنية - المهنية) وما يجري داخلها من عمليات تتسم بالصدق والموضوعية معتمد على (المحاسبة والمسائلة والمراقبة في صنع القرار في توفير المعلومات الكاملة من الأنشطة الحكومية العامة للصحافة والرأي العام والمواطنين الراغبين بالاطلاع على أعمال الحكومة وما يتعلق بها من معلومات وجوانب سلبية وإيجابية بدون إخفاء وتستر، ويصبح على الحكومة لزوم الإعلان عن مشاريع وخططها في التخطيط والتنفيذ<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد عبود سالم، ظاهرة الفساد الاداري والمالي، دراسة في إشكالية الإصلاح الإداري والتنمية، دار الدكتور للعلوم ٢٠٠٨.

(٢) حسين درويش العادلي، المواطنة، دار المرتضى، بغداد ٢٠٠٦.

(٣) مصدر سابق. صباح حسن عبد الزبيدي. بغداد للفترة م ٢٠٠٨.



## رابعاً: بناء مؤسسات الدولة الإسلامية: وعرف كل من

### (١) البناء (Structure) وتعرف نظرياً بـ

هو الكلّ المؤلف من الظواهر المتضامنة بحيث تكون كلّ ظاهرة فيها تابعة للظواهر الأخرى ومتعلقة بها، بعبارة أخرى وهو (تنظيم دائم نسبياً تسير أجزاؤه في طرق مرسومة، ويتخذ نمطه بنوع النشاط الذي يتخذ، فيقال (البناء الطبقي، البناء الاجتماعي)<sup>(١)</sup>.

ويعرف إجرائياً: هو مجموعة إجراءات وخطوات إصلاحية في توظيف قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في مكافحة الفساد مستقبلاً، مستمدة من تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) المتمثلة بأقواله وأفعاله وسلوكه أي أقواله وخطبه ووصاياه، والمستنبطة من أحكام القرآن الكريم والسيرة النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله).

### المؤسسات الدولة الإسلامية:

من المعلوم أنّ مؤسسات الدولة في الدولة الإسلامية تمثل دواوين مثل (ديوان الجند - ديوان الخراج.... الخ. أما في الوقت الحاضر، فمؤسسات الدولة الحالية تمثل وزارات متعددة لها أهداف وأغراض تخدم المواطنين، وهي على شكل سلطات ثلاث؛ القضائية - التشريعية - التنفيذية). ولها مؤسسات تختلف حسب الخدمات التي تقدمها. من المعلوم أنّ الدولة لها أجهزة ذات أهمية بالغة، وهي الوزارات. وإنّ مسؤولية الوزارات هي تسيير الحركة الاقتصادية والثقافية والعسكرية والأمن.

### خامساً: تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

من المعلوم أنّ التراث في اللغة يعني ما يرثه الناس. وأما اصطلاحاً فهو ناتج العملية

(١) أحمد زكي البدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٧.

الاجتماعية لأية أمة، فهو الموروث المادي الذي يتوارثه الأجيال من جيل إلى جيل آخر. وفي ضوء ما تقدم، إنّ للتراث العربي قيمةً تربويةً وتنقيفيةً كبيرةً تعطي الإنسان العربي إحساساً بالعمق الحضاري للأمة العربية، وفي إظهار مكونات وعناصر الوحدة، وفي بلورة شخصيتها القومية؛ وبذلك يلعب حافزاً للدراسة والابتكار والتجديد والتقدم الاجتماعي وفي تماسك البنية الاجتماعية ويمنح الثقة وتعزيز الإرادة الوطنية والقومية ويبعد الإحباط والضياع أمام محاولات الغزو الثقافي، فالأمة العربية تمتلك نصيباً كبيراً من التراث الثقافي شأنها شأن اليونان والصين والرومان<sup>(١)</sup>.

ويعرف إجرائياً هو الإرث الحضاري الذي تمثل (أقوال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام) وأفعاله وسلوكه، والذي جسده في من خلال (خطب - أحاديث - وصايا) وفق المنهج الإسلامي المستمدة من القرآن الكريم وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله عندما تسلم خلافة المسلمين في بناء مؤسسات الدولة (الدواوين) في تنظيم شؤون الناس وفق قيم النزاهة والشفافية ومكافحة الفساد بكل أشكاله، والتي يمكن توظيفها في بناء مؤسسات الدولة الحالية.

#### سادساً: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

وهو الإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام. ولد في (١٣) من شهر رجب عام ٢٣ قبل الهجرة النبوية الشريفة، وقد قدر له أن يولد في بيت الله الحرام واحتضنه ابن عمه الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله منذ صغره؛ فقد غذاه من علمه عندما بعثه الله سبحانه وتعالى، فكانت حياته مشتركة مع حياة الرسول محمد صلى الله عليه وآله، فكان الشخصية الوحيدة التي تليق هذه المكانة والمنزلة. وقد عاش حياة المجاهدين في سبيل الله، وساهم في نشر الإسلام والحفاظ

(١) محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، ندوة العرب والعولمة، بيروت ١٩٩٧.

عليه، حتى قتل مظلوماً شهيد المحراب على يد أشقى الأتقياء عبد الرحمن بن ملجم في (١٩ / من شهر رمضان عام (٤٠) هجرية<sup>(١)</sup>.

وفي ضوء ما تقدم، إن تراث الإمام علي يأتي من خلال مصدرين هما:

### ١- القرآن الكريم:

فهو وحي منزل وكلام إلهي مقدس، يصوغ نظام الحياة ويشخص قوانينها. وهو شريعة ورسالة وسر وجودها، فقد احتوى على قصص الأنبياء . فقصة إبراهيم عليه السلام الذي حطم الأصنام وأكد ضرورة عبادة الله الواحد، وكذلك فيه مغزى الصبر والمقاومة، وكذلك قصة إسماعيل عليه السلام الذي شرب من نهر أبيه إبراهيم عليه السلام في استعداده للتضحية بنفسه من أجل تنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى؛ قصة داود عليه السلام في مقاومة الظالمين، والتأكيد على الاستشهاد من أجل الحق؛ وكذلك قصة يوسف عليه السلام الذي ضرب مثلاً في العفة والحكمة؛ وكذلك قصة موسى عليه السلام في استقامته على الإيمان رغم أنه نشأ وترعرع في الأجواء الكافرة، وكذلك قصة عيسى عليه السلام البرّ بالذمة، ولم يكن جباراً عصياً، وتحمل المسؤولية في المنهج الأخلاقي وفيها الكثير من العبر<sup>(٢)</sup>.

وكذلك احتوى القرآن الكريم على القيم الأخلاقية التي حملها الأنبياء والمرسلين إلى الناس جميعاً. وكذلك حذر القرآن الأقسام التي كانت تعمل الفساد في الأرض. وهناك آيات كثيرة تؤكد قيم النزاهة والشفافية ومكافحة الفساد بكل أشكاله. وبذلك كانت أقوال الإمام علي وأفعاله وسلوكه مستمدة من القرآن الكريم، وحوّلها إلى خطب ورسائل ووصايا إلى الناس كافة.

(١) فليح سوادى،، عهد الإمام علي ابن ابي طالي عليه السلام إلى واليه على مصر، مالك الاشر عليه السلام، العتبة العلوية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية ط / ١، ٢٠١٠.

(٢) الجمهورية الايرانية الإسلامية: ٢٠٠٢ / كتيب صغير.

## ٢- أحاديث الرسول الأعظم محمد ﷺ

من المعلوم أن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني بعد كتاب الله ومن مصادر التشريع التي يعتمد عليها المسلمون في استنباط الأحكام والقوانين والقيم الإسلامية فيها تتحمل مسؤولية (بيان وإيضاح وتفسير كتاب الله وصياغه مضامينه ومحتواه التشريعي والفكري المتمثل بكل مجالات الحياة الإسلامية. فهي مكمله في نشر الدعوة الإسلامية التي أكدت على العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية. وحددت بموجبها (الأوامر والنواهي) الأوامر وهي التي يريد الله سبحانه وتعالى في الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي؛ وكذلك النواهي وهي يريد الله سبحانه وتعالى بابتعاد عنها. ويرى الباحث أن هذه النواهي (الفساد بكل أشكاله سواء في الشخص أو المجتمع أو مؤسسات الدولة) في بناء المجتمع السليم إضافة إلى ذلك كان الرسول قدوة حسنة. و الصالحة للصحابة في الصدق والوعد والعهد والقناعة والعفة والزهد والكرم واحترام الكبير والمراءاة والتضحية والعزيمة<sup>(١)</sup>.

سابعاً:- مكافحة الفساد:- وتعرف كل من

مكافحة (Countering) وتعرف لغوياً (مقاومة. تصدي. ردع - قضاء على) وبذلك نقول مكافحة الحكومة الجهل - الفقر أو الإرهاب).

مكافحة (Countering)، وهي الجهود المبذولة لإزالة الفساد الحكومي أو المؤسساتي لأجل تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص أمام القانون والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروة الطبيعية وإشراك جميع أفراد المجتمع في المسؤولية السياسية والتمتع بالحريات الأساسية (النوره جي: ١٩٩٠).

(١) نعيمة شومان، العولمة في التكنولوجيا الحديثة، مجلة الفكر الدولي العدد ١، ١٩٩٧.

ويعرفها الباحث إجرائياً (هي عملية ردع - أو صدّ تبذله المؤسسات الحكومية أو الاهلية لأجل تحقيق تكافؤ المجتمع في توزيع الثروات والخدمات وإشراك أفراد المجتمع في المسؤولية من خلال تعزيز قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) المتمثلة (بالأقوال - الخطب - الوصايا) الموجه إلى فئات المجتمع داخل المؤسسات أو خارجها، والتي تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية في مكافحة الفساد بكل أشكاله والتي يمكن توظيفها في مؤسسات الدولة الحالية - سواء أشخاص أو فئات المجتمع في مجال (السياسية - العسكرية - الاقتصادية - الزراعة - الصناعة - التجارة - الخدمات - المهنية - الفنية - العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية)

## (٢) الفساد: ويعرف من حيث

### (أ) الفساد في المعاجم اللغة العربية / جاء بمعنى

١- الفساد: لغة قد تناولت معاجم اللغة العربية، معنى الفساد، حيث أشار صاحب لسان العرب في مادة (ف، س، د)، فسد، ويفسد، وفسد فسادا وقسودا، فهو فاسد وفسيد فيهما (المنجد: ١٩٦٦)، وقوله تعالى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ سورة المائدة: ٣٣. وفساد لانه مفعول له أراد يسعون في الأرض فساداً، والفساد نقيض الإصلاح، والفساد في اللغة مضاد، البطلان، ويقال فسد الشيء، أي بطل واضمحل ونقول، افسد فلان المال. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى (الفساد كما في قوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم: الآية: ٤١] (المنجد في اللغة العربية. بيروت ١٩٦٦ ص ٥٨٣).

### ٢- الفساد اصطلاحاً:

تؤكد الأدبيات أنّ مفهوم الفساد لا يمكن تحديد تعريف له؛ وهذا يرجع إلى عدّة

أسباب في اختلاف مناهج البحث والدراسة. فهو يُعدّ شكلاً من أشكال التعبير عن خلفيات المشاركين في حقول المعرفة والعلوم؛ فمثلاً في العلوم السياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والتربوية والنفسية تتباين تعاريفه حسب الميول والرغبات والأهداف<sup>(١)</sup>.

لقد تنوّعت المصادر والأدبيات التي تناولت مفهوم الفساد، من حيث المفهوم العام، وذلك بسبب أنّ الفساد ظاهرة متعددة الجوانب والمؤثرات في طبيعة المجتمع ومؤسساته، فهي ظاهرة عالمية يشكو منها جميع البلدان (المتقدمة والفقيرة).

وفي ضوء ما تقدم، قام الباحث باستنباط مفهوم الفساد من الأدبيات وهي:

الفساد هو انحراف في أخلاق المسؤولين في الحكومة والإدارة.

الفساد هو تنازل الشخص الفاسد عن أملاك الدولة من أجل مصالحه الشخصية.

الفساد هو تصرف يقوم به الموظفون القياديون في الدولة للحصول على مزايا شخصية. مثال على ذلك (التحايل وغسيل الأموال والاتجار بالمخدرات والتعامل بالسوق السوداء.

الفساد هو إجبار الموظف بعمل عمل مباشر أو غير مباشر بإجبار صاحب الحاجة بدفع ما يسمى هدايا عينية أو نقدية بشكل غير قانوني في سبيل إنجاز معاملته.

وعرفته مؤسسة البنك الدولي واعتمد في جميع الكتابات هو (استخدام الوظيفة العامة لتحقيق منافع خاصة أو الاستغلال السيء للوظيفة العامة، أي الرسمية من أجل المصلحة الخاصة).

(١) مصدر سابق. - صباح حسن عبد الزبيدي: ٢٠١٧ ص ٧٢-٢٨.

وقد عرفه البنك الدولي عام ١٩٩٧ ب: (وهو إساءة في استعمال الوظيفة العام لمكاسب خاصة، وهذا يحصل من وجوه عديدة وهي:

١. قبول أو طلب أو ابتزاز من قبل الموظفين؛ وذلك لتسهيل أو إنجاز معاملة سواء أكانت قانونية أم غير قانونية.

٢. قيام الأشخاص بالوكالة أو التوسط في الشركات والقيام بأعمال خاصة بتقديم رشاي؛ وذلك للاستفادة من سياسات أو إجراءات عامة مثل (التغلب على المنافسين أو طرح مناقصة لمصلحتهم أو غيرها).

٣. تحقيق أرباح خارج إطار القوانين المرعية.

٤. استغلال الوظائف العامة من خلال حصر (التعيين بالأبناء أو الأقارب أو من نفس الكيان).

٥. وضع اليد على المال العام وحصر الاستفادة منه بشكل خاص وسرقة أموال الدولة بشكل مباشر أو تحت مسميات أخرى<sup>(١)</sup>.

### ثامناً:- توظيف WordReference.com

التوظيف:- ويقصد بالمعنى استثمار -الشي في عمل ما

ويعرفه الباحث إجرائياً (توظيف قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة في تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المتمثلة (بالأقوال + الأفعال لا + السلوك - الخطب - الوصايا) و المستمدة من القرآن الكريم وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لمكافحة الفساد بكل أشكاله وتوظيفها في المؤسسات الدولة في مؤسسات الدولة (السياسية - العسكرية

(١) تقرير البنك الدولي: ١٩٩٧.

- الاقتصادية - الزراعة - الصناعة - التجارة - الخدمات - المهنية - الفنية - العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية).

منهجية البحث:- اعتمد الباحث على المنهج البحث الوصفي التحليلي للأدبيات التي تناولت قيم النزاهة والشفافية في تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بناء مؤسسات الدولة لمكافحة الفساد المنشورة حتى عام ٢٠٢٣ ثم الوصول إلى الاستنتاجات والتوصيات والمقترحات.



## المبحث الثاني

قيم النزاهة والشفافية في بناء مؤسسات الدولة في تراث الإمام علي (عليه السلام) ومكافحة الفساد: وشمل ثلاثة محاور:

المحور الأول: قيم النزاهة والشفافية والفساد بصورة عامة:

### المقدمة:

تحديد سمات وشخصية الفاسد. وكذلك تحديد مجالات الفساد في مؤسسات الدولة؛ ومن هنا قام الباحث بعرضها بالشكل الآتي:

### قيم النزاهة:

قام الباحث بعرض الموضوع بالشكل الآتي: من المعلوم أنّ قيم النزاهة -وهو سلوك أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي وإداري وتنظيمي- يقوم به الموظف تجاه الوظيفة العامة في مؤسسات الدولة، قائماً على أساس احترام القانون والأنظمة والتعليمات وسيادته عند التعامل مع المواطنين. ويشمل عدم قبول الهدايا والرشوة والمحسوبية والمنسوبية وعدم تبذير الأموال العامة للدولة والسرقة والاحتيال والاختلاس والتزوير والغش ونهب الثروات وسوء التصرف تجاه الآخرين المواطنين في استغلال السلطة أو الوظيفة والاستهتار بها على أساس العرق أو الطائفة أو القومية أو الدين بها بطرق غير مشروعة يحاسب عليها القانون)؛ وكذلك احترام معايير المجتمع الذي يعيش فيه<sup>(١)</sup>.

### مقومات النزاهة:

من خلال التعريفات، نجد أنّ النزاهة لها مفهوم ومبدأ أخلاقي، اجتماعي، مقترن بمجموعة من الصفات والخصائص التي ترتبط بعدد من المقومات وهي:

(١) مصدر سابق صباح حسن عبد الزبيدي. :. بغداد ٢٠١٧.

الوعي: أي إدراك الفرد لذاته، لما يحيط به من مؤثرات. فالوعي هو إحساس وشعور يرتبط بالمعرفة والوجدان والنزوع متصلة مع بعضها بشكل متكامل، وبذلك نقول النزاهة في معانيها هي الوضوح من حيث المفهوم، وترسيخ القيم والشعور بها. لذا فإن غياب الوعي بالنزاهة معناه قلة الوعي بالموجود من حيث المعرفة والوجدان والنزوع ويصبح العمل اعتقاداً خاطئاً.

الحب: وهو قيمة جوهرية تشير إلى البعد الوجداني تجاه شيء يؤكد المحبة والعاطفة والتفاني عندما يتعامل الفرد مع الآخرين، مع الوطن، مع المؤسسة، والعمل النزاهة ينشأ من خلال وجود الموقف، وهو الحب. فالخوف هو في معناها الانسحاب عن الوجود. فالشخص الذي يحب العمل يخلص له ويدفع في حبه للعمل؛ لذلك نقول إن موضوع النزاهة أصبح ضرورة ملحة تسعى إليها الدول للعمل بها في مؤسساتها كافة للحفاظ على مقدرات الدولة ومنجزاتها في إطار المسؤولية المنوطة بمؤسسات المجتمع، ومن ضمنها المؤسسات التربوية والتعليمية بحكم التصاقها بالشيء، وانطلاقاً من الدور الكبير الذي تقوم به المؤسسات التربوية في بناء العنصر البشري والمؤثر في العملية التنموية الشاملة<sup>(١)</sup>.

### مبادئ قيم النزاهة وهي كما يراها الباحث:

١- حسن الخلق: هو حالة نفسية تبعث على حسن معاشرته الناس ومجاملتهم بالبشاشة، وطيب القول ولطف الإدارة.

٢- الصدق:- وهو مطابقة القول للواقع، وهو أشرف الفضائل النفسية والمزايا الخلقية، وآثاره المهمة على حياة الفرد والمجتمع، حتى قال الخالق سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية: ١١٩]. لذا فإن الصدق

(١) عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية لتوظيف الإعلام التربوي في نشر ثقافته النزاهة، مجلة هيئة النزاهة، العدد (٣) السنة (٣) ٢٠١١.

له أقسام هي (الصدق في القول، الصدق في الأفعال، والصدق في العزم، والصدق في النية). وفي ضوء ما تقدم إنَّ الصدق له آثاره على الفرد نفسه ومجتمعه، فإنَّه يؤدي إلى سعادة المجتمع، لأنَّه يخلق الانسجام والتفاهم والتعاون وتبادل الثقة والائتمان بين الأفراد. من المعلوم أنَّ الصدق نجاة، والصادقون أحباب الله، والإنسان الصادق يحظى باحترام الناس وثقتهم ومحبتهم؛ لذلك نقول إنَّ العامل أو الموظف الصادق يحبُّه الناس وينجح في عمله؛ وبعبارة الكاذب الذي يزيّف الأشياء، فهو يشوه الحقائق ويغش ويخون الناس، لذا فهو الذي يجلب الضرر والفساد على نفسه وعلى الناس، ومن هنا نقول إنَّ الشخص الصادق هو أمين ومخلص ونزيه لأنَّه يقول الحقيقة. إضافة إلى ذلك، فهو متمسك بالعهد وموفي بالعهد، وإذا عمل شيئاً فإنَّه يعمل به بصدق وإخلاص، بعيداً عن الرياء والغش والنفاق، وعليه، فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية: ١١٩].

٣-التواضع: وهو احترام الناس حسب أقدارهم، وعدم الترفع عليهم، وهو من الأخلاق الكريمة التي تستهوي القلوب وتستثير الإعجاب والتقدير، حتى خاطب الله سبحانه وتعالى الرسول محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء آية: ٢١٥].

٤-الأمانة: وهي أداء ما أوتمن عليه الإنسان من حقوق، فهي من أنبل السجايا وأعزّ المآثر وبها يجرز المرء الثقة والإعجاب، وينال النجاح والفوز حتى قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية: ٨]. لذلك نقول إنَّ الأمانة مهمة في حياة الأمم والأفراد، فهي نظام وقوامة استقامتهم، فهي أمانة الواجب، المهمة، المسؤولية. فالشخص الذي يتحلّى بالأمانة هو محل اعتزاز وثقة الناس به. وقال رسول الله محمد ﷺ: (ليس منّا من أخلف الأمانة).

٥- العدل: وهي مناعة نفسية تردع صاحبها عن استعمال الظلم وتسيره نحو أداء الحقوق والواجبات بشكل متساوٍ، وبذلك وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان والمجتمع ﴿أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٠]. وقيل: في العدل أنواع (العدل مع الله سبحانه وتعالى، والعدل مع المجتمع، والعدل مع إسلافهم، الأموات، وعدل الحكام) فالشخص الذي يتحلّى بالعدل هو الإنسان الذي لا يظلم نفسه ومجتمعه.

٦- الإخلاص: هو صفاء الأعمال من الشوائب والرياء، وجعلها خالصة لله سبحانه وتعالى، وهي من سجايا الفرد، فهو جوهر العبادة ونية العمل وقبوله لدى المولى عزّ وجلّ، حتى قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية: ٥]. لذلك فإن الإخلاص هو حجر أساسي في كيان العقائد والشرائع وشرط لصحة الأعمال نحو طاعة الله تعالى ورضاه، وكذلك فهو محرر الإنسان من إغواء الشيطان.

٧- الخوف من الله تعالى: - وهو تألم النفس من عقاب الله من جراء استعمال مخالفته أو أمره وعصيانها، وهي من سمات المتقين والمحفز على استقامة النفس وإصلاحها، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الملك، الآية: ١٢].

٨- محاسبة النفس ومراقبتها: - وهي محاسبة النفس كلّ يوم على ما عملته من طاعات أو اقترفت من معاصٍ وآثام، فإن رجحت كفة الطاعات على المعاصي، أي الحسنات على السيئات، فعلى المحاسب أن يشكر الله تعالى على ما وفقه إليها وشرف في طاعة الله ورضاه، وبالعكس فعليه أن يؤدب نفسه بالتأنيب وإصلاح نفسه، وعليه فإن الله سبحانه وتعالى وصف محاسبة النفس بقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيتان: ٧-١٠]. وكذلك الأعمال

الفاضلة التي تخدم المجتمع استناداً إلى قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان: ٧-٨].

٩- طاعة الله وتقواه: - هي الخضوع لله سبحانه وتعالى وامتنال لأوامره ونواهيه. وإما التقوى من الوقاية، وهي صيانة النفس مما يضرّها على ما ينفعها فيها. لذلك وصف الله سبحانه وتعالى بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٧٠]. ونفهم من هذه الآية، أنّ الله خلق الكون والإنسان، وهو خليفته في الأرض، واصطفى نوعه وجنسه والأنبياء والرسل وأمرهم بالطاعة، إيماناً و يقيناً واحتساباً، وقوله تعالى ﴿... وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية: ٧١]. فالطاعة، هي حبّ الله والإخلاص له بالعبادة،

١٠ حبّ الناس: حبّ الناس من السجاي التي يتسمون الناس يكسب رضاء الناس وحسن التعامل معهم، فحبّ الناس هو السلوك القويم ويجعلهم أقرب الناس لهم منزلة، وإنّ تعاملهم مع الناس معاملة طيبة، ولنا في رسول الله ﷺ، أسوة حسنة في الأمانة وحسن المعاشرة والعدل، يحبّ الخير للجميع؛ لذلك مدحه القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية: ٤]؟ لذلك نقول إنّ قيم النزاهة لها مبادئ يجب أن يتحلّى بها كلّ فرد أو المجتمع حتى يسمو إلى سلم الحضارة الإنسانية ومن ثم لا وجود للفساد في الحياة<sup>(١)</sup>.

### قيم النزاهة وصفات الشخصية النزيهة:

قام الباحث باستنباطها من عدّة أدبيات. انظر إلى المخطط رقم (١) يمثل صفات

(١) مصدر سابق. - صباح حسن عبد الزبيدي،. بغداد للفترة من ٣٠-٣٢/١٢/٢٠٠٨.

الشخصية النزيهة وقيم النزاهة في مؤسسات الدولة وفي المجالات كافة (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - المهنية - الحرفية - العلمية - التربوية -

| <p><b>قيم النزاهة في العمل النزيه في مجالات الحياة المختلفة</b> (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - المهنية - الحرفية - العلمية - التكنولوجية -المعلوماتية - وهي:-</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            | <p><b>صفات الشخصية النزيهة:-</b><br/>الإنسان نزيه (إذا كان إنساناً ذكراً انثى - رجلاً سياسياً - اقتصادياً - دينياً - عامل خدمة أو مواطناً) فهو الذي يكون على خير خلق، ويتسم بعفة النفس، متنزهاً عن القبيح، كريماً ومن صفاته وسماته هي</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <ul style="list-style-type: none"> <li>• أن يقوم على أساس احترام القانون والأنظمة والالتزام بها واحترام سيادة القانون</li> <li>• أن يتعامل مع الناس وفق المسؤولية المهنية</li> <li>• أن لا يتعامل مع المواطنين بظاهرة الفساد المختلفة مثل (قبول الهدايا والرشوة والمحسوبية والمنسوبية) وسوء التصرف تجاه الآخرين واستغلال السلطة أو الوظيفة والاستهتار بها على أساس العرق أو الطائفة أو القومية أو الدين بها بطرق غير مشروعة يحاسب عليها القانون)</li> <li>• أن لا يتعامل مع مؤسسات الدولة الحكومية والأهلية وفق الأخلاق غير المسؤولة وهي:- تبذير الأموال العامة للدولة والسرقة والاحتيال والاختلاس والتزوير والغش ونهب الثروات</li> <li>• أن يحترم القانون والأنظمة والعمل واللوائح الوظيفية العامة</li> <li>• الأمانة والإخلاص في العمل للعاملين داخل العمل والمؤسسة.</li> </ul> | <ul style="list-style-type: none"> <li>• أن يكون الصدق في عمله</li> <li>• أن يكون عادلاً</li> <li>• يحترم قوانين العمل</li> <li>• أن يكون مخلصاً في عمله أو الوظيفة</li> <li>• أن يكون متواضعاً</li> <li>• أن يكون ملتزماً تجاه الناس</li> <li>• أن يكون أميناً على العمل</li> <li>• أن يكون خائفاً من الله سبحانه وتعالى في أي عمل يقوم به</li> <li>• أن يحاسب نفسه ويراقبها</li> <li>• أن يطيع الله سبحانه وتعالى في عمله</li> <li>• أن يحب الناس دون تمييز عرقي أو طائفي أو قومي</li> <li>• أن يتسم بالوعي القانوني والثقافة العامة</li> <li>• أن يتسم بالانتماء إلى الوطن والوظيفة العامة.</li> </ul> |

## (٢) قيم الشفافية:

من المعلوم أنَّ قيم الشفافية نظام قانوني يعتمد على مبادئ الحوار والنقاش، قائم على توفير المعلومات بشكل مكشوف لعمل المؤسسات بتدقيق حرٍّ للمعلومات التي تتيح

للمواطنين الوقوف على الحقائق ورصد (الإيجابيات والسلبيات) فهو نظام إلزام لتطوير أداء مؤسسات الدولة، وأفضل الطرق لنيل ثقة المواطنين بكشف الحقائق والمعلومات بتزويد الرأي العام والجهات ذات العلاقة بالبيانات المطلوبة دون غموض<sup>(١)</sup>، من المجتمع السياسي (الدولة) على المستويات كافة.

وبما أن الشفافية هي عملية تعمل بموجبها كل المرافق والمؤسسات التي الشؤون العامة بشفافية تعكس ما يجري بداخلها ومشاع في أروقتها، وهو اطلاع الفرد على سير العمل في السلطة الإدارية في النواحي والمجالات كافة وما يجري داخلها من عمليات تتسم بالصدق والموضوعية معتمد على (المحاسبة والمساءلة والمراقبة في صنع القرار)<sup>(٢)</sup>.

### أما قيم الشفافية:

الصدق: في طرح المعلومات بشفافية

الموضوعية: في عرض المعلومات دون غش أو تحيز

المحاسبة: أي تحديد النقص ومعالجته

المساءلة: أي مساءلة الجهات عن صحة المعلومات

المراقبة: - أي مراقبة العمليات التي تجري داخل المؤسسات لأجل اتخاذ القرار الصائب

### أهمية الشفافية:

الكشف عن الأزمات المالية الإدارية والمحاسبية في الدول التي تعتمد على المحاسبة في

(١) مصدر سابق حسين درويش العادلي، المواطنة، دار المرتضى، بغداد ٢٠٠٦

(٢) صباح حسن عبد الزبيدي البحث الموسوم. تعزيز مفهوم المواطنة في سياسة البحث العلمي الجامعي في العراق الجديد لمواجهة الفساد بكل أشكاله، دراسة مستقبلية، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي الثامن لهيئة النزاهة بغداد ٢٠١٥

سياستها الاقتصادية والاجتماعية. فقد تفاقمت الأزمة في المكسيك عام ١٩٩٢-١٩٩٥ والأزمة المالية في الأسواق الآسيوية عام ١٩٩٧-١٩٩٨ والأزمة المالية للشركات الأمريكية عام ٢٠٠١-٢٠٠٢. وكانت من نتائج الحلول هو الإفصاح عن آلية العمل لأجل اتخاذ قرارات مختلفة تقلل من الأزمة.

تمنع السلوك المنحرف مثل الكذب والخداع والغش وتغليب المصلحة الخاصة على المصالح العامة سواء على مستوى الأفراد أو الدول حيث تفشي ظاهرة الفساد الإداري والأخلاقي والمالي، إضافة إلى حدوث حروب وكوارث قادت إلى الهاوية وتهدد استقرار المجتمع، وتعرض المجتمع للأزمات السياسية والاجتماعية. ولذلك، إن ظهور هذه الأزمات هو الذي جعل الشفافية في العمل وسيلة للحد من الأزمات بأن تكشف آليات العمل والاطلاع على ما يجري داخل المؤسسات المختلفة؛ وعلى الشركات أن تفصح عن عملها بطرق وأساليب العمل الشفاف<sup>(١)</sup>.

مبادئ الشفافية: يؤكد المتخصصون أن للشفافية مبادئ تستند إليها؛ وهي:

١. مبدأ وضوح الأدوار والمسؤوليات:- أي تحديد هيكل القطاع الحكومي والوظائف والمستويات داخل الحكومة من خلال تحديد علاقة القطاع الحكومي ببقية القطاعات الأخرى؛ وبذلك، فإن الشفافية تتطلع إلى هيكل القطاع وأنشطة العمل الذي يقوم به في العمل الذي يتسم بالشفافية وتطرحه للمساءلة والمراقبة.
٢. مبدأ إتاحة المعلومات للجمهور:- أي نشر المعلومات من المالية العامة في أوقات تتحدد بوضوح؛ وبذلك، فإن الشفافية تجعل المعلومات الخاصة بالإدارة العامة واضحة ليس فيها غموض، ومتاحة لجميع المواطنين بالاطلاع عليها.

(١) مصدر سابق. - محمد عبود سالم، للعلوم ٢٠٠٨



٣. مبدأ إعلان إعداد الميزانية وطرق تنفيذها والإبلاغ بالنتائج: - أي تعلن عن كيفية إعداد الميزانية وطرق التنفيذ والنتائج التي تتعامل معها بصورة شفافة.
٤. مبدأ ضمان صحة المعلومات: - أي إنّ الشفافية تعمل على ضمان صحة المعلومات الخاصة بالبيانات المالية العامة وجعلها صالحة للتدقيق والتقويم.

### وجهات نظر المؤسسات حول مبادئ الشفافية:

- يؤكد المتخصصون في هذا المجال أنّ هناك وجهات نظر تنظر المؤسسات إلى الشفافية وهي:-
١. المؤسسة السياسية: ترى أنّ الشفافية تحقّق الدقّة التي يمكن للناس أن يلحظوا من خلالها تصرفات السياسيين.
  ٢. المؤسسة الاقتصادية: ترى أنّ الشفافية هي تدقيق المعلومات الاقتصادية، وتعتبر عنها بشكل اقتصادي صحيح يخدم المجتمع.
  ٣. المؤسسة الاجتماعية: ترى أنّ الشفافية هي العدالة والمساواة في تحقيق أهداف المجتمع وتطلعاته.
  ٤. مؤسسة المجتمع المدني: ترى أنّ الشفافية حقّ من حقوق المواطنين اتجاه الدولة ومؤسساتها بالاطلاع على ما يجري داخل مؤسساتها، وهي الرقابة الشعبية على أداء الحكومة.
  ٥. المؤسسة المحاسبية: ترى أنّ الشفافية مفهوم يدلّ على الإفصاح عن العملية المحاسبية للمستثمرين والموردين؛ لذلك نرى أنّ المؤسسة التي تعتمد على مبدأ الشفافية هي مؤسسة ديمقراطية ترى أنّ الشفافية مفتوحة، ويمكن ملاحظة المجتمع الديمقراطي من خلال المساءلة والمحاسبة ونفسح بنشر المعلومات والإعلام.

### واجبات مبدأ الشفافية:

من المعلوم أنّ مبدأ الشفافية هو مبدأ يتيح للشعب قدرة الاطلاع على السلوك العام للحكومة وتقويم أدائها، ويتم من خلال عملية المساءلة والمحاسبة لمن يسيء إلى الشعب ويتمسك بسلوكيات بعيداً عن الأهداف والأعراف والقوانين المقررة. ويتم تقويم الأداء من خلال المنظمات غير الحكومية والأحزاب والجماعات.

وفي ضوء ما تقدم، إنّ واجبات مبدأ الشفافية هي:

١. تأمين سبل وصول المواطن إلى المراجع المنوط بها وتلقي الشكاوي والنظر فيها.
٢. الإجابة بسرعة على أسئلة أو رسائل المواطنين أو استفساراتهم عبر مختلف وسائط الاتصال بلغة واضحة ومبسطة.
٣. إجراء إحصاءات واستبيانات سنوية تظهر فيه مدى رضا المواطنين أو عدم رضاهم عن مستوى أداء الإدارات العامة.
٤. الاعتراف بحقوق الموظفين المهنية واحترامها.
٥. تسهيل مهمة مشاركة الموظفين الأكفاء من كلّ الفئات في عملية التدريب.
٦. تأمين التنفيذ السريع لأحكام القضاء الإداري لصالح المواطنين.
٧. تعزيز الصورة الإيجابية في المجتمع للقائمين بالخدمات العامة.
٨. تكريم الموظفين ضمن تقديم مكافئات للمتميزين منهم.
٩. تعزيز نظام محاسبي تتوافر فيه العدالة والشفافية.
١٠. حماية المخبرين من المواطنين والموظفين من مضايقات العمل والأعمال الانتقامية.
١١. إشراك منظمات المجتمع المدني في مناقشة سياسة الإدارة العامة<sup>(١)</sup>.

(١) جمهورية العراق، المجلس المشترك لمكافحة الفساد، الاستراتيجية الوطنية لمكافحة الفساد ٢٠١٠-٢٠١٤.

### قيم الشفافية في المؤسسات الحكومية والأهلية:

قام الباحث باستنباطها من عدّة أدبيات. انظر إلى المخطط رقم (٢) يمثل قيم الشفافية في مؤسسات الدولة وفي المجالات كافة (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - المهنية - الحرفية - العلمية التربوية)

### قيم الشفافية في (العمل) في مختلف مجالات الحياة (الحكومية - الأهلية)

إنّ مفهوم الشفافية يعني (الشيء الجليّ) - أي أن يكون العمل واضحاً للعيان سواء بالإيجاب أو بالسلب؛ والعمل الشفاف يتّسم بـ:

١- أن تكون الأنشطة الحكومية والأهلية واضحة للعيان سواء للصحافة والرأي العام والمواطنين الراغبين بالاطلاع على أعمال الحكومة من حيث المعلومات وجوانبها السلبية والإيجابية بدون إخفاء وتستر ويصبح على الحكومة لزوم الإعلان عن مشاريعها وخططها في التخطيط والتنفيذ هي حقّ من حقوق المواطن بالاطلاع على سير العمل في السلطة الإدارية في النواحي والمجالات كافة، والمرافق والمؤسسات الدولية مفتوحة على ما يجري داخلها من عمل ومساءلة وتفتيش، وما يجري داخلها من عمليات تتسم بالصدق والموضوعية معتمدة على (المحاسبة والمساءلة والمراقبة في صنع القرار).

٢- هي تدقيق حرّ للمعلومات ورصد (الإيجابيات والسلبيات) في مجال العمل المؤسساتي الحكومي والأهلي وإلزام تلك الجهات بتطوير أداء مؤسسات الدولة، وإعطائهم أفضل الطرق لنيل ثقة المواطنين بكشف الحقائق والمعلومات دون غموض، معتمدة على مبادئ الحوار والنقاش متمثلاً بالتخطيط الإداري وتزويد الرأي العام والجهات ذات العلاقة بالبيانات المطلوبة.

٣- وهي وسيلة تتمثل (بالوقاية والردع والعلاج) في اتخاذ المساءلة والرقابة والتفتيش للأجهزة والوظائف العامة في الدولة بقصد منع تفشي ظاهرة الفساد في كل مفاصل الدولة ومؤسساتها ومن ثمّ تساهم في نشر ثقافة النزاهة والشفافية في العمل؛ وكذلك هي من مبادئ الديمقراطية.

٤- تمنع السلوك المنحرف مثل (الكذب والخداع والغش وتغليب المصلحة الخاصة على المصالح العامة) سواء على مستوى الأفراد أو الدول من تفشي ظاهرة الفساد الإداري والأخلاقي والمالي، وجعل العمل الشفاف وسيلة للحدّ من الأزمات التي تحدث في داخل المؤسسات المختلفة وتجعل المؤسسات ملزمة بعرض معلوماتها بشكل شفاف دائماً.

٥- هو نظام قانوني قائم على تعزيز المعلومات بشكل مكشوف للآخرين مما يجعل أداء مؤسسات دولة القانون لزيادة ثقة المواطنين بكشف الحقائق والمعلومات بشكل موضوعي دون تحيز. فتقديم البيانات والمعلومات المطلوبة الذي يتم من خلال فحص السجلات والبيانات بدقة وموضوعية ومراجعة وتدقيق السجلات في المصروفات والمبيعات، وتلقي شكاوي المواطنين عن أعمال الغش، والتبذير، الإساءة في استخدام السلطة ومتابعة ورصد وتنفيذ التوجيهات مما يجعل إلزام العاملين في المؤسسة بتبليغ مكتب المفتش العام عن المخالفين للوظيفة العامة.

٦- توافر قيم الشفافية مجتمعة وهي:

الصدق:- في طرح المعلومات بشفافية.

الموضوعية:- في عرض المعلومات دون غش أو تحيز.

المحاسبة:- أي تحديد النقص ومعالجته

المساءلة:- أي مساءلة الجهات عن صحة المعلومات.

المراقبة: أي مراقبة العمليات التي تجري داخل المؤسسات لأجل اتخاذ القرار الصائب<sup>(١)</sup>.

### اعتماد النزاهة على الشفافية في مؤسسات الدولة:

لما كانت المؤسسة عبارة عن مجموعة من الأشخاص يعملون معاً لتنفيذ عملية تجارية أو تحقيق هدف، سواء أكان هدفها الربح في تقديم الخدمات إلى المواطنين أم لأجل تسيير أمور الدولة ذات الأجهزة الحكومية المكلفة بمهام خدمة الوطن والمواطن، أم كانت المؤسسات حكومية تمثل القاعات العامة ومملوكة للأشخاص ذات قطاع خاص تقوم على نظام مؤسسي قائم على التخطيط والتنفيذ في مجالات الحياة (اقتصادية - سياسية - عسكرية - مهنية أو حرفية أو علمية أو تربوية - علمية - صناعية تكنولوجية)، تعمل هذه المؤسسات على استقرار الدولة وتنفيذ خططها الاجتماعية - الاقتصادية (الزراعة - الصناعة التجارة - الخدمات - الحرفية - المهنية).

ويرى الباحث أن تعزيز قيم النزاهة والشفافية في تلك المؤسسات يساعدها على النمو والتطور في خدمة الشعب والدولة، فالنزاهة كما ذكرنا في تلك المؤسسات مهمة جداً، وكذلك الشخص النزاهة مهم جداً في ديمومة الحياة (قيم النزاهة والشفافية)؛ الواحدة تكمل الأخرى في بناء مؤسسات الدولة في مكافحة الفساد، وكذلك قيم الشفافية التي تعمل بموجبها تلك المؤسسة (في إعطاء الفرد والمجتمع فرصة للاطلاع على سير العمل داخل المؤسسات ومن اتخاذ القرار الصائب، فهي حق من حقوق الإنسان وحرياته العامة.

ويرى الباحث أن الشفافية هي وسيلة تساعد المواطنين على الاطلاع على ما يجري داخل السلطة الإدارية من خلال عملية المحاسبة والمساءلة والمراقبة، وهي من ركائز المبادئ في

(١) هيئة النزاهة، دراسات في الأطر التشريعية والمؤسسية للاستراتيجية الوطنية لمكافحة الفساد لسنوات

النظام الديمقراطي في عملية صنع القرار؛ وعليه إنَّ مفهوم الشفافية يختلف باختلاف مؤسسات الدولة الاقتصادية والاجتماعية والمالية والسياسية، حتى مؤسسات المجتمع المدني، وذلك بسبب الاختلاف في التوجهات والبرامج وحتى يصل في بعض الأحيان إلى المؤسسة الواحدة. ومن هنا تأخذ الشفافية في العمل الخصائص المعروفة والمتاحة للبحث والمساءلة والنقاش في اتخاذ القرارات الصائبة<sup>(١)</sup>.

### (٣): قيم الفساد:

من المعلوم أنَّ الفساد وقيمه كما الأدبيات إنَّ مفهوم الفساد من الصعوبة تحديد تعريفه؛ وهذا يرجع إلى عدة أسباب في اختلاف مناهج البحث والدراسة، فهي تعدّ شكلاً من أشكال التعبير عن خلفيات المشاركين لحقوق المعرفة والعلوم، فمثل العلوم السياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والتربوية والنفسية في تباين الميول والاتجاه. وفي ضوء ما تقدم إنَّ مفهوم الفساد وقيم الفساد وردت في القرآن الكريم بما يقارب عن (٥٠) مرة وهي:

تحدث عن شخصية الفاسد والمجتمع الفاسد في القرون استناداً إلى قوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم: الآية: ٤١]. وبناء على ما تقدم، قام الباحث باستنباطها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول محمد ﷺ وعرضها بالشكل التالي - كما ورد في الجدول (٣)

(الفساد - قيم الفساد - الشخص الفاسد - المجتمع الفاسد)

ملاحظة: هناك الكثير من الآيات تتحدث عن الفساد ولا مجال لذكرها

(١) مصدر سابق. صباح حسن عبد الزبيدي:.. مدخل في مضمون الفساد والنزاهة والشفافية. مطبعة نائر العصامي. بغداد ٢٠١٧

خصائص الفساد: من المعلوم أنّ للفساد عدة خصائص سواء أكانت إدارية أم مالية أم قانونية أم أخلاقية أم اجتماعية أم وظيفية؛ وهي:

١. السرية: يحصل الفساد بشكل سري وفي طيّ الكتمان.
٢. تعدد الأطراف: أي يشترك أكثر من طرف في عملية الفساد؛ وهناك مستفيد من فعل الفساد لمصلحة طرف آخر، وهو الحصول على المنافع المتبادلة تجمع أطراف صفقة الفساد.
٣. الالتزام المتبادل: أي هناك مصلحة مشتركة بين أطراف الفساد بما يحقق لهم منافع هي مخالفة القانون مقابل الالتزام به على طرف آخر بدفع مقابل الفساد.
٤. التمويه والخديعة: أي استخدام التمويه والإخفاء والتعتيم والاحتيال على الأنشطة واصطناع الأوراق والمتمسكات التي يقوم بها كلّ من يرتكب إغفال الفساد.
٥. خيانة الثقة: أي إنّ الثقة الموجودة في صاحب السلطة يجب أن تكون عالية، ولكنّ صاحب السلطة يخون الأمانة، أمانة العمل أو الوظيفة المسندة إليه.
٦. التناقض: أي وجود أدوار بين مرتكبي الفساد بين الأعلى والأدنى في السلطة أو الوظيفة العامة.
٧. الشمول: أي يشمل الموظفين الباحثين عن مصالح خاصة يمكنهم التأثير في الآخرين من خلال مخالفة القوانين واللوائح والقيم ومعايير المجتمع.
٨. التفاعل مع الظروف والمتغيرات الداخلية والخارجية: حيث تساعد هذه المتغيرات على شيوع انتشار الفساد مثل الإهمال وغياب الرؤساء والمراقبين، وإهدار الوقت والبطالة المقنعة، التي تؤدي إلى استغلال الفرص من قبل المفسدين<sup>(١)</sup>.

(١) مصدر سابق محمد عبود سالم، دار الدكتور للعلوم ٢٠٠٨

### العوامل التي تساعد على ظهور الفساد بشكل عام:

تؤكد الأدبيات أن هناك عدة عوامل تساهم في ظهور الفساد بشكل عام وهي:

#### أولاً: العوامل السياسية:

حيث يؤدي العامل السياسي دوراً كبيراً في ظلّ عدم الاستقرار وإشغال المناصب الوظيفية إلى الولاء للحاكم أو الحزب أو السلطة وبذلك يحاول الحزب أو السلطة إبقاء هذه الوظائف بأيدي من يواليها.

#### ثانياً: العوامل الاجتماعية:

تؤدي منظومة القيم الاجتماعية الموروثة دوراً في العلاقات الإدارية الاجتماعية والثقافية؛ ومنها في نظام العشائر - الطائفية - العرقية - القومية في التعيين واستلام المناصب لأشخاص غير كفؤين يعملون وفق رغبات وخدمة المصلحة الخاصة على المصلحة العامة؛ وبذلك، يصبح الفساد سلوكاً مقبولاً من جانب الموظفين الذين لا يشعرون بالخجل مما يصاب به الموظفون ويسمى بـ (انفلونزا الضمير).

#### ثالثاً: العوامل الاقتصادية:

تؤدي العوامل الاقتصادية دوراً كبيراً في توزيع الثروات الحكومية بشكل غير عادل بين أفراد المجتمع مما يظهر الفساد في توزيع الرواتب أو الامتيازات أو المناصب مما يؤدي إلى انخفاض في مستوى الرواتب والأجور وتدني في المستوى المعاشي ولا سيما في حالة الحروب والعوز والبطالة في التوظيف وقلة الاستثمار المحلي والأجنبي في مشاريع جديدة للدولة.



#### رابعاً: العوامل التنظيمية:

من المعلوم أنّ الأعمال ترتبط بالتنظيم أو ما يسمى (بهيكلية العمل) أو المؤسسة الحكومية أو الأهلية وأنّ العامل الأساسي في التنظيم الوظيفي تشغله قيادات كفء وتتميز بالمهنية والتكنوقراط إلاّ أنّه في حالة فساد التنظيم بما يشغله قيادات غير كفء بعيدة عن معايير الكفاءة والمهنية والتكنوقراط مما يسبب ضعفاً في الهيكل التنظيمي للمؤسسة الحكومية أو الأهلية، وتصبح غير قادرة على تحديد أهدافها وتوزيع مواردها بصورة صحيحة مما يجعلها تتعثر في تقديم الخدمات، خصوصاً إذا انحصرت السلطات والصلاحيات بيد الرئيس الأعلى دون تفويض متوازن باتجاه المركزية وضعف الأنظمة الرقابية، فيؤدي إلى تفشي الفساد في الخدمات التي تقدمها هذه المؤسسة

#### خامساً: العوامل التشريعية والقانونية:

إنّ القوانين والتشريعات المستمرة تساهم في تعطيل عمل المؤسسات الحكومية والأهلية حيث تتداخل في تفسير القوانين في نصوصها مما يؤدي إلى نشوب غموض وضعف في الجهاز القانوني والقضائي؛ وبذلك تمثل العقبة في طريق نجاح أي استراتيجية قضائية. ومن هنا، يظهر الفساد في السلطة القانونية الرئيسة؛ وبذلك، يصبح الفاسدون في منأى عن المحاسبة؛ وحتى إذا أبلغ عنهم فإنهم يستطيعون الإفلات من قبضة العدالة، في ضوء تلك الحجج الكثيرة.

#### صفات الشخصية الفاسدة:

من المعلوم أنّ هناك صفات وسمات للشخصية الفاسدة؛ وكذلك توجد قيم فاسدة في مجالات الحياة المختلفة؛ لذا قام الباحث باستنباطها من عدة أدبيات. انظر إلى الجدول رقم

(٣) الذي يمثل صفات وسمات الشخصية الفاسدة والفساد بكل مجالات الحياة (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - المهنية - الحرفية - العلمية - التربوية - التكنولوجية - الصناعية - المعلوماتية).

| قيم الفساد في العمل الفاسد في مجالات الحياة المختلفة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                             | صفات الشخصية الفاسدة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| (السياسية - الاقتصادية - العسكرية - المهنية - الحرفية - العلمية - التربوية - التكنولوجية - الصناعية المعلوماتية) وهي:                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            | الإنسان الفاسد (إذا كان إنساناً ذكراً أو أنثى - رجلاً سياسياً - اقتصادياً - دينياً - عامل خدمة أو مواطناً) فهو الذي يكون على خلق فاسدة، يتم بالسمات والصفات الآتية صفاته وسماته هي:                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |
| <p><b>تم عرض قيم الفساد كما أكدها القرآن الكريم:</b></p> <p>الكذب:- قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة الزمر ٣]</p> <p>الخداع:- وقوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة ٩ - ١٠]؟</p> <p>الغش:- قول الرسول محمد ﷺ في الحديث الصحيح: (من غشنا فليس منا) ولأنه خيانة والله يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الانفال ٢٧].</p> <p>المسؤولية:- أي تغليب المصلحة الخاصة على العامة وهي مخالفه قانونية</p> <p>المعصية:- قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [سورة طه ١٢١]</p> | <p><b>صفات وسمات الشخصية الفاسدة:</b></p> <ul style="list-style-type: none"> <li>• يغش ويخدع الناس أو المواطنين</li> <li>• يسرق أموال الدولة والمجتمع</li> <li>• يخون الأمانة أو الوظيفة</li> <li>• يخلّس أموال الناس والدولة</li> <li>• يقبل بالرشوة والهدايا الثمينة</li> <li>• يميز بين الناس على أساس الجنس أو العرق أو القومية</li> <li>• لا يحترم القانون أو الوظيفة المكلف بهار</li> <li>• يستخدم المعلومات الرسمية لأغراض شخصية</li> <li>• التصريح عند التعيين بطبيعة الوظيفة لمصلحته الشخصية أثناء الخدمة</li> <li>• الاساءة إلى حقوق المواطنين والإضرار بهم</li> <li>• العمل مع أية جهة في القطاع الخاص لها علاقة مباشرة بالوظيفة العامة</li> </ul> |

|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>القتل: قال تعالى ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ قَالَ سَتَقْتُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٧]</p> <p>الظلم والخراب: قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾</p> <p>الهلاك: قال تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ [سورة الاسراء: ٤]؛ وقوله تعالى ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ قَالَ سَتَقْتُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [سورة الاعراف: ١٢٧]</p> <p>السخرة: - استناداً إلى قوله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس: ٨١]</p> <p>الخائن: - قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٧]</p> <p>ملاحظة: هناك الكثير من الآيات تتحدث عن الفساد ولا مجال لذكرها</p> | <ul style="list-style-type: none"> <li>• استخدام المحسوبة والمنسوبة عند التعيين</li> <li>• الاحتفاظ بالمعلومات لغرض عرقلة المعاملات الحكومية لصالح مصالحه الشخصية</li> <li>• الاهمال أو النقص في أموال الدولة والتلاعب بها لأغراضه الشخصية</li> <li>• سرقة المعونات والمساعدات المقدمة من المنظمات غير الحكومية</li> <li>• يشجع على هروب رؤوس الأموال إلى الخارج</li> <li>• يزور الأوراق والكتب الرسمية والعلامات والطابع</li> <li>• يدون المعلومات الكاذبة</li> <li>• يقبض على شخص دون نص قانوني</li> <li>• يستخدم السلطة في شراء العقارات التابعة للدولة</li> <li>• يأخذ الضرائب والرسوم أو الغرامات بغير حق أو وجه قانوني</li> <li>• يقوم بتهريب المسجونين والمقبوض عليهم</li> <li>• يغش في المنتجات الصناعية</li> <li>• يتستر على الجرائم والجريمة</li> <li>• يخفي أوراق خاصه بالدولة</li> <li>• يفتح الرسائل أو الكتب الرسمية وقراءتها</li> <li>• يتوسط لدى المحاكم ضد الخصم</li> </ul> |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

## المحور الثاني

### مؤسسات الدولة في تراث الإمام علي عليه السلام في ضوء قيم النزاهة والشفافية لمكافحة الفساد

#### المقدمة:

من المعلوم أنّ مؤسسات الدولة في تراث الإمام علي عليه السلام كانت تعتمد على نظام (اقتصادي - سياسي وإداري - وعسكري واجتماعي وثقافي). وكانت تسمى في تلك الفترة الدواوين ومنها (ديوان الجند - ديوان الخراج - ... الخ). ولأجل توضيح قيم النزاهة والشفافية في تلك المؤسسات لا بدّ من القول أنّ الاهتمام كان بالجانب الاقتصادي والإداري والعسكري. ويرى الباحث أنّ الإمام علي عليه السلام في زمانه كان نسمة العدل في هذا الكون، والمثال لكلّ طالب يسعى التحلي بالكماليات الإنسانية، ميزان العدالة الإلهية. أما مؤسسات الدولة التي اهتمّ بها الإمام علي عليه السلام فهو الجانب الاقتصادي والاداري والعسكري. انظر إلى الجدول رقم (٤) إلى المؤسسات التي عزز فيها قيم النزاهة والشفافية

#### تعزيز قيم النزاهة في المؤسسات الإسلامية في زمن الإمام علي عليه السلام

١. تعزيز قيم النزاهة والشفافية / المجال الاقتصادي.
٢. تعزيز قيم النزاهة والشفافية / المجال الاجتماعي.
٣. تعزيز قيم النزاهة والشفافية / المجال السياسي والإداري.
٤. تعزيز قيم النزاهة والشفافية / المجال العسكري.

### أولاً: تعزيز قيم النزاهة والشفافية/ المجال الاقتصادي:

من المعلوم أنّ المجال الاقتصادي/ يهتم بالقطاعات الاقتصادية وهي:

(١- الزراعة ٢- الصناعة ٣- التجارة ٤- الخدمات). ومن المعلوم أنّ المجتمع الإسلامي سابقاً يعتمد على الزراعة وتربية الحيوانات والاهتمام بالري.

وفي ضوء ما تقدم يرى الإمام علي (عليه السلام) أنّ توزيع المال الذي يرد إلى الخزانة المركزية (بيت المال) من إيرادات وجباية يجب أن يُنفق على المحتاجين؛ هذا من جهة. وكذلك على الجهات المتخصصة بالاقتصاد أن تعمر الأراضي الزراعية وإصلاح الري وشق القنوات وحفر الآبار والأنفاق، على ما يصلح شؤون الزراعة ومساعدة المزارعين، وما يحتاجون من أموال لإحياء الأرض. وفي رواية قيل (إن ابن النباح) وهو أمين بيت المال جاء إلى الإمام علي (عليه السلام) وقال: يا أمير المؤمنين.

(امتلا بيت المال من الصفراء والبيضاء) فقال الإمام علي (عليه السلام) (الله أكبر)

وفي ضوء ما تقدم، عهد الإمام إلى عامله مالك الأشتر النخعي (رضي الله عنه) ضرورة إصلاح الأراضي الزراعية والاهتمام بالزراعة والري قبل أخذ (الخراج والمطالبة بالزكاة المفروضة) لأنّ الاقتصاد والزراعة هما شريان الحياة.

وهذا الصدد يقول الإمام علي (عليه السلام) (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك من استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أضّر بالبلاد وأهلك العباد).

ويرى الباحث أنّ المجال الاقتصادي كان مهماً عند الإمام علي (عليه السلام) ولا سيما (الخراج - الجزية - الفية - بيت المال) وقام الباحث بعرضها بالشكل الآتي:

**الاهتمام بالخراج:** من المعلوم أنّ الخراج هو ضريبة مالية فرضها الإسلام على غلة الأراضي الزراعية. وكانت معظم الدول تستند إليها في الإنفاق على رواتب الجيش والموظفين في جهاز الدولة ومعظمها. والخراج هو من شريان الاقتصاد للحكومة الإسلامية فرضت على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة؛ وبذلك يقوم عمال الصدقات بجباية الأموال التي فرضت على الأعيان التي يجب فيها الزكاة كالغلات الأربعة والأنعام الثلاثة والنقدين، وعلى العمال أن يكونوا أمناء في جبايتها من الناس.

وبذلك، اهتم بها الإمام علي (عليه السلام) من خلال توصية يوصي بها عامله على مصر مالك الأشتر النخعي (رضي الله عنه). وقام الباحث باستنباطها وعرضها بالشكل الآتي:

قال الإمام علي (عليه السلام): - (وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم، لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله).

قال الإمام علي (عليه السلام) (فخذ ما أعطاك من الذهب والفضة. وإن كان له ما يشبه أو أبل فلا تدخلها إلّا بإذنه. فإنّ أكثرها له. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به)<sup>(١)</sup>

وقال الإمام علي (عليه السلام) وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد. ولم يستقم أمره إلّا قليلاً. فإن شكوا ثقلأ أو علة أو انقطاع مشرب، أو بالة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش.... وإنما يؤتي خراب الأرض من إعواز أهلها)<sup>(٢)</sup>.

(١) باقر شريف. مناهج حكومة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) دار جواد الاثمة (عليه السلام) لبنان ٢٠١٧ ص (٩٧)

(٢) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة الكوفة. مركز دراسات الكوفة، عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لملك الاشتر ٢٠١١

**الاهتمام بالجزية:** من المعلوم أنّ الجزية هي نوع من الضريبة، حيث تؤخذ من أهل الكتاب لإقامتهم في بلاد المسلمين، فيفرض على كلّ رأس من الرجال البالغين القادرين مبلغ من المال، أو يضرب على البلد كلّها أن تؤدي مبلغاً معلوماً، ولو أداها من لا تجب عليه، كانت هبةً، لا جزية.

وتؤخذ بحسب عددهم أو بحسب ما يملكون من أرض. وقد أجمع الفقهاء على مشروعية أخذ الجزية. تؤخذ الجزية من أهل الكتاب خاصة كاليهود والنصارى، واستثنى منهم بعض الأشخاص كالصبي والمجنون والمرأة.. تعطى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، استناداً إلى (ليس على مسلم جزية).

ويقال إنّ الجزية قد لا تؤخذ من النساء والصبيان والمساكين والرهبان وذوي العاهات. فلا تجب الجزية من امرأة ولا فتاة ولا فقير ولا شيخ ولا أعمى ولا أعرج ولا مختل في عقله. إنّ كثيراً من اليهود والنصارى بقوا في ديارهم بعد فتح المسلمين لها، وتمسكوا بدينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، وعاشوا آمنين بين المسلمين؛ وهذا باق إلى يوم الناس هذا. ولا يجبرون على دخول الإسلام. كان ملوك الروم يأخذون من العاملين نصف إنتاجهم،... وبذلك فهي من واجبات الدولة الإسلامية حمايتهم مقابل دفع المال المخصص وبالشروط الموضحة. وإنّ إعطاء الجزية من قبل غير المسلمين هو خلق نوع من التكافل وتسهيل عملية الإنفاق. وكانت الجزية ثابتة في المقدار حسب حالتهم الاقتصادية وتنظيم علاقات المسلمين بغير المسلمين.

**الاهتمام بالفيء:** من واجبات الدولة الإسلامية الاهتمام بالفيء، وهو كلّ مال منقول أُخذ من الكفار بغير قتال، وبلا تدافع خيل ولا ركاب

**انواع الفيء:** يؤكد أصحاب الخبرة والعلم أن للفيء أنواعاً، وهي:

١. ما جلا عنه الكفار خوفاً من المسلمين من الأراضي، والعقارات، وهي تُوقف كالأراضي المزروعة بالقتال، وتُقسم غلاتها كلّ سنة، نصّ عليه الشافعية، وفي ذلك خلاف.

٢. ما تركوه وجلّوا عنه من المنقولات، وهو يُقسم في الحال، ولا يوقف.
٣. ما أخذ من الكفار من خراج، أو أجرة عن الأراضي التي ملكها المسلمون، ودفعت بالإجارة لمسلم، أو ذمي، أو عن الأراضي التي أُقِرَّت بأيدي أصحابها من أهل الذمة، صلحاً، أو عنوة على أئمتها لهم، ولنا عليها الخراج.
٤. عشور أهل الذمة، وهي: ضريبة تؤخذ منهم عن أموالهم التي يترددون بها متاجرين إلى دار الحرب، أو يدخلون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام، أو ينتقلون بها من بلد في دار الإسلام إلى بلد آخر، تؤخذ منهم في السنة مرّة، ما لم يخرجوا من دار الإسلام، ثم يعودوا إليها.
٥. غلات أراضي بيت المال، وأملكه، ونتاج المتاجرة، والمعاملة.
٦. الهبات، والتبرعات، والوصايا، التي تُقدم لبيت المال للجهاد، أو غيره، من المصالح العامة.
٧. الهدايا التي تقدم إلى القضاة ممن لم يكن يُهدي لهم قبل الولاية، أو كان يُهدي لهم لكن له عند القاضي خصومة، فإنها إن لم ترد إلى مُهديها ترد إلى بيت المال، لأن النبي ﷺ أخذ من «ابن اللتبية» ما أُهدي إليه.
٨. الغرامات، والمصادرات: وقد ورد في السنة تغريم مانع الزكاة بأخذ شطر ماله، وبهذا يقول إسحاق بن راهويه، وأبو بكر عبد العزيز، وورد تغريم من أخذ من الثمر المعلق وخرج به ضعف قيمته؛ وبهذا يقول الحنابلة، وإسحاق بن راهويه: والظاهر أن مثل هذه الغرامات إذا أخذت: تنفق في المصالح العامة، فتكون بذلك من حقوق بيت المال.
٩. وورد أن عمر صادر شطر أموال بعض الولاة، لما ظهر عليهم الثراء بسبب أعمالهم، فيرجع مثل ذلك إلى بيت المال أيضاً انتهى مختصراً (الشبكة العنكبوتية).



### الاهتمام ببيت المال:

من المعلوم أنّ بيت مال المسلمين أو بيت مال الله هو المبنى والمكان الذي تحفظ فيه الأموال للدولة الإسلامية من المنقولات كالألفي، والخمس، والغنائم، وغيرها. وبذلك كان بيت المال من واجبات الدولة. وقد عرضه الباحث بالشكل الآتي:

### مصادر بيت مال المسلمين:

تذكر المصادر أنّ أهم الموارد هي:

١. الزكاة بأنواعها، التي يأخذها الإمام سواء أكانت زكاة أموال ظاهرة، أم باطنة، من السوائم، والزروع، والنقود، والعروض.

٢. خمس الغنائم المنقولة، والغنيمة: هي كلّ مال أخذ من الكفار بالقتال، ما عدا الأراضي والعقارات، فيورد خمسها إلى بيت المال ليصرف في مصارفه، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾.

٣. خمس الخارج من الأرض من المعادن، من الذهب، والفضة، والحديد، وغيرها، وقيل: مثلها المستخرج من البحر من لؤلؤ، وعنبر، وسواهما.

٤. خمس الركاز (الكنوز)، وهو كلّ مال دُفن في الأرض بفعل الإنسان، والمراد هنا: كنوز أهل الجاهلية، والكفر، إذا وجده مسلم: فخمسه لبيت المال، وباقيه بعد الخمس لو وجدته<sup>(١)</sup>.

(١) صباح حسن عبد الزبيدي. البحث الموسوم: (الهوية الإسلامية في تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) وأثرها في بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي، ووضع استراتيجية للهوية الإسلامية مقترحة وتوظيفها في المناهج التربوية مستقبلاً - دراسة نظرية، بحث مقدم للمشاركة في المؤتمر الدولي الأول - الذي يقام برعاية العتبة العباسية المقدسة، وبالتعاون مع جامعة الكفيل وجمعية العميد العلمية والفكرية تحت شعار (الإمامة نظام الأمة - الإمام علي عليه السلام ميزان الحق يوم ٦ / تموز / ٢٠٢٣).

### ثانياً: تعزيز قيم النزاهة والشفافية في المجال الاجتماعي:

يرى الإمام علي (عليه السلام) أنَّ المجال الاجتماعي هو سبب للرقى الفكري والثقافي والعلمي في تقدم الاقتصاد ووسيلة لتعليم الناس وتربيتهم على معاني الأخلاق. وأفضل وسيلة لتخليص المجتمع من (الفقر والمرض والجهل والفاقة) هو بتعمير الأراضي وزيادة الدخل الفردي. وإن زيادة الدخل والنهضة بهما هو أخذ الضرائب على الأراضي الزراعية، وكذلك وعي مساهمة التجار وأصحاب المهن في رخاء البلد.

### ثالثاً: تعزيز قيم النزاهة والشفافية في المجال السياسي والإداري:

يرى الإمام علي (عليه السلام) أنَّ المجال السياسي والإداري يبدأ بالحكم والرعية ومحاسبة العاملين. وبذلك كان الإمام علي (عليه السلام) يسهر هو بنفسه على كلِّ مصالح الشعب، ويراقب ويحاسب عماله على ما يرتكبون من أخطاء في حقِّ الرعية وما ينقل إليه من الرسائل والدعاوى والشكاوى. فقد كان دائماً يحاسب الفاسدين في الإنفاق والمسرفين. وكان يوصي بضرورة الاهتمام بيت المال ويقول (عليه السلام) بهذا الصدد (فإنما المال مال الله. ألا وإنَّ إعطاء المال في غير حقِّه تبذير وإسراف؛ وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرهه في الناس. ويهينه عند الله). وكذلك كان الإمام علي (عليه السلام) يستعيز بالله من الفقر فيقول (عليه السلام): (الفقر منقصة للدين ومدهشة للعقل، وداعية للمقت)<sup>(١)</sup>.

ويرى الباحث أنَّ الإمام علي (عليه السلام) منذ أن أعلن في اليوم الأول من الخلافة للمسلمين أنَّ سياسته قائمة على (العدل والمساواة بين الناس) فهو لا يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ولا بين السادة والعبيد، وقد أخذ نصيبه من بيت المال، وحتى أصحابه المقربين إليه كانوا يأخذون حقوقهم من بيت المال دون أي امتياز عن الآخرين. وبذلك حارب

(١) السيد إبراهيم الموسوي. يوميات من حياة علي بن أبي طالب (عليه السلام) لبنان ٢٠١٥ (ص ٣٣-٢٧).

الفقر والظلم، ويقول بهذا الصدد (عليه السلام): (أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ - هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ - أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ). وقال (عليه السلام): (لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ - فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ).

من المعلوم أنّ الإمام علي (عليه السلام) كان أسوة حسنة يعيش عيشتهم ويأكل أكلهم ويلبس ملبسهم، ويتواضع لهم حتى أصبح (عليه السلام) غني للفقير وقوة للضعيف، وسنداً لمن لا سند له. وبذلك يرى الإمام علي (عليه السلام) أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً وهم متساوون في الخلق، وفي الحقوق والواجبات أمام الله وأن لا غني هناك ولا فقير ولا ضعيف ولا قوي ولا سيد ولا عبد. ولكن أحكام الحياة، وتدافع الناس من أجل التمييز وحبّ الظهور والسيطرة على مقدرات الآخرين هو الذي خلق الفجوة بين الفقير والغني بين الناس.

وفي ضوء ما تقدم، يقول الإمام علي (عليه السلام) (أيها الناس إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإنّ الناس كلّهم أحرار، ولكنّ الله خوّل بعضهم بعضاً؛ فمن كان له بلاء فصبر في الخير، فلا يمنّ به على الله عزّ وجلّ. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوون فيه بين الأسود والأحمر).

#### رابعاً: تعزيز قيم النزاهة والشفافية في العسكري:

من المعلوم أنّ الجانب العسكري محصور في الإمام علي (عليه السلام)، وكذلك من خوّله من القادة في قيادة البلدان عندما أصبح الإمام علي (عليه السلام) خليفة المسلمين. فقد كان أعدل الناس في الحكم ولم ينظر إلى الخلافة إلاّ لخدمة الناس والعمل بكتاب الله وسنة نبيّه الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) في إقامة العدل والمساواة في الحقوق والواجبات. ولم يفرض سلطته للتحكم بهم أو للتأمر عليهم، فقد كان يدافع عن الحقّ والمظلوم، ويدحض الباطل، وينتصر للمظلوم، وبذلك أمّن كلّ احتياجات الناس ليعيشوا حياة كريمة بعيداً عن الجشع والطمع. وبهذا الصدد يقول الإمام علي (عليه السلام) في مجال اختيار صفات القادة العسكريين ورعايتهم للجنود (إنّ الله

جعلني إماماً لخلقه ، ففرض علي التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس ، كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغني غناه<sup>(١)</sup>.

صفات قادة الجيش ورعايتهم للجنود: وَلِيَكُنْ أَثَرُ (أفضل وأعلى منزلة) رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ (ساعدهم بمعونته لهم) فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ (أفاض عليهم من غناه) بِمَا يَسْعُهُمْ يَسْعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِهِمْ (وهو من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال)، حَتَّى يَكُونَ هُمُومًا وَاحِدًا، فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ.

وبذلك كان يقسم الذهب والفضة ويطعم المساكين والفقراء والعجزة يوفر لهم ما يحتاجون إضافة إلى ذلك كان ﷺ يحكم بالعدل التام ويساوي نفسه برعيته ولم يُرَ متسول واحد مدة خلافته. وبذلك فهو ساوى في العطاء بينه وبين خادمه قنبر لكل منهما (ثلاثة دراهم)<sup>(٢)</sup>.

وعليه فقد كان الإمام علي ﷺ متبعاً سنة الأنبياء والرسل والصالحين في مواساته للفقراء، كما كان رسول الله محمد ﷺ في تعامله مع الفقراء والمساكين. وقال الرسول محمد ﷺ بحق الإمام علي ﷺ (يا علي انت خليفتي على أمتي). وقال ﷺ علي بن أبي طالب عليهما السلام (أقدمهم إسلاماً وأكثرهم علماً، وهو الإمام والخليفة بعدي).

(١) أحمد جاسم آل مسلم الخيال. المثال الإلهي علي بن أبي طالب عليه السلام، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، ط ١ بيروت ٢٠١٤، ص ٢١٤

(٢) صباح حسن عبد الزبيدي- البحث الموسوم القيم الأخلاقية الفاضلة للقائد الرسالي في فكر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب \$ لمالك الأشتر رحمه الله وتوظيفها في مؤسسات الدولة مستقبلاً - دراسة تحليلية.. بحث مقدم: للمشاركة في المؤتمر العلمي الوطني المشترك الأول بين (مؤسسة علوم نهج البلاغة ومركز دراسات الكوفة) وتحت شعار ((عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله رسالة إصلاح ودستور حياة، للمدة من ٢٤-٢٥ / ١٢ / ٢٠١٦

ويرى الباحث أن الإمام علي عليه السلام كان يريد أن يعزز قيم النزاهة والشفافية لأجل بناء الإنسان المسلم، وكذلك المجتمع الإسلامي الفاضل. وبذلك قام الباحث بعرضها بالشكل الآتي:

### بناء الإنسان المسلم الذي يتصف بقيم النزاهة والشفافية:

ويرى الباحث أن بناء الإنسان ينطلق من نظرة الإسلام إلى فطرته إلى الدين الإسلامي التي أرادها الله سبحانه وتعالى استناداً إلى قوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠] أي بناء شخصية قوية العقيدة في الفكر الإسلامي، متمسكة بتطبيق القيم الأخلاقية (قيم النزاهة والشفافية) وتطبيقها في مؤسسات الدولة المختلفة مقتدية بهذه القيم في عملها مستقبلاً، مستمدة من منابع القيم الإسلامية وأهل البيت جعل هذه القيم خطوطاً عريضة في بناء الأمة الإسلامية التي تستنير بقادتها ورموزها الدينية في بناء شخصية قوية العقيدة، متسلحة بصفات العلم وحقوقه، ومنزلة العلماء الأجلاء التي أكدها القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأعظم محمد ﷺ وأفكار الإمام أمير علي بن أبي طالب عليه السلام وأحاديثه في مؤسساتنا التربوية والعلمية، مع تأكيد مجموعة القيم التي أكدها الإسلام في بناء الشخصية وهي (بالعدل والمساواة والفردية السوية داخل النفس، وبالحرية السياسية والاقتصادية والعلمية؛ وبهذا يتشكل السلوك الذي صاغته السماء ويتفق مع خصائص الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية، وهي قيم إنسانية واجتماعية، وليست مجردة بعيدة عن الواقع. وبذلك يمثل الرسول محمد ﷺ (النموذج الأخلاقي) للمجتمع ولنفسه، إذ يصفه الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وأهداف الرسالة (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) والتي أكدتها قيم النزاهة والشفافية؛

ومنها (الصدق، الأمانة، أداء الواجب، استثمار الوقت، مساعدة الإنسان للإنسان، الإيثار، الاعتماد على النفس، ومحبة الناس). في بناء الإنسان مستقبلاً.

### بناء المجتمع الإسلامي:

إنَّ بناء المجتمع الإسلامي يسير على منهج ربّاني، وهو منهج القرآن الكريم وسيرة الرسول محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار والسلف الصالح في الأمة الإسلامية، إذ ينظر الإسلام إلى المجتمع بأنّه صاحب رسالة ودعوة إلى الداخل والخارج، فهو مجتمع متميز له خصائص ومميزات تميزه عن بقية المجتمعات الإنسانية، فهو مجتمع القدوة أو المجتمع الوسطية والاعتدال وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الانبياء: الآية: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية: ١١٠] وكذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآيتان: ١١٤-١١٥]<sup>(١)</sup>.

وعليه يرى الباحث أنّ المجتمع الإسلامي الذي يريد الإمام علي عليه السلام في ضوء قيم النزاهة والشفافية بأنّه مجتمع يطبق مبادئ الإسلام والشريعة الإسلامية القائم على الإيثار بالله الواحد، وكتبه ورساله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيله، والإيمان بالقضاء والقدر، والجنة حقّ والنار حقّ، والبعث حقّ، وأداء الصلاة

(١) مصدر سابق صباح حسن عبد الزبيدي. / ٢٠٢٣

والصوم والحجّ والزكاة، وحماية الجار والفقراء والمساكين، أي العامل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم وأهل بيته الأطهار وتسمو فيه كلّ القيم الأخلاقية الفاضلة، بعيداً عن السرقة والقتل وشرب الخمر والميسر، والفساد بكلّ أشكاله أي مجتمع خالٍ من أشكال الفساد والمفسدين.

وتأسيساً على ما تقدم يتمثل تراث الإمام علي عليه السلام في تعزيز قيم النزاهة والشفافية في مؤسسات الدولة الإسلامية من خلال (الأقوال + الأفعال + السلوك) مجسداً بالخطب والوصايا والرسائل الموجهة إلى القادة في المجالات السياسية - الاقتصادية - العسكرية - الإدارية.... يحثهم على الاقتداء بنشر قيم النزاهة والشفافية.

وفي ضوء ما تقدم قام الباحث بعرض تلك الخطب والوصايا والرسائل بالشكل الآتي:

١. يا كميل: (قل الحق على كل حال، ووادّ المتقين، واهجر الفاسقين، وجانب المنافقين، ولا تصاحب الخائنين) (تحف العقول. ص ١٢. بحار الانوار ج ٧٧. ص ٢٧١. ح ١)

٢. يا كميل: (سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار) (بحار الانوار ج ٧٦. ص ١٥٥ ح ٣٦. ص ٢٢٩. ح ١٠)

٣. أيها الناس أنشدكم الله لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلّوا سبياً، ولا تأخذوا سلاحاً ولا متاعاً. (الفصول المهمة ص ٧٩)

٤. يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم، وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)

٥. احبسوا هذا الأسير (ابن ملجم المرادي) واطعموه واسقوه. واحسنوا اساره. فان عشت فانا اولى بها صنع في. ان شئت وان شئت صالحت. وان مت فذلك اليكم. فان بدالكُم ان تقتلوه فلا تمثلوا به (بحار الانوار ج / ٤٢ ص ٢٠٦)

٦. سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك. وإيّاك والغضب فإنّه طيرة من الشيطان. واعلم أنّ ما قرّبك من الله يبعدك من النار وما باعدك عن الله يقربك من النار. (نهج البلاغة / ٧٦)

٧. المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحد على أحد. وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنّ الظالم بخزامتة حتى أوردّه منهل الحقّ وإن كان كارهاً. (جورج جرداق - روائع نهج البلاغة ص ١٦٣<sup>(١)</sup>)

وكذلك حارب قيم الفساد والمفسدين من خلال الوصايا والخطب والرسائل وقد قام الباحث بعرضها بالشكل الآتي:

١. يا بنيّ إيّاك مصادقة الأحقّ فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.  
٢. للمرائي ثلاث علامات. يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه. وينقص إذا ذمّ (المحجة البيضاء ج ٥ ص ٤٤١ تنبيه الخواطر. ص ١٩٥. س ١٦)

٣. يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم  
٤. إنّ شرّ الملوك من خالف العدل. (ص ٢٣٥ - ١٠٠٠ حكمة)  
٥. إنّ شرّ الولاة من يخافه البريء (ص ٢٣٥ - ١٠٠٠ حكمة)  
٦. إنّ شرّ الأمراء من كان الهوى عليه أميراً (ص ٢٣٦ - ١٠٠٠ حكمة)

(١) جورج جرداق - روائع نهج البلاغة.



٧. إنَّ شرَّ الأمراء من ظلم رعيته (ص ٢٣٩ - ١٠٠٠ حكمة)
٨. إنَّ شرَّ الناس من يخشى الناس في ربِّه ولا يخشى ربَّه من الناس (ص ٢٣٧ - ١٠٠٠ حكمة)
٩. انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً، ولا تتجاذنَّ عليه كارهاً. ولا تأخذ منه أكثر من حقِّ الله في ماله. فإذا قدمت على الحيِّ فانزل بهائم من غير أن تخالط أبياتهم. ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم، فتسلم عليهم ولا تخدج بالتحية لهم..
١٠. إِيَّاكَ والتسرع إلى العقوبة فإنَّه ممقنة عند الله ومقرب من الغير (ص ٨٥).
١١. إِيَّاكَ والبغي فإنَّ الباغي يعجل الله له النعمة وتحلَّ به المثالات. (ص ٨٨)
١٢. إذا عاقبت فارق. (ص ١٢٤)
١٣. إِيَّاكَ وانتهاك المحارم، فإنَّها شيمة الفساق وأولي الفجور والغواية. (ص ٨٥)
١٤. احذر كلَّ قولٍ وفعلٍ يؤدي إلى فساد الآخرة والدين. (ص ٨٢)
١٥. إِيَّاكَ أن تهمل حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فليس لك بأخ من أضعت حقَّه. (ص ٨١)
١٦. إِيَّاكَ أن تتبع حظَّك من ربِّك وزلفتك بحقير من طعام الدنيا (ص ٨٧)
١٧. احذروا سوء الأعمال، وغرور الآمال، ونفاذ الأمل، وهجوم الأجل. (ص ٨٣)
١٨. إِيَّاكَ وفعل القبيح، فإنَّه يقبح ذكرك، ويكثر وزرك. (ص ٨٤)
١٩. سبب فساد اليقين الطمع (٢٢٧)
٢٠. ظالم الناس يوم القيامة منكوب بظلمه معذَّب محروب. (ص ٢٥٣)
٢١. احذروا صوله الكريم إذا جاع واللثيم إذا شبع. (ص ٨٢)

٢٢. احذروا سطوة الكريم إذا وُضع وسورة اللئيم إذا رُفع (ص ٨٢)
٢٣. إِيَّاكَ وَالظُّلْمَ فَمَنْ ظَلَمَ كَرِهْتَ أَيَّامَهُ (ص ٨٤)
٢٤. إِيَّاكَ وَالظُّلْمَ فَإِنَّهُ يَزُولُ عَمَّنْ تَظْلِمُهُ وَيَبْقَى عَلَيْكَ (ص ٨٤)
٢٥. إِيَّاكَ وَالظُّلْمَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الْمَعَاصِي؛ وَإِنَّ الظَّالِمَ لَمُعَاقِبُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِظُلْمِهِ (ص ٨٤)
٢٦. رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَحْيَا حَقًّا وَأَمَاتَ بَاطِلًا وَأَدْحَضَ الْجَوْرَ وَأَقَامَ الْعَدْلَ. (ص ٢١٣)
٢٧. ظَلَمَ الْحَقُّ مَنْ نَاصَرَ الْبَاطِلَ (٢٥٢)
٢٨. ظَفَرَ اللَّثَامُ تَجَبَّرَ وَطَغْيَانُ (ص ٢١٦)
٢٩. اظْلَمَ الْعِبَادُ يَفْسُدُ الْمَعَادُ (ص ٢٥٢)
٣٠. ظَلَمَ الْيَتَامَى وَالْإِمَاءَ يَنْزِلُ النِّقَمُ وَيَسْلُبُ النِّعَمَ (ص ٢٥٣)
٣١. رَاكِبُ الظُّلْمِ يَكْبُو بِهِ مَرْكَبُهُ (ص ٢٢١)
٣٢. رَاكِبُ الْعَنْفِ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مَطْلَبُهُ (ص ٢١٤)
٣٣. سَفَكَ الدِّمَاءَ بِغَيْرِ حَقِّهَا يَدْعُو إِلَى حُلُولِ النِّقْمَةِ وَزَوَالِ النِّعْمَةِ (ص ٢٣١)
٣٤. إِنَّ شَرَّ الْأَمْرَاءِ مَنْ ظَلَمَ رَعِيَّتَهُ (ص ٢٣٩) ١٠٠٠ حِكْمُهُ
٣٥. إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَخْشَى النَّاسَ فِي رَبِّهِ وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ مِنَ النَّاسِ (ص ٢٣٧) ١٠٠٠ حِكْمُهُ<sup>(١)</sup>
٣٦. احذر كلّ قول وفعل يؤدي إلى فساد الآخرة والدين (ص ٨٢)
٣٧. يَا بَنِي إِيَّاكَ مَصَادِقَةُ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضِرُّكَ
٣٨. شَرُّ الْقَوْلِ مَا نَقَضَ بَعْضُهُ بَعْضًا (ص ٢٣٦)

(١) عبد الواحد الامدي التميمي. (١٠٠٠) حكمة للأمام علي \$ مؤسسة الاعلمي للمطبوعات. لبنان

٣٩. سوء الخلق يعدى. وذاك أنه يدعو صاحبك إلى أن يقابلك بمثله.
٤٠. إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج أو تبيع دابة عمل في درهم.
- فإنما أمرنا ان تأخذ منهم العفو) وصية لصاحب الخراج.

## المبحث الثالث

دور قيم النزاهة والشفافية في مكافحة الفساد المستمدة من تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في بناء مؤسسات الدولة في المجتمع الإسلامي وطرق مكافحته وتوظيفه في بناء مؤسسات الدولة مستقبلاً؛ وشمل محورين هما:

### المحور الأول:

مؤسسات الدولة في المجتمع الإسلامي التي تعاني من الفساد - أشخاصاً أو مؤسسات في مجالات الحياة المختلفة

### المقدمة:

من المعلوم أنّ مؤسسات الدولة في المجتمع الإسلامي التي تعاني من الفساد أشخاصاً أو مؤسسات في مجالات الحياة تتطلب جهوداً استثنائية في تعزيز قيم النزاهة والشفافية لمكافحة الفساد؛ لذا قام الباحث بعرض الفساد في مؤسسات الدولة الحالية (الحكومية والأهلية) ومكافحة الفساد المستمدة من تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولما كان تراث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يمثل (أقوالاً + أفعالاً وسلوكاً + ووصايا + وخطباً موجهة إلى فئات المجتمع الإسلامي، قام الباحث بعرضها. انظر إلى الجدول رقم (٥) يمثل مؤسسات الدولة في المجتمع الإسلامي التي تعاني من الفساد، وفي مجالات الحياة العامة المختلفة.

مؤسسات الدولة في المجتمع الإسلامي التي تعاني من الفساد - والمفسدين - في مجال الحياة العامة

**١- المؤسسة السياسية:** يظهر الفساد في الزعماء والقيادات العليا في الدولة مثل التسلط على القوانين والتشريع والتنفيذ والقضاء) وإشغال المناصب الوظيفية حيث تنحسر الولاء للحاكم أو الحزب أو السلطة، وبذلك يحاول الحزب أو السلطة إبقاء هذه الوظائف بأيدي من يواليها. وبذلك تعدّ هذه الممارسة مخالفة للتعليمات والقواعد والأحكام التي تنظم النسق السياسي في (المؤسسات السياسية) في الدولة.

**٢- المؤسسة الاقتصادية:-** يظهر الفساد في الجريمة المنظمة مثل المخدرات، غسيل العملة، التهرب من الضريبة، وصفات المساعدات الإنسانية المساعدات، ويشمل (الرشاوى، والاختلاس، والتهريب الضريبي، وتخصيص الأراضي، والمحابة، والمحسوبية في التعيينات الوظيفية)؛ وبذلك تعدّ هذه الممارسة مخالفة للتعليمات الخاصة بأجهزة الرقابة المالية كالجهاز المركزي للرقابة المالية والخاص بفحص الحسابات والأموال الحكومية ومراقبتها.

**٣- المؤسسة الاجتماعية والثقافية:-** يظهر الفساد في عمل الأطفال والتسول وشبكات الرق، ومافيا الأطفال، وهي الأعمال اللاأخلاقية اجتماعياً عند كبار المسؤولين، فهو يشكل انحرافاً أخلاقياً متعلقة بسلوك الموظف وتصرفاته في أعمال عامة مخلّة بالحياء وفي أماكن العمل، أو يجمع بين الوظيفة وأعمال خارجية دون إذن، فيستغل السلطة لتحقيق مآرب شخصية على حساب المصلحة العامة، أو أن يمارس المحسوبية بشكلها الاجتماعي الذي يسمى (المحابة الشخصية) دون النظر إلى اعتبارات الكفاءة.

**٤- المؤسسة القانونية:** يظهر الفساد في مؤسسات الدولة الحكومية والأهلية بهيأة التلاعب في اللوائح والقوانين لصالح مصلحة شخصية ومنافع أو التحايل على القانون. فالتلاعب بالأرقام والمبالغ والتستر على الجرائم والإرهاب واغتصاب حقّ المواطن أمام

القانون والقضاء أو تعرض القوانين إلى تغير مستمر ومبالغ فيه وبذلك تعدّ هذه الممارسة مخالفة تؤدي إلى خلق أنظمة مزدوجة.

**٥- المؤسسة الإدارية:-** يظهر الفساد في مؤسسات الدولة الحكومية والأهلية في اعتلاء المناصب الإدارية وممارسة (الرشوة، المحاباة، المحسوبية، الاحتيال). فالفساد الإداري هو نشاط يتم داخل الجهاز الإداري القومي والذي يؤدي بالموظف الحكومي إلى أن يتصرف لصالح أهداف شخصية سواء متجددة أو مستمرة الأسلوب فردياً أو جماعياً منظماً، وهو تحقيق الربح، والمحصلة الأنانية والفائدة لشخص أو فئة من الناس بغض النظر عن النتائج التي تترتب على الآخرين وصالحهم. وبذلك، يصدر عن الموظف في الخدمة العامة أثناء تأديته لمهام وظيفته إخلال في منظومة التشريعات والقوانين والضوابط؛ وبذلك يغتنم الفرصة للاستفادة من هذه الفرص على صنع القرار.

**٦- المؤسسة التربوية:-** يظهر الفساد في العملية التربوية وعناصرها ((المعلم + الطالب + الإدارة) التدريس الخصوصي، وضع الشخص غير المناسب في المناصب، أو إساءة الطالب لجهود المعلم مثل الغش في الامتحانات أو التزوير أو تمادي الإدارة في التزوير أو الاختلاس في الأجهزة أو الرواتب، أو الإخلال في أداء الواجب الملقى على عاتقه... الخ وبذلك تعدّ هذه الممارسة مخالفة، وتولد خللاً في منظومة العملية التربوية بسبب تمادي بعض عناصرها.

**٧- المؤسسة الدينية:-** ويظهر في التلاعب بالألفاظ الدينية والنصوص الدينية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ أي يستعمل الدين غطاء لتحقيق غاياته الشخصية أو الفئوية والقومية. وبذلك، تعدّ هذه الممارسة مخالفة، وتولد التناحر والصراع الطائفي والعنصري أو الديني كما فعل الإرهاب الأعمى في الدول الإسلامية وغير الإسلامية ما ولد مفهوم الفكر المتطرف والإرهاب.

**٨. المؤسسة الوظيفية:-** يظهر الفساد في مؤسسات الدولة الحكومية والأهلية باعتماد الرشوة، والاحتيال في تأدية المهام والوظائف دون النظر إلى الوظيفة باعتبارها خدمة عامة يخدم بها أفراد المجتمع. وإنّ الموظف هو مسؤول أمام الله والشعب ومعتد على مبدأ الكفاءة والنزاهة في أداء الوظيفة العامة ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

أما الوصايا والخطب الموجهة إلى تلك المؤسسات من قبل الإمام علي (عليه السلام) قام الباحث باستنباط وعرض بعض الوصايا الموجهة إلى عامل مصر مالك الأشتر النخعي (رضي الله عنه) يوصيه في إصلاح تلك المؤسسات المعهود إليه:

قال الإمام علي (عليه السلام): - (وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم، لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله).

قال الإمام علي (عليه السلام) (فخذ ما أعطاك من الذهب والفضة. وإن كان له ما يشبه أو إبل فلا تدخلها إلّا بإذنه. فإنّ أكثرها له. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به).

وقال الإمام علي (عليه السلام) وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّه ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلّا قليلاً. فإن شكوا ثقلأ أو علة أو انقطاع مشرب، أو بالّة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش..... وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها<sup>(١)</sup>.

(١) مصدر سابق - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة الكوفة. مركز دراسات الكوفة، عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مالك الأشتر ٢٠١١ (ص ٢٦)

قال الإمام علي (عليه السلام): -يوصي أهل التجارة والصناعة خيراً في أموالهم في الضرائب ويقول (عليه السلام):

(ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ (المتروك به بين البلدان)، وَالمُتَرَفِّقِ (المكتسب) بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ (ما ينتفع به من الأدوات وأتية)، وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمُبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ (الأماكن البعيدة)، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَنِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهِ (لا يمكن وصول الناس إليها)، وَلَا يَجْتَزَوْنَهَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُمْ سَلَمٌ (أي إنَّ التجار والصناع مسالمون) لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ (دهاؤه)، وَصُلُحٌ لَا تُخْشَى عَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدُ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ).

قال الإمام علي (عليه السلام): - يوصي - برعاية ذوي الدخل المحدود من فئة الشعب ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ - مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى (شديدو الفقر) وَالزَّيْمَى (جمع زمين وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاي أي العاهة)، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا (السائل) وَمُعْتَرًا (المتعرض للعطاء بلا سؤال)، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ. طلب منك حفظه) مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلَاتِ (ثمرات) صَوَافِي (جمع صافية وهي أرض الغنيمة) الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلُّ قَدٍ اسْتُرْعِيَتْ حَقُّهُ، فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ (طغيان بالنعمة)، فَإِنَّكَ لَا تُعْذِرُ بِتَضْيِيعِ النَّفَاقَةِ (البسيط الحقيق) إِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ.

قال الإمام علي (عليه السلام): - يوصي برعاية الأيتام والمسنين وتعهد أهل اليتيم وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السَّنِ (المتقدمون فيه) مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصِبُ لِمَسْأَلَةِ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثَقُوا بِصَدَقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ.



**المحور الثاني:** توظيف تراث الإمام علي (عليه السلام) من أقوال + أفعال + وخطب + ووصايا موجهة إلى الفاسدين والمؤسسات التي تعاني منها الفساد وطرق مكافحتها مستقبلاً

**المقدمة:** لـ ما كان تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يمثل (أقوال + أفعال + وخطباً ووصايا موجهة إلى الفاسدين أو المؤسسات التي تعاني من الفساد وتوضيح طرق مكافحتها قام الباحث بعرضها بالشكل الآتي:

(أقوال وأفعال وسلوك الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) للأشخاص الفاسدين أو المؤسسات في المجتمع الإسلامي لمكافحة الفساد بكل أشكاله وهي:

• (إِيَّاكَ أَنْ تَهْمَلَ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَلَيْسَ لَكَ اخٌ مِنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ (ص ٨١)

• (إِيَّاكَ أَنْ تَبِيعَ حَظَّكَ مِنْ رَبِّكَ وَزَلْفَتَكَ بِحَقِيرٍ مِنْ طَعَامِ الدُّنْيَا (ص ٨٧)

• (احذروا سوء الأعمال وغرور الآمال ونفاذ الأمل وهجوم الأجل (ص ٨٣)

• (إِيَّاكَ وَفَعَلَ الْقَبِيحَ فَإِنَّهُ يَقْبَحُ ذِكْرَكَ وَيَكْثُرُ وَزْرُكَ (ص ٨٤)

• رحم الله امرأً قمع نوازع نفسه إلى الهوى فصانها وقادها إلى طاعه الله ببنائها (ص ٢١٤)

• (سبب فساد اليقين الطمع (٢٢٧)

• (يا بيضاء ويا صفراء غري غيري)

• (ظالم الناس يوم القيامة منكوب بظلمه معذب محروب. (ص ٢٥٣)

• (المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحد على أحد. وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارهاً

(جورج جرداق - روائع نهج البلاغة ص ١٦٣)

## المبحث الرابع: ضم (الاستنتاجات - التوصيات والمقترحات)

### أولاً: الاستنتاجات:

عندما أصبح الإمام علي عليه السلام خليفة المسلمين كان أعدل الناس في الحكم، ولم ينظر إلى الخلافة إلا لخدمة الناس والعمل بكتاب الله وسنة نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في إقامة العدل والمساواة في الحقوق والواجبات. ولم يفرض سلطته للتحكم بهم أو يتأمر عليهم. فقد كان يدافع عن الحق والمظلوم، ويدحض الباطل ويتنصر للمظلوم؛ وبذلك أَمَّنَ كلَّ احتياجات الناس ليعيشوا حياة كريمة بعيداً عن الجشع والطمع. وقال الإمام علي عليه السلام (إنَّ الله جعلني إماماً لخلقه، ففرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغى الغني بغناه).

إنَّ الإمام علي عليه السلام ساهم بنشر مفاهيم الاعتدال في الاقتصاد بالذات وهي (توزيع الثروة، الإنفاق، الخراج.. وحلَّ محلها مفاهيم التكامل الاقتصادي، كما شجع العمل في المجالات الزراعة والصناعة والتجارة لأجل إصلاح حال الأمة من الفقر والفاقة وسوء توزيع الثروة، فكان جمع الأموال عن طريق الخراج والجزية، إضافة إلى الزكاة والخمس والغنائم، وكذلك في المجال الاجتماعي والثقافي - ومجالات الحياة الأخرى؛ وبذلك حارب الفساد والمفسدين في الدولة من خلال سلوكه وأفعاله وخطبه ووصاياه ورسائله الموجهة، وفيها تحذير ووعظ وإرشاد.

أكد الإمام علي عليه السلام من وراء تعزيز قيم النزاهة والشفافية، وهو بناء الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي، ضرورة تمسك المسلم والمسلمين بهذه المبادئ، ويجب على المسلم أن

يكون مسلكه هو الاعتدال، أي لا إفراط ولا تفريط، فالأفراط في العبادات والأعمال في بعض الأحيان يؤدي إلى الغلو والتطرف، فالاعتدال في العبادات والأعمال يجب أن تكون وفق مقياس سليم وهو (القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة) وهناك عدة آيات تدلّ على ذلك، وكذلك في سيرة الرسول.

إنّ الإمام علي عليه السلام وهو وصي رسول الله وخاتم الأوصياء، وصي الرسول محمد صلى الله عليه وآله في العدل وإقامته في الرعية وإبعاد الظلم والجور. فقد كان الإمام عليه السلام أعدل الناس بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله. فقد كان الناس أمة سواسية لا ميزة لقوي على ضعيف أو لغني على فقير، ويعامل القريب منه بنفس معاملة البعيد، ولا فرق بين عربي أو أعجمي إلّا بالتقوى. وبذلك ينظر الإمام عليه السلام على أنّه دواء شافٍ لأخطر الآفاق الاجتماعية التي تؤدي بالمجتمع إلى التفكك والانحلال، ثم سيادة الظلم والجور. وبذلك عندما آلت إليه عليه السلام الخلافة أقام العدل، وهو ميزان الحكم بين الناس. وكان دائرة العدل لديه واسعة تشمل الناس جميعاً بغض النظر عن المعتقد، أو اللون، أو الجنس. لذلك أصبح عدله يشمل جوانب الحياة، وهو القائل: (إنّ الله فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعفَة الناس كيلا يتبّع بالفقير فقره).

إنّ الدين الإسلامي دين المستقبل؛ أنقذ الإنسانية من التفرقة العنصرية، وخلص العالم من مستوى الظلم والانحراف الخلقي والديني وحلّ المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، فقد حارب الإلحاد والفساد والانحراف والفكر المتطرف أو الغلو، والتفرقة بين الأبيض والأسود مما ساهم بخلق المواطنة الصالحة التي تقف بالصدّ من الرق والاستعباد والتنازع والتفرقة والعنصرية، والطائفية وعدم التمييز في اللون أو اللغة أو الدين لأن هذه الميول والنزعات تؤدي إلى إثارة الحقد والخلافات، وتحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية والتعاون والترابط التي ينادي بها الإسلام المحمدي، استناداً إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [سورة الحجرات: الآية: ١٣]

إن تراث الإمام علي (عليه السلام) يتمثل بأقوال وأفعال وخطب ووصايا موجهة إلى مؤسسات الدولة أشخاصاً - قادة - في ميادين الحياة في مجال: تعزيز قيم النزاهة والشفافية؛ وكذلك في مجال مكافحة الفساد للأشخاص الفاسدين، وفي مجالات الحياة العامة؛ فهي نابعة من استنباط الأحكام من القرآن الكريم وسيرة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله).

إن قيم النزاهة والشفافية في تراث الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهي نابعة من مصدرين هما القرآن الكريم وسيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في بناء مؤسسات الدولة؛ وكذلك إن قيم الفساد استمدت من القرآن الكريم الذي وصف أصحاب الفساد بصفات مذمومة، وكذلك حذر القرآن الكريم الفاسدين في المجتمعات وسلط عليهم العذاب الأليم. وكذلك حذر الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام) من الفساد في المجتمع الإسلامي وكذلك حذر الفاسدين بالعذاب والعقاب في الدنيا والآخرة (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.. في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة ال عمران: الآيات: ١٠٦-١٠٨].

### التوصيات والمقترحات:

إن بناء مؤسسات الدولة وترسيخ قيم النزاهة والشفافية فيها وفي المجتمع الإسلامي يستدعي العمل على تأسيس ثقافة عامة تجعل نشر هذه القيم أمراً ضرورياً وواجباً أخلاقياً. وهذا ليس بالأمر الهين لما يتطلبه من إصلاح لأدوار مؤسسات مختلفة ومحاسبة

الفساد في كل مجالات الحياة باستخدام ضبط القانون وقواعده الدستورية وتطبيقه على كل فئات المجتمع دون استثناء.

تفعيل قانون النزاهة العامة رقم (٥٥) لسنة ٢٠٠٣ وتطبيق بنوده في كل مؤسسات الدول الإسلامية لكي يتم تجذير سلوك قانوني وأخلاقي يلتزم به الموظف، وكذلك المواطن وأجهزة الدولة.

تضمين المناهج الدراسية ولا سيما المراحل الدراسية بدءاً من المرحلة المتوسطة حتى المراحل الجامعية والتشديد على إعداد أدلة وكتب وكتابة أطاريح في مجال النزاهة والشفافية وتعزيزها في مؤسسات الدولة.

إقامة مؤتمرات وندوات في كيفية تفعيل قيم النزاهة والشفافية بمشاركة اساتذة لهم دور كبير في مجال النزاهة والشفافية ومنحهم جوائز أو مكافئات على جهودهم العلمية والتربوية.

تفعيل دور الرقابة الشعبية، ولا سيما الإعلام وقنوات الإعلام ومنظمات المجتمع المدني وفي الحوزات الدينية للمساهمة في الحد من ظاهرة الفساد في المجتمع الإسلامي من خلال منابر الإعلام والمساجد والحسينيات وضرب الأمثال على المصلحين وفي مقدمتهم الإمام الحسين (عليه السلام) وأخوه الحسن المجتبي (عليه السلام) في سبيل الدفاع عن الحق والقيم الفاضلة في المجتمع ورفع شعار (ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) ثورة الإصلاح وثورة ضد الفاسدين وشعارات أخرى (نحن فعلاً حسينيون) في الأخلاق والسلوك.

## المصادر

١. صباح حسن عبد الزبيدي. البحث الموسوم. صباح حسن عبد، مقترح تصميم مساق تعليمي في مضمون النزاهة ودليل تدريسه لطلبة المرحلة الابتدائية في العراق- بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي لهيئة النزاهة، بغداد للفترة من ٣٠-٣٢ / ١٢ / ٢٠٠٨
٢. إبراهيم مذكور. وآخرون. معجم العلوم الاجتماعية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٥.
٣. عصام توفيق قمر. الأنشطة المدرسية والوعي البيئي. الأطر النظرية. الأدوار الوظيفية. التجارب الدولية. دار السحاب للنشر والتوزيع. القاهرة ٢٠٠٥.
٤. سيد أحمد الطهطاوي، القيم التربوية في قصص القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٦.
٥. محمد الشناوي وآخرون، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار الصفاء، الأردن ٢٠٠١.
٦. محمد عبود سالم، ظاهرة الفساد الإداري والمالي، دراسة في إشكالية الإصلاح الإداري والتنمية، دار الدكتور للعلوم ٢٠٠٨.
٧. حسين درويش العادلي، المواطنة، دار المرتضى، بغداد ٢٠٠٦.
٨. أحمد زكي البدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٧.
٩. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، ندوة العرب والعولمة، بيروت ١٩٩٧.
١٠. فليح سوادى، عهد الإمام علي ابن ابي طالي (عليه السلام) إلى واليه على مصر، مالك الاشراف، العتبة العلوية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية ط / ١، ٢٠١٠.

١١. الجمهورية الايرانية الإسلامية: ٢٠٠٢ كتيب صغير.
١٢. نعيمة شومان، العولمة في التكنولوجيا الحديثة، مجلة الفكر الدولي العدد ١، ١٩٩٧
١٣. مصدر سابق. - صباح حسن عبد الزبيدي: ٢٠١٧ ص ٢٨-٧٢.
١٤. تقرير البنك الدولي: ١٩٩٧.
١٥. عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية لتوظيف الإعلام التربوي في نشر ثقافته النزاهة، مجلة هيئة النزاهة، العدد (٣) السنة (٣) ٢٠١١.
١٦. صباح حسن عبد الزبيدي البحث الموسوم. تعزيز مفهوم المواطنة في سياسة البحث العلمي الجامعي في العراق الجديد لمواجهة الفساد بكل أشكاله، دراسة مستقبلية، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي الثامن لهيئة النزاهة ٢٠١٥ بغداد.
١٧. جمهورية العراق، المجلس المشترك لمكافحة الفساد، الاستراتيجية الوطنية لمكافحة الفساد ٢٠١٠-٢٠١٤.
١٨. هيئة النزاهة، دراسات في الأطر التشريعية والمؤسسية للاستراتيجية الوطنية لمكافحة الفساد لسنوات ٢٠١٠-٢٠١٤ بغداد ٢٠١٠.
١٩. باقر شريف. مناهج حكومة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) دار جواد الأئمة (عليهم السلام) لبنان ٢٠١٧ (ص ٩٧).
٢٠. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة الكوفة. مركز دراسات الكوفة، عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الاشر ٢٠١١.
٢١. صباح حسن عبد الزبيدي. البحث الموسوم: - (الهوية الإسلامية في تراث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأثرها في بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي، ووضع

استراتيجية للهوية الإسلامية مقترحة وتوظيفها في المناهج التربوية - مستقبلاً - دراسة نظرية بحث مقدم. للمشاركة في المؤتمر الدولي الأول - الذي يقام برعاية العتبة العباسية المقدسة. وبالتعاون مع جامعة الكفيل وجمعية العميد العلمية والفكرية تحت شعار (الإمامة نظام الأمة - الإمام علي عليه السلام ميزان الحق يوم ٦ / تموز / ٢٠٢٣).

٢٢. السيد إبراهيم الموسوي. يوميات من حياة علي بن أبي طالب عليه السلام لبنان ٢٠١٥.

٢٣. أحمد جاسم آل مسلم الخيال. المثال الالهي علي بن أبي طالب عليه السلام مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر ط ١ بيروت ٢٠١٤.

٢٤. صباح حسن عبد الزبيدي البحث الموسوم القيم الأخلاقية الفاضلة للقائد الرسالي في فكر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لملك الأشتر عليه السلام وتوظيفها في مؤسسات الدولة مستقبلاً - دراسة تحليلية.. بحث مقدم: للمشاركة في المؤتمر العلمي الوطني المشترك الأول بين (مؤسسة علوم نهج البلاغة ومركز دراسات الكوفة) وتحت شعار عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لملك الأشتر عليه السلام رسالة إصلاح ودستور حياة للمدة من ٢٤-٢٥ / ١٢ / ٢٠١٦.

٢٥. صباح حسن عبد الزبيدي. ميزان الحق يوم ٦ / تموز / ٢٠٢٣.

٢٦. جورج جرداق - روائع نهج البلاغة.

٢٧. عبد الواحد الأمدي التميمي. (١٠٠٠) حكمة للإمام علي عليه السلام مؤسسة الاعلمي للمطبوعات. لبنان ٢٠١٧.

٢٨. مصدر سابق - لملك الأشتر ٢٠١١.



### المصادر والمراجع الأخرى:

٢٩. (تحف العقول. ص ١٢. بحار الأنوار ج ٧٧. ص ٢٧١. ح ١).

٣٠. (بحار الأنوار ج ٧٦. ص ١٥٥ ح ٣٦. ص ٢٢٩. ح ١٠).

٣١. (الفصول المهمة ص ٧٩).

٣٢. (نهج البلاغة / ٧٦).

٣٣. جورج جرداق - روائع نهج البلاغة ص ١٦٣.

### المصادر الأجنبية:

34. <https://www.google.com>

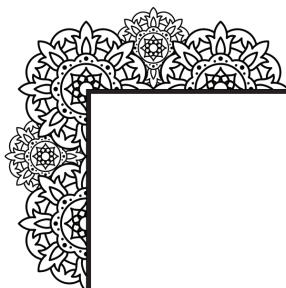
٣٥. المؤسسة:- هي عبارة عن مجموعة من الأشخاص يعملون معا لتنفيذ عملية تجارية أو تحقيق هدف. تمثل التدرجات الهرمية المؤسسية العلاقات بين المؤسسات التي تتألف

36. <https://www.google.com/search>

٣٧. المؤسسات الحكومية:- هي تلك القطاعات التي تكون مملوكة للدولة إما أن تكون استثمارية ربحية أو استثمارية خيرية أو غير ذلك، وهي التي تخدم المجتمع ولا يملكها أفراد وتشرف عليها الدولة وتكفل برواتب موظفيها.

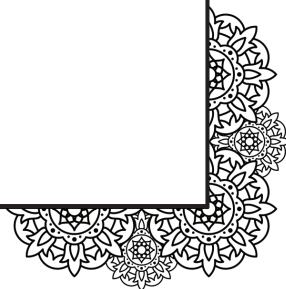
38. <https://www.google.com/search>

٣٩. دولة المؤسسات هي دولة تقوم على نظام مؤسساتي قوي وفعال يضمن الحفاظ على استقرار الدولة و التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وتعني أن المؤسسات (كالحكومة والقضاء).



**التكافل الاجتماعي**  
**في فكر وممارسات الإمام عليّ**  
**والسيدة الزهراء عليها السلام**

الباحث  
صفاء الصوص



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

بسم الله الذي باسمه تخلد الأمور وتعظم، والصلاة والسلام على النبي العربي المرسل بالنور، وعلى آله الكرام، الدرر العظام، الذين اصطفاهم على الأنام، وجعل التمسك بهم صنو التمسك بكتابه حبلاً ممدوداً إلى السماء، فاز من تمسك به، وظفر من استنار بهديه.

أما بعد:

يعدّ التكافل الاجتماعي، وتحمل المسؤولية في القضايا المالية المرتبطة بحياة أفراد المجتمع ومعيشتهم، من المبادئ التي دعا إليها الإسلام، وأكدته النصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [سورة الذاريات: الآية: ١٩]؛ هذا الحق الذي بينته روايات المعصومين (عليه السلام) بأنه واجب مالي غير الزكاة، يتسم بالرونة، ويشخصه صاحب المال نفسه.

وقد عني أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بهذا المبدأ، وعدّوه مسؤولية خطيرة، يتحملها القادرون من أبناء الجماعة لإخوانهم الآخرين.

وعند قراءة السيرة العطرة للنورين أمير المؤمنين والسيدة الزهراء (عليهما السلام)، نجد اهتمامهما بموضوع التكافل الاجتماعي في بناء الجماعة الصالحة، لكونه أحد الأسس في تحقيق الوضع الاقتصادي الأمثل.

وقد برزت من هذا الموضوع صور خالدة، لم توجد قط إلا في ممارساتهما (عليهما السلام)، ولن يجد الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي، وبيان صورته أعظم من هذه الصور في تاريخ الإسلام وحاضره.

وقد جهد الباحثون في تقصي هذه الممارسات المنطلقة من مبادئ نموذجية، تتوخى صناعة المجتمع النموذجي، وجاء هذا البحث متمماً لها، بعنوان: «التكافل الاجتماعي في فكر وممارسات الإمام علي والسيدة الزهراء (عليهما السلام)»

لِيُخضع مفهوم التكافل الاجتماعي للدراسة والتحليل، من خلال تقصي المبادئ الفكرية، والممارسة العملية، لرمزين من رموز الدين: الإمام علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة الزهراء (عليهما السلام). فمن معينهما الفكري ينهل الظامئ إلى المجتمع الأمثل، ومن حياتهما الأسرية والاجتماعية يتزود المتأسي في مسيره إلى الله بأعظم الصور العملية، التي تعكس المبادئ النظرية التي انطلقت منها وتجسدها.

#### أولاً: أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث من ارتباط موضوعه بالسيرة العطرة للنورين علي وفاطمة (عليهما السلام)، بصفتها نموذجاً عملياً وقيماً يمكن الاقتداء به لتعزيز التكافل الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة، بما يسهم في تحقيق العدالة الاجتماعية، والرفاهية للجميع.

#### ثانياً: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة فكر الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء (عليهما السلام) وممارساتهما في مجال التكافل الاجتماعي، من خلال تحليل الخطب، والأعمال الاجتماعية، لفهم كيف جسدا هذه القيم في حياتهما اليومية، وكيف أثرت ممارساتهما على المجتمع الإسلامي، وكيف يستفيد منها المجتمع الراهن.

#### ثالثاً: منهج البحث وإجراءاته:

يتبع البحث المنهج الاستقرائي، والوصفي التحليلي؛ الذي يقوم على تتبع الآيات القرآنية، وأحاديث المعصومين حول موضوع التكافل، وتقصي أفكار كل من النورين (عليهما السلام)

حول هذا الموضوع، من خلال ما نقل من كلام الأمير في نهج البلاغة، وخطب السيدة الزهراء، وما جُمع من قصص عن حياتهما، تحكي ممارستهما العملية للتكافل على صعيد المجتمع، وتحليلها للوصول إلى أهداف البحث.

#### أما عن إجراءات البحث:

ما يختص بالأحاديث الشريفة، ونهج البلاغة، والخطب: فالالتزام بتخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث؛ بذكر الباب، إضافة إلى رقم الجزء والصفحة. والالتزام ببيان مورد الاستدلال وتوضيحه من النهج والخطب وفق أهم الشروح، وأقربها إلى موضوع البحث.

#### رابعاً: تقسيمات البحث:

يبدأ البحث بمقدمة تتضمن: أهمية البحث، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، وتقسيماته الأساسية.

وينتهي البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج.

ويقسم البحث إلى:

المبحث الأول: مفهوم التكافل الاجتماعي في الإسلام

أولاً: تعريف التكافل الاجتماعي

ثانياً: أهمية التكافل الاجتماعي

ثالثاً: أشكال التكافل الاجتماعي وصوره

المبحث الثاني: التكافل الاجتماعي في فكر الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وممارساته.

أولاً: الإمام عليّ ونظرياته الاجتماعية

ثانياً: سياسة الإمام عليّ العملية

المبحث الثالث: التكافل الاجتماعي في ممارسات السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام

أولاً: المنطلقات الفكرية للتكافل الاجتماعي عند الصديقة عليها السلام

ثانياً: نهج السيدة الزهراء عليّ الصعيد العملي

المبحث الرابع: الاستفادة من قيم وممارسات الإمام عليّ والسيدة الزهراء عليهما السلام في

التكافل الاجتماعي

أولاً: أثر المنهج العملي للإمام عليّ والسيدة الزهراء عليهما السلام على المجتمع الإسلامي

ثانياً: تجليات التكافل الاجتماعي في العصر الراهن

## المبحث الأول مفهوم التكافل الاجتماعي في الإسلام

ظهر مفهوم التكافل الاجتماعي في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

قال الله تعالى في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية: ١٠]

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية: ٧١]

### أولاً: تعريف التكافل الاجتماعي:

قال ابن فارس: (كفل) الكاف، والفاء، واللام، أصل صحيح يدلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشيء. والكافل: الذي يكفل إنساناً يعُوله. قال الله جلَّ جلاله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [سورة آل عمران: الآية: ٣٧]<sup>(١)</sup>

**والتكافل:** مصدر تكافَل، تبادل الإعالة، والنفقة، والمعونة، والرعاية. والتكافل على وزن تفاعل الذي يدلُّ على المشاركة بين أمرين فأكثر، فيكون كلٌّ منهما فاعلاً في اللفظ، ومفعولاً في المعنى<sup>(٢)</sup>. ومنه تكافل المسلمين: رعاية بعضهم بعضاً بالنصح، والنفقة، وغير ذلك. فالتكافل مفهوم قائم على المساعدة المتبادلة والتضامن.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، (٥/ ١٨٧).

(٢) انظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأسترآبادي، (١/ ١٠١).

**والتكافل الاجتماعي:** هو المشاركة بين أفراد المجتمع في جلب المصالح العامة والخاصة، ودفع المفسد والأضرار المادية، والمعنوية، بحيث يشعر كل فرد فيه بواجبه تجاه الآخرين، ومن ليس باستطاعتهم تحقيق حاجاتهم الخاصة، وذلك بإيصال المنافع إليهم، ودفع الأضرار عنهم. الأمر الذي يزيد في الانتماء إلى المجموعة البشرية، وينمّي أواصر الارتباط بالمجتمع، مما يعود على الجماعة البشرية بالنفع والخير.

### ثانياً: أهمية التكافل الاجتماعي:

#### من الناحية المعنوية:

يعتبر التكافل الاجتماعي من أهمّ الموارد التي تقي المجتمعات من المفسد الاجتماعية، والانحطاط الخلقي، والاجتماعي، المتولّد من الفقر، والتفاوت الطبقي. وتحمي الأفراد من مساوئ الأخلاق، ومن حبّ الدنيا، وتزرع مكانها الحب والسخاء، ورعاية حقوق الآخرين في نفوسهم؛ بل إنّ مدلولات البرّ، والإحسان، والصدقة تتضاءل أمام المدلول الشامل للتكافل، الذي غني به القرآن ليكون نظاماً لتربية روح الفرد، وضميره، وشخصيته، وسلوكه الاجتماعي من جهة، وليكون نظاماً لتكوين الأسرة، ونظاماً للعلاقات الاجتماعية من جهة أخرى، بما فيها العلاقة التي تربط الفرد بالدولة، وتشكّل نظاماً للمعاملات المالية، والعلاقات الاقتصادية، التي تسود المجتمع الإسلامي.

فعملية البناء الاجتماعي تقوم على ارتباط الأفراد، وقد تحدثت عنها كتب السيرة والأخلاق، ورسمت لها أسساً تحكم العلاقة الاجتماعية بين المسلمين. وما الأحكام التفصيلية التي أسستها الشريعة إلّا تجسيد لحقيقة التكافل الاجتماعي، وتعميق لأواصر الإخاء والمحبة في حياة الأمة، والتي تعتبر أهمّ ركائز البناء الاجتماعي القويم، ويجسده قول الرسول ﷺ:



«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرهُ بالحمى والسهر»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»<sup>(٢)</sup>.

**من الناحية المادية:** يعد التكافل الاجتماعي أحد الركائز في تطبيق المنهج الاقتصادي الإسلامي، القائم على رعاية شرع الله في تحقيق المصالح، ودرء المفاسد.

وينطلق اهتمام الإسلام بموضوع التكافل من فهم صحيح لدور المال في حياة الأفراد، فقد وُجد ليُدار في المجتمع، وتعطيل المال غير مشروع؛ لأنّ الأموال جميعها بكلّ أشكالها وأنواعها ملك لله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [سورة المائدة: الآية: ١٧]، وإذا كان المال كلّهُ لله فإنّ يد البشر عليه هي يد الاستخلاف، أي إنّ البشر خلفاء عن الله في استعمال هذا المال والتصرّف فيه، كما قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية: ٧]. وقال سبحانه: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [سورة النور: الآية: ٣٣].

ومن ناحية أخرى فإنّ أفراد النوع البشري يتفاوتون في الصفات الجسدية، والنفسية، والفكرية، وبناء على هذا التفاوت في المواهب، والإمكانات، ومقدار التحمّل، والبدل، فسيكون هناك تفاوت في مقدار الحصول على المال، وسيكون هناك أفراد لا يجدون كفايتهم من المال لحاجياتهم الضرورية؛ لذا جاءت التشريعات الإسلامية لتحقيق التكافل، والتعاون، وسدّ النقص لدى أهل الاحتياج.

ويعدّ التكافل الاجتماعي من أهمّ مقاصد الشريعة الإسلامية؛ إذ يدخل في دائرة إعادة توزيع المال، ليشمل أكبر عدد من الناس، وبغرض إتاحة الفرص للاشتراك في حياة تضمن

(١) ميزان الحكمة، محمدي الريشهري، (١٧٦/٩).

(٢) الكافي، الكليني، باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم، (١٦٤/٢).

للإنسان كرامته، واطمئنانه إلى حاضره ومستقبله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ الأموال الزائدة عن الحاجة معطلة عن أداء وظيفتها، وتساهم في تضيق فرص التنمية على المجتمعات، وتحقيق النمو الاقتصادي مسؤولية أفراد المجتمع كافة؛ لذلك تتّسع قاعدة التكافل الاجتماعي لتشمل أفراد المجتمع كافة يساعد بعضهم بعضاً، ويعود نتاج ذلك بالفائدة على مختلف شرائح المجتمع ونواحيه.

«المجتمع الذي يعنى بالحاجات العامة؛ تتحرّك فيه الطاقات الفكرية، والجسمية للطبقة الكادحة، التي تؤلّف أكثرية المجتمع، وتبدأ العمل؛ وعلى أثر ذلك يظهر إلى حيّز الوجود ذلك النظام الاقتصادي، القائم على التكافل، وتبادل المنافع العامة»<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: أشكال التكافل الاجتماعي وصوره:

أ- توسّع الإسلام في صور التكافل حتى أصبحت الكلمة الطيبة، والمعاملة القائمة على إرادة الخير والنفع للآخرين، والأمر بالمعروف من التكافل بين الأفراد؛ بل ويقدم على غيره. قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية: ٢٦٣]

فالكلمة الطيبة للسائلين والمحتاجين، والصفح عن أذاهم أفضل من بعض أنواع الصدقة؛ لما في الأمر بالمعروف من نماء وخير للمجتمع. ومن يأمر بالمعروف، ويسعى في إصلاح ذات البين فإنه يزكي قدرته، ومنزلته المؤثرة في الناس. كما نقل عن النبي ﷺ قوله لأبي أيوب: «ألا أدلك على صدقة يحبّها الله ورسوله؛ تصلح بين الناس إذا تفسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا»<sup>(٢)</sup>

(١) تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، (٢/ ٣٤٢).

(٢) تفسير القرطبي، (٣/ ١٩٥٥).

ب- أما التكافل بالمال فقد يقع على وجوه كثيرة منها: إعطاؤه على وجه الصدقة، ومنها: إعطاؤه على وجه الهدية، ومن ذلك قضاء الدين، والزكاة، والقرض، وغير ذلك. المهم أن يبذل كل فرد ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، لأن المعيار في القبول هو الإحساس بالمسؤولية، والإخلاص في العمل. وقد سئل النبي ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ فقال ﷺ: «جهد المقل»<sup>(١)</sup>.

- وأما الصدقات: فهي العطية للفقراء، وبها تنزكي النفس، وتنظف من الشح والبخل، والأنانية، ومن رذائل الأخلاق، وحب الدنيا، وتجتمع مع غيرها في صعيد الأخوة، ورعاية حقوق الآخرين، وقبل ذلك تجنب المجتمع مفاصد التفاوت الطبقي، والانحطاط الخلقي المتولد عن الفقر، وهذا ما يعنيه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [سورة البقرة: الآية: ٢٧٦]، حيث تثمر هذه الأموال محبة الناس وعواطفهم، إضافة إلى نموها بالتعاون نمواً طبيعياً، يعود بالنفع على الجميع.

- وأما الزكاة: فهي الصدقة الواجبة على المال، المعلق بنصاب مخصوص، وقد بين القرآن حكمها، وفصلت السنة شروطها، وفيما تجب، ولن تصرف.

واللافت في كتاب الله الجمع بين الصلاة والزكاة في أغلب مواقع ذكر الصلاة مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾<sup>(٢)</sup>، مما يؤكد أهمية هذه الفريضة في صناعة التكافل الاجتماعي. فإقامة الصلاة رمز ارتباط الإنسان بالله، وإيتاء الزكاة رمز التكافل بين أبناء الأمة، وكلاهما ضروري لتحقيق وجود الأمة.

- وأما عن القرض فيقول الطوسي والقرض: هو قطع جزء من المال بالإعطاء، على أن يردّ بدلاً منه. وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة: الآية: ٢٤٥] فيه التلطف في الاستدعاء إلى أعمال البر، والإنفاق في سبيل الخير<sup>(٣)</sup>.

(١) الكافي، الكليني، باب الإيثار، (٢٧/٤)

(٢) انظر، البقرة: (٤٣)، و(البقرة: ٨٣)، و(البقرة: ١١٠)، و(النساء: ٧٧)، و(النور: ٥٦)، و(المزمل: ٢٠)

(٣) انظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، (٢/ ٢٨٤-٢٨٦)

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ بشكل واضح على مدى الاهتمام الذي يوليه الله لهذه العملية الإنسانية. وفيه تحريض وتشويق لإزالة دوافع الحرص، وحبّ الذات، وطول الأمل، التي تمنع من الإنفاق. ولتكوين مجتمع على أسس ودّية، وتعاون عميق، وروح اجتماعية بناءة.

- وأما عن الهدية: وهي ما يعطيه المرء ويرسله إلى أخيه المسلم، فقيراً كان أم غنياً، تعبيراً عن المودة، وتأكيذاً للصحبة، فهي من الأسباب التي تؤدي بطبعها إلى غرس المحبة في النفوس. والتهادي أمر مندوب إليه من الشرع، فقد اعتبره عبادة مع سلامة القصد والنية. قال عليه السلام: «تهادوا تحابوا، فإنها تذهب بالضغائن»<sup>(١)</sup>.

وقد تدرج الكلمة الطيبة تحت عنوان الهدية يقدمها المرء لإخوانه للنصح والرعاية قال عليه السلام: «ما أهدى المسلم لأخيه أفضل من كلمة حكمة، يزيد الله بها هدى، ويرده بها عن الردى»<sup>(٢)</sup>.

- وأما عن قضاء الدين عن الغارمين، فهو من أسمى وجوه التكافل بين الأفراد. فقد يجوز التبرع بأداء دين الغير حياً كان أو ميتاً، وبه تبرأ ذمته<sup>(٣)</sup>.

ولا يوجب الشرع على المعسر الأداء والقضاء، ويحرم على الدائن إعساره بالمطالبة، بل يجب أن يُنظره إلى اليسار، وهذا قانون صريح وإنساني يحمي حقوق الطبقات الفقيرة في المجتمع. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية: ٢٨٠]. ومن أرقى وجوه التكافل بين الطبقات المختلفة في المجتمع، بأن يضع الدائن الدين على المدين، ويتصدق به عليه.

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، باب استحباب الإهداء إلى المسلم، (١٧/ ٢٨٥).

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: منهاج الصالحين، الشيخ وحيد الخراساني، (٣/ ١٩٩)، (مسألة ٨٠٤).

## المبحث الثاني

### التكافل الاجتماعي في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وممارساته

جسد أمير المؤمنين (عليه السلام) دور القدوة في حركته لتربية الأمة، الموافقين منهم لمنهجهم والمخالفين له على حد سواء، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها»<sup>(١)</sup>.

فقد كان (عليه السلام) في جميع الفضائل أعلاها، وفي المحاسن والمكارم أسماها، وفي الإخلاص لله تعالى، وفي المعرفة، وفي الشجاعة، وفي العدالة، وفي جميع مجالات ومقومات الشخصية، في الفكر والعاطفة والسلوك كان القدوة والأسوة الفاعلة المؤثرة، التي ما زالت ترمي بظلالها على المجتمعات البشرية إلى الزمن الحاضر.

#### أولاً: الإمام علي ونظرياته الاجتماعية:

يعتبر أمير المؤمنين بفكره الفذ استمراراً لفكر النبي، فهو (عليه السلام) نفسه التي دعاها يوم المباهلة؛ مع ما تعنيه هذه الكلمة من الانفتاح على فكر انبي، ووعيه للوجود، والرسالة التي يؤديها؛ خلال تنوع الدور الذي يناط به.

وقد انطلق علي (عليه السلام) في حياته من قاعدة صاغها إجابة لمن سأل: هل رأيت ربك؟ فقد رآه (عليه السلام) في كل شيء في الوجود، وراعى مراده جل وعلا من كل موجود. قال الشيخ مطهري «ولو لم يصطبغ علي (عليه السلام) بصبغة الله، ولم يكن من رجال الله، لكان قد طواه النسيان»<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة، (ص/ ٢٥٠).

(٢) الإمام علي في قوته الجاذبة والدافعة، الشهيد مطهري.

إنَّ انطلاق أمير المؤمنين (عليه السلام) في سياساته الاجتماعية كان من خلال رؤية فكرية، منبثقة من قاعدة إيمانية تلبس بها، لم تبقى حييسة ذاته وفكره، بل تجسّدت مواقف عملية خلال حياته الشريفة. وقد اعتمدت نظرياته الاجتماعية على مركاتر منها:

ارتباط العمل الاجتماعي بالتقرب من الله: تقوم نظريات الإمام علي (عليه السلام) الاجتماعية على ارتباط العمل الاجتماعي الفعال بالإيمان بالله تعالى، والاعتقاد بالعلاقة الطردية بين مدى القرب منه تعالى وبين العطاء المثمر لأفراد المجتمع. كما قال النبي (صلى الله عليه وآله): «الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»<sup>(١)</sup>.

وقد حثَّ علي (عليه السلام) على الإسلام العملي، وتمثّل به، فكان قدوة حركية لمن ساسهم من أهل وأبناء مجتمع. وبيّن لهم دور الاهتمام بالمجتمع وأبنائه للوصول إلى محبة الله وعطائه. ومما ينقل عن الأئمة، ونقلًا عنه، وعن النبي (صلى الله عليه وآله) القول: «من سرّ مسلماً سرّه الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة، ومن فكّ عن مكروب كربة فكّ الله عزّ وجلّ عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»<sup>(٢)</sup>.

ومن الرواية وأمثالها نفهم رؤية أمير المؤمنين للعمل الاجتماعي على اختلاف أنواعه ومجالاته، وما يحيط بذلك من إخلاص في النية، ونبل في العطاء، في سير حثيث للتقرب إلى المولى عزّ وجلّ. فقد انطلق (عليه السلام) في هذا الخطّ في نظريته الاجتماعية من فهم صحيح لما يجب أن تكون عليه العلاقات مع الناس، التي يرتقى بها إلى الله عزّ وجلّ كما يجب، من خلال الهبات، والعطايا، والصدقات، وغيرها من وجوه التكافل، التي تقرب إلى الله تعالى، وتزلف إليه.

(١) المجازات النبوية، الشريف الرضي، (١/ ٢٤٤).

(٢) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور احسائي، (١/ ٣٧٥).

### قوة الحب في إدارة المجتمع:

أدرك عليّ ﷺ، وانطلاقاً من كون الحبّ سمة العلاقة الصحيحة مع الله، أنّ الحب بقوته العظيمة والمؤثرة خير وسيلة في إدارة المجتمعات، ذلك الحبّ المتبادل بين الحاكم والناس، المنبثق من حبّ الله، واتباع إرادته فيما أراد جلّ وعلا. قال أمير المؤمنين ﷺ حين أوصى مالكا الأشر عند توليته مصر: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ هُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ... فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ»<sup>(١)</sup>.

فقد بين أمير المؤمنين ﷺ لما لك أثر المحبة والعطف في الأمة في صناعة المحبة في القلوب. والحبّ في الله يعدّ الوسيلة الفضلى لتهديب النفس، وإصلاح الأخلاق، وكسب السجايا، والفضائل الإنسانية، الأمر الذي ينعكس طاقات إنسانية عظيمة بين أبناء المجتمع، تقوي علاقات التعاون والتكافل بين أفراده لخدمة المجتمع.

### جـ. أثر الحرية والعزة في بناء الإنسان:

كان الإمام ﷺ لا يذلّ ولا يتهاون في حقّ نفسه، ولا في حقّ سواه؛ بل كان يزرع في النفوس بذور العزة والعظمة، والشعور بالكرامة الإنسانية. وفي وصيته المشهورة لابنه الحسن ﷺ «لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً»<sup>(٢)</sup> تقرير ضمّني أنّ الحرية أثمن من الحياة نفسها، وأنّه ليس هنالك ما يستحق أن تبذل في سبيله الحياة رخيصة سوى الحرية التي وهبها الله للإنسان حقّاً طبيعياً. فلا يحقّ لإنسان مهما علت منزلته، وارتفع سلطانه، وبلغت سيطرته، أن يعتدي عليها، أو يسلبها، لأنّ سلب حريات الناس سلب لشرفهم.

(١) نهج البلاغة، (٣/ ٨٣)، الكتاب رقم ٥٣.

(٢) نهج البلاغة، (٣/ ٥١)، الكتاب رقم ٣١.

والإنسان في منطلقات الإمام الفكرية حرّ في ممارساته؛ ما لم يتجاوز الخطوط الحمراء لحريات الناس، والقوانين العامة، وهو عزيز بعزة من الله لأنَّ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (سورة المنافقون: الآية: ٨) وطالما تنبثق هذه الحرية من العزة التي جعلها الله في نفس الإنسان وكيانه نتيجة ارتباطه به؛ فإنّها سوف تنعكس اهتماماً ورعاية لحريات الآخرين، وضماناً لعزتهم من أن تهدر على مذبح العوز والحاجة، فينطلق كل منهم بدافع ذاتي يتكافل مع الآخر، ويرفع حاجته، حفاظاً على العزة والكرامة من الضياع، لأنّه يرى نفسه مسؤولاً عن صيانة حقوق كل إنسان وكرامته.

### ح- دور الفقر في تقويض أركان المجتمع:

كان عليّ (عليه السلام) يدرك مخاطر الفقر على تكوين الشخصية السليمة للإنسان، وأنّ الفقر هو السبيل إلى الكفر، إن لم يكن هو الكفر، لأنّه الطريق لكلّ موبقة اجتماعية؛ فهو العدو الأكبر. وكان (عليه السلام) يعلم أنّ الإنسان الجائع المرغم على الجوع لا يتمكن من رؤية المجتمع إلّا من زاوية جوعه، كما يدرك أعمق الإدراك أنّ الإنسان الذي فرض عليه الجوع لا يمكن أن يكون ذا فضيلة ولو وعظته الأنبياء، وزجرته الملائكة! فالإنسان الذي فرض عليه الفقر والجوع، مخلوق سلبت منه إنسانيته وذلّ، والإمام عدوّ للذلّ بما هو عدو لإنسانية الإنسان. يقول (عليه السلام): «الفقر هو الموت الأكبر»<sup>(١)</sup>. ويقول: «الفقر يخرس الفطن عن حجّته»<sup>(٢)</sup>. ويقول: «الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل داعية للمقت»<sup>(٣)</sup>.

(١) مستدرک نهج البلاغة، هادي كاشف الغطاء، الباب الثالث: باب المختار من حكمه «ع» و أجوبة مسائله والكلام القصير.

(٢) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، (الحكمة رقم / ٣).

(٣) نهج البلاغة، (الحكمة رقم / ٣١١).



وكان ﷺ وانطلاقاً من إنسانيته يدرك أنّ في الفقر بؤساً، وذلاً اجتماعياً، ويرى في الغنى مجداً اجتماعياً. لذلك كان حرباً على الفقر، ليس فقط في منطلقاته النظرية؛ بل من خلال وضع الحلول، واستثمار الوقت والجهد، ووضع الآليات المناسبة لمكافحة، ومن أهمّها تعزيز التكافل الاجتماعي بين الأفراد، وبينهم وبين الدولة، وبين الإدارة المؤمنة المسؤولة أمام الله عن إشباع الأفراد تحت رعايتها وكفائتهم.

### ثانياً: سياسة الإمام علي العملية:

عمل الإمام علي إدخال الناس في الطريق العملي؛ الذي يحدث في النفس ثورةً معنويةً؛ في سبيل تحقيق ما يراه منطلقاً لتفعيل الترابط بين أبناء المجتمع، ليؤدوا دورهم في التكافل فيما بينهم.

قال ﷺ في موعظة له: «واستشعروا التقوى شعاراً باطناً، واذكروا الله ذكراً خالصاً، تحيوا به أفضل الحياة، وتسلكوا به طريق النّجاة. انظروا في الدّنيا نظر الزّاهد المفارق لها، فإنّها تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن»<sup>(١)</sup>. فقد أراد الإمام من خلال مواعظه أن يوجّه الناس التوجيه الصحيح، ويلفت أنظارهم إلى حقائق غابت عنهم لاستغراقهم في متاع الدنيا، مبتعدين عن هدف الحياة بتخليهم عن روح الإسلام الأصيل.

فقد كان من أهداف أمير المؤمنين ﷺ أن يوضّح المعالم الأساسية لهذا الدين كما جاء بها النبي ﷺ، وقد عمل بالأولويات وقدم الأهم على المهم، وعمل وسعه على سدّ المنافذ التي ينطلق منها الظلم بين الناس، وتضييع من خلالها معالم العدل، ورعاية الشريعة للمستضعفين من عباد الله عزّ وجلّ، فقد عمل على:

(١) الكافي، الكليني، (٨/ ٢٥) ز

### أ- نشر المساواة والابتعاد عن العصبية:

ابتدأ الأسلوب الذي اختطّه الإمام للإصلاح، ونشر العدالة الاجتماعية، والتكافل بين أبناء المجتمع بنشر المساواة، وأول أشكالها المساواة بينهم وبين نفسه في عطائه، وفي مأكله، وملبسه، ومما تناقله الرواة قوله لأحد عماله: «هيئات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تحيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص، ولا عهد له بالشعب،- إلى أن قال- أقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»<sup>(١)</sup>

وكانت المساواة في توزيع المال من أهم أشكال التكافل المالي منذ أول عهد أمير المؤمنين بالخلافة.

وتعتبر الزكاة من أعظم موارد المال الذي يجبى للدولة، ومن أهم صور التكافل عندما توضع في مصارفها الصحيحة، وقد ألغى عليه السلام كل أشكال التمييز في توزيع مال الزكاة على الناس، لأنهم في هذه الدنيا سواسية في الحقوق المالية، وأمام القضاء الإسلامي، وفي الواجبات والتكاليف.

وقد نبّه عليه السلام إلى ذلك في خطبته التي خطب بها الناس ثاني يوم من بيعته بالمدينة بقوله: «المال مال الله يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب»<sup>(٢)</sup>.

واهتم الإمام بحفظ حقوق كل مواطن في دولته، مسلماً كان أو غير مسلم، فهم جميعاً شركاء في الإنسانية، وينبّه على ذلك بعهدته للأشتر: «فالناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين،

(١) نهج البلاغة (الكتاب رقم / ٤٥).

(٢) نهج البلاغة، (الخطبة رقم / ٩١).

أو نظير لك في الخلق»<sup>(١)</sup>، فلهم من الحقوق ما يجب أن يراعى فلا يتركوا ليفتقروا ويجوعوا، وحوّلهم الأغنياء والشبّعي.

بهذا الإجراء، لم يراع الإمام قريباً لقربته، أو مسلماً لأسبقيته؛ بل راعى المبادئ الإسلامية، ومصلحة الأمة، وقضى على التعصب للقرابة والعشيرة لأنّه أصل كلّ الشرور، وهو المؤدّي إلى الظلم، وهو أساس لخراب البلاد والعباد. فقد اندلعت العصبية القبلية في عهد الإمام نتيجة التمييز الطبقي السافر في عصر من سبقه، فكان دأبه نزعها من النفوس كما جاء له الدين الحنيف، وكان يقول مخاطباً الناس: «فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، واعتمدوا على خلع التكبر من أعناقكم، ولا تكونوا كالمكبر على ابن أمّه من غير فضل فيه سوى ما ألحقت العصبية بنفسه من عداوة الحسد»<sup>(٢)</sup>.

فالإنسان الذي يعيش في مجتمع الإمام الإنساني يجب أن تصان حقوقه، ويطمئن إلى أنّ حكومته تتكافل معه، فتساويه بغيره في العطاء، وترفع عنه الحاجة، ثم ينتقل هذا السلوك القدوة إلى أن يصبح سلوكاً في حياة الناس، متداولاً فيما بينهم، فيتكافل الأفراد مع بعضهم بعد نأيهم عن العصبية، وانطلاقاً من ترسيخ شعورهم بأنهم سواسية في الإنسانية، وأمام الله.

### ب- معالجة أسباب الفقر:

راقب الإمام بنظرته المؤمنة أحوال الناس، وما أصاب شرائح كبيرة منهم من الحاجة والفقر، وبيّن آثار الفقر على الشخصية المؤمنة، إذ تنزع منها جاهها، وتنقص بهاءها، فتتصرف إلى ما في أيدي الناس عما في أيدي الله.

(١) نهج البلاغة، (الكتاب رقم / ٥٣).

(٢) نهج البلاغة، (الخطبة رقم / ١٩٢).

وقد شخّص الإمام أسباب الفقر، وسعى إلى علاجها:

- ومن أسباب الفقر الأنانية، وانكفاء كلّ امرئ على ذاته، والابتعاد عن النظرة الحقيقية للأخوة الإيمانية، وإهمال روح الإيمان بالتكافل بين الأفراد. وفي حديث قدسي، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: «ما آمن بي من بات شبعاناً وأخوه المسلم طاوٍ»<sup>(١)</sup>

- ومن أسباب الفقر أيضاً التفاوت في العطاء، الأمر الذي نتج عنه طبقة منعمة وأخرى عصفت بها الحاجة، وزوتها إلى الفقر، وهو ما عبر عنه ﷺ بقوله: «ما جاع فقير، إلّا بما مَنّ به غني». وقوله: «وما رأيت نعمة موفورة إلّا وإلى جانبها حق مضيع»<sup>(٢)</sup>.

فقد كان ﷺ يرى أنّ الدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين متطلبات الحد الأدنى، وتوفير المستلزمات الضروريّة لجميع الذين يعيشون في الأرض الإسلاميّة، وكان من إجراءات الإمام العملية في التوزيع العادل ما سعى به إلى رفع حاجة المحتاجين.

- ومن أسباب الفقر الاحتكار، الذي حاربه الإمام، ودعا عماله إلى مكافحته. من ذلك كتابه ﷺ إلى مالك الأشتر عندما ولاه على مصر: «واعلم مع ذلك أنّ في كثير منهم -يعني التجار- ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البيعات، وذلك باب مضرّة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار»<sup>(٣)</sup>.

والاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس، لا يسمحون به إلّا بأثمان فاحشة، وهو ما يسبب العوز والحاجة. فمن أتى عمل الاحتكار بعد النهي عنه فقد أمر الأمير بالتنكيل به، لأن الاحتكار وجه ممن وجوه الاستغلال، وهو خلاف المقصد من تكافل أبناء المجتمع بعضهم مع بعض، بل هو طريق للغرق في مستنقع الفقر والجوع.

(١) وسائل الشيعة (٢٤/ ٣٢٧).

(٢) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، (الحكمة رقم / ٣٢٨).

(٣) نهج البلاغة، (الكتاب / ٥٣).

### وقد عمل الإمام على علاج الفقر:

- بالتوزيع العادل للزكاة والصدقة، واعتبرها علاجاً من العلاجات الاجتماعية لمعضلة الفقر التي تؤذي النفوس، والعقول، والمجتمعات الإنسانية. وقد ورد في تفسير النعماني عن علي (عليه السلام) قوله: «وأما وجه الصدقات فإنها هي لأقوام ليس لهم في الإمارة نصيب، ولا في العبارة حظ، ولا في التجارة مال، ولا في الإجارة معرفة وقدرة...»<sup>(١)</sup>.

وكان الإمام (عليه السلام) يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقى منه شيئاً ثم يُفرش له ويقل فيه ويصلي فيه.

- كما عمل على إدارة اقتصاد البلاد في الصدقات والخراج، وإقامة سنن العدل في المواسة والمساواة. وكان الإمام حريصاً على هذه القيم كل الحرص وأشدّه.

- كما حرص الإمام (عليه السلام) على توجيه عماله الوجه الذي يريده الله، فكان يوضح لعماله على الصدقات حق الله في الصدقات، وحق الناس، وحق العامل نفسه، فلا يتجاوز ذلك مستهيناً بالأمانة. من ذلك قوله (عليه السلام): «وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً، وحقاً معلوماً، وشركاء أهل مسكنه، وضعفاء ذوي فاقة، وإنّا موفوك حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤسى لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل»<sup>(٢)</sup>.

### ج. تفعيل العمل لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهما أصلان قويان يتقوم بهما الدين الحنيف، وتحكم بهما أسسه، رغم أنهما من فروض الكفاية، والمعروف اسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه، والإحسان إلى الناس،

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، (٦ / ١٤٦).

(٢) انظر: الإمام علي (عليه السلام) سيرته وقيادته، محمد حسين علي الصغير، (ص/ ٣٣٦).

والمعروف ضدّ المنكر في معناه ومصادقه. وقد تعاقب الأمر بهما، والحثّ عليهما في الكتاب والسنة، وتواترت الأحاديث عن المعصومين صلوات الله عليهم يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصية لابنه الحسن عليه السلام: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنَ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ»<sup>(١)</sup>.

وبيّن عليه السلام دور هذين الفرضين، فهما إن كانا بالقلب أو باللسان فهما من وجوه التكافل المعنوي، وإن كانا باليد والقوة فهما من وجوه التكافل المادي، فقد فرضهما الله تعالى، وهما بمنزلة السلطة المنفذة لقوانين الإسلام، وهما اللذان يخضعان النفوس الجاححة أمام الأمر والنهي، ولا سيما إذا كانا مشفوعين بالقوة والقدرة وفق ما تستدعيه الحالة، وتقتضيه الحكمة. يقول عليه السلام في إحدى مواعظه: «فبدأ الله بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فريضة منه، لعلمه بأنها إذا أدّيت وأقيمت استقامت الفرائض كلّها هيّنها وصعبها، وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها، ووضعها في حقّها»<sup>(٢)</sup>؛ وهذا وجه من وجوه التكافل.

ومن قول له عليه السلام أيضاً يعتبر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الجهاد: «فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين»<sup>(٣)</sup>، وهو الجهاد الحقّ في الدفاع عن حقوق المؤمنين، وهو أحد وجوه التكافل سواء أكان بالكلمة، أم بالفعل، والقوة وفق ما تقتضيه المصلحة.

(١) نهج البلاغة، (٣/ ٤٠).

(٢) وسائل الشيعة (١١/ ٤٠٢).

(٣) وسائل الشيعة (١١/ ١٤٤).

لقد كان الإمام عليه السلام من خلال أقواله ومواقفه قائماً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، فقد جسّد هذه الفريضة قولاً، ووعظاً، ثم عملاً من خلال الأخذ على يد الظالم، وإعادة أمور الدين إلى نصابها.

وقد أدرك عليه السلام أثر هذه الفريضة في تقويم المجتمع، فحثّ الناس على ممارسة الأمر والنهي حتى آخر أيام حياته، وقال عليه السلام في وصيته للحسين عليه السلام قبل الشهادة: «قولا الحق واعملا للأخرة، وكونا للظالمين خصماً وللمظلوم عوناً، ثم قال: الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيؤلّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يُستجاب لكم»<sup>(١)</sup>.

(١) نهج البلاغة، (كتاب رقم / ٤٧).

## المبحث الثالث

### التكافل الاجتماعي في ممارسات السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

تمثل سيرة الزهراء (عليها السلام) التجسيد الحيّ للرسالة الإسلامية. فقد انفعلت بالإسلام الأصيل حتى تمثل في واقع حياتها كلّها في الفكر، وفي السلوك، وفي كلّ الوان نشاطاتها، فحياتها منهج إلهي قد انعكس واقعاً متحرّكاً حياً.

فالسيدة الزهراء (عليها السلام) بصفقتها غرس النبوة، وشجرة الإمامة تكشف لنا أبعاد الرسالة الإسلامية بطابع تجسدي، نلمسه في كلّ جانب من جوانب شخصيتها (عليها السلام)، تجسداً للمفاهيم والقيم الصالحة في النفس، والإرادة، والسلوك العملي، قبل دعوة الناس إليها.

#### أولاً: المنطلقات الفكرية للتكافل الاجتماعي عند الصديقة (عليها السلام):

تشكل الزهراء (عليها السلام) المدرسة الإسلامية الكبرى في حياة الرسالة والأمة، وقد أولت الإسلام اهتماماً وعناية، لتكون أكثر قدرة على سلوك السبيل القدوة في بيت الرسالة. فقد أوقفت (عليها السلام) حياتها الروحية، والفكرية، والجسميّة خدمةً للرسالة، وذوداً عن حياضها. وتظهر هذه الحقيقة بالرجوع إلى تراثها الفكريّ، وأعظم تجسيد له خطبتها التي ألقتها في مسجد أبيها (عليه السلام)، فهي تدلّ على آرائها، ومناهجها التي استقتها من منهل الوحي المقدّس.

وقد «أفرزت خطبة فاطمة الزهراء (عليها السلام) العديد من الدروس، فما بينته في أدق مسائل الفلسفة، وأسرار الأحكام، وتحليل تاريخي سياسي للإسلام، ومقارنة بين العرب في زمن الجاهلية، وبين حياتهم بعد ظهور الإسلام... والأهم من ذلك أن فاطمة (عليها السلام) أفصحت عن موقف آل بيت النبي (عليه السلام) بالنسبة إلى النظام الحاكم، و برأت ساحة الإسلام المقدسة من الظلم والجور الذي ارتكب باسم الإسلام»<sup>(١)</sup>.

(١) الزهراء (عليها السلام) سيدة نساء العالمين، ناصر مكارم الشيرازي، (ص/ ١٠٥).



لقد رسمت الزهراء (عليها السلام) في خطبتها ملامح الحقيقة التي امتاز بها الإسلام إضافة لكونه عقيدةً، ونظاماً، فهو منهج للحياة الإنسانية، وبرنامج لمتطلبات النوع الإنساني، وحلول لكل مشكلة من مشاكل الحياة الإنسانية، بما يتناسب والمصلحة، وبما يتماشى والحكمة. وههنا مقتطفات من قولها (عليها السلام): «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك،... والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق،... والعدل تنسيقاً للقلوب،... والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة،... وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخسة، والنهي عن الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة»<sup>(١)</sup>.

لقد حددت الزهراء (عليها السلام) بكلماتها معالم الإسلام بوصفه مذهباً اجتماعياً، وكياناً تشريعياً ضخماً، امتد إلى جميع مجالات الحياة.. وبينت (عليها السلام) فلسفة الزكاة بأنها تزكية للنفس الإنسانية، كي لا يحدث التناقض المريع بين أصحاب الثراء الفاحش وسواهم من الفقراء والمعدمين. فهي تزكية للنفوس البشرية من أنانيّتها، واستثثارها، وتحويلها إلى طاقات إنسانية هادفة تخدم المجموعة البشرية، بتكافل إنساني يتحوّل معه التناقض والعداء إلى إخاء وإخلاص ومحبة.

وحين تقول (عليها السلام) «ونماء في الرزق» فهي تبين أنّ الغاية من الزكاة ليست تزكية النفوس بتكافلها مع الآخرين من الأنانيّة والبغضاء فحسب، وإنّما لها غاية أخرى تتعلق بتكافل الإنسان مع نفسه، فينمو رزقه، وتكثر خيراته.

لقد كانت الزهراء (عليها السلام) تجاهد من خلال كلامها وتوجيهاتها، إلى آخر لحظة من حياتها الشريفة، لإزالة الطريق لمن حولها، ولهداية الضالّين منهم، والدفاع عن الحقّ، والعدالة؛ وما دفاعها عن قضية فذك إلاّ لبيان الحق، وتوجيه التائبين إليه، فبالإضافة إلى بعد هذه القضية السياسي في تثبيت عامل الولاية؛ فبعدها الاقتصادي واضح وبيّن، في رفع جوع

المحتاجين، وإقامة أود المعوزين، وما كانت السيدة الزهراء للتمسك بها لو كانت مجرد حق خاص مغصوب، بل كانت فذلك تشكل مورداً مهماً في تدعيم أركان التكافل مع المحتاجين.

### ثانياً: نهج السيدة الزهراء علي الصعيد العملي:

في حياة الزّهراء سوفي تراثها الإسلامي العظيم دليل عمليّ على كون الإسلام ديناً، وتشريعاً، ومنهجاً، ونظاماً للحياة.

ففي سلوكها العملي ﷺ تجسيد للمفاهيم والقيم الصالحة، مقارناً لدعوة الناس إليها، والداعي إلى الله إن لم يكن قدوة في سلوكه وسيرته، فلا يحصل انتفاع الناس بقوله ورأيه، بمعنى إن لم يكن المربي مجسداً للسلوك الصالح في حركته، فإنه لا يؤثر إيجاباً فيمن يدعو.

كانت الزهراء ﷺ المربي القدوة، والمعين للمحتاجين من أبناء المجتمع الإسلامي، تنفق في سبيل الله، وتعتق الرقاب، وتعين الضعفاء.

وقد ذكر أغلب المفسرين بشأن نزول قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الدهر: الآيتان: ٨-٩] أنها نزلت في أهل البيت ﷺ: علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، حينما تصدّقوا بالطعام رغم خصاصتهم على المسكين واليتيم والأسير<sup>(١)</sup>.

إنّ الأبعاد الحقيقية لحادثة الإطعام التي تجسدت في ظلال بيت فاطمة وعلي ﷺ، يصوّرها القرآن صورة حيّة لسلوك أهل البيت؛ فهم يطعمون الفقراء والمساكين انطلاقاً من دورهم القدوة، ولم يكن مجرد إطعام، كما يقول صاحب الأمثل، بل إطعام مقرون بالإيثار العظيم عند الحاجة الماسة للغذاء. ومن جهة أخرى فهو إطعام في دائرة واسعة

(١) انظر: الكشف، الزمخشري (٤ / ٦٧٠)؛ وتفسير الرازي (٣٠ / ٢٤٣)؛ ومعالم التنزيل، البغوي (٥

حيث يشمل أصناف المحتاجين من المسكين واليتيم والأسير، ولهذا كانت رحمتهم عامة، وخدمتهم واسعة<sup>(١)</sup>.

ولا يسألون أجراً ولا يبتغون منهم شكراً، إنَّما يفعلون ذلك تقرباً إلى الله، فإنَّ قيمة العمل في الإسلام بخلوص النية.

وحين يكشف القرآن الكريم هذه الحقيقة فإنَّما يكشف لنا عن حقيقة المقياس العملي الذي يلوّن حياة الزهراء وأهل البيت (عليهم السلام)، ويطيح ألوان نشاطهم كافة بطابع الخضوع لله سبحانه، وإخلاص النية له تعالى في كلِّ فعاليَّاتهم، ونشاطاتهم الفردية والاجتماعية.

ومن الأمثلة التي يذكرها التاريخ تجسيدا عملياً لفكر الزهراء في التكافل بين أفراد المجتمع، ورعاية لحال الفقراء والمحتاجين في أشدِّ الأيام التي مرّت بها دولة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، حيث الضائقة المالية نتيجة الحروب بين دولة المنهج الإلهي والدُّول القائمة على أسس جاهلية. من الأمثلة قصة تروى عن شيخ معوز يرسله النبي (صلى الله عليه وآله) إلى ابنته الزهراء، لترفع ما تستطيع من حاجته، فتعتمد الزهراء (عليها السلام) إلى عقدٍ أهدي إليها، فتدفعه إلى الشيخ، ليبيعه، ويسدّ رمقه بالثمن. فابتاعه منه عمار بن ياسر بمبلغ مالي، وبردة يمانية، وراحلة يبلغ الشيخ عليها أهله، ويعيد العقد ومعه عبده هدية، فتأخذ فاطمة العقد، وتعتق العبد، لتضيف مكرمة جديدة إلى مكارمها العظيمة، ويتجلّى حب العطاء والإيثار في النفع المتولد من هذه العطية حتى إنَّها أشبعت جائعاً، وكست عرياناً، وأغنت فقيراً، وأعتقت مملوكاً<sup>(٢)</sup>.

إنَّ الزهراء (عليها السلام) قد عاشت الزهد العملي في تسامي مواقفها، وترفعها عن الخضوع للذات الحياة، وزخارف العيش، ومغريات المتع. وقد ورد من سيرتها (عليها السلام): «ما جاء عن

(١) انظر: تفسير الأمل، الشيرازي، (١٩/٢٥٧).

(٢) انظر: الرواية كما وردت عن كتاب (بشارة المصطفى) عن الإمام الصادق عن أبيه (عليه السلام) عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

أسماء بنت عميس: أمّها كانت عند فاطمة الزهراء، إذ دخل عليها النبي ﷺ وفي عنقها قلادة من ذهب أتى بها عليّ بن أبي طالب عليه السلام من سهم صار إليه، فقال: «يا بنيّة، لا تغتري بقول الناس: فاطمة بنت محمد، وعليك لباس الجبابة، فقطعتها لساعتها، وباعتها ليومها، واشترت بالثمن رقبة مؤمنة، فأعتقتها»<sup>(١)</sup>.

ومن ناحية تكافلها مع علي عليه السلام ومع كونها ابنة النبي ﷺ لم تترفع عن العمل مع علي عليه السلام لسدّ حاجاتها الأسرية؛ بل كانت تساوي نفسها بأبسط الناس وأفقرهم، شأنها شأن أهل بيتها عليه السلام، في الإحساس بآلام أبناء المجتمع، والعمل جاهدين لتغييره. عن علي عليه السلام أنه قال: «إنّ الزهراء استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها، وطحنت بالرّحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها»<sup>(٢)</sup>.

إنّ سيدة النساء قد سجّلت عناوين مهمة، وفتحت آفاقاً جديدة لدور المرأة المسلمة في مجمل النشاطات الاجتماعية، في التكافل مع نفسها، وأسرتها، ومجتمعها، بما يتناسب مع واقع ذلك العصر وحاجاته، وظروفه.

#### المطلب الرابع: الاستفادة من قيم الإمام علي والسيدة الزهراء عليه السلام وممارساتهما في

#### التكافل الاجتماعي

إنّ من حقائق الاتباع التأسّي، حيث يجبر البشر نقصهم وخور عزيمتهم بالتأسيّ بالسابقين من القدوات الرائدة، وقدوتهم المثلى رسول الله ﷺ الذي أمرنا الله سبحانه بالاعتداء به، وأهل بيته وأولّهم علي وفاطمة عليه السلام الذين ينهلون من معين النبوة ويظهر الأمر

(١) ذخائر العقبى، الطبري (ص / ٥١)، والمستدرک، الحاكم، (٣ / ١٥٢).

(٢) بحار الأنوار (٤٣ / ٨٢).

بممارساتهم العملية، وخصوصاً ما كان من تكافل مع أبناء مجتمعهم امتد أثره في الزمان من عصر الرسالة إلى كل عصر.

### أولاً: أثر المنهج العملي للإمام علي والسيدة الزهراء عليهما السلام في المجتمع الإسلامي

أقام الإمام علي والسيدة الزهراء عليهما السلام حقيقة التكافل مع المجتمع وجوهره، وعملاً على تربية أساليب الفكر، والعمل بما يلائم الزمان والمكان، وقد أثر ذلك في المجتمع الإسلامي بتجليات مختلفة منها:

- سعي الإمام جاهدًا في تسريع حركة المسلمين إلى الله، وتصحيح مقاصدهم، وقيامه بتعزيز الثقافة الإسلامية في المساواة الإنسانية، وإعادة نصابها إلى واقع المسلمين على الرغم من أنهم قد أخفقوا في تحقيق أهداف الإمام عليه السلام بشكل عام.

وقد رعى الإمام من خلال ذلك شخصيات مثل كميل بن زياد، ورشيد الهجري، وعمار بن ياسر، وعدد قليل آخر من أصحابه عليهم السلام حتى جسدوا خطبه وأقواله في حياتهم، ومحيطهم، ومعاملاتهم الاجتماعية، وقد عمد الإمام إلى تأهيلهم بعد التوجيه، ليظهر ذلك التأهيل في تفاعلهم الاجتماعي.

- يمكن ملاحظة التنمية الفكرية التي عمل الإمام عليها بين أبناء مجتمعه من خلال المواقف الولائية في نصره الحق من قبل بعض الأصحاب، مثل جندب بن زهير الأزدي، والحارث الأعور الهمداني، وحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق. كما يمكن ملاحظة تأثيرهم بحياة الإمام ومواقفه الاجتماعية من خلال ما كلفهم به من مهام على الأصعدة المختلفة، والتزامهم بتوجيهاته في طرقهم القيادية، كما كان من مالك الأشتر وتطبيقه للعهد الذي أصبح معياراً يستقى منه الحقوق في شرعة الأمم.

- كما تشهد الأسواق وما فيها من باعة ومحال تجارية وحرف مختلفة وأماكن عامة يرتادها الناس من كل فج عميق، تشهد بالحركة اليومية لأمر المؤمنين عليه السلام ومراقبة الباعة، ومنها قوله للتمارين: «يا أصحاب التمر، أطعموا المساكين يربو كسبكم»<sup>(١)</sup>؛ الأمر الذي انعكس بالمعاملات الاجتماعية، والتجارية الصحيحة.

- إن الكم الكبير الذي وصل إلينا من الكتب والوصايا التي أرسلها أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولاته في الأمصار وعماله على الصدقات والخراج، يشرح في كل كتاب وحسب ما تقتضيه الحكمة مختلف القضايا، ويضع مختلف النصائح، والإرشادات، والتوصيات، والتعليمات التي يحتاجها العمال. إن هذه الكتب كان لها تأثيرات عميقة، ظهرت بمواقف ثابتة عند هؤلاء وتركت أثرها في الناس.

ومن الشواهد المؤيدة قوله عليه السلام لأبي أيوب الأنصاري: «يا أبا أيوب، ما بلغ من كرم أخلاقك؟ قال: لا أؤذي جاراً فمن دونه، ولا أمنعه معروفاً أقدر عليه...»<sup>(٢)</sup>.

- عمل الإمام على إدخال الناس في الطريق العملي بتعريفهم حقوقهم فأحدث بذلك ثورة معنوية في أنفسهم، لأن تعريف الناس بحقوقهم من قبل من هو قائم على تولي أمورهم، يؤثر إيجاباً في أن يراعوا حقوقهم وحقوق الآخرين، ويصبحوا على بينة في علاقاتهم، وارتباطاتهم على اختلافها.

وقد أثرت هذه الطرق العملية وغيرها من التعليمات العلوية في بعض الأصحاب مثل أويس القرني الذي يعد من زهاد الكوفة، وأبو أيوب الأنصاري، وهمام بن شريح الذي كان عابداً، وأراد الاستزادة مما حظي به من التقوى، فسأل الإمام عليه السلام ليصف له المتقين، وبعد ما شرع أمير المؤمنين بوصف المتقين وصفاً دقيقاً ضاق شوق همام به، وانحسر وعاءه عنه، وتقطعت أنفاسه فيه، فصُقع ميتاً<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، (٣/ ٦٠).

(٢) سفينة البحار، (١/ ١٩٦).

(٣) انظر: نهج البلاغة، خطبة صفات المتقين، (الخطبة/ ١٩٣).

وأما السيدة الزهراء التي كانت القدوة لنساء عصرها؛ بل للنساء قاطبة. فهي المعلمة التي تبين أمور الدين، والزوجة التي تحمل أعباء أسرتها مع زوجها، وترسم في كل يوم أعظم صور التكافل مع مجتمعها، الأمر الذي انعكس على إيمان الأفراد برسالة الإسلام، وما تشكّله من رسالة تعاضد، وتعاون، وإحساس بالآخر، ومساندته؛ بل إثارة على النفس في كثير من الأحيان. فعندما يذكر لنا القرآن قصة إطعام المسكين، واليتيم، والأسير، يذكر لنا التاريخ أنّ فضة خادمة السيدة الزهراء قد اشتركت في الصيام والإطعام مع أهل البيت (عليه السلام)، وما كان ذلك إلا تأسيّاً بالسيدة الزهراء، التي شكّلت لها -وهي خادمة في بيتها- النبراس الذي يضيء الطريق إلى معرفة الله وحبّه، حتى لتؤثر هؤلاء الأصناف على نفسها، وهي أحوج ما تكون إلى الطعام، وإنّ أسمى صور الاتّباع والتأسي ذلك الذي يفيض من ينبوع الحب.

### ثانياً: تجليات التكافل الاجتماعي في العصر الراهن:

- إشاعة مفهوم التكافل الاجتماعي داخل المجتمع، وتشجيع روح الإنفاق، والمساعدة، والبذل للمحتاجين، لتظهر نتائج تطبيق هذا المفهوم على الصعيد العملي في نماء النفس، وزكاة العمل، والقرب من الله تعالى.

- إنعاش اقتصاد المجتمع في دفع الأموال وبالأخص الحقوق الشرعية في مصارفها الصحيحة، وعودة بركاتها على ترابط أفراد المجتمع مع حكومتهم، ومع بعضهم البعض.

- تقنين التكافل من خلال المؤسسات والمراكز الخيرية المتخصصة بنظم العملية الاجتماعية.

- توعية الأفراد على روح التعاون، والعمل التطوعي، والتكافل الاجتماعي، بالتحفيز ليصبح ملكة عند الأفراد، لا يخاف من فقدانها، أو الخلل في تطبيقها.

- توظيف وسائل الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي، باتجاه بذر وتعميق مفهوم التكافل الاجتماعي، وتعميق أواصر التعاون، والشعور بالمسؤولية الاجتماعية.
- توسيع قاعدة التكافل الاجتماعي لتشمل أكبر عدد من المواطنين؛ لتتاح لهم الفرص الكفيلة للاشتراك في حياة تضمن للإنسان كرامته، واطمئنانه إلى حاضره ومستقبله.
- العمل داخل المؤسسة الإسلامية على التذكير بقصص خالدة مارسها رموز الإسلام في التكافل، رغم كل ظروف الفقر والحرب، في محاولة لإعادة الجيل الصاعد إلى حظيرة المبادئ الإسلامية، بما يتناسب وروح العصر، من استثمار للتكنولوجيا المعاصرة في تثبيت هذه المفاهيم في نفوس النشء، وتخليد الإسلام بمثله العليا.



## الخاتمة

١. تشبعت روح أمير المؤمنين والسيدة الزهراء (عليهما السلام) بمبادئ الإسلام وتعاليمه التي انطلقت من اعتقاد عميق بالله، وحب كبير لتمثل كماله في رسم المجتمع الأمثل بتكافل أفراد، ورفع بعضهم احتياج البعض الآخر.
٢. وتجسدت تلك المبادئ عملياً في مواقف الأمير والصديقة (عليهما السلام) مثلاً أعلى يحتذى به، في تكافلها زوجين لرفد أسرتهما بما تحتاجه، وفي تكافلها بموقعها الرسالي بما يخرج أفراد المجتمع من الفقر والحاجة.
٣. وقد أوضح (عليه السلام) بممارساته العملية من خلال موقعه القيادي كيف يتكافل الحاكم مع أبنائه المحكومين بالتوجيه، والنصح، والتعليم ليصل بهم إلى ما أراد الله تعالى.
٤. ولم تمنعه (عليه السلام) العقبات الكبيرة في عصر حكمه، بل حاول الأمير تجاوزها، ورسم صورة للأجيال القادمة من خلال ثلّة رباها، وعملت بتعليماته لتكون مثلاً يحتذى من غير المعصومين للناس قاطبة.
٥. وقد بين (عليه السلام) كيف يستطيع الحاكم العارف بالله أن يبحث أسباب الفقر والعوز من المجتمع، من خلال المساواة بين الرعية، ومراقبة المنفذين والعاملين ليقطف المجتمع ثمرات التكافل، ويرتقي لما يحب الله ويرضاه..
٦. وما زلنا ونحن في المجتمع الراهن -ومع البعد الزماني عن النورين (عليهما السلام) - نجبر نقص نفوسنا بما نستمدّه من كمال نفسيهما، ونستقي معالم الطريق من إشعاع نورهما، الذي لن ينطفئ؛ لأن الله يأبى إلا أن يتمّ نوره؛ بداية بالنبي وهما وبجميع المعصومين (عليهم السلام)، ونهاية بخاتمهم عجل الله لنا وللناس قاطبة به الفرج.
٧. ومن خلال التأسي بالنورين علي وفاطمة (عليهما السلام) في التكافل فيما بيننا أفراداً في المجتمع؛ وإخواناً في الإنسانية؛ ونظراء في الخلق؛ نساعد في تعجيل الفرج، للوصول إلى المجتمع المستخلف كما يريد الله تعالى، وكما جسّده أولياؤه العظام (عليهم السلام).

## المصادر والمراجع

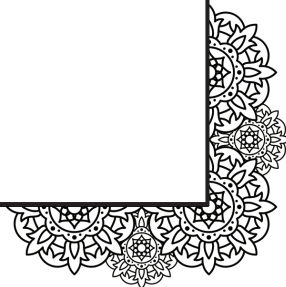
- القرآن الكريم
- نهج البلاغة
- الإمام علي في قوّته الجاذبة والدافعة، مرتضى مطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، ١٩٩٢م.
- الإمام علي (عليه السلام) سيرته و قيادته، محمد حسين علي الصغير، مؤسسة العارف للمطبوعات.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، بيروت، دار أميرة، ط ١٠، ٢٠١٠م.
- تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المحقق: هشام البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، محب الدين الطبري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.
- الزهراء (عليها السلام) سيدة نساء العالمين، ناصر مكارم الشيرازي، تعريب: عبد الرحيم الحمزاني، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم، ١٤٢٤ هـ..
- سفينة البحار، علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأسترآبادي، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد يحيى عبد الحميد، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٧٥ م.

- عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور احسائي، نشر سيد الشهداء (عليه السلام)، قم، ١٤٠٥ هـ.
- الكافي، أبو جعفر الكليني، تحقيق علي أكبر الغفاري، مطبعة الحيدري، ١٣٦٧ هـ.
- الكشف، الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق: طه محمد الزيني، مكتبة بصيرتي، قم.
- مستدرک الحاكم، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م.
- مستدرک نهج البلاغة، هادي كاشف الغطاء، مؤسسة كاشف الغطاء العامة.
- معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، السعودية، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، سوريا، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- مناقب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ابن مردويه، جمع الأحاديث عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين، مركز البحوث في دار الحديث، ١٤٢٠ هـ.
- منهاج الصالحين، الشيخ الوحيد الخراساني، مدرسة الإمام باقر العلوم (عليه السلام).
- ميزان الحكمة، محمدي الريشهري، دار الحديث، قم، ١٣٧٥ هـ.
- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: محمد رضا الحسيني، مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، قم، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.



**الولاية في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)**  
**« دراسة تحليلية »**

الباحث  
م. طاهر باوي



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو أحد أبرز الشخصيات في التاريخ الإسلامي، وأول إمام من أئمة أهل البيت (عليهم السلام). حظي بفكر عميق في مجالات عديدة، منها الفقه، السياسة، والأخلاق. يحمل مفهوم «الولاية» في فكره أهمية خاصة ويشكل محوراً رئيساً في فهم رؤيته الشاملة للإسلام والحكم. الولاية بوصفها مبدأً إيمانياً تُعدّ من الأركان الأساسية في العقيدة الشيعية، حيث تمثل الاعتقاد بإمامة علي وأبنائه من أهل البيت (عليهم السلام) استكمالاً للرسالة النبوية. يرى الإمام علي (عليه السلام) أنّ الولاية تمثل العلاقة الروحية والأخلاقية التي تربط المسلم بالإمام باعتباره القائد الشرعي والمرشد الروحي. في البعد السياسي، يعرض الإمام علي (عليه السلام) مفهوماً للحكم القائم على العدالة والشورى والمساواة. ويرى أنّ الولاية تعني قيادة الأمة بروح المسؤولية والحق، بعيداً عن الاستبداد والظلم. تعتبر فترة حكم الإمام علي (عليه السلام) (٣٥-٤٠ هـ) حقبة زمنية مهمة لدراسة كيفية تطبيق مبدأ الولاية في الحياة السياسية والإدارية، حيث واجه تحديات عديدة وحروباً أهلية أظهرت مدى تمسكه بمبادئه. تجسدت الولاية في سيرة الإمام علي (عليه السلام) رمزاً للعدالة الاجتماعية وحماية حقوق الفقراء والمظلومين. تعكس خطبه ورسائله في «نهج البلاغة» رؤيته لتحقيق مجتمع قائم على القيم الإنسانية الرفيعة. يقدم الإمام علي (عليه السلام) نموذجاً أخلاقياً يُحتذى به في التعامل مع الناس والإدارة والعلاقات الاجتماعية، مما يعزز قيم النزاهة والإيثار في المجتمع. أثر فكر الإمام علي (عليه السلام) في العديد من العلماء والمفكرين على مرّ العصور، وساهم في تشكيل المدارس الفكرية والفقهية. دراسة الولاية تتيح فهماً أعمق للتراث الفكري الإسلامي. تشكل خطب الإمام علي (عليه السلام) ومواعظه جزءاً مهماً من الأدب الإسلامي، وهي مصدر غني للدراسة والبحث في مجالات البلاغة

والفلسفة والأخلاق. دراسة موضوع الولاية في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تتيح فهماً شاملاً ومتعدد الأبعاد لشخصية من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي. تعكس هذه الدراسة أهمية الولاية بوصفها مبدأ دينياً وسياسياً وأخلاقياً وثقافياً، وتسهم في تقديم رؤى جديدة للتحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية اليوم.

### إشكالية البحث:

تعدّ «الولاية» مفهوماً محورياً في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث تبرز كعمود فقري في رؤيته الدينية والسياسية والأخلاقية؛ إلا أنّ هذا المفهوم لم يحظَ بالقدر الكافي من الدراسة والتحليل المعمقين الذي يعكس تعدّد جوانبه وتأثيراته. يهدف هذا البحث عبر المنهج الوصفي-التحليلي إلى تحليل مفهوم الولاية من مختلف جوانبه الدينية، السياسية، والأخلاقية في فكر الإمام علي عليه السلام، ودراسة تطبيقات الولاية خلال فترة خلافة الإمام، وكيف أثرت في ممارساته السياسية والإدارية، واستكشاف التأثيرات الاجتماعية والأخلاقية لمفهوم الولاية في تعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الإنسانية.

الإشكالية التي يسعى هذا البحث لمعالجتها تكمن في الإجابة عن السؤالين الآتين:

١. ما هو التعريف الدقيق للولاية في فكر الإمام علي عليه السلام؟ وكيف يختلف عن المفاهيم الأخرى المتعلقة بالحكم والقيادة في الفكر الإسلامي؟

٢. كيف تجلّت الولاية في السيرة العملية والسياسية للإمام علي عليه السلام؟

٢. مفهوم الولاية.

### الولاية في اللغة:

كلمة «ولاية»، التي تأتي مصدراً أو اسم مصدر، ظهرت في القرآن الكريم مع العديد

من مشتقاتها مثل: «ولي»، «تولى»، «والى»، «أولياء»، «موالى»، «مولى»، «تولى» و«تولية» وغيرها. حسب ما ورد في «صاحح اللغة»، تعني كلمة «الولي» القرب والدنو. يُقال: «تباعِد بعد ولي»، وأيضاً «كل مما يليك»، أي مما يقاربك. يشير النص إلى أن «الولي» هو عكس العدو، ويُقال «تولَّوه». بينما «المولى» يمكن أن تعني المعتق أو المعتق، وابن العم، والناصر، والجار<sup>(١)</sup>. وَرَدَ في «أقرب الموارد»: وَلَاهُ، وَوَلِيَهُ، يَلِيهِ، من باب ضَرَبَ-يَضْرِبُ، وَحَسِبَ-يَحْسِبُ، والأول قليل الاستعمال؛ والمصدر وَلِي، أي دنا منه وقرب. يُقال: جَلَسْتُ مِمَّا يَلِيهِ؛ أي يقاربه؛ ويُقال: الْوَلِيُّ هو حصول الثاني بعد الأول من غير فصل<sup>(٢)</sup>. وفي «المصباح المنير» ورد مما يلي: الْوَلِيُّ مِثْلُ فَلَسٍ: الْقُرْبُ. وفي الفعل لغتان: [أكثرهما] وَلِيَهُ يَلِيهِ بكسرتين [من باب حَسِبَ-يَحْسِبُ]؛ والثانية من باب وَعَدَ [يَعِدُّ]، وهي قليلة الاستعمال. وَوَلِيْتُ على الصبي والمرأة، فالفاعل وال والجمع وُلَاةٌ. والصبي والمرأة مَوْلِيٌّ عَلَيْهِ. وَالْوَلَايَةُ بالفتح والكسر النُّصْرَةُ. واستولى عليه غلب عليه وتمكن منه<sup>(٣)</sup>.

### الولاية في الاصطلاح:

جاء في «المفردات» إذ قال في مادة وَلِي: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد. والولاية النصرة، والولاية تولي الأمر، وقيل: الولاية والولاية نحو الدلالة والدلالة، وحقيقته تولي الأمر. وَالْوَلِيُّ والمولى

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد، (١٩٧٩م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة الثانية، بيروت: دار العلم للملايين، ص ٢٥٢٨.

(٢) الخوري الشرتوني اللبناني، سعيد، (١٤٠٣هـ)، أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، د. ط، قم المقدسة: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ص ١٤٨٧.

(٣) المقرئ القيومي، أحمد بن محمد بن علي، (د.ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق: عبدالعظيم الشناوي، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف، ص ٦٧٢.

يُستعملان في ذلك، كل واحد منهما يُقال في معنى الفاعل أي الموالى، وفي معنى المفعول أي الموالى. يُقال للمؤمن: هو ولي الله عز وجل، ولم يرِدْ مولاه، وقد يُقال: الله تعالى وليُّ المؤمنين ومولاهم، فمن الأول قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٥٧) ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ﴾ (سورة الأعراف: الآية: ١٩٦) ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ٦٨) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة محمد: الآية: ١١) ﴿نَعَمْ الْمَوْلَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ﴾ (سورة الأنفال: الآية: ٤٠)<sup>(١)</sup>.

مقام الوجدانية والاتحاد الذي يتشكل بين العبد وربّه، بحيث لا يكون هناك أيّ حجاب أو ستار في أي من مراحل الطبع والمثال، والنفس والروح، والسرّ، هذا يُسمى «الولاية». ومقام الاتحاد الذي يتشكل بين الحبيب والمحبوب، والعاشق والمعشوق، والذاكر والمذكور، والطالب والمطلوب، بحيث لا يكون هناك أبداً أيّ انفصال بأيّ شكل من الأشكال، هذا يُسمى «الولاية». وبناءً على هذا الأساس، فإنّ الله تعالى هو ولي جميع المخلوقات بشكل مطلق في عالم التكوين، وجميع المخلوقات كذلك بدون استثناء تكوينياً وليّة الله؛ لأنّه لا يوجد حجاب بين الله (الرّب) وبين المخلوقات (المربوب)، إلّا إذا كان ذلك الحجاب من جانبهم هم. أما في عالم التشريع والعرفان، فإنّ ولاية الحق تقتصر على أولئك الذين تجاوزوا مراحل الشرك الخفي تماماً، واجتازوا جميع الحجب النفسية، ووصلوا إلى نقطة الحقيقة والعبودية الصادقة<sup>(٢)</sup>.

(١) الاصفهاني، الراغب الحسين بن محمد، (د.ت)، المفردات في غريب القرآن، الجزء الأول، د.ط، د.م: مكتبة نزار مصطفى الباز، ص ٦٩٢.

(٢) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٣١هـ)، إمام شناسي، الجزء الخامس، الطبعة التاسعة، مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قسّ، ص ٢٠.



### مفهوم الولاية في القرآن والسنة:

مفهوم الولاية في القرآن الكريم والسنة النبوية يتجلى بأبعاد متعددة، تشمل ولاية الله للمؤمنين، وولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وولاية الإمام على الأمة. هذه الولاية تقوم على مبادئ النصر، والتوجيه، والتعاون، والهداية، وتشكل أساساً مهماً في بناء العلاقات الاجتماعية والسياسية والدينية في المجتمع الإسلامي.

### الولاية في القرآن الكريم:

القرآن الكريم يستخدم مفهوم الولاية بأشكال متعددة، تتراوح بين ولاية الله للمؤمنين وولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وولاية الشيطان للكافرين.

أ. ولاية الله للمؤمنين: الله هو الولي الذي يرعى عباده ويهديهم إلى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٥٧). قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «يَعْنِي مِّنْ ظُلُمَاتِ الذُّنُوبِ إِلَى نُورِ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ لَوْلَايَتِهِمْ كُلِّ إِمَامٍ عَادِلٍ مِّنَ اللَّهِ». وبناءً على هذا، يُطلق اسم الولي على الذات المقدسة للخالق عز وجل، كما يُطلق على أولئك الأفراد الذين يضعون أنفسهم تحت اختيار الله وإرادته، ويعتبرونه المهيمن المتصرف في جميع أمورهم، كما في هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة يونس: الآية: ٦٢). فإن المقصود بأولياء الله هم الأفراد الذين تنصّلوا تماماً من جميع شوائب اختيارهم الذاتي، وأوكلوا إرادتهم واختيارهم ووجودهم بجميع شؤونهم إلى الذات المقدسة للحي الأزلي، واعتبروه المتصرف فيهم والمالك لإرادتهم. إن جميع الموجودات خاضعة للإرادة والاختيار التكويني للخالق سبحانه، ولا يُستثنى من هذا القانون العام حتى الذرة الواحدة التي لا تبصرها العين. لكن البحث في الولاية التشريعية، أي فهم وإدراك هذا المعنى بدرجة الحس والوجدان،

يتطلب أن لا حقّ لولاية غير ذات القيوم الأبديّ. وكلّ من يدرك هذا الناموس والقانون العامّ، ويرى وجوده وسائر وجود الموجودات مندكاً في إرادة واختيار القيوم، ويضع نفسه وجداناً تحت إرادة واختيار كهذه، يُدعى بـ «وليّ الله»<sup>(١)</sup>.

ب. ولاية المؤمنين لبعضهم البعض: يجب على المؤمنين أن يتولى بعضهم بعضاً، مما يعني النصرة والتعاون والتآزر. قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (سورة التوبة: الآية: ٧١). وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محاذاة لما وصف به المنافقين، ليدلّ بذلك على أنّهم، مع كثرتهم وتفرقهم من حيث العدد ومن الذكورة والأنوثة، ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها، ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره. ولذلك، كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر، فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاد، تدخل في تصديهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم<sup>(٢)</sup>.

ج. ولاية الشيطان للكافرين: الكافرون يتبعون الشيطان ويخضعون لولايته. ورد في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٥٧). ومعنى هذه الآية هو أنّهم كانوا على نور الإسلام، ولكن عندما يقبلون ولاية أي إمام جائر ليس من عند الله، فإنّهم بسبب هذه الولاية يدخلون من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر. ولذلك جعل الله النار واجبة عليهم ليحترقوا مع الكافرين<sup>(٣)</sup>.

(١) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (د.ت)، معرفة المعاد، الجزء الثاني، د.ط، بيروت: دار المحجة البيضاء، ص ٣٦.

(٢) الطباطبائي، سيد محمد حسين، (١٣٩٠ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، الجزء التاسع، د.م: د.ط، ص ٣٣٨.

(٣) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٣١ هـ)، إمام شناسي، الجزء الخامس، الطبعة التاسعة، مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي، ص ١٥.

## الولاية في السنة النبوية:

تؤكد السنة النبوية مفهوم الولاية بأبعادها المختلفة، وتبرز أهميتها في السياقين الديني والاجتماعي والسياسي.

**أ/ ولاية الله ونصرته للمؤمنين:** روى البخاري في صحيحه بسنده المتصل عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»<sup>(١)</sup>. هذا الحديث هو حديث قدسي، حيث ينقل النبي ﷺ كلام الله تعالى بشكل مباشر. للأحاديث القدسية مكانة خاصة في الإسلام، فهي كلمات الله، ولكن ليست جزءاً من القرآن الكريم. يحمل هذا الحديث رسالة قوية حول مكانة أولياء الله وعقوبة من يعاديهم. إنه تأكيد أن الله يحمي أولياءه بشدة ويعاقب من يعاديهم أيضاً. يدعو الحديث إلى احترام الأولياء والتقرب إلى الله بالطاعات، كما يشجع على نشر المحبة والإخاء بين المسلمين.

**ب/ ولاية المؤمنين لبعضهم:** إن الحديث النبوي الشريف يؤكد التآزر والتعاون بين المؤمنين. قال رسول الله ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهُمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَجَسَدٍ وَاحِدٍ، إِذَا اشْتَكَى عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ فِي السَّهْرِ وَالْحَمَى»<sup>(٢)</sup>. في هذا الحديث النبوي الشريف، يُشَبَّه النبي المؤمنين بالجسد الواحد. فكما يتعاون أعضاء الجسد معاً عندما يشعر أحدهم بالألم، يجب أن يكون المؤمنون مترابطين في المحبة والرحمة والتعاون. إذا كان أحد المؤمنين يعاني، يجب أن يستجيب الآخرون لمشاركته في الألم والسهر والحمى.

(١) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٣١هـ)، إمام شناسي، الجزء التاسع، الطبعة السابعة، مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره، ص ٢٦٨.

(٢) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٣١هـ)، مطلع الأنوار، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، طهران: مكتب الوحي، ص ٥٠٥.

**ج/ ولاية الإمام على الأمة:** النبي ﷺ بيّن أن الإمامة والخلافة بعده يجب أن تكون لأهل بيته، وأوضح أن الإمام هو الذي يتولى شؤون الأمة الدينية والدنيوية. خطب رسول الله ﷺ في يوم الغدير وقال: «أيها الناس، أتعلّمون أن الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأولى بهم من أنفسهم؟» قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «قم يا علي»، فقامت، فقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه». فقام سلمان فقال: «يا رسول الله، ولاؤه ماذا؟» فقال: «ولاء كولائي، من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه». فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فكبر رسول الله ﷺ وقال: «الله أكبر على تمام نبوّتي وتمام دين الله وولاية عليّ بعدي». فقام أبو بكر وعمر فقالا: «يا رسول الله، هذه الآيات خاصة في علي؟» قال: «بلى، فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة». قالوا: «يا رسول الله، بيّنه لنا»، قال: «علي أخي ووزير ووارثي ووصيي وخليفتي في أمّتي، وولي كلّ مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن، ثم الحسين، ثم تسعة من ولد ابني الحسين، واحداً بعد واحد، القرآن معهم، وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ الحوض». فقالوا: «كلّهم، اللهم نعم، قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت سواء». وقال بعضهم: «قد حفظنا جُلّ ما قلت ولم نحفظ كله، وهؤلاء الذين حفظوا خيارنا وأفضلنا». فقال عليّ عليه السلام: «ليس كلّ الناس يستون في الحفظ»<sup>(١)</sup>.

٣. شيء من سيرة الإمام علي عليه السلام: وصف الرواة كيفية ولادة إمام المتقين فقالوا: إنّ والدته السيدة الزكية فاطمة لما أحسّت بالطلق نهضت وهي مبهورة الأنفاس، فاتجهت صوب الكعبة المقدسة، وهي على يقين لا يخامرہ شكّ أنّ حملها شأن كبيراً عند الله تعالى. ولما مثلت أمام الكعبة، اتّجهت بعواطفها نحو الله تعالى، وأخذت تناجيه وتدعوه أن ييسّر

(١) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٣١ هـ)، إمام شناسي، الجزء الثاني، الطبعة العاشرة، مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره، ص ٢٥٩.

لها ولادتها، وتعلقت بأستار الكعبة قائلة: «ربّ إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل... وأنّه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي في بطني، لما يسرت عليّ ولادتي...»<sup>(١)</sup>.

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وُلِدَ سنة ٦٠٠ بعد الميلاد بمكة. وأمّ علي هي فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكنيته أبو الحسن. صهر رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة، وهو أبو السبطين، وأول هاشمي وُلِدَ بين هاشميين. قال ابن إسحاق: إنّهُ كان يومئذ ابن عشر سنين، وكان أصغر من جعفر وعقيل وطالب. كفله النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه لأنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، قليل المال. فأخذ رسول الله ﷺ علياً وضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرأ وضمّه إليه تخفيفاً عن أبي طالب. ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه. هاجر عليّ إلى المدينة، وشهد بدرأً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلّا تبوك، فإنّ رسول الله ﷺ خلفه على أهله. وله في الجميع بلاء عظيم وأثر حسن، وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء في مواطن كثيرة بيده. وآخاه رسول الله ﷺ مرتين؛ فإنّ رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعليّ في كلّ واحدة منهما: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»<sup>(٢)</sup>. وروى ابن عساكر عن أبي المحاسن عبد الرزاق بن محمد في كتابه بسنده المتصل عن العلاء بن المسيب، عن أبي داود، عن بريدة الأسلمي قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نسلم على علي بإمرة المؤمنين، ونحن سبعة وأنا أصغر القوم يومئذ». وروى يوسف بن كليب المسعودي بإسناده عن أبي داود السبيعي، قال: «دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ

(١) القرشي، باقر شريف، (١٤٢٢هـ)، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، الجزء الأول، الطبعة الأولى، قم المقدسة: دار الهدى للطباعة والنشر، ص ٤٢.

(٢) رضا، محمّد، (١٤١٨هـ)، الإمام علي بن أبي طالب، تحقيق: محمّد أمين ضناوي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ص ١٣ - ١٤.

فقال له رسول الله: اذهب فسلم على أمير المؤمنين! فقال: يا رسول الله! وأنت حيّ؟! قال: وأنا حيّ! ثم جاء عمر فقال له مثل ذلك»<sup>(١)</sup>.

### الولاية في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

يحتلّ في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مفهوم الولاية مكانة محورية وأساسية. الولاية في تصوره ليست مجرد سلطة سياسية أو حكم زماني، بل هي ولاية إلهية روحية تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية. ينظر الإمام علي (عليه السلام) إلى الولاية على أنّها امتداد للنبوة والرسالة الإلهية، فهو الوصي والخليفة المباشر للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله). ولذلك فإنّ ولايته تستمد شرعيتها من التعيين الإلهي والنصّ النبوي، وليس من أي اعتبارات سياسية أو اجتماعية. كما يؤكد الإمام علي (عليه السلام) أنّ الولاية تتطلب امتلاك العلم والمعرفة الكاملة بالدين والحقائق الإلهية، وهذا ما يميز أهل البيت (عليهم السلام) عن غيرهم. فهم أبواب الحكم وضيء الأمر، وهم الذين يملكون تمام الكلمات والحقائق الدينية. وبناء على ذلك، فإنّ مفهوم الولاية في فكر الإمام علي (عليه السلام) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبعد الروحي والمعرفي، وليس مجرد البعد السياسي والزماني. وهذا ما يؤكد أهمية قيادة أهل البيت (عليهم السلام) للأمة الإسلامية.

### أسس الولاية:

يرتكز أساس الولاية عند الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) على عدة أركان أساسية: أولاً، العلم والمعرفة الكاملة بالدين والحقائق الإلهية. ثانياً، التعيين الإلهي والنصّ النبوي. فالإمام علي (عليه السلام) هو الوصي والخليفة المباشر للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وولايته مستمدة من هذا التعيين الإلهي والنبوي، لا من أي اعتبارات سياسية أو اجتماعية. ثالثاً، امتلاك أبواب الحكم

(١) الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين، (١٤٢٩ هـ)، إمام شناسي، الجزء الثامن، الطبعة السابعة، مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره، ص ١١٢.

وضياء الأمر. فالإمام علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام هم أبواب الحكم الإلهي وضياء الأمر الرباني، مما يؤهلهم لقيادة الأمة وتطبيق الشريعة الإسلامية. قال ابن أبي الحديد «يقول أمير المؤمنين: لا يدخل الجنة يومئذ إلا من كان في الدنيا عارفاً بإمامه، ومن يعرفه إمامه في الآخرة. فإن الأئمة تعرف أتباعهم يوم القيامة، وإن لم يكونوا رأوهم في الدنيا. كما إن النبي الشهيد للمسلمين وعليهم وإن لم يكن رأى أكثرهم»<sup>(١)</sup>.

وبناءً على هذه الأركان الثلاثة - العلم والمعرفة الكاملة، التعيين الإلهي والنبي، وامتلاك أبواب الحكم وضياء الأمر - يؤسس الإمام علي عليه السلام لمفهوم الولاية الذي يتجاوز البعد السياسي والزمني ليرتقي إلى المستوى الروحي والمعرفي الأسمى. ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين، وفيها حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبي، ثم صفة قوم آخرين: «لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْعَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ. الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُتَقَلِّهِ»<sup>(٢)</sup>.

يمكننا من خلال هذا النص الثمين من كلام الإمام علي عليه السلام استخلاص أساس الولاية في فكره بشكل أوضح. بقوله عليه السلام: «لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا»، تأكيد لتفرد أهل البيت عليهم السلام وعدم وجود مثيل لهم في هذه الأمة. كما إنهم «أساس الدين وعماد اليقين». فالولاية لا تقوم على اعتبارات سياسية أو اجتماعية، بل على الأساس الديني والروحي الذي يمثله أهل البيت عليهم السلام. ويبين لنا المرجعية والقيادة بقوله: «إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْعَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي»، فهم المرجع والقيادة للأمة،

(١) الخزائلي، محمد علي، (د.ت)، الإمامة والولاية في الكتاب والسنة، د.ط، قم المقدسة: دار التحقيق، ص ٤١.

(٢) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ٢: ص ٢٦.

سواء للمتطرفين أو المعتدلين. الحق والوصاية والوراثة لأهل البيت (عليه السلام) كما في قوله: «لهم خصائص حقّ الولاية وفيهم الوصية والوراثة». فهؤلاء هم المؤمنون حقاً المستكملون للعلم بالله، والعمل لله، السابقون المقربون الموقنون<sup>(١)</sup>. ولايتهم مستمدة من الحق الإلهي والنصّ النبوي، وهم الوصي والوارث الشرعي للرسول (صلى الله عليه وآله).

إذن، يؤسس الإمام علي (عليه السلام) لمفهوم الولاية على أساس التفرد والتميز الروحي والديني لأهل البيت (عليه السلام)، وليس لأي اعتبارات أخرى. وهذا ما يجعل ولايتهم حقاً إلهياً لا يُضاهى. ومن خطبة له (عليه السلام) في أصحابه وأصحاب رسول الله: «انظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبَدُوا وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا»<sup>(٢)</sup>.

في هذه الخطبة، يؤسس الإمام علي (عليه السلام) مفهوم الولاية على أساس الالتزام والاتباع الكامل لأهل البيت (عليه السلام) باعتبارهم أهل البيت النبوي وضمان الهداية والنجاة. وهذا يجعل ولايتهم حقاً إلهياً لا يُضاهى. التأكيد وضرورة الالتزام بأهل البيت (عليه السلام) بقوله «انظروا أهل بيت نبيكم، الزموا سمتهم واتبعوا أثرهم» يعكس أهمية الالتزام بهم، لأن الالتزام بأهل البيت (عليه السلام) هو ضمان للهداية والنجاة من الضلال والهلاك. وبقوله «إِنْ لَبَدُوا فَالْبَدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا» يؤكد ضرورة التوحد والاتباع التام لأهل البيت (عليه السلام) دون تقدّم أو تأخّر عنهم.

٤-٢. شروط الولاية: تتجلى في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، شروط الولاية بوضوح من خلال نصوصه وخطبه الشريفة. الإمام (عليه السلام) يؤسس مفهوم الولاية على أساس

(١) الطباطبائي، سيد محمد حسين، (١٤٠٧هـ)، رسالة الولاية، الطبعة الأولى، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ص ١٠٩.

(٢) دشتي، محمد، (١٣٨٩هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ٩٧: ص ١٢٨.



متين من المعايير والشروط التي تضمن حق الأئمة (عليه السلام) في القيادة والإمامة. وبذلك يرسم معالم شروط الولاية في فكره، والتي تقوم على التفرد الروحي والديني، والحق الإلهي والنص النبوي، والمرجعية والقيادة الروحية، والالتزام والاتباع التام لأهل البيت (عليه السلام).

ومن خطبة له (عليه السلام) خطبها بصفين: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لَا لِفَتْنِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا آدَتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ، وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ حَاجُ السُّنَنِ فَعُمِلَ بِأَهْوَى وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عُطْلٍ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ، فَهُنَالِكَ تَذُلُّ الْأَبْرَارُ وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تِبْعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ»<sup>(١)</sup>.

في هذا النص الثمين من كلام الإمام علي (عليه السلام)، يتجلى بوضوح رؤيته الشاملة لشروط الولاية وأسسها المتينة. يؤكد الإمام (عليه السلام) أن «أعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعية وحقّ الرعية على الوالي»، مما يؤسس لعلاقة متوازنة ومتكاملة بين الحاكم والرعية، إذ لا هيمنة فيها لأحدهما على الآخر. كما يشير الإمام (عليه السلام) إلى أن هذه الحقوق المتبادلة «فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلّ»، مما يؤكد أنها ليست مجرد تقاليد أو عرف، بل هي فريضة إلهية يجب الالتزام بها. يرى الإمام (عليه السلام) أن هذه الحقوق المتبادلة هي

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ٢١٦: ص ٣١٤.

«نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم»، أي إنّها تشكل أساس النظام الاجتماعي والسياسي، وتعزّز العزّة والكرامة الدينية للأمة. يؤكد الإمام (عليه السلام) أن «ليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاية ولا تصلح الولاية إلّا باستقامة الرعية»، مما يؤسس لعلاقة تكاملية بين الحاكم والمحكوم، فلا يمكن لأحدهما أن ينفرد بالصلاح دون الآخر. يرى الإمام (عليه السلام) أنّه عندما تؤدي الرعية حقّ الوالي وأدى الوالي حقّ الرعية، «عزّ الحقّ بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن»، ممّا يؤدي إلى استقرار المجتمع وبقاء الدولة. في المقابل، يشير الإمام (عليه السلام) إلى أنّه «إذا غلبت الرعية وإليها أو أجهف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاجج السنن»، مما يؤدي إلى انهيار النظام والعدل والاستقرار. بهذا، يرسم الإمام علي (عليه السلام) شروط الولاية على أساس التوازن والتكامل بين حقوق الوالي والرعية، والحقوق المتبادلة بوصفها فريضة إلهية، والنظام والعزة الدينية، والتكامل بين صلاح الولاية والرعية، والعدل والاستقامة بوصفها ضماناً للاستقرار، والانحراف والظلم بوصفهما مؤشرات للفساد.

ومن كلام له (عليه السلام) وفيه يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَوْلَايَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالْدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا أَجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا أَجَانِفِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا أَخَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا أَمْرَتَيْنِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحَقُّوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمُقَاتِعِ، وَلَا الْمَعْطَلُ لِلْسِّنَةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ»<sup>(١)</sup>. نلاحظ في هذه الفقرات من كلام الإمام علي (عليه السلام)، بوضوح رؤيته الكاملة لشروط الولاية والإمامة، يؤكد الإمام (عليه السلام) أنّه «أول من

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ١٣١: ص ١٧٤.

أناب وسمع وأجاب» بالصلاة، مما يشير إلى أهمية الالتزام بالصلاة والاستجابة لله تعالى كونه شرطاً أساسياً للولاية. كما يوضح الإمام (عليه السلام) أنه «لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضللهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه»، مما يؤكد أهمية تجنب البخل والجهل والجفاء في شخصية الولي. من الشروط الأخرى هو عدم التحيز والرشوة في الحكم، إذ يؤكد الإمام (عليه السلام) أنه «لا ينبغي أن يكون الوالي... الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع»، مما يشير إلى ضرورة العدل والنزاهة في الحكم والقضاء. يُظهر الإمام الالتزام بالسنة والحفاظ على الأمة ويحذر من «المعطل للسنة فيهلك الأمة»، مما يؤكد أهمية الالتزام بالسنة النبوية والحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية بوصفه شرطاً أساسياً للولاية. يرسم الإمام علي (عليه السلام) في هذا النص شروط الولاية على أساس الالتزام بالصلاة والاستجابة لله تعالى، وعدم البخل والجهل والجفاء، والعدل والنزاهة في الحكم والقضاء، والالتزام بالسنة والحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية. وهذه الشروط تعكس مدى تحقيقه لمبادئ التوحيد والعقيدة الإلهية في فكره. قال الفارابي: «أن يكون حكيماً، قويّ الجسم، قويّ العزيمة، جيد الفهم، جيد الحفظ، وافر الذكاء، حسن العبادة، محباً للعلم، يتحمل المتاعب في سبيله غير شره في اللذات الجسدية، محباً للصدق، كريم النفس، عادلاً ينصف الناس حتى من نفسه وأهله، شجاعاً مقداماً... إن اجتماع كل هذه الصفات في شخص واحد يكون نادراً، فإن أتيح توفرها في إنسان كان هو الرئيس، وإلا فالرئيس كل من اجتمع فيه أكبر قدر ممكن من هذه الصفات»<sup>(١)</sup>.

(١) الخزائلي، محمد علي، (د.ت)، الإمامة والولاية في الكتاب والسنة، د.ط، قم المقدسة: دار التحقيق، ص ١٢٥.

٤-٣. نصّ الميثاق الإلهي: نصّ الميثاق الإلهي لولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يعكس المكانة الرفيعة والمنزلة السامية التي منحها الله تعالى لهذا الإمام العظيم. فقد ربط الله نور إرادته وقدرته بولاية هذا الإمام الكريم، مما يشدّد على أنّ هذه الولاية ليست مجرد منصب دنيوي، بل تكليف إلهي ورباني. ومن خطبة له (عليه السلام) في رسول الله وأهل بيته: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنْ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ»<sup>(١)</sup>.

في هذه الفقرة من خطبة الإمام علي (عليه السلام)، نجده يقدم تحليلاً وصفيّاً وتفسيرياً عميقاً لمكانة أهل البيت (عليهم السلام) ومنزلتهم الرفيعة عند الله تعالى. الإمام (عليه السلام) يشبه آل محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بنجوم السماء، فكما أنّ النجوم تتلألأ وتنير الكون، كذلك آل البيت (عليهم السلام) هم نور الهداية والإرشاد للبشرية. عندما يغيب أحد هؤلاء النجوم العظام، يأتي من يخلفه ليكمل مسيرة الهداية والإصلاح. يؤكد الإمام علي (عليه السلام) أنّ الله تعالى قد أكمل صنائعه فيهم، أي إنّهم منحهم من علمه وحكمته وفضله ما يجعلهم قادة للبشرية ومرشدين للخلق. وعن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (سورة الزخرف: الآية: ٥٥) إنّ الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه، يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مربوبون. فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه. وذلك لأنّه جعلهم الدعاة إليه، والأدلاء عليه، فلذلك صاروا كذلك<sup>(٢)</sup>. هذا يعني أنّ مكانتهم ليست مكتسبة من البشر، بل هي منحة إلهية خالصة. يشير الإمام (عليه السلام) إلى أنّ الله تعالى قد أراهم ما كانوا يأملون، أي إنّهم منحهم من الفضل والكرامة ما فاق توقعاتهم وتطلعاتهم. هذا يؤكد عظمة هؤلاء الأئمة

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ١٠٠: ص ١٣٢.

(٢) الطباطبائي، سيد محمد حسين، (١٤٠٧ هـ)، رسالة الولاية، الطبعة الأولى، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ص ١١٧.

وسمّو مقامهم عند الله تعالى. فهم الحاملون للنور الإلهي والهداية الربانية. يقول العبدى الكوفى فى هذا المعنى:

نجومٌ نورها يهْدِي إِذَا مَا مَضَى نَجْمٌ أَبَانَ اللَّهُ نَجْمًا<sup>(١)</sup>

وَقَالَ (عليه السلام): «لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الصَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا» وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

يقدم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) تحليلاً عميقاً لنصّ الميثاق الإلهي للولاية وفقاً لفكره وتصوره. أولاً، يشير الإمام (عليه السلام) إلى أنّ الدنيا ستتجه نحوه بعد أن كانت مستكبرة وبعيدة عنه، وستصبح كعطف الناقة الشرسة على صغارها، حيث تدافع بشراسة وحماية شديدة. وهذا يعني أنّ الله تعالى سينصر أهل البيت (عليهم السلام) ويؤيدهم بعد أن كانت الدنيا معرضة عنهم ومتجاهلة لهم. يؤكد هذا أنّ الله تعالى أراد أن يجعل أهل البيت (عليهم السلام) قادة وأئمة للبشرية، وأن يكونوا الورثة الحقيقيين للأرض والخلافة. يعكس هذا النص رؤية الإمام علي (عليه السلام) للميثاق الإلهي للولاية، فهي ليست مجرد منصب دنيوي، بل تكليف رباني وإرادة إلهية لتمكين أهل البيت (عليهم السلام) وجعلهم قادة للبشرية. وهذا يبرز عظمة هذه الولاية وسمو مقام أهل البيت (عليهم السلام) في نظر الله تعالى.

وفي حديثه (عليه السلام): «فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنْبِهِ فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَرْعُ الْخَرْيفِ». قال الرضي اليسعوب السيد العظيم المالك لأمر الناس يومئذ، والقزع قطع الغيم التي لا ماء فيها<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد، سيد هاشم (١٩٩٥)، سفيان بن مصعب، الطبعة الأولى، قم المقدسة: المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام، ص ١٧٥.

(٢) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الحكمة ٢٠٩: ص ٤٨٠.

(٣) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، غريب الكلام ١: ص ٤٩٠.

يصف الإمام (عليه السلام) القائد الإلهي للأمة بأنه «يَعْسُوبُ الدِّينِ»، وهو تشبيه ذو دلالات عميقة. فالْيَعْسُوبُ هو قائد النحل وملكها، مما يشير إلى أن القائد الذي يضرب بذنبه هو السيد العظيم والمالك لشؤون الناس. وصفه بـ«يَعْسُوبُ الدِّينِ» يبرز أن هذا القائد هو قائد الدين والشرعية، وليس مجرد قائد سياسي أو دنيوي. ثم يشبه تجمع الناس حول هذا القائد بتجمع «قَزَعِ الحَرِيفِ»، وهو تشبيه ذو دلالات عميقة أيضاً. القَزَعُ هي قطع الغيم التي لا ماء فيها، ويشير هذا إلى أن الناس سيتجمعون حول هذا القائد بكثافة وبشكل غزير، كما تتجمع قطع الغيم. تحديد ذلك بـ«قَزَعِ الحَرِيفِ» يوضح أن هذا التجمع سيحدث في وقت الحاجة والضرورة، كما يتجمع السحب في فصل الخريف. من خلال هذه التشبيهات البلاغية القوية، يرسم الإمام علي (عليه السلام) صورة واضحة للميثاق الإلهي للولاية، حيث يكون القائد الإلهي السيد العظيم والمالك لشؤون الناس في الدين والدنيا، ويتجمع الناس حوله بكثافة وإلحاح في أوقات الحاجة والضرورة. وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «إذا نادى مناد من السماء؛ إِنَّ الحَقَّ في آل محمد، فعند ذلك يظهر المهدي على أفواه النَّاسِ ويُشربون حُبَّهُ، فلا يكونُ هُمْ ذِكْرُ غَيْرِهِ»<sup>(١)</sup>.

### التوحيد والعقيدة:

واجه الإمام علي في زمنه، العديد من التحديات السياسية والدينية، وكان دائماً يعود إلى مفهوم التوحيد كونه مرجعاً أساسياً في توجيه سلوك الأمة. كان يرى أن التمسك بالتوحيد هو الطريق الوحيد لتحقيق الوحدة والأمان في المجتمع. الإمام علي لم يكن مجرد قائد ديني، بل كان أيضاً فيلسوفاً عميقاً. فقد قدم تفسيرات فلسفية للتوحيد، مشيراً إلى أن العقل البشري قادر على إدراك وجود الله من خلال التأمل في آيات الكون وآثاره. ومن كلام

(١) عاشور، السيد علي، (٢٠٠٨)، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الجزء العاشر، د.ط، د.م،

له عليه السلام، وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين: «أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلَ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ أَلْمُوتِ فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي دَخَلْتُ إِلَى أَلْمُوتِ أَوْ خَرَجَ أَلْمُوتُ إِلَيَّ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ؛ فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعُشُوا إِلَى ضَوْئِي، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا»<sup>(١)</sup>.

يُظهر الإمام إيمانه العميق بأن الموت جزء من القدر الإلهي عندما يقول: «مَا أَبَالِي دَخَلْتُ إِلَى أَلْمُوتِ أَوْ خَرَجَ أَلْمُوتُ إِلَيَّ». يعكس هذا الإيمان رؤية التوحيد التي تؤكد أن كل شيء بيد الله، وأن الإيمان الحقيقي يتطلب التسليم لمشيئته. إشارته إلى أنه «يأمل أن تلحق به طائفة فتهتدي به» تعكس رؤيته التوحيدية التي تركز على الهداية والرحمة. فهو يفضل الهداية على القتل، مما يدل على أن هدفه ليس الانتصار العسكري فحسب، بل إنقاذ النفوس من الضلال. تتماشى هذه الرؤية مع مفهوم التوحيد الذي يُعلي من قيمة الإنسان ويعتبره هدفًا للرحمة الإلهية. من خلال قوله إنه لا يسعى للقتال إلا إذا كان ذلك في سبيل الهداية، يعكس الإمام سياسة توحيدية ترفض العنف كونه وسيلة لتحقيق الأهداف. وعدم بدء القتال لا يعني الخوف من العدو وإنما يكره الإمام أن يبدأ القتال، فمن حكمة لأمر المؤمنين عليهم السلام قالها لولده الحسن عليه السلام: «لَا تَدْعُونَ إِلَى مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ، وَالْبَاغِي مَضْرُوعٌ»<sup>(٢)</sup>. فهو يؤكد أن القتال يجب أن يكون دفاعًا عن الحق، وليس لمجرد الانتصار على الأعداء، مما يعكس روحًا من التسامح والتفهم. تأكيد الإمام على طموحه في أن تهدي طائفة من أهل الشام، يعكس روح التفاؤل والأمل في إمكانية تغيير القلوب. ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ٥٥: ص ٧٤.

(٢) الخفاجي، محمد حمزة، (١٤٣٩ هـ)، صناعة القائد في فكر الإمام علي عليه السلام: العباس بن علي أنموذجًا، الطبعة الأولى، كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ص ٨٨.

نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ، وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمَشْبَهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا، وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لَأَمْرِكُمْ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِكُمْ»<sup>(١)</sup>.

يبدأ الإمام بتأكيد أن الله بعث رسولا هاديا بكتاب ناطق وأمر قائم، مما يعكس أهمية العقيدة الإسلامية بوصفها مرجعا أساسيا للحياة. يُبرز هذا التأكيد للرسالة النبوية ضرورة الالتزام بالتعاليم الإلهية، حيث يُعتبر الرسول مرشدا للأمة في مسيرتها. كما يُحذر الإمام من الابتداع والممارسات المشبوهة التي تُعد مهلكة، مشددا على أهمية الالتزام بالعقيدة الصحيحة والابتعاد عن الانحرافات التي قد تؤدي إلى الضلال. يُظهر هذا التحذير دور الولاية في الحفاظ على العقيدة النقية من خلال طاعة الله ورسوله. وعن عمار قال لي رسول الله ﷺ: يا عمار! تقاتل مع عليّ على تأويل القرآن كما قاتلت معي على تنزيله<sup>(٢)</sup>. ويشدد الإمام على أن في سلطان الله عصمة لأمر الأمة، مما يعني أن طاعة الله وولي الأمر جزء أساسي من الحفاظ على الوحدة والعدالة. يبرز هذا الربط بين الطاعة والولاية كيف أن الالتزام بأوامر الله يعزز استقرار المجتمع وبقائه من الفتن. كما يُحذر الإمام من أن عدم الطاعة سيؤدي إلى فقدان سلطان الإسلام، مما يدل على أن الولاية ليست مجرد سلطة، بل مسؤولية تتطلب الالتزام والطاعة. يُشير إلى أن فقدان هذا السلطان قد يؤدي إلى عواقب وخيمة على الأمة، حيث ينتقل الأمر إلى غيرهم. يدعو الإمام أيضا إلى تقديم الطاعة بلا لوم أو إكراه، مما يعكس أهمية التعاون بين الحاكم والمحكوم في بناء مجتمع صالح. يُظهر هذا الجانب من الخطبة كيف أن التوحيد والعقيدة الصحيحة يتطلبان تضافرا الجهود لتحقيق الأهداف المشتركة.

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الخطبة ١٦٩: ص ٢٢٨.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (١٤١٩ هـ)، شذرات من كتاب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام وكتاب الولاية، تحقيق: رسول جعفریان، الطبعة الأولى، قم المقدسة: منشورات الدليل، ص ٩١.



## الإدارة السياسية والحكم:

كان الإمام علي يؤمن بأهمية الشورى في اتخاذ القرارات السياسية، فقد دعا إلى مشاركة الناس في الحكم، مما يعكس احترامه لآراء الآخرين واعتباره أن الحكم يجب أن يعبر عن إرادة الشعب. كما تضمنت رؤية الإمام للحكم مفهوم الأمانة، حيث كان يرى أن القائد يجب أن يكون أميناً على مصالح الأمة. كان يرفض الفساد والمحسوبية، مشدداً على ضرورة العمل لخدمة الناس. ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيش: «مَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلِيٌّ بَنِي أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُونَاً مِنْ عِبَادِهِ وَعَظُفاً عَلَى إِخْوَانِهِ. أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِراً إِلَّا فِي حَرْبٍ وَلَا أَطْوِي دُونَكُمْ أَمراً إِلَّا فِي حُكْمٍ وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مُحَلِّهِ وَلَا أَقْفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لَكُمْ النِّعْمَةُ وَلِي عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ وَلَا تَفْرُطُوا فِي صَلَاحٍ وَأَنْ تَحْضُوا الْعِمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعْوَجِّ مِنْكُمْ ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ وَلَا يَحْدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ وَالسَّلَامُ»<sup>(١)</sup>.

يؤكد الإمام في رسالته أهمية عدم التمييز بين الرعية، مشدداً على أنه لا ينبغي للوالي أن يميز بين الأفراد بناءً على فضل أو ميزة خاصة. يعكس ذلك التزامه بمبدأ العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، وهو أساس الحكم الرشيد. يبرز الإمام ضرورة معاملة الوالي لرعيته بعطف واهتمام، ويشدد على أهمية تعزيز النعم التي منحها الله لهم، مما يدل على مفهوم الأمانة في الحكم. يجب على القائد أن يكون أميناً على مصالح الناس ويسعى

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٥٠: ص ٤٠٠.

لتحسين حياتهم. يعلن الإمام أنه لن يحتفظ بسرّ عن رعيته إلّا في حالات الحرب، مما يبرز أهمية الشفافية في الإدارة. فالقيادة هي القدرة على التأثير في الآخرين بحيث تجذبهم إلى حدّ أنهم يصبحون مسيرين وليسوا مخيرين؛ فهذه هي أسرار القيادة الناجحة، حتى يصل القائد الناجح إلى الاعجاز<sup>(١)</sup>. يجب أن يكون القائد واضحاً وصريحاً مع الناس لتعزيز الثقة بين الحاكم والمحكوم. يتحدث الإمام عن واجب الطاعة من الرعية، مشيراً إلى أن ذلك يجب أن يكون نتيجة للعدل والإحسان الذي يقدمه الوالي. توضح هذه النقطة العلاقة التبادلية بين الحاكم والمحكوم، حيث تُبنى الطاعة على أساس الحق والعدل. ومن كتاب له (عليه السلام) كتبه للأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن: «وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَبِعَدْلِكَ الْفَقْرَ وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ السَّرَّهَ بِالْجَوْرِ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

يشدّد الإمام على أهمية اختيار المستشارين بعناية، حيث يجب أن يتمتعوا بالنزاهة والكرم. يعكس ذلك فهمه العميق لدور المشورة في اتخاذ القرارات السياسية، إذ إن اختيار الأشخاص المناسبين يمكن أن يؤثر بشكل كبير في نتائج الحكم. يحذّر الإمام من إدخال البخل، الجبن، والحريص إلى دائرة المشورة، حيث تعتبر هذه الصفات معوقات للحكم الرشيد؛ فالبخل قد يؤدي إلى قرارات متحفظة تعيق التقدم، والجبن قد يضعف العزيمة في مواجهة التحديات، والحريص قد يسبب انحرافاً عن المبادئ الأخلاقية. يربط الإمام بين هذه الصفات وسوء الظن بالله، مما يدلّ على أن القائد يجب أن يكون مؤمناً وواثقاً

(١) الخفاجي، محمد حمزة، (١٤٣٩هـ)، صناعة القائد في فكر الإمام علي (عليه السلام): العباس بن علي أنموذجاً، الطبعة الأولى، كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ص ١٨.

(٢) دشتي، محمّد، (١٣٨٩هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٥٣: ص ٤٠٦.

في قدرات الله ورزقه. يعكس هذا أهمية الإيمان بوصفه عنصراً أساسياً في القيادة، حيث يجب على الحاكم أن يثق بأن الله سيعطيه ما يحتاجه إذا كان عادلاً وصالحاً. يدعو الإمام إلى اختيار المستشارين الذين يتمتعون بالفضيلة، مما يبرز أن القيم الأخلاقية يجب أن تكون محوراً في الحكم. القائد الذي يحيط نفسه بأشخاص ذوي أخلاق عالية سيكون أكثر قدرة على اتخاذ قرارات تصب في مصلحة المجتمع. يشير الإمام إلى أن المشورة تؤثر بشكل مباشر في القرارات التي يتخذها الحاكم، وأن اختيار مستشارين ذوي صفات سلبية يمكن أن يؤدي إلى قرارات خاطئة تؤثر سلباً في المجتمع.

### العدل والجود:

في رؤية الإمام، العدل ليس مجرد مبدأ أخلاقي، بل هو واجب يتطلب من الحاكم أن يكون عادلاً في حكمه، مراعيًا حقوق جميع الأفراد دون تمييز. أما الجود، فيعكس روح الكرم والعطاء التي يتمتع بها الإمام. يُفهم الجود في سياق الولاية واجباً يفرض على الحاكم أن يكون معطاءً، ليس فقط بتقديم الدعم المادي، بل أيضاً بالعون المعنوي والنفسي للرعية. ومن كتاب له (عليه السلام) إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ. فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عَوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ. فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا اقْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ رَاجِيًا ثَوَابَهُ وَمُتَخَوِّفًا عِقَابَهُ»<sup>(١)</sup>.

يعبر الإمام علي (عليه السلام) في كتابه إلى الأسود بن قطبة عن رؤى عميقة تتعلق بالعدل والمساواة والجود، مما يعكس فهمه العميق لمفهوم الولاية. يؤكد الإمام أن الوالي يجب أن يكون عادلاً، مشدداً على أن الاختلاف في الهوى يمكن أن يمنع تحقيق العدل. يشير ذلك إلى أن العدل

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٥٩: ص ٤٢٤.

ليس مجرد واجب أخلاقي، بل هو ضرورة سياسية لضمان استقرار المجتمع. كما يبرز الإمام أهمية المساواة بين الناس، حيث يشدد على أن الجميع يجب أن يُعاملوا على قدم المساواة في الحق. تعكس هذه الرؤية مفهوم المساواة، حيث يجب معاملة الجميع بشكل عادل دون تمييز أو تحيز، مما يعزز فكرة أن العدالة هي أساس الحكم الرشيد. يحذر الإمام من الجور، مشيرًا إلى أنه لا يمكن تعويض ظلم العدل. يبرز هذا التحذير أهمية الابتعاد عن الظلم والفساد، ويعكس التزام الإمام بمبادئ العدالة بوصفها جزءاً أساسياً من الولاية. وفي كتابه للأشتر النخعي: «وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِيفِهِ الْمُتُونَاتِ عَلَيْهِمْ وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

يقدم الإمام علي (عليه السلام) في هذه الرسالة رؤية عميقة حول العدل والجود، مما يعكس فهمه الشامل لمفهوم الولاية. يبدأ الإمام بالتأكيد أن الإحسان إلى الرعية هو أحد العوامل الأساسية التي تعزز حسن الظن بين الراعي والرعية، حيث يشير إلى أن إحسان الوالي إلى شعبه هو الأهم. من خلال تقديم الرعاية والمساعدة، يمكن للوالي أن يكسب ولاء الناس وثقتهم، مما يساهم في استقرار الحكم. كما يبرز الإمام أهمية تخفيف الأعباء والضغوط عن الرعية، مما يعكس مفهوم الجود. يجب على الوالي أن يسعى إلى تخفيف الضغوط الاقتصادية والاجتماعية على الناس، حيث يساعد ذلك في تحسين نوعية حياتهم ويعزز شعورهم بالعدالة. توفير ظروف معيشية أفضل للرعية يعكس التزام الوالي بمسؤولياته تجاههم. علاوة على ذلك، يشير الإمام إلى ضرورة تجنب استكراه الرعية على ما ليس لديهم القدرة عليه، مما يعكس التزامه بمبادئ العدل. يجب على الوالي أن يتجنب فرض الأعباء الثقيلة على الناس، لأن ذلك قد يؤدي إلى الظلم والاستغلال. هذا التحذير يعكس فهم الإمام العميق لطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، حيث يجب أن تكون قائمة على الاحترام

(١) المصدر نفسه، الرسالة ٥٣: ص ٤٠٦.

والعدالة. من خلال هذه المبادئ، يظهر الإمام علي (عليه السلام) أنَّ الولاية ليست مجرد سلطة، بل هي مسؤولية أخلاقية تتطلب التفاني في خدمة الناس. يجب على الوالي أن يكون قدوة في الجود والعدل، مما يعزز من قيم المجتمع ويضمن استقراره. ومن كتاب له (عليه السلام) كتبه للأشتر النخعي: «وإنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوَلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وِلَاةِ الْأُمُورِ وَقَلَّةِ اسْتِثْقَالِ دَوْلِهِمْ وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مَدَّتِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

يرى الإمام أنَّ «استقامة العدل في البلاد» تعدّ من أبرز المزايا التي يمكن أن يتحلّى بها الولاية. يبرز هذا المفهوم أهمية العدل ركيزة أساسية في الحكم، حيث يُعزز الاستقرار الاجتماعي ويضمن حقوق المواطنين. يُعتبر تحقيق العدالة واجباً على الحاكم، ويعكس التزامه بالقيم الأخلاقية والسياسية. يشير الإمام إلى أنَّ «ظهور مودة الرعية» هو نتيجة مباشرة للعدل. عندما يشعر الناس بأنهم يُعاملون بشكل عادل، فإنّ ذلك يعزز مشاعر الولاء تجاه ولاة الأمور. هذه العلاقة الإيجابية ضرورية لبناء مجتمع متماسك. يؤكّد الإمام أنّه لا يمكن أن تظهر مودة الرعية إلا «بسلامة صدورهم». إنّ سلامة القلوب تعكس الشعور بالأمان والطمأنينة، وهو ما يتحقق من خلال العدل والإنصاف. إذا كانت قلوب الناس مليئة بالاستياء، فإنّ ذلك يؤدي إلى تفكّك العلاقات الاجتماعية. يشدّد الإمام على أنَّ «نصيحتهم لا تصحّ إلا بحبيطة الولاية». يجب على الحكام أن يكونوا حريصين على مصالح المواطنين وأن يستمعوا إلى آرائهم. تفاعل الولاية مع الرعية يعكس مستوى الشفافية في الحكم، مما يُعزز الثقة بين الطرفين. يُشير الإمام إلى ضرورة «قلة استثقال دولهم» و«ترك استبطاء انقطاع مددهم»، مما يعني أن المواطنين يجب أن يشعروا بالراحة والرضا تجاه

(١) دشتي، محمّد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٥٣: ص ٤٠٨.

حكمهم. إذا شعر الناس بالظلم أو عدم العدالة، فإن ذلك سيؤدي إلى عدم قبولهم للحكم، مما يهدد استقرار الدولة. قال الرضائي: «والمراد بأولي الأمر أمراء الحق، لأنّ أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم... وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك»<sup>(١)</sup>.

### العدالة الاجتماعية:

تُعبّر رؤية الإمام علي للعدالة الاجتماعية عن فهم عميق لدور الولاية بوصفها وسيلة لتحقيق المصلحة العامة، حيث يُعتبر العدل أساس الحكم الرشيد. من خلال هذه الرؤية، يُبرز الإمام قيمة الإنسان ويشدّد على أهمية العمل الجماعي لتحقيق العدالة والمساواة، مما يجعل من فكره نموذجاً يُحتذى به في السعي نحو مجتمع عادل ومزدهر. ومن كتاب له (عليه السلام) إلى بعض عماله: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ يَمُنُّ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ وَأَسُدُّ بِهِ هَاةَ الشَّغْرِ الْمُخَوِّفِ فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ وَاخْطِ السُّدَّةَ بِضَغْثٍ مِنَ اللَّيْلِ وَأَرْقُ مَا كَانَ الرِّقُّ أَرْفَقَ وَاعْتَزِمِ بِالسُّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا السُّدَّةُ وَارْخُضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ وَأَبْسُطْ هُتْمَ وَجْهَكَ وَأَلِنْ هُتْمَ جَانِبِكَ وَأَسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَنَاسُ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ وَالسَّلَامُ»<sup>(٢)</sup>.

يبرز الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في هذه الرسالة أهمية دور الوالي في إقامة الدين وتحقيق المساواة بين الناس. يبدأ الإمام بتأكيد ضرورة الاستعانة بالله لمواجهة التحديات، مما يعكس التزامه الروحي والأخلاقي تجاه رعيته. يؤكد الإمام أهمية التوازن بين الحزم واللين

(١) الخزائي، محمد علي، (د.ت)، الإمامة والولاية في الكتاب والسنة، د.ط، قم المقدسة: دار التحقيق، ص ٢٣٩.

(٢) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٤٦: ص ٣٩٦.

في التعامل مع الرعية. فبينما تتطلب بعض المواقف الصرامة، يعزّز اللين التعاون والثقة. يعكس هذا التوازن فهم الإمام العميق لطبيعة العلاقات الإنسانية، حيث يسعى لتحقيق المصلحة العامة دون تفضيل أي فئة على أخرى. يوجّه الإمام عماله إلى ضرورة إظهار الرفق بالناس، حيث يجب أن يكون الوالي قريباً من المجتمع، يظهر لهم الاحترام والمودة. إنّ خفض الجناح وبسط الوجه يعكسان أهمية توفير بيئة آمنة ومحبة، مما يسهم في تعزيز العدالة الاجتماعية. يضمن هذا السلوك عدم استغلال الأقوياء للضعفاء، ويشعر الجميع بالأمان. علاوة على ذلك، يشدّد الإمام على ضرورة المساواة في المعاملة، سواء في النظرة أو التحية. تعكس هذه المساواة قيم العدالة، حيث يجب أن يشعر الجميع أنهم متساوون أمام القانون، مما يعزّز الثقة في نظام الحكم ويقلل الفجوات الاجتماعية. كما يشير الإمام إلى أهمية عدم يأس الضعفاء من عدل الوالي، مما يعكس التزامه بتحقيق العدالة للجميع. ضمان عدم شعور الضعفاء باليأس يعكس رؤية الإمام في ضرورة أن يكون الحكم عادلاً وشاملاً، مما يؤدي إلى مجتمع متوازن ومستقر.

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة: «سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

تعدّ هذه الرسالة من أبرز النصوص التي تعكس رؤية الإمام علي عليه السلام للعدالة الاجتماعية ودورها في الحكم، حيث تحتوي على توجيهات مهمة تعكس فلسفته في إدارة شؤون المجتمع. يبدأ الإمام بتوجيه عبد الله بن العباس إلى ضرورة «سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ»، مما يبرز أهمية التواصل الإيجابي مع الناس. يجب أن يكون الحاكم

(١) دشتي، محمد، (١٣٨٩ هـ.ش)، ترجمة نهج البلاغة، الطبعة الثالثة، قم المقدسة: منشورات علويون، الرسالة ٧٦: ص ٤٣٨.

متاحًا وودودًا لتعزيز شعور الأفراد بالانتماء والاحترام، وهو سلوك يُعتبر جزءًا أساسيًا من العدالة الاجتماعية، ويظهر اهتمامه بمصالح رعيته. كما يُبرز التحذير من «الغضب» أهمية ضبط النفس في الحكم، إذ يُعدّ الغضب عائقًا أمام تحقيق العدالة، وقد يؤدي إلى اتخاذ قرارات غير مدروسة أو ظالمة. من خلال هذا التوجيه، يشدد الإمام على ضرورة أن يتحلّى الحاكم بالعقلانية والموضوعية، مما يساهم في خلق بيئة من الإنصاف. تأكيد الإمام أن «مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ» يعكس أهمية النية الصالحة في العمل، حيث يجب أن تكون الأفعال موجهة نحو الخير والصالح. إنّ تحقيق العدالة الاجتماعية يتطلب من الحاكم دافعًا روحيًا وأخلاقيًا يسعى من خلاله إلى خدمة المجتمع. علاوة على ذلك، يُبرز الإمام على أنّ العدالة ليست مجرد واجب سياسي، بل هي قيمة إنسانية تتطلب من الحاكم العمل على تحقيق الخير العام، مع الحرص على حقوق جميع الأفراد، وخاصة الفئات الضعيفة.

يمكن القول إنّ كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حول العدالة الاجتماعية يُعبر عن رؤية شاملة للولاية، حيث يركز على العدل، الأمانة في المال، وتحقيق المساواة بين الأفراد. تشكل هذه المبادئ أساسًا قويًا لفهم العدالة الاجتماعية في الإسلام، وتعكس التزام الإمام بالقيم الأخلاقية التي يجب أن يتحلّى بها كلّ قائد.



## الخاتمة والنتائج

تجدر الإشارة إلى أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، تحتل الولاية مكانة محورية تُفهم على أنها ولاية إلهية روحية تتجاوز البعد الزمني والمكاني. يُنظر إلى الولاية على أنها امتداد للنسبة والرسالة، ويعتمد شرعيتها على التعيين الإلهي والنص النبوي، وليس على الاعتبارات السياسية أو الاجتماعية. تستند الولاية عند الإمام علي إلى ثلاثة أركان رئيسة: أولاً، العلم الكامل بالدين والحقائق الإلهية؛ ثانياً، التعيين الإلهي والنص النبوي؛ وثالثاً، امتلاك أبواب الحكم وضيء الأمر.

تُحدّد شروط الولاية في فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، على أساس متين يتضمن التفرد الروحي والديني، الحق الإلهي والنص النبوي، والالتزام الكامل بأهل البيت (عليهم السلام). يشدّد على أهمية العدالة والنزاهة في الحكم، والابتعاد عن الجهل والبخل والجفاء، والالتزام بالسنة النبوية. كما يبرز أهمية حسن المعاملة وحماية المجتمع وتعزيز الكرامة الإنسانية. هذه الشروط تشكّل الأسس الجوهرية للقيادة الرشيدة في الإسلام.

يُبرز نص الميثاق الإلهي لولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) المكانة السامية التي منحها الله للإمام، حيث تُعتبر الولاية تكليفاً إلهياً لا يتغير. يشدّد الميثاق على أن الإمام علي يمثل نوراً إلهياً وقيادة ربانية، ولديه تأثير عظيم في تاريخ البشرية. يُشبه الإمام أهل البيت بالنجوم التي تهدي البشرية، مؤكداً أن الله قد منحهم من الفضل ما فاق توقعات الناس. كما يتوقع الإمام أن تتغير الدنيا لصالح أهل البيت، وأن يصبحوا قادة للأمة بعد فترة من الإغراض. يُظهر الإمام من خلال خطبه أن القيادة الإلهية تتطلب الالتزام بالشرعية والنزاهة والعدالة، والتحذير من الانحرافات والبدع.

يربط الإمام علي عليه السلام بين التوحيد والأخلاق، مؤكداً أنّ الإيمان بالله يتطلب التحلي بالفضيلة والعدل. اعتبر التوحيد سلوكاً يتجلى في حياة الأفراد والمجتمع، وكان يواجه التحديات السياسية والدينية بناءً على هذا المفهوم. وصف الإمام هدفه من الولاية بأنه ليس للسلطة أو المال، بل لإصلاح الدين وحماية المظلومين، وشرح أنّ الولاية مسؤولية عظيمة تتطلب الالتزام بالطاعة والتقوى. كما أشار إلى أهمية الهداية والتسامح، مفضلاً أن تُهدي طائفة من أهل الشام على الانتصار عليهم.

كان الإمام علي يؤمن بأهمية الشورى ومشاركة الناس في الحكم، مؤكداً أنّ القائد يجب أن يكون أميناً على مصالح الأمة ويعمل على خدمة الناس دون فساد أو محسوبية. وشدد، في رسالته إلى أمرائه، على عدم التمييز بين الأفراد، وتأكيد الطاعة بناءً على العدالة والإحسان. كما حذّر من إدخال أشخاص ذوي صفات سلبية مثل البخل والجبن إلى دائرة المشورة، وأكد أهمية اختيار مستشارين نزهاء وعدم الاعتماد على الوزراء الفاسدين. يعكس ذلك فهمه العميق لأسس الحكم الرشيد والعدالة.

في رؤية الإمام علي، العدالة ليست مجرد مبدأ أخلاقي، بل هي أساس الحكم الرشيد، حيث يجب على الحاكم تحقيق المساواة بين الأفراد وتجنب استغلال القوي للضعيف. الجود، بالنسبة للإمام، هو واجب على الحاكم، ويعني تقديم الدعم المادي والمعنوي للرعية لتعزيز الروابط الاجتماعية. يشير أيضاً إلى أهمية الابتعاد عن الظلم والفساد، ويشجع على اختيار مستشارين نزهاء وألا يكون للحكم دور في تعزيز الفساد أو الجور.

## المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

١. الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد. (د.ت). المفردات في غريب القرآن. الجزء الأول. د.ط. د.م: مكتبة نزار مصطفى الباز.
٢. الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٩٧٩م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الطبعة الثانية. بيروت: دار العلم للملايين.
٣. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (١٤٣١هـ). إمام شناسي. الجزء الثاني. الطبعة العاشرة. مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره.
٤. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (١٤٣١هـ). إمام شناسي. الجزء الخامس. الطبعة التاسعة. مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره.
٥. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (١٤٢٩هـ). إمام شناسي. الجزء الثامن. الطبعة السابعة. مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره.
٦. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (١٤٣١هـ). إمام شناسي. الجزء التاسع. الطبعة السابعة. مشهد المقدسة: منشورات العلامة الطباطبائي قدس سره.
٧. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (١٤٣١هـ). مطلع الأنوار. الجزء الرابع. الطبعة الأولى. طهران: مكتب الوحي.
٨. الحسيني الطهراني، سيد محمد حسين. (د.ت). معرفة المعاد. الجزء الثاني. د.ط. بيروت: دار المحجة البيضاء.

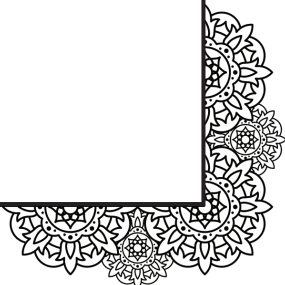
٩. الخوري الشرتوني اللبناني، سعيد. (١٤٠٣هـ). أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد. د.ط. قم المقدسة: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.
١٠. رضا، محمد. (١٤١٨هـ). الإمام علي بن أبي طالب. تحقيق: محمد أمين ضناوي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.
١١. الطباطبائي، سيد محمد حسين. (١٣٩٠هـ). الميزان في تفسير القرآن. الجزء التاسع. د.م. د.ط.
١٢. القرشي، باقر شريف. (١٤٢٢هـ). موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام. الجزء الأول. الطبعة الأولى. قم المقدسة: دار الهدى للطباعة والنشر.
١٣. محمد، سيد هاشم. (١٩٩٥). سفيان بن مصعب. الطبعة الأولى. قم المقدسة: المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام.
١٤. المقرئ القيومي، أحمد بن محمد بن علي. (د.ت). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. تحقيق: عبد العظيم الشناوي. الطبعة الثانية. القاهرة: دار المعارف.





استشرافات امير المؤمنين عليه السلام  
(الحاضر والمستقبل)

الباحث  
الشيخ طه حافظ خميس



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وَمَنْ عَلَيْنَا بِالْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِخَاصَّتِهِ وَخَالَصَتِهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَأَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى، وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْوَسِيلَةِ الْعَظْمَى، وَأَبْوَابِ رَحْمَةِ الْمَوْلَى، الْمُتَمَسِّكِ بِهِمْ نَاجٍ، وَالْمُتَخَلِّفِ عَنْهُمْ هَاجٍ، الْحَجَّجِ الْكَرَامِ، وَالْأَثَمَةِ الْأَعْلَامِ، وَاللَّعْنِ الدَّائِمِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، الْفَجْرَةِ الْأَشْرَارِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ النَّوَاصِبِ وَالْكَفَّارِ، إِلَى يَوْمِ الْإِحْضَارِ، وَبَعْد...

كل ما تركه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لطيف، ومن ذلك سيرته الغراء، فهي صفحات مشرفة وضاء مشرقة، تفيض عزاً وكرامة، نبلاً وشهامة، عفة وزهادة، توسمت فيه أعالي الصفات، وهم غاية مكارم الأخلاق. وعند الاطلاع على صفحات التاريخ والتماس معرفة بعض سيرة المعصومين (عليهم السلام)، يدفعنا الشوق إلى تلك الصفحات الخالدة التي رسمتها تلك الأيام الخوالي وهي تتحدث عن سيد الأوصياء، نفس سيد الأنبياء، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مزيج الإيمان والجهاد والثورة والفكر والإنسانية وجميع القيم المتعالية، فهو الوارث لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام)، وارث قريش والعرب، وارث عبد المطلب وأبي طالب، وارث كل شموخ الأصلاب، من الأب آدم مروراً بكل قادة الحرية واليقظة في تاريخ البشرية، مروراً بإبراهيم العظيم وموسى الكليم وعيسى الخليم ومحمد الكريم (صلوات الله عليهم أجمعين)، هذا هو أمير المؤمنين نسيج القيم والمعاني الروحية (صلوات الله عليه). بعلي (عليه السلام) تبدأ سلسلة العصمة الحميدة، وبولده تختتم الحياة الرتيبة.

في بحثنا المتواضع هذا لا يسعنا أن نترجم بعضاً ما قاله سيد الأوصياء والأتقياء، إلا إنّا طمعنا أن نتقرب من الرحمة الإلهية، فنلتمس الرشحات القدسية من عقب ألفاظه الفياضة، وهو يخبر العباد عن المغيبات التي يعجز معرفتها غيره، بل جهلها عامة الناس وخاصتهم، فيخبر عن الماضي السحيق، والمستقبل القريب والبعيد، يخبر عن أحداث، وقعت في أزمنة متعددة، وأحداث لم تأت بعد، تنبئ عن مستقبل الأحداث والخطوب، جاءت مطابقة للواقع بكل تفاصيلها ودقة أحداثها، وكأنّه ﷺ عاش تلك الأزمنة ومرّ بأوقاتها، كما إنّه أخبر عن مهدي هذه الأمة، وأنّ له غيبة تطول، فيصبر فيها المؤمنون ويشبتون على نهج الأوصياء، وينزلق فيها آخرون نحو الباطل، يمتيتون الحقّ ويظهرون البدع، ليس فيهم واع، همج رعا، لا يردّهم مانع، ولا يردّهم رادع، ولا يحجزهم وازع. فيأتي دوره في تقديم العظة والإرشاد، لبناء المجتمعات السليمة الخالية من الأمراض السقيمة التي تنخرها البدع والاهواء والفساد، بدءاً بالنواة أو اللبنة الأساسية (العائلة) حيث يبدأ تسمية الأولاد وينتهي صعوداً بالمجتمعات. وكذلك تضمن بحثنا استشراف الإمام علي ﷺ الاحداث والخطوب التي تمر على الأمة والعالم في المستقبل القريب والبعيد.

راجين العلي القدير أن يوفقنا للتمسك بنهج الإمام علي بن ابي طالب ﷺ والالتزام بأوامرهم، ويوفقنا لمعرفةهم (صلوات الله عليهم أجمعين) إنّه سميع بصير؛ والحمد لله رب العالمين.



### تمهيد:

لعلّ التطورات التي شهدتها العلوم الإنسانية في الدراسات الاستشرافية، والتي تهدف إلى التطلع إلى المستقبل القريب أو البعيد أو عموم المستقبل تعدّ من التطورات المهمة في بناء مجتمعات سليمة ممنهجة وفق رؤى تستنهض الواقع وإيجاد البدائل التي تساعد في البناء الفكري والسلوكي. وإذا كانت الدراسات الحديثة المعاصرة تسعى جاهدة تحديد احتمالات معينة تجني من ثمارها النفع ودفع الضرر، فتبدأ بالحاضر لتنتقل إلى المستقبل البعيد في تصور تقريبي يقوم على الأبحاث والدراسات واستقراء العلماء وأفكارهم.

ولو اطلعنا على ما كان يستشرفه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أمور، قد يستيقنها البعض بأنّها من علم الغيب وذلك لمطابقتها للواقع. ولعلّ إرشادات الإمام علي (عليه السلام) التي كان يوجهها إلى شرائح المجتمع المسلم لم يمعن النظر فيها والتأمل في رسلها إرسال المسلمين التي لا تقع في محور الاحتمالات أو الظنّيات، بل وكأنّه يعيش غمار تجربتها، وإن لم تكن في زمانه. ونرى الإمام (عليه السلام) ينصح ويرشد ويقود الأمة دون الرجوع إلى حيثيات الأحداث واستقراء المفردات وترتيبها، كما يفعل غيره الذي يقع في الخطر المحذور، ويعرض غيره إلى الأخطار والمحاذير المهلكة، بل إنّ (عليه السلام) بحث على البناء الفكري، والمادي، والروحي للأجيال اللاحقة ومحذراً من الأخطار التي تهدف إلى انحراف الأمة وضياعها.

ومن استشرافاته (عليه السلام) أنّه ينبه الآباء إلى العملية التربوية للأجيال وسبل الارتقاء بالأجيال إلى مستوى تحمل المسؤولية في بناء مجتمع قوامه الإسلام المحمدي الأصيل. وكذلك يوضح في جملة من كلامه (عليه السلام) الأساليب النافعة والأعمال النافعة للفرد والمجتمع في ضمان سعادة الدارين.

ولعلنا في هذه الصفحات نسطر بعض ما قاله ﷺ في علمه للمستقبل، وتوجيه الأمة نحو مستقبل آمن خالٍ من المخاطر يحفّهُ الأمان والطمأنينة. فرسمنا بحثنا في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة المصادر.

### المبحث الأول: في أربعة مطالب هي:

أولاً-تعريف الاستشراف والغيب، والعلم وتقسيماته.

ثانياً-تربية الأولاد.

ثالثاً-مجالسة العلماء وصحبة الأخيار.

رابعاً-مجاهدة النفس (وهذه المطالب تخصّ الأفراد).

### المبحث الثاني: وفيه ثلاثة مطالب أيضاً:

أولاً-استشرافه فيما يحدث من فتن في دولة بني أمية.

ثانياً-أخباره عن الفتن التي تصيب الأمة.

ثالثاً-الأخبار عن المستقبل القريب والبعيد.(وهذا المبحث يخصّ الأمة وما يجري عليها من أحداث).

## المبحث الأول

### المطلب الأول: الاستشراف

الاستشراف لغة: قال ابن منظور: أَشْرَفْتُ الشَّيْءَ عَلَوْتُهُ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ: اظَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقٍ، أَرَادَ مَا جَاءَكَ مِنْهُ وَأَنْتَ غَيْرُ مُتَطَلِّعٍ إِلَيْهِ وَلَا طَامِعٍ فِيهِ، وَقَالَ اللَّيْثُ: اسْتَشْرَفْتُ الشَّيْءَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ أَوْ بَصَرَكَ تَنْظُرَ إِلَيْهِ<sup>(١)</sup>.

شارفت الشيء، أي أشرفت عليه<sup>(٢)</sup>.

### الاستشراف اصطلاحاً:

هو علم يختص بالمحتمل والممكن والمفضل من المستقبل. بجانب الأشياء ذات الاحتماليات القليلة لكن ذات التأثيرات الكبيرة التي يمكن أن تصاحب حدوثها<sup>(٣)</sup>. وقد تكون بالمستقبل القريب أو البعيد. ويمكننا أن نقول هو أحد علوم الغيب المستقبلية.

### الغيب:

الغيب لغةً: فهو كل ما غاب عنك<sup>(٤)</sup>. وغاب عني الأمر غيباً، وغيباً، وغيبوبةً، وغيبواً، ومغاباً، ومغيباً، وتغيب: بَطَنَ. وغيبه هو، وغيبه عنه<sup>(٥)</sup>. فالغيب هو كل حقيقة لا يدرك طبيعتها العقل أو لا يتعامل معها الإنسان بالحواس حيث لا سبيل إلى معاينتها أو الوقوف

(١) لسان العرب، ابن منظور: ٩/ ١٧٢

(٢) الصحاح، الجوهري: ٤/ ٦٨.

(٣) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، علم المستقبل.

(٤) الصحاح، ١/ مادة غيب.

(٥) لسان العرب، ١/ مادة غيب.

عليها، لكنّه يدركها بصفته حقيقة، كالملائكة والجنّ والشياطين والجنة والنار أو كالمستقبل وما سيقع فيه.

### العلم وتقسيماته:

للعلم تقسيمات عدة، ومن وجوه متعددة، نذكر بعضاً منها:

الأول: لدنيّ متعلق بمعرفة أسرار المبدأ والمعاد<sup>(١)</sup>، يكون تحصيله بالتعليم الربّانيّ بالتدرّج وغير التدرّج، يحمله صفوة مختارة أهل لحمله، كالأنبياء والأوصياء والأولياء، صوناً عن الوقوع عند غير أهله.

الثاني: العلم الكسبيّ؛ يحصل إمّا بموهبة من الله فيفيضه على قلوب الأنبياء والأوصياء، وإمّا بتحصيله من الأساتذة والعلماء<sup>(٢)</sup>، على التدرّج، ويحتاج إلى زمان ومكان.

والمفسرون قالوا إنّ العلم علمان، هما:

الأول: علم عند الله نخزون لم يطلع عليه أحد من خلقه، مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء<sup>(٣)</sup>.

الثاني: علم علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله<sup>(٤)</sup>.

(١) الوافي، الفيض الكاشاني: ٤٦/٢.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي: ١٠٨/٢١.

(٣) ينظر بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ١١٣/٤.

(٤) المصدر نفسه.

## المطلب الثاني: تربية الأولاد

كان الإمام علي (عليه السلام) - كما هو معلوم - مرجع الأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يلحظ تصرفات الأفراد وأعمالهم، ويرشد إلى الطرق الصحيحة التي تبني الفرد والمجتمع. فقال (عليه السلام): (لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم)<sup>(١)</sup> يرشد الآباء إلى آداب التعليم، مشيراً إلى أن للآباء زماناً وللأبناء زماناً، وأن الناس تتغير بتغير الزمان، والعملية التربوية في تطور، فلا يمكن أن تقسر الأجيال على تراث الأجيال السابقة.

وكان (عليه السلام) يقول: (لا أدب مع غضب)<sup>(٢)</sup>. ومن المؤكد أن العملية التربوية تحتاج إلى أجواء غير متشنجة حتى يأخذ الأدب محله في الولد ويفهم لماذا يؤدّب وما نوع الذنب الذي ارتكبه حتى يتعد عنه وعدم تكراره في المستقبل.

ثم إنَّ هناك آداباً للشباب غير الآداب التي تؤدّب بها النشأة، فإنَّ دور الشباب في المجتمع له فاعلية في تطور المجتمع وتقديمه.

ولعلَّ لقول الأمير (عليه السلام)، وهو يوصي ابنه الإمام الحسن (عليه السلام): (إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته. فبادرْتُك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لُبُّك...) (٣). إنما هو عين التربية الصحيحة التي من اتبعها صفت سريره واستقامت سيرته وحافظ على مبادئ الآباء، وبذلك نحافظ على مجتمع صافٍ من الأمراض الاجتماعية يهدف إلى السمو والحضور الفاعل. ثم إنَّ الإمام (عليه السلام) كان يحثُّ على تحرير الأجيال والعمل بها يناسب محيطها، بعد أن يطمئن إلى أنَّ الدين الإسلامي كفيل بردها الجليل عن سوء ما يتخلق

(١) شرح احقاق الحق، السيد المرعشي: ٦٠٥ / ٣١.

(٢) معجم المحاسن والمساوئ، الشيخ أبو طالب التجليل التبريزي: ١٤ / ٥٠٠.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢٢٥ / ١.

به من طبائع قد تفضي إلى دمار أخلاق المجتمعات. ثم إن الإمام عليه السلام كان يحذر وينهي العباد عن السلوكيات الهدامة والتي تعسر مسير الأمة وثمرتها حساب الآخرة. ومن ذلك كان يخوف بعاقبة الظلم والجور، ويكره الناس بالشرّ (فالغالب بالشر مغلوب)، ويبغض النفاق، ويستعظم الخيانة (فإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفجع الغش غش الأئمة)، وينهى عن الإسراف والتبذير (فإنما المال مال الله، ألا وإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه الناس ويهينه الله)، ويدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا والتذكير بالموت، هادم اللذات ومفرق الجماعات، ووصف أهوال القيامة والبعث والنشور، والترغيب في الجنة والترهيب من النار.

### المطلب الثالث: مجالسة العلماء وصحبة الأخيار

من الأمور المهمة التي تنعش المجتمعات رفع راية العلم واتخاذ مناراً والانضواء تحتها. فبالعلم والعلماء تتقدم الأمم وتأخذ الصدارة في كلّ مناحي الحياة، وكذلك يوفر سعادة الدارين ويضمنها. ولذا حثّ الأنبياء والمرسلون والأولياء الصالحون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى حضور العلماء والحكماء والاستفادة من جميع أفعالهم وأقوالهم، فهم النخب التي تصنع المجتمعات. وفي ذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (جالس العلماء تسعد)، وقال عليه السلام: (جالس العلماء تزدد علماً، وجالس الخلفاء تزدد حليماً، وجالس الفقراء تزدد شكراً)<sup>(١)</sup>. ولعل ما يفهم من هذه الحكم والغرر، أن مجالسة العلماء قطعاً تضيف معلومة إلى معلوماتك ومن ثمّ تستفيد من علمه ولو في مسألة واحدة، فضلاً عن التأثير بآدابهم. وإذا عرفت أنّ العالم هو مستودع علوم الآخرين وعنده ضالّة الناس، فمن خلال مجالستك إيّاه يتسع اطلاعك على أمور الدين والدنيا، وبذلك تضمن السعادة. وكذا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الامدي التميمي / ص ٣٣٦.

في مجالسة الحكماء فإنهم أهل التجربة والخبرة والعقل الراجح، فإنهم يطلعونك على أمور يتعسر عليك فهمها، وحصولها. وعند مجالسة الفقراء وترى حالهم تشكر الله تعالى على ما أنت عليه من نعم.

وفي ذكر الأصحاب، فإن أمير المؤمنين (عليه السلام) ذكر في أقواله عن الأصدقاء الذين يختارهم الفرد ليكونوا فريقاً لدعم المجتمع في الأخلاق والآداب التي ترفع من شأن المجتمع. فقال (عليه السلام) جملة من الحكم والأقوال التي تعين الفرد على اختيار الصديق الصالح والابتعاد عن شرار الخلق الذين يهدمون المنظومة الإسلامية الأخلاقية. ومن ذلك قوله (عليه السلام): (خير من صحبت من ولهك بالأخرى، وزهّدك في الدنيا، وأعانك على طاعة المولى) (١). وقال (عليه السلام): (صحبة الأخيار تكسب الخير كالريح إذا مرّت على الطيب حملت طيباً) (٢)، وقال (عليه السلام): (قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشرّ تبين عنهم) (٣). فالمجتمع يصلح بصلاح أفراده، فإذا كان القرين من أهل الخير، فأنت في خير ومن أهل الخير، وفي ذلك تكون بعيداً عن أهل الشرّ، لأنّ الخير يباين الشرّ وأهله.

#### المطلب الرابع: مجاهدة النفس

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، ووازنوها قبل أن توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها، وطالبوها بأداء المفروض عليها، والأخذ من فنائها لبقائها) (٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) دار السلام فيما يتعلق بالرؤيا والمنام، ميرزا حسين النوري الطبرسي: ٣ / ١٧٨.

(٣) معجم المحاسن والمساوئ، الشيخ أبو طالب التجليل التبريزي: ٢٥٨ / ١١.

(٤) مستدرک الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي: ١٥٤ / ١٢.

من المؤكد أنّ محاسبة النفس تؤدي إلى الإصلاح، فالرجوع إلى الأعمال قبلها وبعدها، ضرورة من ضروريات تنقية النفس وتصفيتها من المعاصي والآثام. ولذا كان من اللازم تخصيص وقت لمحاسبة النفس، لأنّ أفعال الفرد إمّا أن تكون طالحة أو صالحة. وبها تقع على الأخطاء وتصحيحها، أو الزيادة في عمل الخير. لذا ينصح أمير المؤمنين (عليه السلام) العباد بمحاسبة النفس في الدنيا قبل أن يحاسب عليها في الآخرة، وكذلك بترويض النفس على أداء الفروض التي فرضها الله على عباده من عبادات ومعاملات وآداب، والتزود بالثواب من الأعمال الدنيوية الصالحة لتكون ذخيرة للآخرة والنجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون. ثم إنّ محاسبة النفس يؤدي إلى إصلاح النفس، ومن ثمّ إصلاح المجتمع. وقد صدرت عن الإمام (عليه السلام) العديد من الأحاديث التي تعطي معاني محاسبة النفس، ومما لا شكّ فيه أنّه (عليه السلام) كان يستعين برافدين لا ينتهيان - الكتاب والسنة - متأثراً بأسلوب القرآن التصويري لدى صياغة وعظه وإرشاده، وتحذيره، ونهيهِ. ومنها نذكر الآتي:

قال (عليه السلام): (من حاسب نفسه سعد)<sup>(١)</sup>، وقال (عليه السلام): (من حاسب نفسه ربح، ومن غفل خسر)<sup>(٢)</sup>، وقال (عليه السلام): (من حاسب نفسه وقف على عيوبه، وأحاط بذنوبه، واستقال الذنوب، وأصلح العيوب)<sup>(٣)</sup>. وقال (عليه السلام): (ثمرة المحاسبة صلاح النفس)<sup>(٤)</sup>. ولو تأملنا في هذه الأحاديث المباركة نجد أنّ الإمام (عليه السلام) يرسل الألفاظ والمعاني بما يناسب الواقع وما يكشف عن غزارة علمه، وعمق إدراكه لحقائق الأشياء، فتتسم أفكاره (عليه السلام) بالواقعية لأنّه يستمد عناصر كلامه من بيئته وناسه، وحقاً كان كلامه يخبر عن صور كانت أو ستكون، وإنّ إرشاده ووعظه يجلو بها أبصار العباد وبصائرهم.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الامدي التميمي، ص ٥٨٥.

(٢) نهج البلاغة، خطب الامام علي (عليه السلام)، (تحقيق: صالح)، ص ٥٠٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الامدي التميمي، ص ٦٤٨.

(٤) مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي: ١٢ / ١٥٤.



## المبحث الثاني

### المطلب الأول:

المطلع على أحاديث الإمام علي (عليه السلام) يجد أن الإمام يحذر في كثير من كلامه (خطبه أو قصار حكمه) الناس من الفتن التي تهدم المنظومة الاجتماعية والأخلاقية، وأنه كان يدعو الناس إلى ترك الفتن وعدم الركون إليها، والابتعاد عن المنافرة، وطرح أساليب المفاخرة. وكان ينبئ عن الأحداث التي تحدث بعد رحيله عن الدنيا. وفي أيام خلافته كان يخطب الناس كل جمعة يعرفهم رأي الإسلام الصحيح في الفتن والملمات والأحداث. ومن تلك الأحداث نذكر الآتي:

### استشرافه فيما يحدث من الفتن في دولة بني أمية:

قوله (عليه السلام) لأهل الكوفة: (أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن<sup>(١)</sup>)، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرؤوا مني، فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإسلام والهجرة<sup>(٢)</sup>.

قوله (عليه السلام) في مروان بن الحكم لما أخذ أسيراً يوم الجمل، فاستشفعا فيه الحسنان (عليهما السلام) فخلّى سبيله، فقالا له: (يبايحك يا أمير المؤمنين، فقال: (أو لم يبايعني بعد قتل عثمان! لا حاجة لي في بيعته. إنها كف يهودية، لو بايعني بيده لغدر بسبته، أما إن له إمرة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده موتاً أحمر)<sup>(٣)</sup>.

(١) مندحق البطن: أي واسعها، كأن جوانبها قد بعد بعضها من بعض فاستتعت. لسان العرب، ابن منظور: ٩٥ / ١٠.

(٢) إعلام الوري بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي: ٣٤٠ / ١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ١٤٦ / ٦.

إخباره للبراء بن عازب بعدم نصرته للإمام الحسين (عليه السلام)<sup>(١)</sup>:

(يا براء، يقتل ابني الحسين وأنت حي لا تنصره)<sup>(٢)</sup>.

فلما قتل الحسين (عليه السلام) كان البراء يقول: صدق والله علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قتل الحسين بن علي وأنا لم أنصره، ويظهر الندم على ذلك والحسرة.

ذكر عنده (عليه السلام) موت خالد بن عرفطة وطلبوا منه أن يستغفر له، فقال (عليه السلام): (إنه لم يمت ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب ابن جهماز).

فقام رجل من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين، والله إنني لك شيعة، وإنني لك محب، وأنا حبيب بن جهماز.

فقال: (إياك أن تحملها، ولتحملنها فتدخل من هذا الباب) وأوماً بيده إلى باب الفيل. فلما كان من أمر الحسين (عليه السلام) ما كان بعث ابن زياد بعمر بن

سعد إلى الحسين، وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته، وحبيب بن جهماز

صاحب رايته، فسار بها حتى دخل المسجد من باب الفيل)<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر السابق نفسه: ١٠ / ١٥.

(٢) بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٢٦٤ / ٤٤.

(٣) إعلام الوري بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي: ٣٤٥ / ١.

### المطلب الثاني: (اخباره عن الفتن التي تصيب الأمة):

إخباره عليه السلام عن ثورة الزنج في البصرة سنة ٢٥٥ هجرية قوله عليه السلام: كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غَبَارٌ وَلَا جَبٌّ، وَلَا قَعْقَعَةٌ جُحْمٍ، وَلَا حَمَحَمَةٌ خَيْلٍ. يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهُمْ أَقْدَامُ النَّعَامِ.

قال الشريف: يومئذ ذلك إلى صاحب الزنج. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: وَيَلُّ لِسِكِّكُمْ الْعَامِرَةَ، وَالدُّورِ الْمُزْخَرَفَةِ الَّتِي هَا أَجْنَحَةٌ كَأَجْنَحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ، مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُ الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا<sup>(١)</sup>.

وقد وصف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أصحاب هذه الثورة وكيفية تخريبهم للبصرة وشدة بأسهم وحرصهم على القتال وأتهم لا يبالون بالموت. وقيل لأنهم كانوا عبيداً غريباء لم يكن لهم أهل وولد ممن عادتهم الندبة والافتقاد، وهم كثرة. وكان عليه السلام يصفهم كأنه ناظرهم بعين العبرة، وكأنه يشهد أحداثها. وإنه عليه السلام يبين الفتنة التي تحدث في البصرة. وقد ظهر رجل اسمه علي بن محمد، ودعا العبيد إلى التمرد على ساداتهم، فانضموا إليه بالمئات، ثم بالألوف، وكان يعدهم ويمنيهم ويقول لهم: أريد أن أحرركم من الرق، وأرفع من شأنكم، وأملككم السادة الذين كانوا يملكونكم مع أموالهم وضياعهم، فتسارعوا إليه من كل حذب وصوب حتى أُلِّفَ منهم جيشاً عظيماً، وكان إذا ظفر بالسادة المترفين يأمر عبيدهم أن يجلدوا كل واحد منهم ٥٠٠ جلدة، وكان يأمر العريبات، ويبيع الواحدة منهن بدرهمين أو ثلاثة، ويعطي العديد منهن للزنجي للخدمة، فيخدمون الزنجيات كما تخدم الوصائف<sup>(٢)</sup>.

(١) تهج البلاغة، خطب الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، تحقيق: صالح: ص ١٨٥.

(٢) ينظر: بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٣٢ / ٢٥١.

**تنويه:**

لعلّ الجيش الذي يصفه الإمام (عليه السلام) يوافق ما تتكون منه جيوش الدول العظمى والقوة العالمية، ومن أدوات حرب هذه الجيوش الطائرات القاذفة للقنابل الذرية التي تدمر المدن وكذلك الصواريخ البالستية التي تحدث الخراب بجهد يسير. وكذلك في وصفه للقصور وقد تلائم القصور والفلل التي نراها في عصرنا هذا.

**في وصفه التتر:**

كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرقة، يلبسون السرق والديباج، ويعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقلّ من المأسور...<sup>(١)</sup>، لعلّها إشارة إلى الغزو التتري الذي دمّروا البلاد وأمعنوا في قتل العباد.

**الإخبار عن الحكومات التي تلي حكومته (عليه السلام)**

(إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ - لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ - وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ - وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ - وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ - إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ - وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ - وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ - فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ...)<sup>(٢)</sup>.

من المؤكد أنّ الإمام (عليه السلام) يعطي بعض الإشارات التي يُعلّم بها عن قادم الحكومات التي تلي حكومته (عليه السلام) كحكام بني أمية وبني عباس وأمرائهم، الذين أهملوا الدين ونبذوا الكتاب وحرّفوه عن مواضعه، كقوله (عليه السلام) (يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، الْمَعْرُوفُ

(١) المصدر السابق نفسه: ٤١ / ٣٣٧

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام) (تحقيق صالح)، ص ٢٠٤

فِيهِمْ مَا عَرَفُوا وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا<sup>(١)</sup>، مفزعهم في المضلات إلى أنفسهم. وكذا من هو على شاكلتهم إلى يومنا الحاضر وفيها بعد.

### المطلب الثالث: الإخبار عن المستقبل القريب والبعيد

كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (لولا آية في كتاب الله، لأخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة)<sup>(٢)</sup>، ومن المعروف أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وإخبار الإمام علي (عليه السلام) عن الأمور الغيبية، إنما هو مستمد من الله تعالى، ولذلك معرفته بالحوادث والملاحم قبل وقوعها، وما سرعة الإجابة على الأسئلة التي تطرح عليه، أو تقديم الاعتبار بالعبرة أو العظة أو الإرشاد، ينم عن المعلومة الحاضرة لديه. ثم إنه لم يسمع منه (عليه السلام) كلمة (لا أدري) أبداً، وقد قال له عمر بن الخطاب يوماً، يا أبا الحسن إنك لتعجل في الحكم والفصل للشيء إذا سُئِلت عنه، فأبرز عليّ كفه وقال له: كم هذه؟ فقال عمر: خمسة، فقال: عجلت يا أبا حفص، قال: لم يخف عليّ، فقال علي: وأنا أسرع فيما لا يخفى عليّ<sup>(٣)</sup>.

وقد أخبر الإمام علي (عليه السلام) بالكثير من الأخبار الغيبية التي تأتي على الأمة أو الأفراد في القادم من الأيام، وكان إخباره عن الذي يحدث في البلدان والأمصار، وما يجري على الناس والمجتمعات، وتسلب الطغاة على الرقاب، والإخبار بعلامات آخر الزمان، وأخبار ولده الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام)، وعلامات قيام الساعة. ومن ذلك نذكر ما يأتي:

إخباره عن غرق مدينة البصرة، وذلك بقوله (عليه السلام): (وأيّم الله لتغرقنّ بلدتكم هذه حتى كأني أنظر إلى مسجدّها كجؤ جؤ سفينة أو نعمة جاثمة)<sup>(٤)</sup>، إخباره إخبار الشاهد الحاضر،

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٢١.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٩٧/٤.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٤٩/٤٠.

(٤) نهج البلاغة، خطب الامام علي (عليه السلام)، ص ٥٦.

فقد وقع الحدث، وغرقت مدينة البصرة مرتين، (مرة في أيام القادر بالله، ومرة في أيام القائم بأمر الله، ولم يبق منها إلا المسجد الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطير كما أخبر أمير المؤمنين عليه السلام). وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة يتناقلها خلفهم عن سلفهم).

إخباره عن الضربة التي يضرب بها رأسه فتخضب لحيته. وكان علي عليه السلام يقرأ القرآن الكريم: ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾<sup>(١)</sup>، فيقول: (فو الذي نفسي بيده لتخضب هذه من هذا) وأشار بيده إلى لحيته ورأسه<sup>(٢)</sup>، ويقول عليه السلام أيضاً: (... أنا إذا حان أجلي انبعث أشقاها فحضب هذه من هذا) وأشار إلى لحيته ورأسه<sup>(٣)</sup>.

إخباره عن أمر الخوارج بالنهروان، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن قتل الإمام الحسين عليه السلام، وإخباره عليه السلام عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وذلك إن عبّاد بن قيس من بكر بن وائل قام إلى علي عليه السلام بعد فتح البصرة وقال له: جئنا نطلب غنائمنا فجئنا بالترهات، فقال عليه السلام: إن كنت كاذباً فسلط الله عليك غلام ثقيف، قالوا: وما غلام ثقيف، قال: غلام لا يدع له حرمة إلا انتهكها، قالوا: فيموت أو يقتل، فقال عليه السلام: يقتله قاصم الجبارين بموت فاحش يحترق منه دبره لكثرة ما يجري من بطنه<sup>(٤)</sup>، وعن قتل أصحابه وعرض البراءة عليهم، وإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله إنه يقتل عند أحجار الزيت، وقتل أخيه إبراهيم في باخرا، إلى غير ذلك من أحداث.

إخباره عن الرايات السود، فقال عليه السلام: (إذا رأيتم الرايات السود فالزموا الأرض، فلا تحركوا أيديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم صغار لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق يدعون إلى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم

(١) سورة الشمس: آية ١٢.

(٢) بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٢٣٩ / ٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٤ / ٤١.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٢٢٢ / ٣٢.

الكنى، ونسبتهم القرى، شعورهم مرخاة كشعور النساء حتى يختلفوا فيما بينهم، ثم يؤتي الله الحق من يشاء<sup>(١)</sup>.

إخباره عن السفيناني، فقال عليه السلام: (كأنني بالسفيناني أو بصاحب السفيناني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس [رجل من] شيعة علي فله ألف درهم، فيشب الجار على جاره يقول: هذا منهم، فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم)<sup>(٢)</sup>.

إخباره عن الإمام المهدي عليه السلام، ورد عن الأصبغ بن نباتة، قال: (أتيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فوجدته متفكراً ينكت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين مالي أراك متفكراً تنكت في الأرض أرغبة منك فيها؟

فقال: لا والله ما رغبت فيها ولا في الدنيا ساعة قط، ولكن فكري في مولود يكون من ظهري الحادي عشر من ولدي، هو المهدي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، تكون له حيرة وغيبة، يضل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون.

فقلت: يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن؟

فقال: نعم كما إنه مخلوق. قلت: أدرك ذلك الزمان؟ فقال: يا اصبغ بهذا الأمر؟ أولئك خيار هذه الأمة مع إبرار هذه العترة.

قلت: وما يكون بعد ذلك؟

قال: ثم يفعل الله ما يشاء فإن له إرادات وغايات ونهايات)<sup>(٣)</sup>.

(١) التشریف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، السيد ابن طاووس، ص ٨٩.

(٢) الغيبة، الشيخ الطوسي، ص ٤٥٠.

(٣) الغيبة، الشيخ الطوسي، ص ٦٩.

يتضح مما تقدم أنّ الإمام علي عليه السلام في الأخبار الآنفة يخبر فيها عن المستقبل المجهول، واخترنا بعض الأخبار التي نبأ فيها عليه السلام عن أحداث ستقع في القادِم على زمانه، وكما يأتي: إنّهُ عليه السلام أعطى صورة واضحة ودقيقة للأحداث والوقائع التي وقعت فيما بعد، كما في أنبائه عن مدينة البصرة، وجاء الواقع مطابقاً لتلك الصورة التي أنبأ عنها.

كان على علم تام بالضربة التي تقتله، ومن هو قاتله، والكيفية التي يقتل فيها، وتعريف الناس بأشقى الآخرين. وهذا ما حدث، حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه، وأدّت تلك الضربة إلى استشهاده.

كذلك نبأ عن حوادث وقعت في أزمان مختلفة، كإخباره عن الناكثين والقاسطين والمارقين، والإخبار عن ملك بني أمية والطاغية الحجاج وكيفية هلاكه، وعرض شيعته على البراءة منه وكيفية قتلهم، وإخباره عن ثورة ذي النفس الزكية وفشلها.

إنّهُ عليه السلام امتدّ بنظره إلى المستقبل البعيد، فنبأ عن أصحاب الرايات السود، وأعطى صورة واضحة ودقيقة لأصحابها، وصفاتهم وكناهم ونسبتهم، وهذا الذي يحدث اليوم أو قريب منه، فنلاحظ أصحاب الرايات السود - القاعدة أو داعش - ثم إنّ أصحاب هذه الرايات، يسمون أنفسهم بـ (أبو عمر، وأبو انس، وأبو أيمن، وأبو حفص....) فتكون أسماءهم كنى، وينسبون إلى القرى والبلدان، مثل (المصري، والبغدادي، والعراقي، والأفغاني، و...)، وأنهم يحرّمون الحلاقة، فتكون شعورهم طويلة، يدعون أنهم المسلمون حقاً، وغيرهم باطل كافر غير مسلم، يستحق القتل، فيقتلون المسلمين وغيرهم باسم الإسلام والدين، والدين براء منهم، وإلّهم لا يفون بوعده ولا عهد، يأسرون الناس، ثم يفادوهم، وبعدها يقتلونهم. ونبأ عن الذي يحدث في هذا العصر، حيث نزول أصحاب الفكر السفيفاني المتمثل بالعصابات الإرهابية التي عاثت في الأرض الفساد في مختلف



الأمصار والمدن، وتوسعت عملياتها في العراق، ثم يجزي ويعطي القتلة المال الوفير، حتى وثب الجار على جاره، والزوج على زوجته، والابن على أمه، فكثر التهجير وعم القتل بين الناس، وانتشر الخراب في البلاد، وعمت الطائفية في أرجاء العراق.

أما إخباره عليه السلام عن الأحداث والخطوب التي تظهر في عصر ولده الإمام المهدي عليه السلام ، وأن له غيبة طول، يثبت فيها المؤمنون، فيصبرون ويبتغون ظهوره المبارك، وينزلق آخرون باتجاه الباطل، فتكثر البدع، وتنفق الأمة إلى فرق ومذاهب؛ الكل يدعي أن الحق بجنبه، فيسقط قوم، ويكفر آخرون.

## الخاتمة

إنَّ علم الإمام علي (عليه السلام) واستشرا فاته إنّما هو من علم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعلم الرسول (صلى الله عليه وآله) من علم الله تعالى، لذا فإنَّ علم الإمام (عليه السلام) يغيب عن الناس، فهو أعلم الناس بعد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وإنَّ مصادر علمه الغيبية كانت من:

الكتاب العزيز الحكيم، فإنَّه (عليه السلام) كان محيطاً، والكتاب فيه تبيان لكلِّ شيء. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup>، وإنَّه (عليه السلام) كان يصرح بهذا، فيقول: (والله ما نزلت آية إلاَّ وقد علمت فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ وعلى من نزلت؟ إنَّ ربِّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً)<sup>(٢)</sup>.

من ليلة القدر المبارك التي فيها يفرق كلُّ أمر حكيم، وفيها تنزل الملائكة والروح، على حجة عصره، وكما هو معروف أنَّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو وصي النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، بل هو سيد الأوصياء. وهو الحجة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله)، وإنَّ ما ينزل في ليلة القدر مختص بالحجة على الخلق. عن بريده قال كنت جالساً مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) معه إذ قال يا علي ألم أشهدك معي سبعة مواطن الموطن الخامس ليلة القدر خصصنا ببركتها ليست لغيرنا)<sup>(٣)</sup>. قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إنَّ الله يقضي فيها مقادير تلك السنة ثم يقذف به إلى الأرض)<sup>(٤)</sup>.

إنَّ الإمام علي (عليه السلام) ورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله، ثم إنَّه ورث علم رسول الله (صلى الله عليه وآله). قال الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث عن علم الإمام علي (عليه السلام) قال: (...وورث علم

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٩٥ / ٨٩.

(٣) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار)، ص ٢٤٢.

(٤) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار)، ص ٢٤١.

الأوصياء وعلم من كان قبله<sup>(١)</sup>، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (... إنا ورثنا محمداً...) (٢)، وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (أما بعد فإن محمداً كان أمين الله في خلقه، فلما قبض كُنَّا أهل البيت ورثته، فتحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيثار وحقيقة النفاق) (٣). وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث جاء فيه: (وربّ الكعبة وربّ البيت - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتني أي أعلم منهما، ولأثبتهما بما ليس في أيديهما، لأنّ موسى والخضر أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما هو كائن إلى يوم القيامة. وإنّ رسول الله أعطى علم ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فورثناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وراثته) (٤)، وإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) وسائر الأئمة (عليهم السلام) ورثوا علومهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) مروراً بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

إنّ الإمام (عليه السلام) ملهم، قال ابن عباس (رضي الله عنه): (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أعطاني الله خمساً، وأعطى علياً خمساً، أعطاني جوامع الكلم، وأعطى علياً جوامع العلم، وجعلني نبياً، وجعل علياً وصياً، أعطاني الكوثر، وأعطى علياً السلسيل، وأعطاني الوحي، وأعطى علياً الإلهام، وأسرى بي إليه، وفتحت له أبواب السماء حتى رأى ما رأيت ونظر إلى ما نظرت إليه) (٥). وعن الإمام الرضا (عليه السلام) في حديث طويل جاء فيه: (إنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمر عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً فلم يعي بعده بجواب) (٦)، والذي لا يقبل الشكّ أنّ الإمام علياً (عليه السلام) من الصفوة المختارة.

(١) الوافي، الفيض الكاشاني: ٨١ / ٣.

(٢) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار) ص ١٥٨.

(٣) بحار الانوار، العلامة المجلسي: ١٤٨ / ٢٦.

(٤) الوافي، الفيض الكاشاني: ٦٠٩ / ٣.

(٥) بحار الانوار، العلامة المجلسي: ٣٢٤ / ١٦.

(٦) الوافي، الفيض الكاشاني: ٤٨٦ / ٣.

إنَّ الإمام علياً عليه السلام كان محدثاً، وكان الإمام الباقر عليه السلام يقول بذلك، فسألوه عن ذلك، وسألوه من يحدثه؟ فقال عليه السلام: (ملك يحدثه؛ قال: قلت: أقول إنه نبيّ قال عليه السلام: لا، ولكن قل مثله مثل صاحب سليمان، ومثل صاحب موسى، ومثله مثل ذي القرنين)<sup>(١)</sup>.

---

(١) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار)، ص ٣٦٨.

## المصادر

### القرآن الكريم

١. الأمالي، الشيخ الصدوق (ت-٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، ط١، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ.
٢. إعلام الوري بأعلام الهدى، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت-٥٤٨هـ)، ط١، تحقيق ونشر: مؤسسة أهل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، قم المشرفة، ١٤١٧.
٣. بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار) (ت-٢٩٠هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي، مطبعة الأحمدي - طهران، منشورات الأعلمي - طهران، ١٤٠٤.
٤. بحار الأنوار، العلامة المجلسي (ت-١١١١هـ)، تحقيق: يحيى العابدي، ط٢ المصححة، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.
٦. التوحيد، الشيخ الصدوق (ت-٣٨١هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
٧. التشریف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، السيد ابن طاووس (ت-٦٦٤هـ)، ط١، نشاط - إصفهان، مؤسسة صاحب الأمر (عليه السلام)، ١٤١٦.
٨. الخصال، الشيخ الصدوق (ت-٣٨١هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٣.
٩. دار السلام فيما يتعلق بالرؤيا والمنام، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت-١٣٢٠هـ)، ط٢، دار البلاغة، بيروت، ١٤٢٧.

١٠. شرح إحقاق الحق وإزهاق الباطل، آية الله السيد شهاب الدين المرعشي (ت-١٤١١هـ)، تحقيق: النجفي، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم - إيران، د.ت.
١١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت-٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.
١٢. الصحاح، الجوهري (ت-٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط ٤، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.
١٣. الغيبة، الشيخ الطوسي (ت-٤٦٠هـ)، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح، ط ١، بهمن، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة، ١٤١١هـ.
١٤. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمدي التميمي (ت-٥٥٠هـ)، ط ٢، تحقيق: محقق / مصحح: رجائي، سيد مهدي، دار الكتب الإسلامية، قم، ١٤١٠.
١٥. فوائد الطوسية، الحرّ العاملي (ت- ١١٠٤ هـ)، تحقيق: علّق عليه وصححه العالمان المتتبعان الحاج السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي، المطبعة العلمية - قم، ١٤٠٣.
١٦. الفتاوى الكبرى، ابن تيمية (ت-٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا / مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.
١٧. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء (ط.ج)، الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت-١٢٢٨ هـ)، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي - فرع خراسان - المحققون: عباس التبريزيان، محمد رضا الذاكري (طاهريان) وعبد الحليم الحلي، ط ١، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، ١٤٢٢.

١٨. لسان العرب، ابن منظور (ت - ٧١١ هـ)، نشر أدب الحوزة، محرم ١٤٠٥.
١٩. معجم المحاسن والمساوي، الشيخ أبو طالب التجليل التبريزي (ت - ١٤٢٩)، ط ١، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧.
٢٠. مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، الميرجهاني (ت - ١٣٨٨ هـ)، ١٣٨٨.
٢١. المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر (ت - ١٣٨٣ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، د. ت.
٢٢. منهج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت - ١٣٢٤ هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، ط ٤، مطبعة الإسلامية بطهران، الناشر: بنیاد فرهنگ امام المهدي (عليه السلام)، د. ت.
٢٣. مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت - ١٣٢٠ هـ)، ط ١، ونشر تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لآحياء التراث، بيروت - لبنان، ١٩٨٧ م.
٢٤. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ)، تحقيق: تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة والناشر: الحيدرية - النجف الأشرف، النجف الأشرف، ١٩٥٦ م.
٢٥. نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام) (تحقيق صالح) (ت - ٤٠ هـ)، تحقيق: ما اختاره وجمعه الشريف الرضي // ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، الطبعة: الأولى، ١٣٨٧ - ١٩٦٧ م.
٢٦. الوافي، الفيض الكاشاني (ت - ١٠٩١ هـ)، تحقيق: عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل ضياء الدين الحسيني «العلامة» الأصفهاني، ط ١، طباعة أفست نشاط أصفهان، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) العامة - أصفهان ١٤٠٦.

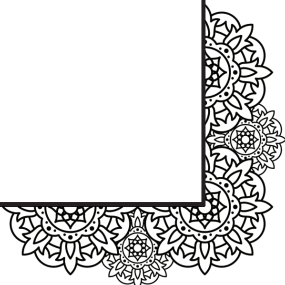


**التوازن الحياتي عند أمير المؤمنين عليه السلام**  
**ومردوداته الإيجابية على الذات والمجتمع**

الباحث

أ.د. عباس إسماعيل الغراوي

جامعة واسط / كلية الآداب





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطيبين الطاهرين...  
وبعد...

في كل يوم تتقدم العلوم وتتنامي المعارف وتتسع المجالات الفكرية، بيد أن هذا التسارع الإبداعي لم يحقق مرامه من صلاح البشرية، فما تزال المشكلات عالقة والخلائق متكالبية فيما بينها لأجل مصالحها الذاتية. ومن هنا، يجدر أن لا يغض المرء طرفه عن المصالح المجتمعية. فعليه أن يوزع عينيه عليهما معاً كي لا يكون ضيق النظر، وهو لا يمكنه ذلك ما لم يقتد بأهل الاقتداء (العترة الطاهرة). وقد تجلت صفحات مشرقة في تراث أمير المؤمنين تعين المرء على تصحيح المسار وتوجيهه نحو الحقيقة. ومن هنا كان هذا البحث الذي حمل العنوان (التوازن الحياتي عند أمير المؤمنين ومردوداته الإيجابية على الذات والمجتمع)؛ ذلك أن ما صدر منه عليه السلام من شذرات، كفيلاً بأن يحمل مسار العبد ويزكي المجتمعات بالطيب والتسامح والنهج القويم.

أما إنه ما المقصود بالتوازن؟

المعلوم عند الجميع أن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بظروف قاسية جداً، ولا سيما بعد أن أبعدت عنه الخلافة وسلبت زوجته الزهراء حقّها، على مرأى من ناظره المبارك عليه السلام إلا أن هذا لم يجعله عليه السلام يجلس حبيس داره، أو يعرض عن الدنيا برمتها، ولا أن يتخذ الجانب الروحي فحسب، بل وجدنا تنوع المجالات وتنميتها بما يجعل منها عجلة حياة مثالية يمكنها أن

تسير في مسار الحياة بصورة متوازنة من دون أن تتلصق أو تتعثر. ذلك أن أغلب الناس يسير وراء جانب حياتي واحد أو اثنين، تاركاً الجوانب الأخرى؛ مما يشكل لديه نقصاً واضحاً في جوانبه الأخرى. فمثلاً تجد بعضهم يميل إلى الجانب المهني، ويترك سائر الأمور ليكون ناجحاً في مادة واحدة، راسباً في سائر المواد أو تجده منهمكاً بالجانب الترفيهي فحسب، مما يؤثر في الجوانب الأخرى. والحقيقة أن كل إنسان لا يمكنه أن يستغني عن بعض الجوانب على حساب جوانب أخرى. يمكن القول: إن الإنسان كجسمه، فمثلما أن الجسم به حاجة إلى جميع مكوناته بنسب معينة، فللسُّكَّر نسبة معينة، وللكالسيوم نسبة معينة، وللحديد وللپوتاسيوم... وهكذا مع سائر أجزاء الجسم، وأي اختلال في هذه النسب يؤثر في حيوية الإنسان نفسه، فكذلك عليه أن يأخذ من كل جانب حياتي بمقدار معين، ليتمكن من مزاوله حياته بصورة طبيعية ويسير بصورة متزنة مواكبة للحياة ذات المجالات المتعددة. ومن هنا كان الانتقاد على المتصوفة الذين علقوا آمالهم بالجانب الروحي ناسين سائر المجالات حتى أن بعضهم أعرض عن الزواج. ومن هنا أيضاً أخذنا الانتقاد على الفلسفة البراغمية التي ركزت على الجانب النفعي، وتحديدًا الاقتصادي، متناسية الروح ومتطلباتها والجوانب الاجتماعية وأهميتها.

وهذه القضية - أقصد مسألة التركيز على جميع الجوانب الاجتماعية - عرفت في الوقت المعاصر بما يعرف بـ (عجلة الحياة)، فغلبة جانب على جانب يجعل تلك العجلة عرجاء، بيد أن الباحث أعرض عن تسمية (عجلة الحياة) بالتوازن الحياتي، لأن الأخير أقرب إلى العلمية. فالتوازن يقصد أخذ من كل جانب ما يسد حاجته لا أن يكون الجانب البدني مثلاً بمحاذاة الجانب الأسري؛ فلا بد أن تكون النسب متفاوتة بحسب الأهمية ومقدار الضرورة. وهذا الأمر لا يقتصر على الجوانب الحياتية بل حتى فيما يخص الحقوق الواجبة على المسلم، فقد وجدنا الإمام السجاد (عليه السلام) يثبت أنها ليست على درجة واحدة، فمما يقول

عن تلك الحقوق: «بعضها أكبر من بعض؛ وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى من حقه الذي هو أصل الحقوق»<sup>(١)</sup>، فثمة كبير وصغير وثمة أصل وفرع.

فالتوازن يكون وفق المقام ومتطلبات الواقع. وقد كنت فيما سبق كتبت بحثاً بعنوان (العجلة الحياتية عند السيدة الزهراء) فوجدت الجانب الدنيوي -على الرغم من وجوده- إلا أنه كان كمن غرف غرفة بيده، ذلك أن قليله خير من كثيره (وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا... (القصص: ٧٧)، فـ(من) في أغلب الظن أنها للتبعيض<sup>(٢)</sup>؛ فهي تكشف عن أن الاكتفاء بمقدار منها لا بها، ولا سيما أن الدنيا بمختلف عصورها، نجدها هي السائدة. وهذا كان سبب الدمار في كثير من الأحيان.

ويمكن أن نتجنب تلك التقسيمات المتفرعة لعجلة الحياة بما يعرف بالتوازن منطلقين من حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات؛ فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم»<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا يكون تقسيم حياة الإنسان إلى ثلاثة أقسام رئيسة، تنطوي عنها تفرعات. ويمكن القول إن هذه الأقسام الرئيسة: - القسم الأول: الصلة بالله تعالى؛ فعلى المرء أن يدرك أهمية حسن الصلة بالله تعالى ولا يتهاون بها أبداً.

أما القسم الثاني، فيتجلى بالاهتمام بالمعاش، فعلى المرء أن يعمل ويجتهد بالعمل لغرض إعالة من تحت رعايته. أما القسم الثالث فيتجلى بلذة محللة من الدنيا، أي نصيب منها؛ فالإمام لا يريد من الإنسان أن يكون متصوّفاً أو عابداً يعيش العزلة، ولا يريد منه أن

(١) تحف العقول: ١٨٢.

(٢) ينظر: شرح المفصل: ٤٨٨/٣.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٣.

يبرز بقسم ويترك القسم الآخر فلا بدّ من التوازن، فبه يستطيع المرء أن يحقق نتائج طيبة، ويواكب المجتمع بمتغيراته وتطوراته.

وليس الغرض في هذا البحث الإحاطة بكلّ متطلبات التوازن الحياتي، بل الإشارة، مع بعض التحليل؛ يشفع لنا في ذلك ضيق المقام. وقديماً قال الجاحظ: «قد يُكْتَفَى بِذِكْرِ الْقَلِيلِ حَتَّى يُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الْعِنَايَةِ الَّتِي إِلَيْهَا يُجْرَى»<sup>(١)</sup>.

ختاماً نسأل الله أن يمنّ علينا بالقبول، وأن يجمعنا في ركاب أمير المؤمنين بحقّ النبي وآله الطاهرين.

### القسم الأول: الصلة بالله تعالى

يمكن أن يتجلّى هذا القسم بالترقية والتنقية، والترقية تكون بالوصول إلى الله تعالى بالإيمان الخالص والتزام التقى؛ أما التنقية فالتخلص من شوائب تحول دون ترقية النفس. فالنفس البشرية إذا ساء منها جانب أثر في جانب أو جوانب أخرى، كالداء الذي يكون نتيجة لداء آخر. ومن هنا يكون هذا القسم على جانبين؛ روحي وتهذيبي:

### الجانب الروحي

يقصد بالروحي أداء كلّ ما به تنقية الروح بدءاً من الإيمان بالله تعالى وأداء كلّ متطلبات ذلك بدءاً من الإخلاص لله تعالى إلى أداء صلاة وصيام وإيتاء زكاة ونحو ذلك. والمتأمل في الكلام العلوي يجده يتركز بالتوازن في هذا الجانب فيما بينه، بعضه مع بعضه الآخر؛ وكذلك بينه وبين الأقسام الحياتية الأخرى. وأهمّ شيء فيه هو الإخلاص لله وحده؛ فالإخلاص هو أن تجعل كلّ ما لديك لله تعالى، ولا ترى لنفسك ولكلّ شيء تملكه وجوداً إلا بالله تعالى.

(١) البيان والتبيين: ١ / ٦٩.

وجاء تعريفه عند الجرجاني: «تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه»<sup>(١)</sup>، وذلك يتضح بالآتي:

### التقوى:

أكد الإمام مكانة التقوى في جميع خطابه. وفي نهج البلاغة نجد التقوى العامل المشترك بين خطابه عليه السلام، حتى يمكن القول إن ظاهرة التقوى عامة في خطابه، بل هي سيدة الظواهر، وتأتي الظواهر الأخرى في سبيل تعضيدها وتجليتها. ويبين أمير المؤمنين مكانة التقوى العظيمة بقوله عليه السلام: «التقى رئيس الأخلاق»<sup>(٢)</sup>، وهذه الرئاسة تكشف:

١ - أهمية التقوى، وأنها الأساس الذي يدور عليه عالم الأخلاق، وإذا كان البلد أو المؤسسة أو فريق العمل أو نحو ذلك، إذا كان كل ذلك لا يمكن أن يُدار إلا بوجود قائد يحدد المسار، فكذلك الأمر مع التقى؛ فهو التي توجه الأخلاق وجهة صحيحة.

٢ - إن المنظومة الأخلاقية توجد بينها علاقات مترابطة، ولا يمكن النظر إليها على أنها سجايا متناثرة شأنها شأن الجسم الإنساني المترابط فيما بينه، والمتوقف بعضه على بعض. ونلمح في كلام أمير المؤمنين ما يبين القرابة بين السجايا بقوله عليه السلام: «إذا كان في رجل خلّة رائعة فانتظر أخواتها»<sup>(٣)</sup>.

٣ - ملازمة التقوى في جميع الأحوال، ولا سيما في السر والعلن؛ ولا سيما في الخلوات؛ لأن المرء معرض لهجمات الشيطان الذي يسعى إلى كسر ذلك القائد (التقى): «اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم»<sup>(٤)</sup>، وما أشد رهبة هذا الحديث المبارك

(١) معجم التعريفات: ١٤، وينظر: جامع السعادات: ٢ / ١٥٩.

(٢) نهج البلاغة: ٥٥٥.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦١.

(٤) نهج البلاغة: ٥٤٢.

الذي يبين أنّ الذي سيحاكمنا على أعمالنا إنّما هو الشاهد نفسه؛ وفي هذا لا مجال لطلب التبرير أو البحث عن الأعذار. هذه المحاكمة ليست ككلّ محاكمة، يقف فيها المتهم في حيرة لا توصف؛ ومن هنا عليه أن يتدارك الفرصة قبل فوات الأوان.

واختيار الخلوات؛ لأنّها محل اجتهد الشيطان حيث يوسوس في صدر المرء من أجل إمالاته عن جادة الصواب. فاختيار الخلوات لأهميتها؛ فربما يحول حضور الناس دون الولوج في الإثم، وهذا يجدر أن يُلتفت إليه في الوقت المعاصر، بعد أن أصبحت الخلوات متفشية في النَّاس بسبب عزلة بعضهم عن بعض والانشغال بالأجهزة النقالّة التي سلبت منهم الوقت والتواصل مع البشرية، بل سلبت منهم التعلّق بالله إذا لم يحسن المرء التعامل معها.

### توثيق العلاقة مع الله تعالى:

مع كثرة المنغصات في الحياة الدنيا، كثيرًا ما ينجرف العبد عن جادة الصواب، وينهمك في الدنيا رغبة في إدراكها، فيضعف هذا من علاقته مع الله تعالى. ويبين أمير المؤمنين أنّ المرء بذلك ينقاد إلى الخسارة والضياع، إلّا إذا أصلح سريرته وعمل لدينه: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله أمره دُنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس»<sup>(١)</sup>.

فإصلاح باطن المرء يقود إلى إصلاح علانيته تكريمًا من الله تعالى، والعكس بالعكس. والعامل لدينه لا يربح دينه أو آخرته فحسب، بل دنياه كذلك؛ لأنّ الدين فوائده عامة، ومنها أنّه إصلاح للحياة في الدارين (الدنيا والآخرة)، فالدين هو الحياة السعيدة المطلقة التي لا تقف عند حدٍّ معين.

(١) نهج البلاغة: ٥٥٨.

وقضية أخرى تبلور منها فوائد غير قليلة، هي أن يحسن المرء في علاقته مع الله؛ فيها سيجد أنه مأمون من الناس، لأنه تعلّق بالله تعالى، فصغر عنده كلّ شيء، ولم تعد الهموم تشغل باله؛ إذ إنّه ملاءه بتمسكه بالله تعالى. أما إذا فرغ قلبه من تلك العلاقة الرصينة فإنّه سيعيش الخسارة، ويتزعزع من هموم وغموم لم تكن بالحسبان.

ومن هنا وجدنا القرآن يبين مدى قسوة العذاب النفسي الذي يعانيه المعرض عن الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (سورة الزخرف: الآية: ٣٦).

بل يجعل ﷺ المعرض عن عصيان الله تعالى منعماً بعيداً لا ينقطع، فمما قال في بعض الأعياد «إنما هو عيد لمن قبل الله صيامه وشكر قيامه، وكلّ يومٍ لا يُعصى الله فيه فهو عيد»<sup>(١)</sup>. فالعيد ليس ذلك العيد المعهود من عيد فطر أو أضحى، بل هو تعميم لكل يوم لم يرتكب فيه المرء معصية؛ ذلك أنّه حقّق المراد، ولم يقع في مصائد الشيطان، وحقّق المأمول المتجلّي في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: الآية: ٥٦).

بيد أن أمير المؤمنين يريد من المرء أن يقتنص الفرص، لأنّ القلب يمرُّ بمرحلة مدّ وجزر. فإذا مدّ نحو الأعمال، فعليه أن يمضي في العبادة وتوسيعها من فرائض ونوافل. أما إذا انقبض القلب، فعليه أن يكتفي بالفرائض الواجبة، فلا إكراه في العبادات. يقول ﷺ: «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقصروا بها على الفرائض»<sup>(٢)</sup>، وهذا المبدأ باستغلال الوقت الأنسب طريق لتوظيف الطاقات بصورة صحيحة، فليس العبرة في الكثرة، بل في صلاح ما يؤتى من أعمال، يقول ﷺ: «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه»<sup>(٣)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ٥٥٨-٥٥٩.

(٢) نهج البلاغة: ٥٤٢ — ٥٤١.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦١.

ومبدأ آخر يهديه إلينا أمير المؤمنين، وهو السعي لقلع الذنوب من القلب، كبيرها وصغيرها؛ لأنّه حتى هذه الصغيرة إذا استهان بها المرء فهي ستكون وبالاً عليه، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «أشدّ الذنوب ما استخف به صاحبه»<sup>(١)</sup>.

ولا ننسى أهمية الدعاء في الجانب الروحي كونه روح الروح ومعدنها في سبيل إدراك النقاء، يقول (عليه السلام): «ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح على عبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الحديث يبين أنّ فائدة الدعاء أمرٌ مفروغٌ منه، فهو يعود بالإيجاب على المرء، والإجابة لا تتحقق بتحقيق الطلب، فربّما تكون بإبعاد ضرر أو جلب منفعة. وفي الحديث يتجلّى أيضًا أهمية الشكر في رفع الجانب الروحي للمرء؛ إذ هو أجر من جهة، وزيادة من جهة أخرى. قال تعالى: «..لئن شكرتم لأزيدنكم» (إبراهيم: ٧)، ويرافق ذلك أهمية التوبة في ترقية الروح في سلم المغفرة.

ولا يقتصر الأمر في الدعاء على مواطن البلاء، بل حتى في السراء؛ يقول (عليه السلام): «ما المبتلى الذي اشتدّ به البلاء بأحوجّ إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء»<sup>(٣)</sup>.

ونود أن نختم هذا الجانب بما عرضه (عليه السلام) من حقيقة يغفلها كثير من الناس عندما يقول: «إنّ الحق ثقيلٌ مريء وإنّ الباطل خفيفٌ وبيء»<sup>(٤)</sup>، وهذا يعني أنّ الحق صعبُ الإتيان إلّا أنّ النتيجة أنّه هنيء مريء للمرء، على العكس من الباطل الذي هو سهل الإتيان، ولكنّه وبيء بكل ما توحى هذه الكلمة من دناءة وضعٍ وسوءٍ مصيرٍ.

(١) نهج البلاغة: ٥٦٥.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٠.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣٩.

(٤) نهج البلاغة: ٥٥١.



من هنا ندرك أنّ أمير المؤمنين رسم الجانب الروحيّ، وشيّد أسسه وتجلّى في كلامه أهمية الإتيان به بتمامه، وأقلّ تلكؤ في مفصل من مفاصله يعود على المرء بالخسارة المؤكّدة.

### الجانب التّهذيبي:

مرّ فيما سبق شذرات روحية، يجب أن يتزين بها المرء ليحسن حاله في الدنيا والآخرة؛ وهذا يتوقف على جانب آخر، وهو تهذيب النفس؛ لأنّ عدم الاهتمام بها يؤثر في الجانب الروحي، والعكس بالعكس؛ فكلّ جانب يتوقف على الآخر. ويقصد بالتهذيب تجميل النفس بالسجيا الحميدة. وبصورة عامة «إنّ البدن الذي ليس بالنقي كلّما غذوته فقد زدته شراً، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلّا فساداً؛ ولذا ترى أكثر المتشبهين بزيّ العلماء أسوأ حالاً من العوام، مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام، إمّا لشدة حرصهم على جمع المال، غافلين عن حقيقة المال، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب، ظناً منهم أنّه ترويح للدين والمذهب، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشكّ والشبهة، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أندية الرجال، إظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال، أو لإطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر وأعظم الحكماء، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة، ظناً منهم أنّه مقتضى قواعد الحكمة، ولم يعلموا أنّ الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية، فكأنّهم لم يعلموا أنّ العلم بدون العمل ضلال»<sup>(١)</sup>.

ويومًا بعد يوم، والأزمة الأخلاقية تتفاقم، و«ها هي البشرية اليوم تدفع غرامة كبرى لجريمتها هذه على حساب راحتها وسعادتها وخصائصها. وقد ظهر أثر هذه الاضطرابات والانحرافات على صورة جرائم مختلفة، فلعلّه لا تمضي على المجتمعات البشرية دقيقة

(١) جامع السعادات: ١ / ٣٠.

واحدة لا تحدث فيها جريمة كبرى من السرقة والعدوان... وهذه مسألة هي إحدى أكبر مشاكل أمم العالم، وعلينا أن نعدّها مشكلة الإنسانية الكبرى، والتي ملأت الدنيا ظلمًا وجورًا، وإنّ ما يصرف سنويًا للحدّ من الجرائم والجنايات أو تعقيب المجرمين وعقوبتهم يشكل رقمًا هائلًا جدًّا»<sup>(١)</sup>.

وتزداد الحاجة إلى الأخلاق الإسلامية بسبب ذلك الغزو الهائل من الغرب، فاسمع ماذا يقول فيلسوفهم الألماني نيتشه الذي بنى فلسفته على أساس التفوق العنصري: «علينا أن نقذف بالرأفة والرقّة من قلوبنا جانبًا؛ فإنّ الرأفة من العجز وإنّ التواضع والطاعة من الذلّة، وإنّ الحلم والعفو والإغضاء من الوهن وفقدان الهمة. فلماذا نقتل نفوسنا؟ بل علينا أن نربّيها فنقدسها ونعبدها؛ أما الضعيف والعاجز فعلينا أن نتركه ليموت وحده»<sup>(٢)</sup>. هذه هي أفكار بعض مفكرّهم ولا شكّ أنّ الأخذ بها يجعل الحروب على قدم وساق.

لقد خلق الله الإنسان لكي يعيش سعيدًا بصورة صحيحة، لا بصورة سعادة موهمة؛ ولأجل ذأوجب عليه أن يتحلّى بالخصال الحسنة جميعها، فلا يترك بعضها - تكالًا على بعض، إذ «لا تحصل السعادة إلّا بإصلاح جميع الصّفات والقوى دائميًا، فلا تحصل بإصلاحها بعضًا دون بعض، ووقتًا دون وقت، كما إنّ الصّحة الجسميّة، وتدبير المنزل، وسياسة المدن لا تحصل إلّا بإصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيّره تغيّر الأحوال والأزمان، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن، ولا شكره بورود النوائب والمحن، ولا يقينه بكثرة الشبهات، ولا رضاه بأعظم النكبات، ولا إحسانه بالإساءة، ولا صداقة بالعداوة. وبالجملّة لا يحصل التفاوت في حاله، ولو ورد عليه ما ورد على أيوب النبي ﷺ

(١) رسالة الأخلاق: ٢٠، وينظر: دراسات في الأخلاق: ٥٦.

(٢) رسالة الأخلاق: ٢٠ - ٢١.

أو على برناس الحكيم، لشهامة ذاته، ورسوخ أخلاقه وصفاته»<sup>(١)</sup>. ومن تلك الشار العلوية في الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها المرء ويجدر أن تشيع في المجتمع لأجل تحقيق المصلحة العامة:

### العفاف:

هو تجنب الوقوع في المحرمات التي تخدش بعفة المرء. وجاء فيه: العفاف هو الكفّ عمّا لا يحلّ<sup>(٢)</sup>. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «ما المجاهد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعفّ، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة»<sup>(٣)</sup>. وهنا يبين أمير المؤمنين أنّ الإنسان بهذه الصفة يستطيع أن يكون في مصافّ الملائكة، ذلك أنّه انتصر على غريزته، والملائكة عقل بلا غريزة، ومن هنا فهو شابههم من هذه الصورة وعاش مرحلة النقاء بتهذيبه لنفسه وعدم تركها غارقة في مفاتن الشيطان.

وما كان هذا لولا كرامة مترسخة في ذات ذلك الإنسان، كرامة كوّنتها الاستعدادات لذلك الإنسان، وهّمته في تحسين نفسه. يقول (عليه السلام): «من كرمتم عليه نفسه، هانت عليه شهوته»<sup>(٤)</sup>.

### الزهد:

الزهد صفة خلقية تمثّل محكّاً لمعرفة المؤمنين من غيرهم، وتعني: الانصراف إلى الآخرة، والإعراض عن الدنيا إلا بقدر ما يضمن للإنسان العيش المناسب، وقد جمع أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزهد كلّ بين كلمتين من القرآن، قال الله (عزّ وجلّ): ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى

(١) جامع السعادات: ١ / ٣٩، وينظر: السعادة في الاسلام: ٢١.

(٢) ينظر: شرح العروة الوثقى: ١ / ٢٢١.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦٥.

(٤) نهج البلاغة: ٥٦١.

مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿ فَمَنْ لَمْ يَبْأَسْ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي؛ فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفِيهِ ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا الحديث يوضح كيف أنّ المرء إذا تجنب اليأس على ما مضى، ولم يفرح بما أتى فإنّه سلّم نفسه لله تعالى وأعرض عن علائق الدنيا، فلم تعد مسيطرة عليه ولا آخذة به إلى ما تريد.

ويتكرّر في كلام أمير المؤمنين التزهيد من الدنيا، ومن أقواله: «ألا حرّ يدع هذه اللهاظة لأهلها، إنّهُ ليس لكم ثمن إلا الجنة»<sup>(٢)</sup>. ويؤكد أنّها إنّ وجدت فإنّها لتكون خادمة للجنة، يقول (عليه السلام): «الدُّنْيَا خَلَقَتْ لغيرها ولم تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا»<sup>(٣)</sup>.

### التعاون والتألف:

يحنّا أمير المؤمنين على أن نتعامل بمودّة وألفة، وثمّة صورة يقرن فيها (عليه السلام) المرء المتعاون بالشجرة المثمرة، كونها تطلّ على الآخرين بخيراتها وجمالها لتكون محلّ استراحة للنفس المتعبة، يقول (عليه السلام): «من لَانَ عودُهُ كَثُرَتْ أَغْصَانُهُ»<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا كان عليه أن يتعامل بالحبّ والمودّة من أجل كسب الآخرين وصيرورة المرء من ذاته شخصية محبوبة غير مرفوضة، وهذا من العقل بعينه. يقول (عليه السلام): «التودّد نصف العقل»<sup>(٥)</sup>، فالكره والبغض والعداء مفاهيم مخدوفة من معجم التعامل في نظر أمير المؤمنين، فهو يريد للحبّ أن يتفشى؛ لأنّ به سلامة الفرد والأسرة والمؤسسة والمجتمع....

(١) نهج البلاغة: ٥٦٠.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٢.

(٣) نهج البلاغة: ٥٦٢.

(٤) نهج البلاغة: ٥٢٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥١٢.

### وضع الأمور بأماكنها المناسبة:

كثير من الناس يتلاعب بالحقائق لأجل مقاصد ذاتية، فتجده يمدح من لا يستحق ويعرض عن المستحق، أو تجده يبالغ في أمر لا يستحق تلك المبالغة أو يقصر في محل يستوجب التفصيل والإطالة. يقول عليه السلام: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا فالإمام يريد أن نكيل الأمور بموازينها، ولا نخرج بها عن وجهتها المناسبة. وفي هذا يكون المرء محل رضا عند الجميع، ويعرف الناس قدره، وأنه ليس ممن يداهن ولا يخاذل.

### التواضع وترك الفخر:

الحقيقة أن فروع الجانب التهذيبي متنوعة وواسعة. وفي نهج البلاغة تنوع تلك الأغصان؛ وكثيراً ما يطرح الإمام ذلك بصورة واضحة ومؤثرة، ومنها تجنب الفخر على جميع المستويات، ذلك أن «الافتخار بالقوميّات أو بالقبليّات أو بالإقليميّات أو باللغات، هذه كلّها أعمال جاهليّة. القومية ليست إلا ديدن أبي جهل وأبي لهب وكفار الجاهليّة، فلماذا اتّخذهم قسم من المسلمين شعاراً ومنهجاً»<sup>(٢)</sup>.

ومن أقواله عليه السلام: «ضع فخرك، واحطط كبرك، واذكّر قبرك»<sup>(٣)</sup>، فهنا يطالب المرء بالتواضع وأن لا يعيش الأمل بطول الحياة، بل يستذكر القبر لما فيه من تهيج للعواطف بالخشية من المصير المجهول فيسعى إلى النجاة والبحث عن الخلاص. ونجده عليه السلام أيضاً

(١) نهج البلاغة: ٥٦١.

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ١٠.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٤.

يبين فظاعة الفخر: «ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»<sup>(١)</sup>.

### الصبر:

الصبر: هو مقدار تحمّل كلّ فرد لما يمرّ به، وعلى حدّ تعبير أمير المؤمنين (عليه السلام): «الصبر صبران: صبر عند المصيبة، حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرم الله (ﷻ) عليك»<sup>(٢)</sup>، وإنّما ينال الصابر على المصيبة أجرًا؛ لأنه «كان عارفًا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره... يعلم يقينًا بأنّ كلّ أمر صدر من الله وابتلي به عباده من ضيق أو سعة، وكلّ أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك ممن يعده شرطًا، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وإنّ ذلك إذا كان متيقنًا له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغمّ والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وأيقن بأنّ قضاءه لم يجر إلّا بالخير... ومن بلغ هذه الدرجة يتلذذ وبكلّ ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفذ، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الأبد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع أنّ العبد إنّما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشقّ الجيوب، وضرب الحدود، والمبالغة بالشكوى...، فينبغي أن يحتنب عنها، ويظهر الرضا...، ويبقى مستمرًّا على عادته، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجّه عن حدّ الصابرين توجّع القلب وجريان الدمع؛ لأنّ ذلك مقتضى البشريّة»<sup>(٣)</sup>.

إنّ قوة الصبر وارتفاع درجته يتناسب مع المبدأ الذي يمتلكه ذلك الشخص. فإذا كان شخصًا بلا مبادئ ولا قيم، انتزع منه مصباح الصبر وغدا ملولًا متضجرًا، على أنّ ذلك

(١) نهج البلاغة: ٥٦١.

(٢) الكافي: ٢ / ٩٠.

(٣) جامع السعادات: ٢ / ٣٨٢.

المتململ سوف يحيا بحياته حاة الغرباء؛ إذ لا يجد من يأنس بمجالسته؛ فالناس تضجر من ذي ملل، وبمرور الزمن يغدو منزوياً غير مقبول به.

ملخص الأمر أن الجانب التهذيبي من الأمور التي أسس لها أمير المؤمنين في خطابه بوضوح كان بسبب ما استجد في البشرية من كدر وشوائب روحية، فكان ﷺ يسعى لإعادة الخليفة إلى الفطرة السليمة سعياً إلى إنتاج مجتمع إسلامي سليم يتمتع بسجيا نبيلة.

### القسم الثاني: الاهتمام بالمعاش:

لا يريد الله تعالى من المرء أن يكون رهباناً تاركاً لأمر معاشه، ومن هنا دأب أمير المؤمنين ﷺ في رسم خارطة الطريق السليمة لكي يدرك المرء معاشه الذي يعينه على دينه مثلاً يعينه على دنياه. وقد حذر أمير المؤمنين ﷺ من الإعراض عن ذلك ووسم الفقر بأنه موت، بل هو الموت الأكبر بقوله: «الفقر الموت الأكبر»<sup>(١)</sup>، وحذر ابنه محمد بن الحنفية من الوقوع فيه لما فيه من مساوئ وخيمة: «يا بني إني أخاف عليك الفقر، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت»<sup>(٢)</sup>.

والإنسان لكي يبلغ ذلك به حاجة إلى جوانب مهنية واجتماعية ونفسية، وعلى النحو الآتي:

### الجانب المهني:

يجدر بالإنسان أن يكون صاحب مهنية تمكنه من الخوض في غمار كسب المعاش، وهذه المهنية تتأتى من: العلم: فالعلم طريق لأداء العمل بصورة صحيحة ومطلقة، ومن هنا كانت

(١) نهج البلاغة: ٥١٧.

(٢) نهج البلاغة: ٥٤٢.

أهمية العلم؛ ذلك لأنّه «لا ريب في أنّ العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النّوعات الجماليّة، بل هو أجلّ الصفات الرّبوبيّة وأجمل السّمات الألوهيّة، وهو الموصّل إلى جوار ربّ العالمين والدّخول في أفق الملائكة المقرّبين، وهو المؤدّي إلى دار المقامة التي لا تزول ومحلّ الكرامة التي لا تحول، وقد تطابق العقل والبرهان وإجماع أرباب الأديان على: أنّ السّعادة الأبديّة والقرب من الله سبحانه لا يتيسّران بدونه، وأيّ شيء أفضل ممّا هو ذريعة إليهما»<sup>(١)</sup>.

وتأتي أهمية العلم في هذا الزمان بصورة ملحّة؛ فقد ثبت أنّ ضعفه هو سبب «سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم حتى صاروا حجة لأعدائهم... على أنّه لا خير فيهم ولا في دينهم»<sup>(٢)</sup>، ويرى المبعوث آيدن: «أنّ جهل المسلمين اليوم هو السبب الوحيد في تأخرهم وأنّ تقدمهم لا يكون إلّا بنشر العلوم والمعارف بينهم»<sup>(٣)</sup>.

وقد سعى أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى توطيد عرى العلم بين المسلمين، على النحو من تأكيده ما يبين أهمية المعاضدة بين العلم والعمل «من اتجر بغير فقه ارتطم بالربا»<sup>(٤)</sup>؛ والفقه الفهم وهو من أصناف العلم، وعادة ما يتركز بأمور الحلال والحرام. والمقبل على عمل من دون معرفة يوقعه بالحرام (الحرام). ومن هنا يتبين أهمية المعرفة في كسب الرزق.

ويقول أيضاً: «العلم مقرون بالعمل فمن علّم عمل، والعلم ينفّ بالعمل فإنّ أجابه وإلّا ارتحل»<sup>(٥)</sup>. وهذا التلاحم بينهما، يترجم أهمية العلم للعمل والعمل للعلم، وهذا التأكيد يعود إلى أن الإنسان لا يكون بتلك السجايا التقويمية: العلم والعمل، ويعزّز ذلك

(١) جامع السعادات: ١ / ٨٨.

(٢) الجواهر الروحية: ٢٠، وينظر: السبيل إلى إنباض المسلمين: ١٠.

(٣) الجواهر الروحية: ٤١.

(٤) نهج البلاغة: ٥٦١.

(٥) نهج البلاغة: ٥٤٨.



أنه ﷺ حذرنا في الاتجاه المقابل من القوة المقابلة (الجهل) فقال: «لا خير في الصمت عن الحكم كما إنه لا خير في القول بالجهل»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يتجلى لنا فضل العلم في كسب العمل كونه عنواناً للجودة، فلا إنتاج جيد إلا بالعلم، ومن هنا كان طريقاً للتنمية المستدامة.

### طيب الكسب:

قد يطمع الإنسان أو يتناسى الحساب يوم الحساب، فيعمد إلى خلط الحلال بالحرام لأجل تكثير الأموال. وهذا الحرام هو الأخذ بالمرء من النور إلى الظلمات على العكس من طالب لقمة الحلال الذي حظي بدعوة طيبة من أمير المؤمنين ﷺ: «طوبى لمن ذلَّ في نفسه وطاب كسبه»<sup>(٢)</sup>، فليس العبرة بالكسب بل بطيب الكسب، فلا يكون أخذ المال إلا من روافده الصحيحة. ولأجل تطيب الكسب تأتي الصدقة تطيباً له من جهة وتكثيراً من جهة أخرى. يقول ﷺ: «إذا أملتكم فتجاروا الله بالصدقة»<sup>(٣)</sup>.

### الجودة في العمل:

أبرز عناصر الجودة أن يحسن المرء في تدبير عمله ذلك أنه: «ما عال امرؤ اقتصد»<sup>(٤)</sup>، فالأقتصاد طريق للحفاظ على رأس المال وحسن الأداء.

ويلحق ذلك التماس الدعاء مثلما مرّ وأثره في الاستجابة، وكذلك التحلي بالخلق النبيل، لأن الأخلاق أرزاق، فالمرء -أو لنقل الزبون- لا يرغب في أن يتعامل مع صاحب الرذائل،

(١) نهج البلاغة: ٥٦٤.

(٢) نهج البلاغة: ٥٠٨.

(٣) نهج البلاغة: ٥٢٨.

(٤) نهج البلاغة: ٥١٢.

وهكذا في كلِّ مفصل الحياة يكون صاحب الخلق السيئ منبوءاً غير مرغوب فيه، فمثلاً الحِلْم الذي هو تجنب الغضب، هذا الخُلُق يجعل المرء مقبولاً عند الآخرين بدرجة كبيرة: «الحلم عشيرة»<sup>(١)</sup>، ذلك أنه إذا أُخطئ بحَقِّه، ولم يغضب فإنَّه سينال محبَّتهم وسيجعلهم يشعرون بالخرج، هذا سيجعلهم مقربين إليه، وبمرور الزمن يجد أن من حوله أقرباء وكأنهم عشيرة، بل هم العشيرة التي تدافع عنه وتعمل على مساندته، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت: الآية: ٣٤)

وهذه تصدق مع كثير من أصحاب العمل والمهن والمسؤوليات. فعلى سبيل المثال، نجد أن المسؤول على العمل سيحقق بالحلم نتائج طيبة، لأنَّه سيكسب العاملين تحت يده. ونجد المعلم يكسب تلاميذه، لأنهم سيأمنون به ويشعرون بقربه منهم إذا ما وقعوا في خطأ معين. وهكذا يكون الحلم صفة عامة في تحقيق النجاح بالعمل، وكذلك يصدق الأمر مع الأخلاق الأخرى من مثل الصدق والأمانة والوفاء والنصح والتعاون... كلُّها تكون أدوات لتحقيق مكاسب متميزة.

وإذا كنَّا ذكرنا المسؤول على عمل أو المعلم فإنَّنا نجد في كلامه ﷺ ما ينفع بصورة عامة في تحقيق جودة العمل عندما يقول: «ازجرِ المُسيء بثواب المُحسن»<sup>(٢)</sup>.

فبدلاً من الزجر المباشر يكون الزجر غير مباشر بتكريم المُحسن، فيكون هذا أقوى رسالة للمقصر لأنَّ يقدم على تقديم الأفضل، رغبة في نيل مثل ذلك الثواب بالمستقبل.

وتتحقق الجودة في العمل أيضاً باتخاذ الوقت المناسب والمكان المناسب واستغلال الفرص، يقول ﷺ: «من الخرق المعالجة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة»<sup>(٣)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ٥٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ٥١٨.

(٣) نهج البلاغة: ٥٤٧.

زد على ذلك يجدر بالمرء أن يعرف مع من يتعامل، ولا يطمئن إلى كل أحد إلا بعد تجربة وتأكد؛ يقول عليه السلام: «الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار عجز»<sup>(١)</sup>.

### الجانب الاجتماعي

يشكل الجانب الاجتماعي عصباً مهماً في كينونة المجتمعات، وقد حث أمير المؤمنين على ما يدعم تعزيزه وجعله سليماً مواكباً للسعادة والكرامة، وقد طالب الإنسان ببذل الجهد في سبيل ذلك؛ إذ إنه «من الفرد يتجه الإسلام إلى إشاعة السلام»<sup>(٢)</sup>، وأبرز ما دعا إليه عليه السلام هو التعايش السليم؛ إذ يحث على الإحسان مع المخطئ: «عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه»<sup>(٣)</sup>، ومرّ علينا ما يفعله الحلم من توطيد علاقة، وهذه المفارقة بالتعامل مع الأخ؛ لأنه أخ، والأخ يستحق المسامحة والإغضاء عن عيوبه.

ويعييب الإمام على المرء الذي لا يُحسن التعامل مع الأصدقاء. يقول عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر منهم»<sup>(٤)</sup>، ويؤكد لزوم المخالطة بالحسنى وترك الشعور الطيب عند الآخر؛ إذ يقول عليه السلام: «خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم وإن عشتُم حنّوا إليكم»<sup>(٥)</sup>.

ويطلب عليه السلام من المرء أن يحمل أخاه على أكثر من محمل، فمن أقواله: «لا تظنّ بكلمة خرجت من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً»<sup>(٦)</sup>، على أن هذا يجدر أن يكون من

(١) نهج البلاغة: ٥٥٢.

(٢) مجتمع اللاعنف: ٤١٢.

(٣) نهج البلاغة: ٥١٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤٩٠.

(٥) نهج البلاغة: ٤٩٠.

(٦) نهج البلاغة: ٥٤٧.

باب الوسطية، يقول عليه السلام: «أحبّ حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»<sup>(١)</sup>.

فلا نعرف ما يخبئه المستقبل من مفاجآت يتكشف لنا من الناس ما لم نكن نعرفه أو ندركه. ومن هنا فعلينا أن نترك خطاً رجعة مع البغيض، ولا نسلم كل أوراقنا للحبيب؛ فكم صعبة أمست عداوة، وعداوة تحولت إلى صعبة.

ومن هذا الباب، علينا أن نعرف من يريدنا ممن يرفضنا من أجل التعامل المناسب والإجادة في التعامل. يقول عليه السلام: «زهّدك في راغب فيك نقصانٌ حظٌّ، ورغبتك في زاهد فيك ذلٌّ نفسٍ»<sup>(٢)</sup>.

من هنا ندرك أن الإمام رسم لنا أسس الجانب الاجتماعي، ويبيّن كيف علينا أن نتوازن في التعامل فيه بالحسنى.

### الجانب النفسي:

الصحة النفسية مهمة لإقامة معاشٍ جميل؛ ذلك أن الداء الذي يصيب المرء يجعله لا يواكب الحياة، ويفهم بعضهم أن إملاء البطون مما تقرُّ به العيون على أنه في الحقيقة مدعاة للوقوع في إشكالات صحيّة مقيته؛ يقول عليه السلام: «كم من أكلة منعت أكالات»<sup>(٣)</sup>، وهنا يبين عليه السلام أهمية الاهتمام بالنظام الغذائي، وأن لا تكون المعدة مقبرة لصنوف الطعام، وهذه الدعوة الصحية جاءت مسبوقة بـ(كم) الخبرية التي تفيد التكرير إشارة إلى كثرة مضارّها واحتمالية تعميم شرّها.

(١) نهج البلاغة: ٥٣٤.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦١.

(٣) نهج البلاغة: ٥١٧.

وأرشد أمير المؤمنين المرء إلى أن يتجنب الهمَّ جهد إمكانه، لأنَّ بالهمَّ إهرامًا للمرء وإتعاًباً له؛ فعنده: «الهمَّ نصف الهرم»<sup>(١)</sup>.

ولأجل تحقيق هذا يمضي عليه السلام برسم ما يجنبه تلك الهموم بالتسليم لأمر الله تعالى والاطمئنان إلى نواله: «يا ابن آدم لا تحمل همَّ يومك الذي لم يأتك على يومك الذي قد أتاك، فإنَّه إن يكن من عمركَ يأت الله فيه برزقك»<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا الباب «صحة الجسد من قلة الحسد»<sup>(٣)</sup>، ذلك أنَّ الحسد صفة رذيلة تؤذي المحسود والحاسد معاً، يكفي أنَّ الحاسد يتعب نفسه بهموم لا داعي له بها ممَّا ينعكس على سوء صحته الجسدية، فهو كالنار التي تأكل الآخرين، ثم تعود فتأكل نفسها.

### القسم الثالث: لذّة محللة من الدنيا:

يبحث الإمام عليه السلام في كلامه على اللذّة غير المحرمة، مثلما مرّ في الحديث السالف الذي هو مركزية هذا البحث: «للمؤمن ثلاث ساعات؛ فساعة يناجي ربّه، وساعة يرمّ معاشه، وساعة يُحلي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمل، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلّا في ثلاث: مرمّة لمعاشٍ، أو خطورة في معادٍ، أو لذّة في غير محرّم»<sup>(٤)</sup>.

وظاهر كيف أنّه عليه السلام جعل ذلك سبباً لأن يكون العبد بذلك متسماً بالعقلانيّة، لأنّه وازن بين حاجاته الضرورية التي لا يمكن أن يستغني عن واحدة منها، إلّا أنّه مثلما هو ظاهر يؤكّد الحليّة في قضاء تلك اللذّة، إذ يقول عندما رأى بعض الناس قد التفتوا لامرأة

(١) نهج البلاغة: ٥١٢.

(٢) نهج البلاغة: ٥٣٤.

(٣) نهج البلاغة: ٥٢٨.

(٤) نهج البلاغة: ٥٥٣.

عابرة: «إنَّ أبصار هذه الفحول طوامح، وإنَّ ذلك سبب هبابها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلا مس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الحديث نجد الإمام قد دعا إلى جعل تلك الرغبة المحرمة نحو النساء رغبة محلّلة بالعدول إلى الزوجة، وفي هذا يعالج المرء هباب نظره، ويكسب قوة الصلة بزوجه، باللجوء إلى ما حلّله الله تعالى، فلا يكون محلّ طيش ونزوات متراكمة، وكم راح كثير من الناس إلى الهاوية بسبب جموح الهوى، وتكرر لديه لَيْلًا هذا المضمون في قوله «وإذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإنَّ عند أهله مثل ما رأى، ولا يجعلنَّ للشيطان إلى قلبه سبيلاً، ليصرف بصره عنها»<sup>(٢)</sup>.

كلّ هذا لأجل الإبقاء على نقاء المودّة والمعاشرة الطيبة وعدم الانجرار وراء الملذّات الفانية. ويظهر كيف أنّ الإمام لم يكن يشخص المشكلة فحسب، بل كان يشخصها، ويعطي العلاج لها.

ويبين الإمام أنّ المرأة إذا صعبت وكانت كالعقرب، فإنّها تبقى ضرورية للرجل، وإنّ لسعتها حلوة بقوله: «المرأة عَقْرَبٌ حُلُوَّةُ اللَّسْبَةِ»<sup>(٣)</sup>. وواضح كيف أنّه توجد هنا مفارقة جميلة بين اللسبة (اللسعة) وحلوة.

وإذا كان فيما سبق مرّ التحذير من الدُّنيا، فهذا لا يعني الانصراف التامّ عنها، بل الأخذ منها بنصيب يكفيه في قضاء حوائجه والوصول به إلى الدّار الآخرة: «خذ من الدنيا ما آتاك وتولّ عما تولّى عنك، فإنّ أنت لم تفعل فأجل في الطلب»<sup>(٤)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ٥٤٥ .

(٢) بحار الانوار: ١٠٠ / ٢٨٢ .

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٤ — ٥٥٥ .

(٤) نهج البلاغة: ٥٥٤ — ٥٥٥ .

ومن هنا يبقى الإجمال في الطلب باباً من أبواب اللذة المحللة التي أرشد إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) على أنه كالعادة يطلب أمير المؤمنين أن تكون هناك نسبة اتزان: «لا تجعل أكثر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله»<sup>(١)</sup>.

ومثلاً ينظر أمير المؤمنين إلى الرجل في تحقيق لذته المحللة ينظر إلى المرأة فيطالب الرجل أن يتواني في مقاربتة زوجته لإشباع رغبتها، يقول (عليه السلام): «إذا أراد أحدكم أن يأتي زوجته فلا يعجلها فإن للنساء حوائج»<sup>(٢)</sup>، وهذا التأكيد (فإن للنساء حوائج) بتقديم الخبر (للنساء) والتوكيد بـ (إن)<sup>(٣)</sup>، إنما جاء لأجل الاهتمام بمتطلبات المرأة؛ ولتكون الحياة الزوجية حياة حافلة بالمودّة والألفة.

وهذا التأكيد على الاقتران بالمرأة يعود إلى أنه من الأمور اللازمة للمرء. ومن هنا إذا أخفق الرجل في الاقتران عليه أن لا يسكت، بل يسعى ويلتمس التسهيل من الله تعالى. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «فإن لم تكن له زوجة فليصل ركعتين ويحمد الله كثيراً ويصلي على النبي وآله، ثم ليسأل الله من فضله فإنه يبيح له برأفته ما يغنيه»<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان كثير من الشبان قد أعرض في هذا الزمان عن الزواج وانشغلوا بأمور لا تنفعهم فعليهم أن يطلّعوا على تراث أهل البيت (عليهم السلام) لأن فيه السعادة في الدنيا والآخرة معاً.

(١) نهج البلاغة: ٥٤٧.

(٢) بحار الانوار: ١٠٠ / ٢٨٢.

(٣) ينظر: شرح المفصل: ٣ / ٥٥٤.

(٤) بحار الانوار: ١٠٠ / ٢٨٢.

## الخاتمة

بعد تلك الرحلة في بساتين الخطاب الإمامي المبارك والكشف عن اهتمام الإمام بالمجالات الحياتية المتنوعة بما يجعل المرء يعيش بتوازن يمكنه من مواكبة الحياة والسير بأمان في خضمّ الأحداث والخطوب المتوالية، بعد هذا، وصل البحث إلى بيان مجموعة من النتائج، ومنها:

كشف البحث عن أنّ خطاب العترة الطاهرة منجم للدراسات المعاصرة، وفيه ما يكون مادة تطبيقية لتلك الدراسات بصورة متممة ومقومة. ومن هنا أعرض البحث عن تسمية عجلة الحياة إلى التوازن الحياتي؛ لأنّ المصطلح الأخير هو الأقرب إلى العلمية، فعجلة الحياة تريد الموازنة بالمقادير نفسها بين المجالات الحياتية. أما التوازن الحياتي فيؤكد أهمية تلك الجوانب جميعاً، لكنّ بعضها أهمّ من بعض. وبعضها يجدر أن يكون أكبر من بعض بحسب متطلبات الحياة، فبعضها يجدر أن يكون بالإجمال، وبعضها يكون بالإكثار.

أعرب البحث عن وجود التلازم بين المجالات الحياتية. فمع أنّ كلّ مجال ينتمي إلى حقل حياتي معين إلّا أنّ صلة القرابة والترابط بين تلك الحقول لا يمكن نكرانها، ليصل البحث إلى أنّ الإنسان منظومة حياتية متكاملة متلاحمة يتّم بعضها بعضاً؛ على أنّ بعض هذه المجالات له السيادة من مثل التقوى التي لها زمام القيادة على سائر المجالات.

كشف البحث عن أنّ الأعمال الروحية والتّهذيبية الموكلة إلى المرء لا تقتصر على الجزاء الأخروي فقط، بل لها حظ من النّصيب الدّنيويّ. نعم، يوجد هناك أجر أخرويّ على الإتيان بها، ومع ذلك فهي لا تخلو من فوائد تعود على المرء في حياته الدنيا، ومن هنا كانت الآخرة سبباً لإدراك الدنيا. أمّا الانشغال بالدّنيا والاقتصار عليها فهو مضيعة للدنيا وللآخرة معاً. كشف البحث عن دقّة التعبير في الخطاب العلوي في بيان التوازن المجالات الحياتية على



النحو من التقييد بـ(في الخلوات) في الحديث «اتَّقُوا معاصي الله في الخلوات فإنَّ الشاهد هو الحاكم»، فضلاً عن عظمة المفارقة في أن يكون الشاهد هو الحاكم.

أوضح البحث الفوائد الجليلة للمقبل على إتيان الأمور الحقّة، فالحقّ يجمع بين الصعوبة والريح الكثير، على العكس من الباطل الذي يجمع بين السهولة والدناءة والخسارة المحققة. كشف البحث عن تأكيد النوعية لا الكمية القليلة الفائدة، ويكون باستغلال الفرص المناسبة والزمان المناسب، فيتصرف المرء بحسب المؤهلات التي تسعفه على أداء العمل بصورة فعّالة وناجحة.

أعرب البحث عن أهمية الدعاء في تعزيز الجانب الروحي ولم يقتصر الأمر على الضراء، بل هو في السراء أحوج إلى الدعاء منه في الضراء.

أوضح البحث أنّ السجايا التهذيبية كفيلة برفع المرء إلى مصافّ الملائكة، وكفيلة بإسعاده في الدنيا والاخرة شريطة أن يضمّ إليها سائر الجوانب الأخرى بسبب التكاملية والترابطية بين تلك المجالات الحياتية.

أعرب البحث عن أنّ الخطاب الإمامي كان توضيحاً لكثير من المفاهيم القرآنية، وهو في هذا مدعاة لأن يكون مصدرًا مهمًّا من مصادر تفسير القرآن الكريم.

كشف البحث عن أهمية الرفق والتودّد في التعامل الحياتي، ولا سيما في القسم المهني، بسبب أنه طريق لتحقيق فوائد كثيرة ويعمل على تعزيز المعاش لدى المرء العامل بمختلف المستويات.

الوسطية هي المحور الذي دارت عليه المجالات الحياتية في عموم البحث. فالإمام يريدنا أن نتعامل بالتّزان، ولا نُعطي الشيء أكبر من حقّه أو أقلّ من استحقاقه.

كشف البحث عن أثر التراث الإمامي في بيان كثير من المفاهيم المهمة في حياة الإنسان من مثل التعبير عن الفقر بالموت الأكبر، والتعبير عن الحلم بالعشيرة، والتعبير عن التقوى

بأنها رئيسة الأخلاق... إلى غير ذلك من المفاهيم مما يجعل من الخطاب الإمامي معجماً مهماً في بيان تلك المفاهيم المهمة.

أوضح البحث الأدوات التي يمكن أن تحقق الجودة في العمل إلى درجة سامية مستعينا بالآلي الإمامية.

اعرب البحث عن توطيد العلاقة بين العباد في الخطاب الإمامي بما يجعل العتاب للاخ المخطئ يكون عتاباً بالإحسان لا بالتوبيخ، وفي هذا قمة الإنسانية المثالية التي يكون لتحقيقها بناء مجتمع قوي متماسك لا ترعزعه الخطوب والنوائب.

كشف عن تأكيد الإمام تحقيق الصحة النفسية للفرد بما يجعله فرداً قابلاً على أداء حياته المهنية بصورة طبيعية.

كشف البحث عن تركيز الإمام على جانب العلاقة الزوجية بما يحقق التوافق والألفة، وتجنب الوقوع في ضعف العلاقة بتحسين تلك العلاقة من الخارج، بعدم الانجرار وراء مفاتن النظر المحرم، وتعويض ذلك بتعزيز العلاقة الزوجية. وفي حالة عدم زواج المرء فعليه ان لا يستسلم، بل يلجأ لله ليسهل له في هذا المجال ليدخل في عالم الزواج لأهميته للفرد وللمجتمع.

وختاماً، نرجو أن يكون هذا البحث ذا فائدة للقارئ، ذلك أن الآلي الإمامية مما يجب أن تشاع على الملأ وتشرف بها الاسماع؛ وهذا الامر لا يصدق مع الخطاب العلوي بل مع عموم الخطابات الإمامية المباركة، ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَى أَمْرَنَا، قُلْتُ: كَيْفَ يُحْيِي أَمْرَكُمْ؟ قَالَ: يَتَعَلَّمُ عِلْمَنَا، وَيَعْلَمُهَا النَّاسَ، فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عِلِمُوا مُحَاسِنَ كَلَامِنَا لَا تَبْعُونَا»<sup>(١)</sup>.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي وآله الطيبين الطاهرين.

(١) وسائل الشيعة: ٢٧ / ٩٢ .

## المصادر والمراجع

١. البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٧، ١٤١٨هـ — ١٩٩٨م.
٢. تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني من أعلام القرن الرابع، المكتبة الحيدريّة، ط ١، ١٤٢٦هـ.
٣. جامع السعادات، الشيخ محمد مهدي النراقي، مطبعة سرور — انتشارات إسماعيليان، قم، ط ٣، ١٤٢٤هـ.
٤. الجواهر الروحيّة، العلامة الشهيد السيد حسن القبانجي، المؤسسة الإسلامية — قم، ط ١، (د.ت).
٥. دراسات في الأخلاق وشؤون الحكمة العمليّة، الشيخ حسين المظاهريّ، دار التعارف، بيروت — لبنان، (د.ط).
٦. رسالة الأخلاق، السيد مجتبي الموسوي اللاري، إعداد لجنة التعريب: محمد هادي اليوسفي الغرويّ، مركز نشر الثقافة الإسلامية في العالم، قم، ط ٦، ١٤٢٩هـ.
٧. السعادة في الإسلام، السيد وسام عبدالله العامليّ، مطبعة الأميرة، بيروت — لبنان، ط ١، ١٤٢٨هـ — ٢٠٠٧م.
٨. السبيل إلى إنهاض المسلمين، السيّد محمد الحسينيّ الشيرازيّ، دار صادق، كربلاء — العراق، ط ١، ١٤٢٥هـ — ٢٠٠٤م.

- شرح العروة الوثقى - التقليد (موسوعة الإمام الخوئي ت ١٤١٣ هـ)، تقرير بحث السيد الخوئي للغروي، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي رحمته، ط ٢، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٩. شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣ هـ)، تح: أحمد السيد وإسماعيل عبد الجواد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).
١٠. الكافي، الشيخ الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية - طهران، ط ٤، ١٣٦٥ ش.
١١. مجتمع اللاعنف - دراسة في واقع الأمة الإسلامية -، السيد حسن عز الدين بحر العلوم، دار الزهراء، إيران - قم، مؤسسة العطار - النجف الأشرف، ط ١، ١٤٢٧ هـ.
١٢. نهج البلاغة - المختار من كلام أمير المؤمنين -، جمعه الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى، تح: السيد هاشم الميلاني، مكتبة الروشة الحيدرية، العتبة العلوية المقدسة - النجف الأشرف، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
١٣. وسائل الشيعة، الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ)، تح: مؤسسة آل البيت (لإحياء التراث - قم، ط ٢، ١٤١٤ هـ.



مختصر في أحوال فاطمة الزهراء عليها السلام

وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها

السيّد حسين بن أحمد الحسني

الشهير بالسيّد حسون البراقي النجفي (ت ١٣٣٢هـ)

الباحث

أ.د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي

النجف الأشرف

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد الأمين ﷺ والهداة الميامين من آلّه الطيبين الطاهرين (عليه السلام)، وبعد :

مما لا شكّ فيه أنّ السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) امتازت بعدّة خصائص حباها الله سبحانه وتعالى ليجعلها فوق نساء العالمين. فذريّة النبي الأكرم محمد ﷺ انحدر منها، فهي الكوثر الذي استمرّ نسل النبي الأكرم منها، وكانت سورة الكوثر إشارة إلى ذلك، فضلاً عن مكانتها (عليها السلام) عند الله سبحانه وتعالى، فقد أمر الله جلّ شأنه النبي الأكرم محمد ﷺ أن يزوّج ابنته (عليها السلام) من الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، فكانت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) همزة الوصل بين النبوة والإمامة، أي إنّها المرأة الوحيدة التي ربطت بين النبوة والإمامة، فهي زوجة أوّل إمام، وأمّ الأئمّة الباقين، وهذه ميزة خصّها الله عزّ وجلّ بها.

في كلّ مرة وأنا أقرأ سيرة أهل البيت (عليهم السلام)، كانت تستوقفني وتبهري شخصية فاطمة الزهراء (عليها السلام) التي نهلت كنه الإيمان والإخلاص من أبيها الرسول الأمين ﷺ، وتفاعلت تلك الكينونة مع زوجها الوصي الإمام علي (عليه السلام)، فأخذت الأقلام تكتب المؤلفات في حياتها وفضائلها وأدبها، ويشدو الشعراء والأدباء بأروع ما قيل من نصوص إبداعية فيها ترسم لنا صورةً مشرقة تجسّد جميع القيم الإنسانية والإسلامية.

وأمام هذه القيم، وأمام هذا الكمّ من المؤلفات التي كتبت عنها، وجدت نفسي أبحث في فهارس المخطوطات لعلّي أظفر بمخطوطة عن جدّي فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وبركاتها (عليها السلام) عثرت على مخطوطة جديرة بالتحقيق والدراسة لما

ترى النور بعد، ألا وهي (مختصر في أحوال فاطمة الزهراء عليها السلام وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها) للسيد حسين بن أحمد الحسني الشهير بالسيد حسون البراقي النجفي (ت ١٣٣٢ هـ).

لقد كانت المخطوطة سفرًا آخر مضافاً يسلط الضوء على جوانب من حياة فاطمة الزهراء عليها السلام يمكن أن يضاف إلى التراث الذي كتب عن حياتها ومصائبها وأحوالها بجوانبها المختلفة.

وختاماً، هذا ما وفقنا الله إليه في إنجاز تحقيق هذا الكتاب، فإن كان عملنا قد أصبنا فيه بما سعيننا إليه لمرضاة الله فهو منّة من منته علينا؛ وإن أخطأنا، وزلّ قلمنا، فحسبنا الضعف والهوان، فهو ديدن العبد، والقصور وسمه وسمته، لا يقوى إلاّ بنعم القوي سبحانه وتعالى، وهو الجبار المتعال، الحنان الوهاب، الكمال له وحده، يجود من آلائه لمن يشاء من عباده ويقدر، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين.



## المبحث الأول مقدمات التحقيق

### دراسة المخطوط وأهميته ومصادره:

المخطوط مختصر في أحوال فاطمة في مراحل مختلفة من حياتها، ونرى للمؤلف بعض الخلط عند التنظيم في عرض مؤلفه، لكن ذلك لا يمنع من وجود ملامح منهجية وضعها المؤلف.

كما اعتمد في كتابه على مصادر كثيرة، تنقل الروايات والأحاديث والأشعار التي تخص فاطمة الزهراء (عليها السلام) معتمداً الدقة في النقل من خلال ذكر سلسلة السند وطرقه في بعض أحاديثه.

ومصادره متعددة، الفقهية والأصولية والتاريخية والرجالية، وكتب مناقب أهل البيت (عليهم السلام)، وهو ثبت في النقل، دقيق في عبارته، يستقي رواياته من أصولها.

والمخطوط عن فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما يتعلق بحياتها ومصائبها وأحوالها بجوانبها المختلفة وفق بعض الملامح المنهجية التي وضعها المؤلف، وهي:

أسماء فاطمة كناها وأخرى مبثوثة بين فقرات المخطوط.

**ترجمة المؤلف<sup>(١)</sup>:****نشأته وتربيته:**

هو السيّد حسين بن أحمد بن إسماعيل بن زيني الحسني النجفي الشهير بالبراق<sup>(٢)</sup>.

ولد في النجف سنة ١٢٦١هـ أو بعدها بسنة، ومال منذ نعومة أظفاره إلى البحث والعلم، لا سيما التاريخ، كأنما جبل على استقراء الحوادث وتتبعها. فجالس العلماء، واختلف إلى أندية المعمرين من أهل العلم والخبرة، وأفاد من ذلك كثيرًا. وكان كثير السؤال وتقييد الإجابات حتّى أنّه كان ينتهي إلى أخبار البلاد النائية، فعظمت عنده ما أحصاه من الوقائع التاريخية التي رافقت أيامه عدا ما استخرجه من بطون الدفاتر والآثار التاريخية. وكان تحلّف حاله، وقلة ماله يمنعه من اقتنائها، فالتجأ إلى انتساخ ما يحتاجه من الأسفار حتّى انتسخ بيده بعض المطبوعات، فورّق لنفسه مكتبة صغيرة فيها جملة من الآثار النادرة. كما تسنى له التطواف في رقعة عريضة من سواد العراق، فشاهد طائفة من المعالم والأطلال العراقية القديمة حيث قرن العلم بالعمل فيها.

وبالجملة، كان جلّ همّه مصروفًا إلى التاريخ واختصّ فيه، ولم يشارك في شيء سواه من العلوم والفنون؛ اللهمّ إلّا في علمي الأنساب والرجال لاتصالهما بالتاريخ.

وكان ضيق العطل في اللغة العربية، قليل البضاعة في الإنشاء والترسل، ولغته تتخذ الوسطية بين لغة العامّة والفصحاء. وفي بعض آثاره الحشو، والخطأ في الاجتهادات والاستنتاجات التاريخية. كان يغلب عليه - شأنه شأن أكثر الكتب القديمة - من التشويش وسوء الترتيب والتبويب.

(١) الترجمة منقولة بقلم الشيخ محمّد رضا الشبيبي في كتاب تاريخ الكوفة: ٧ - ١١، وينظر في ترجمته أيضًا: طبقات أعلام الشيعة: ١٤ / ٥٢٣ - ٥٢٧.

(٢) البراق: نسبة إلى محلة في النجف الأشرف هي: البراق.

على أن ذلك بأجمعه لا يغص من منزلته كتبه وآثاره، بما فيها من فوائد جلية.

### أخلاقه وأحواله:

كان السيّد البراقبي رقيق القلب جمّ المروءة، منفقاً على عياله الكثيرين، ممتعضاً متبرماً من أخلاق معاصريه؛ وبسبب ذلك نزع إلى قرية من قرى اللهييات إحدى قرى الحيرة، وذلك في حدود سنة ١٣٢٠هـ، فأقام فيها على نكد من العيش، وضيق المكسب، يستغل هو وأولاده ضيعة صغيرة تفادياً من مسألة اللئام إلى أن توفي في ضيعته المذكورة، وذلك في شعبان سنة ١٣٣٢هـ.

كان أيضاً على جانب لا يستهان به من قوة الحافظة، وجودة الذكر، وحضور البال، وكثرة التتبع والاستقراء، وهي من مزايا المؤرخين على الإجمال، كما يظهر ذلك ممّا تركه من الآثار الكثيرة تأليفاً وانتساخاً مع قلة ذات يده، وانصرافه إلى تدبير معاشه.

### مؤلفاته وأثاره:

تربو مؤلفات السيّد البراقبي على الثمانين مجلداً منها:

- ١- بهجة المؤمنين في أحوال الأولين والآخرين، أربع مجلدات ضخمة كبيرة، وهو تاريخ عام انتهى به إلى أيامه.
- ٢- قلائد الدرر والمرجان فيما جرى في السنن من طوارق الحداث، تاريخ أيضاً في مجلد واحد، عوّل فيه على كتب نادرة.
- ٣- براقية السيرة في تحديد الحيرة، وفيه فصول تاريخية قيّمة عن الحيرة، ومنه يستدلّ على أنّه كان مطبوعاً على التنقيب عن تاريخ العراق وآثاره القديمة.
- ٤- كتاب الحنّانة والثوية، رسالة لطيفة في تحقيق هذين الموضعين.

- ٥- الجوهرة الزاهرة في فضل كربلاء ومن حلّ فيها من العترة الطاهرة، مجلد واحد، وفيه مادة تاريخية عن كربلاء.
- ٦- السيرة البراقية في ردّ صاحب التحفة العنبرية، في الأنساب.
- ٧- عقد اللؤلؤ والمرجان في تحديد أرض كوفان، ومن سكن فيها من القبائل والعربان، مجلد واحد.
- ٨- اليتيمة الغروية في الأرض المباركة الزكية، وهو تاريخ للنجف.
- ٩- النخبة الجلية في أحوال الوهابية، وفيه تاريخ ظهورهم ووقائعهم في العراق وغيره.
- ١٠- كتاب قريش وأحوالهم.
- ١١- كتاب بني أمية وأحوالهم.
- ١٢- إكسير المقال في مشاهير الرجال.
- ١٣- منبع الشرف، رسالة في مشاهير علماء النجف.
- ١٤- تغيير الأحكام فيمن عبد الأصنام.
- ١٥- كشف النقاب في فضل السادة الأنجاب.
- ١٦- الهاوية في تاريخ يزيد بن معاوية.
- ١٧- معدن الأنوار في النبي وآله الأطهار (عليه السلام).
- ١٨- البقعة البهية، مختصر في تاريخ الكوفة الزكية.
- ١٩- السرّ المكنون في الغائب المصون، وهو ردّ على الجهلاء الذين عيّنوا زمان ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) زاعمين أننا في آخر الزمان.

٢٠- إرشاد الأمة في جواز نقل الأموات إلى مشاهد الأئمة عليهم السلام.

٢١- كشف الأستار في أولاد خديجة من النبي المختار عليه السلام.

٢٢- رسالة في تاريخ الشيخ المفيد رحمه الله.

٢٣- رسالة في السهو والنسيان وهل ثبتا للنبي عليه السلام.

وله غيرها من المؤلفات، ومعظم مؤلفاته بخط يده.

### وصف المخطوط وعملا في التحقيق:

#### نسبة المخطوط إلى مؤلفه :

من مصاديق التحقيق صحة نسبة المخطوط إلى مؤلفه. وقد أشار إليه المؤلف في بداية المجموع الذي يعدّ هذا المخطوط جزءاً منه<sup>(١)</sup>.

لم يذكر صاحب الذريعة هذه المخطوطة إذ ذكر كثيراً من مؤلفاته، ويحتمل لأنها من ضمن مجموع من رسائله لم يذكر، ويحتمل أيضاً إشارته لبعض مؤلفاته، وذكره أنّ له مؤلفات ورسائل أخرى<sup>(٢)</sup>.

#### وصف نسخة المخطوط :

للمخطوط نسخة وحيدة تمّ الحصول عليها: النسخة من مقتنيات مكتبة السيّد البراقى الخاصة بعناية حفيده السيّد عباس البراقى دامت بركاته ضمن مجموع من رسائل المؤلف، وهذا تفصيل وصفها:

(١) ينظر: المخطوط: ١.

(٢) ينظر كتبه في مواضع متفرقة من كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

مختصر في أحوال فاطمة الزهراء عليها السلام وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها/  
 السيّد حسين بن أحمد الحسني الشهير بالسيّد حسون البراقي النجفي (ت ١٣٣٢هـ)  
 الموضوع: سيرة معصومين/ اللغة: عربي/ نوع الخط: نسخ، النسخ: المؤلف، تاريخ  
 النسخ: القرن الرابع عشر الهجري، عدد الأوراق: ٢٣ (تبدأ من ٤٠ و تنتهي ٦٣ ظ)  
 عدد الأسطر: ١٤.

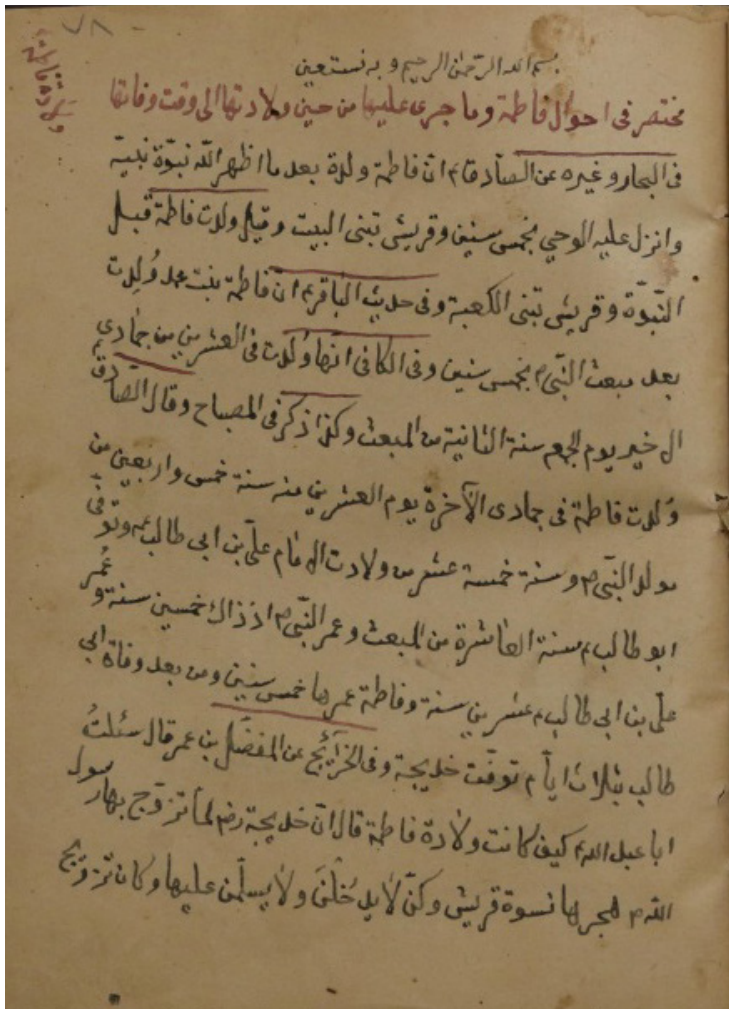
### منهج التحقيق:

الغرض من التحقيق هو تقديم المخطوطة كما وضعها مؤلفها، ومنهجنا في التحقيق هو  
 الآتي:

- ١- اعتمدنا في التحقيق على نسخة وحيدة بخط المؤلف، لا توجد نسخة أخرى غيرها.
- ٢- نسخت المخطوطة وفق قواعد الرسم المعروفة مع وضع علامات الترقيم الحديثة في مواضعها.
- ٣- خرّجنا الآيات القرآنية الواردة في المخطوط، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة عليهم السلام، والمرويات الواردة عن العلماء الأعلام، فضلاً عن الأبيات الشعرية التي خرّجناها من الدواوين الشعرية للشعراء أو المصادر التي ذكرتها عند عدم توافر الديوان.
- ٤- شرح الكلمات الغامضة والأماكن والحوادث التاريخية التي ترد في المخطوط.
- ٥- ترجمة الأعلام الواردة في المخطوط وبصورة موجزة تجنباً للإطالة وإثقال الهوامش.
- ٦- تخريج الروايات الواردة في المتن وإرجاعها إلى مظانها تبعاً لعلومها المختلفة.

### صور المخطوط:

نثبت في هذا الموضع مصورة الصفحة الأولى والثانية والأخيرة من المخطوط:







## المبحث الثاني النص محققاً

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين مختصر في أحوال فاطمة وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها في البحار وغيره عن الصادق (عليه السلام): (إنّ فاطمة ولدت بعدما أظهر الله نبوة نبيّه، وأنزل عليه الوحي بخمس سنين وقريش تبني البيت)<sup>(١)</sup>.

وقيل: (ولدت فاطمة قبل النبوة وقريش تبني الكعبة)<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث الباقر (عليه السلام): (إنّ فاطمة بنت محمد وُلِدَتْ بعد مبعث النبيّ ﷺ بخمس سنين)<sup>(٣)</sup>.

وفي الكافي: (إنّها وُلِدَتْ في العشرين من جمادى الأخير يوم الجمعة [الـ] سنة الثانية من المبعث)<sup>(٤)</sup>.

وكذا ذُكِرَ في المصباح<sup>(٥)</sup>.

وقال الصادق (عليه السلام): (وُلِدَتْ فاطمة في جمادى الآخرة يوم العشرين منه سنة خمس وأربعين من مولد النبيّ ﷺ، وسنة خمسة عشر من ولادة الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وتوفيّ أبو طالب (عليه السلام) [الـ] سنة العاشرة من المبعث وعمر النبيّ ﷺ إذ ذاك خمسين سنة،

(١) بحار الأنوار: ٧/٤٣، وينظر: كشف الغمّة في معرفة الأئمة: ٧٦/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٩/٤٣، وينظر: مقاتل الطالبين: ٣٠.

(٣) الكافي: ٩/١ - ٤٥٧ - ٤٥٨، عنه بحار الأنوار: ٩/٤٣.

(٤) الكافي: ٩/١ - ٤٥٨، عنه بحار الأنوار: ٩/٤٣.

(٥) المصباح (الكفعمي): ٥١٢، عنه بحار الأنوار: ٩/٤٣.

وعُمَرُ عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عشرين سنة، وفاطمة عمرها خمس سنين، ومن بعد وفاة أبي طالب بثلاث أيّام توفّت خديجة<sup>(١)</sup>.

وفي الخرائج: (عن المفضل بن عمر، قال: سألتُ أبا عبد الله (عليه السلام): كيف كانت ولادة فاطمة؟ قال: إنّ خديجة رضي الله عنها لما تزوّج بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) هجرها نسوة قريش، وكنّ لا يدخلن ولا يسلمن عليها، وكان تزويج خديجة يوم العاشر من شهر ربيع الأوّل فكانت كلّ يوم تزداد حسناً وجمالاً وبهجةً وكمالاً، وكنّ النساء لا يتركن امرأة تدخل عليها فاستوحشت خديجة لذلك، وكان جزعها وغمّها على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلمّا حملت بفاطمة (عليها السلام) كانت فاطمة تحدّثها في بطنها وتصبرّها، وكانت تكتم ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فدخل (صلى الله عليه وآله) يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة، فقال: يا خديجة، من تحدّثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني محدّثني ويؤنسني، قال: يا خديجة، هذا جبرئيل يبشّرني أنّها أنثى، وأنّها النسل الطاهرة الميمونة، إنّ الله سيجعل نسلي منها، ويجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفائي في أرضه بعد انقضاء وحيه، فلم تزل خديجة على ذلك إلى أن حضر [ت] ولادتها، فوجّهت إلى نساء قريش: تعالين لتلّين منّي ما تلي النساء من النساء، فأرسلن إليها عصيتينا ولم تقبلي قولنا، وتزوّجت محمّداً يتيماً أبي طالب (عليه السلام) لا مال له، فلسنا نجيء إليك، ولا نلي من أمرك شيئاً، فاعتمت خديجة لذلك، بينما هي كذلك إذ دخل أربع نسوة طوال كأنهنّ من نساء بني هاشم، ففزعت منهنّ لما رأتهنّ، فقالت إحداهنّ: لا تحزني يا خديجة فإنّا رسل ربك إليك، ونحن أخواتك: أنا سارة امرأة إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وهذه آسية بنت مزاحم امرأة فرعون حيث قالت: ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة، ونجّني من فرعون وعمله، ونجّني من القوم الظالمين، وهي رفيقتك في الجنّة، وهذه مريم بنت عمران أخت موسى بن عمران، وهذه أمّ البشر أمنا حواء، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء، فجلست واحدة

(١) بحار الأنوار: ٩/٤٣.

عن يمينها، والأخرى عن شمالها، والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة الزهراء طاهرة مطهرة مسرورة، فلما سقطت على الأرض أشرق منها النور حتى دخل بيوت مكة، ولم يبق في شرق الأرض وغربها موضع إلا أشرق من ذلك النور، ودخل عشر من الحور العين بيد كل واحدةٍ منهنّ طست من الجنة، وإبريق من الجنة، وفي الإبريق ماء من الكوثر، فتناولتها المرأة التي كانت بين يديها فغسلتها بماء الكوثر، وأخرجت خرقتين بيضاوتين أشدّ بياضاً من اللبن، وأطيب ريحاً من المسك والعنبر، فلفتها بواحدةٍ، وقنعتها بالثانية، ثم استنطقتها، فنطقت فاطمة بالشهادة، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً أبي رسول الله ﷺ سيّد الأنبياء، وأنّ بعلي سيّد الأوصياء، وولدي سادة الأسباط، ثم سلّمت عليهنّ، وسمّت كل واحدةٍ منهنّ باسمها، وأقبلن يضمّنها إليهنّ، وتباشرت الحور العين بولادتها، وبشّر أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة، ووُجد في السماء نوراً زاهراً لم تره الملائكة قبل ذلك، وقالت النسوة: خذينا يا خديجة طاهرة مطهرة زكية ميمونة، بورك فيها وفي نفسها، فتناولتها خديجة وهي فرحة مستبشرة وألقتها ثديها، فكانت فاطمة عليها السلام تنمو في اليوم كما ينمو الصبي في الشهر، وتنمو في الشهر كما ينمو الصبي في السنة<sup>(١)</sup>.

### أسماء فاطمة:

وأما أسماؤها كثيرة، فمنها: (فاطمة، والصدّيقة، والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية، والمرضية، والمحدّثة، والزهراء، والبتول، والحصان، والحرّة، والسيدة، واليسرة، والعذراء، والحوراء، ومريم الكبرى، والصدّيقة الكبرى)<sup>(٢)</sup>.

(١) الخرائج والجرائح: ٥٢٤/٢ - ٥٢٦.

(٢) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/٣٥٧، عنه بحار الأنوار: ١٦/٤٣.

وأسماءؤها في السماء: (النورية، والسماوية، والحائنة، والحانية: هي الشقيقة على زوجها وأولادها)<sup>(١)</sup>.

وكنهاها، فهي: (أمّ الحسن، وأمّ الحسين، وأمّ المحسن، وأمّ الأئمة، وأمّ أبيها)<sup>(٢)</sup>.

قالت أمّ سلمة رضي الله عنها: (إنّ فاطمة لم ترَ دماً قطّ، ولا حيض، ولا نفاس<sup>(٣)</sup>)، وكانت يصبّ عليها من ماء الجنّة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لما دخل الجنّة في السرى، وأكل فاكهة الجنّة، وشرب من ماء الجنّة، فنزل من ليلته، فوقع على خديجة فحملت بفاطمة، فكان حمل فاطمة من ماء الجنّة.

وقال النبي ﷺ لعائشة ذات يوم: يا حميراء، إنّ فاطمة ليست كنساء الأدمين، وتقل كما تقلّون<sup>(٤)</sup>.

وقال الرضا عليه السلام: (قال: قال رسول الله ﷺ: إنّما سمّيت ابنتي فاطمة فاطمة؛ لأنّ الله فطمها وفطم من أحبّها من النار)<sup>(٥)</sup>.

وقال النبي ﷺ: (يا فاطمة، أتدريين لمّ سمّيت فاطمة؟ فقال عليّ: يا رسول الله، لمّ سمّيت فاطمة، قال: لأنّها فطمت هي وشيعتها من النار)<sup>(٦)</sup>.

وقال أيضاً: (إنّما سمّيت ابنتي فاطمة؛ لأنّ الله فطمها وفطم من أحبّها من النار، وفطمت من الشر)<sup>(٧)</sup>.

(١) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥٧، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦ - ١٧.

(٢) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥٧، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦.

(٣) الشؤون الفكرية: في إعلام الوري لأعلام الهدى: (في حيض ولا نفاس).

(٤) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٦ باختلاف في الألفاظ.

(٥) الأمالي (الطوسي): ٢٩٤، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٥.

(٦) علل الشرائع: ١/ ١٧٩، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٥.

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ٥١.

وسميت البتول؛ (لأنها لم ترَ دمًا ولا حيضًا ولا نفاسًا)<sup>(١)</sup>.

(وسئل النبي ﷺ: ما البتول؟ فإننا سمعناك يا رسول الله تقول: إن مريم بتول، وفاطمة بتول، فقال: البتول التي لم ترَ حمرة قط، أي لم تحض، فإن الحيض مكروه في بنات الأنبياء)<sup>(٢)</sup>.

(والعذراء: هي البكر، والحصان: يعني العفيفة، والحائنة: هي المشفقة)<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو عبد الله (عليه السلام): (إنما سميت فاطمة الزهراء؛ لأن لها في الجنة قبة من ياقوتة حمراء ارتفاعها في الهواء مسيرة سنة معلقة بقدر الجبار لا علاقة لها من فوقها فتمسكها، ولا دعامة لها من تحتها فتلزمها، لها مائة ألف باب، على كل باب ألف من الملائكة يراها أهل الجنة كما يرى أحدكم الكوكب الدرّي الزاهر في أفق السماء، فيقولون: هذه الزهراء لفاطمة)<sup>(٤)</sup>.

وقال الصادق (عليه السلام) أيضًا: (إنما سميت فاطمة الزهراء زهراء؛ لأن الله خلقها من نور عظمتها، فلما أشرقت أضواء السموات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة، وخرّت الملائكة لله ساجدين، وقالوا: إلهنا وسيدنا، ما هذا النور؟ فأوحى الله إليهم: هذا نور أسكنته في سمائي، خلقتة من عظمتي، أخرجته من صلب نبي من أنبيائي، أفضله على جميع الأنبياء، وأخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمر يهدون إلى حقي، وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي، فهذا نورها في الجنة والسماء)<sup>(٥)</sup>.

(١) علل الشرائع: ١/ ١٨١، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٥.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١٨١، عنه بحار الأنوار: ٤٣/ ١٥.

(٣) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٧.

(٤) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٣٠.

(٥) علل الشرائع: ١/ ١٨٠، معاني الأخبار: ٦٤.

وأما نورها وزهرتها في الأرض، كما عن أبان بن تغلب<sup>(١)</sup>، قال: (قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام): يا ابن رسول الله، لم سميت الزهراء زهراء؟ فقال: لأنها تزهر لأمر المؤمنين في النهار ثلاث مرّات بالنور، كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة والناس في فراشهم، فيدخل بياض ذلك النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبيّض حيطانهم فيعجبون من ذلك، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عَمَّا رَأَوْا فيرسلهم إلى منزل فاطمة، فيأتون منزلها فيرونها قائمة وقاعدة في محرابها تصلي، والنور يسطع من محرابها ومن وجهها، فيعلمون أنّ الذي رأوه كان من نور فاطمة، فإذا انتصف النهار، وترتبت للصلاة زهر نور وجهها بالصفرة، فتدخل الصفرة في حجرات الناس فتصفرّ ثيابهم وألوانهم، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عَمَّا رَأَوْا، فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيرونها في محرابها وقد زهر وجهها بالصفرة، فيعلمون أنّ الذي رأوا كان من نور وجهها، فإذا كان آخر النهار وغربت الشمس أحمرّ وجه فاطمة فأشرق وجهها بالحمرة فرحاً وشكراً لله تعالى، فكان تدخل حمرة وجهها حجرات القوم فتحمرّ حيطانهم، فيعجبون من ذلك، ويأتون النبي ﷺ ويسألونه عن ذلك، فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيرونها جالسة تسبح الله وتمجّده، ونور وجهها يزهر بالحمرة، فيعلمون أنّ الذي رأوا كان من نور وجه فاطمة، فلم يزل ذلك النور في وجهها حتّى وُلد الحسين، فانتقل إليه وهو يتقلّب في جوهنا إلى يوم القيامة في الأئمة ممّن أهل البيت إمام بعد إمام<sup>(٢)</sup>).

نعم، ولذا عمر بن الخطّاب ضرب فاطمة على عينها تذكّراً منه لما رأى حمرة نور وجهها، وضربها على خدّها فتناثر قرطها، فاصفرّ لذلك وجهها تذكّراً من عمر لصفرة وجه فاطمة،

(١) أبان بن تغلب الكندي الكوفي (ت ١٤١ هـ)، أديب، وقارئ، وفقه، ومفسّر، ومحدث، ومن مشاهير الإمامية أدرك الإمام علي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام، ودرس على أيديهم العلوم المتداولة آنذاك كالحديث، حيث بلغ منزلة عظيمة في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، وورد أنّه روى ٣٠ ألف رواية عن الإمام الصادق عليه السلام. ينظر في ترجمته مثلاً: رجال النجاشي: ١٠ - ١١.

(٢) علل الشرائع: ١/ ١٨٠ - ١٨١.

وأمر قنفذ أن يضربها بالسياط فضربها وهي خارجة خلف ابن عمّها، وقصدها أن تخلصه من أيدي الظالمين الناكثين حين وضعوا حمائل سيفه في عنقه، وقادوه كما يقاد البعير المغشوش، وهذه الزهراء من ورائه تنادي: خلّوا عن ابن عمّي، ثم قالت: وا محمداه، وأبا القاسماه، وا أبتاه، هكذا يفعل بأخيك وابن عمك من بعدك، وهكذا يفعل بحبيبتك يا أبتاه من بعدك، صرنا من المستضعفين لا ناصر لنا بعدك، ولا معين<sup>(١)</sup>.

قال: لما جاء الطلقاء والمنافقون مع عمر إلى منزل فاطمة، وتواثبوا على أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو جالس على فراشه، ووضعوا حمائل سيفه في عنقه، وأخرجوه سحبا من داره، ملبيا بثوبه، وخرجت فاطمة تعدو خلفهم فحالت بينهم وبينه، وقالت: والله لا أدعكم تخرجون بابن عمّي ظلما، ويلكم ما أسرع ما خنتم الله ورسوله فينا أهل البيت، وقد أوصاكم الله فينا، وبموذتنا واتباعنا والتمسك بنا، فرجع لها عمر ولطمها على وجهها حتى أثر في عينها، وقال لقنفذ: يا ويلك اضربها، فجعل قنفذ يضربها على ظهرها، ويلتوي السوط على جنبها إلى أن أنهكها، وأثر الضرب في جسدها، وكان الضرب أقوى في إسقاط جنبها إلى أن رجعت إلى بيتها، وأسقطت جنبها المحسن<sup>(٢)</sup>.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: (ما رأيت فاطمة تمشي إلا ذكرت رسول الله ﷺ تميل على جانبها الأيمن مرّة، وعلى جانبها الأيسر مرّة)<sup>(٣)</sup>.

(وُلدت بمكة بعد النبوة بخمس سنين، وبعد الإسرائ بثلاث سنين، في العشرين من جمادى الآخرة، وأقامت مع أبيها بمكة ثمان سنين، ثم هاجرت معه إلى المدينة)<sup>(٤)</sup>. وكانت مشرقة رباعية، (وكان نقش خاتمها: أمن المتوكلون، وكان بوابها فضة أمتها)<sup>(٥)</sup>.

(١) ينظر: الكوكب الدرّي في أحوال النّبّيّ والبتول والوصيّ: ١/ ١٩٤.

(٢) ينظر نواذر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين: ١٨٢ - ١٨٣ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥٧.

(٤) روضة الواعظين وبصيرة المتعطين: ١/ ٣٢٩.

(٥) بحار الأنوار: ٩/ ٤٣.

وقال النبي ﷺ: (اشتأقت الجنة إلى أربع من النساء: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون، وهي زوجة النبي ﷺ في الجنة، وخديجة بنت خويلد زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، وفاطمة بنت محمد).

وقال ابن عباس: (أفضل نساء الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم)<sup>(١)</sup>.

وكان النبي ﷺ يكثر تقبيل فاطمة، فقالت له عائشة: يا رسول الله، أراك كثيرًا ما تقبل فم فاطمة، وتدخل لسانك في فمها، قال: نعم، إنه لما دخلت الجنة ليلة الإسراء، فأداني جبرئيل من شجرة طوبى، وناولني من ثمارها تفاحة فأكلتها، فصارت نطفة في صلبى، فلما هبطت واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فكلما اشتقت إلى الجنة قبلتها، وأدخلت لساني في فمها، فأجد منها ريح الجنة، ومن جناها رائحة شجرة طوبى، فهي إنسية سماوية<sup>(٢)</sup>.

وقال النبي ﷺ: أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعليّ لقاحها، والحسن والحسين ثمرها، وشيعتنا ورقها، الشجرة أصلها في جنة عدن، والفرع والثمر والورق في الجنة<sup>(٣)</sup>.

وقال النبي ﷺ فيها: إنها بضعة مني، من آذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله<sup>(٤)</sup>.

(١) الخصال: ٢٠٦ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) ينظر: باختلاف في الألفاظ: تفسير العياشي: ١٢١/٢، تفسير فرات الكوفي: ٢١٦.

(٣) ينظر: بصائر الدرجات: ٨٠ باختلاف في الألفاظ.

(٤) تعددت رواية الحديث بألفاظ وطرق مختلفة، ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٨٦٩/٢، مسند أبي بصير: ٣٩٤/١، المصنف (الصنعاني): ٣٠٢/٧، الطبقات الكبرى: ٢٦٢/٨، المصنف (ابن أبي شيبة): ٥٢٦/٧، مسند أحمد بن حنبل: ٥/٤، صحيح البخاري: ٢١٠/٤، صحيح مسلم: ١٤١/٧، سنن الترمذي: ٦٩٩/٥، السنن الكبرى: ٩٧/٥.



وقال ﷺ: (إن الله يغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها)<sup>(١)</sup>.

وقال: (لولا أمير المؤمنين تزوّجها لما كان لها كفو إلى يوم القيامة على وجه الأرض من آدم إلى دونه)<sup>(٢)</sup>.

ولما بلغ عمرها خمس سنين توفيت أمها خديجة، قال أبو عبد الله ﷺ: (لما توفيت خديجة، جعلت فاطمة تلوذ برسول الله ﷺ، وتدور حوله وتسأله: يا رسول الله، أين أمي؟ فجعل النبي ﷺ لا يجيبها، فجعلت تدور على من تسأله، ورسول الله ﷺ لا يدري ما يقول، فنزل جبرئيل، فقال: يا محمد، إن ربك يأمر أن تقرأ على فاطمة السلام، وتقول لها: أمك في بيت من قصب كعابه من ذهب، وعمده من ياقوت أحمر بين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، فأخبرها النبي ﷺ بذلك، فقالت فاطمة: إن الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام)<sup>(٣)</sup>.

(ثم إن النبي ﷺ هاجر إلى المدينة وعمر فاطمة ﷺ ثمان سنين، فنزل بقاء وكتب إلى أمير المؤمنين ﷺ يأمره بالمسير إليه، فخرج عليّ ﷺ بالفواطم: فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وهي ضباعة، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتبعهم أيمن بن أم أيمن، وأبو واقد، فجعل يسوق بالرواحل فأعنف بهم، فقال عليّ ﷺ: ارفق بالنسوة الفواطم أبا واقد، إنهن من الضعائف، قال: إنني أخاف أن يدركن الطلب، فقال عليّ: اربع عليك، ثم

(١) رواه الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٢ / ٤٦ الحديث ١٧٦، وكنز العمال: ١٢ / ١١١ / ٣٤٢٣٧، وبشارة المصطفى: ٢٠٨ وفرائد السمطين: ٢ / ٤٦ الحديث ٣٧٨، وأخرجه الطبري في ذخائر العقبى عن مسند الإمام الرضا وشرف النبوة وباللفظ الآتي: (يا فاطمة إن الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك)، ونحوه في مناقب أمير المؤمنين لابن المغازلي: ١ / ٣٥ الحديث ٤٠١ والمستدرك على الصحيحين ٣ / ١٥٤.

(٢) الخصال: ٤١٤.

(٣) الخرائج والجرائح: ٢ / ٥٢٩ - ٥٣٠ باختلاف في بعض الألفاظ.

جعل عليّ يسوقهنّ سوقاً رفيقاً، فلمّا شارف ضجنان أدركه الطلب وهم سبع فوارس من قريش، وثامنهم مولى الحارث بن أميّة يدعى جناحاً، فأقبل عليّ (عليه السلام) على أيمن وأبي واقد، فقال لهما: أنيخا الإبل واعقلاها، وتقدّم حتّى أنزل النسوة الفواطم، ودنا القوم فاستقبلهم عليّ (عليه السلام) منتضياً سيفه، فأقبلوا عليه، فقالوا: أظنّنت أنّك يا غلام ناج بالنسوة، ارجع لا أبا لك، قال: فإن لم أرجع؟ قالوا: لترجعنّ راغماً، ولترجعنّ بأكبرك سعراء، وأهون بك من هالك، ودنا الفوارس من النسوة المطايا ليثوّروها، فحال عليّ بينهم فأهوى له جناح بسيفه، فراغ عليّ (عليه السلام) عن ضربته، وعطف عليه فضربه على عاتقه، فأسرع السيف مُضِيّاً فيه حتّى مسّ كاتبة الفرس، فوقع اللعين إلى الأرض بشطرين، وشدّ على قومه شدة الأسد على فريسته، وكان راجلاً فيشدّ عليهم شدّ الفارس، وهو يقول: (بحر الرجز)

خلّو سبيل الجاهد المجاهد      آليت لا أعبد غير الواحد

فتصدّع القوم عنه، فقالوا له: أغني عنّا سيفك يا ابن أبي طالب، قال: فإنّي منطلق إلى ابن عمّي رسول الله بيثرب، فمن سرّه أن أفري لحمه، وأهريق دمه فليتبعني، ثمّ رجع إلى أيمن وأبي واقد، فقال لهما: أطلقا مطاياكما، ثمّ سار ظاهراً قاهراً، ولحق بالنبيّ (صلى الله عليه وآله)، ففرح النبيّ (صلى الله عليه وآله) بقدمهم<sup>(١)</sup>.

وفي السنة الثانية من هجرته، قال الحسين بن عليّ (عليهما السلام): (بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيت أمّ سلمة إذ هبط عليه ملك له عشرون رأساً، في كلّ رأس ألف لسان يسبّح الله ويقدّسه بلغة لا تشبه الأخرى، وراحته أوسع من سبع سماوات، وسبع أرضين، فحسب النبيّ (صلى الله عليه وآله) أنّه جبرئيل، فقال: يا جبرئيل، لم تأتني بهذه الصورة قطّ؟ قال: ما أنا جبرئيل، أنا صرائيل بعثني الله إليك لتزوّج النور من النور، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله): من النور؟ ومن النور؟ قال: ابنتك فاطمة من عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، فزوّج النبيّ (صلى الله عليه وآله) فاطمة من عليّ بشهادة جبرئيل وميكائيل

(١) الأُمالي (الطوسي): ٤٧٠ - ٤٧١.

وصر صائيل، قال: فنظر النبي ﷺ، فإذا بين كتفي صر صائيل مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب مقيم الحجّة، فقال النبي ﷺ: يا صر صائيل، منذ كم هذا كتب بين كتفيك؟ قال: من قبل أن يخلق الله الدنيا باثني عشر ألف سنة<sup>(١)</sup>.

قال الصادق عليه السلام: (كان صدّاق فاطمة خمس الأرض، فمن مشى عليها مبعوضاً لها ولولدها مشى عليها حراماً إلى أن تقوم الساعة)<sup>(٢)</sup>.

وقال الباقر عليه السلام: (نحلة فاطمة من علي عليه السلام: خمس الدنيا، وثلاث الجنة، وجعلت لها من الأرض أربعة إثمها: الفرات، ونيل مصر، ونهر وان، ونهر بلخ)<sup>(٣)</sup>.

وقال الصادق عليه السلام: (إن الله مهر فاطمة ربع الدنيا، فربعها لها ومهرها الجنة والنار، فتدخل أولياءها الجنة، وأعداءها النار، قال: بل ليطلع علينا رسول الله ﷺ ذات يوم مشرق وجهه كدائرة قمر، فقام إليه عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا رسول الله، ما هذا النور؟ قال: بشارة أتتني من ربّي في أخي، وابن عمّي، وابنتي، وأنّ الله زوج عليّاً من فاطمة، وأمر رضوان خازن الجنان فهزّ شجرة طوبى، فحملت رقاقاً يعني: صكاً بعدد محبّي أهل بيتي، وأنشأ من تحتها ملائكة من نور، ودفع إلى كلّ ملك صكاً، فإذا استوت القيامة بأهلها نادى الملائكة في الخلائق فلا يبقى محبّ لأهل البيت إلّا دفعت إليه صكاً فيه فكاكه من النار، بأخي وابن عمّي، وابنتي فكاك رقاب رجال ونساء من أمّتي من النار)<sup>(٤)</sup>.

قال ابن عباس: (لما أن كانت ليلة زفّت فاطمة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام كان النبي ﷺ قد أمها، وجبرئيل عن يمينها، وميكائيل عن يسارها، وسبعون ألف ملك من ورائها يسبحون الله ويقدّسونه [حتى مطلع الفجر])<sup>(٥)</sup>.

(١) المناقب (الخوارزمي): ٣٤٠ - ٣٤١، كشف الغمّة في معرفة الأئمة: ١/ ٣٦١ - ٣٦٢.

(٢) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥١.

(٣) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥١.

(٤) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/ ٣٥٢.

(٥) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٢٤.

وفي حديث أم سلمة: (إِنَّ السَّمَوَاتِ ارْتَجَّتْ فَرَحًا وَسُرُورًا بِزَوَاجِ فَاطِمَةَ، وَإِنَّ اللَّهَ خُطِبَ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، الْعَلَوُّ شَأْنِي، وَالْحَمْدُ إِزَارِي، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَائِي، اشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي، وَسَكَّانَ سَمَوَاتِي، إِنِّي قَدْ زَوَّجْتُ أُمَّتِي فَاطِمَةَ مِنْ عَبْدِي وَوَلِيِّي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمْرُ شَجَرَةِ طُوبَى أَنْ تَنْثُرَ حَمْلَهَا مِنَ الْحُلِيِّ وَالْحَلَلِ، وَالْدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فَنَثَرَتْ مَا فِيهَا، فَالْتَقَطْتَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْحُورُ الْعَيْنُ، وَأَنَّ الْحُورَ لِيَتَهَادِينَ وَيَفْخَرْنَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولْنَ: هَذَا مِنْ نَثَارِ فَاطِمَةَ، وَيَقْلُنَّ: هَذِهِ تَحْفَةُ خَيْرِ النِّسَاءِ، وَتَنْثُرُ ثَمَارَ الْجَنَّةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، قَالَ جَبْرَائِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَمْرَكَ أَنْ تَزَوَّجَ عَلِيًّا فِي الْأَرْضِ بِفَاطِمَةَ، وَتُبَشِّرَهَا بِغُلَامَيْنِ زَكِيَّيْنِ، نَجِيَّيْنِ، طَاهِرَيْنِ، طَيِّبَيْنِ، خَيْرَيْنِ، فَاضِلَيْنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَأَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ عَلِيًّا أَنْ يَبِيعَ دَرْعَهُ وَيَأْتِيَهُ بِثَمَنِهِ لِيَهَيِّءَ لَهُ فَاطِمَةَ، فَاَنْطَلَقَ وَبَاعَهُ بِخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَجَاءَ بِالْدِّرْهَامِ فَصَبَّهَا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ مِنْهَا النَّبِيُّ قَبْضَةً فَدَفَعَهَا إِلَى الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ، فَقَالَ: ابْتَغِ مِنْ هَذَا مَا تَجْهِّزُ بِهِ فَاطِمَةَ، فَاَنْطَلَقَ الْمُقَدَّادُ فَاشْتَرَى لَهَا رَحَى، وَقُرْبَةَ، وَوَسَادَةً مِنْ أَدَمٍ، وَحَصِيرًا قَطْرِيًّا، فَجَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَرْكَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَاطِمَةَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ، فَكَانَ سَلْمَانُ يَقُودُهَا، وَرَسُولُ اللَّهِ يَقُومُ بِهَا، وَجَاءَ جَبْرَائِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَأَحْدَقُوا بِهَا، فَكَبَّرَ جَبْرَائِيلُ، ثُمَّ كَبَّرَ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ كَبَّرَ إِسْرَافِيلُ، ثُمَّ كَبَّرَتِ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ كَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ كَبَّرَ سَلْمَانُ، فَصَارَ التَّكْبِيرُ خَلْفَ الْعُرَائِسِ سَنَةً مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَجَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَأَدْخَلَهَا عَلَى عَلِيٍّ، فَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الْحَصِيرِ الْقَطْرِيِّ، وَخَرَجَ عَنْهُمَا، وَكَانَ بَيْنَ تَزْوِيجِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ بِفَاطِمَةَ فِي السَّمَاءِ إِلَى تَزْوِيجِهَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَكَانَ زَوَاجُهَا أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ يَوْمِ السَّادِسِ مِنْهُ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَاطِمَةَ لَيْلَةَ عَرَسِهَا بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ، فَقَالَ: اشْرَبِي هَذَا فِدَاكَ أَبُوكَ، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ: اشْرَبْ فِدَاكَ ابْنُ عَمِّكَ، وَفِي صَبِيحَةِ فَاطِمَةَ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَسٍّ فِيهِ لَبَنٌ، فَقَالَ لِفَاطِمَةَ: اشْرَبِي فِدَاكَ أَبُوكَ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ: اشْرَبْ فِدَاكَ ابْنُ عَمِّكَ، وَكَانَا نَائِمِينَ تَحْتَ

كساء، قال: على حالكما، فأدخل رجله بين أرجلها، فسأل علياً: كيف وجدتَ أهلك؟ قال: نعم العون على طاعة الله، وسأل فاطمة عن زوجها، فقالت: خير بعل، فقال: اللهم اجمع شملهما، فكان لما تزوّجها الإمام هي بنت تسع سنين، وولدت الحسن ولها من العمر إحدى عشر سنة، ثم ولدت الحسين بعد الحسن بستة أشهر<sup>(١)</sup>.

قال الباقر (عليه السلام) في حديث: (إنَّ فاطمة ضمنت لعلّي عمل البيت من الخدمة، والعجين، والخبز، وقم البيت، وأنَّ علياً ضمن لها ما كان خلف الباب من نقل الخطب، وأنَّ يحيى بالطعام)<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث عليّ (عليه السلام): (إنَّ فاطمة استقت بالقربة حتّى أثّر في صدرها، وطحنت بالرحى حتّى مجلت يداها، وكسحت البيت حتّى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتّى أدكنت ثيابها)<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية: (إنَّ النبيّ ﷺ اشترى فضّة لتعين فاطمة على خدمة البيت، وقال لها: يا فاطمة، لا تكلفي فضّة، واجعلي خدمة البيت يوم لك، ويوم لها)<sup>(٤)</sup>.

وفي رواية سلمان، قال: (دخلتُ على فاطمة فوجدتها تطحن، وأنَّ الدم ليسيل على الرحي، ورأيت الحسين (عليه السلام) ملقى في ناحية البيت على قفاه، ويبكي من شدّة الجوع، وفضّة جالسة، فقلتُ لفاطمة: يا سيّدي، إنَّ يدك قد أدججت، ودبرت كفّاك، وسال منها الدم على الرحي من شدّة الدم، فلم لا تنادين فضّة لتطحن الشعير عنك، فقالت: لا يا سلمان، إنَّ أبي نهاني عن ذلك، وقال لي: اجعلي خدمة البيت يوم عليها ويوم عليك، وإنَّ

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمة: ١/ ٣٦٧ - ٣٦٩.

(٢) تفسير العيّاشي: ١/ ١٧١، وقم البيت: كنسه.

(٣) علل الشرائع: ٢/ ٣٦٦، عنه بحار الأنوار: ٨٢/ ٤٣.

(٤) بحار الأنوار: ٤٣/ ٢٨.

يومها البارحة، وإنّ هذا اليوم يومي، فقلتُ لها: إني مولى عتاقه، إمّا تدعيني أطحن الشعير، وتمضين إلى الحسين فتسكّتيه، وإمّا أنت تطحنين وأنا أمضي إلى الحسين ﷺ أسكّته، فقالت: يا سلمان، أنا بتسكيت الحسين أبصر، دونك الشعير فاطحنه، قال سلمان: فجعلت أطحن، فلمّا كانت هنيئة سمعت القامة، فقامت مسرعاً فصلّيت الظهر والعصر خلف النبي ﷺ، فلمّا فرغنا أخبرت عليّاً بذلك فبكى، ومضى مسرعاً، وجاء مستبشراً، فرآه النبي ﷺ قال له: ممّا استبشارك يا أخي؟ قال: يا رسول الله، إني لما خرجت إلى داري رأيت فاطمة مستلقية على قفاها وهي نائمة، والحسين نائم على صدرها، ورأيت الرحي تدور بلا يد، فقال النبي ﷺ: أما تعلم يا ابن العمّ إنّ الله ملائكة سيّارة في الأرض، وأمرهم بخدمة محمّد وآل محمّد إلى أن تقوم الساعة<sup>(١)</sup>.

وفي الخرائج: (قال الصادق ﷺ: إنّ رسول الله ﷺ خرج في بعض غزواته، فلمّا انصرف راجعاً نزل في بعض الطريق بينا رسول الله ﷺ يطعم والناس معه إذ أتاه جبرئيل، فقال: يا محمّد، قم فاركب، فقام النبي ﷺ فركب وجبرئيل معه، فطويت له الأرض كطي الثوب حتّى انتهى إلى فذك، فلمّا سمع أهل فذك وقع حوافر الخيل ظنّوا أنّ عدوّهم قد جاءهم، فغلقوا أبواب المدينة، ودفعوا المفاتيح إلى عجوز لهم في بيت لهم خارج المدينة، ولحقوا برؤوس الجبال، فأتى جبرئيل ﷺ العجوز، وأخذ المفاتيح، ثمّ فتح أبواب المدينة، وأدار النبي ﷺ في بيوتها وقرأها، فقال جبرئيل: يا محمّد، هذا ما خصّك الله به، وأعطاك دون الناس، وهو قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٣)</sup>، ولم يعرفها المسلمون ولم يطوّوها ولكن الله أفاءها على رسوله،

(١) الخرائج والجرائح: ٢/ ٥٣٠، عنه بحار الأنوار: ٢٨/ ٤٣ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) سورة الحشر: الآية: ٧.

(٣) سورة الحشر: الآية: ٦.

وطوّفه بها جبرئيل في دورها وحيطانها، وغلّق الأبواب، ودفع المفاتيح إليه، فجعلها رسول الله ﷺ في غلاف سيفه وهو معلّق بالرحل، ثم ركب وطويت له الأرض كطي الثوب، فأتاهم رسول الله ﷺ وهم على مجالسهم ولم يتفرقوا، فقال رسول الله ﷺ: قد انتهيت إلى فذك، وأنى قد أفائها الله عليّ، فغمز المنافقون بعضهم بعضاً، فقال رسول الله: هذه مفاتيح فذك، ثم أخرجها من غلاف سيفه، ثم ركب رسول الله ﷺ ومعه الناس، فلما دخل المدينة دخل على فاطمة، فقال لها: يا بنية، إنّ الله قد أفاء على أبيك بذك، وقد اختصّه بها فهي له خاصّة دون المسلمين أفعل بها ما أشاء، وأنّه قد كان لأمّك خديجة على أبيك مهر، وإنّ أباك قد جعلها لك بذلك، وأنحلتك إيّاها تكون لك ولولدك بعدك، قال: فدعا بأديم عكاظي، ودعا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومولّى لرسول الله، وأمّ أيمن، فقال رسول الله ﷺ: إنّ أمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة، وجاء أهل فذك إلى النبيّ ﷺ فقاطعهم على أربعة وعشرين ألف دينار بكلّ سنة<sup>(١)</sup>.

قال في المجمع: (فذك قرية من قرى اليهود بينها وبين مدينة النبيّ ﷺ يومان، وبينها وبين خيبر دون مرحلة، وهي ممّا أفاء الله على رسوله ﷺ، وكانت لرسول الله ﷺ؛ لأنّه فتحها هو وأمير المؤمنين عليه السلام لم يكن معه معها أحد فزال عنها حكم الفيء، ولزمها اسم الأنفال، فلما نزلت: ﴿فَاتَ ذَا الْقُرْبَى حَقُّهُ﴾<sup>(٢)</sup> أي: أعط فاطمة فذكاً، أعطها رسول الله ﷺ إيّاها، وكانت في يد فاطمة إلى أن توفّي رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>.

(١) الخرائج والجرائح: ١/ ١١٢ - ١١٣.

(٢) سورة الروم: من الآية: ٣٨.

(٣) مجمع البحرين ومطلع النيرين: ٥/ ٢٨٣.

وكان ﷺ يكثر تقبيل فاطمة، ويقبلها بين ثدييها، ويقول: (إنَّ الله يرضى لرضاكِ، ويغضب لغضبكِ)<sup>(١)</sup>.

وقال: (فاطمة بضعة منِّي، من أذاها فقد آذاني)<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: (إنَّ فاطمة بهجة قلبي، وابناها ثمرة فؤادي، وبعلمها نور بصري، والأئمة من ولدها أمناء ربِّي، وحبله الممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى)<sup>(٣)</sup>.

وقال النبي ﷺ لعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ: (أنا حربٌ لمن حاربكم، وسلمٌ لمن سالمكم، مبغضٌ لمن أبغضكم، محبٌّ لمن أحبكم، شافعٌ لمن والاكم، آخذٌ بيد من مال إليكم)<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٢ / ٤٦ الحديث ١٧٦، وكنز العمال: ١٢ / ١١١ / ٣٤٢٣٧، وبشارة المصطفى: ٢٠٨ وفرائد السمطين: ٢ / ٤٦ الحديث ٣٧٨، وأخرجه الطبري في ذخائر العقبى عن مسند الامام الرضا و شرف النبوة لأبي سعيد ومعجم ابن المشي وباللفظ الآتي: (يا فاطمة إنَّ الله عزَّ وجلَّ يغضب لغضبكِ ويرضى لرضاكِ)، ونحوه في مناقب أمير المؤمنين لابن المغازلي: ١ / ٣٥ الحديث ٤٠١ والمستدرک علی الصحیحین ٣ / ١٥٤.

(٢) تعددت رواية الحديث بألفاظ وطرق مختلفة، ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢ / ٨٦٩، مسند أبي بصير: ١ / ٣٩٤، المصنف (الصنعاني): ٧ / ٣٠٢، الطبقات الكبرى: ٨ / ٢٦٢، المصنف (ابن أبي شيبة): ٧ / ٥٢٦، مسند أحمد بن حنبل: ٤ / ٥، صحيح البخاري: ٤ / ٢١٠، صحيح مسلم: ٧ / ١٤١، سنن الترمذي: ٥ / ٦٩٩، السنن الكبرى: ٥ / ٩٧.

(٣) مقتل الحسين ﷺ (الخوارزمي): ١ / ٩٩، الفضائل (ابن شاذان): ١٤٦، الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف: ١١٨، نهج الإيمان (ابن جبر): ٢٠٥، نهج الحق وكشف الصدق: ٢٢٧، ٣٩٦.

(٤) تعددت المصادر التي نقلت الحديث وطرقه وفي اختلاف بعض ألفاظه، ينظر مثلاً: المصنف (ابن أبي شيبة): ٥١٢، مسند أحمد بن حنبل: ٢ / ٤٤٢، صحيح ابن حبان: ١٥ / ٤٣٤، المعجم الأوسط: ٣ / ١٧٩، المعجم الصغير: ٢ / ٣، المعجم الكبير: ٣ / ٤٠، شرح الأخبار: ٢ / ٦٠٨، ٣ / ٥١٨.



وقال عليّ (عليه السلام): (بيننا أنا وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ التفت إلينا وبكى، فقلتُ: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أبكي ممّا يصنع بكم، فقلتُ: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: أبكي من ضربتك على القرن، ولطم فاطمة على خدّها، وطعنة الحسن في الفخذ، والسمّ الذي يُسقى، وقتل الحسين (عليه السلام)، قال: فبكى أهل البيت جميعاً، فقلتُ: يا رسول الله: ما خلَقْنَا ربَّنَا إِلَّا للبلَاءِ، قال: أبشُرْ يا عليّ فإنَّ الله عهد إليّ أَنَّهُ لَا يَجْبُكَ إِلَّا مؤْمَنٌ، وَلَا يَبْغُضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عبّاس: (كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) جالساً ذات يوم إذ أقبل الحسن، فلَمَّا رآه بكى، ثمّ قال: إليّ إيّ، فما يزال يدينه حتّى أجلسه على فخذ الأيمن، ثمّ أقبل الحسين (عليه السلام)، فلَمَّا رآه بكى، ثمّ قال: إليّ إيّ، فما زال يدينه حتّى أجلسه على فخذ الأيسر، ثمّ أقبلت فاطمة، فلَمَّا رآها بكى، ثمّ قال: إليّ إيّ، فما زال يدينها حتّى أجلسها بين يديه، ثمّ أقبل أمير المؤمنين، فلَمَّا رآه بكى، ثمّ قال: إليّ إيّ يا أخي، فما زال يدينه حتّى أجلسه إلى جانبه الأيمن، فقالوا له أصحابه: يا رسول الله، ما ترى واحداً من هؤلاء إِلَّا وبكى؟ وما فيهم من تُسرّ برؤيته؟ فقال (صلى الله عليه وآله): والذي بعثني بالنبوة، واصطفاني على جميع البرية، إني وإياهم لأكرم الخلق على الله، وما على وجه الأرض نسمة أحبّ إليّ منهم، فأما عليّ بن أبي طالب، فإنّه أخي وشقيقي، وصاحب الأمر بعدي، وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وصاحب حوضي وشفاعتي، وهو مولى كلّ مسلم، وإمام كلّ مؤمن، وقائد كلّ تقيّ، وهو وصيّ وخليفتي على أهلي وأمتي في حياتي وبعد موتي، محبّه محبّي، ومبغضه مبغضي، وبولايته صارت الموالية منها مرحومة، وبعداوته صارت المخالفة منها ملعونة، وإني بكيت حين أقبل؛ لأنّي ذكرتُ غدر الأُمّة به بعدي حتّى أنّه ليزال عن مقعدي، وقد جعله الله له بعدي، ثمّ لا يزال الأمر به حتّى يضرب على قرنه ضربة تخضّب منها لحيته.

(١) الأُمالي (الصدوق): ١٩٧.

وأما ابنتي فاطمة، فإنها سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة منّي، وهي نور عينيّ، وثمره فؤادي، وهي رُوحِي التي بين جنبيّ، وهي الحوراء الإنسيّة، متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جلّ جلاله زهر نورها لأهل السماء كما يزهر الكوكب الدرّي لأهل الأرض، ويقول الله عزّ وجلّ لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيّدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أنّي قد أمنتُ شيعتها من النار، وإنّي لما رأيتهَا ذكرت ما يصنع بها بعدي، وكأنّي بها وقد دخل الذلّ بيتها، وانتهكت حرمتها، وغُصبت حقّها، ومُنعت إرثها، وكُسِر جناحها، وأُسقطت جنينها، وهي تنادي: يا محمّدها، فلا تجاب، وتستغيث فلا تغاث، فلا تزال بعدي محزونة مكروبة باكية، تذكر انقطاع الوحي عن بيتها مرّة، وتذكر فراقِي أخرى، وتستوحش إذا جنّها الليل لفقد صوتي الذي كانت تسمعه حين تهجّدت بالقرآن، ثم ترى نفسها ذليلة بعدما كانت في أيّامي عزيزة، فعند ذلك يؤنسها الله بالملائكة فتناديها بما نادت به مريم بنت عمران، فتقول: يا فاطمة، إنّ الله اصطفاك وطهّرك، واصطفاك على نساء العالمين، يا فاطمة، أقنتي لرّبك، واسجدي واركعي مع الراكعين، ثمّ يبدي بها الوجد، فيبعث الله إليها مريم تمرّضها وتؤنسها في علّتها، وتقول: يا ربّ قد سئمتُ الحياة، وتبرّمتُ بأهل الدنيا فألحقني بأبي، فيلحقها الله بي فتكون أوّل من يلحقني من أهل بيتي، فتقدم عليّ محزونة، مكروبة، مغمومة، مغصوبة، مظلومة، مقتولة، فأقول عند ذلك: اللهمّ العن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذللّ من ذلّها، وخلّد في نارك من ضرب جبينها حتّى ألقت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك: آمين، ثمّ بكى رسول الله، وبكى من حوله أصحابه، وارتفعت أصواتهم بالصّحيج، ثمّ قام وهو يقول: اللهمّ أشكو إليك ما يلقي أهل بيتي بعدي<sup>(١)</sup>.

(١) الأُمالي (الصدوق): ١٧٥ - ١٧٦.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: (قال لي رسول الله ﷺ: يا سلمان، من أحب ابنتي فاطمة فهو في الجنة معي، ومن أبغضها فهو في النار، يا سلمان، حب فاطمة ينفع في مائة من المواطن، أيسر تلك المواطن الموت، والقبر، والميزان، والمحشر، والصراط، والمحاسبة، فمن رضى عنه ابنتي فاطمة رضى عنه، ومن رضى عنه رضى الله عنه، ومن غضب عليه فاطمة غضب الله عليه، يا سلمان، ويل لمن يظلمها، ويظلم بعلمها أمير المؤمنين، ويول لمن يظلم ذريتها وشيعتها)<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله، قال: (قال رسول الله ﷺ وهو في مرضه لفاطمة: يا بنية، بأبي أنت وأمي أرسلني على بعلك فادعيه لي، فقالت للحسن ﷺ: انطلق إلى أبيك فقل له: إن جدِّي يدعوك، فانطلق إليه الحسن فدعاه، فأقبل أمير المؤمنين ﷺ حتى دخل على رسول الله ﷺ وفاطمة عنده وهي تقول: وا كرباه لكربك يا أبتاه، فقال رسول الله: لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة، إن النبي ﷺ لا يشق عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى عليه بالويل والثبور، ولكن قل لي كما قال أبوك على ابنه إبراهيم: تدمع العين، ويوجع القلب، ولا تقولي ما يسخط الرب)<sup>(٢)</sup>.

وإنها -صلوات الله عليها- لما صار لها من العمر ثمانية عشر سنة مرض النبي ﷺ مرض الموت.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: (لما اشتدت العلة برسول الله ﷺ كنت جالساً بين يديه، فدخلت فاطمة فلما رأت بأبيها من الضعف بكت حتى جرت دموعها على خديها، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أخشى الضيعة على نفسي وولدي بعدك، فاغرورقت عينا

(١) مقتل الحسين ﷺ (الخوارزمي): ١/ ١٠٠، طرف من الأنباء والمناقب في شرف سيّد الأنبياء: ٣٨٤

- ٣٨٥.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: ٢/ ٨٣٢، بحار الأنوار: ٢٤/ ٢٦٣.

رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: يا فاطمة، أما علمتِ إنّ أهل بيتٍ اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وأنّه حتم الفناء على جميع خلقه، واعلمي يا بنية، إنّك أول من يلحقني من أهلي<sup>(١)</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (حين نزل برسول الله ﷺ الأمر، نزلت الوصية من عند الله كتاباً مسجلاً، نزل به جبرئيل مع أمناء الله من الملائكة، فقال جبرئيل: يا محمد مر بإخراج من عندك إلّا وصيّك لا يقبضها منّا، وتشهدنا بدفعك إليها إليه ضامنًا لها، يعني: عليّاً، فأمر النبي ﷺ بإخراج من كان في البيت ما خلا عليّاً وفاطمة فيما بين الستر والباب، فقال جبرئيل: يا محمد، ربّك يقرؤك السلام ويقول: هذا كتاب ما كنتُ عهدتُ إليك، وشرطتُ عليك، وشهدتُ به عليك، وأشهدتُ عليك ملائكتي، وكفى بي يا محمد شهيداً، قال: فارتعدت مفاصل النبي ﷺ، وقال: يا جبرئيل، ربّي هو السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام، صدق وبرّ، هات الكتاب، فدفعه إليه، وأمره بدفعه إلى أمير المؤمنين، فقال له: أقرأه، فقرأه حرفاً حرفاً، فقال: يا عليّ، هذا عهد ربّي إليك، وشرطه عليّ وأمانته، وقد بلّغتُ ونصحتُ وأدّيتُ، فقال عليّ: وأنا أشهد لك بأبي وأمي، أنتَ بالبلاغ والنصيحة والتصديق على ما قلت، ويسهل لك به سمعي وبصري ولحمي ودمي، فقال جبرئيل: وأنا لكما على ذلك من الشاهدين، فقال رسول الله ﷺ: يا عليّ أخذت وصيّتي وعرفتُها، وضمنتُ الله ولي بها فيها، فقال عليّ: نعم، بأبي أنت وأمي عليّ ضامنًا، وعلى الله عوني، وتوفيقي على أدائها، فقال رسول الله ﷺ: يا عليّ، إنّني أريد أن أشهد عليك بموافاتي بها يوم القيامة، فقال عليّ: نعم، أشهد، فقال النبي ﷺ: إنّ جبرئيل وميكائيل فيما بيني وبينك الآن وهما حاضران معهما الملائكة المقرّبون لأشهدهم عليك، فقال: نعم ليشهدوا، وأنا بأبي وأمي أشهدهم، فأشهدهم رسول الله ﷺ، وكان فيما اشترط عليه النبي ﷺ بأمر جبرئيل فيما أمر الله تعالى أن قال له: يا عليّ، توفي بها فيها على موالاته من وإلى الله ورسوله، والبراءة والعداوة لمن عادى

(١) إرشاد القلوب: ٢/ ٤١٩، نفس الرحمن في فضائل سلمان: ٤٢٧.

الله ورسوله، والبراءة منهم على الصبر منك على كظم الغيظ، وعلى ذهاب حقك، وغضب خمسك وغضبك، وانتهاك حرمتك، فقال: نعم يا رسول الله، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لقد سمعتُ جبرئيل (عليه السلام) يقول للنبي (صلى الله عليه وآله): يا محمد، عرفه أنه تنتهك الحرمه، وهي حرمه الله، وحرمه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعلى أن تحضب لحيته من رأسه بدم عبيط، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): فصعقتُ حين فهمتُ الكلمة من الأمين جبرئيل حتى سقطتُ على وجهي وقلتُ: نعم، قبلتُ ورضيتُ وإن انتهكت الحرمه، وعطلت السنن، ومزق الكتاب، وهدمت الكعبة، وخضبت لحيتي من رأسي بدم عبيط صابراً محتسباً أبداً حتى أقدم عليك، ثم دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وأعلمهم مثل ما أعلم أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقالوا مثل قوله، فختمت الوصية بخواتيم من ذهب لم تمسها النار، ودفعت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)، ثم توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) (١).

قال الباقر (عليه السلام): (لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) بات آل محمد (صلى الله عليه وآله) بأطول ليلة حتى ظنوا أنّ السماء تظلمهم، والأرض تقلهم؛ لأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتر الأقربين والأبعدين، بينا هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه، ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إنّ في الله عزاء من كلّ مصيبة، ونجاة من كلّ هلكة) (٢).

وقال الصادق (عليه السلام): (إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لما قبض ارتدّ الناس على أعقابهم كفّاراً إلا ثلاثة نفر: سلمان رضي الله عنه، والمقداد، وأبو ذر) (٣).

وبعد ذلك رجع الناس، قال: (واشتغل الناس بالشورى، وفي أمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة، واغتنم أبو بكر الفرصة لعلمه أنّه لو توانى عن طلب الخلافة حتى يفرغ

(١) الكافي: ١/ ٢٨١ - ٢٨٣.

(٢) الكافي: ١/ ٤٤٥، تسليمة المجالس وزينة المجالس: ١/ ٢٣٩.

(٣) الكافي: ٢/ ٢٤٤.

أمير المؤمنين (عليه السلام) من تجهيز رسول الله (ﷺ) قبل أن يحكم أمرهم لم يستتم لهم الأمر، ولا ما يريدون، فتقدم عمر وأبو عبيدة فبايعا أبو بكر، وتقدم بشير من سعد سيد الأوس فبايع، فلما رأت الأوس ما صنع سيدهم بشير فتدافعوا بالبيعة، وازدحموا عليه<sup>(١)</sup>.

قال أبو عبد الله (عليه السلام): (لما بويع أبو بكر بعث إلى فذك، وأخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله منها)<sup>(٢)</sup>.

قال في الاحتجاج: ((إنه أجمع أبو بكر على منع فاطمة فذك وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتها، ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تحرم مشيتها مشية أبيها رسول الله (ﷺ) حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة فجلست، ثم أتت أنه أجهش القوم لها بالبكاء فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نسيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت (عليه السلام): الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، [من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بأجزله،] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كفيته،] ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء [أمثلة] كونها بقدرته، [وذراها بمشيئته،] من غير حاجة

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ٨/ ٢٨١، نوادر الأخبار فيما يتعلق بأمر الدين: ١٧٤ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ١٥٥، الاحتجاج: ١/ ١١٩.

منه إلى تكوينها، [ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمه، وتبييناً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، تعبداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثم] جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته [زيادة لعباده من نعمته، وحياسة لهم إلى جنته]، وأشهد أن أبي محمد عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، [واصطفاه قبل أن ابتعته، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة علماً من الله تعالى بما يلي من الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع الأمور، ابتعته الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه]، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عُكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله من عرفانها، فأثار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب بُهمها، وجلى عن الأبصار غمها وعمها، [وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العمية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم]، ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار، [ورغبة وإيثار]، فمحمد ﷺ من تعب هذه الدار في راحة، [قد حفّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار]، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه في الوحي، وصفيّه وخيرته [من الخلق، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته].

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحمله دينه ووحيه، [وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم]، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، [والنور الساطع، والضياء اللامع]، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، [مغتبطة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان أتباعه، مؤدداً إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبياناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفصائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة]، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، [والصيام تثبيتاً للاخلاص]، والحج تشييداً للدين، [والعدل

تنسيقاً للقلوب]، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، [والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأمر]، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، والنهي عن المنكر، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، [وصلة الأرحام منسأة العمر، ومناة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازن تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً بالعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه إنَّما يخشى الله من عباده العلماء.

ثم قالت: أيها الناس، اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمد ﷺ، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> فإن تعرّوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه ﷺ، فبلغ الرسالة، صادعاً [بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم]، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يحفّ الأضنام، وينكت الهام حتّى انهزم الجمع، وولّوا الدبر، [حتّى تفرى الليل على صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشیط النفاق، وانحلّت عقد الكفر والشقاق، وفهتّم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص] ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾<sup>(٣)</sup> مذقة الشارب، ونهزة الطامع، [وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام]، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٠٢.

(٢) سورة التوبة: الآية: ١٢٨.

(٣) سورة آل عمران: من الآية: ١٠٣.



بِمُحَمَّدٍ ﷺ [وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاعرة من المشركين]، قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطاء جناحها بأخصه، ويحمد لهبها بسعيه، مكدودًا في ذات الله، مجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله ﷺ، سيّدًا في أولياء الله، [مشمرًا ناصحًا، مجدًا، كادحًا، لا تأخذه في الله لومة لائم]، وأنتم في رفاهيّة من العيش، وادعون [فاكهون] آمنون ترتبصون بنا الدوائر، وتتوكّفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرّون من القتال، فلما اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، وماوى أصفياه، ظهر فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الآقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزة هاتفًا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، [وللعزّة فيه ملاحظين]، ثم استنهضكم فوجدكم خفافًا، [وأحشمكم فألفاكم غضابًا]، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم؛ هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا، [وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين]، فهيهات منكم، وكيف بكم، [وأتى تؤفكون]، وكتاب الله بين أظهركم، [أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة]، قد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلًا ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ <sup>(١)</sup> [ثمّ لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقديتها، وتيجون جمرتها، وتستجيون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبيّ الصفي، تشربون حسوًا في ارتغاء، وتمشون أهله وولده في الخمرة والضراء، ويصير منكم على مثل حزّ المدى، ووخز السنن في الحشاء]، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ

(١) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ<sup>(١)</sup>؟ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس [الضاحية]، أبي ابنته أيها المسلمون؟! أأغلب على إرثي يا بن أبي قحافة؟ أفي كتاب الله ترث أباك، ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً، أفعل عَمْدَ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال فيها اقتص من خبر يحيى بن زكريّا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup> وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾<sup>(٥)</sup> وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٦)</sup> وزعمتم أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟ فدونها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشر، فنعلم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة [وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾<sup>(٨)</sup>].

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار، وقالت: يا معشر النقيبة، وأعضاء الملّة، [وحضنة الإسلام]، ما هذه الغمزة في حقّي؟ [والسنة عن ظلامتي]، أما كان رسول الله ﷺ، يقول:

(١) سورة المائدة: الآية: ٥٠.

(٢) سورة النمل: من الآية: ١٦.

(٣) سورة مريم: الآيتان: ٥ - ٦.

(٤) سورة الأنفال: من الآية: ٧٥.

(٥) سورة النساء: من الآية: ١١.

(٦) سورة البقرة: من الآية: ١٨٠.

(٧) سورة الأنعام: من الآية: ٦٧.

(٨) سورة هود: الآية: ٣٩.

المرء يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم، [وجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بها أحاول، وقوة على ما أطلب وأزوال، أتقولون مات محمد ﷺ؟ فخطب جليل، استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغييته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا نثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافاً، وصراخاً، وتلاوة، وأحاناً، ولقبه ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء تم، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

أيها بني قيلة، أهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم فلا تجيئون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتكم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنتي حزتم بعد البيان؟ وأسرتهم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهمّوا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة، أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق باليسر والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتهم

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٤٤.

بالضيق من السعة، فمجبتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد. ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجدلة التي خامرتكم، والغدره التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثّة الصدر، وتقدمة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها دبيرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وأنا ابنة نذير لكم فاعلموا إنّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون.

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان، وقال: يا بنت رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، إن عزوانه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلاء، أثر كلّ حميم، وساعده في كلّ أمر جسيم، لا يحبكم سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيّبون، الخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وأني أشهد الله وكفى بالله شهيداً، أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: نحن معاصر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنّا نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه، وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم أنفرد به وحدي، ولم أستبدّ بما كان الرأي عندي، وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا تزوي عنك، ولا ندخر دونك، وأنت وأنت سيّدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع مالك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك

(١) سورة الشعراء: من الآية: ٢٢٧.

نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك ﷺ؟ فقالت ﷺ: سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفًا، ولا لأحكامه مخالفًا، بل يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالًا عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكمًا عدلًا، وناطقًا فصلًا يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾<sup>(١)</sup>، ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾<sup>(٢)</sup>، وبين الله عز وجل فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلاً بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد الله صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلّدوني ما تقلدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبدّ، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود.

فالتفت فاطمة ﷺ إلى الناس وقالت: معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل القبيح الخاسر ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>(٣)</sup>، كلاً بل ران على قلوبكم ما أسأت من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم لتجدن والله محمله ثقيلاً، وغبه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان بأورائه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحسبون، وخسر هنالك المبطلون].

ثم عطفت على قبر أبيها، وقالت: (بحر البسيط)

(١) سورة مريم: الآيتان: ٥ - ٦.

(٢) سورة النمل: من الآية: ١٦.

(٣) سورة محمد: الآية: ٢٤.

قد كان بعدك أنباء وهنبشة لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب

ثم انكفأت ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ يتوقع رجوعها إليه، [ويتطلع طلوعها عليه، فلما استقرت بها الدار، قالت لأمر المؤمنين ﷺ]: يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن قحافة يبتزني نحلة أبي، وبلغة ابني، [لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي] فحبستني قبلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع، ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت خدك، افترست الذئاب، وافترشت التراب، [ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلتي عذيري الله منه عادياً، ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق، ويلاي في كل غارب، مات العمدة، ووهن العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي، اللهم إنك أشد منهم قوة وحولاً، وأشد بأساً وتنكيلاً..

فقال أمير المؤمنين: لا ويل لك، [بل الويل لسانك، ثم] نهني عن وجدك يا ابنة الصفوة، [وبقية النبوة، فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أضل مما قطع عنك واحتسبي الله، فقالت: حسبي الله وأمسكت<sup>(١)</sup>.

قال: فقال عمر لأبي بكر: إن الناس قد بايعوا، إلى متى وأنت تارك ونحن ساهون عن علي بن أبي طالب ألا تبعث إليه ليبايعك، ثم أن عمر جمع جماعة من الطلقاء والمنافقين وأتى منزل أمير المؤمنين ومعه خالد، وقنفذ، فوافوا باب أمير المؤمنين مغلق، فصاحوا: اخرج يا علي، فإن خليفة رسول الله يدعوك، فلم يفتح لهم الباب، فنادى عمر: علي بالخطب والنار، فأتوه بالخطب، ووضعوه على الباب، وجاءوا بالنار ليضرموه، فلما عرفت فاطمة

أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَحْرِقُوا مَنْزِلَهَا قَامَتْ، وَفَتَحَتْ الْبَابَ، وَاخْتَفَتْ مِنْ وَرَائِهِ، فَدَفَعَهُ عَمْرٌ حَتَّى ضَغَطَ فَاطِمَةَ بِالْبَابِ وَعَصَرَهَا حَتَّى نَبَتَ الْمَسَارُ فِي ثَدْيِهَا، وَنَبَعَ الدَّمُ مِنْهُ، وَكَادَتْ رَوْحَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ شِدَّةِ الْعَصْرِ، فَنَادَتْ: آه يَا فَضَّةُ، خَذِينِي فَقَدْ قَتَلَ مَا فِي أَحْشَائِي، فَدَخَلَ عَمْرٌ وَلَطَمَهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَأَثَرُ فِي عَيْنِهَا الْحَمْرَةَ، وَتَنَاثَرَ قَرَطُهَا، وَتَوَاتَبُوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى فَرَّاشِهِ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَوَضَعُوا حَمَائِلَ سَيْفِهِ فِي رَقَبَتِهِ، وَأَخْرَجُوهُ، سَحَبًا مَلْبِيًا بِثَوْبِهِ يَقْوَدُونَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَحَالَتْ فَاطِمَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَقَالَتْ: لَا أَدْعُكُمْ تَخْرُجُونَ بَابَنَ عَمِّي ظَلَمًا، فَأَمَرَ عَمْرٌ قَنْغَذًا أَنْ يَضْرِبَهَا بِالسُّوْطِ، فَضَرَبَهَا قَنْغَذٌ عَلَى ظَهَرِهَا وَجَنِبِهَا إِلَى أَنْ أَنْهَكَهَا فِي جَسَدِهَا، وَكَسَرَ ضُلْعَهَا، وَأَتَمَّا مَاتَتْ وَفِي عَضْدِهَا مِثْلُ الدَّلْجِ مِنَ الضَّرْبِ، وَكَانَ الضَّرْبُ أَقْوَى سَبَبًا فِي إِسْقَاطِ جَنِينِهَا، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَمَاهُ مُحْسَنًا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا لَمْ تَتِمَّكَنَ مِنْ تَخْلِيصِ ابْنِ عَمِّهَا رَجَعَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا وَهِيَ تَقُولُ: وَابْتَاهُ، وَاسْفَاهُ عَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ، هَذَا حَبِيبُكَ يَسَاقُ فِي الْأَسْرِ كَمَا يَسَاقُ الْبَعِيرُ الْمَغْشُوشُ.

ثُمَّ أَتَاهَا أَنْتَ وَقَالَتْ: وَابْنُ مُحَمَّدٍ، وَابْنُ حَبِيبِهَا، ثُمَّ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا<sup>(١)</sup>.

وَذَكَرَ فِي سُلَاسِلِ الْحَدِيدِ حَدِيثًا يَرْفَعُهُ عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عَمْرٍ، وَعَنْ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، فَذَكَرُوا حَدِيثَ الطُّومَارِ الَّذِي كَتَبَهُ عَمْرٌ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ إِلَى أَنْ قَالَ: (فَأَتَيْتُ دَارَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مُسْتِشِيرًا لِإِخْرَاجِهِ، فَخَرَجَتْ الْأُمَةُ فَضَّةً، فَقُلْتُ لَهَا: قَوْلِي لِعَلِّي يَخْرُجَ إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَتْ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا مُشْغُولٌ، فَقُلْتُ: خَلِّيْ عَنْكَ هَذَا وَقَوْلِي لَهُ يَخْرُجُ وَإِلَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَأَخْرَجْنَاهُ كَرْهًا، فَخَرَجَتْ فَاطِمَةُ فَوْقَ قَفَّتِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، فَقَالَتْ: أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ، مَاذَا تَقُولُونَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ تَرِيدُونَ؟ فَقُلْتُ: يَا فَاطِمَةُ، مَا بَالُ ابْنِ عَمِّكَ قَدْ أَوْرَدَكَ لِلْجَوَابِ، وَجَلَسَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ؟ فَقَالَتْ: طُعْيَانُكَ يَا شَقِيٍّ أَخْرَجَنِي، فَقُلْتُ: دَعِي عَنْكَ الْأَبَاطِيلَ، وَأَسَاطِيرَ

(١) ينظر قريب منه: طرف من الأنباء والمناقب في شرف سيّد الأنبياء: ٥٥٢ - ٥٥٣.

النساء، إن لم يخرج جئت بالخطب الجزل، وأضرمتها نارًا على أهل هذا البيت، وأحرق من فيه، وأخذت سوط قنفذ فضربت بها به، وقلت لخالد بن الوليد: أنت ورجالنا هلموا في جمع الخطب إنِّي مضرمة، قالت: عليك يا عدو الله، فضربت فاطمة يديها على الباب تمنعني، فرمته، فتصعب عليّ فضربت كفيها بالسوط فألمها، فسمعت لها زفيرًا وبكاء فكدت أن ألين وأنقلب، فذكرت أحقاد عليّ، وولوعه في دماء صناديد العرب، وكيف محمد وسحره، فركلت الباب وقد ألصقت حشاها بالباب فترسته، فسمعتها وقد صرخت صرخة حسبتها قد جعلت أعلى المدينة أسفلها، وقالت: يا أبتاه، يا رسول الله، هكذا يفعل بحبيبتك وابنتك، آه يا فضة، إليك فخذيني فقد قتل والله ما في أحشائي من حمل، وسمعتها تمخض وهي مسندة إلى الجدار، فدفعت الباب ودخلت، فأقبلت إليّ بوجهٍ أغشى بصري، فصفقتها صفقة على خديها من ظاهر الخمار فانقطع قرطها، وتناثر إلى الأرض، وخرج عليّ، فلما أحسست به أسرع إلى خارج الدار، وقلت لخالد وقنفذ ومن معها: نجوت من أمر عظيم، وهذا عليّ قد برز من البيت، وما لي وما لكم به طاقة، وضربت فاطمة يديها إلى ناصيتها لتكشف عنها وتستغيث بالله مما نزل بها، فأسبل عليّ عليها ملائتها، وقال لها: يا بنت رسول الله، إن الله قد بعث أباك رحمة للعالمين، وإيم الله، لئن كشفت عن ناصيتك ليهلك هذا الخلق، واشتد بها المخاض، ودخلت البيت فأسقطت سقطًا، وجمعت جمعًا كثيرًا لا مكاثرة لعليّ لكن ليشتد بهم قلبي، وجئت فاستخرجته من داره مكرهاً، وسقته سوقًا، وإنِّي لأعلم علمًا يقينًا لا شك فيه، لو اجتهدت أنا وجميع من على الأرض على قهره فأقهرناه، وكانت لهنات في قلبه أعلمها، ولا أقول بها<sup>(١)</sup>.

قال ابن حاتم: (ما رحمتُ والله أحدًا قطّ مثل ما رحمتُ عليّ لما أتوا به ملببًا بثوبه يقودونه قود البعير المغشوش إلى أبي بكر، فقالوا له: بايع، قال: فإن لم أفعل، قالوا: نضرب الذي فيه

(١) بحار الأنوار: ٣٠/٢٩٣ - ٢٩٤.



عينك، قال: فرفع رأسه، وقال: اللهم اشهد أنهم يريدون قتلي، وإني عبدك، وأخو رسولك، ثم إن فاطمة خرجت خلفهم في لمة من نساء بني هاشم وهي نحيفة وعلى عاتقها الحسين، وأقبلت إلى باب المسجد، وسرّحت ولداها من عاتقها، وقبضت على باب المسجد، وأخذت كل صفقة بيد، وقالت: خلّوا عن ابن عمّي، فما صالح أكرم من أبي، ولا ناقتة أكرم مني، ولا فصيلها أكرم من ولدي<sup>(١)</sup>.

قال أبي بن أبي كعب: (فارتفعت حيطان المسجد حتّى لو أراد الرجل أن ينفذ من تحتها لنفذ، فنفذ كلّ من كان حاضرًا في المسجد إلّا أمير المؤمنين، وسلمان، وأبو ذرّ، ومقداد، وعمار، والأول والثاني، وأسود المشرق والمغرب، وهبّت ريح سوداء مظلمة، فقال الأول والثاني: الأمان الأمان يا عليّ، فأمر الإمام سلمان أن يخرج إلى فاطمة، ويأمرها بالانصراف، فخرج إليها وأمر بذلك، فقالت: لا والله لا أمضي حتّى أرى ابن عمّي، يا سلمان، يريدون أن يبيتموا أولادي، فخرج أمير المؤمنين وأخذها ورجع، قال رجل: فقلت: يا سلمان، إنّ هذا اليوم ليوم عظيم، أما رأيت إلى الدنيا كيف صارت؟ فقال: اسكت يا ويلك، والله لقد رأيت ما لا ترون، رأيت أبواب السماوات قد فتحت، ونزلوا منها ملائكة جرد مرد قد ملئوا الخافقين على خيول شهب، رأسها في السماء، وأرجلها في تخوم الأرضين، ويقدمهم واحد بيده حربة من النار يتطاير منها الشرار، ولها رأسان: رأس في المشرق، ورأس في المغرب، وهم يقولون: أولئك يا جبرئيل والله إن شكت فاطمة لنأتين على أهل المشرق والمغرب، فقال الرجل: وما صنع القوم يا سلمان؟ فقال: ويحك، لقد دخلوا عليها في دارها وهي بلا قناع ولا خمار، قال: وأخذت فاطمة بالبكاء، فكان حزنها يتجدّد ويزيد، وبكائها يزيد من عظم ما نالها وهي تقول: واأبتاه، واضيعته، وا محمداه، وا أبا القاسم، وا ربيع الأرامل واليتامى، من للقبلة والمصلّى؟ ومن لابتك الوالهة الشكلاء، الحزينة الحزناء؟ يا

(١) ينظر قريباً منه: الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (عليها السلام): ٨٨ / ١١.

أبتاه، ضعفت قوّتي، وخانني تجلدي، وشمت بي عدوّي، والكمد قاتلي، يا أبتاه، بقيتُ بعدك والهة، حزينه، حيرانه، فريده، فقد خمل صوتي، وانقصم ظهري، وتنغص عيشي، وتكدّر دهرري، فما أجد يا أبتاه أنيسًا ولا رادًّا لدمعتي، ولا معينًا لضعفي، فقد فني بعدك محكم التنزيل، ومهبط جبرئيل، ومحلّ ميكائيل، وتقطّعت بك الأسباب، وانغلقت دوني الأبواب، وأنا بعدك للدنيا قالية، وعليك ما تردّدت أنفاسي باكية، لا ينفكّ شوقي إليك، ولا ينفذ حزني عليك، يا أبتاه وايتماه، يا أبتاه يا محمّده، يا أبتاه أنقطعت بعدك الدنيا، وأظلم نورها، وزوت زهرتها، وصارت يحكي نورها حنادسها، ورطبها يابسها، يا أبتاه، لا زلتُ آسفة عليك إلى يوم التلاق، يا أبتاه، زاد همّي مذحقّ الفراق، يا أبتاه، أفقدني بعدك جنة الاشتياق، من للأرامل والمساكين؟ أمسينا بعدك من المستضعفين، يا أبتاه أصبحت الناس عنا معرضين، ولقد كنّا بك معظّمين، فأيّ دمة بعد فراقك لا تنهمل؟ وأيّ حزن عليك لا يتصل؟ وأيّ جفن بعدك بالنوم يكتحل؟ وأنت ربيع الدين، ونور النبيّين، فكيف للجبال لا تمور؟ وللبحار لا تغور؟ وللأرض لا تزول؟ رमित يا أبتاه بالمصاب العظيم، والفادح المهول الجسيم، بكتك يا أبتاه الأملاك، ووقفت لرزئك الأفلاك، وفرحت بموتك الأشراك، فمنبرك بعدك مستوحش، ومحرابك خال من مناجاتك، وقبرك فرح بمواراتك، والجنة مشتاقة إليك، وإلى دعائك وصلاتك، يا أبتاه، ما أعظم ظلمة مجلسك لجلاسك، فوا أسفاه عليك إلى أن أقدم عاجلاً إليك، وأثكل أبا الحسن المؤمن أبا ولديك، وأخاك، ووليّك، ومن ريته صغيراً، وواخيته كبيراً، وأجلّ أحبائك، وأقرب أصحابك إليك، ومن كان قبلهم سابقة، ومهاجرًا، ومناصرًا، والشكل شاملنا، والبكاء قاتلنا، والأسى لازمنا. فلم يزل هذا دأبها بالبكاء والنحيب ليلها ونهارها، وهي لا ترقى دمعتها، ولا تخبوز فرتها، فاجتمع شيوخ أهل المدينة، وأقبلوا على أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقالوا: يا أبا الحسن، إنّ فاطمة تبكي الليل والنهار فلا أحد منا يتهنّى بالنوم، فما الليل على فرشنا، ولا بالنهار لنا قرار على

أشغلنا، وإنّا نخيرك أن تسألها: إمّا أن تبكي ليلاً أو نهاراً؟ فأقبل أمير المؤمنين إليها وهي لا تفيق من البكاء، ولا ينفع فيها العزاء، فلمّا رأته سكنت هنيئته، فقال لها: يا بنت رسول الله، إنّ شيوخ أهل المدينة يسألونني إمّا أن تبكي أبالك ليلاً أو نهاراً، فقالت: يا أبا الحسن، ما أقلّ مكثي بينكم، وما أقرب مغيبني عنهم، فوالله لا أسكن ليلاً ولا نهاراً حتّى ألحق بأبي رسول الله، فقال لها: افعلي ما بدا لك، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء في البقيع وقت الصبح وتبكي هناك إلى الليل، وكان في ذلك الموضع عوسجة عظيمة، فإذا ارتفع النهار استظلت بها فاطمة من حرّ الشمس، فلمّا رأوا ذلك أهل المدينة عمدوا إلى العوسجة وقطعوها من أصلها، فلمّا علم بذلك أمير المؤمنين بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يسمى: بيت الأحران، وكانت إذا أصبحت قدّمت الحسن والحسين أمامها، وخرجت إلى البقيع باكية، فإذا جاء الليل أقبل أمير المؤمنين عليه السلام إليها، وساقها بين يديه إلى منزله، ولم تزل على هذه الحالة مدة حياتها<sup>(١)</sup>.

قال الصادق عليه السلام: (عاشت فاطمة بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً لم تر ضاحكة أبداً)<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث المفضل: (إنّ فاطمة بكت على أبيها خمسة وسبعين يوماً)<sup>(٣)</sup>.

وفي الكافي عن الكليني في الصحيح عن أبي عبيدة الحذاء<sup>(٤)</sup> عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (إنّ فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً حزينة كئيبة، وكان يأتيها جبرئيل فيحسن عزاءها على أبيها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها بذريّتها، وأنّها صلوات الله عليها منذ عصرها الثاني بالباب، وقتل جنينها، وكسر ضلعها، وصفقها على وجهها، فنثر قطرها وأثر الحمرة في عينها، مرضت من ذلك)<sup>(٥)</sup>.

(١) بحار الأنوار: ١٧٤/٤٣ - ١٧٧.

(٢) المناقب (ابن شهر آشوب): ٣/٣٣٧ باختلاف في الألفاظ.

(٣) بصائر الدرجات: ١٧٤.

(٤) زياد بن عيسى، أبو عبيدة الحذاء، ثقة روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. رجال النجاشي: ١٧٠.

(٥) الكافي: ٤٥٨/١.

قال سويد: (لما مرضت فاطمة المرضة التي توفيت فيها اجتمعت إليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتكِ يا بنت رسول الله؟ فحمدت الله، وصَلَّت على أبيها، ثم قالت: أصبحت والله عائفة لدنياكنَّ، قالية لرجالكنَّ، لفظتهم بعد أن عجمتهم، فقبحًا لفلول الحدِّ، واللعب بعد الجدِّ، وبئس ما قدَّمت لهم أن سخط الله عليهم، ويجهم أتى زعزعوها؟ عن رأس الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الأمين، وما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا والله نكير سيفه، ليت شعري إلى أيِّ سناد استندوا؟ وعلى أيِّ عماد اعتمدوا؟ وعلى أيِّ ذريرة أقدموا؟ استبدلوا والله الذنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل، فيا حسرة لكم وأنى بكم.

قال سويد: فأعادت النساء قولها على رجالهنَّ، فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، فقالت: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم<sup>(١)</sup>.

(وقال أبو بكر وعمر لأmir المؤمنين عليه السلام: كيف بنت رسول الله ﷺ، وقد كان بيننا وبينها ما قد علمت، فإن رأيت أن تأذن لنا لنعتذر إليها من ذنبنا، فقال: ذاك إليكما، فقاما وجلسا على الباب، ودخل علي عليه السلام، وقال لها: آيتها الحرّة، إنَّ فلانًا وفلانًا بالباب يريدان أن يسلمًا عليك، فما ترين؟ فقالت: البيت بيتك، والحرّة زوجتك، فقال: شدي قناعك، فشددت قناعها، وحوّلت وجهها إلى الحائط، فدخلوا وسلّموا وقالوا: ارضي عنا رضي الله عنك، فقالت: من دعاكم إلى هذا؟ فقالوا: اعترفنا بالإساءة، ورجونا أن تعفي عنا، فقالت: إن كنتما صادقين فأخبراني عما أسألكما عنه؛ فإنّي لا أسألكما عن أمر وأنا أعلم بأنكما تعلمانه، فإن صدقتماني علمت أنّكما صادقان في مجيئكما، قالوا: سيلي عما بدا لك، فقالت: نشدتكما بالله، هل سمعتما رسول الله يقول: فاطمة بضعة منّي، فمن آذاها فقد آذاني، قالوا: نعم، فرفعت يديها إلى السماء، وقالت: اللهمَّ إنّها آذيانى فأنا أشكوهما إليك وإلى رسولك، لا

(١) الاحتجاج: ١/ ١٤٧ - ١٤٩.

والله لا أَرْضِي عنكما أبداً حتَّى ألقى أبي رسول الله وأخبره بما صنعتما بي، فيكون هو الحاكم فيكما، قال: فعند ذلك دعا أبو بكر بالويل والثبور، وجزع جزعاً شديداً، فقال عمر: أتجزع يا خليفة رسول الله من قول امرأة؟<sup>(١)</sup>.

وكان أبو بكر أرقّ من عمر كما ذكر سليم بن قيس<sup>(٢)</sup>، قال: (قلتُ لسلمان: دخلوا على فاطمة بغير إذن، قال: إي والله وما عليها خمار، فنادت: وا أبتاه، وا رسول الله، يا أبتاه، لبئس ما خلّفك أبو بكر وعمر، وعيناك لم يتفقاً في قبرك، فلقد رأيت أبا بكر ومن حوله يبيكون ويتحبّون، وما منهم إلّا بالك غير عمر، وخالد بن الوليد، والمغيرة بن شعبة، وعمر يقول: لسنا من النساء، ورأين في شيء)<sup>(٣)</sup>.

قال: (وبقيت فاطمة عليّة، منهوكة، مغصوبة، مظلومة، وتستغيث برّها وبأيها إلى أن دنت وفاتها، وكان أمير المؤمنين قد صلّى الظهر، وأقبل يريد المنزل وإذا بالجواري استقبلته باكيات حزينات، فقال هنّ: ما الخبر؟ وما لي أراكن متغيرات الصور؟ فقلن: يا أمير المؤمنين، أدرك ابنة عمّك فاطمة، وما نظنّك تدركها، فأقبل أمير المؤمنين مسرعاً فدخل عليها، وإذا بها ملقاة على فراشها وهي تقبض يميناً، وتمدّ شمالاً، فألقى الرداء عن عاتقه، والعمامة عن رأسه، وحلّ أزواره، وجلس عندها، وأخذ رأسها، وجعله في حجره، وناداه: يا زهراء، فلم تكلمه، فناداه: يا بنت محمّد المصطفى، فلم تكلمه، فناداه: يا بنت من حمل الزكاة في أطراف الرداء، وبذلها للفقراء، فلم تكلمه، فناداه: يا بنت من صلّى بالملائكة مثنى مثنى،

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢/ ٨٦٩ - ٨٧٠.

(٢) سليم بن قيس الهلالي، من خواص أصحاب الأئمة الأربعة الأوائل من أئمة الشيعة (عليه السلام) ومورد ثقتهم ومقرّب لديهم ومحبوب عندهم، وقد أدرك الإمام الباقر (عليه السلام). ينسب إليه كتاب في فضائل أهل البيت شامل لبعض الحوادث التاريخية لفترة ما بعد رحيل النبي الأكرم عن الدنيا. الكثير من علماء الشيعة يمدحونه. ينظر في ترجمته مثلاً: رجال النجاشي: ٨.

(٣) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢/ ٥٨٧ - ٥٨٨.

فلم تكلمه، فناداهما: يا فاطمة، كلميني، فأنا ابن عمك علي بن أبي طالب، قال: ففتحت عينيها في وجهه، ونظرت إليه وبكت وبكى، وقال لها: ما الذي تجدينه؟ فقالت: يا بن العم، إنني أجد الموت الذي لا بد منه، ولا محيص عنه، وأنا أعلم أنك ما تصبر بعدي عن التزويج، فإن أنت تزوجت امرأة، فاجعل لها يوما وليلة، واجعل لأولادي يوما وليلة، يا أبا الحسن، بلّغهما محاسنهما، ولا تنهرهما، ولا تصح في وجوههما فيصبحان يتيمين غريبين منكسرين؛ فإنّهما بالأمس فقد جدّهما، واليوم يفقدان أمّهما، فالويل لأمة تقتلهما، فقال لها أمير المؤمنين: من أين لك هذا الخبر والوحي قد انقطع عنا؟ فقالت: يا أبا الحسن: رقدت الساعة فرأيت حبيبي رسول الله ﷺ في قصر من الدرّ الأبيض، فلمّا رأيته، قال: هلمّي يا بنية، فإنّي إليك مشتاق، فقلت: والله إنّي لأشدّ شوقاً منك إلى لقاءك، فقال لي: أنت الليلة عندي وهو الصادق لما وعد، والوفي لما عاهد، وإنّي مفارقتك الليلة، ولا حقة بأبي، فإذا قرأت يس، فاعلم إنّي قد قضيت نحبي، فغسلني ولا تكشف عني؛ فأني طاهرة مطهرة، وصلّ عليّ أنت، ثمّ الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، ومن رزق أجري، وادفني ليلاً في قبري، بهذا أخبرني رسول الله ﷺ، ولا تدع من هؤلاء أحد يصليّ عليّ، ولا يشهد جنازتي<sup>(١)</sup>.

ثمّ أنّها مدّت يديها ورجليها، وغمّضت عينيها، وقضت نجسها صلوات الله عليها مظلومة منهوكة، مكسور ضلعها، مسودّ جنبها من الشياطين، محرّمة عينها من اللطمة، مغصوب حقّها، قال عليّ: (والله لقد أخذت في أمرها، وغسلتها في قميصها، ولم أكشف عنها، فوالله لقد كانت ميمونة طاهرة مطهرة، ثمّ حنّطتها من فاضل حنوط رسول الله، ثمّ أدرجتها في أكفانها، فلمّا أردت أن أعقد الرداء ناديت: يا أمّ كلثوم، ويا زينب، ويا فضة، ويا حسن، ويا حسين، هلمّوا فتزودوا من أمّكم فهذا يوم الفراق، واللقاء في الجنة، فأقبل الحسنان، وهما يقولان: وا حسرتاه لا تنطفئ أبداً من فقد جدنا محمد المصطفى، وأمنا

(١) بحار الأنوار: ٤٣/١٧٨ - ١٧٩.

فاطمة الزهراء، يا أمّ الحسن والحسين إذا لقيت جدنا محمد فاقرائيه عنا السلام، وقولي له: إنا بقينا بعدك يتيمين، ثم إنهما أنكبا عليها، أنكبّ الحسن على صدرها وهو يقول: يا أمّاه، أنا ولدك الحسن، وانكبّ الحسين على رجليها، وهو يقول: يا أمّاه، أنا ولدك الحسين كلّميني، قال أمير المؤمنين: أشهد بالله أنّها حنّت وأنّت، ومدّت يديها وضمتها إلى صدرها ملياً، وإذا بهاتف من السماء ينادي: يا أبا الحسن ارفعهما عنها، فلقد أبكيا والله ملائكة السماء، فلقد اشتاق الحبيب إلى الحبيب، قال: فرفعتهما عنها، وجعلت أعقد الرداء، فلمّا انتصف الليل حملها على يديه، وقصد بها قبر أبيها، ونادى: السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا نور الله، السلام عليك يا صفوة الله، منّي السلام عليك، والتحية واصله منّي إليك، ومن والديك وابتنتك النازلة بفنائك، فهذه الوديعة قد استردت، والرهينة قد أخذت، فوا حزنه على رسول الله، ثمّ من بعده على البتول العذراء، فلقد اسودّت على الغبراء، وبعدت عن الخضراء، فوا حزنه، ثمّ وا أسفاه، ثمّ عدل بها على الروضة، وصلّ عليها في أهله، وأصحابه، ومواليه، وأحبابه، وطائفة من المهاجرين والأنصار، ثمّ واراها في لحدها، وجعل يخطّ الأرض بأنامله وهو يقول: (بحر الطويل)

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة محمداً  
لكلّ اجتماع من خيلين فرقة وبينكم  
وإنّ افتقادي فاطمًا بعد أحمد  
وقال (عليه السلام): (بحر الطويل)

يريد الفتى أن لا يفارق خلّه محمداً  
سيعرض عن ذكرى وينسى مودّتي وبينكم  
وليس إلى ما يبتغيه سبيل الأرحام  
ويحدث بعدي للخليل خليل (٢) خصام

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) ديوان أمير المؤمنين (عليه السلام): ٣٢٧.

وقال عليه السلام: (بحر الوافر)

حبيب ليس يعدله حبيب      وما لسواه في قلبي نصيب  
حبيب غاب عن عيني وجسمي محمداً      وعن قلبي حبيبي لا يغيب<sup>(١)</sup> الأرحام

وقال عليه السلام: (بحر الكامل)

ولقد قبرتك وانصرفت مودّعاً وبينكم      بأبي وأمي وجهك المقبور خصام  
أما القبور فإئمن أو انس      بجوار قبرك والديار قبور<sup>(٢)</sup>

وقال عليه السلام: (بحر الكامل)

ما لي وقفت على الحبيب مسلماً      قبر الحبيب فلم يردّ جوابي  
أحبيب ما لك لا تردّ جوابنا      أنسيت بعدي خلّة الأحياب؟  
قال الحبيب: وكيف لي بجوابكم؟ محمداً      وأنا رهين جنادل وتراب الأرحام  
أكل التراب محاسني فنسيتم وبينكم      وحجبت عن أهلي وعن أتراب خصام  
فعليكم منّي السلام تصرّمت      منّي ومنكم خلّة الأحياب<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان أمير المؤمنين عليه السلام: ٨٩.

(٢) عيون الأخبار: ٧٦ من دون نسبة، الأمايلي (المرتضى): ٥٢ / ٢ نسبه إلى عبد الله بن الزبير.

(٣) ديوان أمير المؤمنين عليه السلام: ٨٩ - ٩٠.



ولما نفص يديه من ترابها، قال: (بحر الطويل)

أقول وقد فاضت دموعي حسرة وبينكم أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب خصام  
أخلاي لو غير الحمام أصابكم عتبت ولكن ما على الموت معتب<sup>(١)</sup>

قال الحسين بن عليّ (عليه السلام): (لما قبضت فاطمة دفنها أمير المؤمنين (عليه السلام) سرّاً، وعفا على موضع قبرها، ثمّ قام فحوّل وجهه إلى قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: السلام عليك يا رسول الله عني، والسلام عليك عن ابتك، وزائرتك، والبائتة في الثرى ببقعتك، والمختار الله سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، وعفا عن سيّدة نساء العالمين تجلّدي إلّا أنّ في التأسّي لي بسنتك، وفي فرقتك موضع تعزّ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك، وفاضت نفسك بين نحري وصدري، بلى وفي كتاب الله لي أنعم القبول، إنّ الله وإنّا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله. أمّا حزني فسرمد شديد، وأمّا ليلي فمسهد وهم لا يبرح من قلبي أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، كملّ مقيم، وهم مهيج سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبك ابتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّ سبيلاً، وستقول لك: وسيحكم الله وهو خير الحاكمين، والسلام عليك سلام مودّع لا قال ولا سئم، فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين، وأها وأها، والصبر أيمن وأجمل، ولولا غلبة المستولين لجعلت المقام واللبث لزماً معكوفاً، ولأعولت إعوالم الثكلاء على جليل الرزية، فبعين الله تدفن ابتك سرّاً، ويهضم حقّها، وتمنع إرثها، ولم يتباعد العهد، ولم يخدم منك الذكر، وإلى الله يا رسول الله أشكو وفيك يا رسول الله المشتكى، وفيك يا رسول الله أحسن العزاء، صلّى الله عليك وعليها السلام والرضوان)<sup>(٢)</sup>.

(١) المناقب (ابن شهر آشوب): ٢٤١ / ١.

(٢) الكافي: ٤٥٨ / ١ - ٤٥٩.

قال: (فأصبح في البقيع ليلة دفنها أربعون قبرًا جددًا، ثم إنَّ المسلمين لما علموا بوفاة فاطمة ودفنها جاءوا أمير المؤمنين يعزّونه بها، وقالوا: يا أخا رسول الله لو أمرت بتجهيزها، وحفر تربتها، فقال عليه السلام: قد وُوريت، ولحقت بأبيها عليه السلام، فقالوا: إنّ الله وإنّا إليه راجعون، تموت ابنة نبينا محمد عليه السلام، ولم يُخلّف فينا ولدًا غيرها، ولم نحضرها، ولا نصليّ عليها، إنّ هذا لشيء عظيم، فقال: عليكم حسبكم ما جنيتم على الله وعلى رسوله، وعلى أهل بيته، ولم أكن والله لأعصيه في وصيّتها التي أوصتني بها في أن [لا] يصليّ عليها أحد منكم، ولا بعد العهد فأعذر، فنفض القوم أثوابهم وقالوا: لا بدّ لنا من الصلاة على ابنة رسول الله عليه السلام، ومضوا من فورهم إلى البقيع، فوجدوا فيه أربعين قبرًا جددًا، فاشتبه عليهم قبرها بين تلك القبور، فضجّ الناس، ولام بعضهم بعضًا، وقالوا: لم تحضروا وفاة بنت نبيكم، ولا الصلاة عليها، ولا تعرفون قبرها فتزورونه بها، فقال أبو بكر: هاتوا من ثقات المسلمين من ينش هذه القبور حتّى تجدوا قبرها فنصليّ عليها ونزورها، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فخرج من داره مغضبًا وقد احمرّ وجهه، وقامت عيناه بالحمرة في أمّ رأسه ودره، وانتفخت أوداجه وعلى يده قباه الأصفر الذي لم يكن يلبسه إلّا في يوم كريمة، ويتوكأ على سيفه ذي الفقار حتّى ورد البقيع، فساق إلى الناس النذير، فقال لهم: هذا عليّ قد أقبل كما ترون وعليه قباؤه الأصفر يقسم بالله لأن بحث من هذه القبور حجرًا واحدًا لأضعنّ السيف على غابر هذه الأمة<sup>(١)</sup>.

(فولّى القوم هارين قطعًا قطعًا، واستقبله عمر وخالد، فقال له عمر: يا عليّ، أتدفن ابنة نبينا ليلاً، ولم نحضرها، ولم نصليّ عليها؟ لا يكون ذلك أبدًا، فقال الإمام: والله إن حرّكت من هذه القبور حجرًا واحدًا لأضعنّ سيفي فيكم، فقال عمر: والله لنحفرّها ونخرجها، فمدّ إليه الإمام يده، وقبضه من أطواقه، ورفع على يده، وقال له: يا بن السوداء، أخذتم

(١) الهداية الكبرى: ١٧٩ - ١٨٠.

منّي الخلافة فصبرت خوفاً على الدين، وتريدون نبش قبر فاطمة، فوالله لا أصبر أبداً، ولولا كتاب من الله سبق لأريكم أيّنا أقصر باعاً، ثم جلد به الأرض، وركب على صدره، فأقبل عليه أبو بكر، وقال: يا أبا الحسن، اترك صاحبنا، فوالله لا نعود إلى ذلك أبداً، فتركه الإمام، ومضوا ولن يعودوا<sup>(١)</sup>.

وحكى المجلسي وغيره، قال: (قال أبو جعفر الباقر عليه السلام): إنّ رسول الله ﷺ لما قبض صار الناس كلّهم أهل جاهلية إلا أربعة: عليّ، والمقداد، وسلمان، وأبو ذرّ، فقلت: فعمرّار، فقال: إنّ كنت يا فضيل تريد الذين لم يدخلهم شيء فهؤلاء الثلاثة<sup>(٢)</sup>.

وسأل ابن أعين رحمه الله أبا عبد الله عليه السلام، فقال: (هلك الناس إذاً يا مولاي، فقال: يا ابن أعين، هلك الناس أجمعون، قلت: أهل الشرق والغرب، قال: إنّها فتحت على الضلال، إي والله هلكوا إلا ثلاثة: سلمان، وأبو ذرّ، والمقداد، ولحقهم عمرّار<sup>(٣)</sup>.

وقال المفضل: (عرضت على أبي عبد الله عليه السلام أصحاب الردّة، فكلّمنا سمّيت إنساناً، قال عليه: أعزب، حتّى قلت: حذيفة، قال: أعزب، قلت: ابن مسعود، قال: أعزب، ثمّ قال: إنّ كنت إنّما تريد الذين لم يدخلهم شيء فعليك هؤلاء الثلاثة: المقداد، وأبو ذرّ، وسلمان<sup>(٤)</sup>.

وقال أبو جعفر الصادق عليه السلام: (كان الناس أهل ردّة بعد النبيّ ﷺ إلا ثلاثة: المقداد، وأبو ذرّ، وسلمان، ثمّ عرف الناس بعد يسير، وهؤلاء الذين دارت عليهم الرّحى، وأبوا أن يبايعوا<sup>(٥)</sup>.

(١) ينظر: قريباً منه: الاحتجاج: ١٠٤/١.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣/٢٢، تفسير العيّاشي: ١٩٩/١، البرهان في تفسير القرآن: ٦٩٩/١.

(٣) الاختصاص: ٦.

(٤) مستطرفات السرائر: ٥٤٩، عنه بحار الأنوار: ١١٣/٢٢ - ١١٤.

(٥) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ٣٨/١، تفسير العيّاشي: ١٩٩/١.

وقال الصادق (عليه السلام): (ارتدّ الناس إلّا ثلاثة: أبو ذرّ، وسلمان، والمقداد، ولحق بعد ذلك أبو ساسان، وأبو عمرة الأنصاري).

وقال أبو جعفر: (ارتدّ الناس إلّا ثلاثة نفر: سلمان، وأبو ذرّ، والمقداد، وأمّا عمار حاص حيصة، ومعنى حاص حيصة: أي عدل وحاد)<sup>(١)</sup>.

وقال أبو عبد الله: (اشتاقّت الجنّة إلى أربعة: سيّدهم عليّ بن أبي طالب أوّهم، ثمّ سلمان، وأبو ذرّ، ومقداد، وإنّ سلمان علم علماً لو علمه أبو ذرّ كفر)<sup>(٢)</sup>.

وقال عليّ بن أبي طالب: (لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان لقتله)<sup>(٣)</sup>.

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إنّ الله أمرني بحبّ أربعة، وأخبرني أنّه يحبّهم، قيل: يا رسول الله سمّهم لنا، قال: عليّ منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان، أمرني بحبّهم، وأخبرني أنّه يحبّهم، ثمّ قال: ما أضلّت الخضراء، وما أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ شبه عيسى بن مريم، فقال عمر بن الخطّاب كالحاسد: يا رسول الله، أفنعرّف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه، فإنّ أبا ذرّ يمشي في الأرض بزهد عيسى بن مريم (عليه السلام))<sup>(٤)</sup>.

وقال حمران<sup>(٥)</sup> لأبي جعفر (عليه السلام): (ما أقلّنا لو اجتمعنا على شاة ما أفيناها، فقال: إليّ أخبرك بأعجب من ذلك، قال: فقلت: بلى، فقال: المهاجرون والأنصار ذهبوا إلّا وأشار بيده ثلاثة)<sup>(٦)</sup>.

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ١/ ٣٢، بحار الأنوار: ٢٨/ ٢٣٩.

(٢) الاختصاص: ١٢، عنه بحار الأنوار: ٢٢/ ٣٤٦.

(٣) بصائر الدرجات: ٤٥.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٣٣٤، كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢/ ٦٥٩.

(٥) حمران بن أعين الشيباني من أهل الكوفة صحب الإمام زين العابدين والإمام الباقر والإمام الصادق (عليه السلام). كان من قراء القرآن المشهورين ومن علماء اللغة والنحو، ومن الشعراء، صحب أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وروى عنهم، واشتهر في أوساط الرواة ورُوي عنه الكثير. ينظر في ترجمته مثلاً: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ١/ ٤٥.

(٦) الكافي: ٢/ ٢٤٤.

وقيل: (ما بقي أحد إلا وقد جال جولة إلا المقداد بن الأسود؛ فإن قلبه كان مثل زبر الحديد)<sup>(١)</sup>.

وقال أبو بكر الحضرمي<sup>(٢)</sup>: (قال أبو جعفر عليه السلام: ارتد الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان، وأبو ذر، والمقداد، قال: قلت: فعمّار، قال: قد كان حاص حيصة، ثم رجع، ثم قال: إن أردت الذي لم يشك، ولم يدخله، فالمقداد)<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (قال رسول الله ﷺ: يا سلمان، لو عرض علمك على مقداد لكفر، يا مقداد، لو عرض صبرك على سلمان لكفر)<sup>(٤)</sup>.

قال المجلسي وغيره: (من علمائنا رضي الله عنهم، ولعله في بيان المصائب التي عرضت عليهم بعد النبي ﷺ؛ لأنه عرض في قلب كلهم شيء إلا مقداد؛ فإن قلبه كان كزبر الحديد، فكان أصبر منهم، وذلك لا ينافي أفضلية سلمان)<sup>(٥)</sup>.

عن محمد بن الحسن عن سعد بن عبد الله عن محمد بن عيسى عن النضر بن سويد عن حدثه من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (ما بقي أحد بعد ما قبض ﷺ رسول الله إلا وقد جال جولة إلا مقداد؛ فإن قلبه كان مثل زبر الحديد)<sup>(٦)</sup>.

(١) الاختصاص: ١١.

(٢) أبو بكر الحضرمي: كان فقيهاً محدثاً، أحد التابعين. سمع من الصحابي أبي الطفيل عامر بن واثلة، وصحب الإمامين أبا جعفر الباقر وأبا عبد الله الصادق عليهما السلام، وأخذ عنهما الفقه والحديث، وروى عنهما كثيراً. وكان قوي الإيمان، شديد الاعتقاد بأمر الولاء للأئمة أهل البيت عليهم السلام، جريئاً في الدفاع عنه، وكان من خواص أصحاب أبي عبد الله عليه السلام. ينظر في ترجمته مثلاً: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ٢ / ٧١٤.

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ١ / ٣٢، بحار الأنوار: ٢٨ / ٢٣٩.

(٤) مسند أبي بصير: ١ / ٤٧.

(٥) بحار الأنوار: ٦ / ٧٨٥، نفس الرحمن في فضائل سلمان: ٢٢٣.

(٦) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

(٧) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر، الاختصاص: ١١.

أبو عبد الله عليه السلام: (إنَّ سلمان كان منه إلى ارتفاع النهار فعاقبه الله أن وجأ<sup>(١)</sup> في عنقه حتَّى صيرَه كهيئة السلعة حمراء، وأبو ذرّ كان منه إلى وقت الظهر فعاقبه الله إلى أن سلط عليه عثمان حتَّى حمله على قتب، وأكل لحم أليتيه، وطرده عن جوار رسول الله ﷺ، فأما الذي لم يتغيّر منذ قبض رسول الله ﷺ حتَّى فارق الدنيا طرفه عين، فالمقداد بن الأسود لم يزل قائماً قابضاً على قائم السيف، عيناه في عيني أمير المؤمنين ينتظر متى يأمره فيمضي<sup>(٢)</sup>).

روى الكشي رحمه الله عن محمد بن قولويه يرفعه إلى أسباط بن سالم<sup>(٣)</sup>، قال: (قال أبو الحسن عليه السلام: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين حوارى محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ الذين لم ينقضوا العهد؟ فيقوم سلمان، والمقداد، وأبو ذرّ، ثمّ ينادى مناد: أين حوارى عليّ بن أبي طالب عليه السلام وصيّ محمد بن عبد الله ﷺ؟ فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي، ومحمد بن أبي بكر، وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد، وأويس القرني، قال: ثمّ ينادى المنادي: أين حوارى الحسن بن عليّ بن فاطمة بنت محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ؟ فيقوم سفيان بن أبي ليلى الهمداني، وحذيفة بن أسيد الغفاري، قال: ثمّ ينادى المنادي: أين حوارى الحسين بن عليّ عليه السلام؟ فيقوم كلّ من استشهد معه ولم يتخلّف عنه، قال: ثمّ ينادى المنادي: أين حوارى عليّ<sup>(٤)</sup> بن الحسين؟ [فيقوم] جبير بن مطعم، ويحيى بن أمّ الطويل<sup>(٥)</sup>، وسعيد بن المسيّب، ثمّ ينادى المنادي: أين حوارى محمد بن عليّ، وحوارى جعفر بن محمد؟<sup>(٦)</sup> فيقوم عبد الله

(١) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

(٢) الاختصاص: ٩.

(٣) أسباط بن سالم يباع الزطي، أبو عليّ مولى بني عدي من كندة؛ روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام، له كتاب. ينظر في ترجمته: رجال النجاشي: ١٠٦.

(٤) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

(٥) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

(٦) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

بن شريك العامري، ووزارة بن أعين، وبريد بن معاوية<sup>(١)</sup> العجلي، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير ليث بن البختري المرادي، وعبد الله بن أبي يعفور، وعامر بن عبد الله بن جداعة، وحجر بن زائدة، وحران بن أعين، ثم ينادي: أين سائر الشيعة مع سائر الأئمة يوم القيامة، فهؤلاء المتحورة أول السابقين، وأول المقربين، وأول المتحورين من التابعين<sup>(٢)</sup>. انتهى.

(١) خرم في المخطوط والتكملة من المصدر.

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ١ / ٤٠ - ٤٥.

## الخاتمة

بعد أن انتهينا من البحث لا بد لنا أن نختمه بأهم النتائج التي توصلنا إليها :

المبحث الأول: تضمن مقدمات التحقيق وتضمن فقرات عدة منها ترجمة المؤلف، وصف المخطوط ودراستها ونسبته إلى مؤلفه، وصور المخطوط ثم منهج التحقيق، فضلاً عن دراسة المخطوط من خلال موضوعه والغاية منه وهدفه.

أمّا المبحث الثاني: نصّ مختصر في أحوال فاطمة الزهراء عليها السلام وما جرى عليها من حين ولادتها إلى وقت وفاتها محققاً وفق منهجية علمية واضحة المعالم اتضحت خلال مسيرة البحث.



## المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

١. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) تعليقات وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
٢. الاختصاص، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)؛ صححه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، رتب فهارسه: السيد محمود الزرندي المحرمي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم (د.ت).
٣. اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، قم، إيران ١٤٢٧هـ.
٤. إرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي المتوفى في القرن الثامن الهجري، انتشارات الشريف الرضي، ط ٢، ١٤١٥هـ.
٥. الأمالي (الصدوق)، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، مركز النشر والطباعة في مؤسسة البعثة، ط ١، قم ١٤١٧هـ.
٦. الأمالي (الطوسي) أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، دار الثقافة، ط ١، ١٤١٤هـ.
٧. الأمالي (الشريف المرتضى) غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) تصحيح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر ١٩٩٨م.

٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٩. البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧هـ) تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم (د.ت).
١٠. بشارة المصطفى لشيعه المرتضى، عماد الدين أبو جعفر محمد بن أبي قاسم الطبري (من علماء القرن السادس الهجري) تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، قم ١٤٢٠هـ.
١١. بصائر الدرجات، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، منشورات شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
١٢. تاريخ الكوفة، السيد البراقي (ت ١٣٣٢هـ) تحقيق: ماجد أحمد العطية، استدراقات السيد محمد صادق آل بحر العلوم (ت ١٣٩٩هـ) انتشارات المكتبة الحيدرية، ط ١، ١٤٢٤هـ.
١٣. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، السيد شرف الدين علي الحسيني الأسترآبادي (ت نحو ٩٦٥هـ) تحقيق: مدرسة الإمام المهدي ﷺ، الناشر: مدرسة الإمام المهدي ﷺ، ط ١، قم، رمضان المبارك ١٤٠٧هـ - ١٣٦٦ش.
١٤. تسليية المجالس وزينة المجالس الموسوم بـ (مقتل الحسين ﷺ من مصادر بحار الأنوار) محمد بن أبي طالب الحسيني الكركي الحائري (من أعلام القرن العاشر الهجري) تحقيق: فارس كريم حسون، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية، مطبعة باسدار إسلام، ط ١، قم ١٤١٨هـ.

١٥. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي (ت ٣٢٠هـ) تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاقي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران (د.ت).
١٦. تفسير فرات الكوفي، فرات بن ابراهيم الكوفي (ت ٣٥٢هـ) تحقيق: محمد الكاظم، ط ١، طهران ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٧. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي (من أعلام القرنين الثالث والرابع) صححه وعلق عليه وقدم له: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، ط ٣، قم ١٤٠٤هـ.
١٨. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام)، بإشراف السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، ط ١، ذو الحجة ١٤٠٩هـ.
١٩. الخصال، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ١٤٠٣هـ.
٢٠. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الشيعي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط ١، قم ١٤١٣هـ.
٢١. ديوان أمير المؤمنين (عليه السلام)، حسين بن معين الدين المبيدي، تحقيق: مصطفى زماني، دار نداء الإسلام للنشر، ط ١، قم ١٤١١هـ.
٢٢. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت ٦٩٤هـ) وثق أصوله وحققه وعلق عليه: سامي العزيزي الغراوي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢٣. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الشيخ آغا بزرك الطهراني، دار الأضواء، ط ٣، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٤. رجال الطوسي، محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، قم، إيران (د.ت).
٢٥. رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٦، قم، إيران ١٤١٨هـ.
٢٦. روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن القتال النيشابوري (ت ٥٠٨هـ) تحقيق: غلام حسين المجيدي مجتبى الفرجي، مطبعة دليل ما، مطبعة نكارش، ط ١، قم ١٤٢٣هـ.
٢٧. الرياض النضرة في مناقب العشرة، أبو جعفر أحمد الشهير بالمحبّ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ت).
٢٨. سنن الترمذي (الجامع الكبير) الترمذي أبو عيسى، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م.
٢٩. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُو جُردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت - لبنان ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٣٠. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان المغربي، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلال، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٣١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، وعيسى البابي الحلبي وشركاه، بيروت، لبنان.

٣٢. شرف المصطفى، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي، أبو أسعد (ت ٤٠٧هـ) تحقيق: أبو عاصم نبيل بن هاشم الغمري آل باعلوي، دار البشائر الإسلامية، ط ١، مكة ١٤٢٤هـ.

٣٣. صحيح ابن حبان، ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣٤. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي (ت ٨٧٠هـ) طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣٥. صحيح مسلم، الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٣٦. طبقات أعلام الشيعة، آغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي ط ١، بيروت، لبنان ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٧. الطبقات الكبرى، ابن سعد، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٨. الطرائف في معرفة الطوائف، السيد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤هـ) مطبعة الخيام، قم، ١٣٩٩هـ.

٣٩. طرف من الأنباء والمناقب في شرف سيد الأنبياء وعترته الأطائب، وطرف من تصريحه بالوصية بالخلافة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، السيد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤هـ)؛ تحقيق وتوثيق: الشيخ قيس العطار، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات والبحوث الإسلامية، لجنة المعارف الإسلامية، انتشارات تاسوعاء، مطبعة الهادي، ط ١، قم ١٤٢٠هـ.

٤٠. علل الشرائع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

٤١. عيون أخبار الرضا، أبو جعفر الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) صححه وقدم له وعلق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، لبنان ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٤٢. فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم (عليه السلام)، إبراهيم بن سعد الدين الشافعي (ت ٧٣٠هـ) مؤسسة المحمود، ط ١، بيروت ١٤٠٠هـ.

٤٣. الفضائل (ابن شاذان) شاذان بن جبرئيل القمي (ت نحو ٦٦٠هـ) منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها، النجف الأشرف ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

٤٤. الكافي، الكليني، محمد بن يعقوب، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، ١٣٦٣ ش.

٤٥. كتاب سليم بن قيس الهلالي، سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦هـ) تحقيق: محمد باقر الأنصاري الزنجاني، منشورات دليل ما، ط ٥، قم ١٤٢٨هـ.

٤٦. كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الاربلي (ت ٦٩٢هـ)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، بيروت، لبنان ١٩٨٥م.

٤٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ) ضبط وتفسير: الشيخ بكري الحياتي، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٨. الكوكب الدرّي في أحوال النبي والبتول والوصيّ، محمد مهدي الحائري المازندراني، انتشارات الشريف الرضي، ١٣٦٨هـ - ١٩٨٩م.

٤٩. مجمع البحرين ومطلع النيرين، الشيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) الناشر: مرتضوي، ط ٢، ١٣٦٢ ش.
٥٠. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)؛ صححه وعلق عليه: علي أكبر غفاري، دفتر انتشارات إسلامي، ط ٢، قم (د.ت).
٥١. المستدرک علی الصحیحین، الحاكم النيسابوري أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
٥٢. مستطرفات السرائر، ابن إدريس الحلّي (ت ٥٩٨ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ٢، قم ١٤١١ هـ.
٥٣. مسند أبي بصير (من القرن الثاني للهجرة) جمعه ورتبه: بشير المحمدي المازندراني، مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية، مركز الطباعة والنشر، قم ١٤٢٥ هـ.
٥٤. مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٥٥. المصباح، جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية، الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٣، بيروت، لبنان ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٥٦. المصنف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي أبو بكر (ت ٢٣٥ هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار التاج، بيروت ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٥٧. المصنف (الصنعاني) (ت ٢١١هـ) عني بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي، الكتاب خال من ذكر المطبعة والطبعة وتاريخ الطبع ومكانه.

٥٨. معاني الأخبار، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)؛ عني بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، الناشر: انتشارات إسلامي، قم ١٣٧٩هـ.

٥٩. المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٦٠. المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ت).

٦١. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)؛ حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، ط ٢، القاهرة (د.ت).

٦٢. مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق ١٣٨٥هـ.

٦٣. المناقب (ابن شهر آشوب) ابن شهر آشوب، أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي (ت ٥٨٨هـ).

٦٤. المناقب، الخوارزمي أبو المؤيد بن أحمد المكي أخطب خوارزم (ت ٥٦٨هـ) تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط ٢، قم ١٤١١هـ.



٦٥. مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، علي بن محمد بن محمد بن الطيب بن أبي يعلى بن الجلابي، أبو الحسن الواسطي المالكي، المعروف بابن المغازلي (ت ٤٨٣هـ) تحقيق: أبو عبد الرحمن تركي بن عبد الله الوادعي، ط ١، دار الآثار، صنعاء ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٦. الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء سلام الله عليها، إسماعيل الأنصاري الزنجاني الخوئيني، منشورات دليل ما، مطبعة نكارش، ط ١، قم ١٤٢٨هـ.

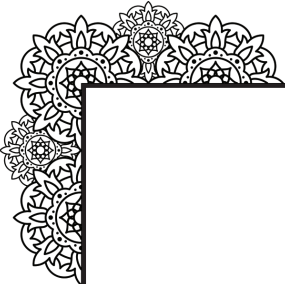
٦٧. نفس الرحمن في فضائل سلمان، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ) تحقيق: جواد قيومي الأصفهاني، مطبعة، بنكوئن، ط ١، قم ١٤١١هـ.

٦٨. نهج الإيمان (ابن جبر) المتوفى في القرن السابع الهجري، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مجتمع الإمام الهادي (عليه السلام)، ط ١، مشهد ١٤١٨هـ.

٦٩. نهج الحق وكشف الصدق، العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ) تقديم: الشيخ عين الله الحسيني الأرومي، تقديم: السيد رضا الصدر، مؤسسة الطباعة والنشر، دار الهجرة، قم، ذو الحجة ١٤٢١هـ.

٧٠. نواذر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١) تحقيق: مهدي الأنصاري القمي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگی، طهران ١٣٧١ش.

٧١. الهداية الكبرى، أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصبي (ت ٣٣٤هـ) مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤، بيروت، لبنان ١٤١١هـ - ١٩٩١م.



# النظام العام التعايش السلمي

## «ثقافة الحوار»

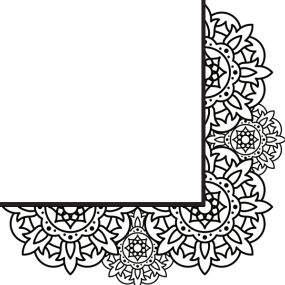
الباحث

الشيخ د. عبد الأمير عثمان الكيلاني

خطيب وامام جامع شاعر العبود  
رئيس مؤسسة الحوار والتقريب

بالاشتراك مع

الشيخ الدكتور جعفر طعان



## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين.

اما بعد:

الحمد لله الذي أوضح لنا معالم الدين، ومنّ علينا بالكتاب المبين، وأكرمنا بنور العلم المبدد لظلمات الجهالة، وأنقذنا بالوحي من السقوط في درك الضلالة، وأنعم علينا بإرسال الرسل -عليهم أزكى الصلاة والتسليم- إرشاداً للعباد ودلالة، فشرع لنا من الأحكام، وفصل لنا من الحلال والحرام، ما جعله على الدنيا حكماً تقررت به مصالح الخلق والأنام، وثبتت به قواعد الحق، ووكل إلى ولاية الأمور ما أحسن فيه التقدير، وأحسن به التدبير، فأبان الطريق للسالكين، وأوضح بهديه سبيل السعادة للمفلحين، وأقام الحجة على الناس أجمعين.

فله الحمد على ما قدّر ودبّر، وله الحمد بكل ما أعان وبصّر، وله الحمد بعدد كلّ مخلوق حمد وشكر.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله الذي أرسل إلى جميع المخلوقات بأكمل الأحكام وأقوم الهدايات، فكان خير بشير ونذير، رافع الإصر والأغلال، الداعي إلى خير الأخلاق وأيسر الأعمال.

فأننا نلاحظ أنّه كثر الحديث في عالمنا المعاصر أن نهتم بالتعايش السلمى بعد أن دخل الصراع العنيف والمتبادل بين الجماعات الإسلامية مرحلة الكارثة.

أما سبب اختياري لكتابة بحثي في المحور العاشر (النظام العام التعايش السلمي - ثقافة الحوار...) لبعض النقاط المهمة هي:

أولاً: بسبب ما يعاني منه الإسلام من هجمات بربرية المتمثلة اليوم بالفكر الداعشي.

ثانياً: بيان حاجة الناس إلى التعايش السلمي، ما بين أفراد المجتمع الواحد تربطهم أرض ومصالح مشتركة مع اختلافهم بالأديان والقوميات واللغات..

واقترضت أن نختار أنا والشيخ الدكتور عبد الأمير الكيلاني المحور العاشر من البحوث المذكورة أعلاه والكتابة فيه على النحو الآتي: المقدمة وستة فصول، حيث الأول بعنوان (التعايش لغة واصطلاحاً)، والفصل الثاني فيه عنوان (الإسلام والتعايش)؛ وفيه مبحثان: المبحث الأول التعايش مع غير المسلمين والثاني: أهم عوامل ومؤثرات التعايش الاجتماعي، والفصل الثالث أخذ عنوان (الأهداف من التعايش)، وفيه ثلاثة مباحث؛ الأول: الأهداف الإنسانية، الثاني: حل النزاعات والثالث: الخدمة الاجتماعية. أما الفصل الرابع فكان بعنوان (محمد ﷺ أول إنسان سلك التعايش مع الآخر)، والفصل الخامس كان يحمل العنوان (بعض المصاديق المتبعة للتعايش السلمي في الشريعة الإسلامية)، ومتكون من ثلاثة مباحث، حيث الأول: مقولة الامام علي عليه السلام المدونة المشهورة. وهي (الناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) والثاني: الامام علي عليه السلام وكنيسة النصارى، والثالث: مقولة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال قولته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، والفصل السادس والأخير حمل عنواناً (الحوار البابوي مع المرجع آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني دام ظلّه)، وأخيراً ثبت قائمة المصادر والمراجع، ومن ثم سيرتنا نحن الاثنين.

نسأل الله تعالى أن يكون عملنا نحن الاثنين خالصاً لله تعالى أن ينفعنا وينفع الناس به  
يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وصلى الله عليه وآله وسلم و أصحابه  
المتجيين.

بقلم

الكاتبين

## الفصل الاول

### التعايش في اللغة والاصطلاح

#### المبحث الأول: التعايش في اللغة

التعايش يعني في أبسط مفهوم له انصهار الأديان والرؤى والأفكار في بوتقة واحدة خدمة للسلم الاجتماعي ومراعاة للحفاظ على النسيج الاجتماعي ومعظم المجتمعات من أعراق وألوان وثقافات مختلفة. فإذا نشدت التطور وتأسيس قاعدة للعيش الكريم فعليها أن تعلي من شأن التعايش والسلم. سنتناول مفهوم التعايش والتسامح بوصفهما مفردتين تصبّان في مجرى واحد، وهو إشاعة العدل والمساواة في المجتمع:

#### مفهوم التعايش لغة

وردت مفردة التعايش في المعاجم العربية من المصدر (عيش) <sup>(١)</sup> بفتح العين: العيش: الحياة والمعيشة التي يعيش بها الإنسان من الطعام والمشرب، والعيشة: ضرب من العيش مثل: الجلسة والمشية، وكلّ شيء يعيش به أو فيه، فهو معاش، النهار معاش والأرض معاش للخلق يلتمسون فيها معاشهم، والعيش من الشعر بطرح الهاء: العيشة قال أحدهم:

إذا أمّ عيشٍ ما تحلّ أزارها من الكيس فيها سورة وهي قاعد <sup>(٢)</sup>

تعايش القوم بالألفة والمحبة أو المودة: عاشوا مجتمعين على الألفة والمودة <sup>(٣)</sup> وعاش

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تح: د. عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، د.ت)، ٢ / ٢٦١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار العلم، لبنان، ١٩٩٤، ج ٣، ص ٤٣٢.

(٣) الهنائي، علي بن حسن الملقب: كراع النمل، (ت: ٣١٠هـ)، المنجد في اللغة، دار المشرق، ط ٣٧، (بيروت، ١٩٨٨م)، ص ٥٤٠.

يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة ومعيشة ومعيشاً، العيش والمشرَب، والعيشة: ضرب من العيش، يقال: عاش عيشة صدق، وعيشة سوء<sup>(١)</sup>، وقال أكثر المفسرين في قوله تعالى: (فإنَّ له معيشةً ضنكاً)<sup>(٢)</sup> أنَّ المعيشة الضنك عذاب القبر<sup>(٣)</sup>، والضنك في اللغة: الضيق والشدة<sup>(٤)</sup>، والعيش يعني، الحياة، وقد (عاش) يعيش (معاشاً)، (وأعاشه) الله عيشة راضية<sup>(٥)</sup> قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾<sup>(٦)</sup>، وفي لسان العرب<sup>(٧)</sup>، فقد وردت مفردة التعايش أيضاً من المصدر (عَيْش)، بفتح العين وسكون الشين، وتعني عاش - عيشاً، وعيشة ومعاشاً، ومَعِيشاً، ومعيشة، وعيشوشة، أي صار ذا حياة، عِيش، وأعاش - أعاشة، جعله يعيش، وعأيشه بمعنى عاش معه وتعِيش: سعى وراء أسباب المعيشة، وتعايش القوم بالألفة والمودة<sup>(٨)</sup>. والعيش عند الزبيدي<sup>(٩)</sup>: من المعاش والمعيش يصلح أن يكون مصدراً وأن يكون اسماً، والعيش والمعيشة هي ما تكون به الحياة. ومن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ

(١) الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، (ت: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تح: د. أحمد عبد الرحمن نخيمر، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)، ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) سورة طه، الآية/ ١٢٤.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ)، تفسير الجلالين، مكتبة النهضة، (بغداد، د.ت)، ص ٦١٨؛ الطباطبائي، محمد حسين، (ت: ١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، (بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ١٤/ ٢٢٥.

(٤) الأزهرى، تهذيب اللغة، ٢/ ٢٧٠.

(٥) الجوهري، إسماعيل بن حماد، (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح، (تاج اللغة وصحاح الإسلامية)، تح: د. أميل بديع يعقوب وآخرون، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، ٣/ ٢٠٤.

(٦) سورة القارعة، الآية/ ٧.

(٧) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت: ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، ط ٣، (بيروت، ١٤١٤هـ) / ٨/ ٥٤٠.

(٨) المصدر نفسه، ٨/ ٥٤٠.

(٩) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (ت: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس، (بيروت، د.ت)، ١٧/ ٢٨٢.

فِيهَا مَعَايِشٌ<sup>(١)</sup>، وقيل إن لفظ عيش معناه العِشرة والمخالطة بالموَدَّة والمواءمة<sup>(٢)</sup>. وأوجز أحد المعاجم معنى كلمة تعايش ألقوم: عاشوا مجتمعين متفقين على الموَدَّة، والتعايش: العيش المشترك بين أقوام أو بين دول ذات أنظمة ومبادئ سياسية متباينة<sup>(٣)</sup>.

من هنا يجد الباحث أن التعايش في اللغة يعني الانسجام والمحبة والوفاق بين أبناء المجتمع بلا تفرقة، ولا تغليب طرف على آخر، مهما كانت الظروف. وإذا ساد هذا المفهوم استقر المجتمع وساد السلام والأمن والطمأنينة، فما معنى التعايش اصطلاحاً؟

### المبحث الثاني: التعايش اصطلاحاً

وردت الكثير من التعريفات حول مفهوم التعايش، لكنها لم تختلف في المضمون، لأنّ التعايش بمفهومه المبسط، هو التفاعل بين طرفين مختلفين، ولأهمية هذا المفهوم لا بدّ لنا من استعراض بعض هذه التعريفات، على الرغم من عدم قدرتنا الإمام بهذه العجالة بكلّ ما ورد عن مفهوم التعايش.

١ - التعايش: هو تفاعل متبادل بين طرفين مختلفين في العادات أو المعتقد أو الدين، ويبرز في المجتمعات متنوعة الديانات والثقافات والتي ينتمي أفرادها إلى مجموعة مختلفة في الثقافة والدين<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الحجر، الآية/ ٢٠.

(٢) مسعود، جبران، الرائد الصغير، معجم ابجدي، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٨٢م)، ص ٤٣٣.

(٣) إعداد مكتب اللغة الإسلامية، المعجم الوجيز، دار إحياء التراث الإسلامي، ط ١، (بيروت، د.ت)، ص ١٢٩.

(٤) مدكور، إبراهيم، وآخرون، معجم المصطلحات، دار الفكر، ط ١، (بيروت، ٢٠٠٦م)، ص ٢٢.



هو عملية قبول الآخر المختلف، والسماح له بأداء ما يعتقد من وجهة نظره صحيحاً بحرية تامة<sup>(١)</sup>.

هو مبدأ لتقبل الآخر ضمن أجواء تتعدد فيها الثقافات والديانات، ضمن مجتمع واحد<sup>(٢)</sup>.

---

(١) الجندي، أنوار، الإسلام والعالم المعاصر، دار الكتاب، ط٢، (بيروت، ١٩٨٠م)، ص ٣٢٥.  
 (٢) الخطيب، عمر عودة، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم الاجتماعية، دار العلم للملايين، ط١، (بيروت، ١٩٨٥م)، ص ١٨٥.

## الفصل الثاني

### الإسلام والتعايش

ليس ثمة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام. ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعاً للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى، متسعٌ للتعايش بين المؤمنين بالله، وإن كان هذا التعايش لا يعني أننا متفقون في كل شيء، فإذا اشترطتُ ألا أبذل الحسنى إلا لمن كان مثلي تماماً (مسلماً أم غير مسلم)، فمعنى ذلك أنني لا أحب إلا نفسي، وأن الاختلاف معناه العداوة<sup>(٢)</sup>.

إنّ التعايش في الإسلام ينطلق من قاعدة عقائدية، وهو ذو جذور إيمانية؛ ولذلك، فإنّ مفهوم التعايش من منظور الإسلام، ليس هو من جملة المفاهيم الوضعية الحديثة التي صيغت منها قواعد القانون الدولي. إنّ المسلم يعتقد أنّ الهدى الإلهي جاء عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوات آخر حلقاتها اليهودية، فالمسيحية، فالإسلام، فمن الطبيعي إذن أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب إلى بعضها بعضاً منها إلى سائر الأديان، ويسمى القرآن المسيحيين واليهود (أهل الكتاب)<sup>(٣)</sup>، لأنّ الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليه السلام، قبل أن يتلقى محمد ﷺ الرسالة في اكتمالها مصدقة لما بين يديها، ومصوّبةً ومصحّحةً ومفصّلةً أمور الشريعة والقانون بجانب العبادات والأخلاق، فنزل

(١) آل عمران: الآية: ٦٤.

(٢) حسان تحتوت -رسالة إلى العقل الإسلامي المسلم-، ص: ١٥٤.

(٣) حسان تحتوت -رسالة إلى العقل الإسلامي المسلم-، ص: ١٥٤.

القرآن الكريم، وهو الوحيد الباقي على أصله الذي نزل به في لغته الأصلية كلمةً بكلمة وحرفاً بحرف<sup>(١)</sup>.

ومن أبرز مظاهر التعايش الذي ساد الحضارة الإسلامية عبر العصور، أن الإسلام يعدُّ اليهود والنصارى أهلَ ديانةٍ سماويةٍ، حتى وإن لم يكن هذا الاعتبار متبادلاً. وعلى الرغم من أن عدم الإيمان بنبوّة محمد ﷺ هو عندنا أمرٌ عظيمٌ وشأنٌ خطير، بل هو أمرٌ فارقٌ، فإنَّ الإسلام قد استوعب هذا الخلاف.

ولعلَّ من أكبر الأدلّة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساسٍ متينٍ من التسامح في أسطع معانيه، هو تعايش المسلمين مع أهل الديانات والملل والعقائد في البلدان التي فتحوها خلال هذه القرون المتطاولة. ولو ذهبنا نستقري شواهد التاريخ، لما استطعنا أن نحصر في بحث محدود المجال، الأمثلة الحيّة على التعايش الإسلامي العديم المثال مع أهل الأديان جميعاً، السماوية منها، وغير السماوية، في حين لا نجد أيّ مظهر من مظاهر التسامح والتعايش في أدنى مستوياته، لدى غير المسلمين. ولنا أن نقارن بين مشهدين من المشاهد المؤثرة في التاريخ الإنساني، الأول هو دخول الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس فاتحاً، والثاني هو استيلاء القائدين الصليبيين (جودفري) و(تانكرد) على القدس. وننقل عن المؤرخ (تيلور) ما رواه في كتابه (عقل القرون الوسطى) عن المشهد الثاني على لسان أحد القساوسة الذين شاهدوا المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها، وهو القس (ريموند الأجيلي)<sup>(٢)</sup>، فيقول: «... وشاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهم، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق القلاع، وعذب آخرون أياماً عدة ثم ألقوا في النيران، وكانت الطرقات مليئةً بأكوام

(١) المصدر نفسه، ص: ١٥٤.

(٢) ريموند الأجيلي: وفيلسوف وشاعر.

الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما ركب جواده وسار، يسير بين جثث الخيل والآدميين»<sup>(١)</sup>.

أما المؤرخ (ول ديورانت) فيروي في موسوعته (قصة الحضارة) عن بعض المعاصرين لهذه الحملة قولهم: «إنّ النساء كنّ يقتلن طعناً بالسيوف والحرا، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أئداء أمهاتهم ويُقذف بهم من فوق الأسوار، أو تُهشم رؤوسهم بدقّها بالعُمد. وذُبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة»<sup>(٢)</sup>. ونحن لا نسوق هذه الشواهد التاريخية، إلّا لنؤكد أنّ التسامح في الإسلام أصلٌ أصيل، وأنّ التعايش بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب، مبدأ ثابت من المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، لا يدفعنا إلى ذلك الرغبة في إنكاء الجراح واستحضار مساوئ التاريخ، إنّما يحفزنا إلى الرجوع إلى صحائف التاريخ المشترك بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان والشرائع والملل<sup>(٣)</sup>.

### المبحث الأول: التعايش مع غير المسلمين

مهما تحلّينا بفضيلة نسيان الماضي، وتحكّمتنا في المشاعر الدينية استجابةً لضرورات التجرّد الموضوعي في البحث، فلا نملك أن ننكر أنّ تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية، عبر الأزمنة الغابرة، لم يكن فيه الجانبُ المسيحيُّ يعرف للتسامح معنىً من المعاني، ولم يكن

(١) تيلور، «عقل القرون الوسطى»، ج: ١ ص: ٥٥١، نق عن «تطور المجتمع الدولي» للدكتور يحيى الجمل، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦ م. ص ٣٠، ويتكرّر هذا المشهد بهذه الرواية، في موسوعة «قصة الحضارة»، ج: ٤، مجلد: ٤، ص: ٢٥.

(٢) ول ديورانت، «قصة الحضارة»، ج: ٤، مجلد: ٤، ص: ٢٥، الترجمة الإسلامية لمحمد بدران. وهو المجلد الخاص بالإيمان، ويضم الجزئين ١٥ و ١٦ من الطبعة الإسلامية التي نشرتها المنظمة الإسلامية للترقية والثقافة والعلوم، سنة ١٩٨٨ م.

(٣) المستشار منصور، «الشرعية الإسلامية والقانون الدولي العام»، دار القلم، القاهرة، ص ٣٧٩.

تعامله مع المسلمين يرتقى إلى مستوى التعايش. وليس من البحث العلمي في شيء، ولا من الأمانة التاريخية، أن نتجاوز عن هذه الظاهرة التاريخية المسجلة في أصحّ المراجع، من دون الإشارة إليها للاعتبار، تحت دعوى التجرد، أو عدم التعصب، أو نسيان مساوئ الماضي كلفة.

إننا، وبمتهى التسامح، وبكلّ الرغبة في التعايش، وبدافع الحرص عليه والاستجابة لدواعيه، نسجل هنا للعبرة التاريخية، وحتى تستبين لنا معالم السبل، أن أهل الأديان عموماً، لم يكونوا في تعاملهم مع المسلمين.

إنّ التعايش بين الأديان يفقد جدواه وقيّمته، حين ينقلب إلى إصرارٍ على استغلاله وتوجيهه الوجهة التي لا تخدم الأهداف الإنسانية التي هي موضع اتفاق الأطراف الراغبة في التعايش. إنّ في الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات الداعية إلى التعايش بين الأديان، يُخطّط على أعلى المستويات لمحاربة الإسلام بصفة خاصة، ويتّزامن هذا التخطيط المناوئ للإسلام، مع ممارسة أرقى ضروب التسامح مع اليهود.

ففي ولاية كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية، عقد أكبر مؤتمر تنصيري نُشِرت مداولاته ومقترحاته والنتائج التي أسفر عنها، في كتاب ضخّم صدرت ترجمته إلى اللغة العربية في ٩٠ صفحة مطبوعة بالحروف الصغيرة. وقد خُصص هذا المؤتمر لبحث قضية واحدة، هي أمثل الطرق لتنصير المسلمين والقضاء على دينهم. وقد جُمع لهذه الغاية ألف مليون دولار، لعلها الخطوة الأولى في تنفيذ هذا المخطط. وبتصفّح هذا الكتاب الضخم، نقف على حقائق مثيرة، تؤكد جميعها أنّ النصرى، أو طائفة منهم، إن أردنا الدقّة في التعبير والموضوعية في البحث، لا يؤمنون بالتعايش، ولا بالحوار، ولا بالتعاون، وهم إذا نادوا بالتعايش، أو دعوا إلى الحوار، قصدوا بذلك استغلالها لفرض الهيمنة الدينية التي لا

تكاد تختلف في شيء عن الهيمنة السياسية أو الاقتصادية. وها اليوم ماذا يجري في فلسطين المغتصبة وبالذات ما يحدث اليوم في غزة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ المسلمين لا يمنعهم مانعٌ من أن يستجيبوا لدعوة التعايش مع غيرهم من أتباع الأديان الأخرى، حتى وإن كان مفهوم التعايش عند هؤلاء منافياً جزئياً أو كلياً للمفهوم الإنساني المتحضر الذي يؤمن به المسلمون، لاعتقادهم بأن طبيعة الحياة الإنسانية تقتضي هذا النوع من التعايش الذي يرتقي إلى المستوى الرفيع من التجرد والإيثار والصدق والإخلاص في العمل لخير بني البشر كافة.

إنّ الحقيقة التي لا شكّ فيها أنّ الإسلام يؤكد إعلاء الرابطة الدينية والتعايش. بناء على ذلك فهو أمر ضروري لا بد منه، ولذا فالتعايش الذي يريده الإسلام له خصائصه المميزة على النحو الآتي:

١- أن يقتصر التعايش فيما يتعلق بالمعيشة البحتة بين الناس التي تفرضها طبيعة الحياة البشرية وحاجاتها الفطرية.

٢- إنّ التعايش في المفهوم الإسلامي لا يقتضي محبة أو ولاء أو اعترافاً بالصحة الكاملة لمبادئ الآخرين وأديانهم.

٣- ألا يتضمن شيئاً من التنازل عن أمر من أمور الدين بحجة ترغيبهم في الدخول في الإسلام أو إعطاء صورة حسنة عن الإسلام أو بأيّ تعليل آخر<sup>(١)</sup>.

٤- إنّ لا يلغي الفارق والاختلاف، ولكنه يؤسّس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس، فتأكيد الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية أمر

(١) أبو زيد بن محمد مكي، مقال عن مقال الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه [www.alqalm.com](http://www.alqalm.com).

لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التعارف بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها، وهو خاضع للسياسة الشرعية العملية التي يقدرها أهل الحل والعقد من أهل الخبرة والعلم والدين<sup>(١)</sup>.

وقد تفاوض رسول الله ﷺ مع اليهود وعاهدهم، وصالح المشركين في الحديبية، وكذلك الصحابة الكرام تفاوضوا مع أهل الأديان المختلفة فيما يخص دنياهم ومعاشهم، ولا يزال هذا الأمر موضع اتفاق. وقد (زخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراث ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين)<sup>(٢)</sup>. ولعل خير مصداق على ذلك، ولأهمية دماء المسلمين عند البيت النبوة الاطهار (عليه السلام)، هو ذلك الصلح الذي أنجزه الامام الحسن (عليه السلام) مع معاوية مع قدرته على خوض غمار المعركة إلا أن روح التعايش والتسامح التي كان يتمتع بها الامام الحسن (عليه السلام) كانت في الصدارة عقد صلحاً مع معاوية<sup>(٣)</sup>.

قد كانوا يمارسون التجارة ويبيعون ويشتررون من المسلمين، بل قد توفي ﷺ ودرعه مرهونة لدى يهودي. فقد روى البخاري: (أن النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير)<sup>(٤)</sup>. وقد كان في وسعه أن يقترض من أصحابه، وما كانوا ليضنوا عليه بشيء ولكنه أراد أن يعلم أمته. (وباعه يهودي بيعاً إلى أجل فجاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه فقال: لم يجل الأجل، فقال اليهودي: إنكم لمطل يا بني عبد المطلب، فهم به أصحابه فنهاهم فلم يزد ذلك إلا حليماً، فقال اليهودي: كل شيء منه قد عرفته من علامات النبوة

(١) التويجري، الحوار من اجل التعايش، ص ٨١.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن القاضي، دعوة التقريب بين الأديان [٣٤٨/١].

(٣) ينظر: تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٢٢٦، الإمامة والسياسة: ص ١٩٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم (٢٧٥٩).

وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلاّ حلماً فأردت أن أعرفها فأسلم اليهودي<sup>(١)</sup>.

وروى البخاري عن أنس: أن النبي ﷺ عاد يهودياً، وعرض عليه الإسلام فأسلم، فخرج وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه بي من النار)<sup>(٢)</sup>. لا بدّ «أن يشمل التعايش بين الأديان العمل المشترك لمحاربة الإلحاد والانحلال الخلقي وتفكك الأسرة وانحراف الأطفال ومقاومة كلّ الآفات والأوبئة التي تتهدّد سلامة كيان الفرد والجماعة، وتضر بالحياة الإنسانية ويجب أن يتسع مفهوم التعايش بين الأديان للقضاء على أسباب التوتر واضطراب جبل الأمن والسلام وعدم الاستقرار في أنحاء عديدة من العالم، مثل فلسطين، والبوسنة والهرسك، وإقليم كوسوفا، وكشمير، والفلبين، وفي مناطق كثيرة في إفريقيا وآسيا.

وهنا بدأت مرحلة جديدة للتعايش تختلف عن صورتها أثناء الحرب الباردة، حيث أصبحت دعوة فكرية تحمل في طياتها مضامين فكرية وثقافية وحضارية واجتماعية تحت تأثير عدة عوامل على النحو الآتي<sup>(٣)</sup>:

وجود الكيان الصهيوني في أرض بيت المقدس وتواطؤ القوى الغربية معه، وكان لتدخل الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل من الهزيمة عام ١٩٧٣ م أثر في إحساس العرب بالمرارة تجاه هذه السياسة.

(١) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، مؤسسة الرسالة، بيروت، [١/ ١٦١].

(٢) أخرجه ابوداؤود في سننه كتاب الجنائز، في باب عيادة الذمي حديث رقم (٣٠٩٥) [٢/ ٢٠١]، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (١٣٣٩٩)، [٣/ ٢٢٧].

(٣) انظر: الهادي أحمد خليفة، إشكالية التعايش بين الإسلام والغرب في عصر الهيمنة الغربية، بحث ماجستير مقدم لكلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم عام ٢٠٠٠ م.



تأثير قوى الضغط المتمثلة في اللوبي الصهيوني، الذي يدفع الولايات المتحدة إلى التضحية بمصالحها الوطنية بتوفير كل الدعم لإسرائيل على حساب خصومها العرب<sup>(١)</sup>.

ظهور جماعات المقاومة المسلحة بوصفها وسيلة من وسائل الاحتجاج ضد الظلم الإسرائيلي، انطلاقاً من الواقع الموضوعي ومن مرجعية شرعية تتمثل في إجماع علماء المسلمين، بانتماهم السياسية كافة، على أنّ الجهاد القتالي ضد إسرائيل واجب قطعي الدلالة.

غياب المعادلة الإستراتيجية للتفوق الغربي ممثله في الاتحاد السوفيتي، وبروز العالم الإسلامي حضارةً تمتلك مقومات القوة والتي تمثل خطراً على العالم الغربي<sup>(٢)</sup>.

تشويه الإعلام الغربي لصورة الإسلام، والهجوم عليه بأنه دين التطرف والعنف مما جعل المفكرين العرب يدافعون عنه بوصفه دين التسامح والتعايش.

وهذه العوامل أثرت تأثيراً فاعلاً في تطور فكرة التعايش من المستوى الإيديولوجي والسياسي، وهو ما أطلق عليه التعايش أول الأمر، وصاحبه المستوى الاقتصادي إلى أن يشمل المستوى الديني والثقافي والحضاري فأصبح «التعايش السلمي لا يقوم فقط بين الدول وإنما بين الشعوب أيضاً، وهنا تكمن الأهمية والضرورة معاً، إذ إنّ محرك السلم كمحرك الحرب تماماً ليس علاقة دولة بدولة، وإنما - بصورة أعمق - علاقة الشعوب بعضها ببعض»<sup>(٣)</sup>.

(١) ريس هالسل، النبوة والسياسة، من مقدمة المترجم محمد السهاك، دار الشروق، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٢.

(٢) وهذه الفكرة روج لها الحاقدين على الإسلام من الغربيين الأصوليين الأنجليين والصهيانية لإيجاد عدو جديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

(٣) شاتليه، تاريخ الأيديولوجيات، مرجع سابق، ص ٣٢٨.

وهذا ما أكدته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) حينما حثت على ضرورة تعايش الأجيال الحاضرة مع أجيال المستقبل في ظل أجواء يسودها السلام والأمان واحترام حقوق الإنسان والحقوق الأساسية، وترى أنّ على الأجيال الحاضرة تجنب أجيال المستقبل المعاناة الناجمة من الحروب عبر الحيلولة دون تعرضهم للأضرار الناجمة عن النزاعات المسلحة ووضع الصيغ المناسبة التي تحدّ من استخدام الأسلحة ضد المبادئ الإنسانية<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثاني: أهم عوامل والمؤثرات التعايش الاجتماعي

تتأثر المجتمعات بجملة من العوامل التي تفرض عليها التعايش السلمي بحكم الجغرافية أو بحكم التاريخ أو العلاقات الاجتماعية أو الدين. أمّا العوامل الاقتصادية أو الفكرية أو الثقافية، فهي تأتي بالمرحلة الأخيرة من العوامل الدافعة للتعايش باعتبار أنّ الاقتصاد أو الثقافة أو الفكر هي عوامل مشتركة بين جميع بني البشر، وقد لا تفرض تعايشاً أو تسامحاً مثل العوامل التي ذكرناها أعلاه؛ لذا سنسلط الضوء على الأثر النفسي والاجتماعي والأثر الثقافي لتعزيز روح التسامح والتعايش.

### أولاً: الأثر النفسي والاجتماعي في التعايش:

يؤدي البعد الاجتماعي دوراً كبيراً في ترسيخ التعايش السلمي بين أبناء المجتمع على اختلاف انتماءاتهم. والأبعاد الاجتماعية تضمّ مستوى التعليم، العمر، الدين، المكانة الاجتماعية والسكن. إنّ أعظم التمايزات والتنوع في هذه المؤثرات خاصة في ظلّ الظلم الاجتماعي الذي يمارس من بعضها تجاه الآخر يشكل نواة أساسية لبروز حالة من عدم التعايش مما يستدعي البحث حول إيجاد أسس وآليات تعزز من قيمة التعايش، كما يدور

(١) عدنان نصر اوين، اليونسكو ومهمة بناء حصون السلام في عقول البشر، مرجع سابق، ص ٥-٦.

الأثر النفسي أو المتعلقة بالشخصية حول تقدير الذات، حيث توصل بعض الباحثين إلى وجود علاقة إيجابية بين انخفاض تقدير الذات والتعصب السياسي. ومن ناحية أخرى، فإن الشخصية السلطوية وما يتصل بها من خصائص وسمات ترتبط ارتباطاً إيجابياً بالتعصب السياسي، والعكس صحيح. وكلما قوي الارتباط النفسي للفرد في الحياة السياسية، كان أكثر مشاركة فيها، الشيء الذي يجعله يعبر عن هويته السياسية أكثر، هذه الهوية لا تتطلب توافر الحد الأدنى من الاهتمام السياسي، وإنما تتطلب أيضاً ارتفاع درجة الوعي السياسي للفرد، ومن ثم إشعاره بالانتماء الروحي للأرض التي يسكنها، وإن العوامل السياسية سرعان ما تتبدل<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: الأثر الثقافي في التعايش:

تشكل الثقافة عاملاً مهماً من عوامل ترسيخ التعايش، فالثقافة السياسية السائدة ترفع مستوى الوعي بروح الشراكة، والبعد الثقافي محدداً جوهرياً لمستوى التعايش وشكله ونمطه؛ فحينما تسود الثقافة المدافعة للنظام، تزداد احتمالات التعصب السياسي والعكس صحيح. كما إنها جزء من الثقافة العامة للمجتمع، وهي بذلك تؤثر في الثقافة العامة وتتأثر بها. فالثقافة السياسية تجد مصادرها في الميراث التاريخي للمجتمع، وفي الأوضاع السياسية والاقتصادية والأيدولوجية السائدة في المجتمع. أيضاً فإن الثقافة السياسية تؤثر في ثقافة المجتمع لقيامها بمساندة استمرار الأوضاع أو السعي لتغييرها<sup>(٢)</sup>.

(١) الخطة الشاملة للثقافة الإسلامية، المنظمة الإسلامية للدراسات والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، تونس

١٩٩٦م، ص: ١٦.

(٢) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، ترجمة المنظمة العالمية للعلوم - إيسيسكو-الرباط

١٩٩٧م ص ٢٢

وهناك أبعاد أخرى للتعایش لسنا بصدد مناقشتها قدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا. ومن ابرز مكملات التعایش والتسامح:

### تعزیز قیم الحوار:

إنّ الحوار الداخلي مع المخالفين في الرأي ضد الحكومة إلى جانب احترام المعارضة لسياسة الحكومة وانتقادها وتقويمها وتقييمها بشكل موضوعي... يُعدّ أمراً ضرورياً لاستقرار النظام العام، ويؤسس لوضع سلمي ومعافى للتداول السلمي للسلطة؛ هذا لا يتأتى إلا في إطار دستور يحدّد الحقوق والالتزامات لكل طرف، يؤسس على ثقافة سياسية تُعليّ من قيمة الوطن في مشاريعهم السياسية وتصوراتهم الفكرية.

وبناءً على ما تقدم نجد أنّ معززات التعایش السلمي وشيوع ثقافة التسامح في جانب كبير منه يقع على السنن والقوانين المشرعة والتي يجب أن تكفل حقوق الجميع دون تمييز عرقي أو مذهبي أو طائفي، وروح المواطنة التي احتضرت في العراق بحاجة لتنشيط عبر قوانين جريئة تعاقب وتثيب لبعض الظواهر التي شاعت، وهي توجج الصراع وتثيب العاملين على التقريب بين المختلفات خصوصاً في تركيبة المجتمع.

إنّ مفهوم الحوار في المنظور الغربي يختلف صوره ووسائله حسب الظروف ومقتضيات المرحلة التي رفع فيها. ففي إبان الحرب الباردة كان الهدف منه تخفيف حدة الصراع الأيديولوجي وتحقيق المصالح الاقتصادية والسياسية، أمّا الحوار في العالم الإسلامي فقد «استند في أول الأمر إلى الهدف الديني، حيث وقع التركيز على الحوار الإسلامي المسيحي، وكانت الكنيسة الغربية هي التي وجهت الدعوة إلى هذا الحوار، وذلك عقب نشوء أزمة حضارية جديدة في العالم الإسلامي والإسلامي نتيجة تصادم الإرادتين؛ الإرادة الإسلامية الإسلامية، والإرادة الغربية، وبلوغ حدة الصراع بين الجانبين مبلغاً قدر الجانب

الغربي أنه بات يهدد مصالحه. فكانت الدعوة إلى الحوار، في المجال الديني، في صيغة الحوار الإسلامي - المسيحي، ثم في المجال السياسي في صيغة (الحوار الأوربي - الإسلامي)<sup>(١)</sup>، في مرحلة أولى أعقبها مرحلة ثانية نشطت فيها الدعوة إلى (حوار الشمال والجنوب)<sup>(٢)</sup>.

وكان الغرب في كل الأحوال، وفي جميع الظروف، هو صاحب المبادرة إلى هذا الحوار في أشكاله المتعددة وصيغه المتنوعة (لعل في طليعتها الفاتيكان الذي كانت دعواته للحوار تلقى دائماً الاستجابة من المسلمين، مع شيء من التحفظ، نتيجة شكّ تثيره المواقف الضعيفة للفاتيكان من بعض القضايا الإسلامية، ولا سيما الحق الإسلامي المغتصب في القدس وفلسطين، والحرب الإبادة في البوسنة والهرسك)<sup>(٣)</sup>.

والغرب عبر هذه المبادرات يسعى إلى (أهداف رسمها وإلى غايات حددها، يكتنفها جميعاً، قدر من الغموض الذي لم تنفع وسيلة في إخفائه، لأننا هنا بإزاء دعوة صادرة من

(١) عندما شعرت أوروبا وأمريكا بانتصار المسلمين في حرب العاشر من رمضان ١٩٧٣م، وممارسة المسلمين بعض الضغوط النفطية على أمريكا وهولندا، لجأت إلى إجراء حوار امتصاصاً لغضب العرب، ومحاظة على مكاسبهم، وأعلنوا عن استعدادهم للقيام بدور سياسي معقول للصراع الإسلامي الإسرائيلي، والمشاركة في دفع عجلة التنمية الاقتصادية. فالجانب الإسلامي كان يبحث وي طرح في هذه الاجتماعات، كيفية الحصول على الدعم والتأييد الأوربي لمشكلة الصراع الإسلامي والإسرائيلي وبينما الأوربيون كانوا يركزون على الأبعاد الاقتصادية. وفريق عمل الحوار الإسلامي - الأوربي، يتخذ «لتتعلم التعايش معا» شعاراً له. انظر: هيفاء أحمد السامرائي، الحوار الإسلامي الأوربي، ص ٥-٩، ود. عبدالعزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، موضوع المصالحة بين الغرب والعالم الإسلامي، جريدة الشرق الأوسط، ٧-١٠-٢٠٠٤م، وإسماعيل صبري مقلد، حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين رؤية إسلامية للحوار، الإستراتيجية والسياسية الدولية فصل الحوار الإسلامي الأوربي، مؤسسة الأبحاث الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، ص ٥٢٢.

(٢) عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٢.

(٣) د. عباس الجراري، الحوار من منظور إسلامي، من موقع المنظمة الإسلامية الدولية للتربية والثقافة والعلوم <http://www.isesco.org.ma/pub/arabic/Alhiwar/page5.htm>.

جهة تملك شروط القوة والنفوذ السياسي والقدرة على صنع الحدث والتحكم في مساره<sup>(١)</sup>. لذلك ظلت كلمة (الحوار) تحمل معاني متعددة في المفهوم الغربي<sup>(٢)</sup>، منها مفهوم التعايش الذي (يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوب أو طوائف، وربما تكون أقليات دينية، يعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء والاقتصاد والسلام وأوضاع المهجرين، واللاجئين ونحو ذلك. ومن أمثلة هذا اللون من الحوار: (الحوار الإسلامي الأوروبي)، و(حوار الشمال والجنوب)<sup>(٣)</sup>. وهذا هو المفهوم العام الذي يؤخذ من دلالة الكلمة دون ارتباطات بالمفاهيم اللاحقة، - لأنّ التعايش له مفهومان متغايران، أحدهما مأخوذ من المفهوم العام للكلمة والآخر مأخوذ من شعار خاص رفع في مرحلة من المراحل لأهداف سياسية ثم تطوّر إلى أن أصبح فكراً منظماً تقوم على تصديره بعض المؤسسات الكبرى (اليونسكو - والاييسكو) ثم عاد ليصبح شعاراً سياسياً للتخفيف من هيجان العالم الغربي بسبب أحداث ١١ سبتمبر بنفس المضامين.

من ذلك يجد الباحث أنّ التعايش الذي نقصده هنا هو ذلك النوع من التعايش الذي تقرّه إحدى العوامل التي ذكرناها، فقد يكون الدين الواحد مع اختلاف العقائد هو أحد

(١) عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٢.

(٢) عبر التبع والاستقراء لأحوال الحوارات المتعددة بين الأديان، تبين أنّها على أنواع مختلفة، ولكل نوع خصائصه المحددة له والمميزة له عن غيره، وتنوع صور الحوار بحسب أهدافه وأغراضه إلى:

١. حوار الدعوة أو التنصير.
٢. حوار التعايش أو التسامح.
٣. حوار التقريب.
٤. حوار الوحدة.
٥. حوار الاتحاد.

وكل نوع من هذه الأنواع لها أهدافها ووسائلها للتوسع انظر: أبو زيد محمد مكي، الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه. وعبدالرحيم بن صامل السلمي، الحوار بين الأديان، من موقع القلم: [www.alqalm.com](http://www.alqalm.com).

(٣) أحمد عبدالرحمن القاضي، دعوة التقريب بين الأديان، [١/٣٤٨].

العوامل الأساسية في التعايش، أو قد تكون الرقعة الجغرافية الممتدة والمتصلة مع بعضها سبباً من أسباب التعايش والتسامح على أساس الجغرافية، وهذا ما تشير إليه الدول المتجاورة التي تكون جغرافيتها امتداداً واحداً، ويتطلب وجودها شيوع روح التعايش والتسامح، بصرف النظر عن الانتماءات الأخرى. ويجد الباحث كذلك أنّ الثقافة لها دور كبير في انتشار روح التعايش بدوافع ثقافية خصوصاً إذا ما تقاربت الثقافات مع بعضها؛ وهذا جملة ما استعرضناه؛ على أنّ هناك أسباباً وعوامل أخرى لسنأخذ تفصيلها قدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا.

## الفصل الثالث

### الأهداف من التعايش

#### المبحث الأول: الأهداف الإنسانية

الهدف الإنساني يسبق كل الأهداف، والإنسانية هي سمة حاضرة ميدانياً، لدعوة التعايش. وقد تبنت المنظمات الدولية هذا الهدف كمنظمة الأمم المتحدة والمفوضية العليا لرعاية اللاجئين، ومنظمات غير حكومية عديدة. ومن أبرز المشاريع لتحقيق هذا الهدف مشروع (تخيل التعايش معاً)<sup>(١)</sup>. وتقوم هذه المنظمات بالعمل الميداني لتحقيق هدف إخماد الحروب ونزع فتيلها وإيجاد برامج المصالحة بين المختلفين ووسائل الإنماء وإعادة إعمار البنى التحتية. عرض قادة وخبراء في الأمم المتحدة، وبعض المفكرين في الغرب عبر مشروع (تخيل التعايش معاً) أبحاثاً ونظريات وممارسات عملية توضح كيفية تحقيق التعايش في بيئة مزقتها الحروب والصراعات الأثنية، وكيف يمكن للناس أن يبنوا السلام بعد نزاع عرقي عنيف ويحققوا تعايشاً آمناً. وينظر هؤلاء إلى أن التعايش (هو أن تعيش المجتمعات متكاملة تماماً، يعيش فيها الناس من مختلف الأعراق والأجناس والأديان منسجمين مع بعضهم البعض)<sup>(٢)</sup>.

وتقوم المنظمات غير الحكومية (بتسهيل التفاعل والتعاون عبر بذل الجهد الحثيث لتحسين ظروف ما بعد النزاع في نفس الوقت الذي تعمل فيه لإعادة إصلاح خطوط الاتصالات، وتجنب حدوث سوء الفهم والعمل لإزالته إذا ظهر)<sup>(٣)</sup>.

(١) وهذا المشروع برعاية المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، وجامعة هارفرد، وكلية فلشر للحقوق والدبلوماسية بجامعة تافتس (Tafts).

(٢) انطونيا نسايز ومارثا ميناو، تخيل التعايش معاً، ص ٢٩.

(٣) انطونيا نسايز ومارثا ميناو، تخيل التعايش معاً، ص ١٩.



ويتم التركيز لتحقيق هذا الهدف على انتقاء مشاريع إستراتيجية مبنية على مصالح مشتركة بين الأطراف المتنازعة، وهذه المنظمات تسعى إلى تعزيز التعايش بوصفه بعداً حيوياً في الممارسة والنظرية الإنسانية بعد انتهاء النزاع العرقي الشديد. وتقوم هذه المنظمات باتخاذ أساليب عديدة في تحقيق التعايش بين المختلفين من أبرزها:

### المبحث الثاني: حل النزاعات

ويتم ذلك عبر (محاولة تحويل المجتمعات التي توجد لها الهيمنة العرقية والعنف الجماعي، إلى مجتمع أكثر عدلاً وإنصافاً وهو غرس النظام القانوني المحلي في الأفكار العامة للمساواة وحكم القضاء)<sup>(١)</sup>.

وتتنوع وسائل حلّ النزاعات بحسب الظروف والبيئة؛ فتارة يتم من (خلال هيئات تقصي الحقائق أو المحاكم الدولية الجنائية أو قوانين محلية ضد التمييز أو مجموعات مدنية تشجع وتبني مشاركة الأقليات العرقية)<sup>(٢)</sup>.

### المبحث الثالث: الخدمة الاجتماعية.

لأهمية قطاع الخدمات الاجتماعية، لكونها من أكثر المنابر ملائمة وفعالية بالنسبة لمشاريع التعايش، فقد قامت المؤسسات غير الحكومية بدعم هذا القطاع لتعزيز مشروع التعايش معاً عبر التعليم بإنشاء المدارس المتعددة الثقافات والتي تدرس باللغتين أو ثلاث وتضمّ كوادرات تعليمية مختلفة تجمع الطلاب من مختلف الأعراق والأديان معاً لتعلم المواضيع الجوهرية التي تقرب مسافات الفهم والتفاعل بين المجتمعات التي مزقتها النزاعات.

(١) انطونيا نسايز ومارثا ميناو، مصدر سابق، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢.

ومن النماذج جمعية الشبان المسيحيين في القدس، والتي تدير مرحلة تدريبية قبل المدرسة تجمع فيها الأطفال اليهود والمسلمين يومياً لأهداف ترفيهية كالزيارات والاحتفالات بأعياد الميلاد وإقامة الصداقات رغم الحواجز العرقية والدينية.

وتوسع إطار التعليم ليشمل مجالات عدة بما فيها دروس الحاسوب، وتعليم اللغات، والندوات الثقافية، والتجمعات الصيفية، إضافة إلى تدريب قيادات شبابية<sup>(١)</sup>.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥.

## الفصل الرابع محمد ﷺ أول إنسان سلك التعايش مع الآخر

لقد جسّد الرسول الأكرم ﷺ فكرة التعايش السلمي أروع تجسيد، إذ أعطى مثلاً لمعاملة أهل الكتاب من يهود ونصارى، وكذلك في تعامله مع المشركين، وحتى مع المنافقين الذين يعتبرون عدواً داخلياً. فقد روي (أنّه يحضر ولائهم ويشيع جنازتهم ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم، حتى روي أنّه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته ودعاهم إلى الجلوس عليها، وكان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهنهم أمتعتهم)<sup>(١)</sup>.

لقد اعتمد الرسول الكريم ﷺ أسلوباً راقياً في الحوار مع خصومه يدل على حيوية القاعدة الإسلامية التي دلّ

على ذلك من اهتمام الرسول ﷺ المبكر في تقنين العلاقة مع الآخر ووضعها ضمن أولوياته الملحة التي لا تتحمل الإبطاء أو الإرجاء فحال وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة، سارع إلى أنجاز ثلاث قضايا مركزية.

### الأولى: المواخاة بين المؤمنين

وفي (المدينة المنورة)، شرع النبي الكريم ﷺ بوضع الأسس للمجتمع الإسلامي الجديد. فحرص على إذابة الفوارق بين بدوها وحضرها وشعبها وقبائلها وجعلهم ينصهرون في بوتقة واحدة تحت راية دولة واحدة، وجعل العبادة لله وحده، وأقام حكم الشورى السليم، وفرض نظام العدالة في السياسة والاجتماع والاقتصاد. وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في معظم الأمور، ولا يعرض آراءه عليهم، وهذا ما نصت عليه تعاليم الإسلام في عدد من

(١) العلي، محاضرات في التاريخ الإسلامي، ص ١٩-٢٠.

الآيات فقال عز: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

و وضع الصحيفة التي تتكون من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتعلق بالمسلمين.

القسم الثاني: يتعلق باليهود.

القسم الثالث: يحتوي على أحكام عامة تتعلق بأحوال المدينة المنورة، وقد جعلت هذه الصحيفة من المسلمين أمة تسودها الوحدة من دون الناس، تنحي فيها العصبية القبلية. ونصت الصحيفة على أن الله تعالى هو مصدر السلطة، وأن النبي الكريم ﷺ هو الحكم الأعلى في حلّ القضايا في المدينة المنورة، ويمكن شرح بعض نصوص صحيفة المدينة المنورة المتكونة من مادة. والذي يتتبع بنود الوثيقة نجد أنها تضمنت بنوداً خاصة للمؤمنين بين المهاجرين والأنصار، وبنوداً خاصة لليهود تتعلق فيما بينهم وبين المؤمنين، وبنوداً عامة تشمل الجميع:

أولاً: ما جاء من البنود في حق المؤمنين:

(المؤمنون أمة واحدة من دون الناس).

(كل فريق من المؤمنين على ربعتهم)<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢١.

ثانيا: موقف نبينا محمد ﷺ من اليهود:

البند المتعلقة باليهود فيما بينهم وبين المؤمنين:

(ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين)<sup>(١)</sup>، وهو يتعلق بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة.

(أنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأنَّ لبقية اليهود من بني النجار وغيرهم ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه). وهذا البند يحدّد العلاقة بين اليهود وبين الفئة المؤمنة، ويعتبرهم جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية، ويكفل لهم حريتهم الدينية ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم.

٣- (لا تُجار قريش ولا من ناصرها)<sup>(٢)</sup>. وهو يختصّ بالتعامل بين اليهود والمشرّكين، وعدم السماح لهم بمخالفة قريش وغيرها من القبائل المعادية للإسلام.

٤- (لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم)<sup>(٣)</sup>. وبموجب هذا البند يمنع اليهود من القيام بأيّ نشاط عسكري ضد المؤمنين، خارج عن نطاق وحدود المدينة، مما قد يؤثر على أمن المدينة واقتصادها.

(١) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحِمَيري البصري (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، مط مكتبة الكليات الأزهرية، (القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) ج ١، ص ٥١

(٢) ابن سيّد الناس، فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله اليعمري الإشبيلي، (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسّير، مط، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م).

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١٨٣.

٥- (إنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإنّ بينهم النصح والنصر للمظلوم)<sup>(١)</sup>

٦- (إنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإنّ بينهم النصح والنصر للمظلوم)<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: البنود العامة:

إنّ ما يحدث بين أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد، فإنّ مرده إلى الله جل وعلا وإلى محمد ﷺ، وهذا البند يقرر المرجعية العليا في الأمور والقضايا بالمدينة، منعاً لقيام أي اضطرابات في الداخل.

(فلا يقطع شجرة ولا يقتل صيدها، فهذا البند يحدد حرم المدينة، ويضمن الأمن فيها، ويضع حداً للاضطرابات والمشاكل التي تهدد السلم والأمان)<sup>(٣)</sup>.

وبنود هذه الصحيفة مبنية على نصوص ثابتة، وقواعد شرعية، ومصالح معتبرة، منها قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. والمتأمل في بنود هذه الوثيقة يدرك مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، وإسقاط كلّ الاعتبارات الطبقية والجاهلية، وترسيخ المبادئ الإسلامية، كما إنّها اشتملت جميع ما تحتاجه الدولة، من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة بعضهم ببعض. ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه الوثيقة ثمارها مع اليهود لولا طبيعة الغدر والخيانة

(١) بن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٣١٤.

(٢) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج ١، ص ٢٦٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

فيهم، حيث سلك اليهود وسائل عدة ومتنوعة للكيد لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه، إلا أن وسائلهم التي اتخذوها باءت بالفشل، والسبب يرجع إلى حكمة النبي ﷺ، وحنكته في إدارة شؤون الدولة.

ففي ضوء هذه الحقائق الدامغة التي طرحتها هذه الوثيقة، يأتي مفهوم المواطنة، ويتجلى التعايش السلمي، والسلم الأهلي في أبهى صورته، فيكون محمد ﷺ رجل السلام الأول على هذه الأرض.

## الفصل الخامس

### بعض المصاديق المتبعة للتعايش في الشريعة الإسلامية

**المبحث الأول: مقولة الامام علي (عليه السلام): (الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)**

هذه القاعدة المهمة التي قالها أمير المؤمنين (عليه السلام): (الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

ضرورية جداً في النظر إلى الناس والتعامل معهم، فعلى الإنسان أن لا يعتدي ويسيء إلى أخيه الإنسان لمجرد اختلافه معه في الدين أو المذهب. وقد سار الإمام علي (عليه السلام) أيام خلافته على هذا النهج الذي رسمه رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وأوضح أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) أن التعامل في ظل الدولة الإسلامية يجب أن يكون بمنطق الرحمة والعفو والتسامح مع جميع الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين. وقد أشار (عليه السلام) إلى ذلك في كتابه لملك الأشتر لما ولّاه مصر بقوله<sup>(١)</sup>: (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْحُبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخُ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرُ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلُّ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمَدِ وَالْحَطَأِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ)<sup>(٢)</sup>

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، ج ٣٣، ص ٥٩٠.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٨٢.



وهذه القاعدة المهمة التي قالها أمير المؤمنين (عليه السلام): (الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)<sup>(١)</sup> ضرورة جداً في النظر إلى الناس والتعامل معهم. فعلى الإنسان أن لا يعتدي ويسيء إلى أخيه الإنسان لمجرد اختلافه معه في الدين أو المذهب، وان ينصفه من نفسه، ويتعامل معه بعدل وإحسان سواء أكان على دينه أم على دين آخر.

والإسلام قد حفظ حقوق أهل الذمة، وأصحاب الأديان الأخرى، وأمر بالعدل والقسط والإحسان والرحمة مع جميع الرعية وإن اختلفوا في الدين... هذا على المستوى النظري، وأما على المستوى التطبيقي: فقد بلغ التعايش الديني في الإسلام أن يسمح للذمي أن يخاصم إمام المسلمين ويطالبه بالبينّة لدعواه، كما اتفق ذلك في قصة درع أمير المؤمنين (عليه السلام) ومخاصمته في عصر خلافته مع رجل من اليهود عند شريح القاضي.

### الأول: الامام علي (عليه السلام) والنصراني المتسول المكفوف

ونشير إلى واقعة أخرى تؤكد ضمان أمير المؤمنين (عليه السلام) لحقوق غير المسلمين ممن يعيشون في المجتمع المسلم وتحت ظلال الدولة الإسلامية، حيث تسجل لنا كتب التاريخ هذا الموقف النبيل، إذ روى الشيخ الطوسي في التهذيب بسنده عن محمد بن أبي حمزة: عن رجل بلغ به أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): ما هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين نصراني!

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه، أنفقوا عليه من بيت المال)<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، ج ٣٣، ص ٦٠٠.

(٢) راجع: بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٥٦؛ تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي، ج ٦، ص ٢٩٣، ح ٨١١.

وقد أفتى بعض الفقهاء كالشيخ الحر: بأن ضمان الدولة لا يختص بالمسلم، فالذمي الذي يعيش في كنف الدولة الإسلامية إذا كبير وعجز عن الكسب، كانت نفقته من بيت المال<sup>(١)</sup>.

### الثاني: الامام علي عليه السلام وكنيسة النصارى.

حين سارا مع أمير المؤمنين نحو صفين، فنزل وقال: هيئوا إلي ماء أصب علي، قال: فهيئوا له ماء، فدخل فإذا صوراً في الحائط، قال: كأن هذه كنيسة؟ قالوا: نعم، كان يشرك فيها الله كثيراً، قال: وكان يذكر الله فيها كثيراً، قال: فأبى أن يغتسل فحولوا له إلى موضع آخر فاغتسل<sup>(٢)</sup> (٧٠).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إنسانية الإسلام، والتعامل بعدل وإنصاف مع الإنسان بصورة عامة حتى مع غير المسلم الذي يعيش في كنف الدولة الإسلامية، ويرعى حقوقهم المشروعة كافة، وما ذكرناه من شواهد وأمثلة يؤكد نهج التسامح الديني الذي كان سائداً في عهد أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) اقتصادنا: السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ، ص ٦٦٩.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، ج ٣٣، ص ٥٨٠.

## المبحث الثاني: قول عمر بن الخطاب (رض): (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم

أمهاتهم أحراراً)<sup>(١)</sup>

سجل التاريخ حوادث كثيرة للفراروق عمر رضي الله عنه تشهد على عدله وحكمته، وكان من أشهرها تلك الحادثة التي قيلت فيها عبارة «متى استعبدتم الناس»، والتي كان أحد الخصمين فيها قبلياً غير مسلم، أمّا الخصم الآخر فلم يكن مسلماً وحسب، بل كان ابن عمرو بن العاص أمير مصر في ذلك الوقت، لكن ذلك لم يمنع أمير المؤمنين من إنصاف الرجل القبلي الذي جاء من مصر صحبة أبيه ليشتكي له من أن ابناً لوالي مصر قد ضربه بالسوط لأنّه سبقه في سباق للخيل جرى بينهما، وهو يقول له: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟ فدفع ذلك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لاستدعاء عمرو بن العاص وابنه إلى المدينة المنورة، وأتى بالقبلي وأعطاه سوطاً ودفعه ليضرب ابن الأمير قصاصاً لنفسه، فضرب القبلي ابن عمرو حتى استوفى حقه، ثم التفت عمر رضي الله عنه للقبلي وقال له: لو ضربت عمراً بن العاص ما منعتك، لأنّ الابن إنّما ضربك لسلطان أبيه، ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، لتظلّ مقولته هذه شاهدة على عدل الفراروق، ونبراساً يسطر حقّ الإنسان في الكرامة والحرية إلى الأبد.

(١) عصر الخلافة الراشدة محاولة لتقيد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين أكرم بن ضياء العمري الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ص ١٦٧. الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين - عبدالعزيز بن ابراهيم العمري، (الرياض - السعودية)، دار إشبيلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١ م، ص ١٨٨.

## الفصل السادس

### الحوار البابوي مع المرجع الأعلى آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظلّه

ما أدلّ على التعايش والتسامح من زيارة الحبر الأعظم البابا فرنسيس إلى النجف الأشرف، وهي تعبير عن عظمة الأديان وسعة صدور كبار رجال الدين من المسيحية والإسلام. وقد كان لهذه الزيارة المباركة أصداء عالمية واسعة واحتلت صدور الصحف العالمية. وقد تكللت الزيارة بالنجاح الباهر. وكانت الزيارة يوم ٦ / ٣ / ٢٠٢١ م عندما زار العراق.

وقد ردّد البابا يوحنا الثاني عام التسامح والتعايش في كثير من زيارته إلا أننا نجد في وثيقة بابوية حديثة ما يجعلنا نتوقف عند فكرة (الحوار بين الأديان)، أو (التعايش بين الأديان)، لا لنعلن عن تراجعنا عن تطبيق مبدأ الحوار والتعايش، ولكن لتأمل في عمق دلالة هذا الموقف، وانعكاساته على مجمل التحركات التي تقوم بها الكنيسة الكاثوليكية الغربية في اتجاه الدعوة إلى الحوار والتعايش.

ونسوق هذا المثال في معرض تناولنا لمفهوم التعايش عند غير المسلمين، وهم هنا بالتحديد المسيحيون، أو بعبارة أدقّ النصارى من أتباع الكنيسة الغربية، حتى نفرّق بينهم وبين النصارى المسلمين (وهم الأرثوذكس) الذين يشاركوننا العيش في كنف الحضارة الإسلامية منذ قرون طويلة. فتحت العنوان الفرعي: «الحوار مع الإخوة من ديانات أخرى»، من الفصل الخامس لرسالة الفادي<sup>(١)</sup>، تلك الرسالة التي قال عنها باب الفاتيكان،

(١) في ٥ / ١٠ / ١٩٩٣ م، قام الكاردينال راتزنجر، رئيس رهبانية عقيدة الإيمان، بإعلان الخطاب الرسولي الجديد على العالم أجمع، وهو الخطاب العاشر للبابا يوحنا بولس الثاني منذ توليه منصب البابوية في عام ١٩٧٨ م. انظر: د. زينب عبدالعزيز، تنصير العالم مناقشة خطاب البابا يوحنا بولس الثاني، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م، ص ١٠٦.

البابا يوحنا بولس الثاني<sup>(١)</sup>: إنها تتضمن رأيه وموقفه من الإسلام والمسلمين، حيث قال: «إن الحوار بين الديانات يشكّل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو بوصفه طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء مُتبادِلَيْن، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم؛ إنه بالعكس، مرتبط بها، بنوع خاص، وهو تعبير عنها.

ثم يستطرد للتأكيد على: أنّ الخلاص يأتي من المسيح، وأنّ الحوار لا يعني من التبشير بالإنجيل، بل إنّ الكنيسة لا تعدّ أنّ ثمة أي تعارض بين البشارة بالمسيح والحوار بين الديانات.

وإذا لم يكن هذا ليس بحاجة إلى تفسير فلأنّه شديد الوضوح في تحديد معنى الحوار في نظر البابا يوحنا بولس الثاني، والذي لا يخرج عن كونه مجالاً لمواصلة عملية التنصير وترسيخها. وفي خطاب آخر للبابا يقول: إنّ رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي يجب ألا تفصل عنها.

إنّها تنتقل عبر حوار رسولي مُتَّصَمِنٍ بالضرورة في حوار ثقافي بعينه. إنّ قوّة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك يجب ألا يتغيّر الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، عندئذٍ فإنّ التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويُضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية<sup>(٢)</sup>.

(١) هو جون بول الثاني (١٩٢٠م - ٢٠٠٧م). بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المنتخب عام ١٩٧٨م. ولد في بولندا، وأصبح أول بابا غير إيطالي منذ أدريان السادس (١٥٢٢ - ١٥٢٣م) الذي كان هولندياً. جعل جون بول البابوية جزءاً لا يتجزأ من العالم بالسفر إلى أكثر من ٦٠ دولة معظمها من الدول النامية، وهو بذلك أول بابا ينتهج هذا النهج في تاريخ الكنيسة في القرن العشرين [الموسوعة الإسلامية العالمية، النسخة الإلكترونية].

(٢) د. زينب عبد العزيز، تنصير العالم، ص ١٠٦-١٠٧.

فإذا كان الحوار بين الثقافات، ومن ثم بين الأديان، هو بهذا المفهوم عند الفاتيكان، فهذا يعني أنّ التعايش عندهم يرمي إلى تنصير العالم. وهذا بخلاف المفهوم الإنساني المسموح للتعايش عند المسلمين. ومما يزيد في إيضاح هذا المفهوم أن الخطاب

الرسولي السالف الذكر يؤكد بالوضوح الكامل (أهمية تنصير العالم)، لا سيما في بلدان ما بعد الشيوعية خشية استمرارها في الإلحاد تحوّلها إلى الإسلام. ومن هنا باتت ضرورة ضرب الإسلام على أنه يمثل الملجأ الوحيد أمام الذين يكفرون بمسيحيّتهم عند اكتشافهم كل ما أجري في عقيدتهم من تحريف، ولا يمكنهم العيش في الإلحاد.

(إن التعايش بين الأديان يفقد جدواه وقيّمته، حين ينقلب إلى إصرار على استغلاله وتوجيهه الوجهة التي لا تخدم الأهداف الإنسانية التي هي موضع اتفاق الأطراف الراغبة في التعايش. إنّّه في الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات الداعية إلى التعايش بين الأديان، يُخطّط على أعلى المستويات لمحاربة الإسلام بصفة خاصة، ويتّزامن هذا التخطيط المناوئ للإسلام، مع ممارسة أرقى ضروب التسامح مع اليهود<sup>(١)</sup>).

(ففي ولاية كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية، عام ١٩٧٨م) عقد أكبر مؤتمر تنصيري نُشِرت مداولاته ومقترحاته والنتائج التي أسفر عنها في كتاب ضخّم صدرت ترجمته إلى اللغة الإسلامية في ٩٠٠ صفحة مطبوعة بالحروف الصغيرة. وقد خصّص هذا المؤتمر لبحث قضية واحدة هي أمثل الطرق لتنصير المسلمين والقضاء على دينهم. وقد جُمع لهذه الغاية ألف مليون دولار لعلّها الخطوة الأولى في تنفيذ هذا المخطط<sup>(٢)</sup>).

(١) الشيخ محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ١٣.

(٢) عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٦٨.

وبتصفح هذا الكتاب الضخم نقف على حقائق مثيرة، تؤكد جميعها أنّ طائفة من النصارى، إن أردنا الدقة في التعبير والموضوعية في البحث، لا يؤمنون بالتعايش ولا بالحوار ولا بالتعاون، وهم إذا نادوا بالتعايش أو دعوا إلى الحوار قصدوا بذلك استغلالهما لفرض الهيمنة الدينية التي لا تكاد تختلف في شيء عن الهيمنة السياسية أو الاقتصادية.

إنّ مفهوم دعوة التعايش عند الكنيسة الكاثوليكية هي في النقاط الآتية:

١- القول بحرية الدين وإنكار حد الردة في الإسلام بوصفها معارضة لحرية اختيار الإنسان للدين الذي يقتنع به، وجعل القاسم المشترك بين كل الأديان البيان العالمي لحقوق الإنسان.

٢- منع كلّ ألوان الاعتداء على الآخر وإنكار الحرب باسم الدين وتفسير الجهاد في الإسلام بأنّه للدفاع عن النفس وإنكار جهاد الطلب.

٣- منع الكراهية الدينية والدعوة للإخاء الإنساني.

٤- المطالبة بالحرية الدينية للأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية والتعامل معهم على أساس الوحدة الوطنية، وليس على أساس المعتقد الديني، واقتراح الغرب الحل العلماني بوصفه أفضل حلّ لمشكلة الأقليات، وإن كان هذا لا يراه كل من يرى الحوار بهذا المفهوم.

٥- الإقرار بالأديان السماوية جميعاً وتفسير هيمنة الإسلام عليها بأنّه (مراقب) عليها، فهو يرصد ما تتعرض له الديانات من انحراف عن الحق.

٦- الاجتماع على تقوية الصلة بالله في النفوس، لا سيما بعد طغيان المادية وتفشي قيمها المسيطرة على الشباب في العالم.

٧- البعد عن العنف والإرهاب والتطرف الديني والتكفير والتدخل في خصوصيات الآخر الدينية، إذ إنّ التعايش ظاهرة إنسانية رافقت الإنسان منذ ظهوره على الأرض فلم تكن هناك إشكاليات كبيرة بين البشر في حياتهم البدائية اعتمدوا التعاون والتكافل ليشيع السلام والأمن في ربوع الأرض.

٨- كان التعايش قائماً على أسس المحبة بين أبناء البشر دون النظر إلى الخلفيات العرقية أو اللون.

٩- بعد ظهور الأديان جاء الحثّ على السلم والتعاون التعايش المبني على أساس تقبل الآخر المختلف دينياً واليهودية والمسيحية والإسلام تلك الشرائع السماوية كان همّها خلق الوئام والمحبة بين البشر.



## الخاتمة

ومما توصلنا اليه في بحثنا المتواضع هذا إلى:

١- أنّ التعايش ظاهرة إنسانية رافقته منذ الخليقة.

أ- تدخل تحت رحمة التعايش هو التسامح.

٢- لقد وضع رسولنا الكريم محمد ﷺ صور التعايش، منها المعاهدات والهدنة التي تسكن اليها النفوس الغاضبة.

٣- الإسلام دين رحمة حتى مع خصومه.

٤- إنّ الشريعة الإسلامية التي جاء بها الرسول ﷺ لم يمنع بها من مخالطة ومعاشرة المخالفين له في العقيدة،

٥- إن اختلاف البشر والأديان واللغات والقوميات سنة كونية وظاهرة طبيعية بشرية، لا يصح أن تكون سبباً للتعدي والتخاصم، فالشريعة المحمدية ترفض العنف والشدة مع غير المسلمين.

٦- إنّ التعايش مع غير المسلمين له أصل في الكتاب والسنة النبوية الشريفة.

بهذه الروحية العالية بالتسامح والمفعمة بالعقلانية والوسطية واحتواء الآخر استطاع رسولنا الكريم محمد ﷺ أن يبلغ الإسلام الدرجة الرفيعة والمنزلة العظيمة، ولو قلبنا صفحات التاريخ العام، لم نجد فيه ما يدل على أن نبي الله محمد ﷺ قتل كتابياً، لأنّه لم يسلم، أو عذّبه أو سجنه أو منعه من التعبد على طريقته، هذه السيرة العطرة لرسول الرحمة إلى العالمين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

## المصادر والمراجع

القران الكريم

الإمام أحمد بن حنبل، (١٦٤ - ٢٤١ هـ)،

٢- مسند الإمام أحمد، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف:

د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

أحمد بن عبد الرحمن القاضي.

٣- دعوة التقريب بين الأديان.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد

الشيبياني الجزري

٤- الكامل بالتأريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب الإسلامي، بيروت

- لبنان الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ م

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي.

٥- صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١،

(دمشق، ١٤٢٢ هـ).

التوحيدي، عبد العزيز بن عثمان

٦- الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن ٢١، منشورات المنظمة الإسلامية

للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو الطبعة الثانية: ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.

الجندي، انوار.

٧- الإسلام والعالم المعاصر، دار الكتاب، ط ٢، (بيروت، ١٩٨٠ م).

جون بول الثاني (١٩٢٠ م - ٢٠٠٧).

٨- بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المنتخب عام ١٩٧٨ م.

الجوهري، اسماعيل بن حماد، (ت: ٣٩٣ هـ)

٩- الصحاح، (تاج اللغة وصحاح الإسلام)، تح: د. اميل بديع يعقوب وآخرون، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت).

ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦ هـ).

١٠- شرح نهج البلاغة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه الخطيب، عمر عودة.

١١- المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم الاجتماعية، دار العلم للملايين، ط ١، (بيروت، ١٩٨٥ م).

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان

١٢- سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥ م.

ريس هالسل.

١٣- التّبوءة والسياسة، من مقدمة المترجم محمد السماك، دار الشروق، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٩٩٨ م.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (ت: ١٢٠٥ هـ).

١٤- تاج العروس، (بيروت، د.ت).

الازهري، ابو منصور محمد بن احمد، (ت: ٣٧٠ هـ)

١٥- تهذيب اللغة، تح: د. احمد عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

د. زينب عبدالعزيز

١٦- تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م

إسماعيل صبري

١٧- حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين رؤية إسلامية للحوار، الإستراتيجية والسياسية الدولية فصل الحوار الإسلامي الأوربي، مؤسسة الأبحاث الإسلامية، بيروت، لبنان.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي.

١٨- الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٠ م.

ابن سيّد الناس، فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله اليعمري الإشبيلي، (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م).

١٩- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسّير، مط، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ).

٢٠- تفسير الجلالين، مكتبة النهضة، (بغداد، د.ت).

شاتليه، فرانسوا .:

٢١- تاريخ الأيديولوجيات

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران.

٢٢- تاريخ أصبهان، أخبار أصبهان، المحقق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

الطباطبائي، محمد حسين، (ت: ١٤٠٢هـ).

٢٣- الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، (بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

الطبري، الامام أبي جعفر بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)

٢٤- صحيح وضعيف تاريخ الطبري، حققه وخرج رواياته وعلق عليه: محمد بن طاهر البرزنجي، إشراف ومراجعة: محمد صبحي حسن حلاق [ت ١٤٣٨هـ] الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

الشيخ الطوسي، أبي جعفر،

٢٥- تهذيب الأحكام دار المعارف الإسلامية، (د.ط)، (د.ت).

العلي، الدكتور صالح أحمد العلي في كتابه

٢٦- محاضرات في تاريخ العرب، جامعة الموصل مركز دراسات الموصل، تاريخ

النشر، ٢٠١٢، دولة النشر - العراق.

د. عباس الجراري.

٢٧- الحوار من منظور إسلامي، من موقع المنظمة الإسلامية الدولية للتربية والثقافة

والعلوم.

ألعواني، د. رقية وآخرون.

٢٨- مفهوم الآخر، تحرير: أ. د منى أبو الفضل، أ.د، نادية محمود مصطفى، دار الفكر،

ط ١، (دمشق، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م).

عدنان نصر اوين.

٢٩- اليونسكو ومهمة بناء حصون السلام في عقول البشر

العلي، الدكتور صالح أحمد العلي في كتابه

٣٠- محاضرات في تاريخ العرب، جامعة الموصل مركز دراسات الموصل، تاريخ

النشر، ٢٠١٢، دولة النشر - العراق.

أبو الفرج الأصفهاني

٣١- الاغاني، دار العلم، لبنان، ١٩٩٤.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت: ١٧٠ هـ).

٣٢- كتاب العين، تح: د. عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، د.ت)، ٢/ ٢٦١.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦ هـ)

٣٣- الامامة والسياسة ، تحقيق: خليل منصور. الناشر، دار الكتب العلمية، سنة النشر، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، بيروت.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري.

٣٤- البداية والنهاية، دار الفكر، د.ط، ١٩٨٦ م.

المجلسي، الشيخ محمد باقر.

٣٥- بحار الأنوار، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت، ٢٠٠٨ م.

محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي.

٣٦- زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

السيد محمد باقر الصدر

٣٧- اقتصادنا، مؤسسة الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ.

الشيخ محمد الغزالي.

٣٨- صيحة تحذير من دعاة التنصير، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م،

ص ١٣.

- مدكور، ابراهيم، وآخرون.
- ٣٩- معجم المصطلحات، دار الفكر، ط ١، (بيروت، ٢٠٠٦م).
- المستشار منصور.
- ٤٠- الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، دار القلم، القاهرة.
- مسعود، جبران.
- ٤١- الرائد الصغير، معجم ابجدي، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٨٢م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت: ٧١١هـ / ١٣١١م).
- ٤٢- لسان المسلمون، دار صادر، ط ٣، (بيروت، ١٤١٤هـ).
- انطونيا نسايز ومارثا ميناو.
- ٤٣- تخيل التعايش معاً.
- الهادي أحمد خليفة.
- ٤٥- إشكالية التعايش بين الإسلام والغرب في عصر الهيمنة الغربية، بحث ماجستير  
مقدم لكلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم عام ٢٠٠٠م.
- الهنائي، علي بن حسن، (ت: ٣١٠هـ).
- ٤٦- المنجد في اللغة، دار المشرق، ط ٣٧، (بيروت، ١٩٨٨م).
- هيفاء أحمد السامرائي.
- ٤٧- الحوار الإسلامي الأوروبي.



ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري البصري (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م).  
٤٨- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم اليباري، مط مكتبة الكليات  
الأزهرية، (القاهرة، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

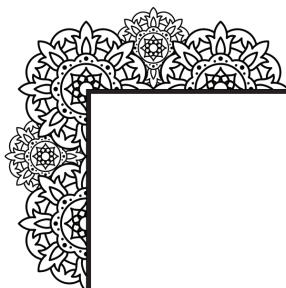
اليقوبي، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح  
٤٩ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، ١٩٩٥م.  
يوسف القرضاوي،

٥٠- فقه الدولة في الإسلام: مكانتها، معالمها، طبيعتها، موقفها من الديمقراطية  
والتعددية والمرأة وغير المسلمين»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

الانترنت

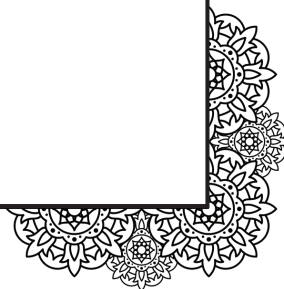
٥١- أبو زيد بن محمد مكي، مقال عن مقال الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه

www.alqlm.com



**دور السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام**  
**في التنشئة السياسية**  
**وتصحيح المسار السياسي الإسلامي**

الباحث  
م. د عبد الخالق كاظم إبراهيم



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

يمثل بناء الدولة والاهتمام بالشأن السياسي في مقدمة الأولويات التي اهتم بها الإسلام، وذلك من أجل بناء الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض. ولما كانت التنشئة السياسية تعدّ أحد الركائز المهمة لبناء الوعي الفردي والاجتماعي الذي يساعد على قيام الإنسان بدوره الأساسي في الحياة، فإنّ الأحداث السياسية الخطيرة التي أعقبت رحيل الرسول الأكرم ﷺ قد وضعت المجتمع الإسلامي أمام تحديات كبرى لم يواجهها من قبل؛ وقد ظهر الدور التصحيحي للسيدة الزهراء (عليها السلام) من أجل تعبئة الأمة وتوعيتها أمام تلك المخاطر التي انحرفت بالمسيرة الإسلامية عن جادة الصواب، ولإيضاح المنهج الإسلامي السياسي الذي بيّنه الرسول ﷺ بكلّ جلاء ووضوح. لذلك فإنّ الدراسة تسعى عبر المنهج الوصفي التحليلي إلى تتبع الدور التأسيسي للسيدة الزهراء (عليها السلام) في بناء الوعي السياسي للمجتمع المسلم المعاصر لها، وسعيها لوضع الأسس والمرتكزات للأجيال اللاحقة، وذلك من خلال تحليل المواقف والتوجيهات التي أطلقتها الزهراء (عليها السلام) لبيان معالم الأسس الإسلامية الصحيحة في المجال السياسي، بعد الانحراف السياسي الخطير. لذلك كان دورها مهماً في بيان الحقيقة وكشفها، حتى لا يكون ذلك الانحراف السياسي نسقاً ثابتاً ومستقراً في عقلية الأمة، ويكون النسق الإسلامي هو القاعدة في بناء المنظومة السياسية للمجتمعات الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: السيدة الزهراء (عليها السلام)، التنشئة السياسية، المجتمع الإسلامي، الفرد

المسلم.

## تمهيد

يقع موضوع التنشئة السياسية في مقدمة موضوعات علم الاجتماع السياسي المعاصر. وتكمن أهميته في كونه يهتم ببناء شخصية الفرد، وفي ممارسة دوره الفاعل في المنظومة الاجتماعية، والقيام بدوره المؤثر في النظام السياسي والتفاعل معه. وقد ازدادت أهميته في الواقع المعاصر باعتباره ضرورة حتمية تسعى لتحقيقها مؤسسات التنشئة السياسية لمواجهة مختلف التحديات والتصدي لها، كونه يعبر عن كيفية نقل المجتمع لثقافته السياسية من جيل إلى جيل آخر، وكيفية اكتساب الفرد الاتجاهات والمشاعر نحو النظام السياسي.

وتمتد جذور التنشئة السياسية في مختلف الحضارات القديمة، منذ عصور ما قبل التاريخ وصولاً إلى العصر الحديث، إذ «نرى الاهتمام المتزايد بموضوع التنشئة والتربية الاجتماعية السياسية في كل من حضارة وادي الرافدين، ووادي النيل، والحضارة الصينية، والحضارة الاغريقية، ومن ثم الحضارة العربية الإسلامية»<sup>(١)</sup>، وقد اعتمد الإسلام مفاهيم وقيماً جديدة، وهي مستمدة من تعاليم القرآن الكريم التي أسست نظرة جديدة للكون والحياة، تختلف عن النظرة الضيقة التي كانت تحكم تلك المجتمعات الجاهلية.

وتعدّ عملية التنشئة من العمليات الاجتماعية التي يتحدّد على إثرها مدى تكوين الأفراد الصالحين اجتماعياً، لذلك احتلّ هذا المفهوم حيزاً كبيراً في أعمال العديد من المفكرين والباحثين الاجتماعيين<sup>(٢)</sup>. وقد حظي مفهوم التنشئة السياسية بالاهتمام في عالم السياسة المعاصر؛ وذلك لدوره المحوري في استقرار الدول وبناء منظومات الحكم الرشيدة، وذلك

(١) علي عبد العزيز الياسري، التنشئة الاجتماعية السياسية: مفهومها - جذورها، مجلة دراسات دولية، العدد الرابعون: ١٥٠.

(٢) ينظر: بومشعل يوسف، دور الاعلام السياسي في التنشئة السياسية للشباب في المجتمع، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٢٢: ١٥٣.

باعتباره: «العملية التي يكتسب الفرد من خلالها معلوماته وحقائقه وقيمه ومثله السياسية، ويكون بواسطتها مواقفها واتجاهاته الفكرية أو الأيديولوجية التي تؤثر في سلوكه وممارساته اليومية، وتحدد درجة تضحيتيه وفاعليته السياسية في المجتمع، وتساعد على بقاء وديمومة واستقرار النظام السياسي، طالما تستهدف تمرير الأفكار والخبرات والأساليب السياسية التي يعتمد عليها المجتمع بين أبناء الشعب، ويحاول زرعها في نفوس الأفراد والجماعات على اختلاف خلفياتهم الاجتماعية والطبقية»<sup>(١)</sup>.

وتوجد محاولات عديدة لتعريف هذا المفهوم في ضوء النظريات المعاصرة في عالم السياسة والاجتماع، باعتباره مفهوماً يرتبط بالمجتمع في ضوء التربية والتنشئة الاجتماعية؛ ومن جهة أخرى يرتبط بالسياسة، كونه يتناول التنشئة من زاوية مؤثرة في مجريات الحياة اليومية، وهي الزاوية السياسية، وسوف نقتصر على بعض التعريفات التي تتصل بدراستنا؛ إذ يعرفها كينيث لانجتون التنشئة السياسية بأنها «الطريقة التي ينقل بها المجتمع ثقافته السياسية من جيل إلى جيل، وهذه العملية تخدم المجتمع، حيث إنها تساعد على حفظ التقاليد والتعاليم والمؤسسات السياسية لذلك المجتمع»<sup>(٢)</sup>.

ويوجد اتجاهان رئيسان في تعريف التنشئة السياسية هما:

الاتجاه الأول: وهو الأكثر انتشاراً؛ ويعرفها بأنها «عملية يتم بمقتضاها تلقين المرء مجموعة القيم والمعايير السلوكية المستقرة في ضمير المجتمع بما يضمن بقاءها واستمرارها عبر الزمن»<sup>(٣)</sup>.

(١) حسان محمد الحسن، علم الاجتماع السياسي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٣: ٢٢٥.

(٢) مولود زايد الطيب: دور التنشئة السياسية في تنمية المجتمع، المؤسسة العربية الدولية للنشر، عمان - الاردن، ط١، ٢٠٠١: ١١.

(٣) كمال المنوفي: التنشئة السياسية في الادب السياسي، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، العدد الرابع، السنة السادسة، ١٩٧٩: ٩-١٠.

والاتجاه الثاني يعرفها على أنّها: «عملية يكتسب المرء من خلالها تدريجياً هويته الشخصية التي تسمح له بالتعبير عن ذاته، ويرتبط بهذا الاتجاه النظر إلى التنشئة السياسية كوسيلة لتعديل الثقافة السياسية السائدة في المجتمع أو لخلق ثقافة جديدة تراها النخبة الحاكمة ضرورية للعبور بالمجتمع من حالة التخلف إلى التقدم<sup>(١)</sup>، ونجد هنا أنّه لم يكن التركيز على الاستمرارية والتوافق، ولكن على التغير والاختلاف؛ ومن هنا فأصحاب هذا الاتجاه يرون أنّ التنشئة تسعى إلى تعديل الثقافة السياسية السائدة في المجتمع، أو إلى خلق ثقافة سياسية جديدة ترى النخبة الحاكمة ضرورتها للانتقال بالمجتمع من التخلف إلى التطور.

وبالجمع بين الاتجاهين السابقين، نتوصل إلى تصور شامل لمفهوم التنشئة السياسية، والذي يضمّ العناصر الآتية:

١- التنشئة السياسية -ببساطة- هي عملية تلقين لقيم واتجاهات سياسية واجتماعية ذات دلالة سياسية.

٢- التنشئة هي عملية مستمرة بمعنى أنّ الإنسان يتعرض لها طيلة حياته منذ الطفولة وحتى الشيخوخة.

تلعب التنشئة السياسية ثلاثة أدوار رئيسة، وهي نقل الثقافة السياسية عبر الأجيال، خلق الثقافة السياسية، ثم تغيير الثقافة السياسية<sup>(٢)</sup>.

أما فيما يرتبط بالإسلام الذي جاء لتأسيس مفاهيم جديدة، لا سيما في عالم الحكم والسلطة، فإنّ ذلك تطلب تنشئة المجتمع سياسياً وفق تلك القيم؛ لذلك فإنّه بعد مجيء الرسالة المحمدية، شهدت الجزيرة العربية تحولاً جوهرياً في الواقع الجاهلي السائد ومتبنياته

(١) كمال المنوفي: التنشئة السياسية في الادب السياسي، مصدر سابق: ٩-١٠.

(٢) سارة دباغي: التنشئة السياسية وترسيخ ثقافة الحكم الراشد، مجلة مدارات سياسية، المجلد ٢، العدد ١٣٩، ٢٠١٨، ٧.

الفكرية، وقد أحدث عملية هدم لتلك المنظومة الجاهلية، إذ سعت إلى عملية بناء نسق جديد من القيم التي حلت محل القيم السائدة. ومن أهم الجوانب التأسيسية التي جاء بها الدين الجديد إقامة دعائم العدل بين أفراد المجتمع، وذلك يكون من خلال المرتكزات الأساسية في بناء منظومة الحكم التي تقوم بتلك المهمة. وقد وضع النبي الأكرم معالم النظام الذي ينقذ الأمة من الضلال والانحراف ومتاهات الجاهلية، إلا أن الانحراف الذي أعقب رحيله ﷺ أحدث تبعات خطيرة على المسار التاريخي الطويل، وقد حاول الإمام علي عليه السلام إرشاد الأمة وإعادتها إلى المسار الصحيح، إلا أن الجاهلية وأقطابها وقفت سدّاً منيعاً لعرقلة تلك المسيرة العلوية. ومع تلك الأحداث التي واجهها الإمام علي عليه السلام، إلا أنه بقي صابراً محتسباً وملتزماً بالوصية النبوية.

وفي ظل تلك الأحداث السياسية الخطيرة، كان لا بدّ للأمة الإسلامية في مسارها المرحلي ومسارها البعيد من تصحيح المسار الإسلامي القويم وتأصيله، والكشف عن حقيقة ما جرى من مؤامرة كبرى. وقد كان الدور الذي مارسه السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في سبيل ذلك من أهم الأدوار التي حفظت الرسالة السماوية من الانحراف على أيدي الظالمين، وذلك لأن دورها وموقفها «يرتبط ببعد عقائدي مهم وأساسي، وهو: الدفاع عن الإمامة، والإمامة قضية عقائدية مبدئية ذات علاقة بالرسالة الإسلامية وخصائصها وامتيازاتها التي تميّزت بها عن باقي الرسائل العقائدية»<sup>(١)</sup>؛ الأمر الذي جعل الزهراء عليها السلام تواجه تحديات خطيرة، تمثلت في «مشكلة تحريف الرسالة الإسلامية على مستوى التطبيق عندما أراحوا الأمر عن علي عليه السلام، وفي بداية الأمر لم تكن قضية الانحراف واضحة للمسلمين؛ ولذلك تقاعسوا بصورة عامة، وتهاونوا»<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف، ط ١، ٢٠٠٦: ٨٩.

(٢) محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٩٢.

وكان دورها السياسي يتمثل في التربية السياسية أو حسب المفهوم المعاصر ما يطلق عليه بالتنشئة السياسية التي هي مجموعة من المعارف والقيم والسلوكيات والمعايير السياسية التي يتلقن بها ويتعلمها الفرد والمجتمع، والتي تجلّت في معارضتها ومواجهتها للسلطة التي اغتصبت الخلافة، وعملت على تصحيح المسار الإسلامي بعد الانحراف الكبير الذي واجهه المجتمع الإسلامي؛ لذلك «نجد هذا النفس السياسي الرفيع والواضح في حديثها مع نساء المهاجرين والأنصار حين زيارتهن لها. فقد أوضحت لهنّ أنّ أمر الخلافة انحرّف عن مساره الشرعي بإقرار الحزب الحاكم على مسند الحكم... ولو أنّهم وضعوا الأمر حيث أمر الله ورسوله وأعطوا زمام القيادة للإمام (عليه السلام) لبلغوا رضا الله وسعادة الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>. وهذا أحد أوجه التنشئة السياسية القائمة على تصحيح الانحرافات التي أصابت الأمة الإسلامية في أهم مفاصلها المحورية المتمثلة بمنظومة القيادة والحكم. وقد حقق نتائجه على المدى البعيد من خلال اعتقاد الأمة الإسلامية وإيمانها بأنّها (عليه السلام) كانت صائبة في موقفها الذي ينطلق من محورية القرآن الكريم وسنة رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله).

حينما صادرت السلطة أموال السيدة الزهراء وجعلتها في ميزانية الدولة (بالاصطلاح الحديث)، كان من أهدافها إضعاف جانب أهل البيت (عليهم السلام)، ومحاربة الإمام علي (عليه السلام) اقتصادياً، وإبعاد المجتمع عنه. لذلك، كان من خيارات السلطة، انتزاع القوة المالية للإمام علي (عليه السلام)، ومواجهة معارضته<sup>(٢)</sup>. إذ كانت فدك ثروة طائلة وواسعة لا يصحّ التغاضي عنها، وكانت الزهراء (عليها السلام) تطالب (من وراء فدك) بالخلافة والسلطة لصاحبها الشرعي، تلك السلطة العامة والولاية الكبرى التي كانت لأبيها رسول الله، كما انتفع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأموال خديجة في سبيل تقوية الإسلام. ومن جهة أخرى قد تقتضي الحكمة أن يطالب الإنسان بحقه

(١) ينظر: اعلام الهداية، فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة النساء، دار الاميرة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥: ١٥٢.

(٢) ينظر: اعلام الهداية، فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة النساء، مصدر سابق: ١٢٧-١٢٨.



المغصوب، فإنّ الأمر لا يخلو من أحد وجهين: إمّا أن يفوز ويظفر بما يريد، وهو المطلوب، وبه يتحقق هدفه من المطالبة، أو أن لا يفوز في مطالبته ولن يظفر بالمال، فهو إذ ذاك قد أبدى ظلامته، وأعلن للناس أنه مظلوم، وأنّ أمواله غصبت منه؛ خاصة إذا كان الغاصب ممن يدعي الصلاح والفلاح، ويتظاهر بالديانة والتقوى، فإنّ المظلوم يعرفه للأجيال أنّه غير صادق في دعواه. وقد توجهت الزهراء نحو مسجد أبيها لأجل المطالبة بحقّها، واختارت المكان الأنسب، وهو المركز الإسلامي يومذاك، ومجمع المسلمين حينذاك، كما إنّها اختارت الزمان المناسب أيضاً ليكون غاصّاً بالناس من المهاجرين والأنصار، ولم تخرج لوحدها، بل خرجت في جماعة من النساء وكأثما في مسيرة نسائية<sup>(١)</sup>.

وقد تضمنت خطبها ومواقفها وسيرتها السياسية مجموعة من المفاهيم الكبرى، فقد حاولت «أن تنبه المسلمين إلى غفلتهم وسوء اختيارهم المرتجل والمتسرع وانقلابهم على أعقابهم بعد هداهم، وورودهم غير شربهم الصافي الذي كان يروي ظمأهم، وإسنادهم أمرهم إلى غير أهله، والفتنة التي سقطوا فيها، والدوافع التي دفعتهم إلى ترك كتاب الله ومخالفته فيما يحكم به في مسألة الخلافة والإمامة»<sup>(٢)</sup>. وقد تناولت الجانب السياسي وما حصل من أحداث بعد رحيل المصطفى وموقف زوجها من تلك الأحداث بعد الانقلاب الذي حصل على أحقية الإمام علي عليه السلام وتحاذل المسلمين تجاه أهل البيت عليهم السلام، وواجهت أبا بكر بالأدلة والبراهين حول إرثها في فدك، وزيّفت كلامه ومغالطاته، «ولذا نجد الزهراء عليها السلام قد التزمت الخطّ الذي يحوّل المظلومية إلى قوة وعمل ونشاط وأطروحة وهدف، وهذا ما صنعه الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام في مجمل حركتهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد كاظم القزويني، فاطمة الزهراء عليها السلام من المهدي إلى اللحد، مطبعة سيد الشهداء، قم، ١٤١٤ هـ: ٢٨٩-٢٩٢.

(٢) اعلام الهداية، فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة النساء، مصدر سابق: ١٥٢.

(٣) محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٨٨.

وفي ضوء تلك المعطيات العامة والواقع الخطير الذي واجهته السيدة الزهراء عليها السلام، والعوامل التي منعت الإمام علي عليه السلام من المواجهة المباشرة مع السلطة التي اغتصبت الخلافة، والتي كان يهدف من ورائها الحفاظ على الإسلام من الاندثار، لذا فإن دور الزهراء عليها السلام السياسي والجهادي كان فاعلاً في المواجهة على جميع المستويات؛ وذلك نابع من المكانة التي احتلتها في الواقع الإسلامي، ودورها المؤثر في الحياة الإسلامية.

## المبحث الأول دور السيدة الزهراء (عليها السلام) ومكانتها وتأثيرها في الحياة الإسلامية

جاء الإسلام لبناء نسق ثقافي جديد يقوم على القيم والمفاهيم الإلهية التي بينها الله تعالى في كتابه العزيز، وسنة رسوله الأكرم (ﷺ)، وتلك القيم الجديدة لا يمكن لها أن تقوم إلا من خلال هدم الثقافة الجاهلية وأنساقها العميقة. ولا شك أنّ الجانب السياسي من أبرز العوامل التي يمكن من خلالها ترسيخ الثقافة الإسلامية ومفاهيمها الجديدة، وبعد رحيل المصطفى (ﷺ) والانحراف الذي حصل في تلك المسيرة من خلال غلبة القيم الجاهلية وعودتها من جديد، من خلال إزاحة وإبعاد أصحابها الحقيقيين عن موقعهم في قيادة الأمة.

وقد برز الصراع بشكل علني على الساحة الإسلامية، الأمر الذي يؤكد عدم استيعاب العدد الأكبر للعقيدة الإسلامية بكلّ أبعادها وحدودها، وكان من نتائج هذا الصراع أن بدأت عملية انحراف تلك التجربة وما يترتب عليها من آثار سيئة على المسلمين إلى يومنا هذا<sup>(١)</sup>. وفي «تلك الظروف كان من المتعذر على الامام علي (عليه السلام) أن ينهض ليزيح الباطل ويكشف وجه الحقّ لقلّة الناصر والمعين وانقياد الناس لمصالحها وشهواتها، فكان أيّ تحرك منه لتعرية وفضح تلك البيعة سوف يعني، مع الإصرار، قتله وقتل مؤيديه مما يخلي الساحة أمام المنافقين والمنحرفين ليمحقوا الرسالة ويبدوا معالم الدين»<sup>(٢)</sup>.

وقد برز دور الزهراء (عليها السلام) في مختلف الأبعاد للحياة الإسلامية، وكانت مواقفها تمثل القدوة والأسوة والمثل الأعلى، «بحيث إنّ جميع النساء المجاهدات والثورات والمميزات

(١) ينظر: اعلام الهداية، فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة النساء، مصدر سابق: ١١٣.

(٢) محمد إسماعيل، الحياة السياسية والاجتماعية لفاطمة الزهراء (عليها السلام)، العتبة الحسينية المقدسة، ط ١،

والسياسيات في العالم يمكنهنَّ أن يأخذن الدروس والعبر من حياتها القصيرة المليئة بالمحتوى والمضمون»<sup>(١)</sup>. والأمر لا يقتصر على النساء فقط، وإنَّما يشمل جميع أفراد البشرية. وقد تجلَّى دورها عليها السلام باعتبارها القدوة القيادية في الجانب السياسي، وذلك من خلال دورها الفاعل في تنشئة المجتمع وتربيته في الأبعاد السياسية والفكرية. وكانت مواقفها عليها السلام في مقدمة المواقف التي حافظت على الخطَّ المحمدي الأصيل في أبعاده ومساراته المختلفة، ولا سيما في البعد السياسي المعارض. فالزهراء عليها السلام كان موقفها هو التظلم لعلِّي عليها السلام ولنفسها، وعملت على كشف الحقيقة، وتسجيل رفضها للأوضاع السياسية الجديدة، وهو الموقف المنسجم مع موقف الإمام علي عليه السلام في أحقيته بالخلافة<sup>(٢)</sup>. ولذلك فإنَّ «همومها ليست هموماً ذاتية، وإنَّما همَّ إسلامي عظيم؛ ولذا احساسها عليها السلام وشعورها بالمسؤولية ليس كغيرها، وعندما رأت بأمِّ عينها أنَّ المسيرة الإلهية اتجهت اتجاهًا آخر، أحسَّت بالخسارة العظيمة التي نزلت بالمسلمين»<sup>(٣)</sup>.

وكان وقوفها الشامخ بوجه ذلك الانحراف، يحمل أبعاداً ذات دلالات عميقة، وهو موقف تأصيلي في سبيل الحفاظ على القيم والمفاهيم الإسلامية، وتصحيح مسارها، لأجل بناء منظومة الأمة الإسلامية في ضوء خطِّ الرسالة، بعد أن كشفت بجلاء ووضوح مواطن الانحراف، وطالبت بقوة وصلابة إعادة الحقِّ في قيادة الأمة الإسلامية إلى أهل البيت عليهم السلام. لذلك لم تكتفِ عليها السلام «بإعلان المواقف السياسية تجاه الأحداث التي عصفت بالأمة في ذلك الوقت دون أن تتحرك عملياً وعلى الأرض في سبيل ترجمة هذه المواقف إلى أفعال، فأشارت إلى الناس بوجوب تغيير هذا الواقع، وتحركت على أساس ضرورة تشكيل خطِّ معارض

(١) مركز المعارف للتأليف والتحقيق، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، دار المعارف الإسلامية الثقافية، ط ٣، ١٤٩٠: ٢٠٢٠.

(٢) محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ١٢٢.

(٣) المصدر السابق: ٨٧.

للنهج السائد في ذلك الحين، وذلك عبر الخطب والجلسات الخاصة والزيارات التي قامت بها<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من الإصرار على مخالفة التوجيهات الإلهية التي بلغها الرسول ﷺ إلى أمته، واستمرار الانحراف في تلك النفوس التي استحكمت فيها ثقافة الجاهلية، إلا أن ذلك الخطّ القويم المتمثل بالإمامة الذي وقفت الزهراء تدافع عنه، أخذ يتنامى ويشتدّ عوده متمثلاً بخط التشيع ومدرسة أتباع أهل البيت (عليهم السلام) التي تمسكت بذلك المفهوم الإسلامي. وقد أدّت مواقف الزهراء (عليها السلام) دوراً تأصيلياً في تصحيح مسار الأمة وإعادة تأهيلها إلى جادة الصواب. ولم يتوقف أثر تلك المواقف عند المرحلة التي عاصرتها، وإنما امتدّ تأثيرها في الأجيال اللاحقة من خلال دورها الكبير في التربية السياسية وتنشئة الأجيال الإسلامية والموازية لآل البيت (عليهم السلام) تنشئة سياسية قائمة على أساس قاعدة الإمامة، وعلى ضوء المفاهيم الإسلامية في مجال بناء الدولة.

لذا فإن مطالبتها (عليها السلام) بفدك، وإن أشارت بظاهرها إلى المسألة المادية، لكنها ترمز في الباطن والجوهر إلى قضية مصيرية وحساسة في حياة المسلمين، ألا وهي إرجاع المسلمين إلى جادة الطريق الصحيح من خلال القيادة الشرعية الصحيحة. فالمسألة ليست مادية، بل هي سياسية في الصميم، ومن هنا كانت خطورة دورها (عليها السلام) حين أحس الحكام، في ذلك الوقت، بخطورة هذه المطالبة وخطورة هذا الدور<sup>(٢)</sup>.

ويمكن تلمس دورها في مجال الحياة العامة، أو الحياة السياسية من خلال بعض كلماتها ومواقفها بعد وفاة النبي ﷺ، لا سيما في قضيتين أساسيتين جعلتها على غير المؤلف من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة، وهما: الخلافة والميراث، «لأنّ كلتا

(١) محمد إسماعيل، الحياة السياسية والاجتماعية لفاطمة الزهراء (عليها السلام)، مصدر سابق: ٦٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٥٠.

المسألتين تدور حول حقّها ووشيجة قرباها، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ﷺ، ومسألة الميراث من فيئه، وإحداهما مما نسميه في لغة عصرنا بالسياسة العليا، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية؛ ولكلّ منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوها.<sup>(١)</sup>

وقد سبق ذلك الانحراف ومحاولة إقصاء الإمام علي عليه السلام من منصبه مجموعة من المؤشرات التي تؤكد أنّه لم يكن حدثاً طارئاً، وإنّما له جذور في مسيرة الأوضاع السياسية التي كان يعيشها المسلمون في عهد النبي ﷺ. ومن جملة المؤشرات: الموقف من بيعة الغدير، وتحلّف القوم وإصرارهم على عدم الالتحاق بجيش أسامة، وموضوع الدواة والقلم، وغيرها. وقد بذل رسول الله ﷺ قبل وفاته جهداً كبيراً واستخدم كلّ الوسائل الممكنة والمتيسرة من أجل تنصيب الإمام علي خليفة في الواقع الخارجي، وعدم الاكتفاء بتنصيبه من جهة الحكم التشريعي وإبلاغ المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وبعد ان اجتمع القوم في سقيفة بني ساعدة، واتّخذوا القرار في أن يكون الخليفة بعد رسول الله ﷺ شخصاً آخر، وجعلوا علياً عليه السلام أمام الأمر الواقع، كان أمام أهل البيت عليه السلام عدة خيارات:

الخيار الأول: الدخول في صراع مسلح مع الجماعة التي تسلّمت الحكم بطريقة استخدام القوة والعنف...

الخيار الثاني: التسليم بالأمر الواقع...

الخيار الثالث: المقاومة السلمية؛ وهو الذي اختارته الزهراء عليها السلام، ولا شك أنّه كان بموافقة الإمام علي عليه السلام، وبالتعاون معه، فاختارت هذا الطريق وتحملت مسؤوليته

(١) عباس محمود العقاد، فاطمة الزهراء والفاطميون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة: ٤٨.

(٢) ينظر: محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٦٢-٦٥.

وخطّطت له، ولم يكن أمام الإمام علي عليه السلام إلا هذا الخيار، وهو المقاومة، وتثبيت هذه القضية أمام المسلمين حقاً يبقى قائماً بين الناس إلى أن يظهر ذلك الإنسان العظيم، الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى ليملاً الأرض قسطاً وعدلاً<sup>(١)</sup>.

إنّ الحقّ الذي وقفت فاطمة الزهراء عليها السلام تدافع عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كان الدور الرئيس في إثباته وبقائه هو موقفها عليها السلام، حيث لم يكن لأي شخص في ذلك الوقت وتلك الظروف السياسية القائمة أن يقف هذا الموقف، وقد خاضت المعركة لإثبات الحقّ وبيانه، ابتداء من موقفها وراء الباب، ومنع القوم من دخول البيت، ثم بعد تحمّلها كلّ المصائب والآلام والمحن، وإصرارها على مواصلة هذا الطريق للدفاع عن علي عليه السلام والمحافظة عليه، وصولاً إلى قضية وفاتها ودفنها وإخفاء قبرها، كلّ هذه الأمور عندما تجتمع تشكّل قضية واضحة أريد منها إثبات الحقّ، وبيان الحقيقة للتاريخ الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

ولا شكّ أنّ دورها السياسي والجهادي في معارضة ومواجهة السلطة التي اغتصبت حقّ أمير المؤمنين عليه السلام، قد أسهم بشكل فاعل في التنشئة السياسية معتمدة في ذلك النهج الذي اختطّه رسول الله صلى الله عليه وآله وجاهدت لأجل تبيانه وإظهار بطلان دعوى القوم في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله من خلال الأدلّة القرآنية والشواهد التاريخية، وهي بذلك قامت بدور فاعل لأجل تصحيح الثقافة السياسية التي انحرفت عن مسارها، وعملت على الترسّخ والخلق لثقافة معاكسة لتلك التي عملت السلطة على إقناع المجتمع بها، وتضليل الرأي العام وخداعه. وقد استطاعت بذلك أن تبرهن على أن المسار الديني لا يمكن عزله عن المسار السياسي في ضوء المنهج الإسلامي، وأسهمت في بناء الجماعة الصالحة وتربيتها، وعملت على توعية الأمة بالنهج الإسلامي القويم، وتحريك طاقاتها باتجاه تصعيد الوعي الرسالي لدى أفراد

(١) ينظر: المصدر السابق: ٧٢-٧٣-٨٢.

(٢) ينظر: محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٨٥-٨٦.

المجتمع. وقد أنتجت تلك الحركة المباركة أجيالاً من المسلمين الذين تمسكوا بالسير على نهج الرسول ﷺ. وبذلك بقي خط الإسلام السياسي المتمثل بنهج الإمامة وأحقية أهل البيت (عليهم السلام) بخلافة رسول الله ﷺ خطأً لم تضعفه وتضعضه سياسات التهيب والترغيب على مرّ الأزمان، وتمكن من مواجهة السلطات الظالمة وتحديها أينما حلّ ذلك النور الإلهي المتمثل بعقيدة الإمامة، وقيادة الهداة الذين اختارهم الله تعالى لتولي مسؤولية هداية العباد. ومن هنا يمكن أن نفهم أنّ الغرض من المطالبة بفدك، وكذلك يمكن أن نفهم سبب حرمانها (عليها السلام) منها، والذي يتلخص بأمرين هما:

أولاً: إنّ فدكاً كانت تمثل قدرة وقوة مالية مهمة.

ثانياً: إنّها تثبت لهذه الأسرة، وهذا البيت الكريم، حقاً يختلف عن حقوق الآخرين، فأراد القوم أن ينسخوا هذا الحقّ، كما نسخوه في الخمس<sup>(١)</sup>.

ولم تقتصر الزهراء (عليها السلام) على تثقيف الأفراد، بل إنّها انصرفت إلى توعية الجماهير عندما تطلبت الرسالة المحمدية ذلك، والشاهد على ذلك خطبتها في مسجد رسول الله ﷺ أمام حشد من المهاجرين والأنصار، وفيها دعوة إلى مقاومة الظلم والاستبداد والتمسك بتعاليم الله وتعاليم رسوله، فكانت خطبتها سياسية اجتماعية وعقائدية؛ بمعنى آخر، كانت خطبة شاملة عامة أحاطت بكلّ متطلبات الظروف التي كانت تمرّ بها الأمة الإسلامية حينذاك، بالإضافة إلى مواقفها القيادية الأخرى في تثقيف الأمة ونشر الوعي بين أفرادها، حين كانت تدور على بيوت المهاجرين والأنصار في محاولة هزّ ضباطهم ليتحركوا في الوقوف بجانب الحق ونصرة الدين.

(١) المصدر السابق: ١٠٨.



وهكذا جسدت الزهراء (عليها السلام) دور المرأة القيادية المسؤولة عن تبليغ الرسالة الإلهية للناس أجمع، والمستعدة دائماً لمواجهة كل الظروف وتحمل كل المسؤوليات التي يتطلبها المجتمع الإسلامي؛ وذلك في سبيل تصحيح بعض المفاهيم التي تحفظ سلامة النمو السوي لكيان العقيدة الإسلامية واستمراره، وتجديد قدرتها الفاعلة في المجتمع، لا سيما في الموقف السياسي الصعب الذي واجهته بكل قوة، بعد رحيل المصطفى (عليه السلام)، وبالرغم من أنها (عليها السلام) فارقت الحياة في عمر قصير، لكنّها باقية إلى ما شاء الله مدرسة للأجيال، ومشعل نور يكشف عن الزيف والاستبداد، ويقارع الطغاة الظالمين، ويقف بوجه كل من يريد طمس معالم هذا الدين الحنيف.<sup>(١)</sup>

وقد استخدمت السيدة الزهراء (عليها السلام) عدّة أساليب في مواجهة الانحراف السياسي الخطير الذي حلّ بالمجتمع الإسلامي، وساهمت بشكل فاعل في تصحيح المسار السياسي الإسلامي، وأظهرت للمجتمع المعاصر لها، وللأجيال التي تأتي بعدها، أحقية أهل البيت (عليهم السلام) بقيادة المجتمع الإسلامي، وأنهم الهداة الذين اختارهم الله (جلّ جلاله) على لسان رسوله المصطفى (عليه السلام)، إلا أنّ الأمة خالفت ذلك وانحرفت عن الطريق القويم، وهي بذلك قامت بدورها الفاعل في تربية المجتمع سياسياً، وتنشئته في ضوء القيم والمفاهيم الإسلامية.

(١) محمد حبيب الحكيم، مركز الدراسات الفاطمية، فاطمة الزهراء (عليها السلام) المرأة القيادية أهل البيت (عليهم السلام) - النموذج - القدوة - المجتمع (alfatimi-basra.com)

## المبحث الثاني

### أساليب السيدة الزهراء عليها السلام وأثرها في تصحيح المسار السياسي والتنشئة السياسية الإسلامية

اتخذت السيدة الزهراء أساليب متعددة في سعيها لتصحيح المسار السياسي بعدما انحرف عن الاتجاه الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد تطلب هذا الأمر مواجهة تحديات كبرى ترتبط بعالم السياسة؛ تلك التحديات التي أجبرت الإمام علي عليه السلام أن يلتزم الوصية ويكون جليس بيته حفاظاً على الرسالة الإسلامية من الاندثار. وقد اثمرت جهودها في كشف المؤامرة والانحراف ومخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك تمكنت من تنشئة جيل يؤمن إيماناً مطلقاً بالمسار الإسلامي الصحيح في قضية الخلافة. لذا نجد «أن الحركة التصحيحية التي قام بها الإمام علي والزهراء عليهما السلام لإعادة الخلافة الإسلامية عن جادة الانحراف اكتسبت ألواناً وصيغاً متعددة؛ وتزعمت الزهراء الجبهة السياسية العلنية، وتنوّعت أساليب المطالبة بحق خلافة الإمام علي عليه السلام، ومنها المطالبة بفدك، وحتى هذه المطالبة تلوّنت بعدة ألوان»<sup>(١)</sup>.

وكانت تلك الأساليب تهدف إلى إيصال رسالة أبعد من القضية المادية المتمثلة بفدك، «وكان الدور الفاطمي يتلخص في أن تطالب الصديقة الزهراء عليها السلام أبا بكر بما انتزعه منها من أموال، وتجعل هذه المطالبة وسيلة للمناقشة في المسألة الأساسية وهي مسألة الخلافة، وإفهام الناس بأن اللحظة التي عدلوا فيها عن علي عليه السلام إلى أبي بكر لحظة هوس وشذوذ، وأنهم بذلك أخطأوا وخالفوا كتاب ربهم ووردوا غير شرهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: أعلام الهداية، فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة النساء، مصدر سابق: ١٥١.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٥٥.

وقد اتخذت الزهراء (عليها السلام) طريقين لمواجهة الانحراف، في مسعى منها لتصحيح المسار الإسلامي، ولأجل البناء السليم لمفهوم الخلافة في الفكر الإسلامي، وذلك من خلال طريقين:

الأسلوب الأول: المواجهة المباشرة العلنية في بداية انقلاب السقيفة وأحداثها، وقد استمرت بجهداها ومعارضتها للسلطة الحاكمة من خلال مواقفها السياسية المباشرة مع الأحداث المعاصرة لها مع تلك السلطة. وقد تجلّى ذلك في خطبها ومواقفها وكلماتها في الشأن السياسي، وسعيها الدؤوب لترسيخ المفهوم الصحيح في ثقافة الأمة ووعيها، «وبقيت على ذلك إلى شهادتها (عليها السلام) والتحاقها بالرفيق الأعلى، لتبعث برسالة إلى الأمة الإسلامية، ولتوجه صفعة مؤلمة لنظام الحكم المستبد، ولتعطينا درساً، بل هو درس للأجيال»<sup>(١)</sup>.

وقد تمكنت (عليها السلام) من النجاح في إظهار الحقّ أمام الملاء بعد أن حاولت السلطة الحاكمة تضليل المسلمين. ولم يتوقف ذلك النجاح في مسار حياتها الذي عاصرت به تلك الحكومات، وإنما امتدّ تأثيره تاريخياً على طول التاريخ الإسلامي، حتى أنّه استغلّ في كثير من الأحيان للوصول إلى الحكم والسلطة، بعد أن أعطت مواقفها صورة ناصعة وبراهين واضحة عن الانحراف الذي وقعت به الأمة الإسلامية، كما فعلت الدولة العباسية عندما طلبت الرضا لآل محمد بهدف الوصول إلى السلطة والحكم، إلّا أنّ المسار الناصع والواضح الذي بيّنته الزهراء (عليها السلام) اختطّ طريقه بقوة وصلابة، وبقي صامداً في مواجهة جبروت الحكومات الطاغوتية المتجبرة على مرّ الأزمان.

وقد كانت تلك المقاومة في الواقع الإسلامي بهذا الحجم، لأنّ الأمة شعرت بالجريمة الكبرى التي ارتكبت بحقّ الإسلام والمسلمين، وبحقّ آل البيت (عليهم السلام)، إذ «تمكنت

(١) ليث عبد الحسين العتاي، المعارضة والإصلاح في فكر فاطمة الزهراء، مركز الفكر الإسلامي المعاصر، النجف الأشرف: ٥٦١.

الزهراء (عليها السلام) - بالرغم من حجم ألها - أن تحرك كل هذه المظلومية باتجاه الحق، وتحول قضية الإرث إلى فكرة ومنطق وخطّ وأساس في كل مجرى التاريخ، وثبتت قضيتها فكرياً ومنطقياً وتاريخياً.... وهذا ما حصل؛ فقد بقيت معركة فذك حتى يومنا هذا، بحيث أصبحت شعاراً من شعارات أتباع أهل البيت (عليهم السلام)<sup>(١)</sup>. ويمثل موقف الزهراء (عليها السلام) القاعدة التي رسخت قضية الإمامة في نفوس المجتمع الإسلامي، وجعلت الأجيال تنشأ النشأة السياسية السليمة التي تعتمد ذلك الأصل المحوري في الإسلام.

لذلك فإنّ البصمات الكبرى التي وضعتها الزهراء (عليها السلام) في المسار الإسلامي تمكّنت من خلال حركتها إثبات هذه الحقيقة في تاريخنا الإسلامي، ولولا موقفها لكان من الممكن أن تزور وتشوّه هذه الحقيقة، بحيث تصبح مجهولة ومغيبة عن الواقع الإسلامي، ولولا موقفها التضحي الذي أدّى إلى استشهاده، لكان من الممكن أن يذهب هذا الحقّ مع التاريخ، لكنّ ثبات الحقّ وبقاء واستمراره إلى يومنا الحاضر كان بفضل موقفها (عليها السلام)<sup>(٢)</sup>.

وقد استطاعت (عليها السلام) القيام بهذه المهمة الجبارة، لأنّها كشفت الحقائق الناصعة، وقامت بفضح أخطر الحلقات والأدوار؛ وذلك لأنّ حكومة الأوائل هي التي مهّدت الطريق لجميع جرائم الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن جاء بعدهم، فإنّ الانحراف بدأ منذ ذلك الحين، كما إنّ تمكين الأمويين بدأ من تلك المرحلة أيضاً<sup>(٣)</sup>. وبقيت تبعات ذلك الانحراف الخطير تدفع ثمنه الأجيال المتعاقبة.

وقد تضمّن كلام السيدة الزهراء (عليها السلام) في خطبها مجموعة من الأبعاد المهمة، ومن بينها الأبعاد السياسية التي كشفت بوضوح عن موقفها الرافض للانحراف السياسي الذي

(١) محمد باقر الحكيم، الزهراء (عليها السلام) أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ١٠٨.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٩٤.

(٣) ينظر: محمد رضا الشيرازي، فاطمة (عليها السلام) المثل الأعلى، قم المقدسة، إيران، ط ١، ١٤٣٠: ٣٢-٣٣.

حصل بعد رحيل رسول الله ﷺ، وكانت كلماتها شاهد حيٍّ ومستمرٍّ على موقفها السياسي الرافض لتلك الجماعة المنحرفة، لتكون صرخة مدوية عبر الأجيال تدفع الأحرار للتساؤل الدائم عن تفاصيل تلك الأحداث، وقد أسست تلك المواقف السياسية مبدأ المعارضة السلمية<sup>(١)</sup>.

ومن العبارات التي يتجلى من خلالها موقفها الواضح في عدم شرعية ذلك النظام الذي اغتصب الخلافة، وانحرف بالمسار السياسي، قولها ﷺ في وصيتها للإمام علي عليه السلام: (أوصيك أن لا يشهد أحد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني، فإنهم عدوي وعدو رسول الله، ولا تترك أن يصلي عليّ أحد منهم ولا من أتباعهم، وادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار)<sup>(٢)</sup>. ثم قالت ﷺ: (يا ابن العم، إذا قضيت نحبي فاغسلني ولا تكشف عني، فإني طاهرة مطهرة، وحنطني بفاضل حنوط أبي رسول الله ﷺ، وصلّ عليّ، وليصل معك الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، وادفني ليلاً لا نهاراً، وسراً لا جهاراً، وعفّ موضع قبري، ولا تشهد جنازتي أحداً ممن ظلمني)<sup>(٣)</sup>.

وعند الوقوف مع مضامين ودلالات تلك الوصية، نجد الكثير من الأبعاد الأساسية المهمة، أبرزها:

١- أن في الحضور والمشاركة في تشييع السيدة فاطمة عليها السلام كثيراً من الآثار الدينية والدينية؛ لذا أوصت أمير المؤمنين عليه السلام بمنع حضور من ظلمها.

٢- أن في منع حضور التشييع ممن ظلم السيدة فاطمة عليها السلام رسالة واضحة في عدم رضاها عنهم إلى آخر حياتها المقدسة.

(١) ثائر العقيلي، مركز الدراسات الفاطمية، المواقف الجهادية والسياسية في سيرة السيدة الزهراء عليها السلام (alfatimi-basra.com)

(٢) أعلام الهداية، فاطمة الزهراء عليها السلام، سيدة النساء، مصدر سابق: ١٨٤.

(٣) المصدر السابق: ١٨٤.

٣- أن السيدة فاطمة عليها السلام في وصيتها تستشرف المستقبل الذي سوف يعمد إلى وضع الروايات التي تنصّ على رضاها عليها السلام عمن ظلمها.

٤- أنها عليها السلام أسست لمبدأ الموت من أجل الدفاع عن القضية فكانت عليها السلام، أول امرأة في عالم الإسلام ضحّت من أجل الدفاع عن ولاية أمير المؤمنين<sup>(١)</sup>.

وكذلك نجد في خطبتها عليها السلام في مسجد رسول الله ﷺ قولها بعد أن التفتت إلى أهل المجلس: (فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ وَمَأْوَى أَصْفِيَائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسِيكَةَ النِّفَاقِ وَسَمَلَ جِلْبَابِ الدِّينِ، وَنَطَقَ كَاطِمُ الْغَاوِينَ، وَبَغَّ خَامِلُ الْأَقْلَيْنِ، وَهَدَرَ فَيْقُ الْمُبْطِلِينَ.... ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفَافًا، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غَضَابًا، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ، وَأُورِدْتُمْ غَيْرَ شَرِبِكُمْ، هَذَا وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلُ، وَالرُّسُولُ لَمَّا يُقْبَرُ، ابْتِدَارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، -أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ-. وهي تشير بشكل واضح إلى الانقلاب الذي حصل بعد رحيل الرسول ﷺ، وكانت نتيجةه انتخاب من ليس أهلاً للانتخاب، وإعطاء مقاليد الأمور إلى غير أهلها، وتحويل القيادة إلى غير أكفائها، وصرف الخلافة عن أهلها وأصحابها الشرعيين، وكلّ هذا التغيير حصل والحال أن العهد قريب، ولم يمض زمن بعيد عن أيام رسول الله ﷺ إذ من الممكن أن الدين يتغير، أو المسلمون ينسون الأوامر والتعليمات بسبب مرور الزمان<sup>(٢)</sup>.

وكذلك قولها عليها السلام للأَنْصَارِ: (وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ)، وهنا تشير إلى أبعادهم الإمام علي عليه السلام الذي هو أحق وأولى بولاية الأمور والتصرف في قضايا الإسلام من غيره، وتعلّل بعد ذلك الأسباب التي دعته لمخاطبتهم: (أَلَا وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخُدَلَةِ الَّتِي خَامَرْتُكُمْ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشَعَرْتُهَا قُلُوبُكُمْ، وَلَكِنَّهَا فَيْضَةُ النَّفْسِ،

(١) مركز الدراسات الفاطمية، المواقف الجهادية والسياسية في سيرة السيدة الزهراء عليها السلام، مصدر سابق.

(٢) ينظر: محمد كاظم القزويني، فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، مصدر سابق: ٣٦٣.

وَنَفْثَةُ الْعَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنَا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ)، مؤكدة أن الدافع لم يكن الطمع في نصرتهم، ولا رجاء حمايتهم، وإنما في سبيل تقديمها الحجة والدليل والبرهان فلم تجد مجيئاً ولا معيئاً<sup>(١)</sup>. ثم قالت: (فَدُونُكُمْوَهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبْرَةَ الظَّهْرِ، نَقَبَةَ الْخُفِّ، بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةَ بَغْضَبِ اللَّهِ وَشَنَارِ الْأَبَدِ)، أي خذوا السلطة وشدوا عليها حقائبكم، وكأنتها ناقة مجروحة الظهر، رقيقة الخف، ودائمة الخزي في الدنيا على مر التاريخ، وفي الآخرة إلى الأبد<sup>(٢)</sup>.

الأسلوب الثاني: أسلوب الصمت والمقاطعة التامة، عندما قررت آخر حياتها اختيار أسلوب الصمت والاعتصام عن الكلام مع السلطة الحاكمة، لتعطي بذلك درساً للأجيال اللاحقة، بأنّها غاضبة وغير راضية عن ذلك المسار السياسي المنحرف عن النهج الإسلامي القويم. وقد ظهر تأثير موقفها على الفكر السياسي الإسلامي باعتباره الموقف الذي أصّل وأوضح وصحح الانحراف، ووضع الأمة على جادة الطريق الصحيح، باعتبار موقفها صورة مطابقة لنوع النظام السياسي الذي وضعه رسول الله ﷺ في قضية الإمامة ومحوريتها في الإسلام، مما انعكس على المسار الإسلامي في أماكن متعددة. لذلك «وجدنا أن المسلمين في كل مكان من العالم الإسلامي، من الكوفة والحجاز ومصر واليمن وغيرها، يتحركون إلى المدينة ليصححوا هذا الانحراف، لأنّه أصبح واضحاً جداً»<sup>(٣)</sup>، ولم يتوقف الأمر عند كشف النقاب عن الحقيقة والانحراف الذي أصاب الأمة الإسلامية بعد رحيل المصطفى ﷺ، وإنما «تمكنت الزهراء (عليها السلام) من غرس روح المقاومة في نفوس المسلمين، وإيجادها عندهم، وقد رعاها بعد ذلك الإمام علي والأئمة (عليهم السلام) من بعده، إذن فالزهراء (عليها السلام) كان لها هذا الفضل على المسلمين قاطبة»<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: المصدر السابق ٣٩٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٣٩٤-٣٩٥.

(٣) محمد باقر الحكيم، الزهراء (عليها السلام) أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٩٣.

(٤) محمد باقر الحكيم، الزهراء (عليها السلام) أهداف.. مواقف.. نتائج، مصدر سابق: ٩٥.

ونظراً لما تتمتع به السيدة الزهراء عليها السلام من منزلة كبيرة في نفوس المسلمين، تلك المنزلة التي بينها وأوضحها رسول الله ﷺ في مواطن ومواقف كثيرة في حياته، فإن أسلوبها الذي اعتمدته قبل وفاتها عليها السلام، والمتمثل في الاعتزال والصمت والمقاطعة في المواجهة مع السلطة، قد حقق نتائج كبيرة من خلال بحث المسلمين عن أسباب تلك المقاطعة الحادة، وعدم رضاها، وسخطها على تلك الحكومة، الأمر الذي يكشف عن قضية خطيرة وجوهرية تتمثل في كون سخطها وعدم رضاها هو عدم رضا الرسول ﷺ وسخطه على أولئك الذين أبعادوا الحق عن أصحابه الشرعيين. لذلك فقد أنتج ذلك الاستياء والنقمة على «الذين آزرُوا الحزب الحاكم بسكوتهم وصمتهم، وتناسوا كلَّ النصوص التي نزلت في آل الرسول، وأعرضوا عن كلِّ حديث سمعوه من شفّتي الرسول ﷺ في حقّ الزهراء وزوجها ولديها عليهم السلام». وأخيراً تولّد شيء من الوعي عند الناس، وعرفوا أنّهم مخطئون في دعم السلطة الحاكمة التي لم تعترف بشرعية الزعامة لآل رسول الله ﷺ ولا تعير للحقّ اهتماماً ولا للمنطق موقعاً سوى القوى وحدّ السيف»<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: اعلام الهداية، فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة النساء، مصدر سابق: ١٧٤.



## الخاتمة

بعد رحيل المصطفى ﷺ وانحراف المسار الإسلامي عن طريقه القويم، انبرت الزهراء ﷺ إلى مواجهة تلك التحديات الخطيرة، وكان لها دور سياسي كبير في الوقوف لتصحيح المسار الإسلامي في ضوء المفاهيم الإسلامية. لقد كانت قضية الانحراف في مسألة الخلافة من أهم القضايا التي أعاقت مسيرة الأمة بالاتجاه الصحيح، لذلك تجلّى دور الزهراء ﷺ في مسارين أساسيين هما: مسار المواجهة المباشرة مع السلطة الحاكمة، وقد مثّل ذلك تحدياً كبيراً لتلك السلطة، وحاولوا إسكات صوت الحقّ بشتّى الوسائل والطرق، حتّى وصل الأمر إلى الاعتداء العلني السافر على بيت الزهراء ﷺ. أما المسار الثاني فهو المسار الذي اتخذ من الصمت والمقاطعة والبكاء وسيلة لإظهار الغضب وعدم الرضا، حتى وصل الأمر أنّها ﷺ أوصت بإخفاء قبرها وعدم السماح لأعدائها أو ممن وقف معهم بحضور جنازتها؛ وفي ذلك دلالات كبرى ورسالة عظيمة أرادت إيصالها إلى المسلمين على مرّ العصور.

وبذلك يمكن القول أنّ دورها السياسي يكشف عن بعدين:

١- البعد المرحلي في مواجهة السلطة التي اغتصبت الخلافة، وكان دورها في ذلك ظاهراً من خلال المسار الأول في المواجهة العلنية المباشرة ومواجهتها لهم بالأدلة القاطعة التي لا تقبل الشكّ والجدل.

٢- البعد الاستراتيجي في مواجهة السلطة وكشف أقنعتها وأكاذيبها أمام الأجيال اللاحقة من خلال المسار الثاني الذي استعملت فيه المقاطعة والصمت وعدم الكلام مع تلك السلطة، حتى وصل الأمر إلى أنّها أوصت بإخفاء قبرها؛ ليبقى سؤالاً كبيراً أمام المسلمين وحجة عليهم.

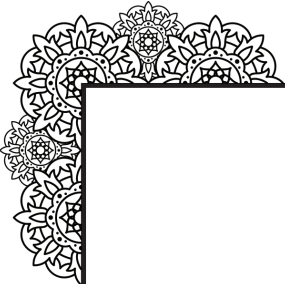
لقد عملت الزهراء عليها السلام جاهدة على تربية المجتمع الإسلامي المعاصر لها، وكذلك الأجيال المسلمة التي تأتي بعدها، في إيصال رسالتها وتنشئة الأجيال وتوعيتهم في المجال السياسي على ضوء المفاهيم الإسلامية الحقيقية التي عمل لأجلها الرسول الأكرم عليه السلام. وقد انتجت حركتها، وأثمر جهادها في صناعة أجيال من المسلمين وتنشئتها ممن تمسكوا بأحقية أهل البيت عليهم السلام في الخلافة وفي قيادة المجتمع الإسلامي.

## مصادر الدراسة ومراجعها

١. أعلام الهداية، فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة النساء، دار الأميرة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥.
٢. بومشعل يوسف، دور الإعلام السياسي في التنشئة السياسية للشباب في المجتمع، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٢٢.
٣. حسان محمد الحسن، علم الاجتماع السياسي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٣.
٤. سارة دباغي: التنشئة السياسية وترسيخ ثقافة الحكم الراشد، مجلة مدارات سياسية، المجلد ٢، العدد ٧، ٢٠١٨.
٥. عباس محمود العقاد، فاطمة الزهراء والفاطميون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
٦. علي عبد العزيز الياسري، التنشئة الاجتماعية السياسية: مفهومها - جذورها، مجلة دراسات دولية، العدد الأربعون.
٧. كمال المنوفي: التنشئة السياسية في الأدب السياسي، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، العدد الرابع، السنة السادسة، ١٩٧٩.
٨. ليث عبد الحسين العتابي، المعارضة والإصلاح في فكر فاطمة الزهراء، مركز الفكر الإسلامي المعاصر، النجف الأشرف.
٩. محمد إسماعيل، الحياة السياسية والاجتماعية لفاطمة الزهراء عليها السلام، العتبة الحسينية المقدسة، ط ١، ٢٠١٧.
١٠. محمد باقر الحكيم، الزهراء عليها السلام أهداف.. مواقف.. نتائج، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف، ط ١، ٢٠٠٦.

١١. محمد رضا الشيرازي، فاطمة عليها السلام المثل الأعلى، قم المقدسة، إيران، ط ١، ١٤٣٠.
١٢. محمد كاظم القزويني، فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، مطبعة سيد الشهداء، قم، ١٤١٤هـ.
١٣. مركز المعارف للتأليف والتحقيق، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، دار المعارف الإسلامية الثقافية، ط ٣، ٢٠٢٠.
١٤. مولود زايد الطيب: دور التنشئة السياسية في تنمية المجتمع، المؤسسة العربية الدولية للنشر، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠١.
١٥. ثائر العقيلي، المواقف الجهادية والسياسية في سيرة السيدة الزهراء عليها السلام، مركز الدراسات الفاطمية، (alfatimi-basra.com).
١٦. محمد حبيب الحكيم، فاطمة الزهراء عليها السلام المرأة القيادية أهل البيت عليهم السلام - النموذج - القدوة - المجتمع، مركز الدراسات الفاطمية (alfatimi-basra.com).





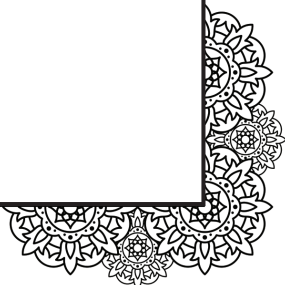
# التحديات والآفات السياسية للحكومة

من منظور الإمام علي عليه السلام

الباحث

السيد د. عبدالكريم حسن پور

الجمهورية الإسلامية الإيرانية



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

في العصر الحالي، تواجه المجتمعات المعاصرة تحديات كبيرة في إدارة شؤون الحكم، تتراوح بين الفساد الإداري، وسوء التخطيط، وانعدام الشفافية. هذه المشكلات تثير قلقاً كبيراً حول استقرار الدول وضمان تحقيق العدالة الاجتماعية والرفاهية العامة. لذا، من الضروري البحث عن نماذج إدارية يمكن أن توفر حلولاً فعالة لهذه القضايا المعقدة.

في هذا الإطار، يعدّ الرجوع إلى النماذج التاريخية من الأمور المهمة، حيث يمكن أن تقدم لنا دروساً مستفادة ورؤى قيمة. من بين هذه النماذج، تبرز تجربة الإمام علي (عليه السلام) بصفته مرجعاً استثنائياً. فقد عُرفت فترة حكمه بتركيزها على تحقيق العدالة، والنزاهة، والشفافية، مما يجعلها نموذجاً يحتذى به في كيفية التعامل مع تحديات الحكم والإدارة.

الإمام علي (عليه السلام) لم يكن مجرد قائد سياسي، بل كان أيضاً مفكراً وحكيماً في إدارة شؤون الدولة. من خلال دراسة سيرته وأسلوبه في الحكم، يمكننا أن نفهم كيف تعامل مع التحديات والصعوبات التي واجهته وكيف قام بوضع أسس للحكم الرشيد الذي يسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية وتعزيز القيم الإنسانية.

بناءً على ذلك، تهدف هذه المقالة إلى إجراء تحليل شامل لتحديات الحكومات وأضرارها استناداً إلى تصريحات الإمام علي (عليه السلام) وسيرته في مجال الحكم. سنبدأ بدراسة تصويره وتصورات للحكومة وأساسياتها، ثم نتناول المشكلات والآفات التي تواجه الأنظمة الحاكمة وفقاً لرؤيته، مع تقديم توصياته وحلوله لمواجهة هذه القضايا، وتطبيق تلك الحلول في السياق المعاصر.

### الحكومة في رؤية أمير المؤمنين (عليه السلام):

في زمن الإمام علي (عليه السلام)، كانت فكرة الفوضوية (الأناركية) تُروّجها الخوارج الذين استغلوا واقعة التحكيم في معركة صفين لتشويه سمعة ولاية الحكومة وإنكار ضرورة النظام الحاكم. رفعوا شعار «لا حكم إلا لله»، وهو شعار صحيح في مضمونه، ولكنهم أرادوا به نفي مبدأ الحكومة وإلغائه. ردّا على هذا الشعار، قال الإمام علي (عليه السلام): «إنها كلمة حقّ يُرادُ بها باطلٌ نعم إنّه لا حكمَ إلا لله ولكنّ هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله وإنّه لا بدّ للنّاس من أميرٍ برٍّ أو فاجرٍ يعملُ في إمرة المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمّن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القويّ حتّى يستريح برٌّ ويستراح من فاجرٍ»<sup>(١)</sup>.

فإدارة شؤون المجتمع وتدبير الأمور على أساس مصلحة العامة وتحصيل منافع الآحاد والطبقات المختلفة في المجتمع لا يمكن تحقيقها دون استقرار حكومة. وطبعاً من وجهة نظر أمير المؤمنين (عليه السلام)، هذا الأمر (وجود الحكم والحاكم) ليس فقط ضرورة لا مفرّ منها، بل يجب على كلّ فرد في المجتمع أن يلتزم بدعم الحكومة والمساهمة في تطوير شؤونها وتحقيق أهدافها.

من خلال دراسة حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) السياسية وخطبه وكلماته المنيرة يكشف أنه (عليه السلام) ينظر إلى الحكم والسلطة نفسها شيئاً حقيراً، كما صرح به في خطبته: «والله هي أهونُ عليّ من عظم خنزيرٍ في يد مجذومٍ»<sup>(٢)</sup> إلا إذا كان أداة لإقامة الحق وإزالة الباطل، كما أقر على هذا في حوارهِ مع ابن عباس في بيان قيمة الإمارة والحكم: «والله هي أحبُّ إليّ من إمركم إلا أن أُقيمَ حقّاً أو أدفعَ باطلاً»<sup>(٣)</sup>.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة، ٤٠.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة، ٢٢٤.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة، ٣٣.



وفي قولٍ آخرٍ يوضح موقفه من الحكم بقوله: «وَاللَّهُ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِطَّةٍ ظَالِمٍ، وَلَا سَغَبٍ مَظْلُومٍ، لَا لَقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسٍ أَوْهَلِهَا، وَلَا لَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عِرَاقٍ خَنْزِيرٍ فِي يَدٍ مَجْدُومٍ»<sup>(١)</sup>.

هذه هي الصورة التي يرسمها الإمام علي (عليه السلام) للحكومة، وهو الحاكم على العالم الإسلامي. يرى الإمام (عليه السلام) أن قيمة الحكومة تكمن فقط عندما تكون وسيلة لتنفيذ العدالة، وإحياء القيم الإلهية، وحماية الكرامة الإنسانية. بعبارة أخرى، يعتبر الحكومة ذات قيمة فقط عندما يتمكن الحاكم من خلال تصديها من إحقاق الحق ومنع الباطل، وإعادة الكرامة الإنسانية إلى المجتمعات البشرية التي أهدرت على مرّ العصور على يد الظالمين والمستبدين.

جسد الإمام علي (عليه السلام) في سياسته وأسلوب حكمه، نموذجاً عملياً للحاكمية والسياسة الإسلامية. كان يحكمه يتميز بنزاهة مطلقة وخلو من الرياء والخداع الذي كان شائعاً في السياسات العالمية. لم ينحرف قيد أنملة عن محور الحق والعدل، ولم يضحّ بمصلحة الدين والمسلمين لصالح مكاسب سياسية مؤقتة.

بالرجوع إلى نهج البلاغة، نجد أن الإمام علي (عليه السلام) لم يكن فقط سياسياً ماهراً، بل كان أيضاً منفذاً للسياسات الصحيحة. كان يعرف جيداً دقة تفاصيل السياسة وإدارة الدولة، مستخرجاً إياها من صميم الإسلام ومعارف القرآن الكريم. واعتماداً على المبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية، كان يصدر توجيهات سياسية مستنيرة. مع ذلك، لم تكن السياسة عنده مجرد أداة للحكم، بل كانت فرصة لتحقيق العدالة الاجتماعية، تلك العدالة التي يشير إليها القرآن الكريم بكلمة «الْقِسْطُ» والتي اعتبرها أحد الأهداف الرئيسة لبعثات الأنبياء

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة، ٣.

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الصدد كتب في رسالة إلى أحد عماله (الأشعث بن قيس، والي أذربيجان): «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَكَفَنَةٍ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ»<sup>(٢)</sup>. ربما هذا هو السبب لعدم قبول هذه المسؤولية عند الإمام علي (عليه السلام) في البداية، ولكن عندما واجه إصرار الناس، وافق على تحملها لتحقيق العدالة الاجتماعية وإرساء القسط في ظلّ الحكومة.

بناءً على هذا النهج، في رؤية علي (عليه السلام) تجاه السياسة والحكومة، ليست الحكومة منصباً شخصياً يمكن للحاكم من خلاله السعي إلى تحقيق مصالحه الشخصية أو مصالح من حوله، بل هي أمانة تُوكل إلى مجموعة من الناس، وتهدف أساساً إلى تحقيق الهدف الأسمى للحكم، وهو إحقاق الحقّ وتنفيذ العدالة وإحياء القيم الإلهية، وضمان كرامة الإنسان. ولكنّ هذا التصور الشامل للإمام علي (عليه السلام) حول الحكومة لا يقتصر على بيان مكانتها وأهميتها فحسب، بل يمتد إلى التحذير من التحديات والآفات التي يمكن أن تواجهها مثل الآفات السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية، والقضائية.. الخ. من هذا المنطلق، سيتناول هذا المقال دراسة التحديات والآفات السياسية من منظور الإمام علي (عليه السلام) وكيفية التعامل معها لتجنب تأثيراتها السلبية على الحكم والمجتمع في ما يلي.

### الآفات السياسية للحكومة وتحدياتها في رؤية أمير المؤمنين (عليه السلام):

١ - ابتعاد عن العدالة (الظلم والجور): تُعدّ العدالة أملاً فطرياً وأمنية قديمة، ولكنها

(١) سورة الحديد: الآية: ٢٥.

(٢) شريف الرضي، نهج البلاغة، الرسالة، ٥.

بعيدة المنال عن البشرية. وعلى مرّ تاريخ الإنسان، كان الطمع والظلم وعدم المساواة والتمييز تهديدات دائمة للحضارة البشرية والحكومات القائمة. وبناءً على ذلك، عرّف معظم المصلحين والأحرار وأتباع المدارس الدينية وغير الدينية، أهدافهم الرئيسة في حركاتهم الثورية والإصلاحية بإزالة الظلم وتحقيق العدالة. وفي المجتمع الإسلامي، لا سيما بين الأئمة المعصومين (عليه السلام) وأولياء مذهب الشيعة، لم يقتصر الإهتمام بالعدالة على الجانب النظري فقط، بل شمل الجانب العملي أيضاً، حيث قدموا حياتهم من أجل تحقيق العدالة والحق.

وقد أكدت الأديان السماوية على مكانة العدالة وحثت على تحقيقها، ويولي الإسلام اهتماماً خاصاً للعدالة والمساواة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾<sup>(١)</sup>. العدالة لدى أرباب اللغة تعني المساواة<sup>(٢)</sup>. كما نقل الشيخ الطوسي (رحمه الله) هذا المعنى<sup>(٣)</sup>. ومن منظور فلاسفة الحقوق، هي وضع كلّ شيء في موضعه وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه<sup>(٤)</sup>. وعرفه العلامة الطباطبائي (رحمه الله) بقوله: «هي إعطاء كلّ ذي حقّ من القوى حقّه ووضع في موضعه الذي ينبغي له»<sup>(٥)</sup>. وفق ما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) عن العدل<sup>(٦)</sup>.

لقد جاء حديث الإمام علي (عليه السلام) عن العدل وأهمية العدالة ومكانتها، في ٦٥ موضعاً من نهج البلاغة. ومن هنا يظهر مدى أهمية العدالة في فكره وسياسته. فهذا التركيز الكثيف على

(١) سورة النحل: الآية: ٩٠.

(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٢٤٦، الفيومي، المصباح المنير، ج ٢، ص ٣٩٧.

(٣) الشيخ الطوسي، المبسوط في فقه الإمامية، ج ٨، ص ٢١٧: «العدالة في اللغة أن يكون الإنسان متعادل الأحوال متساوياً».

(٤) حكيم السبزواري، شرح الأسماء الحسنى، ص ٥٤.

(٥) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٣٣١.

(٦) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الرسالة: ٥: «الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا؛ وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ؛ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهَا وَأَفْضَلُهَا».

موضوع العدالة يعكس محور معظم كلماته وخطبه أثناء فترة حكمه، مما يدل على أن تحقيق العدالة ومكافحة الظلم كانا في صميم رؤيته للحكم الرشيد وإدارة الدولة الإسلامية. يراها من عوامل تعزيز الحكم<sup>(١)</sup> ومن أسباب دوام الحكم والدولة.<sup>(٢)</sup>

ويؤكد الإمام عليه السلام أن هذا المهمة لا تتحقق إلا بمعرفة الحاكم والرعية (الشعب) بحقوقهم المتبادلة: «فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَاهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَيَسَّتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».<sup>(٣)</sup> تعكس هذه الحكمة العميقة رؤية منهجية لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية في المجتمع، لأن العدالة تتطلب توازناً دقيقاً بين حقوق الحاكم والمحكوم وواجباتهما. فعندما يؤدي كل من الطرفين واجباته بشكل صحيح، تتحقق العدالة بين الناس وتثبت معالم الدين، مما يؤدي إلى استقرار النظام الاجتماعي والسياسي.

فالعدالة ليست مجرد مفهوم نظري، بل هي ممارسة عملية تضمن تطبيق السُّنن والأعراف العادلة، مما يساهم في تحسين الأوضاع الاجتماعية والسياسية. في ظل هذا النظام العادل، يصبح المجتمع أكثر استقراراً وأمناً، مما يعزز فرص بقاء الدولة واستمراريتها.

بالإضافة إلى ذلك، يؤدي تحقق العدالة إلى تقليل طموحات الأعداء واستغلالهم للنزاعات الداخلية، حيث يصبح من الصعب على الأعداء استغلال مجتمع قوي ومتماسك يتمتع بالعدالة والدولة القوية المستقرة.

(١) الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ٤، ص ٣١٥: «من عمل بالعدل حصن الله ملكه».

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٦.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ٢١٦.

لكن، في المقابل من العدالة، يقف الظلم والابتعاد عن العدل، وهو ما يحمل آثاراً سلبية في استمرار الحكومة وبقاء الحاكم. فقد أشار الإمام علي عليه السلام في العديد من أقواله إلى خطورة الظلم أو الابتعاد عن العدالة وآثاره المدمرة.

منها قوله عليه السلام: «مِلَاكُ السِّيَاسَةِ الْعَدْلُ»<sup>(١)</sup> والذي يشير بوضوح إلى أن الأساس في السياسة والحكم هو العدل. فالعدالة هي التي تضمن استقرار الحكومة واستمرارها، بينما الظلم يؤدي إلى العكس تماماً.

ويؤكد الإمام عليه السلام في قوله: «الظُّلْمُ بَوَارُ الرِّعْيَةِ»<sup>(٢)</sup>. هذه العبارة تلخص بوضوح تأثير الظلم في استقرار المجتمع وحياة الناس من حيث أن الظلم يؤدي إلى فساد المجتمع ودماره. ويضيف عليه السلام في قوله: «الظُّلْمُ يَدْمُرُ الدِّيَارَ»<sup>(٣)</sup> ويبين أن الظلم لا يدمر الأفراد فقط، بل يتعدى ذلك إلى تدمير الأوطان والمجتمعات بأكملها.

وتأتي عبارة «ظُلْمُ الظَّالِمِ يَقُودُهُ إِلَى الْهَلَاكِ»<sup>(٤)</sup> لتوضح أن الظالم ليس في مأمن من عواقب ظلمه، بل إنَّ عمل الظالم (الظلم) يقوده إلى الهلاك والدمار.

وأخيراً، في قوله: «الظُّلْمُ إِحْدَى الْمُدْمِرِينَ»<sup>(٥)</sup>. يختصر الإمام علي عليه السلام الفكرة بأن الظلم هو أحد العوامل الرئيسة في تدمير الحكومات والمجتمعات.

من خلال هذه الأقوال، يتضح أن الإمام علي عليه السلام كان يدرك تماماً تأثير الظلم على الحكم والمجتمع، وأن العدل هو الأساس الذي يجب أن تقوم عليه أي حكومة تريد البقاء والاستمرار.

(١) الريشهري، المصدر، ص ٣١٨؛ آمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٧٠٢.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٨.

(٣) الريشهري، المصدر، ص ٣١٨.

(٤) الريشهري، المصدر، ص ٣٢٤.

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٥.

٢- الاستبداد في الرأي وترك المشورة: يُعدّ استبداد الرأي وترك المشورة من أخطر الآفات السياسية التي قد يواجهها الحاكم؛ تضرّان الحاكم والمجتمع على حدّ سواء، حيث إنّها تؤدي إلى اتخاذ قرارات غير حكيمة.

من الواضح أنّ الإنسان كائنٌ ذو بُعدين (الإلهي - والشيطاني)، وأنّ السلطة تمهد للفساد وتسبّبه. فأصحاب السلطة قد ينزلقون نحو الاستبداد في حال عدم وجود الحواجز والموانع الداخلية (مثل التقوى والعدالة) والخارجية مثل رقابة الناس ومؤسسات أخرى. يرتبط استبداد الحاكم بصفاته الرذيلة من جهة، وبالشعب الذي يمهد خلفيته من جهة أخرى. حيث يمكن أن يؤدي إلى اعتقاده بتفوقه على الآخرين واستحقاقه كلّ شيء، وربما يؤدي ذلك إلى ادعاء الألوهية كما ادّعى الفرعون أنّه إله بني إسرائيل: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾<sup>(١)</sup>.

ويؤكد الإمام علي عليه السلام في العديد من أقواله على خطورة الاستبداد بالرأي وآثاره المدمرة. قال في موضع «مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ وَمَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ»<sup>(٢)</sup>. هذه الحكمة تُبين أنّ من يستبدّ برأيه دون استشارة الآخرين سيواجه الهلاك والدمار. فالرأي الأحادي غالباً ما يكون محدوداً في رؤيته وقاصراً في معالجته للمشكلات.

كما يقول عليه السلام: «مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ فَقَدْ خَاطَرَ وَغَرَّرَ»<sup>(٣)</sup>. هنا يُحذّر الإمام علي من مخاطر الاستبداد بالرأي، حيث يُعرّض صاحبه للمخاطر ويُضِلّه عن الطريق الصحيح. الشخص الذي يعتمد على رأيه الخاص دون استشارة الآخرين يفتقد للنظرة الشاملة والتقييم الموضوعي للأمر.

(١) سورة النازعات: الآية: ٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٦٠.

(٣) التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٦٦٦.

وفي قول آخر يقول: «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ زَلَّ»<sup>(١)</sup>. هذا القول يؤكد أنّ من يعتمد على رأيه وحده دون استشارة يُعرّض نفسه للزلل والأخطاء. الفهم الجماعي والتشاور يساهمان في تقليل الأخطاء وزيادة الدقة في اتخاذ القرارات.

وأخيراً، يقول عليه السلام: «مَنْ قَنَعَ بِرَأْيِهِ هَلَكَ»<sup>(٢)</sup>. هذا القول يُشير إلى أنّ الشخص الذي يقتنع برأيه فقط دون النظر إلى آراء الآخرين يُعرّض نفسه للهلاك والفشل.

الإمام علي عليه السلام من خلال هذه الحكم يوضح أنّ الاستبداد بالرأي يؤدي إلى الهلاك، والمشورة تعدّ ضرورية لتحقيق الحكم الرشيد. التشاور مع الآخرين يساعد في توسيع الأفق وتقديم حلول أكثر شمولية ودقة. والاستبداد بالرأي لا يتيح المجال لتبادل الأفكار والخبرات، ما يؤدي إلى قرارات خاطئة وغير محسوبة. بالمقابل، المشورة تُمكن الحاكم من الاستفادة من تجارب وآراء متعددة، ما يُسهم في اتخاذ قرارات أكثر حكمة وفعالية.

إذن، الحكمة الحقيقية تكمن في القدرة على استشارة الآخرين والاستفادة من آرائهم، وليس في الاعتماد فقط على الرأي الشخصي. هذا النهج يُعزز من استقرار الدولة واستمرار حكمها بعدل وإنصاف.

فالإنسان العاقل لا يتردد في التشاور مع الآخرين، وذلك أولاً: لأنّ النفس قد تخدعه، فلا يثق بكل ما توجهت إليه نفسه كما أكد الإمام علي عليه السلام في قوله: «الْعَاقِلُ مَنْ اتَّهَمَ رَأْيَهُ، وَلَمْ يَثْقُ بِكُلِّ مَا تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ»<sup>(٣)</sup> وثانياً لأنّ التشاور والتعاون مع الآخرين يعني تعزيز العقل والفكر المشترك. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ٦١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١٦.

(٣) تحف العقول با ترجمه و تصحيح على أكبر غفاري، ص ٤٢٢؛ الحكيمى، المصدر نفسه.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٦٦١.

في مقابل ذلك، نجد الاستشارة تعدّ دعماً قوياً يحمي الشخص من السقوط كما قال رسول الله ﷺ: «لا مظاهره أوثق من المشاورة»<sup>(١)</sup>. ويشيد الإمام علي عليه السلام بفوائد المشورة ويعتبرها من أفضل الأساليب لدعم الشخص في اتخاذ القرارات الحكيمة حيث قال بالضمون نفسه<sup>(٢)</sup>.

يتبين أنّ المشورة تساهم في تعزيز الاستقرار والحكمة في اتخاذ القرارات، وتبني مجتمعاً أكثر تماسكاً وعدالة. والتزام الحكام بالمشورة يفتح المجال لتبادل الخبرات والمعرفة، مما يساهم في تقديم حلول مبتكرة للمشكلات المعقدة، ويزيد من فرص نجاح السياسات والإجراءات المتخذة، ويعزز من الثقة بين القيادة والشعب، مما يقوي الروابط ويعزز الولاء. تساعد المشورة في تجنب الكثير من المشاكل والأزمات التي قد تنشأ عن قرارات متسرعة أو غير مدروسة، وتجعل المجتمع أكثر قدرة على مواجهة التحديات وتحقيق التقدم والازدهار، مما يجعل الحكومات أكثر استقراراً واستدامة.

استمراراً للحديث عن أهمية المشورة وضرورتها، نتقل إلى بيان الخصائص الأساسية للمستشارين وأهمية اختيارهم من وجهة نظر أمير المؤمنين عليه السلام. من أهم الخصائص الأساسية التي يؤكدّها الإمام علي عليه السلام هي تقوى الله وخشيته: «شاور في أمرك الذين يحشون الله»، يتّضح أنّ الاستشارة تكون أكثر فعالية عندما تكون النصائح مبنية على مخافة الله والالتزام بالمبادئ الدينية. وهذا يوفر أساساً أخلاقياً قوياً للنصائح المقدمة، ويضمن أنّها تستند إلى العدالة والحق. ويؤكد أمير المؤمنين عليه السلام الاستشارة من أصحاب العقل والعلم والتجربة، حيث يقول: «شاور ذوي العقول تأمن الزلل والندم»، أفضل من شاورت ذو

(١) البرقي، المحاسن، ج ٢، ص ٦٣٥.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٥٦: «لا ظهير كالمشاورة».



التجارب»، «خير من شاورت، ذوو النهى والعلم وأولو التجارب والحزم»<sup>(١)</sup>. فهي توفر حماية من الوقوع في الأخطاء، والندم على القرارات الخاطئة. أصحاب العقول الراجحة قادرون على تقديم تحليل دقيق وشامل للمسائل، مما يساعد على اتخاذ قرارات مدروسة ومبنية على أسس قوية، كما ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «شاور في أمورك ما يقتضي الدين من فيه خمس خصال عقل و علم و تجربة و نصح و تقوى فإن لم تجد فاستعمل الخمسة و اعزم و توكل على الله»<sup>(٢)</sup>. هذا يجمع بين المعرفة النظرية والتطبيقية والأخلاق الدينية، مما يجعل المستشار قادراً على تقديم نصائح متوازنة مبنية على فهم عميق للواقع والمبادئ الدينية.

بالإضافة إلى ذلك، السمات الشخصية والخصائص المعنوية، يجب أن يكون مستشارو الحاكم أو المسؤول، بعيدين عن أي ارتباط بالفساد أو الحكومات الفاسدة السابقة. كما يؤكد الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر: «شر و زرائك من كان للأشرار قبلك و زيراً، و من شرهم في الآثام»<sup>(٣)</sup>. هذا يضمن أن يكون المستشارون نزيهين وملتزمين بالأخلاق العالية، بعيدين عن أي تأثيرات سلبية من تجارب سابقة في الفساد.

فبهذا الأسلوب، يمكن للحكومات والقيادات الاستفادة من مشورة مستشارين مؤهلين وأصحاب خصال عالية، مما يساهم في تعزيز العدالة والحكمة في اتخاذ القرارات، ويضمن استقرار الحكومات ودوامها بشكل فعال وثمر. والإمام علي عليه السلام رغم أنه كان يتمتع بالعصمة والحكمة، إلا أنه كان دائماً يؤكد ضرورة التشاور في أموره الإدارية. كان يعلم هذا المبدأ لعماله ووكلائه، ويحث على تنفيذه. فإنه عليه السلام كان بالفعل يستفيد من حضور

(١) الآمدي التميمي، غرر الحكم: ٥٧٥٥، ٣٢٧٩، ٤٩٩٠: «شاور ذوي العقول تأمن الزلل و الندم»، «أفضل من شاورت ذو التجارب»، «خير من شاورت، ذوو النهى والعلم وأولو التجارب والحزم».

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٣.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الكتاب، ٥٣.

المستشارين للاستشارة وتحسين الأمور بشكل أفضل، لا لتحقيق سيطرة أكبر وشاملة على الناس.

٣- سوء التدبير وضعف الإدارة: من وجهة نظر الإمام علي عليه السلام، يُعدّ سوء التدبير وضعف الإدارة من العيوب الأساسية في الحكومات، وإذا لم يكن للحاكم تدبير وتخطيط جيّد في إدارة حكمه، فلن يلقى خيراً وسيقع في الخسارة. التخطيط والتدبير يُمكنان الحاكم من تجنب المخاطر والمشكلات المحتملة واختيار المسار الصحيح لتحقيق الأهداف. كما جاء في كلام الإمام علي عليه السلام: «مَنْ سَاءَ تَدْبِيرُهُ تَعَجَّلَ تَدْمِيرُهُ»<sup>(١)</sup>، أي إنّ من كان تدبيره سيئاً سيتعرض للدمار بسرعة. هذا الحديث يوضح بشكل جيد أهمية التخطيط والتدبير، ويؤكد أنه بدون ذلك، لا يستطيع الحاكم تقييم الظروف والمواقف بشكل صحيح واتخاذ القرارات المناسبة. هذه الحالة عادةً ما تؤدي إلى الفشل والإخفاق وتعرّض الدولة لمخاطر متعددة، وتبعد الحاكم عن النجاح، وقد يتعرض لخسائر لا يمكن تعويضها.

وفي موضع آخر، أكد هذه الأهمية وعدّ سوء التدبير أحد العوامل الأربعة في زوال الدول: «يستدلّ على إدبار بأربع: سوء التدبير، وقبح التبذير، وقلة الاعتبار، وكثرة الاعتذار»<sup>(٢)</sup>.

وكان يستخدم مبادئ مثل مبدأ التحفيز والعقوبة لتعزيز فعالية الحكومة ورفع كفاءة الإدارة: «ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه... وليكن أثر رؤوس جنودك من واساهم في معونته»<sup>(٣)</sup>. وأيضاً كان يمنع وكلاءه وعماله من

(١) الآمدي، غرر الحكم، ص ٢٦٨، ح ٧٩٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

قبول الهدايا تجاه قضاء حوائج الناس، لأنَّ قبول الهدايا يؤدي إلى خلق الفساد والظلم في الناس: «أَيُّمَا وَالٍ احْتَجَبَ عَنْ حَوَائِجِ النَّاسِ احْتَجَبَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ حَوَائِجِهِ، وَإِنْ أَخَذَ هَدِيَّةً كَانَ غُلُولًا، وَإِنْ أَخَذَ رِشْوَةً فَهُوَ مُشْرِكٌ»<sup>(١)</sup>.

في الخلاصة، تتجلى رؤية الإمام علي (عليه السلام) في أنَّ الإدارة الحكيمة والتدبير السليم هما أساس الاستقرار والتقدم، في حين إنَّ سوء التدبير يؤدي بشكل حتمي إلى الفشل والدمار وإنهيار الحكم. فعلى الحاكم أن يتجنبَّ سوء التدبير في الجانب السلبي، وأن يوليَّ دائماً اهتماماً كبيراً للتخطيط والتدبير الدقيق والشامل في الجانب الإيجابي، لكي يتمكن من إدارة الدولة بأفضل طريقة ممكنة وتجنب المخاطر والمشكلات المحتملة في استمرار حكمه ودولته. هذه المبادئ تشكل أساس الإدارة الناجحة وتجنب الحكم من الانهيار والفشل.

٤- الاستعلاء والاستئثار: الاستعلاء هو شعور الحاكم بأنَّه أفضل وأعلى من الناس، أما الاستئثار، فهو تخصيص الحاكم لنفسه أو لمجموعته الخاصة بمزايا وموارد الأمة، مما يخلق جَوْاً من الظلم والفساد. وهما من أخطر الآفات التي يمكن أن تصيب الحكومات، ويؤديان إلى فسادها وانهيارها. الإمام علي (عليه السلام) تناول هذه المواضيع بعمق في رسائله وخطبه، حيث حذر بشدَّة من عواقبها السلبية على النظام السياسي والمجتمع.

منها ما كتب في رسالته إلى مالك الأشتر ويحذره من بطانة الوالي التي قد تسعى للاستئثار والتطاول على حقوق الناس، مؤكداً ضرورة قطع جذور هذه الآفات من خلال اتِّخاذ الإجراءات اللازمة لمنعها. يقول الإمام (عليه السلام): «ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبَطَانَةً فِيهِمْ اسْتِثْنَاءٌ وَتَطَاوُلٌ وَقَلَّةٌ إِنْصَافٌ فِي مَعَامَلَةٍ، فَاحْصِمِ مَادَةَ أَوْلَئِكَ بِقُطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ»<sup>(٢)</sup>. عادةً ما يتشكَّل حول الحكام حلقة من أفرارهم وأصدقائهم ومقربيهم. أفراد هذه الحلقة

(١) الريشهري، المصدر، ص ١٥٥؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٣٤٥.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

لا يؤثرون فقط في قرارات هيئة الحكم، بل يسيطرون أيضاً على مسارات السلطة والثروة، ويزيدون من الطموح، ويخلقون بغضاً وكراهية بينهم وبين الشعب؛ وفي نهاية المطاف، من خلال خلق التفرقة، يخلقون إحدى أسباب انهيار الحكومة. هذا التحذير يعكس وعي الإمام بأهمية العدالة والنزاهة في الحكم، وضرورة مراقبة البطانات الفاسدة التي تستغل مواقعها لتحقيق مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة.

كما يحذر الإمام علي من الطموح الزائد وطلب التفوق فيما يتعلق بالقضايا التي يشترك فيها الناس، مشيراً إلى أن هذه السلوكيات تقوض الثقة بين الحاكم والمحكومين وتؤدي إلى الاستياء والاضطراب. يقول الإمام في هذا السياق: «اياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما يُعنى به مما قد وضع للعيون فإنه مأخوذ منك لغيرك»<sup>(١)</sup>. هنا، يبرز الإمام علي أهمية التساوي بين الناس في الحقوق والواجبات، وضرورة تجنب الأنانية والطموحات الشخصية التي تؤدي إلى الظلم والفساد.

هذه التعاليم تؤكد أن الحاكم يجب أن يكون نموذجاً للعدالة والنزاهة، وأن يسعى لتحقيق مصلحة الشعب قبل أي شيء آخر. الاستئثار والاستعلاء لا يؤديان فقط إلى فساد الحاكم، بل يدتران النسيج الاجتماعي ويخلقون بيئة من الفساد وعدم الثقة. من هذا المنطلق، يعتبر الإمام علي أن الحاكم العادل هو الذي يحترم حقوق الناس ويعمل على تحقيق العدالة والمساواة في كل جوانب الحكم.

في الختام، يوضح الإمام علي عليه السلام أن الحكم الرشيد يعتمد على العدالة والمساواة والشفافية، وتجنب الاستعلاء والاستئثار بالسلطة. هذه المبادئ هي أساس الحكم العادل والمستقر، وهي ما يجب أن يسعى إليه كل حاكم لتحقيق السلام والازدهار لمجتمعه.

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

أما الاستعلاء والتفاخر - كما ذكرنا - هو شعور الحاكم بأنه أفضل وأعلى من الناس والذي يضعف العلاقات بين الحاكم والناس، مما قد يؤدي إلى إحداث الفجوة الكبيرة بين الحاكم والشعب وعدم الثقة وسخط الجمهور وحتى الاضطرابات الاجتماعية، لأنه عندما يشعر الحاكم بالتفوق، فإن السياسات والقرارات التي يتخذها قد لا تعكس الواقع الحقيقي لمطالبات الناس. بالإضافة إلى ذلك، فإن فقدان الاتصال المباشر والصادق مع الناس يؤدي إلى عدم إدراك مشاكلهم الحقيقية واحتياجاتهم، مما يقلل من كفاءة وفعالية الحكم.

بينما في نظرية الحكم والإدارة، تُعدّ مصاحبة الحاكم للشعب حجر الزاوية في فعالية القيادة وحسن الإدارة، لأنها تقلل من الفجوة بينهما ويعزز الروابط العاطفية والعقلية بين الحاكم وعموم الناس، ويجعل الانتقادات من الشعب تصل إلى السلطات السياسية بسرعة أكبر ومما يجعلهم يتعرفون على مشاكل الناس عن كثب، مما يساهم في تحسين جودة اتخاذ القرارات وتلبية احتياجات المجتمع بشكل أكثر دقة، ثم يزيد من رضا الجمهور. ولهذا السبب، نصح الإمام علي (عليه السلام) في توجيهاته إلى مالك الأشر بأن يخصص جزءاً من وقته للمحتاجين، وأن يكون متفرغاً لمساعدتهم، وأن يجلس في مجلس عام ويتحدث معهم بسهولة: «وَاجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ هُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ هُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعَدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ»<sup>(١)</sup>.

٥- تضييع الأصول والتمسك بالفروع: من وجهة نظر الإمام علي (عليه السلام)، يجب أن يكون الحاكم الإسلامي أصولياً، وعليه أن لا يتجاوز عن القوانين الأساسية، وعدم التفريط في المبادئ من أجل التفرغ للتفاصيل والقضايا الفرعية: «يستدلّ على تضييع الأصول

(١) نفس المصدر ٥٣.

والتمسك بالفروع أدبار الدول بأربع: تضييع الأصول والتمسك بالفروع وتقديم الأراذل وتأخير الأفاضل»<sup>(١)</sup>.

لو كان الإمام علي عليه السلام يسعى لتحقيق مصالحه الشخصية الخاصة، كان يمكنه تثبيت سلطته بتجاهل القواعد الأساسية للحكومة الإسلامية. ولكن نحن نرى أنه بسبب التمسك بالمبادئ الدينية والقيم الأخلاقية، شارك في ثلاث معارك مهمة بعد توليه الحكم، وكانت فترة حكمه قصيرة بسبب التزامه بتلك المبادئ. وصرح في خطبته بهذا المبدأ الأساس: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ؛ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمُكِيدَةِ وَلَا أُسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ»<sup>(٢)</sup>.

الإمام علي عليه السلام يشير في هذه الخطبة إلى سياسة معاوية، التي كانت مليئة بالكذب وخداع الجماهير والمكر والحيل وانتهاك المبادئ والأصول والقيم الأخلاقية. ويرفض السياسات الفاسدة التي اعتمدها معاوية، وتعكس التزامه بالتقوى والورع والخوف من الله، الذي لا يسمح له باتخاذ طرق فاسدة وظالمة كهذه.

لو كانت المعيار الوحيد هو الحفاظ على بقاء الحكم وتوسيعه، يمكن استخدام أي وسيلة لتحقيق هذا الهدف. ولكن إذا كانت القيم والأهداف الرفيعة تأتي قبل القوة، فإن الاستفادة من الانفعالات الذاتية والخيانة يكون محظوراً. الإمام علي عليه السلام حتى يمنع مالك الأشر من كسر العهد مع المشركين قال: «وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطِّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتَّتِ آرَائِهِمْ،

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٩١.

مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ... فَلَا تَغْدِرَنَّ بِدِمَّتِكَ، وَلَا تَحْسِنَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْلَنَّ عِدَّوكَ». إنَّ هذا الأمر والوصية التي يؤكدُها الإمام (عليه السلام) تكشف عن اعتبار مسألة الوفاء بالعهد أمام الأصدقاء والأعداء واحدة من المبادئ المسلمة، وتعبر عن روح العدالة والشجاعة والأخلاق الإنسانية في الإسلام.

في الواقع، يشير الإمام علي (عليه السلام) إلى هذه النقطة المهمة، ألا وهي أنَّ السياسة تأتي بنوعين: سياسة بدون قيود وشروط وملئمة بأنواع الخطايا، بعبارة أخرى، السياسة الشيطانية؛ وسياسة وتدبير ممزوجة بالتقوى والورع، بمعنى آخر، سياسة رحمانية. الطريق بين هذين مختلف، وستكون النتائج متفاوتة.

النوع الأول من السياسة لا يعترف بأيِّ حدٍّ أخلاقي أو ديني أو إنساني أو ضميري؛ وإذا تعارض معه أيُّ مبدأ أو قانون أو فضيلة، يتخذ إجراءات قاسية لإزالته من الطريق، تماماً كما يُشاهد في عالم السياسة اليوم في الشرق والغرب.

أما النوع الثاني من السياسة، فيأتي ضمن إطار القيم الإلهية والضميرية والإنسانية، ولا يتوسل إلى الخطايا والظلم والاعتداء، خاصة ضد الأفراد الأبرياء وغير المدافعين. لا يعتبر الخيانة والغدر والفساد وكسر العهود شيئاً مقبولاً، ولا يروج للجشع والطمع، بل يحدّد خطوطاً حمراء لنفسه ولا يتجاوزها.

٦- تقديم الأراذل: بناءً على أنَّ الحكم - في جميع مستوياته - يتطلب نوعاً من التخصص والكفاءة، فإنَّ تقديم غير المتخصصين أو غير المؤهلين للمناصب الحكومية هو واحد من العوامل الأربعة التي ذكرها الإمام علي (عليه السلام) كأسباب زوال الحكومات: تضييع الأصول، التمسك بالفروع، تقديم الأراذل، تأخر المؤهلين، ويعتبر هذا العمل من سمات المجتمع

الجاهلي، حيث قال: «عالمها ملجم وجاهلها مكرم»<sup>(١)</sup>. وقال في موضع آخر تولي الأراذل والأحداث الدول دليل انحلالها وإدبارها.

تقديم الجهال والضعفاء لإدارة الأمور، وتجاهل الأقوياء المؤهلين يشكل خطراً كبيراً على أي مجتمع أو منظمة. سئل حكيم: لماذا انهارت حكومة الساسانيين؟ أجاب قائلاً: بسبب نصب الضعفاء وغير المؤهلين والصغار في قمة المسؤوليات الكبيرة التي لم يستطيعوا التعامل معها، ووضع الأفراد الأقوياء والكبار في مهام صغيرة، نتيجة لذلك، تفككت وحدتهم إلى الفرقة، وانهار نظامهم.<sup>(٢)</sup>

٧- تهديد الأمن المجتمعي: كما ذكر في المناقشات الأولية، يُعتبر تهديد القيم والأهداف الحكومية نوعاً من الأضرار التي قد تحدث. يذكر الإمام علي (عليه السلام) واحدة من أهداف السعي للسلطة هي ضمان أمان المظلومين: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك»<sup>(٣)</sup> وكذلك يعرف أسوأ الحكومات هي التي لا تمتلك أماناً ويصرح عليها: «شرّ البلاد بلد لا أمن فيه ولا خصب»<sup>(٤)</sup>.

من البديهي أن المجتمع الإنساني بحاجة إلى قائد، سواء أكان صالحاً أم فاسقاً. وعموماً، الحاكم الظالم أفضل من الفتنة والاضطراب المستمر. «لا بدّ للناس من أمير، برّ أو فاجر»<sup>(٥)</sup> أو «والظلم خير من فتنة تدوم» والإمام (عليه السلام) يوضح السبب في ردّه على الخوارج: «يعمل في

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢.

(٢) الخوئي، ميرزا حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ١٤٤.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.

(٤) الريشهري، المصدر، ص ٢٦٧.

(٥) نهج البلاغة، خطبة ٤٠.



إمرته للمؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاقل به العدو وتؤمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القول حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر<sup>(١)</sup>.  
فضرورة إحلال الأمن في البلاد تكمن في وجود استخبارات قوية، والوعي تجاه العدو، وعدم التهاون معه<sup>(٢)</sup>.

٨- تسلل الخائن إلى الإدارة الحكومية: يؤكد الإمام علي عليه السلام أهمية اختيار الأفراد الصالحين للعمل في الكوادر السياسية والإدارية والعسكرية. ومن وجهة نظره، أسوأ الوزراء هم الذين شغلوا المناصب الوزارية في الحكومات الظالمة السابقة وكانوا شركاء في الذنوب. وكان يشدد على مراقبة العاملين بتعيين الجواسيس والمراقبين لهم. وهو كان يهتم بهذه الموضوع، وكان يوجه إلى جميع عماله عيونا وجواسيس بأن يكونوا على علم بكيفية أداء مهمّتهم. هناك في نهج البلاغة العديد من المتابعات والتصدّيات، والتوبيخات والخطب التي تعتمد على التقارير المتلقاة من العيون المخصصة أو التقارير الشعبية حول انتهاكات المسؤولين. منها:

بلغني عنك..<sup>(٣)</sup>

فإن عيني بالمغرب كتب إليّ يعلمني أنّه وجه إلى الموسم..<sup>(٤)</sup>

بلغني أنّك ابتعت داراً..<sup>(٥)</sup>

أما بعد؛ فإنّ دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة..<sup>(٦)</sup>

(١) نهج البلاغة، خطبة ٤٠.

(٢) الريشهري، المصدر، ص ٢٦٨ - ٢٨٣.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٤٠ و ٤٣.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٣٣.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب ٣ و ٢٠.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب ١٩.

وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً، صغيراً أو كبيراً..<sup>(١)</sup>

أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني..<sup>(٢)</sup>

وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزلّ لك..<sup>(٣)</sup>

فقد بلغني عنك قول..<sup>(٤)</sup>

فقد بلغني أن رجلاً آمن قبلك..<sup>(٥)</sup>

وكان يعتقد أن عدم وعيه بأداء عمّاله يسبب آفاتاً وأضراراً كبيرة للحكومة، وأوصى مالك الأشر في عهده إليه بهذا المهمة:

«ثم لا تدع أن يكون لك عليهم عيون من أهل الأمانة والقول بالحق عند الناس»<sup>(٦)</sup>

٩- سخط العامة: أحد أهمّ المبادئ التي كان الإمام علي (عليه السلام) دائماً يولي اهتماماً لها ويتابع أعمال عمّاله بها هي مسألة رضا العامة. كان يعتقد أنه إذا لم تتمكن الحكومة من جلب رضا غالبية المواطنين، فإنّها ستضعف أسس سلطتها يوماً بعد يوم، ينتهي إلى فقد قدرتها الحاكمة على الناس. أي حال ينبغي على الحكومة أن تسعى لجلب رضا الجماهير من أجل الحفاظ على القوة واستمرار الحكم.

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٢٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٤٤.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٦٣.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب ٧٠.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

من وجهة نظر أمير المؤمنين (عليه السلام)، الأمور مثل (عدم اعتناق الإسلام) و(أخطاء الناس سواء أكانت خطأ عريضاً أم متعمداً) لا ينبغي أن تكون سبباً للتعامل معهم بعدم الرأفة من قبل الحكومة.<sup>(١)</sup>

حتى في الحالة التي تعارض فيها رضا العامة مع رضا الخواص، لا يقدم الخواص على العامة، ويأمر عماله على هذا المهم قائلاً: «وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ»<sup>(٢)</sup> فمن الواضح أنه عند سخط العامة، فإن رضا الطبقات الحاكمة لن يكون له بقاء طويل، وسيتلاشى إلى حدٍ ما.

أمير المؤمنين (عليه السلام)، في سعيه لجلب رضا العامة لا يلتمس الإكراه والقهر فيما لا تملك الحكومة حقاً فيه. وكان يعتقد أن مثل هذا الإكراه يقطع العلاقات القلبية بين الناس والحكومة، ويؤدي إلى سخطهم، ومن ناحية أخرى، عدم الإكراه غير المبرر، يزيد ثقة العامة بالحكومة ويسهل تحقيق أهدافها دون الحاجة إلى استخدام قوى الضغط.<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الخوئي، ميرزا حبيب الله، منهج البراعة في شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ١٩٠.

## النتيجة

في ختام هذه الدراسة التحليلية حول تحديات الحكومة وآفاتها من منظور الإمام علي عليه السلام، يمكننا استنتاج عدة نقاط جوهرية تلخص رؤيته للحكم الرشيد. كان أمير المؤمنين عليه السلام يرى أنّ العدالة هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه أي حكومة. فالظلم يعتبر من أخطر الآفات التي يمكن أن تؤدي إلى دمار المجتمع وانهار الحكومة. لذلك، كانت دعوته المستمرة هي الالتزام بالعدل في كلّ الأمور، مشدداً على أنّ العدالة تعزز من استقرار الحكومة واستمراريتها، بينما يؤدي الظلم إلى الفساد والهلاك.

ومن النقاط المهمة التي أكدها الإمام علي عليه السلام هي ضرورة تجنب الاستبداد في الرأي وأهمية المشورة في اتخاذ القرارات. فالاستبداد يؤدي إلى اتخاذ قرارات غير حكيمة ويعزز من الفساد السياسي. لذلك، كان يدعو إلى التشاور والاستماع لآراء الآخرين لضمان اتخاذ قرارات صائبة تحقق مصلحة المجتمع. تجربة الإمام علي عليه السلام في الحكم كانت مثلاً للنزاهة والشفافية. كان يرفض أي شكل من أشكال الفساد الإداري وسوء التخطيط، مؤكداً أهمية الشفافية في إدارة شؤون الدولة. كانت توجيهاته لعماله وواليه واضحة في هذا الشأن، حيث كان يعتبر أنّ العمل هو أمانة يجب الحفاظ عليها بكلّ إخلاص وأمانة.

كان الإمام علي عليه السلام يؤكد ضرورة التوازن بين حقوق الحاكم والمحكوم وواجباتها المتبادلة. فعندما يؤدي كلّ من الطرفين واجباته بشكل صحيح، تتحقق العدالة بين الناس، مما يؤدي إلى استقرار النظام الاجتماعي والسياسي. هذا التوازن يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية، ويعزز من فرص بقاء الدولة واستمراريتها. الإمام علي عليه السلام كان يحذر من الطغيان ويدعو إلى الابتعاد عن استخدام القوة بشكل مفرط. كان يرى أنّ الحاكم يجب أن يكون عادلاً ورحيماً، يعمل لصالح الناس ولا يستخدم سلطته لتحقيق مصالح

شخصية أو لإيذاء الآخرين. الطغيان يؤدي إلى زعزعة استقرار المجتمع ويجلب العداء والفساد.

من النقاط المهمة التي ركز عليها الإمام علي عليه السلام هي أهمية التعليم والتوعية في مواجهة التحديات والآفات. كان يرى أنّ نشر المعرفة والوعي بين الناس يعزز من قدرتهم على مواجهة الفساد والتصدي للظلم. التعليم يساعد على بناء مجتمع واعٍ قادر على الحفاظ على حقوقه والدفاع عن العدالة.

### توصيات تطبيقية

بناءً على ما ذكر في هذا البحث، يمكن لأيّ حكومة معاصرة اتّباع هذه التوصيات لتحقيق حكم رشيد ومستقر:

١. الالتزام بالعدالة في جميع الأمور.
٢. تعزيز مبدأ المشورة وتجنب الاستبداد في اتّخاذ القرارات.
٣. الحرص على النزاهة والشفافية في الإدارة.
٤. تحقيق التوازن بين حقوق الحاكم والمحكوم.
٥. الابتعاد عن الطغيان واستخدام القوة بشكل عادل.
٦. تعزيز التعليم والتوعية لمواجهة التحديات والآفات.
٧. من خلال اتّباع هذه المبادئ والتوصيات، يمكن للحكومات الحالية تحقيق نظام حكم مستقر وعادل، يعزز من رفاهية المجتمع، ويضمن تحقيق العدالة الاجتماعية.

## المصادر

### القرآن الكريم

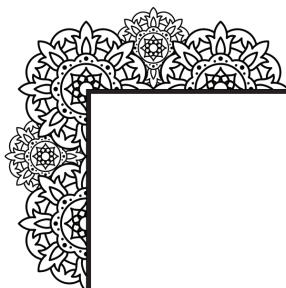
١. نهج البلاغة.
٢. ابو الحسنی سید رحیم، بقا و زوال دولت از دیدگاه اندیشمندان مسلمان، رساله کارشناسی ارشد، دانشگاه تربیت مدرس، تهران.
٣. الأصفهانی الراغب، المفردات، الطبعة الأولى، الميمنية، مصر، ١٣٢٤ ق.
٤. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة.
٥. الفيومي، المصباح المنير.
٦. الطوسي، المبسوط في الفقه الإمامي.
٧. السبزواري، شرح الأسماء الحسنى.
٨. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن.
٩. الحكيمي، محمد رضا (ومحمد الحكيمي وعلى الحكيمي)، الحياة، ج ١ الى ٦، الطبعة الأولى، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طهران، ١٣٥٨.
١٠. الريشهري محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، بمساعدة محمد كاظم الطباطبائي ومحمود الطباطبائي، ج ٤، الطبعة الأولى، دار الحديث، قم، ١٤٢١ ق.
١١. المنتظري حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الطبعة الثانية، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، ١٤٠٩ ق.

۱۲. جمالی نصرت، عوامل سقوط حکومت‌ها در قرآن و نهج البلاغه، چاپ اول، نهاوندی، قم، ۱۳۷۸.
۱۳. دژاکام علی، تفکر فلسفی غرب از نظر استاد مطهری، ج ۱، چاپ اول، نشر اندیشه، تهران، ۱۳۷۵.
۱۴. رهبر محمد تقی، درس‌های سیاسی از نهج البلاغه، چاپ اول، سازمان تبلیغات اسلامی، تهران، ۱۳۶۴.
۱۵. سروش عبدالکریم، فربه‌تر از ایدئولوژی، صراط، تهران، ۱۳۷۲.
۱۶. عبدالکریم بن محمد یحیی قزوینی، بقا و زوال دولت در کلمات سیاسی امیر مؤمنان (علیه السلام) (نظم الغرر و ضد الدرر)، به کوشش رسول جعفریان، کتابخانه مرعشی، قم، ۱۳۷۱.
۱۷. فلسفه تاریخ: مجموعه مقالات از دایرة المعارف فلسفه، به سرپرستی پل ادواردز، ترجمه بهزاد سالکی، چاپ اول پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی، تهران، ۱۳۷۵.
۱۸. قدرت: فر انسانی یا شر شیطانی، استیون لوکس (ویراسته)، ترجمه فرهنگ رجایی، مؤسسه مطالعات فرهنگی، تهران، ۱۳۷۰.
۱۹. مصباح یزدی، محمدتقی، جامعه و تاریخ از دیدگاه قرآن، چاپ دوم، سازمان تبلیغات اسلامی تهران، ۱۳۷۲.
۲۰. واعظی احمد، حکومت دینی: تأملی در اندیشه سیاسی اسلام، چاپ اول، مرصاد، قم، ۱۳۷۸.
۲۱. البرقی، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، قم (۱۳۷۱)، دار الکتب الإسلامية.

٢٢. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ.
٢٣. ابن أبي الحديد، عز الدين، شرح نهج البلاغة:، دار إحياء الكتب، بيروت، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م.
٢٤. البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، بيروت (٢٠٠٨ م)، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية
٢٥. الخويي، ميرزا حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، طهران، المكتبة الإسلامية.
٢٦. العامللي، محمد بن الحسن الحرّ، وسائل الشيعة، قم، مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث.
٢٧. التميمي الأمدي، عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٢٨. الريشهري، محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، قم (١٣٨١)، دار الحديث.



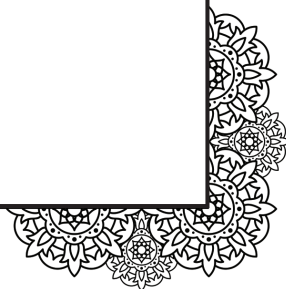




# أسس الشخصية المعتدلة في نهج البلاغة ومظاهرها

الباحث

أ.د. عبد الهادي عبد الرحمن علي الشاوي



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

قسم البحث على تمهيد، درست فيه الشخصية في اللغة والاصطلاح، ومفهومها عند علماء النفس وعلماء الاجتماع. واهتم البحث في مبحثها الأول في كشف أسس الشخصية الإسلامية المعتدلة في كتاب نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) التي تقوم على عدة أسس هي: الإيمان والقدوة الحسنة والتدبر، والاعتبار. وفي المبحث الثاني اهتم ببعض مظاهر هذه الشخصية، ومنها الاستقامة والثبات والقوة، والتواضع. وختم البحث بمجموعة من النتائج، بعدما اعتمد على مصادر قديمة ومراجع حديثة.

### تمهيد: مفهوم الشخصية

إنَّ المعاني اللغوية للشخصية تكاد تكون متقاربة، بل ومتوافقة أيضاً، فهي تدلُّ على معنى الثبات والوقوف على هيئة واحدة؛ وهذا المعنى قريب من المعنى اللغوي الذي أشرنا إليه. أمَّا المعاني الاصطلاحية للشخصية، فهي متباينة مختلفة تبعاً للعلم الذي يدرسها ولطريقة دراستها. ففي منظور علماء النفس لها تعريفات مختلفة بحسب الاتجاه النفسي والتحليلي للعالم الذي نظر في ماهيتها وحاول تحديدها وتقيسها. فالشخصية personality مشتقة من لفظة person وهي كيان الفرد الذي له سمات محددة. وسوف نتطرق إلى بعض آراء علماء النفس الذين اعتنوا بدراسة الشخصية الإنسانية من جوانبها المختلفة في التكوين وفي السلوك، فقد أصبحت الشخصية مجالاً رحباً للدراسة من مختلف العلوم (علم النفس، وعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا، والتاريخ....)

ومن أوائل العلماء العالم الأمريكي غوردون ألبورت (ت ١٨٩٧م)، وهو من وضع أساس علم نفس الشخصية، فهو يرى أنَّ لكل فرد شخصية خاصة، وهي مركبة من صفات مختلفة وكثيرة، وتظلُّ ملازمة للفرد طوال حياته.

ومن أشهر علماء النفس الذين اعتنوا بمفهوم الشخصية: سيجموند فرويد، الذي صنف النفس البشرية إلى شعور ولا شعور، ويرى أنَّ السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان هي الأساس في تحديد شخصيته، (فالإنسان أسير ماضيه، ونتاج تاريخه محكوم بلا شعوره...) <sup>(١)</sup>، وإنَّ الشخصية عنده تتكون من ثلاثة أقسام: الهو، والأنا، والأنا العليا، ولها جوانب متعددة ومراحل نمو مختلفة قد أسهب فيها؛ فيما استطاع أريك فروم (أن يخلص

(١) الموجز التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ترجمة: سامي محمد علي، وعبد السلام القفاش، هيئة الكتاب، ط٤، مصر، ٢٠٠٠م

النظرية الفرويدية من المغالاة في أهمية الغرائز من خلال إعطاء أهمية لتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية على عملية تشكيل الشخصية في أي مجتمع من المجتمعات<sup>(١)</sup>.

فيما يرى كارل يونج: أن (الإنسان هو كيان يحتوي الأضداد، وتمتد جذوره إلى اللاشعور الجمعي، وتتمثل الأضداد في نماذج متقابلة)<sup>(٢)</sup>، فهو نتاج مجموعة عوامل ومؤثرات من بيئته ومجتمعه وتوحدت عبر الزمن فشكلن نموذجاً مؤثراً في شخصية الإنسان؛ ومن هذا النموذج توضحت شخصيته بملامحها وسماتها الفارقة. وهناك آراء مختلفة لعلماء النفس في هذا الموضوع، لا مجال للتوسع في ذكرها في هذا البحث.

أما علماء الاجتماع، فلهم تعريفاتهم في هذا الموضوع، سنذكر بعضاً من آرائهم. ومن هؤلاء «رالف لنتون» الذي يؤكد أن تعريف الشخصية تعريف مشكل إذ تعترضها مشكلة التحديد التي تتطلب قياسات وأنماطاً غير سائبة بل ثابتة، لأن الفرد بطبيعته يدخل في رباط وثيق وتفاعل مستمر مع البيئة التي وجد فيها، وهذا التفاعل المستمر يصعب تعيين الحدود الفاصلة، لكنه يقدم لنا تعريفاً للشخصية فهي (المجموعة المنظمة للعمليات والحالات النفسية الخاصة بشخص ما)<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت البيئة مختلفة وأحياناً متناقضة، صارت المعايير التي تعتمد لتحديد الشخصية مختلفة من مجتمع لآخر.

(١) الإنسان من أجل ذاته، أريك فروم، ترجمة: محمود منقذ، ٢٠٠٧م: ٩٣.

(٢) البنية النفسية عند الإنسان، كارل يونج، ترجمة: نهاد خياط، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ١٩٩٤م.

(٣) الأصول الحضارية للشخصية، رالف لنتون، ترجمة: عبد الرحمن اللبان. دار اليقظة، بيروت، ١٩٦٤م:

وتركز النظرية الدينامية للشخصية على تأثير البيئة والتأثير الاجتماعي، إذ ترى أنّ الشخصية تتكون من مكونات جسمية وتتضمن العوامل الفسيولوجية، وتتأثر هذه بالظروف البيئية، وتحدّد هذه العوامل الجسمية كثيراً من جوانب شخصية الفرد، وترى أيضاً أنّ العوامل الاجتماعية هي من المكونات الأساسية للشخصية<sup>(١)</sup>.

أما تعريف الشخصية عند علماء المسلمين، فلقد اختلف كثيراً لاختلاف زاوية النظر، ولعدم وجود مفهوم جامع لها؛ إذ إنّ لفظ الشخصية -من حيث المفهوم- لا وجود له في النصّ القرآني، وكذلك الحديث النبوي الشريف، ولا في كثير من كتب التراث الإسلامي، وربما لحداثة هذا المفهوم، لكنّ ذلك لا يعني عند النظر عند علماء الأمة المسلمين لها، بل درسوها على وفق مسميات آخر مثل: النفس البشرية، وإلى ذلك يشير الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كتابه (إحياء علوم الدين) إلّا أنّ النفس لها معنيان؛ خاص وعام. فالمعنى الخاص هو المتعلق بالصفات المذمومة مثل الغضب والشهوة، والمعنى العام هو ما يتعلق بالقدرات العقلية<sup>(٢)</sup>، ويمكن أن نجد تعريفاً يكاد يكون شاملاً وهو (أنّ الشخصية وحدة متكاملة ناتجة عن التفاعل بين مكوني الجسد والروح وهي كيان يميز صاحبه من غيره من البشر، من حيث الفكر «المعتقد» والسلوك والانفعالات والعواطف والمشاعر والميول والاتجاهات)<sup>(٣)</sup>، مع وجود التفاعل المعقد مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، وهذا يدلّ على أنّ محددات الشخصية كثيرة فقسّم مرتبط بالبيئة الثقافية وقسم بالنفس، وآخر بالمجتمع، وآخر بالعوامل الجسمية، لكنّها غير متعاكسة، وربما شكّلت بأجمعها نموذجاً متبايناً، والحياة شاهد على هذا الاختلاف والتعدد.

(١) ينظر: علم النفس الاجتماعي، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م:

٢٦٩-٢٦٨

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين، حامد الغزالي - ١٠/٣ - ١٥

(٣) الشخصية من منظور نفسي إسلامي، د. نادية أحمد التل، الكتاب العربي، أربد، الأردن. ٢٠٠٦م: ١٩.

## المبحث الأول أسس بناء الشخصية في نهج البلاغة

لا تقوم الشخصية إلا على قواعد بناء رصينة منتقاة حتى تبلغ الغاية، وتملك الفرد الذي يسعى له كل ذي عقل سليم؛ وهذه الأسس تختلف تبعاً للبيئة والثقافة والنظام الاجتماعي. ولكل مجتمع نموذج يقتدى به، مرغوب ومتكاثر ومنتشر ومستساغ، غير أن المجتمعات التي تحكمها سنن وقواعد مبنية على ركائز مقدسة راسخة في بنية المجتمع لا تحتاج إلى كثير للتغير بقدر حاجتها إلى الإصلاح. فما أوجده الدين الإسلامي من قيم ساهم في بناء الشخصية الإسلامية المتفردة التي قد يصيبها المرض أحياناً، فيحدث فيها زيغاً. فعلى رعاة أسسها إبانة هذا الوهن وإصلاح الاعوجاج بالدلالة على الطريق السليم، والمنهج القويم ولا يكون ذلك إلا إذا روعيت أسس بنائها بالصون والتقويم والاهتمام؛ ومن أسس بناء الشخصية الإسلامية المعتدلة ما نراه في:

### الإيمان:

مبدأ الإيمان هو المبدأ الحاكم في تحديد نوع الشخصية والضابط لسلوكها النفسي والاجتماعي، إذ على وفقه يمكن للباحث أن يميز ملاحم الشخصية ويعرف اتجاهاتها، ويحدد تطلعاتها، ويبني استنتاجاته ويقيم نتائجه. ولقد أكدت الديانات السماوية مبدأ الإيمان وعُدَّ الركن الأساسي الذي تقوم عليه جوانب البناء الآخر للشخصية. ولقد جاء الإيمان الذي دعا إليه الإسلام في القرآن الكريم بصيغة الفعل. قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ سورة التغابن: الآية: ٨.

كما وردت صيغة الاسم كثيراً، وخاطب المؤمنين في مواضع عدة ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ سورة آل عمران: الآية: ١٦، ولهم سورة تسمى «سورة المؤمنون».

اصطلاحاً: قال الراغب الأصفهاني في كتاب «المفردات» (والإيمان يستعمل تارة اسماً للشيعة التي جاء بها محمد عليه [وآله] الصلاة والسلام، وعلى ذلك: (الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله وبنبوته، قيل: وعلى هذا قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون). وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله: (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون). ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح إيمان؛ قال تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم. وجعل الحياء وإمالة الأذى من الإيمان؛ قال تعالى: (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)؛ قيل معناه بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن...<sup>(١)</sup>، وجاء في كتاب الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ): «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان، أيهما مختلفان؟

فقال: إن الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان.

فقلت: فصفهما لي. فقال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله ﷺ، به حققت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس. والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل به.

(١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) تحقيق، صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ: ٢٦/١.



والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة. إن الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر، والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن وإن اجتماعاً في القول والصفة<sup>(١)</sup>. فالإيمان ما ثبت في القلب وظهر تأثيره في اليد واللسان، وهي الصفة التي امتاز بها من أخلص في دينه وعمله لله. ولهذه الصفة التي نراها مبدأ لا بد منه لكي تقوم الشخصية الإسلامية بجوانبها وتوضح صورتها، وإليها دعا القرآن وحثنا رسولنا الأكرم ﷺ أن نتحلّى بها، وإلى ذلك سوف يتجه البحث ليجد شواهد كثيرة حث فيها الإمام علي عليه السلام المسلمين وأمرهم بالالتزام بهذا المبدأ الذي يعدّ ركناً مهماً تقوم عليه شخصية المسلم المؤمن؛ ومن ذلك ما نجده مبثوثاً في كثير من خطبه ورسائله وحكمه في نهج البلاغة، ومنها قوله عليه السلام:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهَمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مُحَدَّدٌ، وَلَا نَعْتُ مَوْجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ الرِّيَّاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَدَّ بِالْصُّخُورِ مِيدَانَ أَرْضِهِ.

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مُوصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، [وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ،] وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّاهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلَامٌ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.

كَائِنْ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا

سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ...<sup>(١)</sup>. فلقد أوضح الإمام علي (عليه السلام) مبدأ الإيمان بالإله الواحد الأحد، دالاً على صفاته، مبيناً ما على المعتقد بالله من الإيمان المطلق بهذه الوحدانية التي تجنب معتقدها من الزيغ، وتبعده عن المسلك الخاطئ والطريق المعوج. عندما يدرك الإنسان عظمة خالقه وقوّته وجبروته وتفردّه يدرك أنّ مخالفته تعني مخالفة الحقّ والابتعاد عن المنهج السليم، فهو الأسّ الأول في بناء شخصيته الموحدة الخاضعة والمقتنعة المطيعة الخائفة المتقية. وتلك نتيجة أولية قابلة للتطور والسمو، أقامها هذا الأسّ السليم الذي بنيت عليه شخصية الإنسان المسلم. وفي نهج البلاغة شواهد كثيرة على الحثّ على الإيمان بالتوحيد والدعوة إليه، فهي النجاة من الشرك والكفر والضلال.

والإيمان قد حدده القرآن الكريم، فقال: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وَكُنْتُمْ بِهِ رُسُلُهُ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ سورة البقرة: الآية: ٢٨٥.

فالإيمان يكون بالتوحيد، والإيمان يكون بالرسول (عليه السلام) والملائكة، وذلك ما نجد له مصاديق كثيرة في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومنها قوله: (ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذّبين لهم، من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله نبيه محمداً (عليه السلام)...) <sup>(٢)</sup> وهو (عليه السلام) يؤكد هذه الحقائق التاريخية ويدعو إلى الالتزام بها، فهي المنجاة من الخطأ، وهي الضمانة لبناء شخصية إسلامية معتدلة.

(١) نهج البلاغة، شرح الاستاذ محمد عبده: ١/ ١٤.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٢٤.

وإنَّ الإيمانَ يركِّزُ على اتِّباعِ تعاليم القرآن الكريم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وهو المنهاج، وهو الناصح، وفي ذلك يقول: ﷺ (واعلموا أنَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم...، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال، فاسألوا الله به، وتوجّهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه، إنّّه ما توجه العباد إلى الله بمثله.

واعلموا أنّه شافع مشفع، وقائل مصدّق، وإنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثه القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آراءكم، واستعشوا فيه أهواءكم...<sup>(١)</sup>.

والخطبة توضح بجلاء أهمية الإيمان بكتاب الله العزيز والتقيّد بأحكامه، والالتزام بما حلّل وحرّم. وهذا ممّا يهذّب سلوك الفرد، إذا يضع له ضوابط دقيقة لا يستطيع أن يتجاوزها، وبذلك يحفظ نفسه ويصونها من المهالك، وتنمو على وفق أسس سليمة قابلة للتأثير والاستدامة، محفوظة من الزلل. وهذه الضمانة ربما لا يجدها من ضعف إيمانه بكتاب الله، وهوت به نفسه إلى مدارك الخطيئة والذنب، فتغير سلوكه الاجتماعي، وتبدلت سماته الشخصية فهي واهنة ضعيفة متقلبة، لأنّ أساسها رخو من الشكّ قد جبل، ومن الوهن قد نسج؛ فتبدو عليه سمات شخصية غير متّزنة ولا معتدلة في سلوكها وفي مظهرها في المجتمع. وقال ﷺ: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بكتاب فصله، وأحكمه وأعزّه، وحفظه بعلمه، وأحكمه بنوره، وأيده بسلطانه، وكلاه من

لم يتنزّه هوى أو يميل به شهوة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزّل من حكيم حميد؛ ولا يخلقه طول الردّ، ولا يفنى عجائبه. من قال به صدق، ومن عمل أجر، ومن خاصم به فلج، ومن قاتل به نصر، ومن قام به هدي إلى صراط مستقيم. فيه نبأ من كان قبلكم، والحكم فيما بينكم، وخبر معادكم، أنزله بعلمه وأشهد الملائكة بتصديقه...<sup>(١)</sup>. وهذا التوضيح والاستدلال يعطي رصانة للشخصية الإسلامية التي تمثلت بهذه الأقوال وعملت على وفقها في الحياة، فتكونت لها سمات فارقة، هي ما يصبو لها الشرع الإسلامي، وبها تُصان الأمة ويُحمى المجتمع من الفساد والكوارث الاجتماعية، فتقوية بناء المجتمع تعتمد أساساً صلباً هو الإيمان بما أَرادَه الله تعالى لبني البشر حتى يحظى بالحياة الطيبة.

ولكي يتأكد الإنسان من شخصيته ومدى تأثيرها وتأثيرها في الآخرين، يقوده ذلك إلى فهم الشخصية، فيلجأ إلى تغييرها بما هو أفضل على وفق المعطيات الاجتماعية والنماذج المدخلة في نفسه وعقله<sup>(٢)</sup>. فالمقارنة مع الأصول تؤدي غرض التحسين في سلوك الإنسان وتقويم شخصيته.

## ٢- الاعتبار بالحوادث وتقلبات الزمن:

الاعتبار لغة: الاعتبار - لغة - بمعنى الاتعاظ كما في قوله تعالى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) [سورة الحشر: ٢]. قال الخليل: العبرة الاعتبار بما مضى أي الاتعاظ والتذكر. ويكون الاعتبار بمعنى الاعتداد بالشيء في ترتب الحكم [المصباح المنير ولسان العرب]. وكثيراً ما يستعمله الفقهاء بهذا المعنى. ومن المواضع القرآنية التي ورد فيها الاعتبار، قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة يوسف: الآية: ١١١]، و﴿وَإِنَّ

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) ينظر: الشخصية مقوماتها، سلوكها، وعلاقتها بالتعلم، د. توما جورج خوري، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م: ٢٠.

لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴿ [سورة النحل: الآية: ٦٦]، وقوله تعالى ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة النور: الآية: ٤٤]، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر: الآية: ٢]؛ وغيرها.

تعريف الاعتبار اصطلاحاً: عرفه الجرجاني (٨١٦هـ)، فقال: هو النظر في الحكم الثابت أنه لأي معنى ثبت وإلحاق نظيره به. وهذا عين القياس<sup>(١)</sup>.

(رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْزَةٍ هَادٍ فَنَجَا؛ رَاقَبَ رَبَّهُ وَخَافَ ذَنْبَهُ؛ قَدَّمَ خَالِصًا وَعَمِلَ صَالِحًا؛ اكْتَسَبَ مَذْخُورًا وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا، رَمَى غَرَضًا وَأَحْزَرَ عَوْضًا؛ كَابَرَ هَوَاهُ وَكَذَّبَ مُنَاهُ؛ جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةً نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةً وَفَاتِهِ؛ رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَاءَ وَلَزِمَ الْمَحْجَةَ الْبَيْضَاءَ؛ اغْتَنَمَ الْمَهْلَ وَبَادَرَ الْأَجَلَ وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ).<sup>(٢)</sup>

ويوضح صاحب كتاب بحار الأنوار للمجلسي (ت ١١١١هـ) بعض معاني هذه الألفاظ قائلا «(سمع حكماً - بالضم - أي حكمة وعلماً نافعاً «فوعى» أي حفظ علماً وعملاً، والرشاد الصلاح، وهو خلاف الغي والضلال، وهو إصابة الصواب ورشد كتعب، وقتل، والاسم الرشاد؛ كذا في المصباح «فدنا» أي من الداعي أو الحق والحجزة - بالضم - موضع شد الإزار ثم قيل للأزار: حجرة، للمجاورة، والأخذ بالحجزة مستعار للاعتصام والالتجاء والتمسك بأحد. «فنجا» أيخلص من الضلالة وعواقبها، والمراقبة الترسّد والمحافظة، ومراقبة الربّ الترسّد لأمره، والعمل به، والإقبال بالقلب إليه).<sup>(٣)</sup>.

(١) كتاب التعريفات المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ٢٤

(٢) نهج البلاغة: ١/ ١٢٥.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: محمد تقي المصباح اليزدي، محمد الباقر البهبودي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م: ٦٦/ ٣١٠.

ومما سبق يمكننا تأكيد الأهمية القصوى في اتخاذ القدوة أساً أصيلاً تقوم على الشخصية الإسلامية التي تشد الاستقامة في القول والفعل، فأصبح واجباً ملزماً أن يكون الإنسان المسلم على بينة في الاعتبار له في حياته من تبصرة ومن كشف يحتاج لسبر عوالمه والاستمرار في طريق قويم رسمه له الإسلام.

ونجد أيضاً تأكيد أهمية الاعتبار في نهج البلاغة في مواطن كثيرة، منها قوله (عليه السلام):

(مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوْ لَهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ، فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ سَاعَاَهَا فَاتَتْهُ وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ<sup>(١)</sup>). فذا الوصف للدار الفانية يأتي ليكشف للإنسان حالته ويوضح له مسلكه ويدلّه على طريق قويم سليم، عندما يتخذ من حوادث الأيام وتقلباته حكمته، وينظر فيها إلى غايته نظرة سليمة، قد فهمت ما عليها وتجنبت ما يشين سماتها فاستقامت فنجت وجانب الطريق الخاطئ وسلكت طريق الهداية، فبنت لها من هذا الاعتبار سوراً مانعاً وحصناً قوياً يحميها من الوقوع في المهالك ويحسن حياتها.

ويقول الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ): (أقول وإذا تأمل المتأمل قوله (عليه السلام): ومن أبصر بها بصرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن إليه قوله ومن أبصر إليها أعمته، فإنه يجد الفرق بين «أبصر بها» و«أبصر إليها» واضحاً نيراً وعجيباً باهراً<sup>(٢)</sup>).

وكذلك نجد أنه تأكد جلياً في نهج البلاغة الأخذ بالاعتبار قيمة لها فوائدها في إصلاح النفس الإنسانية، فتجارب غيرك تغنيك عن خوض تجارب مشابهة أو مثلها، وتوفر

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٧م: ٦/ ٢٣٨.

لك الجهد وتحملك من العناء وتحقق مرادك من غير كد وإرهاق. فخذ من غيرك ما تراه صالحاً ولن تجد ذلك إلا عند أصحاب العلم والدراية والإيمان؛ فالاعتبار بسيرتهم يغني النفس ويصونها، وكذلك حوادث التاريخ، حسنها وقبيحها، محل اعتبار، وداعية إلى الفهم والتبصر، ومنجاة من الزلل والخطأ؛ فهي إنارة ومنهج، ومن ذلك قوله (عليه السلام): (وهدوا سبيل المنهج، وعمرؤا مهل المستعجب، وكشفت عنهم سدف الريب، وخلوا المضمار الجياد، وروية الارتداد، وأناة المقتبس المرتاد، في مدة الأجل، ومضطرب المهل، فيا لها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوباً زاكية، وأسماعاً واعية، وآراء عازمة، وألباباً حازمة! فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر<sup>(١)</sup>). فالتمسك بالمنهج القويم الذي اختطه الإسلام، ومشى عليه خيرة المسلمين، فأنجاهم وحسن من سلوكهم، وقدموا بذلك لنا نماذج شخصية يقتدى بها، تمنح الطريق إنارة، وتثير في قلوب السالكين جذوة، وتمنع الزيغ والانحراف. والشخصية المسلمة شخصية متوازنة أرادها الله جلّ وعلا، وقدم لنا رسوله الكريم وأهل بيته الكرام ما يحسن بنا ان نعتبره ونجعل مسلكا لنا نعدل به شخصيتنا، ونميز بها من سواها، فلا بدّ للمسلم من شخصية واضحة المعالم معتدلة في سلوكها الروحي والجسدي.

ومما يزيد بالاعتبار ويقوي مكانته في بناء الشخصية الإسلامية المعتدلة، هو مبدأ التذكر الذي لا بدّ أن يظلّ حاضراً في النفس، حتى يقومها، وفي ذلك يقول الإمام علي (عليه السلام): (جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِيَتَعَيَّ مَا عَنَّا وَأَبْصَاراً لِيَتَجَلَّوْا عَنْ عَشَائِهِمْ وَأَشْلَاءَ جَامِعَةً لِأَعْضَائِهِمْ مُلَائِمَةً لِأَخْنَائِهِمْ فِي تَرْكِيبِ صُورِهِمْ وَمُدَدِ عُمرِهِمْ بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهِمْ وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهِمْ فِي مَجَلَّاتٍ نَعَمِهِ وَمُوجِبَاتٍ مِنْهُ وَحَوَاجِزٍ عَافِيَتِهِ، وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ وَخَلَفَ لَكُمْ عِبَرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعٍ خَلَاقِهِمْ وَمُسْتَفْسَحٍ خَنَاقِهِمْ، أَزْهَقْتُهُمُ الْمَنَآيَا

دُونَ الْأَمَالِ وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَحَرُّمُ الْأَجَالِ، لَمْ يَمَهِّدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أَنْفِ الْأَوَانِ.<sup>(١)</sup> فهذه المفاهيم التي أكدها النص لجديرة بالاعتبار، وهي تعيد النفس إلى صفاتها الأولى، وتذكرها بما حصلت عليه وما له واجب الشكر والحمد؛ وذلك مهذب لطباعها، ومعدل لا عوجاجها، فتسلك الطريق القويم ويعتدل مظهرها وجوهرها.

وفي نهج البلاغة كثير من النصوص الدالة على الأخذ بالاعتبار والحث على أن يكون مقوماً للسلوك وأساساً متيناً في بناء الشخصية الإسلامية المعتدلة.

#### ٤- التدبّر:

لقد وردت لفظة التدبر ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع منها قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ سورة النساء: الآية: ٨٢.

وقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد: الآية: ٢٤.

#### التدبّر في الاصطلاح:

قال السيوطي (ت ٩١١ هـ): المتدبّر أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كلّ آية ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان ممّا قصّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظّم، أو دعاء تضرّع وطلب<sup>(٢)</sup>. فالمعنى الاصلاحي غير بعيد عن المعنى اللغوي له.

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٣٩.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م: ١/ ١٢٧.



فيما قال الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ): (إنَّ التدبّر هو التأمل، لفهم المعنى، يقال: (تدبّرت الشيء) تفكّرت في عاقبته وتأملته، ثم استعمل في كلّ تأمل، والتدبّر أن يدبّر الإنسان أمره، كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته)<sup>(١)</sup>، وهو التأمل في من أجل الفهم السليم. وقد حثّ القرآن الكريم على التدبّر لفهم دلالات النصّ القرآني ثمّ العمل على وفق الفهم السليم لها، والتدبّر يحیی التفاعل بين النصّ ومتلقّيه، وهو سبب للتأسي بالنصّ، والاطلاع على مكنوناته، وتقوية لروابط الألفة بين النصّ والمتدبّر. وكلّما تعمّق التدبّر زاد يقين القارئ والمتدبّر لأحكام النصّ وتوجيهاته. والتدبّر لا يعني النظر في النصّ وتأمله وإعمال العقل فقط، لكنّه يتعدّى إلى النظر والتأمل في الوقائع الحياتية والاستفادة منها لتقييم السلوك، فكثيراً ما تكشف الحوادث عن صواب رأي أو نقيضه.

فالشخصية المسلمة تضع التدبّر ركيزة أساسية في بنائها لما له من أهمية كشف غاية سعى إليها الإسلام وتحقيقها؛ فالتأمل يعني عدم التعجّل في إصدار الأحكام، ويعني الوقوف الدقيق على الحوادث وفهم أسبابها ونتائجها ثمّ تقييمها. وكثيراً ما كان الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة ما يؤكد أهمية التدبّر؛ ومن ذلك قوله (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعُشُورَةِ، وَتَنْقَاضُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ -عَزَّتْ أَلَاؤُهُ- فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْإِبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفُلُوتِ مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ. وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ، وَإِنْ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا

(١) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ: ١/ ٩٠٤.

بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتُمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ؛ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ...<sup>(١)</sup>. في هذا النص البليغ حث واضح على القيام بالتدبر وتنويه لأهميته في حياة الناس؛ فمن عاش متدبراً لآيات الكتاب الحكيم كان متبعا لتعاليم الدين، وقد ثبتت أفكاره وأوامره ونواحيه في قلب المتدبر وسمعه وبصره، ومن ثم اكتسب قوم أساساً في بناء الشخصية السليمة القائمة على ركائز من العلم والتقوى، حتى وصفهم الإمام عليه السلام من كثرة تدبرهم (فكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ...). فالوصول إلى هذه الغاية ليس سهلاً إن لم يكن التدبر أساساً له، وهي مرحلة من النضج للشخصية الإسلامية المعتدلة، لأن المهام الأساسية التي يضطلع بها الموجه يكرسها لبناء سمات شخصية؛ لذا يتطلب الاعتناء أشد العناية بالسمات الشخصية للفرد المسلم وإعداده إعداداً يتناسب مع المبادئ والتعاليم الإسلامية لضمان تفاعله مع الحياة بما ينجيهِ ويصلح واقعه<sup>(٢)</sup>، فعملية بناء الشخصية المسلمة لا تكتمل إلا بتدبر القرآن الكريم، وذلك ما وجدناه في نهج البلاغة في مواضع كثيرة، ومنها عند تلاوته عليه السلام «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» أدحض مسؤول حجة، وأقطع مغترّ معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه.

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٢١.

(٢) ينظر: مقدمة في التربية الإسلامية، صالح بن علي، الدار الصولية، الرياض، ط ١: ١٢١٠.

يا أيها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك، وما غرّك برّبك، وما آنسك بهلكة نفسك؟ أما من دائك بلول، [أم] ليس من نومك يقظة؟ أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك؟ فربّما ترى الضّاحي من حرّ الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده، فتبكي رحمة له، فما صبرك على دائك، وجلدك بمصابك، وعزّاك عن البكاء على نفسك وهى أعزّ الأنفس عليك؟ وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة، وقد تورّطت بمعاصيه مدارج سطواته، فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً، وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه، ويتغمّدك بفضلّه وأنت متولّ عنه إلى غيره...) (١). وفي هذا النصّ تنبيه للمسلم إلى أن يكون يقظاً غير غافل؛ فبالغفلة يقع في المهالك، وعلى المسلم امتلاك العزيمة والطاعة فإنّها تحصن الشخصية المسلمة، وتقوي ارتباطها بخالقها وبدينها، ومن ثمّ تتحسن سمات الشخصية، فإنّها تضعف أحياناً، لكنّ عوامل الإيمان التي يزيدها التدبّر قوة ويكسبها مناعة قادرة على إظهار السمات الفارقة للشخصية المسلمة المعتدلة. وهنا نلاحظ التركيز على إعمال العقل، فكثيراً ما دعا سبحانه وتعالى إلى إعمال العقل في الظواهر الاجتماعية، وفي النعم التي أسبغها سبحانه على الإنسان في بيئته التي وفرت له مقومات الحياة السليمة إذا ما أحسن استعمال ما موجود ومتاح ببصيرة وبجهد علمي قوامه العقل الذي يسهل كثيراً من الصعاب ويعطي حلولاً لمشكلات الحياة التي تواجه الشخصية المسلمة.

وفي نهج البلاغة شواهد كثيرة على الحثّ على تدبّر القرآن الكريم وأتباع تعاليمه صوناً للنفس وحفاظاً عليها من مرديات الزمن.

## المبحث الثاني

## مظاهر الشخصية المعتدلة

إن الشخصية الإسلامية المعتدلة التي قامت على الأسس التي ذكرناها في المبحث الأول وغيرها مما ركز عليها الدين الإسلامي وقبلتها الفطرة السليمة، لا بدّ لها أن تترك مظاهر بارزة فارقة للشخصية الإسلامية؛ ومن هذه المظاهر:

## الاستقامة:

الاستقامة تعني اتباع الصراط المستقيم، وفعل الطاعات واجتناب فعل المعاصي. إذن هو نهج ينتهجه المسلم في حياته، ويكون مستقيماً يفعل الصالحات من الأمور ويجتنب المنكرات. يمكن الاستدلال على مفهوم الاستقامة اصطلاحاً من خلال قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة هود: الآية: ١١٢) والتي تعني أن الاستقامة هي اتباع الصراط المستقيم، وفعل الطاعات واجتناب فعل المعاصي. إذن هو نهج ينتهجه المسلم في حياته ويكون مستقيماً يفعل الصالحات من الأمور ويجتنب المنكرات.<sup>(١)</sup> فسلوك الطريق القويم هو الهدف الأسمى للإسلام، ولقد أكدّه كثيراً في الكتاب العزيز؛ وعلى هديه وتوجيهه نجد أن الإمام علي عليه السلام قد اهتم كثيراً بالاستقامة. وجاءت نصوص نهج البلاغة زاخرة الشواهد التي سوف نختر منها ما يؤكد أن الاستقامة سمة الشخصية الإسلامية البارزة، والعنوان الرئيس الذي يدلّ على التأثير بالدين واتباع

(١) مختصر تفسير ابن كثير، المؤلف، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط٧،

أوامره ونواهيه، ومن ثم التقيد التام الذي يمنح الشخصية الحصانة من الزلل ويؤكد ظهورها البارز في المجتمع. ومن ذلك ما نجده في قوله ﷺ إلى واليه على الأهواز يتوعده لأنه جاوز الاستقامة في حكمه وسلوكه، يقول: (وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا - لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا - لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ - ثَقِيلَ الظَّهِرِ ضَبِيلَ الْأَمْرِ وَالسَّلَامِ)<sup>(١)</sup>. ولو لم تكن الاستقامة في الشخصية الإسلامية ركناً ومظهراً واجب التحقق في الوالي والرعية، لما أغلظ عليه الإمام ﷺ وتوعده. يقول ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ) شارح نهج البلاغة ما نصه (وحاصل الفصل تحذير الوالي من خيانة ما يليه من مال المسلمين ووعيده إن وقعت منه بالعقوبة عليها. وكنتى عنها بالشدة ووصف شدة تلك الشدة باستلزامها أموراً ثلاثة، فيها سلب الكمالات الدنيوية والأخروية:

أحدها: نقصان ماله وقلته، والثاني: نقصان جاهه. وكنتى عنه بقوله: ضبيل الأمر. وهما سالبان للكمال الدنيوي<sup>(٢)</sup>). وهنا يتضح نقصان كمال الشخصية المسلمة التي سمتها الاستقامة والاعتدال في المظهر والسلوك للوالي ولكل من كان من الرعية.

ولعل أوضح دلالة على الاستقامة حادثة أخيه عقيل، وقد ذكرها، وأنكر عليه طلبه المال على الرغم من العوز والحاجة. وها هي كما سردها الإمام ﷺ: (وَاللَّهِ لَأَنَّ أَبَيْتَ عَلَى حَسَنِ السَّعْدَانِ مُسْهَدًا أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفِّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْخَطَامِ؛ وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا. وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا، وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرْكَكُمْ صَاعًا، وَرَأَيْتُ صَبِيَانَهُ شُعْتَ الشُّعُورِ غُبَرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقَرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْمِ. وَعَاوَدَنِي مُوَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا؛ فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ

(١) نهج البلاغة: ١٩/٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، كمال الدين بن ميثم البحراني، دار الحبيب، ١٤٣٠ هـ: ٣٩٩.

دِينِي وَاتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي. فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَرِبَ بِهَا، فَضَجَّ  
ضَجِيجَ ذِي دَنْفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ  
أَتَتْنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانَهَا لِلْعَبِيهِ، وَتَجَرَّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِعَضْبِهِ<sup>(١)</sup>.

قال عبده في شرحه لنهج البلاغة ما نصّه: (عقيل: أخوه، وأملق: افتقر أشدّ الفقر،  
واستماحني:

استعطاني، والبرّ: القمح، وشعث: جمع أشعث، وهو من الشعر المتبلد بالوسخ، والغبر  
-بضمّ الغين- جمع أغبر: متغيّر اللون، والعظم -كزبرج-: سواد يصبغ به، قيل: هو  
النيلج، أي النيلة، القياد: ما يقاد به كالزمام، الدنف -بالتحريك-:

المرض، والميسم -بكسر الميم وفتح السين-: المكواة، وثكل، كفرح: أصاب ثكلاً  
-بالضم- وهو فقدان الحبيب أو خاص بالولد، والثواكل: النساء، دعاء عليه بالموت لتألمه  
من نار ضعيفة الحرارة، وطلبه عملاً، وهو تناول شيء من بيت المال زيادة عن المفروض  
له يوجب الوقوع في نار سجرها -أي أضرّمها- الجبار...<sup>(٢)</sup>. وليس أدلّ على الاستقامة  
من هذه الحالة. فالإنسان ربما تأخذه العاطفة ويؤثر فيه الموقف وتؤذيه الحالة ويهون عزمه  
ويلين، لكنّ إمامنا عليه السلام يقدم النموذج الصالح للاستقامة على المبادئ وعدم الانجرار  
وراء العاطفة، وتلك سمة الشخصية الموقنة برّبها المطيعة له، وهي التي لا بدّ أن يتحلّى  
بها الإنسان المسلم في أيّ زمان لأنّها مدعاة للقبول عند الله تعالى، وهي مظهر من مظاهر  
المؤمنين بالدين الحنيف.

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢١٨.

## ٢. الثبات:

إنَّ المعنى اللغوي هو الاستقرار وعدم المفارقة أو الابتعاد، والسكينة، وكلّها تكاد تجمع على الرسوخ والاستمرار على حالة واحدة. وهذا يراد من الشخصية المسلمة أن تكون مستقرة ثابتة على المبادئ، فالثبات يعني الالتزام بقوة بما سنّه الدين الحنيف وبما اكتسبه الإنسان المسلم من القدوة الحسنة المتمثلة بالرسول الأكرم ﷺ وبسيرة أهل البيت (صلوات الله عليهم) وبسيرة الصالحين من الصحابة. فالثبات يعطى الشخصية سمة بارزة تختلف عن دانت شخصيته للأهواء والتقلبات النفسية والاجتماعية التي لا يريد لها الدين الإسلامي لشخصية المسلم المعتدلة.

الثبات في الاصطلاح: (لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الدالّ على لزوم المكان دون تحرّك ولا تزلزل، ويستعار للدوام على الشيء، وعدم التردد فيه).<sup>(١)</sup> ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحثّ المسلمين على الثبات في السلم وفي الحرب، ونجد في نهج البلاغة نصوصاً كثيرة تحثّ وتدعو المسلمين على الثبات وامتلاك القوة الإيمانية في الحياة الطبيعية وفي الحرب والبأس؛ ومن ذلك قوله ﷺ في بعض خطبه: (ثم إنَّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، وأصفاه خيرة خلقه، وأقام دعائمه على محبّته. أذلّ الأديان بعزه، ووضع الملل برفعه، وأهان الأعداء بكرامته، وخذل محادييه بنصره، وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش من حياضه، وأتاق الحياض بمواتحه، ثم جعله لا انفصام لعروته، ولا فك لحلقته ولا انهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدّته ولا عفاء لشرائعه، ولا جذّ لفروعه،

(١) التحرير والتنوير، « المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد »، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ: ٣٠ / ١٠.

ولا ضنك لطرقة، ولا وعوثة لسهولته، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لانتصابه، ولا عصل في عوده، ولا وعث لفجّه، ولا انطفاء لمصايحه، ولا مرارة لحلاوته، فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، وثبت لها أساسها، وينابيع عززت عيونها، ومصاييح شبت نيرانها، ونار اقتدى بها...<sup>(١)</sup>. فذا النصّ الذي يبين الدين وكيفية ثباته في النفس الإنسانية، فهو يوحى لنا الدعوة الصريحة للالتزام به والثبات عنده، فإن الثبات يمنح المسلم القوة (والمؤمن القويّ خير من المؤمن الضعيف)، فالثبات مظهر من مظاهر الشخصية الإسلامية المعتدلة ولأنّ ثبات الإنسان على دينه يؤدّي إلى زيادة الإيمان ورسوخه في القلب.

ومن النصوص الأخرى التي وردت في نهج البلاغة في موضوع الثبات وأهميته للمسلم، ما نجده في قوله ﷺ (أَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصَلْ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ كُلِّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ إِلَّا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا. وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَيُثَبِّتُ الْأَفئِدَةَ فِيهِ كِفَاءً لِمُكْتَفٍ وَشِفَاءً لِمُسْتَفٍ)<sup>(٢)</sup> وتثبيت الأفئدة على الدين هو صون لها من الزيغ وحماية لشخصية المسلم. فالمسلم الثابت عنوان للهيبة والاحترام، ومدعاة إلى التمثل به والافتداء بسيرته؛ وهذا ممّا يعزّز انتشار الدين ويقدم أنموذجاً صالحاً للحياة، ربما كثير من الناس لا تجد له مثيلاً في ظروفها الحياتية والاجتماعية، فالثبات هو استقرار للنفس وللبدن، وحين يحدث ذلك للإنسان يكون متوازناً قادراً على أداء مهامه الدنيوية والأخروية.

وفي نصوص نهج البلاغة شواهد كثيرة على الدعوة للثبات على المبادئ الإسلامية والاطمئنان والثقة بالنفس التي تثمر إنساناً مقتدراً صالحاً للعمل الديني والحياتي، بعيداً

(١) نهج البلاغة: ١٧٥ / ٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٥ / ٢.



عن المغريات لا يتقلب مع الريح حيث تميل ولا تؤثر فيه الأهواء والعواطف وتستفزه المغريات الدنيوية، فحقّ للثبات أن يكون مظهرًا مهمًا من مظاهر الشخصية الإسلامية المعتدلة.

### ٣- التواضع:

لا يكاد يختلف المعنى اللغوي، وهو التذلل والخشوع عن الاصطلاح، وإن اختلفت بعض التعريفات منه (أن يرى الإنسان نفسه دون غيره في صفة الكمال)<sup>(١)</sup>. وهناك من يرى أنّ التواضع يعني (انكسار القلب لله وخفض جناح الذلّ والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى عند أحد له حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه)<sup>(٢)</sup>، وأياً كان الأخذ من التعريفات، فإنّ التواضع هو النزول من أعلى إلى أدنى لغرض أخلاقي أو ديني. والتواضع قد يكون في النفس، وقد يكون في الخلق، وهما حسنان؛ وهنالك تواضع مذموم كالتواضع من أجل نيل مكسب دنيوي، أو الخضوع والتذلل للسلطان الجائر.

ولقد وصف القرآن الكريم هذه الصفة المحمودة عند المسلمين الصادقين فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ سورة الفرقان: الآية: ٦٣.

وبهذه الصفة يتضح معنى التواضع. وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ سورة لقمان: الآية: ١٨.

(١) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ١٥٠.

(٢) شعب الإيمان أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م: ١٠/٥١٠.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النبي ﷺ (بأنهم يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين)<sup>(١)</sup>. وعلى هذا المنهج القويم الذي اختطه الدين الإسلامي واتبعه المسلمون الأوئل في حياتهم، كان الإمام علي (عليه السلام) كثيراً ما يبحث أصحابه ومن يخاطب من الناس على الالتزام بمبدأ التواضع، فهو سمة المؤمنين وعنوانهم. ومن ذلك ما نجده في قوله (روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين (عليه السلام) اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك، فاستدعى شريحاً، وقال له: بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.

فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له:

يَا شَرِيحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً (١)، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شَرِيحُ لَا تَكُونَ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شَرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدَرَاهِمٍ قَلِيلَةٍ فَوْقَ. وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ: هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُرْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةٌ (٢) الْهَالِكِينَ، وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارُ حُدُودَ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ (٣) بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَى هَذَا الْمُعْتَرِبُ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُرْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالْدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالصَّرَاعَةِ (٤)، فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِيَ فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ، فَعَلَى مُبْلَلِ أَجْسَامِ (٥) الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاغَةِ، مِثْلَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحَمِيرٍ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ

(١) فتح القدير للشوكاني: ٥٩/٢.

فَأَكْثَرُ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ (٦)، وَزَخَرَفَ وَنَجَّدَ (٧)، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ (٨)، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ (٩) جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرَضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>. ففي هذا النص الذي أَرَّخَ لحادثة أنارت الدرب لمن يريد أن يتقي وأن يظهر التواضع مكوناً ثابتاً في حياته، فقد وبَّخه الإمام وذكر له ولغيره أنَّ الدنيا فانية. فَلِمَ هذا التباهي؟ وَلِمَ هذا التميز عن الناس فإنَّ ذلك مما يؤثر في الرعية. فكلِّما كان الوالي متواضعاً ازداد حبَّ الرعية له وتمسكوا به واعتزوا بشخصه، ونفذوا أوامره وذلك مدعاة لصالح المجتمع الإسلامي. فقد جاء في الحديث الشريف (من ترك اللباس وهو يقدر عليه تواضعاً لله - عزَّ وجلَّ - دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره من حلل الإيمان يلبس من أيها شاء)<sup>(٢)</sup>. فالقرآن الكريم قد مدح المتواضعين، ونبي الرحمة ﷺ قد أكد ذلك بأحاديثه وسيرته العطرة، وأكدها إمامنا ﷺ في نصوص كثيرة من نهج البلاغة بعدما احتفظ بهذه الصفة لنفسه وحثَّ على الاقتداء به. ومن محاسن المسلم أن تكون له شخصية متميزة في المجتمع، ساطعة لا شائبة فيها، ومنارة يبتدى إليها. وبذلك يكون المجتمع الذي يخلق شخصية إسلامية معتدلة في قولها وفعلها وسلوكها، هدفاً لكلِّ طالب صلاح في مجتمعه وأنموذجاً يحتذى به؛ وهذا ما يؤكده الإمام علي ﷺ في كثير من النصوص في نهج البلاغة، وقد كانت سيرة الأنبياء والأئمة في الحياة سيرة تؤكد هذا المظهر وتعزز وجوده. ولنا في سيرة الإمام علي ﷺ أمثلة كثيرة وشواهد ناصعة في حياته العملية منذ اعتناقه الإسلام وهو يافع إلى استشهاده، ظلَّ التواضع سمة بارزة للشخصية التي نراها القدوة الصالحة لنا وللأجيال القادمة، لأنَّ اصرارنا على الثبات يعزز من بناء أنفسنا، ويمنحنا التميّز بين الأمم المختلفة والثقافات والديانات، وكلَّ هذه المظاهر إذا ما تحققت فإنَّها تمدُّنا بالعزم على الثبات على المبادئ لكي نحقق سمة الشخصية المسلمة المعتدلة.

(١) نهج البلاغة: ٤/٣.

(٢) صحيح الترمذي: ٤/ ٢٣١.

ولقد اقتصرنا على هذا لأنّ للبحث حدوداً، ولا نريد أن نتسع أكثر. ربما يكون لنا بحث منفرد في هذه الموضوعات، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين.

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد هذا الخوض في بحار نهج البلاغة بحثاً عن لآلئ القول ومضامين الحكم والأفكار النيرة، والدروب الواضحة الجلية التي هدانا لها إمامنا عليه السلام، وفي موضوعة تختلف فيها الأقوال وتتباين فيها التعريفات، وتتلاطم بين الأمواج سفنها، وجدنا في نهج البلاغة ما يمكن تلخيصه بالآتي:

١- لا تقوم الشخصية المسلمة المعتدلة إلا إذا اعتمدت على أسس راسخة واضحة. لذلك نظرنا في الأسس التي تقوم عليها الشخصية الإسلامية المعتدلة التي نحن في أوج الحاجة إليها في زماننا الذي غشيتة الأفكار والفتن حتى كاد الناس لشدة الهجمة وكثافة الظلمة أن يتيهوا في خضمها ولا يبين لها الطريق القويم.

٢- ركز البحث على الأسس السليمة القادرة على النهوض بالشخصية إلى مصاف من التألق لنخلق إن شاء الله بعزم خيري هذه الأمة شخصية سليمة معتدلة؛ ومن أهمها تحقيق الإيمان القوي في نفس المسلم وتمثله في سلوكه وعمله قولاً وفعلاً.

٣- إن في نهج البلاغة كثيراً من النصوص الدالة على تميز الشخصية الإسلامية المعتدلة فضلاً عما قدمه لنا من نموذج فعلي عملي في الحياة التي عاشها على الرغم من الفتن والمحن. فوجدنا أن أول أسس تبني عليه الشخصية الإسلامية المعتدلة، هي أسس الإيمان الراسخ، ومن الاقتدار بالأسوة الحسنة محمد وآله الأخيار (صلوات الله عليهم).

٤- حث الإمام علي عليه السلام في نصوص نهج البلاغة على التدبر في القرآن، وفي حوادث الزمان، والتفكير، وإعمال العقل هو منجاة وأس صلب للبناء المنشود للشخصية المعتدلة،

- ٥- أكدت لنا نصوص نهج البلاغة نماذج تعكس سمات الشخصية الإسلامية المعتدلة سواء في شخصية الإمام (عليه السلام) أو في النماذج الخيرة من أصحابه الخُلص، وفي شواهد كثيرة في نهج البلاغة دلّت على مظاهر الشخصية الإسلامية المعتدلة المرجوة.
- ٦- إنَّ أوضح سمة من سمات الشخصية الإسلامية المعتدلة التي وجدناها في نهج البلاغة هي سمة الاستقامة؛ الاستقامة في السلوك والعمل.
- ٧- ودلّت أيضاً نصوص نهج البلاغة على سمة أخرى من سمات الشخصية الإسلامية المعتدلة ألا وهي سمة الثبات على المبدأ، وله شواهد كثيرة في نهج البلاغة.
- ٨- ما كانت هذه السمات الخاصة للشخصية الإسلامية المعتدلة لتظهر لولا التقيد التام بما جاء به الدين الإسلامي، وأكدّه القرآن الكريم في كثير من نصوصه المقدسة. وكان للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) حثّ ودعوة إلى الالتزام، وتمثل في الواقع؛ وعليه سار الإمام علي (عليه السلام) ودعانا إلى الظهور بهذا المظهر المائز.

## المصادر

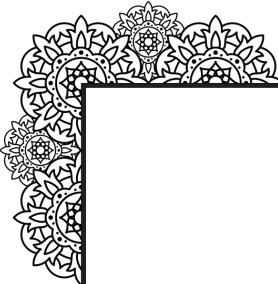
### القرآن الكريم

١. أبعاد متطورة في الفكر التربوي، نبيه يس، مطبعة الخانجي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٧٩ م.
٢. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
٣. إدارة السلوك الإنساني والتنظيمي، رائد يوسف الحاج، دار غيداء عمان، ط ١، ٢٠٠٨ م.
٤. الأصول الحضارية للشخصية، رالف لتون، ترجمة، عبد الرحمن اللبان. دار اليقظة، بيروت، ١٩٦٤ م.
٥. الإنسان من أجل ذاته، أريك فروم، ترجمة محمود منقذ، ٢٠٠٧ م.
٦. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: محمد تقي المصباح اليزدي، محمد الباقر البهبودي الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
٧. البنية النفسية عند الإنسان، كارل يونج، ترجمة، نهاد خياط، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ١٩٩٤ م.
٨. التحرير والتنوير، «المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
٩. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت ١٥٠ هـ) تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط ١ - ١٤٢٤ هـ.

١٠. جامع البيان في تأويل آي القرآن، المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث - مكة المكرمة.
١١. الشخصية، مقوماتها، سلوكها، وعلاقتها بالتعلم، د. توما جورج خوري، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٢. الشخصية من منظور نفسي إسلامي، د. نادية أحمد التل، الكتاب العربي، أربد، الأردن. ٢٠٠٦م.
١٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠٧م.
١٤. شرح نهج البلاغة، كمال الدين بن ميثم البحراني، دار الحبيب، ١٤٣٠هـ.
١٥. شعب الإيمان أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٦. صحيح مسلم، لابي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ، تحقيق ودراسة مركز البحوث وتقنية المعلومات دار التأصيل، القاهرة، ٢٠١٤م.
١٧. علم النفس الاجتماعي، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.
١٨. كتاب التعريفات المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٩. علم النفس الاجتماعي، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.



٢٠. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ.
٢١. مختصر تفسير ابن كثير، المؤلف: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط ٧، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.
٢٢. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٣. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٤. المعجم الوسيط المؤلف: نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة الناشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ٢ ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٢٥. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) تحقيق، صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ.
٢٦. مقدمة في التربية الإسلامية، صالح بن علي، الدار الصولية، الرياض، ط ١.
٢٧. الموجز التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ترجمة، سامي محمد علي، وعبد السلام القفاش، هيئة الكتاب، ط ٤، مصر، ٢٠٠٠م.
٢٨. نهج البلاغة، شرح الاستاذ محمد عبده، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.



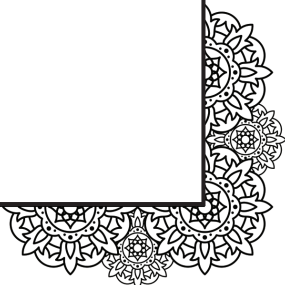
## تجلیات حقوق الإنسان

عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة  
« التعايش السلمي أنموذج »

الباحثُ

أ.م.د. عبد الهادي كاظم كريم

جامعة بابل - كلية التربية الأساسية



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير رسله وخلقه أجمعين أبي القاسم محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الأئمة الطيبين الطاهرين المعصومين، وأصحابه الغر الميامين الذين لم ينقلبوا على أعقابهم بعد حين.

أما بعد:

فإن أهل بيت رسول الله ﷺ هم معدن العلم والفهم والمعرفة المتنوعة والعلوم المشرفة على مشارب شتى وميادين واسعة لا تقف عند حدٍّ مخصوص، بل تكاد أن تشمل كل علم وفن؛ لذا ينهل منها كل طالب للعلم والفهم والحقيقة، ولا غرابة في ذلك؛ فهم أهل لذلك، ورثوا العلم عن آبائهم عن أجدادهم عن رسول الله ﷺ عن الله سبحانه وتعالى، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أصل هذه الأرومة العظيمة، وأساس سلسلتها الذهنية المعهودة عند المسلمين جميعاً وعند غيرهم أيضاً.

جاء هذا الجهد ليبحث في جانب واحد آخر مما أثر عن الإمام علي عليه السلام، وكان له فيه قدم السبق وتأسيس الفكر ووضع اللبنة الأولى فيما اصطلح عليه بـ (حقوق الإنسان) متمثلة في التعايش السلمي في المجتمع في عصرنا الحديث، إذ بثّ عليه السلام هذا الفكر المكتنز وهذه اللبنة في كلامه المقدس الذي وصل إلينا عبر سفره الخالد (نهج البلاغة) ليستجلي بعضاً من الدلالات البلاغية الراقية التي انطوى عليها خطابه، والمعاني الجميلة السامية التي أفادها في الإصلاح الاجتماعي الذي يمثل التعايش السلمي مظهرًا من مظاهره مزدانة بأثوابها اللفظية الزاهية البهية التي تشع نورًا وإيمانًا وعقيدة راسخة وخلقًا رفيعًا وأدبًا عظيمًا؛ فصار بحثًا، عنوانه (تجليات حقوق الإنسان عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام) في

نهج البلاغة، التّعايش السّلميّ أنموذج). وقصرنا البحث على نماذج مخصوصة منها؛ لأنّ المجال لا يسع لبحثها جميعاً؛ ولكي يكون البحث منسجماً مع الشّروط التي وضعت له.

وخطّة البحث ومنهجه قاما على قراءة هذا السّفر العظيم الخالد (نهج البلاغة)، وبيان ما ورد فيه من تجليات التّعايش السّلميّ ومظاهره في كلام الإمام (عليه السلام) على حسب ورودها فيه؛ فيجري البحث على وفق النّماذج المختارة منه، فتناولها بالدراسة والبيان والشرح والدّلالة، ثمّ تنتقل إلى نصّ آخر منها، وهكذا في كلّ واحد منها إلى إتمام البحث ونهايته بعون الله تبارك وتعالى.

كشف البحث عن دلالات متنوّعة ومعاني رفيعة في تأصيل التّعايش السّلميّ في المجتمع، والتّأسيس له، والدّعوة إليه، ووضع السبل الكفيلة بتحقيقه وتمتينه، ورعايته والمحافظة عليه، وحثّ النّفس قبل الآخر في توحيه والتّمسك بمضامينه وأصوله، والعمل على تطبيقها في الحياة، وجعلها حاضرةً في النّفس والدّهن؛ ينطلق منها في القول والعمل؛ كي ينعم الفرد بالأمن والأمان؛ ويشعر بالطمأنينة والراحة، فيحيا المجتمع حياةً هادئةً سعيدةً يملؤها الودّ والسّعادة؛ وأسّها وأساسها التّعايش السّلميّ المنشود. وجاء كلّ هذا عنه (صلوات الله تعالى وسلامه عليه) في أثواب بلاغيّة جميلة تراعي ظروف الآخر المخاطب على وفق مقامه وسياق الكلام الذي يناسبه، جديرة بالاهتمام والتّتبّع والبحث على المستوى اللفظيّ والمستوى الدّلاليّ ضمن آفاق اللغة الرّحية وأساليبها الخطابيّة المتنوّعة التي شكّلت نسقاً يجاري أسلوب القرآن الكريم الفريد والمعجز الذي يسع ما لا يسعه أيّ أسلوب آخر غيره، وكذلك كشف لنا بعضاً من ملامح سعة علمه وطول باعه (عليه السلام) في هذا النّحو من العلم وأصوله العلميّة التي يرجع إليها، ولا عجب في ذلك أبداً؛ فهو نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله). وفي الختام لا يسعني إلّا أن أقول من الله تعالى التّوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

### توطئة:

كثرت الأصوات وقامت الدّعاوات ورفعت الشّعارات المطالبة بالتّعايش السّلميّ، ونبذ العنف والتّطرف في العصر الحديث، ولا سيّما المعاصر الذي نعيش فيه، سواءً أكانت من الأفراد أم المجتمعات أم المنظّمات الإنسانيّة في العالم أم الدّول أم الأمم أم الملل والنّحل والأديان بعد أن ذاق الجميع ويلات العنف والاحتراب، وتقهقر التّعامل والتّعايش بين الفرد والآخر، الذي كانت تغذّيه البغضاء والشّحناء الصّادرتان من النّفس الإنسانيّة، والأهواء والأطماع للأمم والدّول المستعمرة من أجل السّيطرة على الشّعوب الضّعيفة، ونهب ثرواتها وخيراتها، لتأمين وجودها وضمان مستقبلها؛ فكانت تجد في زراعة البغض والعنف وعدم القبول بين الأفراد والشّعوب والمجتمعات السّبيل المثلى لتحقيق أهدافها ومآربها. فتجرّع الجميع الآلام، والأذى، والوجع، المستمرّ طوال تلك السّنين العجاف، إن لم تكن عقودًا، ودفعوا ثمنًا باهظًا نتيجةً لذلك، تمثّل بإزهاق الأرواح وقتل النّفوس التي حرّم الله سبحانه وتعالى قتلها إلّا بالحقّ. وأخذ ينتشر ذلك العنف في مدن كثيرة ودول صغرى وكبرى متعدّدة في العالم حتّى وصل شرره إلى الدّول التي حرّضت عليه، وسعت إلى إنتاجه، فاستخدمته طريقًا للوصول إلى أهدافها؛ إذ لم تنج من آثاره وأضراره، فسارعت إلى التّنديد به والوقوف بوجهه، ومحاربته والقضاء على ذخيرته وعتاده من الأفراد والجماعات المتطرّفة وطرق إمدادهم بالسّلاح والمال والمرزقة، حتّى عادت هذه المواجهة والحرب الشّعواء على ما سمّي بـ(الإرهاب الدّوليّ) ذريعةً مثلى، وكذلك ذريعة القضاء عليه واجتثاثه، استثمارتها تلك الدّول لتعود من جديد بفرض سيطرتها واستعمارها لتلك البلدان التي أخرجت منها متبنيّة اتّهام الإسلام، وكلّ المذاهب العقديّة والفقهية المنتسبة إليه بكلّ ذلك العنف ومظاهره في المجتمعات الإسلاميّة، وغير الإسلاميّة، والعربيّة، وغير العربيّة، والشرقيّة، وغير الشرقيّة؛ وتمّ لها ذلك. ونجحت في خلق هذه الذّريعة

المصطنعة بواسطة المكائن الإعلامية التي تسيّرُها على وفق رؤاها وخططها وأهدافها تارةً، وعبر التّضليل الكبير للرأي العامّ العالمي على الرّغم من انفتاح الآفاق في التّواصل ونقل الأحداث والوقائع بين النّاس والمجتمعات بفعل الثّورة التّكنولوجيّة الحديثة الكبرى تارةً أخرى. ولكنّا، في الوقت نفسه، لا ينبغي لنا مجانبة الواقع والحقائق على الأرض، فننفي هذا الاتّهام نفيًا قاطعًا جملةً وتفصيلاً، لأنّ هذه المجانبة تدخلنا في دائرة التّضليل والباطل أيضًا، وتبعدنا عن الحقيقة الثّابتة؛ وحيثُ لا نكون منصفين، ولا نكون موضوعيّين في الطّرح والبحث والتّحليل، ونحن أولى بذلك بوصفنا أكاديميّين وباحثين، نبحت عن الصّواب والحقيقة؛ فنظهرهما؛ بل نصبح موزورين عند الله سبحانه وتعالى، وتسقط بين النّاس عنّا هاتان الصّفتان اللتان تُتّوخيان عند الباحث الأكاديميّ أكثر من غيره؛ إذ يجب عليه أن يتّصف بالموضوعيّة والصدّق في بحثه وما يطرحه فيه، بوصفه باحثًا عن الحقيقة أينما وجدت، يتحرّى عنها، ويثبتها؛ كي يصل إلى نتائج حقيقيّة صادقة مقبولة. فنقول بعد هذا: نعم، هناك من يصدق عليه ذاك الاتّهام من الجماعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام أو تنسب له ظلمًا وزورًا في العصور القديمة والحديثة، وهي معروفة ومعلومة، ولا نريد الخوض في أسمائها وأصحابها وأوصافها وأعمالها كي لا يشطّ بنا الكلام والبحث فيما لا علاقة لنا به هنا في هذا المكان، ومن يريد البيان فيه، والتّفصيل به والاستزادة منه فليرجع إلى مظانّه ومصادره، وهي كثيرة ومتوافرة.

إنّ قصدنا وما نريد قوله هنا أنّ هذا الأمر لا يغيّر من الحقيقة شيئًا، فتلك الجماعات المعروفة بالتّشدد والعنف والإرهاب لا تمثّل الإسلام الحقيقيّ على الرّغم من ادّعائها الانتساب إليه لأنّها تخالف قواعد الإسلام الصّحيحة وأصوله السّليمة الثّابتة التي جاء بها الرّسول الكريم محمد ﷺ عن الله عزّ وجلّ، وتخالف نهجه العظيم ﷺ في الدّعوة إلى الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>، (فد التي هي أحسن) في الدّعوة إلى الإسلام، وفي الحوار والمجادلة، وفي دفع السيئة والعدو أصل ثابت صحيح من أصول الإسلام التي قام عليها ودعا إليها الناس بجعلهم إياها منهج حياة وسبيل نجاة لهم.

إن الإسلام المحمّديّ الأصيل الحقيقيّ الثّابت هو الذي تمثّل بسلوك الرّسول المبعوث رحمةً للعالمين محمد ﷺ الذي تجلّى في قوله، وعمله وسيرته.

وظهر كذلك عند آله وعترته ﷺ في فكرهم، وكلامهم، وعملهم، وسيرتهم، ومنهجهم في الحياة، وفي مقدّماتهم الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ إذ كان لفكره، وكلامه، وعمله النّصيب الأوفى في إرساء دعائم البناء الصحيح للمجتمع الإنسانيّ عامّةً، أيّا كان هذا المجتمع إسلامياً أو غير إسلاميّ، وتأسيس أصوله، ولبناته التي أسّسها السّلم المجتمعيّ؛ فينشئها ويحييها حتّى يصل بها إلى تحقيق أمنها الحيّاتيّ الذي تنشده. وفي هذا البحث، سنتناول إن شاء الله تعالى نماذج من كلامه ﷺ على وفق محاور متعدّدة تمثّل مبادئ أساسيّة، يقوم عليها السّلم في أيّ مجتمع، سنذكرها متسلسلةً؛ لنستجلي منها تجلّيات هذا السّلم ومواضعه وكيفيّاته؛ كي نستفيد، ونفيد منها بعد توفيقه سبحانه؛ إنّه وليّ التّوفيق، ومنه نستمدّ العزم والعون.

(١) سورة النحل: الآية: ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٦.

(٣) سورة فصلت: الآية: ٣٤.

هناك عدد من المبادئ، يقوم عليها التعايش السلمي في المجتمع، تؤدي إلى تحقيق الأمن المجتمعي الحياتي بين الناس، قد تجلّى قسم كبير منها في كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة، نستطيع أن نحددها، ونستخلص منها الآتي:

١- مبدأ الاجتماع والمؤانسة والتّجّيب إلى الناس وإظهار والتّودّد إليهم في التّعامل معهم:

إنّ الإنسان اجتماعيٌّ بفطرته وطبعه اللذين جبل عليهما؛ فلا يستطيع العيش بمفرده وحيداً منعزلاً، وفي تسميته دليل على هذا؛ فلفظ (الإنسان) اسم جنس يصدق على الذكر والأنثى، وعلى الصّغير والكبير، وعلى الواحد والاثنين والجماعة، والشّعب والدّولة والأمة، واشتقاقه يدلّ على ذلك أيضاً؛ فهو مشتقّ من الأنس؛ وحرف الهمزة أصل في صيغته (فعلان)، وأصلها: إنسيان (فعليان)، وقيل مشتقّ من النّسيان، وحرف الهمزة مزيد في صيغته (إفعان)<sup>(١)</sup>، ونلمح في هذا المعنى الإيحاء بالعمف والمجاوزة والتّغاضي عن الإساءة والزّلل بعدم الاكتراث والنّسيان، فينتج تقبّلاً، وتقرباً، ومودّةً، وأنساً بين الفرد والآخر، مهما كان قريباً أو بعيداً؛ وهذا ما أقرّه سبحانه وتعالى في كلامه بقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

يتجلّى هذا المبدأ عند الإمام عليّ (عليه السلام) في دعوته إلى حسن التّعامل مع النّاس جميعاً ابتداءً من أقربهم إلى الفرد، وهم أهله، ثمّ الأخ، ثمّ الصّديق، ثمّ الأبعد منه؛ لأنّ أوّل علاقة في المجتمع تنشأ من علاقة الأهل بعضهم ببعض، فالأخ بأخيه، فصديقه فسائر النّاس، وهكذا

(١) يُنظر: العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: (أنس)، وتهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م (أنس).

(٢) سورة فُصِّلَت: الآية: ٣٤.



تنشأ الروابط الاجتماعية في المجتمع. فقال الإمام (عليه السلام) في وصيته لابنه الحسن (عليه السلام): «أَحْمِلْ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ صِدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَابَرَةِ، وَعِنْدَ جُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُو، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ. وَاعْضُضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً. وَتَجَرَّعْ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَعَبَةً، وَلَنْ لِمَنْ غَالَطَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِيَنَّ لَكَ. وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظُّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَأَ لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ. وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ. وَلَا تَرْغَبَنَّ فِي مَنْ زَهَدَ فِيكَ. وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صَلَاتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ؛ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ»<sup>(١)</sup>.

وكذلك دعا الإمام (عليه السلام) إلى حسن المعاملة، ومدّ اليد إلى ذوي القربى والنسب، والعشيرة، والسعي في قضاء حوائجهم، والتغاضي عما يصدر منهم من زلة أو سوء ودفعهما بالإحسان إليهم. وما الغاية من كل هذا إلا إصلاح الفرد والمجتمع كي ينعم بالراحة والأمان؛ فقال (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَالسِّتَةِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَالْمُتُّهُمْ لِشِعْثِهِ وَأَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَارِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصَّدِّقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورَثُهُ غَيْرُهُ، أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخِصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِنْ

(١) شرح نهج البلاغة: الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان (د. ت): ٥٣ / ٣

أَمْسَكَهُ وَلَا يَنْقُصُهُ إِنَّ أَهْلَكَهُ. وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا يَقْبِضْ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلَنْ حَاشِيَتَهُ يَسْتَدِمُ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ<sup>(١)</sup>.

٢- مبدأ تكريم الإنسان في المجتمع، لأن الله سبحانه وتعالى كرّمه وفضّله على خلقه:

قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال كذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾<sup>(٥)</sup>، فالحمل في البر والبحر، والرزق من الطيّبات، والتفضيل على الكثير من الخلق، وتسخير السماوات والأرض والبحار والفلك، وإسباغ النعم، وغير ذلك كلّها صور من صور تكريم الإنسان من الله سبحانه، بما يضمن لبني آدم ﷺ عيشًا وافرًا وحياةً دائمة<sup>(٦)</sup>. وهذا التّكريم من ربّ العزة الذي خلق الإنسان، وله الفضل فيهما، وجاء ذكره تذكيرًا للبشر بفضل الله تعالى، وتنبيهًا على ضرورة مراعاته

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٦٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٧٠.

(٣) سورة النحل: الآية: ١٤.

(٤) سورة الحج: الآية: ٦٥.

(٥) سورة لقمان: الآية: ٢٠.

(٦) يُنظر: حقوق الإنسان في الإسلام: د. أمير عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، مصر،

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م: ١١.

وتحقيقه فيما بينهم في المجتمع الذي يعيشون فيه كي ينعموا بحياة فضلى يسودها الاحترام والكرامة. وكلام الإمام (عليه السلام) مشحون بهذا المعنى في كل مقال ومقام في نهجه المبارك.

ومن مظاهر تكريم الإنسان في مجتمعه إعطاؤه حقوقه، وبيانها له، وفي هذا قال الإمام (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ. فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمُرُّكُمْ»<sup>(١)</sup>، فذكر الإمام (عليه السلام) في قوله هذا حقوق الناس (الرعية)، وحقوق خليفة الله ورسوله أو حقوق الحاكم أو المالك أو القائد، وبدأ بذكر حقوق الرؤوسين قبل حقوق الرئيس، وما أحسب هذا إلا من الحرص الشديد على مصالحهم، ورعايتهم أولاً؛ وإشعارهم بتكريمهم والعناية بهم؛ فطمئن نفوسهم، وتشرح صدورهم، وتهدأ قلوبهم، ويسكن صوتهم؛ فيسهل التعامل معهم وقيادتهم، فحقوقهم مقدّمة على حقوق رئيسهم، وهي شرط لطاعته، والتزام أمره، واتباعه، وبتحقّقها يتحصّل السلم والأمن في المجتمع.

### ٣- مبدأ عدم التعصّب:

العصبية في اللغة مأخوذة من العصب، وهو الطّيّ الشديد، وما يعصب به الرأس والبطن، أي: يلفّان به، والعصبية: قرابة الرجل، وما يتّصل به من نسب بأبيه، وسمّوا عصباً، لأنّهم يحيطون به، ويشتدّ بهم، وهم بين العشرة إلى الأربعين<sup>(٢)</sup>. والعصبية في العرف الاجتماعيّ: المدافعة عمّن يلزمك أمره أو تلزمه لغرض، أو هي: شدّة ارتباط المرء بعصبته أو جماعته، والجدّ في نصرتها، والتعصّب لمبادئها، فالتعصّب بذل الجهد، والمدافعة عن اهتمام

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٨٤.

(٢) يُنظر: العين (عصب)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م: (عصب).

شديد لغرض من الأغراض أو بدافع من قرابة أو عنصريّة أو إقليمية، وغيرها، وهذا كلّه يرجع إلى هوى النفس<sup>(١)</sup>، الذي نهانا سبحانه وتعالى أن نقاد له؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾<sup>(٤)</sup>. وقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَىٰ عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَىٰ عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَىٰ عَصِيَّةٍ»<sup>(٥)</sup>.

(١) يُنظر: غريب الحديث: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥م: ٢ / ٩٩، ٢٤٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: ٣ / ٢٤٦، ٣٠٤، ولسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ: (عصب).

(٢) سورة النساء: الآية: ١٣٥.

(٣) سورة ص: الآية: ٢٦.

(٤) سورة النازعات: الآيتان: ٤٠-٤١.

(٥) سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت: ٤ / ٣٣٢، والآداب للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، اعتنى به وعلق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ٦٩.

ونجد هذا المعنى في قول الإمام (عليه السلام) مخاطبًا الخوارج في معسكرهم: «فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزَدَا عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْجَرَّاحِ. وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْأَعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمَعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعْنًا وَنَتَدَانِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا وَرِغْبَانَا فِيهَا وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» (١). فهو (عليه السلام) يخبر الخوارج، ويقسم لهم أن القتال في سبيل الله عز وجل، والجهاد مع رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله)، وعز الإسلام لم يكونا بدافع لعصبيّة من قرابة أو أبناء أو آباء أو لغرض فردي أو هوى نفس، بل قاتلوا هؤلاء جميعًا نصرًا للحق والدين.

وكذلك يتجلّى هذا المبدأ في قوله للخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) حين استشاره في أمر الخروج مع جيش المسلمين لغزو الروم؛ فقال له الإمام (عليه السلام): «إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتَنْكَبَ لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةً دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ. فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مُحْرَبًا، وَاحْفَظْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَلِكَ مَا تُحِبُّ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى كُنْتَ رِذَاءًا لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ» (٢). ففي هذا النصّ أخصّ المشورة، وأخلص النصّح للخليفة كما هو شأنه (عليه السلام) في تقديم النصيحة والموعظة والمشورة الصادقة لغيره من الناس الآخرين، بل كما يقدم ذلك لأبنائه وأخوته وذويه؛ فلا فرق عنده بين قريب وبعيد، وبين فقير وغني، وبين حبيب وغريب في ذلك، فأَيُّ خلق عظيم هذا؟! وأَيُّ إخلاص؟! إذ يبعدان عن هوى النفس والتعصب كلّ البعد.

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٣٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٨.

٤- مبدأ إسباغ الرحمة على الناس وعلى خلق الله كله:

تتجلى الرحمة في إظهار الدين، والعطف، والرفق عند الناس بعضهم لبعض، والإسلام دين الرحمة، بل هي من ثوابته التي يقوم عليها؛ لأنه دين سماوي صادر من رب رحمان رحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء في السموات والأرض وفي الكون كله، الرحمة التي لا حدّ لأمدّها، ولا نفاذ لفيضها، أسبغها سبحانه وتعالى على خلقه جميعاً، فجعلها ناموساً للطبيعة في الكون كي ينعموا بالمحبة والسلم والأمن والأمان والطمأنينة. قال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وقال جلّ جلاله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وسمّى نفسه سبحانه وتعالى بـ(الرحمن الرحيم)، فصار هذان الاسمان مفتتحاً لكل جزء من كلامه المقدّس (القرآن الكريم)، بل لكل ذكر له، ولكل عبادة، وصلاة، ودعاء، فقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٣)</sup>؛ لتذكير الإنسان، وحمله على التحلي بهذه الصفة العظيمة في حياته مع الناس، فتكون حياتهم آمنة سعيدة، فأمر سبحانه وتعالى رسله، وأنبياءه، وخلقهم، فقال مخاطباً رسوله الكريم محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

(١) سورة الأنعام: الآية: ١٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ٨.

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ<sup>(١)</sup>، وقال تبارك اسمه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد بعث الرسول محمد ﷺ إلى الناس كافةً والبشرية جمعاء؛ ليوصل إليهم رسالة السماء هذه التي تتخذ الرحمة شعاراً، ودثاراً، وجلباباً لها في كل ما جاء به هذا الدين العظيم من القواعد والأصول، والأحكام، والأمور المختلفة، والقضايا الكثيرة التي تخص الإنسان في جوانب حياته كلها، النفسية، والروحية، والسلوكية، والعقلية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية منذ بدء خلقه في رحم أمه إلى وقت فئاته ومماته، مروراً بمراحل حياته المختلفة، الرضاغة، والطفولة، والفتوة والشباب، والشيخوخة، فالرحمة تجعل الفرد إنساناً صالحاً، والمجتمع صالحاً بما يسود فيهما من مظاهر الرحمة كاللين، والرفق، والعطف، والمسامحة، وقبول العذر، والتودد، والوئام والمحبة؛ فتصلح الحياة، وتسعد الناس؛ لذا أشار الرسول الكريم ﷺ وكذلك وصيه الإمام علي عليه السلام إلى أهمية جعل الرحمة سلوكاً، وعملاً لدى الفرد والمجتمع، وضرورة التحلي بهذه المظاهر الحسنة الجميلة التي تعبر عن إيمان الفرد بخالقه، ودينه، وعقيدته، وتعكس خلقه، وصفاته، فتؤدي إلى صلاح الفرد والأسرة، والمجتمع.

فقد تجلّى كل هذا في كلامهما المقدس، وسلوكهما الشريف، وعملهما المبارك، ومنه قوله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ»<sup>(٣)</sup>، وفي رواية

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٥٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية: ١٠٧.

(٣) مسند الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (ت: ٢١٩هـ)، تحقيق نصوصه: حسن سليم أسد الداراني، دار السقا، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦ م: ١/ ٥٠٣، وسنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت: ٤ / ٢٨٥.

أخرى: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا، وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا، بَتَّتَهُ»<sup>(١)</sup>، وقال أيضًا: «أَيُّهَا النَّاسُ! تَرَاخَمُوا؛ الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ؛ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا مِنْهُ تَدَاعَى لِذَلِكَ سَائِرُ جَسَدِهِ»<sup>(٢)</sup>، وقال: «مَنْ يُحَرِّمَ الرَّفْقَ يُحَرِّمَ الْخَيْرَ»<sup>(٣)</sup>.

أما الإمام عليّ (عليه السلام) فقد اكتنف كتابه كثيرًا من أقواله التي جاءت داعيةً النَّاسَ إلى كلِّ ذلك من التَّراحم، والتَّوادد، والمحبة، والرفق، واللين، منها قوله: «لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلِيَزَافَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَهُونَ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م: ١١ / ٣٣، والجامع الكبير - سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨ م: ٣ / ٣٨٥.

(٢) الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م: ٢١ / ٦١.

(٣) مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر الخرائطي السامري (ت: ٣٢٧هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م: ٢٢٥، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ٢ / ٣٠٨.



وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ كَقَيْضٍ بَيِّضٍ فِي أَدَاحٍ<sup>(١)</sup> يَكُونُ كَسْرُهَا صَرًّا وَيُخْرِجُ حَصَانَهَا شَرًّا<sup>(٢)</sup>.  
 فعلاقة النَّاسِي، والمودّة التي تقوم بين الصّغير والكبير، وكذلك علاقة التّواصل، وعدم  
 الجفاء بين النَّاس ترتقيان بنفوس الأفراد، وتجعلان المجتمع ذا أواصر وعلاقات أسّها وئام  
 وانسجام وصلاح؛ فيتعرّز العيش المشترك الآمن السّليم بين فئاته المتنوّعة. وكذلك فقد  
 دعا الإمام (عليه السلام) إلى عدم الاستماع إلى التّهمة والغيبة بين النَّاس، وتجاهلها وعدم الأخذ  
 بها وتركها كي تتقوى الرّوابط بينهم، فلا تضعف، وتتمتّن علائقهم بعضهم ببعض، ولا  
 تتوهّن وتضمحل بما ينقل عنهم، ويقال فيهم؛ فقال (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ  
 وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرّامِي وَتُخْطِئُ  
 السَّهَامُ وَيَحِيلُ الْكَلَامُ، وَبَاطِلٌ ذَلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيد. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ  
 إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ، الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»<sup>(٣)</sup>.

فالإمام (عليه السلام) هنا يشير إلى أن نتقبل الآخرين على ما هم عليه، وهم ينبغي أن يتقبلونا على  
 ما نحن عليه من دون النّظر إلى ما ينقل عنهم أو عنّا؛ لأنّ كلّ إنسان يخطئ، وهذه هي طبيعة  
 البشر إلّا من عصمه الله سبحانه وتعالى؛ وبذلك لا ينبغي تصديق ما ينقل عن الآخرين،  
 ويقال عنهم إلّا أن يكون حقّاً مرئياً. فهذا النّهج الذي ذكره الإمام (عليه السلام) يحفظ العلاقة والمودّة  
 بين النَّاس، وبه يعيشون بسلام ومحبة. وفي هذا المعنى قال أيضاً: «إِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى

(١) الْقَيْضُ: الْقِسْرَةُ الْعُلْيَا الْيَاسَّةُ لِلْبَيْضَةِ، وَالْأَدَاحِي: جَمْعُ أُدْحِيٍّ، وَهُوَ مَبْيَضُ النَّعَامِ فِي الرَّمْلِ تَدَحُّوهُ  
 بِرِجْلَيْهَا فِي الرَّمْلِ، أَيْ تَدْفُنُهُ فِيهِ، يُنْظَرُ: جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ: أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دَرِيدٍ الْأَزْدِي (ت:  
 ٣٢١هـ)، تَحْقِيقُ: رَمَزِي مَنِيرٌ بَعْلَبَكِي، دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِين - بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ: الْأُولَى، ١٩٨٧م: ١/ ٥٠٧،  
 وَمَجْمَلُ اللُّغَةِ لِابْنِ فَارَسٍ: أَحْمَدُ بْنُ فَارَسٍ بْنِ زَكَرِيَاءَ الْقَزْوِينِي الرَّازِي، أَبُو الْحَسَنِ (الْمُتَوَفَى: ٣٩٥هـ)، دَرَاْسَةُ  
 وَتَحْقِيقُ: زَهْرُ عَبْدِ الْمُحْسَنِ سُلْطَانٍ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ - بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م:  
 ٣٧٩/١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٧٧/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٤/٢.

دَيْنِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرَ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَارَزُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ وَلَا تَبَازِلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ. مَا بِالْكُم تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تَدْرِكُونَهُ وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرِمُونَهُ، وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ وَقَلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُويَ مِنْهَا عَنْكُمْ كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ إِلَّا مَخَافَةً أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ، قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دَيْنُ أَحَدِكُمْ لِعُقَّةٍ عَلَى لِسَانِهِ صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ»<sup>(١)</sup>.

إنَّ الإمام (عليه السلام) في قوله هذا جعل متاع الدُّنْيَا كُلَّهُ، وما يحرص الإنسان على جمعه والاحتفاظ به في الدُّنْيَا مقابلًا لحسن العلاقة بين الفرد وأخيه، وكرم الخلق، وصلة البرِّ بينهما، بل يجعل (عليه السلام) الكفة الرَّاجحة والغلبة لتلك العلاقة، وذلك التَّوَدُّدُ والإِخَاءُ، والخلق الحسن، والبرِّ بين الإنسان وأخيه في المجتمع؛ فهو (عليه السلام) يدعو كلَّ فردٍ إلى التَّغَلُّبِ على هوى النَّفْسِ المِضَلِّ، وخبث السَّرَائِرِ وسوء الضَّمَائِرِ، وتركها والتَّحَرُّرِ منها، والجنوح نحو بذل المعروف، وإبداء المساعدة، والمُؤَاذَرَةِ، والمناصحة للآخرين؛ فهذه الأمور والأعمال هي الباقية التي ينتفع بها الفرد في الدُّنْيَا، وفي الآخرة تكون المنجية له عند حساب الله تبارك وتعالى؛ فلا تنفعه لقلقة الدِّينِ على لسانه وشفتيه حينئذ.

ومن مظاهر إسباغ الرَّحمة على النَّاسِ كذلك الرَّأفة بِالْعَمَالِ، والخدم، والفقراء، والمساكين، وضعاف الحال، وأهل الحاجة، واليتامى، وتكريمهم، وإعطائهم حقوقهم تامةً من دون بخس، أو منَّة، أو إهانة، أو اعتداء، لأنَّهم شريحة من المجتمع، وصلاحيها جزء من صلاحه، وعيشها الآمن المستقرُّ يؤثر في استقرار المجتمع، وتحقيق أمنه الحيَّاتيِّ المنشود، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُونَهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ<sup>(١)</sup>، فالصدقات تتمثل في الإنفاق عليهم، وتكريمهم، وفي التحدث معهم، والإحسان إليهم، ومراعاتهم، والرأفة بهم، والرحمة بهم، فقد روى أبو ذر الغفاري (ت: ٣٢هـ) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه»<sup>(٢)</sup>.

هذا المعنى حاضر في فكر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وتجلى في نصوص متعددة من كلامه المقدس، ومن أشهر أقواله في هذا ما أثبتته في عهده لواليه مالك بن الحارث الأشتر النخعي رضي الله عنه حين أرسله والياً على مصر؛ فقال فيه: «... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى؛ فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد؛ فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر؛ فإنك لا تعدر بتضييعك التافة لإحكامك الكثير المهم؛ فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم بمن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال؛ ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الحشية والتواضع؛ فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه؛ فإن هؤلاء من بين الرعية أخرج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهّد أهل اليثم وذوي الرقة في السن بمن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل. وقد يخففه

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٧١.

(٢) البر والصلة: أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن حرب السلمي المروزي (ت: ٢٤٦هـ)، تحقيق: د. محمد سعيد بخاري، دار الوطن - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ: ١٧٧.

اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَقَفُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغْهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعَدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرِطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ»، ثُمَّ احْتَمَلَ الْحَرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ وَنَحَّ عَنْكَ الضَّيْقَ وَالْأَنْفَ يَبْسُطُ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطَى مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا، وَامْنَعِ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ. ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا، مِنْهَا إِجَابَةُ عَمَلِكَ بِمَا يَجِي عَنْهُ كُتَابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ»<sup>(١)</sup>. ولا يسعني هنا إلا أن أقول سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، الحمد لله على نعمة الولاية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، فما أعظم هذا الكلام! وهذه المبادئ العظمى والمعاني السامية التي تضمنها عهده المبارك هذا!! ولو طبقت في أي مجتمع وأي مصر أو دولة، فأَيُّ سلام مجتمعي، وأي أمن حياتي سينعم بهما ذلك المجتمع، وتلك الدولة!!

ومن ذلك قوله (عليه السلام): «...فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضَّيَافَةَ، وَلْيُفِئِكَ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِي، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْحِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَدَرَكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>. وكذلك دعا (عليه السلام) إلى رعاية الأيتام والإحسان إليهم بالبر والصدقة، وكذلك مع الجيران؛ فقال: «...وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُغْبُوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورِّثُهُمْ... وَعَلَيْكُمْ

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٠٠ - ١٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٤ - ٢٥.

بِالتَّوَّاصِلِ وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ...»<sup>(١)</sup>. فهذا الصوت الإنساني في حفظ اليتيم، ورعايته والإحسان إليه تجل للصوت الإلهي الشديد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾<sup>(٣)</sup>، وتجل لصوت الرسول محمد ﷺ في احترام الجار، وتكريمه، وحفظ حقوقه، والإحسان إليه، ودفع السوء عنه، إذ قال: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»<sup>(٤)</sup>.

#### ٥- مبدأ رفض الظلم والجور والعدوان:

إن رفض الظلم والعدوان، وتجنبهما يؤدّيان إلى جلب الخير للإنسان، وإبعاد الأذى عنه؛ فيعيش آمناً مطمئناً سالماً، فكرامة الإنسان، وحرمة، وسلامته أمور عظيمة عند الله جلّ شأنه؛ إذ قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) شرح نهج البلاغة: ٧٦/٣ - ٧٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٣٤.

(٣) سورة الضحى: الآيتان: ٩ - ١٠.

(٤) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ: ١٠/٨، و مكارم الأخلاق للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م: ٣٩٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ٣٣.

وَالْتَقَوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾، وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢).

إنَّ الدين الإسلامي العظيم ما جاء إلّا ليرفع الظلم والعدوان والجور والحيث والاضطهاد عن الناس، ولينهى عن الفحشاء والمنكر، والبغى؛ فجعل للإنسان كرامة وعزّة، وحرمة، لا تدانيها أيّ حرمة أخرى في الكون؛ ليعيش الإنسان مع أخيه الآخر في أمن وأمان، وحرية، وسلام، ومودة ووثام، مهما اختلف عنه في اللون، أو في الجنس، أو في الأصل، أو في النسب، أو في العرق، أو في الدين والعقيدة والمذهب؛ لتحقيق الهدف الأسمى للمجتمع الإنساني، أيّ مجتمع كان، وفي أيّ بقعة من الأرض كانت، وهو السلم والأمن في الحياة. وقد ورد في خبر عن الرسول الأكرم محمد ﷺ أنّ رأى رجلاً يطوف في الكعبة، وتعلّق بأستارها، وهو يقسم على الله بحرمتها أن يغفر له، ويعطيه مسألته؛ فقال الرسول ﷺ: «أَلَا قُلْتَ: بِحُرْمَتِي أَلَا غَفَرْتَ لِي؟ وَالَّذِي أَكْرَمَنِي بِأَهْدَى وَدِينٍ الْحَقِّ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ» (٣)، وهذا المبدأ نجده واضحًا في كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل نطالعه بتكرار وتأکید في سفره الخالد (نهج البلاغة)، منه قوله عليه السلام: «إِذَا قَامَ بِالنَّاسِ مَتَعَهْدًا بَرَفَعَ الظُّلْمَ عَنْهُمْ: «لَمْ تَكُنْ بَيِّعْتُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَيُّمُ اللَّهِ لَا نَنْصِفَنَّ

(١) سورة المائدة: الآية: ٢.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٨٧.

(٣) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت: ٢٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ:

الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَا قُوْدَنَّ الظَّالِمَ بِخُزَامَتِهِ<sup>(١)</sup> حَتَّى أُوْرِدَهُ مِنْهَلِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ في موضع آخر مخاطبًا قومه والمسلمين محذّره من الظلم: «...فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ، وَالزُّمُومَا عَقْدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ، وَاقْدِمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدِمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَمَهَا بَاطِلَ الْعُدُوَانِ، وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لَعَقَ الْحُرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعَيْنَ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهْلَ لَكُمْ سَبِيلَ الطَّاعَةِ»<sup>(٣)</sup>. فهو ﷺ يوصي الناس، ويحذّره من الوقوع في الفتن؛ فيكونوا ظالمين لأنفسهم بعدم اتّباعهم الحق، وبانجرارهم للباطل، وسعيهم للعدوان ظالمين الناس بإيقاع الأذى والاعتداء عليهم؛ فيعيشوا في شقاق، وفرقة، وهوان؛ فلا يشعرون بأمن أو سلام، ولا تستطيع لهم حياة، ولا يستلذّون بنعمة. وكذلك الحال لو كان الظلم صادرًا من الحكّام والولاة والقادة؛ فشدد ﷺ النكير على ولاته، وعمّاله في المدن والأصهار داعيًا إيّاهم بالابتعاد عن إلحاق الظلم بالناس والرعيّة، وتجنّبه؛ لأنّ عواقبه وخيمة، تجلب النقم، والهلاك، وتطيح بالحكم، وتؤدّي إلى زعزعة أركان الدّولة وإضعافها، ثمّ زوالها بعد حين. فقال ﷺ مخاطبًا مالك الأشرع: «...إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهُ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّئُ كُلَّ مُحْتَالٍ. أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْخَصَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ

(١) «خزمت البعير أخزمه خزمًا إذا خرقت وتره أنفه وجعلت فيها عرانا أو خزامة من شعر فالبعير مخزوم. والعران: الخشبة التي تكون في أنف البعير. وكلّ شيء يقبته فقد خزمته، والطير كلّها مخزومة، وخزومة؛ لأنّ وترات أنوفها مخزومة، أي مثقوبة. والنعام مخزّم كذلك.» جمهرة اللغة: (خزم).

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٩/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣٩/٢.

المُضْطَّهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ<sup>(١)</sup>. فإذا كان حاله عليه السلام بهذا النحو مع ولأته وعمّاله، وهذه تربيته لهم بإجبارهم على رفع الظلم عن الرعية والناس، وتحقيق العدل بينهم، فأَيَّ عمل عظيم كان يقوم به عليه السلام بنفسه في ذلك داخل دولته!! وأَيَّ تعايش سلمي كان يعيشه المجتمع في خلافته عليه السلام! وأَيَّ أمن حياتي ساد الناس في عصره عليه السلام!

٦- مبدأ إقرار الأخوة والمساواة بين الناس، وتثبيته في المجتمع، وتأكيده:

إنّ المساواة بين الناس يؤدّي إلى ائتلافهم ائتلافاً وثيقاً بوصفهم أخوة لهم الحقوق نفسها، وعليهم الواجبات نفسها من دون تمييز للعرق أو الجنس أو اللون، وهذا يجعلهم متوآدين متحابين متراحين في المجتمع، وهو من الأسس التي تحقق لهم التعايش السلمي بينهم، ويبعد عنهم البغض والحقد، ثمّ التطرّف بمختلف أشكاله وصوره التي يظهر بها. وهذا من الأصول، والأسس التي حرص الإسلام على إقرارها وتأكيداها في نفوس الأفراد والناس، والأمم الإنسانية المتعدّدة في بقاع الأرض كلّها، لأنّ الإسلام هو دين الله تعالى، ورسالته إلى الناس كافّة على أرضه كلّها. قال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>؛ فهذا المبدأ يقرب بين الناس على مختلف مشاربهم، وأجناسهم، ويعزز الأواصر المشتركة بينهم التي تنبع من الفطرة الإنسانية التي فطر الله سبحانه الناس عليها، إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقال:

(١) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٨٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ١٥٨.

(٣) سورة النساء: الآية: ١.



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>.

كذلك الحال عند الرسول ﷺ، إذ أقرّ هذا المبدأ، وحثّ الناس عليه؛ فجاءت سنته المباركة حافلةً بمعاني العيش المشترك بين الناس، ووجوب حسن التعامل معهم، وبذل المعروف لهم، والإحسان إليهم، وكسب ودّهم، ونيل رضاهم؛ فيا من بعضهم بعضاً، ويأنس بعضهم ببعض، من ذلك قوله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»<sup>(٢)</sup>، وقوله ﷺ: «أَحْبَبُّكُمْ إِلَيَّ أَحَبُّكُمْ إِلَى النَّاسِ»<sup>(٣)</sup>، ثم قال: «أَبْغَضُكُمْ إِلَيَّ أَبْغَضُكُمْ إِلَى النَّاسِ»<sup>(٤)</sup>. هذا بين الناس عامّةً سواءً أكانوا مسلمين أم غير مسلمين من أصحاب الرسالات السماوية الأخرى كاليهود، والمجوس، والنصارى، أم كانوا عرباً أم غير عرب. أمّا المسلمون والمؤمنون، فقد خصّهم الرسول بأحاديث متعدّدة، تزرع في نفوسهم هذا المبدأ وتنميّه في قلوبهم، وتحثّهم عليه في سلوكهم، لأنّهم أهل أعظم دين وآخر رسالة من الله عزّ وجلّ، فهم أولى من غيرهم في أن يكون مجتمعهم تسوده تلك المبادئ، وتغلب عليه صفات التّآخي والمودّة والألفة والمحبة والإحسان؛ فقد قال في ذلك ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»<sup>(٥)</sup>، وقال أيضاً: «

(١) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(٢) الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق): معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (ت: ١٥٣هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ: ١٠/ ٤٢٥.

(٣) جامع معمر بن راشد: ١١/ ١٤٥.

(٤) جامع معمر بن راشد: ١١/ ١٤٥.

(٥) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت: ٤ / ١٩٩٩.

الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»<sup>(١)</sup>. وقال: «الْمُؤْمِنُ مِرَاةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، مِنْ حَيْثُ لَقِيَهُ يَكْفُفُ ضَبْعَتَهُ، وَيَحْوَطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك شأن الإمام علي عليه السلام؛ إذ كان هذا المبدأ حاضراً في فكره وكلامه؛ فتضمن سفره الخالد نصوصاً متعددة، تدلّ عليه، منها قوله عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُحَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عَشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ»<sup>(٣)</sup>، فجعلنا (بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَحَنُوا إِلَيْكُمْ) تستدعيان كلّ معنى جميل، ودلالة لطيفة في تلك المخالطة الاجتماعية مما ذكرناه قبل أسطر قليلة، كمعنى الأخوة، والمساواة، والمودة، والإحسان، والعيش المشترك الذي يفضي إلى السلم المجتمعي، والأمن الحيّاتي. وقال عليه السلام: «أَعَجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ وَأَعَجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»<sup>(٤)</sup> فهذا العجز والتضييع ناتجان من عدم قيام الفرد بما توجه عليه رابطة الإخاء من مستلزمات الصلة والبر، والمودة والإحسان مما يقوم عليه العيش المشترك بينهما.

ومن أشهر أقواله عليه السلام في هذا المعنى قوله الذي انتشر على كلّ لسان في العالم، وفي كلّ بقعة من الأرض، فصار شعاراً للأحرار، ومبدأً للثوار ضدّ التمييز والعنصرية، وعدم المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات؛ فكان هذا القول سلاحاً لا يقوى أحد من الطغاة والمتجبرين من الحكّام، والملوك، والقادة على مواجهته، والوقوف أمامه. فكان ملجأً للمستضعفين، والمغلوب على أمرهم، ينطلقون منه، ويستنهضون به هممهم، وعزائمهم في

(١) الجامع الكبير (سنن الترمذي): محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨ م: ٣ / ٣٨٩.

(٢) الجامع في الحديث لابن وهب: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت: ١٩٧هـ)، تحقيق: د مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير، أستاذ الحديث وعلومه المساعد - كلية أصول الدين - القاهرة، دار ابن الجوزي - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م: ٣٤٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٤ / ٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٤ / ٤.

المطالبة بحقوقهم ونيلها، وفي الوقت نفسه للجبروت المزعوم، والتكبر المفرغ، والعظمة الزائفة عند الولاة والحكام؛ إذ كان هذا القول موجّهاً لهم مباشرة قبل غيرهم؛ وخصّ به ﷺ واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر النخعي بوصفه أنموذجاً للولاة في ذلك العصر، فجاء فيه: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ؛ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمَدِ وَالْخَطَأِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ...»<sup>(١)</sup>. فالرحمة والمحبة واللطف واللين والرفق تكون من الوالي إلى الناس، وكذلك المساواة بينه وبينهم في الحقوق والواجبات، والعفو عنهم، وعدم مؤاخذتهم بما صدر عنهم من زلل أو خطأ تجاه الحاكم، والصفح عنهم، وحضور الشعور بمراقبة الله عز وجل، والخوف منه عند التعامل مع الرعية والناس، كلّ هذا يؤدي إلى التعايش السلمي الآمن المستقر في المجتمع بين الناس وحكامهم من جهة، وبين الناس بعضهم ببعض من جهة أخرى.

#### ٧- مبدأ إفشاء السلام والطمأنينة بين الناس:

السلام اسم لله سبحانه وتعالى، وهو من أسمائه الحسنی المتعددة؛ إذ قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>، وجعل منه اسماً لدينه (الإسلام) الخاتم لما سبقه من الأديان السماوية، ولرسالته المحمدية الخالدة، وكذلك جعله اسماً لتحيته

(١) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٨٤.

(٢) سورة الحشر: الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

سبحانه، وتحيّة الملائكة والرسل والأنبياء والناس كافة مع بعضهم لبعض في المجتمع الإسلامي والإنساني؛ فقال عز وجل: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تبارك: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال تقدّست أسماؤه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>. وكذلك جعله تبارك وتعالى اسمًا لجنته، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٥)</sup>. ومنه اشتقّ السلم أيضًا، وهو الصّـلح والمسالمة بين الناس، فقال جلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٦)</sup>. والسلم ضدّ الحرب من السلامة، والسلم الصّـلح، والسّلام السلامة من الآفات، وهو دعاء للإنسان بأن يسلمه الله عز وجل من الآفات في النّفس والدين<sup>(٧)</sup>. وسَمِيَ الإسلام إسلامًا من التّسليم لله تعالى، بمعنى الانقياد له، وطاعته في أوامره، ونواهيه؛ ولسلامة المسلمين والنّاس أجمعين في ظلّه وكنفه وحماه. قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ، مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ

(١) سورة ياسين: الآية: ٥٨.

(٢) سورة النّساء: الآية: ٩٤.

(٣) سورة هود: الآية: ٦٩.

(٤) سورة النّحل: الآية: ٣٢.

(٥) سورة يونس: الآية: ٢٥.

(٦) سورة البقرة: الآية: ٢٠٨.

(٧) يُنظر: تهذيب اللغة: (سلم).

مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»<sup>(١)</sup>. فالله هو السَّلام، لأنَّه شمل خلقه جميعاً، وعمَّهم بالسَّلامة على وفق نظام حكمته؛ فالسَّلام أمانه في الأرض لخليفته فيها، فالمقاربة الدَّلالِيَّة واضحة في أجلى دالاتها وأجمل صورها بين ديننا (الإسلام) وبين اسمه تبارك، وتعالى؛ إذ بينهما اتِّصال وثيق في الاشتقاق والمعنى أو المضمون، فكلاهما يفضيان إلى شيوع السَّلم والسَّلامة والأمن والأمان، ويقضيان بها جميعاً للناس على الأرض. فيلزم على وفق هذا أن يسلم النَّاس من الأذى والسَّرِّ والاعتداء، ويستسلمون لأمر الله تعالى بطاعته، وأن يخلصوا العبادة له؛ وهذا يوجب دخول المسلم قبل غيره في السَّلامة والأمن والأمان حتَّى يسلم النَّاس من البوائق والغوائل، ثمَّ يدخل بعده النَّاس كلَّهم على اختلاف مشاربهم، وتنوَّعهم في اللون والجنس والنَّسب والمعتقد، وبذلك يتحقَّق التعايش السَّلميَّ لهم، فيحصلون على أمتهم الحيَّاتيَّ المشهود لسعادة الإنسان في الحياة.

فالإسلام ليس مجرد هتاف تردَّده الأفواه والحناجر، وهي تصطرخ في نداء رفيع محموم، إنَّما الإسلام الحقيقيُّ هو الذي ينبثق من أعماق النَّفس الإنسانيَّة السَّويَّة السَّليمة الكريمة المطمئنَّة المبرَّاة من الأدران والشَّوائب والأقذار، النَّفس الواعية التي تعمرها العقيدة السَّمحة الدَّاعية إلى الخير والصَّلاح، العقيدة التي رضيها الله سبحانه وتعالى للبشريَّة جمعاء؛ فختتم بها العقائد كلَّها كي تكون مصدر هداية وخير ونور، العقيدة الكريمة التي تنسجم مع النَّاس كافَّة كي يكونوا إخوة متحابين ومتعاونين، ينشدون السَّلام والمحبة والأمان، وينشرونها على هذه الأرض<sup>(٢)</sup>.

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرْنَؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٢٠٤/١١.

(٢) يُنظر حقوق الإنسان في الإسلام: ٨٣.

هذه هي العقيدة الإسلامية، ومنهج الإسلام في الحياة، وهذا ما بينه الإمام علي (عليه السلام) في أجلى صورة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَاسْتَخَصَّكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ وَجَمَاعٍ كَرَامَةٍ. اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ مِنْ ظَاهِرٍ عِلْمٍ وَبَاطِنٍ حَكَمٍ، لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، فِيهِ مَرَايِجُ النِّعَمِ وَمَصَابِيحُ الظُّلُمِ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمِفَاتِيحِهِ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى جَمَاهُ وَأَرْعَى مَرْعَاهُ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَفِيِّ، وَكَفَايَةُ الْمُكْتَئِفِي»<sup>(١)</sup>. فالإسلام هو دين السَّلامَةِ والعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ لِلنَّاسِ كَافَّةً. وقال الإمام علي (عليه السلام) أيضاً: «لَا تُسَبَّنُ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسِبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي. الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْبَقِيَّةُ، وَالْبَقِيَّةُ هُوَ التَّصَدِيقُ، وَالتَّصَدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْإِدَاءُ، وَالْإِدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ»<sup>(٢)</sup>. فالعمل الصَّالح يشمل ما كان لله من عبادة وطاعة ونسك ونفل، وما للناس من إحسان ومعروف وبرٍّ وصلة وحسن معاشرة وكرم خلق؛ ممَّا يؤلَّف مجتمعا آمناً مطمئناً، تسوده المحبة والوئام والسَّلم.

#### ٨- مبدأ رفض الإرهاب، والتَّنديد به، ومنعه في المجتمع:

الإرهاب في اللغة التخويف والإفزاع والرَّهبة، وأرهبه، ورهبه، واسترهبه أخافه، وأفرعه. والترَّهب من ترهب: التَّعبُد، ومنه الرَّهبان والرَّهبانيَّة<sup>(٣)</sup>. والإرهاب مصطلحاً أو مفهوماً في العصر الحاضر، يطلق على كلِّ من يسلكون سبيل العنف، والقتل لتحقيق أهدافهم المتعددة السَّياسية، والاقتصادية، وغيرها. وقد رفضه الإسلام وفكره السَّماويُّ

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٤١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤ / ٢٩.

(٣) يُنظر: معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: (رَهَبَ)، وأساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزنجشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م: (رهب).

الخالد لأنّه يقضي على الإنسان الذي جعله الله عزّ وجلّ خليفةً في الأرض واستعمره فيها ليحييها، ويعيش فيها بخير وسلام، إذ لم يرد هذا اللفظ أو المصطلح في القرآن الكريم بهذه الدلالة إلّا في موضع واحد حين استعمل سحرة فرعون السّحر لإخافة النّاس كي يؤمنوا بفرعون، ويكذبوا موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>. وفي الوقت نفسه، ردّ هذا السّحر وأبطل، ودفع هذا التّرهيب والخوف عن النّاس مباشرةً، وزال أثرهما وانمحي، بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. أمّا رسول الله ﷺ فقد تواترت أحاديثه المباركة في رفض إرهاب النّاس، ونهى عنه، وتوعّد من يقوم به بالعذاب الشّديد من الله تعالى؛ فقال: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَعَنَهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»<sup>(٣)</sup>، ووقال أيضًا: «مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ أَخِيهِ نَظْرَةً تُخِيفُهُ أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

وتجلّى هذا المبدأ عند الإمام علي عليه السلام في قوله وسلوكه وعمله؛ فهو يرفض إرهاب النّاس وتخويفهم لا في حياة النّاس اليوميّة الاعتياديّة فقط، بل إنّه ينهى عنه حتّى في مواقف الشّدّة والبأس، ومنها الجهاد والحرب. فهو عليه السلام يوصي جنده وأصحابه بعدم فعل ذلك بالنّاس ممّن

(١) سورة الأعراف: الآية: ١١٦.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: ١١٧-١١٨.

(٣) مسند ابن أبي شيبة: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العسبي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م: ٣٤٩/٢.

(٤) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م: ٥٣٥/٩.

لا حيلة له في الحرب، ولا قوّة، فأوصاهم قبل الدّخول في معركة صفّين: «لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ. فَإِذَا كَانَتْ الْهَرِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعَوِّرًا، وَلَا تَجْهَرُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أَمْرَاءَكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ. إِنْ كُنَّا لَنُؤْمِرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ وَالْهَرَاوَةِ<sup>(١)</sup> فَيُعَيِّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»<sup>(٢)</sup>. فالبعد بالحرب يندرج في جانب ترهيب النّاس، وقتل الهارب صورة أخرى لترهيب النّاس أيضًا، وقتل العدو الذي عجز عن حماية نفسه، وانعدمت قدرته، وحيلته، وتمكّنوا منه صورة ثالثة لترهيب النّاس، وقتل الجريح صورة رابعة لترهيب النّاس، والرّدّ على النّساء بعنف وقسوة وتهيجهنّ صورة خامسة لترهيب النّاس؛ فلا يجوز للإنسان المسلم وغيره فعل ذلك كلّ لآلئه يमित شعور الفرد بالرّحمة والرّأفة داخل نفسه تجاه غيره، ويقضي على فطرته الإنسانية الصّالحة في الإحسان والتّجاوز والعفو عند المقدرة والسّتر عند المواجهة، فتتعرّز نوازع النّفس بالقهر والتّمكّن والإيذاء، إذ يحضرها تزيين الشّيطان بالانتقام والعدوان، فتزول مناشئ السّلم والأمن من التّعايش بين النّاس داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات المتعدّدة والمختلفة.

وقد أوضح الإمام (عليه السلام) منهج الإسلام في الحياة، وأبانه للنّاس سواء أكانوا في عصره أم غيره؛ إذ يرفض ترهيب النّاس وتخويفهم والاعتداء عليهم، ويدعو إلى الدّفع بالتي هي أحسن حرصًا على سلامة النّاس، وحفاظًا على أمنهم وأمانهم في عيشتهم المشترك. فخطب بالنّاس (عليه السلام) في أوّل خلافته، فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا مِنْهُ الْخَيْرَ تَهْتَدُوا، وَأَصْدِفُوا عَنْ سَمِّ الشَّرِّ تَقْصِدُوا. الْفَرَائِضُ الْفَرَائِضُ أَذْوَهَا

(١) الفهر: الحجر قدّر ما يكسر به جَوْزٌ، أَوْ يُدَقُّ بِهِ شَيْءٌ، وَعَامَّةُ الْعَرَبِ تُؤَنِّثُهُ، وَنَصْعِيرُهُ: فَهْرَةٌ. الْهَرَاوَةُ: الْعَصَا الضَّخْمَةُ، وَالْجَمْعُ الْهَرَاوَى، (العين (فهر)، الصحاح (هرا)).

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣ / ١٥.



إِلَى اللَّهِ تُؤَدُّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَذْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا. فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ. وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ. بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةِ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلَحُّقُوا، فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ. اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَاعْرِضُوا عَنْهُ»<sup>(١)</sup>.

إنَّ التَّرهيبَ يدخل في جملة الأذى؛ فهو أذى نفسي، يلحق ضرراً كبيراً في النفس، ويدخل في حرمة الإنسان أيضاً التي لا يجوز هتكها والاعتداء عليها؛ وكذلك يدخل في جملة الشر، فهو جزء منه ونوع له، وهو منهى عن إيقاعه حتى بالحيوان والبهائم والأرض على حدِّ تعبير الإمام عليه السلام.

إنَّ ورود لفظي (المسلم والمؤمن) في أحاديث الرِّسول ﷺ، وفي أحاديث الإمام علي عليه السلام، كلها لا يقصر الموضوع ومعناه ودلالته على المسلمين أو المجتمع الإسلامي فقط، بل تشمل هذه الأحاديث المباركة النَّاسَ جميعاً من المسلمين وغيرهم، وكلٌّ من يعيش معهم في المجتمع الإسلامي، وكذلك تشمل كلَّ مجتمع إنساني؛ وإنَّما جاءت هذه الأحاديث والنصوص بهذين المصطلحين على وفق حال المخاطبين مباشرةً في مقام الخطاب الآني، وهم المسلمون، أو على وفق قاعدة التَّغليب في اللغة العربيَّة المشهورة لأنَّ النسبة الغالبة من المخاطبين بهذه النصوص في موقف الخطاب وزمان حاله ووقوعه المسلمون، وإذا ذكر الأغلب في النسبة فإنَّ ما دونه بالعدد داخل في حكمه ومشمول بالخطاب معه<sup>(٢)</sup>.

(١) شرح نهج البلاغة: ٨٠ - ٨١.

(٢) يُنْتَظَرُ: حقوق الإنسان في الإسلام: ٩٥.

ثم يأخذ الخطاب مديات أوسع ومعنى أعمّ ودلالةً أشمل غير مقيدة بزمان أو مكان؛ فيشمل كلّ سياق مماثل وموقف متطابق معه، ولا سيّما النصوص الرفيعة الراقية البليغة التي تقترب من حدّ الإعجاز، وفي مقدّماتها نصوص الرّسول وآله الأئمة المعصومين (عليهم السلام). فالترهيب والتّخويف بأيّ صورة كانا، وبأيّ كنيّة وقعا، ومن أيّ جهة صدرا؛ من فرد، أو مجموعة، أو منظّمة، أو سلطة، أو حكومة، أو دولة يؤدّيان إلى سلب الأمن من المجتمع، ويصدّعان التّعاش السّلميّ فيه، ويؤثّران في أمنه الحيّاتيّ إن لم يقضيا عليه.

هذا ما وفّقنا الله جلّ وعلا إلى تحصيله وبحثه، نستغفره من زلل القول، وخطل الرّأي، ونتوب إليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسوله محمّد وآله أجمعين وأصحابه المنتجبين، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## خاتمة البحث ونتائجه

بعد هذه الرحلة القصيرة النافعة الماتعة في رحاب السفر الخالد لأمر المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) (نهج البلاغة) المقترنة بنصوص الله جلّ شأنه، والمزدانة بأقوال رسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن نتجوّل بين صفحاته المشرقة، نستطيب أريج خطبه الرفيعة، ونتذوّق طعم رسائله البليغة، ونستمرى عذب حكمه الرشيدة، ونرتشف من عذب نصوصه المكتنزة بإكسير الحياة، نستطيع أن نتلمّس بين صحف هذا البحث الوجيز وسطوره تجليات التعايش السلمي بوصفه مظهرًا لتحقيق الأمن الحياتي في المجتمع؛ فندوّن النتائج الآتية:

١ - إنّ تجليات التعايش السلمي تكمن في تحقيق المبادئ الآتية في المجتمع والحفاظ

عليها:

- مبدأ الاجتماع والمؤانسة، والتحبّب إلى الناس وإظهار التودّد إليهم في التعامل معهم.

- مبدأ تكريم الإنسان في المجتمع، لأنّ الله سبحانه وتعالى كرّمه وفضّله على خلقه.

- مبدأ عدم التعصّب.

- مبدأ إسباغ الرحمة على الناس وعلى خلق الله كلّ.

- مبدأ رفض الظلم والجور والعدوان.

- مبدأ إقرار الأخوة والمساواة بين الناس وتثييته في المجتمع وتأكيد.

- مبدأ إفشاء السلام والطمأنينة بين الناس.

- مبدأ رفض الإرهاب والتّنديد به ومنعه في المجتمع.

٢- تجلّت هذه المبادئ في كلام الإمام عليّ (عليه السلام) بوضوح في خطبه ورسائله وحكمه العظيمة.

٣- إنّ هذه المبادئ جاءت مبثوثةً في كلامه (عليه السلام) في ألفاظ وتراكيب متنوّعة تحمل معاني جميلةً ساميةً ودلالات بلاغيةً راقيةً انطوى عليها خطابه، وأفادها في الإصلاح الاجتماعيّ الذي يمثّل التّعايش السّلميّ مظهرًا من مظاهره، مزدانةً بأثوابها اللفظيّة الزّاهية البهيّة التي تشعّ نورًا وإيمانًا وعقيدةً راسخةً وخلقًا رفيعًا وأدبًا عظيمًا جمًّا.

٤- كشف البحث عن دلالات متنوّعة ومعانٍ رفيعة في (نهج البلاغة) توصل للتّعايش السّلميّ في المجتمع، وتؤسّس له، وتدعو إليه، وتضع السبل الكفيلة بتحقيقه وتمتينه، ورعايته والمحافظة عليه، وتحثّ النفس قبل الآخر في توحيه والتّمسك بمضامينه وأصوله، والعمل على تطبيقها في الحياة، وجعلها حاضرةً في النفس والدّهن، ينطلق منها في القول والفعل كي ينعم الفرد بالأمن والأمان، ويشعر بالطمأنينة والراحة. وبذلك يتحقّق التّعايش السّلميّ والأمن الحياتيّ في المجتمع.

٥- هناك تطابق تامّ في الفكر ومصدره اللذين صدرت منهما هذه المبادئ في (نهج البلاغة) مع ما ورد عن الرّسول محمد (صلى الله عليه وآله) من أحاديث وأقوال تخصّ هذه المبادئ؛ فكلاهما تجلّ للإسلام الأصيل والقرآن الكريم.

٦- هناك مجازة ومقاربة وموازة وتقابل في المعاني والدّلالات بين نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرّسول (صلى الله عليه وآله) وكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في موضوع التّعايش السّلميّ والأمن الحياتيّ، فلا غرابة في ذلك، لأنّ المصدر واحد هو الله عزّ وجلّ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

## مصادر البحث ومراجعته

١. الآداب للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُشْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، اعتنى به وعلّق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق وخرج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٣. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت: ٢٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ.
٤. أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزخشي جارا لله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٥. البرّ والصلة: أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن حرب السلمي المروزي (ت: ٢٤٦هـ)، تحقيق: د. محمد سعيد بخاري، دار الوطن - الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ.
٦. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
٧. الجامع (منشور ملحقاً بمصنف عبد الرزاق): معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولا هم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (ت: ١٥٣هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

٨. الجامع في الحديث لابن وهب: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت: ١٩٧هـ)، تحقيق: د مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير، أستاذ الحديث وعلومه المساعد - كلية أصول الدين - القاهرة، دار ابن الجوزي - الرياض، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٩. الجامع الكبير (سنن الترمذي): محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.

١٠. جوهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

١١. حقوق الإنسان في الإسلام: د. أمير عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، مصر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٢. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١٣. شرح نهج البلاغة: الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان (د.ت.).

١٤. شُعَبُ الْإِيمَان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٥. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٦. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١٧. العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٨. غريب الحديث: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.

١٩. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.

٢٠. مجمل اللغة لابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢١. مسند ابن أبي شيبه: أبو بكر بن أبي شيبه، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزاوي وأحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن - الرياض، ط ١، ١٩٩٧م.

٢٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون؛ إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٣. مسند الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (ت: ٢١٩هـ)، تحقيق نصوصه: حسن سليم أسد الداراني، دار السقا، دمشق - سوريا، ط ١، ١٩٩٦م.

٢٤. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، صلى الله عليه [وآله] وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٥. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٦. المعجم الكبير للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٧. مكارم الأخلاق للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢٨. مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت: ٣٢٧هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٩. النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.





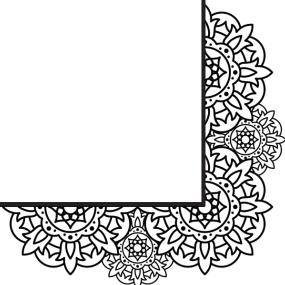


**سياسة الإمام علي عليه السلام الاقتصادية  
ودورها في محاربة الطبقة وتكديس الثروات**

الباحث

م.د. عقيل يوسف سعود السلطان

الكلية التربوية المفتوحة / البصرة - فرع القرنة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

شهدت الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ تطورات كبيرة وعلى مختلف الأصعدة. فعلى الصعيد الاقتصادي، توسعت حركة الفتوحات الإسلامية، ورافق ذلك التوسع زيادة كبيرة بواردات بيت المال. وقد انتهج أبو بكر سياسة اقتصادية قائمة على المساواة في توزيع تلك الأموال على المسلمين، واستمرت الأمور على ما هي عليه إلى أن تسلم عمر بن الخطاب الحكم، الذي عدل عن ذلك النهج نحو سياسة التفضيل في العطاء. فراح يقسم الأموال تبعاً لاعتبارات عدة، كالقربة من النبي ﷺ والسابقة في دخول الإسلام، والجهاد وغيرها، فتج عن ذلك طبقية واضحة داخل المجتمع المسلم. وبعد مجيء عثمان بن عفان إلى السلطة، تبدلت الأوضاع كثيراً، وأصبح الفرق شاسعاً بين طبقات المجتمع، وأخذت الثروات تكسب بأيدي طبقة قليلة من الناس، بعد أن قام بتقريب أقربائه وولائه، فحازوا القصور الفارهة، وملكوا الكنوز الكبيرة والضياع الشاسعة، دون باقي المسلمين الذين كانوا يعانون التمييز والحرمان. ونجم عن ذلك مشكلات معقدة ومتشابكة، عُدّت من أهم أسباب الثورة عليه ومقتله فيما بعد.

وقد ورث الإمام علي عليه السلام ما إن تسلم السلطة تلك التركة الثقيلة، والمهام الجسيمة التي أفرزتها تراكمات المرحلة السابقة بكلّ تحدياتها. فشرع بجملة من الإجراءات الاقتصادية العاجلة، وأخرى طويلة الأمد، وكان يهدف من وراء تلك التغييرات التصحيحية مجتمعة إلغاء الطبقة بين الناس، ومنع تكسب الثروات بأيدي القليل منهم، والرجوع بالعطاء إلى سابق عهد رسول الله ﷺ.

من هنا ينقسم البحث في هيكليته إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، يتبعها ثبت بالمصادر والمراجع، حيث اهتمت المقدمة بتقديم توطئة للمباحث اللاحقة وتعريف موجز بمكونات البحث. واهتم المبحث الأول بالتعريف بمنهجية البحث والمشكلة التي يعالجها، وأهميته وهدفه، مع الإشارة إلى أهم الدراسات السابقة ومدى الاستفادة منها. أما المبحث الثاني، فقد اهتم بتبيان ملامح الطبقية قبل زمن الإمام علي (عليه السلام)، في حين تناول المبحث الثالث إجراءات الإمام علي (عليه السلام) العاجلة للحد من الطبقية وتكديس الثروات. وتناول المبحث الرابع سياسة للإمام علي (عليه السلام) في الحد من التمايز الطبقي وتكديس الثروات. أما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وسنأتي على بيان تلك المباحث كما يلي:-

## المبحث الأول منهجية البحث

لعلّ من المناسب قبل الدخول إلى البحث ومفاصلة التطرق بعجالة إلى المنهجية المتبعة في إعداداته حتى أصبح بالشكل الذي عليه الآن، والتي يمكن أن نفردها بالعنوانات التالية:-

### أولاً: مشكلة البحث وتساؤلاته:

إنّ النقطة الأساسية التي ينطلق منها البحث تتمثل بمجموعة من الأسئلة، تشكل بمجملها (مشكلة البحث)، وهذه الأسئلة يمكن صياغتها بالشكل التالي:-

١- كيف نشأ الفساد المالي والإداري في الدولة الإسلامية قبل وصول الإمام علي (عليه السلام) إلى الحكم؟ وما هي ملامحه وما العوامل التي ساعدت على ظهوره؟

٢- كيف استطاع الإمام علي (عليه السلام) مواجهة الفساد المالي والإداري الذي كان ينخر في الدولة الإسلامية؟

٣- هل جاءت سياسة الإمام علي (عليه السلام) في مواجهة الفساد المالي والإداري على مرحلة واحدة، أم على مراحل متعددة؟

٤- هل كان الإمام علي (عليه السلام) عادلاً في تطبيق سياسته على الجميع بمن فيهم أهل بيته وأقرباؤه، أم أن تلك السياسة كانت تستهدف فئة دون أخرى؟ وهل تتوافق هذه السياسة من مبادئ الإسلام الحنيف، وتتماشى مع معايير النزاهة؟

٥- هل تمكن الإمام علي (عليه السلام) من تطبيق سياسته بيسر وسلاسة؟ أم رافق ذلك مشكلات وعقبات؟

### ثانياً: أهمية البحث:

إنَّ التعرف على سياسة الإمام علي عليه السلام الاقتصادية، وجهوده المبذولة في محاربة الطبقة ومنع تكدس الثروات بأيدي فئة قليلة من الناس، يعدّ من الأمور الضرورية في الدفاع عن الإسلام على المستويين النظري والعملي. فنظرياً يساهم في إبراز (المنهج الإسلامي) الصحيح في نظريته القائمة على المساواة بين الناس في مختلف الأمور ومنها المال، وطرق إدارته وتوزيعه وفق مبدأ العدالة والنزاهة؛ ومن جهة أخرى يعدّ ردّاً فعلياً وتطبيقاً عملياً يقوم به الإمام (المبسوط اليد) لتصحيح الممارسات الخاطئة، والسياسات القائمة على المحسوبية والمحاباة، والتحزب الضيق البعيد عن منهج الإسلام المحمدي الأصيل، لذا فدراسة هذا الموضوع يعدّ دراسة للعدالة والمساواة ومحاربة الفساد منهجاً وتطبيقاً.

### ثالثاً: هدف البحث:

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على مشكلة الفساد المالي والإداري الذي كان ينهش في جسد الدولة الإسلامية قبل وصول الإمام علي عليه السلام إلى السلطة، هذه المشكلة التي بدت كبذرة صغيرة في زمن عمر بن الخطاب، ثم نمت وكبرت تدريجياً في زمن عثمان بن عفان، لتصبح مشكلة ذات أبعاد خطيرة ومتفاقمة، كما يهدف إلى إظهار حلول أمير المؤمنين عليه السلام لمعالجتها واقتلاعها من جذورها، والرجوع بالنظام المالي إلى سابق عهد النبي صلى الله عليه وآله بعيداً عن الطبقة المقيتة.

### رابعاً: الدراسات السابقة:

إنَّ البحث الذي بين أيدينا جاء مكملاً لدراسة أخرى مقارنة سبقتها في هذا الجانب، وعنوانها (النظم الإدارية والمالية في عهد الإمام علي عليه السلام)، للدكتور علاء كامل صالح

العيساوي) والتي جاءت على شكل كتاب<sup>(١)</sup> تولّت طباعته العتبة الحسينية المقدسة عام ٢٠١٨. ومن أهم ما يميّز هذا الكتاب أنّه جاء شاملاً لمجمل النظم المالية والإدارية في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام). وقد انصبّ الجزء الأكبر من هذا الكتاب على الولايات الإسلامية وتوزيعها وأسباب اختيارها، فضلاً عن صفات الولاة والعمال وشروط اختيارهم وواجباتهم، كذلك شمل النظام القضائي في عهد الإمام علي (عليه السلام) أموراً كواجبات القاضي، ومصادر التشريع القضائي، وشمل أيضاً النظم المالية وكلّ ما يتعلق ببيت المال من جباية وتوزيع، وما إلى ذلك. وجلّ ما استند إليه الباحث في هذا الكتاب عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لواليه على مصر مالك الأشتر (رضي الله عنه)؛ وعليه فإنّ الأمور التي بحثها هذا الكتاب تتعلق بشكل أو بآخر بهدف هذا البحث ومعالجته وتقرب منها.

وتبعاً لذلك، فقد تناول الكتاب أعلاه فيما تناوله بشكل ضمني ومتفرق بعض إجراءات الإمام علي (عليه السلام) المتبعة في محاربة الفساد المالي والإداري، لكنّه ترك مفاصل كثيرة تنضوي تحت هذا العنوان دون معالجة. وليس هذا عيباً في الكتاب أو نقصاً في مؤلفه، وإنّما هو أمر ناتج عن اختلاف هدف الدراستين. ومع ذلك، أمد هذا الكتاب البحث الذي نحن بصددّه بمعلومات وافية وتصور واضح عن سياسة الإمام علي (عليه السلام) في كلّ ما يتعلق بعلاقته بالولاة والعمال وطبيعة تعامله معهم.

أما البحث الحالي الذي عنوانه (سياسة الإمام علي (عليه السلام) الاقتصادية ودورها في محاربة الطبقة وتكدس الثروات)، فقد جاء منصباً على السياسة التي اتّبعها الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من أجل محاربة الفساد الاقتصادي الذي كان ينخر في جسد الأمة الإسلامية وفق خطوات عاجلة هدفها تخفيف منابع الفساد، وأخرى طويلة ومدروسة بعناية ودقّة، نتيجة اطلاعه على مسببات المشكلة منذ بروزها إلى تفاقمها، مما جعل هذه السياسة كفيلة بتحقيق أعلى معايير النزاهة ومحاربة الفساد.

(١) ينظر: العيساوي، النظم الإدارية والمالية في عهد الإمام علي (عليه السلام)، ٧-٥٦١.

## المبحث الثاني

### ملاحم الطبقية قبل زمن الإمام علي عليه السلام

يُعدّ التمايز الطبقي بين الناس من المشكلات الأساسية التي جاء الدين الإسلامي لمحاربتها، فهم متساوون فيما بينهم، والمقياس الأساس للتفاضل هو التقوى<sup>(١)</sup>، وقد طبق الرسول ﷺ ذلك بشكل عملي، فلم يكن مفضلاً لأهل بيته أو زوجاته في العطاء على سائر المسلمين، ولم يكنز الذهب والفضة أو أي شيء من متاع الدنيا، بل كان حريصاً على إيصال المال إلى مستحقيه ما إن يصل إليه، وروي أنّه لم يكن يبيت المال عنده، فإذا جاءه صباحاً قسمه قبل منتصف النهار، وإن جاءه مساءً لم يبيت حتى يقسمه<sup>(٢)</sup>.

إلا أنّه بعد وفاته ﷺ تغيرت الأمور كثيراً، وتوسعت مساحة الدولة بشكل كبير إثر توسع حركة الفتوحات، وزادت واردات بيت المال. وكانت حكومة أبي بكر تنتهج سياسة المساواة في توزيع هذه الواردات، فقد ساوى في عطاء الناس عندما وصلته أموال من البحرين، فأدى ذلك إلى غضب الأنصار وطالبوه بالفضل، فردّهم وأعلمهم أنّ ما عملوه للإسلام جزاؤه عند الله تعالى في الآخرة وليس في التفضيل في العطاء فانصرفوا<sup>(٣)</sup>، وكلم في إحدى المرات في أن يفضل في العطاء فردّ بأنّ الفضل بين الناس عند الله، وأنّ المساواة في العطاء خير<sup>(٤)</sup>.

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، سورة الحجرات / الآية ١٣.

(٢) ابن سلام، الأموال، ٣٣٨.

(٣) القيرواني، زاهر الآداب، ١/ ٧٠-٧١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣/ ١١٥.

(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ٤/ ٥٢٢.



إلا أن التمايز الطبقي ظهرت ملامحه بشكل جلي في حكومة عمر بن الخطاب، الذي كانت وجهة نظره تقوم على التفضيل في العطاء منذ أيام أبي بكر؛ إذ روي أنه اعترض على أبي بكر حين قسم المال بالسوية، وقال كيف تسوي بين البدرين وسواهم؟! فردّه أبو بكر بأن الفضل بين الناس في الأجر<sup>(١)</sup>.

وما إن آلت إليه السلطة حتى طبّق عمر رؤيته المسبقة في تقسيم الأموال مؤكداً أن لأبي بكر رأياً في المسألة، وأنّ له فيها رأياً آخر، معللاً ذلك بأنّه لا يمكن المساواة بين من قاتل النبي ﷺ وبين من قاتل معه. ففرض لأهل بدر خمسة آلاف، ولن له إسلام كإسلامهم، لكنّه لم يشهد بدرًا أربعة آلاف، وفرض لزوجات الرسول ﷺ اثني عشر ألفاً سوى صفية وجويرية اللتين فرض لكل واحدة منهن ستة آلاف على أساس أنّهما لم تكونا من المهاجرات فأبتا ذلك، فعدل عن رأيه وساواهما بالبقية. كما فرض للعباس عمّ الرسول ﷺ اثني عشر ألفاً، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، ولولده عبد الله بن عمر ثلاثة، فسأل عبد الله عن سبب ذلك، فأجاب أن أبا أسامة كان أحبّ إلى النبي ﷺ من أيك وأن أسامة أحبّ إليه منك<sup>(٢)</sup>.

وبمرور الوقت خلفت تلك السياسة تمايزاً طبقياً (اقتصادياً - اجتماعياً) كبيراً، ونتج عنها طبقة تنعم في ثراء فاحش تقابلها أخرى ترزح تحت نير الفقر المدقع، ويبدو أن عمر أدرك في آخر سني حياته عواقب سياسته تلك ونتائجها الوخيمة، فعزم على العدول عنها في قادم أيامه، والرجوع إلى سابق عهد النبي ﷺ وأبي بكر في المساواة بين الأحمر والأسود، والعربي والأعجمي<sup>(٣)</sup>، إلا أنّه قتل قبل تنفيذ ما عزم عليه.

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ١١٩؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٧١٤/٣.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ٦١٥/٧؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٥٩٣-٥٩٤.

(٣) يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ١٥٤/٢.

وبعد وصول عثمان إلى دست الحكم وصلت الأمور إلى مستويات خطيرة من التمايز الطبقي، وأصبح المال دولة بين الأغنياء، سيما في آخر ست سنوات من حكمته، فشكل هذا سبباً من أهم أسباب نقمة الناس عليه، لأنّه قام بتقريب قرابته، وبنى الدور والبيوت، وامتلك الضياع والأموال التي هي أموال الله والمسلمين<sup>(١)</sup>.

ومن ملامح التمايز الطبقي، وتكديس الثروات أيام حكومة عثمان، أنّ عثمان نفسه اتخذ لنفسه داراً في المدينة المنورة، وبنّاها بهادة الكلس، وجعل أبواب تلك الدار من العرعر والساج، وملك الأموال والبساتين والينابيع، وقد وجد عند خازنه يوم مقتله مئة وخمسون ألف دينار، ومليون درهم، وضياع بحنين ووادي القرى تقدر قيمتها بمئة ألف دينار، وأعداداً كبيرة من الخيول والإبل، وفي أيام حكمته حاز بعض الصحابة الأموال الطائلة، والدور الفخمة والضياع الواسعة، ومن هؤلاء الزبير بن العوام الذي ملك داراً في البصرة، وأخرى بالكوفة والإسكندرية، وكذلك امتلك طلحة بن عبيد الله داراً في الكوفة عرفت بدار الطلحيين، وكان يغل - من العراق وحده مئة ألف دينار يومياً، وقيل ما يزيد على ذلك. كما بنى داراً أخرى في المدينة، واستخدم في بنائها الجص والساج، والأمر ذاته لسعد بن أبي وقاص الذي بنى داراً فرفع بناءها ووسع فضاءها، وطعمها بالعقيق، وجعل لها الشرفات، إلى غير ذلك من الأمور التي يطول شرحها<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية أنّ مجموع ما يغلّه طلحة في العراق يتراوح بين الأربعمئة إلى الخمسمئة ألف، أمّا غلته في السراة فكانت عشرة آلاف دينار، وكان لا يدع من أبناء عمومته عائلاً إلاّ كفاه مؤنثته هو وعياله، وقضى عنه دينه، وجعل له الخدم. وكان يرسل إلى عائشة من غلته كلّ عام عشرة آلاف، وحين مقتله خلف بيد خازنه مليوني ومئتي ألف درهم، ومئتي ألف دينار وقيمت أصوله وعقاره بثلاثين مليون درهم<sup>(٣)</sup>.

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٧٣/٢ - ١٧٤.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٣٣٢/٢ - ٣٣٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٢٢١ - ٢٢٢.

وترك عبد الرحمن بن عوف بعد وفاته ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة من الخيل، وذهباً بكميات كبيرة لدرجة أنه كان يقطع بالفؤوس، حتى مجلت<sup>(١)</sup> أيدي الرجال منه<sup>(٢)</sup>، كما إنه ترك بعد وفاته أربع نسوة، اقتسمن ثمنهنّ البالغ ثلاثمئة وعشرين ألف درهم، فأصاب الواحدة منهن ثمانين ألفاً<sup>(٣)</sup>.

ووهب عثمان بن عفان خمس أفريقيا لمروان بن الحكم، فكان هذا مما أخذ عليه<sup>(٤)</sup>، كما وهب سعيد بن العاص مائة ألف درهم، فأنكر عليه الناس فعله، وكلمه جمع من الصحابة في ذلك، فأجاب بأن سعيداً ذو قرابة ورحم، وحين ردّوا عليه قوله بأن لأبي بكر وعمر قرابة ورحماً أيضاً وأنهما لم يفعلوا مع قرابتهم كما فعل هو مع سعيد، ردّ بأنهما كانا يحتسبان الله في منع قرابتهم من التفضيل، وأنه يحتسب الله في صلة قرابته، فأجابوه بأن هدي أبي بكر وعمر والله أحب لهم من هديه فردّ بقول لا حول ولا قوة إلا بالله<sup>(٥)</sup>، وكان سعيد بن العاص يقول: إنّ السواد بستان قريش<sup>(٦)</sup>.

كان من أبرز نتائج هذه السياسات القائمة على مبدأ التفضيل في العطاء هو خلق تمايز طبقي بعيد بين فئات المجتمع، وتكدس واضح للثروات، حُصر بفتات محددة دون أخرى، وولد حالة من التذمر والامتناع الكبير لواءها أصحاب رسول الله ﷺ أبو ذر الغفار الذي أخذ يدور في الطرقات، ويردّد تحريم الله عزّ وجلّ لكنز الذهب والفضة،

(١) المجل: غلظة وأثر بالكف جراء العمل، ومجلت الأيدي: صلبت وتخن جلدتها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٦١٦/١١.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ١٣٦/٣.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٣٥/٣٠٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٩١/٣.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ٥/٥١٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣/٣٥.

(٦) ينظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣/٣٦٥؛ أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ١٢/٣٦٦.

وعدم إنفاقها في سبيل الله تعالى<sup>(١)</sup>، فشكى إلى عثمان مرات عدة فسكت عنه، ثم أرسل إليه من ينهاء عن الاستمرار في ذلك، فأنكر على عثمان أن ينهاء عن تلاوة كتاب الله تعالى، وعاب عليه ذلك، وأكد أن غضب عثمان أحب إليه من غضب الله تعالى، فأسخط ذلك عثمان، إلى أن سأل الناس ذات يوم عن جواز أن يأخذ الإمام شيئاً من المال قرصاً، فأجاب كعب الأحماس<sup>(٢)</sup> أن لا بأس بذلك، فقال له أبو ذر: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟! فغضب عثمان على أبي ذر حين ذاك، وقال له إن أذاه كثر عليه وعلى أصحابه، وأمر بإخراجه إلى الشام<sup>(٣)</sup>.

ولم يكف أبو ذر عن انتقاد السلطة وسياستها وما نجم عنها من تفاوت طبقي مقيت بعد نفيه إلى الشام، وما زال على هذا الحال حتى وجد لأقواله صدى عند عامة الناس الفقراء، فشكا الأغنياء ذلك إلى معاوية الذي كتب إلى عثمان يبلغه الأمر، فردّ عثمان بأن الفتنة قد أخرجت خطمها<sup>(٤)</sup> وعينها ولم يبق إلا أن تثب، وأمره إشخاص أبي ذر إليه، ففعل معاوية ذلك. ولما وصل أبو ذر إلى المدينة ورأى سلع<sup>(٥)</sup> صاح: بشر أهل المدينة بغارة

(١) ينظر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، سورة التوبة / الآية: ٣٤.

(٢) كعب الأحبار: - أبو إسحق، كعب بن ماته الحميري، اختلفت المصادر في نسبه اختلافاً كبيراً، لكنّها أجمعت على أنّه من حمير. عرف بكعب الأحبار للدلالة على صفته في الدين اليهودي، وهو من أهم رجال الدين اليهود الذين جاءوا من اليمن وأسلموا زمن عمر، وأدخل سيلاً من الإسرائيليات إلى تراث المسلمين، بعد أن سمحت له السلطة بالقصص والفتيا، وبعد مقتل عثمان ارتحل إلى معاوية الذي قرّبه إليه أيضاً. توفي كعب عام ٥٣٤هـ، عن ١٠٤ سنين في دمشق. ينظر: ابن سعد، الطبقات، ٧/ ٤٤٥-٤٤٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٥٠/ ١٥١-١٧٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢٤/ ٢٦٠؛ وللمزيد عن كعب ينظر: السلطان، كعب الأحبار وأثر مروياته اليهودية في الفكر الإسلام، ٨-٣٣٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٨/ ٢٥٦.

(٤) الخطم: منقار كلّ طائر، ومن كلّ دابة مقدم أنفها وفمها، ينظر: الفراهيدي، العين، ٤/ ٤٤٦.

(٥) سلع: - موضع بقرب المدينة، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ٢٣٧.

شعواء وحرب مذكّار، وأدخل على عثمان الذي سأله عن السبب الذي جعل أهل الشام يشكون ذرب لسانه<sup>(١)</sup>؟ فأجاب: بأنّه لا ينبغي أن يقال إنّ المال لله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوه، فردّ عثمان: بأنّ عليه أن يقضي ما عليه، ويأخذ ما على الرعية، ولا يجبر أحداً على الزهد أو يدعوهم إلى الاقتصاد<sup>(٢)</sup>.

(١) الذرب: الحادّ من كل شيء، ولسان ذرب: لسان فيه حدّة، وذرب الرجل إذا فصّح لسانه بعد حصره، وامرأة ذربة: سليطة اللسان، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١/ ٣٨٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٣٣٥-٣٣٦، ابن الأثير، الكامل، ٣/ ١١٤-١١٥.

### المبحث الثالث

## إجراءات الإمام علي (عليه السلام) العاجلة للحد من الطبقية وتكديس الثروات

اتبع الإمام علي (عليه السلام) إجراءات اقتصادية عاجلة لمواجهة التركة الثقيلة التي خلفتها العهود السابقة. ولحلّ تلك المشكلات، اتبع إجراءات عاجلة تمثلت بما يلي:

### أولاً / مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة للطبقة المستفيدة زمن عثمان:

فور مبايعة الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان، أمر بمصادرة الأموال التي أجازها عثمان لبعض أصحابه حيثما وجدها أو وجد أصحابها، فبلغ عمر بن العاص ذلك وكان متواجداً بأيلة<sup>(١)</sup> نزلها عند هجوم الناس على عثمان، فكتب إلى معاوية أن اصنع ما كنت صانعاً، فقد قسرك علي من كلّ ما تملك كما يقشر العصا عن لحاها<sup>(٢)</sup>.

هذا الإجراء الفوري يدفعنا إلى الاستنتاج بأنّه كانت لدى الإمام علي (عليه السلام) قناعة تامة ومسبقة بأنّ سياسة تقسيم الأموال لم تكن سياسة عادلة، إذ أنّه من غير المعقول أن يقدم على تحرك فوري كهذا لولا وقوفه التام على حجم المشكلة التي نتجت عن تلك السياسة؛ هذا من جانب. ومن جانب آخر، كان هذا التحرك الفوري ضربة قاصمة ومؤلمة للطبقة المستفيدة من الوضع القائم، وهو ما يمكن أن يستشفّ من رسالة عمرو بن العاص إلى معاوية.

وفي اليوم التالي من بيعته، خطب الإمام علي (عليه السلام) خطبة أكّد فيها أن كل الإقطاعات التي وزعها عثمان على أقربائه، وكلّ الأموال التي فرّقها فيهم مردودة إلى بيت المال، لأنّ الحق لا

(١) أيلة: مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر، في آخر الحجاز و أول الشام، وهي عامرة وبها زرع يسير، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١ / ٢٩٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١ / ٢٧٠.

بيطل، لدرجة أنّه لو وجد ذلك المال قد زوجت به النساء، وتفرق في البلدان، لردّه إلى أهله، ومن ضاق عليه الحقّ فالجور عليه أضيّق<sup>(١)</sup>.

### بالإمكان أن نسجل على ما تقدم في الخطبة النقاط الآتية:

التأكيد - وبشكل واضح لا لبس فيه - ببطلان التقسيم الذي اعتمده عثمان، لأنّ المال لله تعالى، وليس لأحد فيه حقّ دون غيره.

إنّ الأموال المسترجعة سيكون مصيرها بيت المال، ومن ثمّ يعاد تقسيمها بشكل عادل على مستحقيها، وهذا بدوره سيسهم بإلغاء الطبقة، والحدّ من جمع الثروات، وتحسين المستوى المعاشي للفقراء من خلال مشاركة الأغنياء في ثرواتهم، وهذا ينسجم مع نظريته للعلاقة المالية بين الغني والفقير<sup>(٢)</sup>.

إنّ قرار مصادرة أموال الطبقة المستفيدة من تقريب عثمان لها، يعدّ قراراً قطعياً لا رجعة فيه ولا يمكن العدول عنه، كما أنّه سيشمل استرجاع كلّ الأموال المنقولة وغير المنقولة، وما شموله المال الذي زوجت به النساء إلا تأكيداً لذلك.

عكست الخطبة سياسة الدولة الجديدة تجاه طبقة الملاكين الكبار الذين أثروا من المال العام، وحازوا الثروات على حساب الطبقات الفقيرة والمعدمة.

ومن الأموال التي ردتّ إلى بيت المال في هذا المجال مائة ألف درهم أصابها الأشعث بن قيس<sup>(٣)</sup> حين تولّى أذريبيان لعثمان، فأمره الإمام علي عليه السلام بردها، فامتنع الأشعث معللاً

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٦٩/١.

(٢) روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: ((إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أفوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك)) ينظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٥٣٣.

(٣) الأشعث بن قيس: أبو محمد الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، لقب بالأشعث لأنّ رأسه دائم الشعث، وفد على رسول الله ﷺ فأسلم ثم رجع إلى اليمن. وبعد وفاة النبي ﷺ ارتدّ عن دينه، =

ذلك بأنه حصل عليها في عهد عثمان، فهدده الإمام (عليه السلام) إن هو لم يحضرها إليه ليضربته بسيفه فيصيب منه ما يصيب، فردّها وصارت إلى بيت المال، ثم تتبع (عليه السلام) ولاية عثمان فصادر كلّ ما وجدته في أيديهم من أموال وغرمهم ما أتلّفوا<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: إلغاء امتيازات كبار الصحابة:

لم تكن الإجراءات المتقدمة الوحيدة التي اتبعها الإمام علي (عليه السلام) لمحاربة التمايز الطبقي وتفتيت الثروات المكسدة بأيدي القليل من الناس، بل تبعها بإجراء آخر لجأ إليه بعد بيعته مباشرة، وهو إلغاء امتيازات كبار الصحابة، فقد خطب خطبة بيّن فيها سياسته الجديدة، موضحاً أنّه عازم على مصادرة أموال كبار الملاكين من الصحابة ممن غرّته الدنيا واتخذ العقارات والأنهار، وحاز الخيول الفارهة، وملك الإماء والوصائف الروقة<sup>(٢)</sup>، فجلب ذلك له العار والشنار، مؤكداً أنّهم سينقمون ذلك عليه، ويعدونه حرماناً لهم من حقوقهم، مفيداً بأنّ أي فرد من المهاجرين والأنصار يرى أنّ له فضلاً على سائر المسلمين لصحبته النبي (صلى الله عليه وآله) لا يصحّ ذلك منه، لأنّ الفضل والثواب إنّما يكون في الآخرة، وأنّ أي فرد آمن بالله تعالى وبنبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) ودخل الدين واستقبل القبلة، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، وله من بيت المال ما لغيره، فالمال لله ويقسم بين عباده، ولا فضل لأحد فيه على غيره. وأكد أنّه منذ الغد سيعمل على تقسيم الأموال بين المسلمين بالتساوي، وأنّ المال

= وجيء به أسيراً إلى أبي بكر، فطلب الأشعث منه أن يستبقه لخر به وأن يتزوج أخته، فاستجاب أبو بكر له وزوجه من أخته أم فروة، فولدت له ولده محمداً. كان الأشعث إلى جنب أمير المؤمنين (عليه السلام) في حرب صفين، وفي مقدمة الذين أجبروه على التحكيم. كذلك حضر الحكيمين في دومة الجندل. توفي الأشعث في عام ٤٢هـ. ينظر: ابن سعد، الطبقات، ٦/ ٢٢-٢٣؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١/ ١٣٣-١٣٥، ابن الأثير، أسد الغابة، ١/ ٩٧-٩٨؛ ابن حجر، الإصابة، ١/ ٢٣٩-٢٤٠.

(١) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، ١/ ٣٩٦.

(٢) الروقة: ما حسن من الوصائف، والروقة هو الاعجاب، يقال: راقتني أي أعجبني فهو راقت، ينظر: الفراهيدي، العين، ٥/ ٢٠٩.



متاح لجميع من أسلم عربياً كان أم أعجمياً، سواء سجل اسمه في العطاء أم لم يسجل، ثم استغفر الله تعالى ونزل من منبره<sup>(١)</sup>.

### إن الخطبة المتقدمة بينت جملة أمور وهي:

- ١- أشارت بشكل واضح إلى وجود طبقة محددة من الناس أثرت بصورة غير مشروعة على حساب المسلمين حتى بات الأمر عليها عاراً ومثلبة.
- ٢- تأكيد عزمه على القيام بإلغاء امتيازات هذه الطبقة وتفتيت ثرواتها، مع عدم الالتفات لما ستقدم عليه من الاستنكار والتذمر، ولا للحرب الإعلامية التي ستشن عليه.
- ٣- تفنيد الحجج التي قد يتخذها بعض المتضررين ذريعة للمطالبة بتمييزه بالعطاء، فصحة رسول الله ﷺ ونصرتة لا تصلح أن تعدّ حجة للزيادة في العطاء، وأنّ جزاء الأعمال سيكون عند الله في الآخرة.
- ٤- أكدت الخطبة شمول جميع المسلمين، مهاجريهم وأنصارهم، عرييهم وأعجميهم، كما تضمنت إضافة أسماء جديدة للعطاء لم يكن قد شملها سابقاً.
- ٥- عدّت هذه الخطبة خارطة طريق واضحة للمرحلة المقبلة، وقد بدأ بتنفيذها على الفور.

لقد شرع الإمام علي عليه السلام بتطبيق ما أعلنه في خطبته في اليوم التالي، فكان هذا الأمر أول ما ألّب الناس عليه، وأثار ضغائنهم عليه، لأنهم كرهوا هذه السياسة الجديدة التي لم يكونوا يألّفونها منذ زمن بعيد، فلما جاء الناس لقبض العطاء، أمر كاتبه أن يبدأ بالمهاجرين ويناديهم، فأعطى كلّ رجل منهم ثلاثة دنانير، ثم فعل مثل ذلك بالأنصار سائر الناس،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٧/٧

أحمرهم وأسودهم، فاحتجّ سهل بن حنيف<sup>(١)</sup>، وقال هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم! فردّ عليه السلام أن لك مثله فأعطى لكلّ منهما ثلاثة دنانير، وتخلّف عن الحضور ذلك اليوم طلحة بن عبيد الله، وكذلك الزبير، وابن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان ابن الحكم وآخرون<sup>(٢)</sup>.

تجدر الإشارة إلى أنّه نتج عن سياسة المساواة تلك / بروز كتلة معارضة قوية، واصطفاف لبعض رموز الأطراف المستفيدة من السياسات السابقة، ومن ثم قيادة جبهة قوية مناوئة لأمر المؤمنين عليه السلام، انتهت لاحقاً بحمل السيف في وجهه ومقاتلته. وهذا ما نجده صراحة في موقف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، اللذين سارعا إلى نقض بيعتهما له، فبعث وراءهما وسألهما عن سبب خلافهما له، فأجاباه لخلافه سياسة عمر بن الخطاب في توزيع المال، وأنّه ساواهما بغيرهما ممن لا يقاس بهما، فيما أفاء الله عليهما برماحهما وسيوفهما، وأخذه قسراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً، فردّ عليه السلام بأن لم يفعل ذلك من عنده وإنّما وجد رسول الله ﷺ يفعل ففعله، وكتاب الله تعالى ينطق بذلك بالحقّ / وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما أجاب على قولهما أنّه جعل ما غنموه بأسيا فهما ورماحهما سواء بينهم وبين غيرهم، فقد سبقهم قوم إلى الإسلام ونصروه بسيوفهم ورماحهم ولم يفضلهم النبي ﷺ على غيرهم، والله تعالى سيوفيّ الجميع أجورهم يوم القيامة، وليس لكما عندي غير هذا<sup>(٣)</sup>.

(١) سهل بن حنيف، ابو يعيد، سهل بن حنيف بن واهب الأنصاري، صحابي جليل، شهد مع الرسول ﷺ مشاهد كلها، وكان من أحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان قد استخلفه على المدينة لما خرج إلى البصرة، وكذلك تولى له بلاد فارس، وكان إلى جنبه في صفين، توفي في الكوفة سنة ٣٨هـ، ينظر: ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٧١-٤٧٣؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٢/ ٦٦٢-٦٦٣؛ ابن الأثير، اسد الغابة، ٢/ ٣٦٤-٣٦٥؛ ابن حجر، الإصابة، ٣/ ١٦٥-١٦٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة / ٧ / ٣٧-٣٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧ / ٤١-٤٢.

وفي رواية أخرى أن طلحة والزبير طلبا الإذن بالدخول على علي عليه السلام فأذن لهما وكان على سطح داره، فطلبا منه أن يزيد في عطائهما ما يعين على قضاء حوائجهما، فأخبرهما أن له مالا بينبع<sup>(١)</sup> إن شاء أعطاهما منه ما تيسر، فأجاباه بأن لا حاجة لهما بهاله، فسألها عما يريدان، فأجاباه أن يعطيها من بيت المال ما يكون لهما فيه كفاية، فأخبرهما بعدم جواز ذلك، وإن هو إلا خازن لبيت المال وأمين عليه، فإن أبيا فليصعدا المنبر ويطلبا من الناس ما يشاءان فإن أذن الناس لهما أعطاهما ما يطلبان. ولما لم يجدا عنده حلاً قالوا سمعنا ما عندك، ونزلا من سطح الدار، وكان في أرضها خادمة له سمعتها يقولان أئتما ما بايعاه بقلوبهما وإن بايعاه بالسنتهما<sup>(٢)</sup>.

ويظهر أن طلحة والزبير طالبا بالزيادة في العطاء في مناسبة أخرى، فقد أتياه بعد مبايعتهما له بأيام يشكيان قلة العطاء وكثرة العيال، فسألها ما يريدانه أن يفعل، فأجاباه أن يعطيها ما يسعهما من المال، فأجاب بأن يطلب ذلك من الناس فإن اجتمعوا على أن يعطوها من حقوقهم شيئاً أعطاهم، فقالا إن الناس لا يفعلون ذلك، فأجابهما بأنه أحرى أن لا يفعل ذلك أيضاً فانصرفا عنه<sup>(٣)</sup>.

(١) ينبع: بمعنى نبع الماء، سميت بذلك لكثرة ينابيعها، إذ قيل إن بها مئة وسبعين عيناً، وقد اختلف في موقعها، فقيل إنها تقع بين مكة والمدينة، على مسافة أربعة أيام من المدينة؛ وقيل إنها من أرض تهامة، وهي قرية من طريق الحاج الشامي، وبينبع وقف للإمام علي تولاه من بعده ولده عليه السلام ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/ ٤٤٩-٤٥٠؛ السهمودي، وفاء الوفا، ٤/ ٥٣٥-٥٣٦.

(٢) المفيد، الجمل، ٨٨.

(٣) المفيد، الكافّة، ١٤.

## المبحث الرابع

### سياسة الإمام علي (عليه السلام) في الحد من التمايز الطبقي وتكديس الثروات

بعد الحلول الآنية العاجلة التي اتبعها أمير المؤمنين (عليه السلام) والتي ساهمت بشكل كبير في الحد من التمايز الطبقي وفتت الكثير من الثروات، اتبع خطوات أخرى بعيدة المدى مثلت سياسة ناجحة وقادرة على الوصول إلى الهدف المنشود، تمثلت بما يلي:

#### أولاً : سياسة المساواة بتوزيع العطاء:

كان الإمام علي (عليه السلام) يرى ضرورة تقسيم المال بين المسلمين بالسوية، فهم جميعاً شركاء فيه، لأنّه مال الله وهم عباده، وليس لأحد فيه أثره دون غيره، وهو بذلك يعتمد على ما جاء بكتاب الله جلّ وعلا، ولا يهمله من رغب عنه، ولم تكن لتأخذه في الله لومة لائم، ولا ليستوحش من هذا النهج<sup>(١)</sup>، وروي أنّه ما إن فرغ من حرب الجمل حتى قسم المال بين الناس بالسوية، وأعطى العبيد كما أعطى الأحرار، وقال لم أجد فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحق<sup>(٢)</sup>.

إنّ إلغاء الطبقة والمساواة بين الناس لم يكن مجرد شعار رفعه الإمام علي (عليه السلام) وسعى إلى تطبيقه على الناس دون نفسه وأهل بيته، بل أول ما بدأ بتنفيذه على ولده وأهل بيته قبل الآخرين. فلم يفضل الحسن والحسين (عليهما السلام) على غيرهما، حتى أنّ قسماً من أصحابه ذكر ذلك، وحثّ بعضهم البعض الآخر على مغادرته والالتحاق بمعاوية حين علموا أنّه كلّمْ في زيادة عطاء الحسين (عليه السلام) دريهمات قليلة، فغضب وأبى أن يزيدهما<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤٠ / ٧.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٣ / ٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٥٠ / ١٠.

وطبق ذلك أيضاً على أخيه عقيل لما جاءه يطلب المزيد من العطاء، وكان قد أملتق بسبب كثرة عياله الذين غير الفقر ألوانهم، وأشعث شعورهم، فجاءه يستميحه زيادة صاع من البرّ وعأوده مكرراً الطلب فما كان من أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا أن يحمي له حديدة ثم يدينها منه مؤكداً رفضه أن يميزه عن سواه من المسلمين ليضرب بذلك للجميع درساً بالزهد والمساواة<sup>(١)</sup>.

وكان عطاء أخته أم هانئ بنت أبي طالب ومولاة أعجمية لها، عشرون درهماً لكل واحدة منهما، وحين اعترضت أخته على ذلك أمرها بالانصراف وأخبرها أنّه لم يجد في كتاب الله تعالى فضلاً لإسماعيل على إسحق<sup>(٢)</sup>، وجاءه عبد الله بن أخيه جعفر يطلب منه المعونة أو النفقة، فقال: لا والله ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك<sup>(٣)</sup>.

لقد شكّلت سياسة الإمام علي (عليه السلام) القائمة على محاربة الطبقية نقطة ارتكاز في سياسته الاقتصادية، وهي سياسة ثابتة غير قابلة للتفاوض والتغيير حسب تبدل الظروف وتغيير موازين القوى ومعطيات المرحلة، كما ينهج ذلك أغلب رؤساء العالم وساسة الدول تبعاً لقاعدة (الغاية تبرر الوسيلة)، فحين وفد عليه جمع من أصحابه «لما تفرق أكثر الناس عنه وفروا إلى معاوية طلباً للدنيا» محاولين إقناعه بالعدول عن رأيه وتدارك الأمور بأن يفضل أشرف العرب والقرشيين على سواهم من الموالي والأعاجم، وكذلك من يخشى عليه الفرار إلى معاوية، فردّهم بقوله: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟! وأقسم لهم أن لن يفعل ذلك ما طلعت الشمس ولاح نجم، مضيفاً أنّه لو كان المال له لساوى بينهم في العطاء فكيف وهو ما لهم؟!<sup>(٤)</sup>

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٣٤٦-٣٤٧.

(٢) المفيد، الاختصاص، ١٥١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢/٢٠٠.

(٤) الطوسي، الأمالي، ١٩٤؛ وفي رواية أخرى قال: ((والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله، ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة)) ينظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة ١٨٢.

### ثانياً: محاسبة من ثبت عليه الفساد من العمال:

لقد اتّبع الإمام علي (عليه السلام) الإجراء السابق بآخر يعدّ مكماً له ولا يقلّ عنه أهمية إن لم يزد؛ وهذا الإجراء يتكون من شقين أحدهما يلتقي بالآخر ويكمله. الأول: (تحسين الأحوال المعاشية للعمال)، والثاني (الرقابة المالية السرية المتبوعة بالعقاب)، نجد ذلك خلال عهده لواليه على مصر مالك الأشر، فقد أمره أن يسبغ الأموال على عماله، لأنّ في ذلك صلاحاً لأنفسهم، ومانعاً يمنعهم مما تحت أيديهم، وليكون حجة عليهم فيما لو حاولوا خيانة الأمانة والاستئثار بأموال الناس، كما أمره أن يتعهدهم سرّاً بأن يبعث من يتجسس أمرهم ممن هو أهل للثقة لديه، فإن اجتمعت الأدلة على خيانتهم للأمانة كان ذلك شاهداً عليهم، وكانوا مستحقين لإنزال العقوبة<sup>(١)</sup>.

يتّضح مما تقدم أنّ تحسين الأحوال المعاشية للولاة جاء مقروناً بنظام استخباراتي سري (العيون)، ومهمة هؤلاء العيون تحري أخبار الولاة بصورة سرية ورفع أحوالهم بشكل مفصّل للإمام علي (عليه السلام). ومما يترتب على هذا الإجراء أنّ لدى الوالي أو العامل تصوراً مسبقاً بأن أيّ خيانة أو سرقة ستكون متبوعة بالعقوبة المشددة المستحقة؛ وهذا ما نجده في قوله لزياد بن أبيه<sup>(٢)</sup>، فقد أقسم له بالله تعالى بأنّه إن بلغه أنّه خان المسلمين في فيئهم شيئاً كبيراً كان أو صغيراً، ليشدّن عليه شدّة تدعه قليل الوفّر ثقيل الظهر<sup>(٣)</sup>.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٤٣٦.

(٢) زياد بن أبيه: - أبو المغيرة، زياد بن سمية جارية الحارث بن كلدة، وهي من بغايا الطائفة، لكن بعد أن استلحقه معاوية بأبيه صار يعرف بزياد بن أبي سفيان، اختلف في مولد زياد قبل الهجرة، وقيل عام الهجرة، وقيل يوم بدر، عرف زياد بالدعاء، وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري إبان ولايته البصرة لعمر، وفي زمن الإمام علي (عليه السلام) ولاه بلاد فارس، وبعد استشهاده تمنع زياد عن معاوية أول الأمر وتحصن في قلاع فارس، ثم تحول إليه بعد أن استلحقه معاوية بأبيه، وولاه البصرة والكوفة، توفي في الكوفة سنة ٥٣هـ، ينظر: ابن سعد، الطبقات، ٧/ ٩٩-١٠٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٢/ ٥٢٣-٥٣٠؛ ابن حجر، الإصابة، ٢/ ٥٢٧-٥٢٨.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٣٧٧.

وقد نجد أنفسنا أمام سؤال مفاده: ما السبب الذي دفع الإمام علي عليه السلام لتولية زياد بن أبيه رغم الانحرافات والمؤاخذات التي تسجل عليه؟

وجواب ذلك بأنّ زياداً كانت لديه خبرة في العمل الإداري - كما مرّ بترجمته - فكان ذلك دافعاً لأن يعهد إليه الإمام علي عليه السلام بمهام إدارية<sup>(١)</sup>، فضلاً عن ذلك فإنّ ما سجل على زياد من انحرافات لم تكن قد سجلت عليه في فترة عمله لدى الإمام علي عليه السلام، بل بعد أن استماله معاوية إلى جانبه وألحقه بأبيه، فأصبح دعياً لأبي سفيان، فكان ذاك مدعاة لسعادة ابن زياد لأنّ مناداته وتسميته بـ (زياد بن أبيه) تسمية غير مرغوب فيها لدى مجتمعات العرب، ثم إنّ استلحاق معاوية له سيلحقه بقريش التي هي أشرف القبائل العربية قبل وبعد الإسلام. وعلى أثر ذلك أصبح زياد من أشدّ أعوان معاوية المواليين له<sup>(٢)</sup>.

وفي كلام وجهه إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني<sup>(٣)</sup> عامله على أردشير خرة<sup>(٤)</sup>: نجده يقسم له بأنّه سيفتش عما بلغه عنه تفتيشاً شافياً، فإن تأكد لديه ما سمع ليجدنّ بنفسه عليه هواناً،

(١) العيساوي، النظم الإدارية والمالية في عهد الإمام علي عليه السلام، ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) الشرهاني، منهج أمير المؤمنين عليه السلام في معالجة الفساد المالي، ٩١ - ٩٢.

(٣) أبو الفضيل، مصقلة بن هبيرة بن شبل الشيباني - لم تفرد له المصادر ترجمة مستقلة - كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام وولاه أردشير خرة، ولما مرّ به سبي بني ناجية مع معقل بن قيس بعد فتنة الخريت بن راشد، رّق لهم مصقلة، فاشترهم جميعاً بخمسمئة ألف درهم، وأعتقهم وسدد بعض ثمنهم الذي أعتقهم به لقائد الجيش، فكتب له أمير المؤمنين عليه السلام بسداد المبلغ، فهرب منه إلى معاوية. فقال عليه السلام قبحه الله فعل فعل السيد، وفرّ فرار العبيد. وبعد استتباب الأمور لمعاوية، بعثه بجيش إلى طبرستان، لكنّه قتل هناك بعدما حوصر بشعاب الجبار وقذف بالحجارة وقتل معه أكثر جيشه، وكان ذلك عام ٥٠ هـ، ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٤١٦ - ٤١٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٤٠٨؛ ابن عساکر تاريخ مدينة دمشق، ٥٨/ ٢٦٩ - ٢٧٧؛ الزركلي، الأعلام، ٧/ ٢٤٩؛ الكوراني، قبيلة بنو شيان، ٥٥/ ٧.

(٤) أردشير خرة: كورة (مدينة) في بلاد فارس وتعني (بهاء أردشير)، وأردشير ملك من ملوك فارس، بناها لتكون دار ملكه، ومن مدنها: (شيراز، وجو، وخبر، وخوزستان، وميمند، وغيرها)، وأكثرها يقع على البحر، وهي شديدة الحرارة، كثيرة الثمار، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ١٤٦.

ونصحه بأن لا يكون من الخاسرين أعمالاً<sup>(١)</sup>.

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ / ٢٠١-٢٠٢؛ وفي رواية (بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك: إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً، ولتخفنّ عندي ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً، ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء، يردون عندي عليه ويصدرون عنه)، ينظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٤١٥.



## الخاتمة

يمكن أن نوجز أهم ما توصلنا إليه من خلال البحث بما يلي:

كان التمايز الطبقي بين المسلمين واضحاً بشكل كبير قبل وصول الإمام علي (عليه السلام) إلى السلطة، وكانت الثروات مكدّسة بيد فئات قليلة من المجتمع.

كانت ملامح التمايز الطبقي زمن أبي بكر غير واضحة، لأنه اعتمد على سياسة المساواة في العطاء، إلا أن تلك الملامح ظهرت بشكل جليّ في زمن عمر بن الخطاب الذي انتهج سياسة التفضيل في العطاء تبعاً لاعتبارات مختلفة كالقربة من النبي (صلى الله عليه وآله) والسابقة إلى الإسلام والجهاد وغيرها.

في زمن عثمان ظهر التمايز الطبقي بشكل صارخ وأخذت الثروات تنمو بشكل هائل بيد بعض الصحابة وأقرباء عثمان وحاشيته، فبرزت طبقة تنعم في ثراء فاحش، وأخرى معدمة تعاني الجوع وشظف العيش.

فور وصول الإمام علي (عليه السلام) إلى مركز القرار وتولية السلطة، انتهج سياسة اقتصادية عاجلة هدف من خلالها إلى إلغاء الطبقة بين الناس وصادر فيها أموال الفئات المستفيدة من الوضع السابق، كما ألغى بشكل فوري نظام الأفضلية في العطاء.

كان نهج الإمام علي (عليه السلام) قائماً على مبدأ المساواة في العطاء كسياسة إستراتيجية دائمة وغير قابلة للتغيير تحت أي ظرف كان، ورجع إلى سابق عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) في توزيع العطاء، مطبقاً ذلك على نفسه وولده وأهل بيته وإخوته قبل سائر الناس.

انتهج الإمام علي (عليه السلام) سياسة صارمة في محاسبة عماله، ومعاينة من تثبت عليه الخيانة منهم، كما انتهج الوسائل الاستباقية التي تحول دون خيانتهم؛ بأن عمد إلى تحسين أوضاعهم المعاشية، ليكون ذلك حجة عليهم إن امتدت أيديهم إلى أموال الناس.

## مصادر البحث ومراجعته

### أولاً / المصادر الأولية:

\* القرآن الكريم.

\* ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي كرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م).

أسد الغابة في معرفة الصحابة، بلا تح، بلا ط، دار الكتاب العربي، (بيروت، بلا ت).

الكامل في التاريخ، بلا تح، بلا ط، دار صادر للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٦٥).

\* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢م).

أنساب الأشراف، تح: محمد حميد الله، بلا ط، دار المعارف، (مصر، ١٩٥٩م).

\* ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م).

الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٥م).

\* ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (ت ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م).

شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار أحياء الكتب العربية، (بلا مكا، ١٩٥٩م).

\* ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ - ٨٤٥م).

- الطبقات الكبرى، بلا تح، بلا ط، دار صادر، (بيروت، بلا ت).
- \* ابن سلام، ابو عبيدة القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ - ٨٣٨م).
- الأموال، تح: محمد عمارة، ط ١، دار الشروق، (بيروت، ١٩٨٩م).
- \* السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م).
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تح: قاسم السامرائي، ط ١، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، (مكة المكرمة، ٢٠٠١).
- \* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م).
- تاريخ الخلفاء، تح: لجنة من الادباء، بلا ط، مطابع معتوق إخوان، (بيروت، بلا ت).
- \* الشريف الرضي، أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي (ت ٤٠٦هـ - ١٠١٥م)
- نهج البلاغة، تح: صبحي الصالح، ط ١، (بيروت، ١٩٦٧).
- \* ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ابراهيم بن عثمان الكوفي (ت ٢٣٥هـ - ٨٤٩م).
- المصنف في الأحاديث والآثار، تح: سعيد اللحام، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٩م).
- \* الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٣م).
- الوافي بالوفيات، تح: احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بلا ط، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ٢٠٠٠م).
- \* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ - ٩٢٢م).

تاريخ الامم والملوك، تح: نخبة من العلماء، ط ٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت، ١٩٨٣م).

\* الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ - ١٠٦٧م).

الأمالي، تح: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، ط ١، دار الثقافة للطباعة والنشر، (قم، ١٩٩٣م).

تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، تح: حسن الموسوي الخرسان، ط ٣، دار الكتب الإسلامية، (طهران، ١٣٩٠هـ).

\* ابن عبد البر، أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣هـ - ١٠٧١م).

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: علي محمد البجاوي، ط ١، دار الجيل، (بيروت، ١٩٩٢م).

\* ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ - ١١٧٥م).

تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو إجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تح: علي شيري، بلاط، دار الفكر، (بيروت، ١٩٩٥م).

\* الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ - ٧٩١م).

العين، تح: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، ط ٢، مؤسسة دار الهجرة، (قم، ١٩٨٨م).

\* أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد المرواني الأموي (ت ٣٥٦هـ - ٩٦٦م).

الأعاني، بلا تح، بلا ط، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، بلا ت).

\* القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م).

- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، تح: آصف بن علي أصغر فيضي، بلا ط، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٩٣).

\* القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م).

صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: محمد حسين شمس الدين، بلا ط، دار الكتب العلمية، (بيروت، بلا ت).

\* القيرواني، أبو اسحق ابراهيم بن علي الحصري (٤٥٣ هـ - ١٠٦١ م).

زهر الآداب وثمر الألباب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجيل للنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٧٢ م).

\* الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الرازي (ت ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م).

الأصول من الكافي (الكافي)، تح: علي أكبر غفاري، ط ٣، دار الكتب الإسلامية، (طهران، ١٩٦٨ م).

\* المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥ هـ - ١٥٦٧ م).

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير بكري حياني، بلا ط، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٩٨٩ م).

\* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م).

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: يوسف أسعد داغر، ط ٢، منشورات دار الهجرة، (قم، ١٩٨٤ م).

\* المفيد، محمد بن محمد بن نعمان ابن المعلم، أبو عبد الله العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ-١٠٢٢م).

الاختصاص، تح: علي أكبر غفاري ومحمود الزرندي، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٣م).

الجميل، بلا تح، بلا ط، مكتبة الداودي، (قم، بلا ت).

الكافئة في إبطال توبة الخاطئة، تح: علي أكبر زماني زنادة، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٣).

\* ابن منظور، أبو الفضل محمد جمال الدين بن مكرم الأفريقي (ت ٧١١هـ-١٣١١م).

لسان العرب، بلا تح، بلا ط، نشر أدب الحوزة، (قم، ١٩٨٤م).

\* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ-١٢٢٨م).

معجم البلدان، بلا تح، بلا ط، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ١٩٧٩م).

\* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (ت ٢٨٤هـ-٨٩٧م).

تاريخ اليعقوبي، بلا تح، بلا ط، دار صادر، (بيروت، بلا ت).

## ثانياً / المراجع الثانوية:-

\* الزركلي، خير الدين.

الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بلا تح، ط ٥، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٨٠م).

\* السلطان، عقيل يوسف سعود.

كعب الأحبار وأثر مروياته اليهودية في الفكر الإسلامي، ط ١، العتبة الحسينية المقدسة، (كربلاء المقدسة، ٢٠١٨).

\* العيساوي، علاء كامل صالح.

النظم الإدارية والمالية في عهد الإمام علي (عليه السلام)، ط ١، قسم الشؤون الدينية في العتبة الحسينية المقدسة، (كربلاء المقدسة، ٢٠١٨ م).

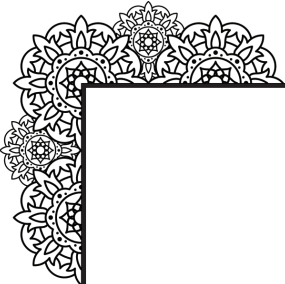
\* الكوراني، علي العاملي والشياني، عبد الهادي الربيعي.

قبيلة بنو شيبان، سلسلة قبائل العراق، ط ١، (بلا مكا، ٢٠١٠)

### ثالثاً / الدوريات:

\* الشرهاني، حسين علي.

منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في معالجة الفساد المالي، مجلة المبين، العدد الأول، السنة الثالثة، ٢٠١٦.



# فلسفة الحوار مع الآخر

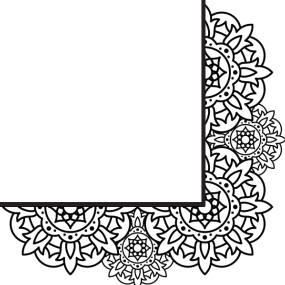
## قراءة في كلام الإمام عليّ عليه السلام

الباحث

د. علي حاكم حبيب الكريطي

قسم اللغة العربية

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة كربلاء





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الحبيب محمد، وعلى آله وسلّم، وبعد، فاستشراف المستقبل، والحديث عن الآخر، بوصفه الأخ في الدين، أو النظير في الخلق، الأمر الذي كان محطّ اهتمام الإمام عليّ (عليه السلام)، فتراه يقيم حوارًا ويقدم حججًا؛ ليبين حقيقةً معيّنة للآخر، لا يمسّ فيها إنسانيّته، بل يرشده إلى حقّه، ويساعده عليه.

ويسعى هذا البحث إلى قراءة نصوص الإمام (عليه السلام) قراءةً متأنّةً، أتفحص فيها مراده (عليه السلام) في رسمه الخطوط الرئيسة للتعامل مع الآخر في مختلف أمور الحياة: الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. فهو لا ينفكّ عن مطابقة القرآن الكريم في هذا كلّ، فضلاً عن حديثه عن قضايا خاصّة، مثل الإمامة؛ فهو لا يلغي الآخر الذي يختلف في رأيه إذ يخرج خطابه (عليه السلام) إلى دائرة الدين الحقّ الذي يضمن حقوق النّاس كافّة، وفي الوقت نفسه يحقق ما يريد من خلال تضمين خطابه الحقّ فيما يعرض له، فيوجّه كلامه إلى النّاس، أو من خلال حوار افتراضيّ، يطرح فيه أسئلة على لسان سائل ما، ومن ثمّ يجيب عنه. وهو بهذا كلّ يحاول كسب الآخر عبر الحوار الإنسانيّ الذي اشتهر به (عليه السلام).

جاء هذا البحث بمطلبين، أولاهما: بيانه لصفات الله جلّ وعلا، ذلك أنّه (عليه السلام) أوّل من ابتدأ هذا العلم، باسطاً للنّاس الحقّ في أمر دينهم، ومعرفة ما يتعلّق بالله (علا شأنه)، بالقدر الذي أتاحه الله لعباده من معرفة أسرارهِ. أما المطلب الثاني فقد وقفت فيه عند مفهوم التّعايش السّلمي، ومصادقه عنده (عليه السلام)، في طرحه لإشكاليات عديدة، يردّ فيها على من

تمكّنت تلك الأفكار منه، فالإمام هنا يبيّن الحقّ بكلام حجاجي لا شكّ فيه، عبر الحوار الذي مع الآخر الحاضر، أو الآخر المفترض. والجدير بالذكر أنّ كلامه (عليه السلام) لا يأتي المتلقّي، فيجبره على قبول رأي الإمام، بل المساحة متروكة له، بقبول الرّأي من عدمه، وهذه المساحة هي جانب حيّ لفلسفة الإمام (عليه السلام) لكسب الآخر، من خلال التأثير فيه، وإعطائه مساحةً أكبر للتّفكير، دون الرّفص، فيما سمع. ولا يخفى على أحد أنّ تلك النّصوص لم تقف عند زمن متلقّيها، بل هي مواكبة للأزمان كافّة، ذلك أنّ الإنسانيّة أسلوب حياة منذ النّشأة الأولى، حتّى قيامة السّاعة.

وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين.

## المبحث الأول علم الكلام

الفلسفة هي: (علم القوانين العامة للوجود «أي الطبيعة والمجتمع» والتفكير الإنساني وعملية المعرفة)<sup>(١)</sup>، وكلما نسب هذا المصطلح لمصطلح آخر، أخذ معنى أكثر تحديداً، والقصد هنا أنّ الفلسفة تؤدّي معنى أكثر دقّة مع الحوار، حين ننسبها إليه، فالحوار في الاصطلاح هو: (محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدّد، لكلّ منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيداً عن الخصومة أو التعصّب، بطريقة يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر)<sup>(٢)</sup>. وحين تنسب إليه الفلسفة، سيأخذ تلك القوانين لتختصّ بهذه المحاور، ولزيادة في التأثير، فيتحوّل الكلام من كلام عاديّ إلى كلام منتج، يؤدّي بطرق مؤثّرة، عبر استعمال خاصّ للغة، إذا ما علمنا أنّ الحوار لا يقف عند حدود إيصال الفكرة للآخر، والاستماع إليه، بل يتعدّاه إلى (توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلّم، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني، وإغناء للفكر)<sup>(٣)</sup>، وهذا كلّ يحتاج طريقة في الأداء، والتفكير، وإيصال هذا التفكير إلى الآخر، ومن ثمّ التأثير فيه. ولأنّ نصوص الإمام عليّ (عليه السلام) عميقة الدلالة، تتعدّى الإخبار، إلى التأثير، كان موضوع البحث (فلسفة الحوار) أليق بدراسة نصوص الإمام تلك.

إنّ الفهم الإيماني للفرد المسلم، وحاجته إلى إدراك مضمون عقيدته، يحتم عليه الحاجة إلى الاطلاع على حدود المفاهيم العقيدية، المسائل التي تتعلق بالخالق، وصفاته جلّ شأنه،

(١) الموسوعة الفلسفية، م. روزنتال: ٣٣٦.

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي (رسالة ماجستير)، بسام داود عجك: ٢٠.

(٣) المعجم الفلسفي، جميل صليبا: ٥٠١.

والقضاء والقدر، وعصمة الأنبياء، وإمامة الأئمة<sup>(١)</sup>؛ وهذا الأمر احتاج من المسلمين وقتئذ علماً يمكنهم من الإجابة على أسئلتهم الشخصية فيما يتعلق بحقيقة دينهم، وعبادتهم، والأسئلة التي تواجههم من الفرق الإسلامية؛ إذ لا ننسى أن الفرق الدينية كثرت، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة وما تلا ذلك. هنا لم يخف الأمر على الإمام علي عليه السلام الذي أثبت أركان علم الكلام<sup>(٢)</sup>، فوضع أسسه التي حاجج بها من كان في نفسه شك فيما يخص الذات الإلهية، وصفاتها، والإيمان بها، ذلك أن علم الكلام، هو (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج، ودفع الشبه)<sup>(٣)</sup>، ومن تلك الشبهات التي ردّها بأسلوب يدفع كلّ شك، حين سأله رجل بقوله: (أين كان ربك قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فقال عليه السلام: أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان)<sup>(٤)</sup>. إن مثل هذه المسألة، لا أمر وسط فيها، فهي إما توقع في الكفر، أو تبلغ بالشخص أعلى مراتب الإيمان، فالسؤال من قبل السائل حق، لكن الذي يتنبه لطريقة السؤال، يرى أن السؤال لا لإزالة شك موجود في نفس السائل، بل لإيقاع الإمام في منطقة لا يحمد الوقوع فيها، وذاك الأمر بائن في قوله (أين كان ربك) ناسباً للرب للإمام، وكأن السائل لا يؤمن، والحقيقة أن هذا السؤال غاية في الصعوبة، إذ يفقد الناس — حقاً — إلى العلم بحقيقة وجود العالم قبل خلقه، وهو يحيل إلى سؤال آخر، هل العالم مخلوق؟ أم هو موجود منذ الأزل؟ فإذا كان العالم موجوداً لأن الله موجود فيه، هذا شرك واضح لرؤية الله - جل شأنه - هنا جاء دور الإمام في بيان الحقيقة التي لا شك معها، حين قال (أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان). ففي هذه الجملة القصيرة ألم الإمام عليه السلام بإجابة جميع الأسئلة التي طرحت، أو تلك

(١) ينظر: بداية المعرفة - منهجية حديثة في علم الكلام، حسن مكي العاملي: ١٥.

(٢) ينظر: أمالي المرتضى، الشريف المرتضى: ١/ ١٦٢-١٦٣.

(٣) بداية المعرفة - منهجية حديثة في علم الكلام، حسن مكي العاملي: ١٤.

(٤) أمالي المرتضى، الشريف المرتضى: ١/ ١٦٣، روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٣٣.

التي تولد من رحم هذه الأسئلة، فالله — جلّ وعلا — موجود منذ الأزل، لا سابق له، ولا باقي بعده، ولا مكان يحده، ولا زمان. وجزء كبير من الأسئلة التي طرحت، لا إجابة لها إلاّ عند الله، فهذا اللامكان الذي أشار له الإمام عليه السلام بحدّ ذاته، جواب شاف لكلّ ما قيل، أو يقال. فعلى الرّغم من قصر الإجابة، إلاّ أنها أغنت كثيراً، وهي إجابة لأيّ سؤال يمكن أن يطرح في المسألة هذه، أو المسائل المتعلّقة بها، هي أنّ جزءاً كبيراً من الأشياء التي لا يعلمها الإنسان، هي من اختصاص الله تعالى، وليس للإنسان القدرة على معرفتها، لأنّه تعالى أراد له أن يكون كذلك.

وغير بعيد عن هذه المسألة، مسألة أخرى، كانت مدار اهتمام الناس بشكل عام، فالقضاء والقدر، حديث طويل، تحدّث به الناس، في طرح إشكال مرّة، وفي بيان حقيقته مرّة أخرى، فسأل الإمام عليّاً عليه السلام رجل من أهل الشام بعد انصرافه من حرب صفين: (يا أمير المؤمنين، خبرنا عمّا كان بيننا وبين هؤلاء القوم من الحرب، أكان ذلك بقضاء من الله تعالى وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: (ما علوتم تلعة ولا هبطتم وادياً، إلّا والله فيه قضاء وقدر) فقال الرجل: فعند الله أحسب عنائي يا أمير المؤمنين، فقال له: (ولم؟) قال: إذا كان القضاء والقدر ساقانا إلى العمل، فما وجه الثواب لنا على الطاعة؟ وما وجه العقاب لنا على المعصية؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: (أو ظننت يا رجل أنّه قضاء حتم، وقدر لازم، لا تظنّ ذلك، فإنّ القول به مقال عبدة الأوثان، وحزب الشيطان، وخصماء الرحمن، وقدريّة هذه الأمة ومجوسها. إنّ الله جلّ جلاله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً (ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)، فقال له الرجل: فما القضاء والقدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين؟ قال: (الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، والتمكين من فعل الحسنة وترك السيئة، والمعونة على القربة إليه، والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كلّ ذلك مضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا، فأما غير ذلك فلا تظنّه، فإنّ الظنّ له محبط للأعمال)

فقال الرجل: فرّجت عني يا أمير المؤمنين فرج الله عنك<sup>(١)</sup>. إنّ الإمام (عليه السلام) فهم مراد الرجل من السؤال الأول، لكنّه (عليه السلام) أراد الخروج من هذا السؤال إلى أسئلة أخرى، حين جعل الرجل يشكّ أكثر حين أجابه عن سؤاله الأول، بأنّكم (ما علوتم تلعة ولا هبطتم وادياً، إلّا والله فيه قضاء وقدر)، والحقّ أنّ هذه الإجابة تزيد في إشكالية الرجل، لأنّ الناس إذا كان مكتوباً عليهم ما يفعلون فلم يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة؟ السؤال الذي كان لبّ إشكالية القضاء والقدر، وهو ما نجده في قول الرجل في ردّه على الإمام (إذا كان القضاء والقدر ساقانا إلى العمل، فما وجه الثواب لنا على الطاعة؟ وما وجه العقاب لنا على المعصية؟). يمكن القول إنّ الإمام (عليه السلام) لديه الإجابة الكافية، التي يمكن للرجل أن يطمئنّ إليها، لكنّه زاد في شكّه، ليكون جوابه فيصلاً في هذه المسألة، وليطمئنّ معه الناس من بعده؛ إذ أحاط بالمسألة من جميع جوانبها، لأنّ سؤال الرجل الأوّل، سؤال عامّ، لم يفصل فيه أوجه القضية، لذا استثمر الإمام ذلك، في محاورته معه، لأنّ القضاء لم يكن حتمًا، ولا القدر لازماً، كما ظنّ الرجل، فهذه مقالة القدريّة<sup>(٢)</sup>، فالأمر ليس كذلك، بل القدر الذي قال به الإمام (عليه السلام) تحييراً، والنهي تحذيراً، والتكليف باليسير. هنا بان الأثر الذي أراد في محاورته للرجل، فأوقعه فيما يريد السؤال عنه، حين قال له: (فما القضاء والقدر الذي كان مسيرنا بهما وعنهما؟). فأجابه الإمام (عليه السلام) بقوله: الأمر من الله بذلك والحكم. ثم تلا قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾<sup>(٣)</sup>، هنا فهم الرجل القضاء والقدر، ودعا للإمام بالفرج.

على الرغم من طول المسألة، وكثرة الأسئلة التي فتح الإمام الباب أمامها، إلّا أنّ الإمام (عليه السلام) أنهى المسألة بجواب، لا رادّ عليه (الأمر من الله بذلك والحكم). هنا أعود إلى معنى الأمر في المعجم، وتوظيف الآية الكريمة، والذي أراد به الإمام هنا هو أنّ الله تعالى فتح

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد: ٢٢٦/١.

(٢) القدريّة: هم «قوم قالوا بأنّ كلّ أفعالهم مخلوقة لهم، وليس لله قضاء ولا قدر». من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق: ٥٤٦/٤. وينظر: فقه الرضا، علي بن بابويه: ٣٤٩، الخلاف، الشيخ الطوسي: ٣٠١/٦.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٨.

الخيار أمام الناس في اختيار ما يريدون لكنّه يعرف الحقّ، وما ينفعهم، لذا تأتي الأوامر من قبله تعالى، لا قضاء وقدرًا، بل طريقًا يخلّص العباد. فرحمة الله لم تكن في ترك الناس يختارون الذي يريدون، بل تعدّت ذلك إلى أمرهم باختيار النافع في حياتهم.

وللباحث قراءة أخرى في مسألة القضاء، غير الرّأي الذي اشتهر عند عمّة الناس، يعضّد ما جاء به الإمام عليّ (عليه السلام)، إذ يمكننا الوصول إلى مفهوم هذا المصطلح بالعودة إلى الدلالة المعجميّة، فالقضاء في اللغة من (قضاء الشّيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه... والقضاء في اللّغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشّيء وتماه... والقضاء بمعنى العمل)<sup>(١)</sup>. إنّ هذه المعاني الثلاثة التي وفّرها لنا المعجم، تتعاقد مع بعضها البعض في سبيل الخروج بمحصّلة معرفية نفهم من خلالها معنى القضاء، فالله جلّ وعلا أراد للناس من القضاء النّصيب الكافي ليحكم أعمالهم، ويبعدهم عن أيّ شرّ، وهو بهذا يفضي بنا إلى المعنى الثاني الذي يكون بتوجيه الله تعالى إلى الانقطاع للأشياء التي تبعد النّاس عن عمل السّوء، وهو ما يتيحه المعنى الأخير أيضًا.

ونأتي على كلام آخر للإمام عليّ (عليه السلام)، فيه بيان لسؤال فلسفيّ، تكرّر كثيرًا على ألسنة النّاس، جاء على لسان سائل سأل الإمام (عليه السلام) أن يصف الله تعالى حتى كأنّه يراه عيانًا، فغضب الإمام (عليه السلام) لذلك، وقال: (هو المّنّان بفوائد النّعم. وعوائد المزيّد والقسم. عياله الخلق. ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم... الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله. والآخر الذي ليس له بعد، فيكون شيء بعده، والرّادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله، أو تدركه ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال. ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال)<sup>(٢)</sup>.

(١) لسان العرب، ابن منظور: (قضي) ١٨٦/١٥.

(٢) نهج البلاغة: ١/١٤٥.

إنَّ من يلاحظ هذا النَّصَّ يجد القدرة العجيبة للإمام (عليه السلام) على تأليف الكلام وبثِّ الحجب وسط التراكيب، فهو قاصد لكلِّ حرف قيل، إذ نجده يصف الله عزَّ وجلَّ بأشياء يمكن للمتلقِّي العادي فهمها، وإدراكها، فقال بأنَّ الخلائق عيال الله، ليوقع المتلقي في دائرة الإيمان، وليطمئنَّ لما سأل عنه، فبدأ بالنَّاس، وشبَّههم بالعيال، لبيِّن مكانتهم عند الله، التي تشبه مكانة العيال عند الأهل. ثم ذهب الإمام (عليه السلام) للحديث صفة من صفات الله عزَّ وجلَّ، وهي إنَّ الله تعالى الأول الذي لم يكن له قبل، وهذا الخطاب مما فطر عليه الإنسان، فهو على الرغم من كونه عقلياً — أي غير ملموس — كالخلق مثلاً، إلَّا إن رسوخه بين المتكلِّم والمخاطب متحقِّق أصلاً. فضلاً عن ذلك وصف الإمام (عليه السلام) الله عزَّ وجلَّ بأنَّه الآخر الذي ليس له بعد، ومؤكِّداً هذا الأمر بـ (فيكون شيء بعده). ثم يصفه بقوله (الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله، أو تدركه)، فالأناسي يقصد بها جمع الإنسان<sup>(١)</sup>، وأناس البصر (هو ما يرى وسط الحدقة ممتازاً عنها في لونها)<sup>(٢)</sup>، فالإمام (عليه السلام) أورد مثلاً معروفاً عند المتلقِّي، وهو الإنسان الذي يرى في السواد<sup>(٣)</sup>، وهذه حجة كبيرة لإثبات عدم إمكانية رؤية الله عزَّ وجلَّ، تتناسب ومقام المخاطب الذي سأل الإمام وصف الله عزَّ وجلَّ، ليراه عياناً، فالذي يفكر هذا التفكير يقنع بقول الإمام من أن الذي يرى في السواد وهو مثل لذي النَّظر الثَّاقب، لا يمكنه أن يرى الله تعالى لأنَّ هذا الأمر معجز، وبعيد عن إمكانية المخلوقات الضَّعيفة لأمر الله. من هنا يتبيَّن لنا كيفيَّة صوغ الإمام (عليه السلام) للألفاظ لتكون حجة كلامية، لا يمكن الشكَّ فيها والاعتراض عليها.

يؤكد الإمام في مناسبات كثيرة أهميَّة معرفة الله جلَّ شأنه، معرفةً يطمئنَّ معها الإنسان، ولأهميَّة ذاك الأمر غالباً ما كان يفتتح (عليه السلام) خطبه بالتحميد، وبيان صفات الله. ويبدو أنَّ

(١) ينظر: لسان العرب (أنس): ٣/ ٣٨٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ١٢٠.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/ ٣٧٨.



المسألة عند الإمام تختلف بحسب المخاطبين، فمرة يأتي بها بأسلوب يفهمه الناس جميعاً، ومرة يأتي للخاصة؛ وفي هذا كله يجمع أطراف هذا العلم -أي علم الكلام- في أكثر من نصّ بحسب المناسبة التي وردت فيها تلك النصوص. ومن كلام له (عليه السلام) يتحدث فيه عن حقيقة الله جلّ وعلا شأنه، الحقيقة التي تبلغ أفهامنا إيّاها، لا حقيقته تعالى كما هو، جاء فيه: (الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمته العقول فلم تجد مساعاً إلى بلوغ غاية ملكوته. هو الله الحقّ المبين أحقّ وأبين ممّا ترى العيون. لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً. خلق الخلق على غير تمثيل ولا مشورة مشير، ولا معونة معين)<sup>(١)</sup>. في هذا النصّ ينتقل الإمام (عليه السلام) إلى تقرير أمر حقيقي من صفات الله علا شأنه، واستعمل لفظه (كنه)، التي ناسبت المقام تماماً، والتي تعني (كنه كل شيء قدره ونهايته وغايته)<sup>(٢)</sup>، فهذا إقرار منه (عليه السلام) بعدم معرفة جميع الأوصاف لقدره أو غايته، ثم ينتقل إلى وصف آخر دقيق تماماً، هو أنّ العقول ردعت بعظمته، فليس لها سبيل إلى بلوغ شيء من ملكوته، إلّا ما أراد الله تعالى لها أن تعرف، ذلك أنّه الحقّ المبين. ثمّ يأتي إلى الشيء المهم الذي اختلفت فيه الفرق الإسلامية، في تصوّرها لله علا وتبارك، في قوله: (لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً. ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً) فلا عقل قادر على تحديده، حتّى يكون مشبهاً بشيء خارج، موجود، يمكن أن نتصوّره من خلاله، ولا حتى الأوهام قادرة على تقديره كي يكون ممثلاً بشيء، يقرب للناس كيفيته تعالى، فيبعدنا عن تصوّر الجسمانية وغيرهم، الأمر الذي يبقى تصوّر الناس في اندهاش دائم لتصوّر الله تعالى.

(١) نهج البلاغة: ٤٥ / ٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: (كنه) ٥٣٦ / ١٣.

## المبحث الثاني التعائش السلمي

لقد كانت، ولا زالت نصوص الإمام عليه السلام تحمل مزيةً خاصةً، مكّنت الجاحظ يوماً من تمييز خطبة له نسبت إلى غيره<sup>(١)</sup>. وهذه المزية الخاصة بكلام الإمام عليه السلام، كانت محطّ اهتمام الأدباء والبلغاء فيما بعد؛ إذ لم تكن لوقت معيّن فحسب، بل كانت مفتوحة للأزمان اللاحقة، لا من جهة النظم فحسب، بل في المضمون أيضاً. وقد كان حديثه عن التعائش السلمي بين الناس جميعاً، تضمن لهم حقوقهم الاجتماعية، والنفسية أيضاً، وهذا الأمر راعاه الإمام كثيراً في أحاديثه، وخطبه، حتّى في المواطن التي كان يحتاج فيها إلى الحديث بنبرة قويّة، فهذه القوّة كانت لإصلاح الآخر، وللعودة إلى الجادة الصواب.

ونأتي على ذكر نصّ للإمام عليه السلام نبيّن من خلاله طريقته عليه السلام في أخذ الحوار إلى صوب يريده هو، يتمكّن فيه من المحاور، بوساطة الحجج التي بثّها في نصّه، والتي لا يمكن للسائل معها أن يشكّ في مراد الإمام، حين سأله الشامي بعد عودتهم من صفّين: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قال له الإمام عليه السلام: (ويحك لعلّك ظننت قضاء لازماً وقدرّاً حاتماً. ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. وإنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً. ولم يُعصّ مغلوباً، ولم يُطعْ مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)<sup>(٢)</sup>. إنّ الملاحظ قول الإمام عليه السلام يجد أنّه لم يخل من ملحظ عقائدي يتعلّق بقضاء

(١) ينظر: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، د. ابتسام الصفار: ١١٧.

(٢) نهج البلاغة: ١٧/٤.

الله وقدره، والحقيقة الحجاجية الغائبة عن السائل أوضحها الإمام (عليه السلام) بطريقة مثلى، لا يمكن ردّها. لكنّ الإمام (عليه السلام) عمد إلى الربط بين أشياء، معروفة، متفق عليها، لكنّ هذا الربط جاء بطريقة مثلى مسبوكة تمام السبك، لا يشك المخاطب بصحتها. فردّ الإمام (عليه السلام) أفصح بوظيفة التبصرة لما أشكل فهمه وتداخل على السائل، بمسلك أو طريق انتقل فيه الإمام (عليه السلام) من الإنكار إلى الاستدلال مصعداً نبرته الإقناعية بالاقتباس القرآني المنسجم مع واقع النصّ، لإحراز أكبر أثر في المخاطب الذي ألبس عليه الفهم والتدبر<sup>(١)</sup>. إنّ هذا الحوار انتقل من صيغة المحاوراة بين طرفين، إلى حديث مطلق، يراد به الناس عامّة، إذ هو ردّ على السائل نفسه، ولمن سيأتي لاحقاً ويقع في الإشكال نفسه. فصيغة الإجابة كانت لقصد واضح، خرجت بالمعنى إلى العامّة. والتعبير الحجاجي الممثل باقتباس الآية جعل من الآية وكأنّها جزء من النص. وهذا كلّ فضلاً عن الحجج الأخرى التي ساقها الإمام (عليه السلام)، ترسم صورة موسيقية وصورية لها القدرة الكبيرة على منع الشك عند المتلقي، والتسليم لحجية الخطاب وصدقه. والملاحظ أنّ الإمام (عليه السلام) بدأ خطابه بـ (ويحك) إذ أثار المتلقي، وجذبه إليه من أول وهلة ليقع في دائرة الخطاب والتأثير، فهذا التنبيه كافٍ ليخدش بعضاً مما يعتقد به السائل، لأنّ هذه الكلمة لها دلالات كثيرة منها التنبيه - كما سبق - والتوبيخ الذي يجعل المتلقي في فجوة مع نفسه يغمرها الشكّ نحو الحقيقة؛ وكلّ هذا مجتمع ليدخل دائرة الحوار ليثبت الحقيقة التي ساق لها الإمام (عليه السلام) كلّ هذا، بتفاصيله التي ذكرناها والتي لم نذكرها.

ويبقى الإمام (عليه السلام) في سياق الحديث الأخلاقي، الديني، الذي يريد به إبقاء الناس على جادة الصواب، عبر ترسيخ الأفكار الإسلامية في نفوس الناس عامّة؛ إذ يقول في هذا السياق (ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغي من إدهان ولا إيهان، فاتقوا

(١) ينظر: وظيفة الحجاج في نهج البلاغة (قراءة في الأنماط والدلالات)، د. هادي السعيد ود. حيدر العكيلي، مجلة الآداب، العدد (٩٧): ٣٢٥.

الله عباد الله وفرّوا إلى الله من الله. وامضوا في الذي نهجه لكم وقوموا بما عصبه بكم. فعلي ضامن لفلجكم آجلاً، وإن لم تمنحوه عاجلاً<sup>(١)</sup>. في هذه الخطبة التي خطبها بالنّاس، نتلمّس وجود سؤال خفيّ على لسان النّاس، هل للإمام مقاتلة جميع من يخالفون الحقّ، أو يتخابطون مع الضّلالة والغواية؟ فجاء الجواب ردّاً على ذلك السّؤال المفترض، بأن ليس عليه مقاتلة كلّ من خرج عن دين الإنسانيّة، فالنّاس أحرار في أنفسهم، لا سلطة لأحد عليهم، سوى السلطة المعنويّة التي برّزها الإمام (عليه السلام) في هذا النّص، حين أشار على النّاس بأن يفرّوا إلى الله ليغفر لهم الله، ويجعلهم تحت رحمته؛ فلا مفرّ منه إلّا إليه. ولزيادة التأثير في المتلقّين، جنح إلى أسلوب الترهيب، والترغيب في الآن نفسه، في قوله (فاتقوا الله عباد الله وفرّوا إلى الله من الله)؛ إذ قدّم الواجب على الناس، وهو تقوى الله، فلم يذكر ما سواها، كعدم التقوى مثلاً، بل ترك ذلك للمتلقّي ليقدره وفق السّياق، حين ذكّره بالفرار إلى الله منه جلّ شأنه، مذكّراً برحمته، وبعдалته، وبقوّته.

وفي سياق آخر يتحدّث الإمام عليّ (عليه السلام) عن أمر يتعلّق به بصورة خاصّة، وبخليفة المسلمين بصورة عامّة -فيما بعد-، فالأمر متعلّق بالخليفة الذي سيرث الإمام، وبالنّاس في فهمهم لواجبهم تجاه الخليفة، وواجب الخليفة تجاههم، فيقول (عليه السلام): (لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً. إني أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيّها النّاس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنّ الظالم بخزائمه، حتّى أوردّه منهل الحقّ وإن كان كارهاً)<sup>(٢)</sup>. يتحدّث الإمام (عليه السلام) عن نفسه، وعن علاقته بالنّاس، وعلاقتهم به، هو خطاب من قبله (عليه السلام)، لكنّه يتعدّى ذلك، ليكون مشتركاً بينه وبينهم، إذ

(١) نهج البلاغة: ٦٣/١.

(٢) نهج البلاغة: ١٩/٢. الفلتة: الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة، ويحصل فجأة. ينظر: لسان العرب: (فلت) ٦٧/٢. والخزامة: حلقة تصنع من فضّة، أو صفر، أو شعر، وتجعل في أنف البعير، ويجعل الزمام فيها. ينظر: لسان العرب: (خزم) ٧١/١٤.

يتحدّث الإمام على لسانهم (تريدونني لأنفسكم) لأنّه عارف بما فيهم، ولأنّه يريد حديثه حجّة عليهم؛ وفي الوقت نفسه يصلح حديثه للأزمان اللاحقة، لبيان علاقة الخليفة بالناس. إنّ بيعة الناس للإمام (عليه السلام) ما جاءت فجأة، دون تدبّر، إذ هو أهل للخلافة، فكان في محلّه الذي كتبه الله تعالى له، وليبيّن للناس هذا الأمر، وصف الحال التي صار فيها الإمام خليفة على المسلمين، بتحقيق الوعد الإلهي، إلى جانب معرفة الناس هذا الحقّ الذي كتب عليهم. وهم على دراية — أيضاً — بأنّ أمر الإمام (عليه السلام) ليس أمرهم، في إشارة منه إلى منزلة الإمامة، وإلى أشياء كثيرة يختلف معهم فيها. إنّ هذا الكلام الذي قدّمه الإمام (عليه السلام) لا يחדش الآخر، بل هو يبيّنه لما سيكون في المستقبل، إذ لم يُبق لهم سبباً يتعدّرون به قبل وقوع الخطأ، ذلك أنّ الناس يريدونه (عليه السلام) لأنفسهم، لحاجاتهم، وإن كانت خارجة عن الدين، والحقّ. إذ وجد الإمام (عليه السلام) في نفسه الأمانة في أن ينقل للناس ما لهم وما عليهم، فهو ناصرهم على المظلوم، بل سينصر المظلوم على نفسه، حين يأتي يقوده كما تقاد الإبل إلى مواطنها.

كان مقصده أريدكم الله، في الحقيقة يريد الناس لأنفسهم هم، وقال الله وهو يقصد يريدكم العمل بمرضاة الله، من حاجتهم لله وثوابه، ورحمته باتباع حدوده؛ لأنفسهم في اتباع مرضاة الله، وحدوده، ولها قال أريدكم الله، أما قوله تريدونني لأنفسكم، أي لما يقربكم مني، وما يترتب على ذلك من تقريب، وعطاء<sup>(١)</sup>، هنا يمكن أن يختلط الخير بغيره، وهذه الإرادة تدخلها العاطفة.

إنّ هذا النصّ مليء بالحجج التي بثّها (عليه السلام) للآخر، ليؤثّر فيه، ويكسبه، إذ بدأ الإمام (عليه السلام) جازماً بعدم بيعة الناس له فلتة، ثم نفى كون أمره وأمر الناس واحداً، لأنّه (عليه السلام) يريدكم الله وهم يريدونه لأنفسهم، وهذا القول فيه حزم وشدة تدفع المتلقي على عدم الإنكار، لأنّ الأمر ثابت في نفسه، ومجيء الخطاب بهذه القوة تجعل ثبات الحجّة لا مناص منها في نفس

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٢ / ٩.

المتلقي، ثم يأتي الإمام (عليه السلام) إلى دعوتهم على إعانتهم له، وأية إعانة؟ في قوله (أعينوني على أنفسكم) الذي يبين للآخر فيه أنه أحرص عليه من نفسه، فهو قد همّ بهم من أنفسهم، إذ سينصف لمظلوم من ظالمه، مؤكداً خطابه بحجة دامغة هي القسم (أيم الله). وهذا القسم الذي دفع به الإمام (عليه السلام) في هذا النصّ، أراد به الإتيان بالقوّة إلى جانب اللين الذي سبق. فضلاً عن ذلك، نجد نبرة القوّة في عبارة (لأنصفنّ) المقترنة بلام التوكيد، وكذلك (لأقودنّ الظالم بخزائمه)؛ إذ استعار هذه الصّورة التي تنبئ عن قوّة الخطاب الحجاجي الذي عضّده الإمام بأكثر من مؤكّد، لكنّ هذا كلّه محتاج إلى الفرضية الأولى التي فرضها الإمام (عليه السلام)، وهي (أعينوني على أنفسكم)، متمماً للإمام حججه وبراهينه على إثبات ما جاء في قوله (حتى أوردته منهل الحقّ وإن كان كارهاً).

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد حبيبهِ، وعلى آله وصحبه أجمعين. في الختام  
أبيّن أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث، وهي:

اهتمَّ الإمام (عليه السلام) اهتماماً كبيراً بمسألة صفات الله عزّ وجلّ، والإجابة عن الأسئلة التي كثيراً ما  
تطرح حول الذات الإلهية، فكانت إجاباته فاتحةً لعلم الكلام.

إنّ نصوص الإمام (عليه السلام) قدّمت لنا معرفةً للذات الإلهية، كما أراد الله جلّ وعلا شأنه،  
للناس أن يعرفوا، فلا عقل قادر على تحديده، حتّى يكون مشبّهاً بشيء خارج، موجود،  
يمكن أن نتصوّره من خلاله، ولا حتى الأوهام قادرة على تقديره كي يكون ممثلاً بشيء،  
يقرب للناس كيفيته تعالى.

إنّ الإمام علي (عليه السلام) كان يستشرف المستقبل، في قضايا لم تحدث، بينها للآخر من خلال  
حوار مع الآخر الحقيقي، أو مع آخر مفترض.

أكّد الإمام (عليه السلام) في مناسبات كثيرة أهمية الحوار، من خلال محاوراته مع الناس، إذ كان  
يريد بيان الحقيقة لهم بأسلوب حجاجي، بثّ من خلاله الإمام ما يؤثّر في الآخر، ويكسبه.

برز الإمام علي (عليه السلام) قبول الآخر في خلافته عملاً، وفي أحاديثه وخطبه جميعاً قولاً، وهذا  
العمل كلّهُ بتعاليم الدين الحقّة.

أكّد الإمام ضرورة وجود الآخر، حتّى الذي يختلف في رأيه معه، إذ يخرج خطابه (عليه السلام)  
إلى دائرة الحقيقة الإنسانية التي تضمن للناس كافّة حقوقهم.

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الإرشاد، الشيخ المفيد (أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢. أمالي المرتضى، الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي العلوي ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ذوي القربى للطباعة، ط ٢، قم - إيران.

٣. بداية المعرفة - منهجية حديثة في علم الكلام، حسن مكي العاملي، منشورات دار الزهراء، ط ١، قم - إيران.

٤. الخلاف، الشيخ الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، ١٤٠٧هـ.

٥. روضة الواعظين، الفتال النيسابوري (الشيخ العلامة زين المحدثين محمد بن الفتال النيسابوري ت ٥٠٨هـ)، وضع المقدمة: العلامة الجليل السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الرضي، قم - إيران.

٦. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (أبو حامد عز الدين بن هبة الله ت ٦٥٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.



٨. فقه الرضا (المنسوب للإمام الرضا)، علي بن بابويه، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، قم المقدسة، نشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا (عليه السلام) - مشهد المقدسة، ط ١، ١٤٠٦هـ.

٩. لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.  
١٠. محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، د. ابتسام الصفار ود. ناصر حلاوي، منشورات العطار، ط ١، قم، ٢٠١٤م.

١١. المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت — لبنان، ١٩٨٢م.

١٢. من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق (أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة، ط ٢.

١٣. الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، بإشراف: م. روزنتال و يودين، ترجمة: سمير كرم، مراجعة: د. صادق جلال العظم وجورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤. نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام)، جمع الشريف الرضي، د.ت.

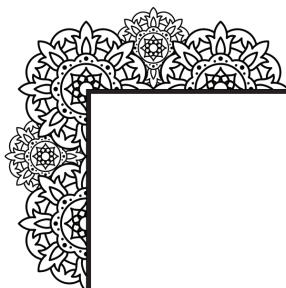
١٥. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المتقين، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٣٢هـ — ٢٠١١م.

#### الرسائل والأطاريح:

١٦. الحوار الإسلامي المسيحي (رسالة ماجستير)، بسام داود عجك، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

#### البحوث:

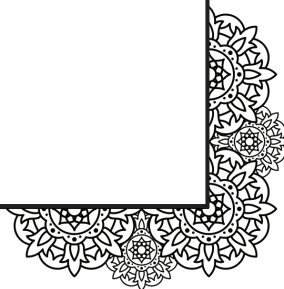
١٧. وظيفة الحجاج في نهج البلاغة (قراءة في الأنماط والدلالات)، د. هادي السعيد ود. حيدر العكيلي، مجلة الآداب، العدد (٩٧).



**دور السيِّدة الزهراء عليها السلام**  
**في التأسيس العقدي من خلال خطبتها الفدكيّة**

الباحث  
د. الشيخ عليّ زين العابدين حرب

أستاذ محاضر في علم الكلام  
جامعة المعارف - بيروت



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

«كالشمس الضاحية»<sup>(١)</sup>، المزهرة المرتفعة في ضحى النهار، أطلت السيدة الزهراء (عليها السلام) في خطبة جليلة جميلة، تُعدُّ من الروائع والنماذج مدى الدهور. فاهت بها سيّدة النساء معقودة منظومةً مسلسلّة، كأنّها ألواح موسى مخطوطةً بيد الله أو بيد ملك كريم؛ منطوقٌ أشبه بمكتوبٍ في الأحكام والإتقان، لا يشبهه منطوقٌ آخر في العالمين.

لخطبة الزهراء خصوصيّة التأسيس والتأصيل والبناء. كلامٌ موصولٌ بكتاب الله وسنة نبيه، لا يفارقهما، بل هو متولّد منهما لفظاً حيناً، وروحاً أحياناً كثيرة. نصٌّ معصوميّ يصبُّ في بحر الهداية، ويتطلّع إلى إخراج الناس من الظلمات والضلالات، بل حياشتهم والإحاطة بهم؛ حتى لا يدخلوا في ظلمة وضلالة. وحتى تُستتمّ حجة الله على الأمّة الخاتمة الشاهدة، بل على العالمين. قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَقَالَ عِزٌّ مِنْ قَائِلٍ لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولأنّه نصٌّ معصوميّ، يكون مؤيِّداً مسدّداً كاملاً أوّل أمره، يختلف عن مقالات أصحاب الفرق، التي تتكامل بالزمان وتراكم الأفكار والبرهنة عليها والجدال بين أهلها. ويكون كذلك قسطاساً ومعيّاراً ومقياساً لما يأتي بعده.

(١) أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج على أهل اللجاج، ط ٥، قم-إيران، دار الأسوة، ١٤٢٤ هـ، مج ١، الخطبة الفدكيّة، ص ٢٦٧.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٦٥.

جاءت الخطبة الفاطمية الفدكية في لحظة حرجة ومأزومة من حياة الأمة، حيث ترك رحيل النبي المصطفى والمنتجب فراغاً حاكماً، على الرغم من أنه ﷺ قد استبق ذلك. حاول أصحاب المطامع ملء هذا الفراغ بخيارات أهوائية شططاً، اجتمعت على إقصاء الأصيل: علي بن أبي طالب. وترك هذا الرحيل حزناً واسعاً عميقاً في نفس الزكية «أم أبيها». قالت ﷺ: «الكلم رحيب، والجرح لما يندمل»<sup>(١)</sup>. وجاش في نفسها الهادية المهدية أسف على الأمة وأسى منها، حين سارع أهلها وتسابقوا في الابتعاد عن الخط الإلهي للأمة الخاتمة. ثم كان غضب فذك، حقها ونحلتها من رسول الله ﷺ إليها وإلى أبنائها ﷺ، إيغالا في أذية بضعة النبي، واستفحالا في انحراف الأمة ومن بيده الأمر.

جاءت الخطبة في هذا السياق العام، متذرعة بالخصومة في أمر فذك. وكان وراء أكمة فذك الإمامة والحاكمية والخلافة، ووراء جميع ذلك تثبيت تدن الأمة، ومدّه بجرعة هداية، ونفحة إلهية جرت على لسان الصديقة الكبرى؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولا سيما أنّ هذا الانشعاب في جسم الأمة في الرؤى والخيارات والحجج، ستبني عليه الأجيال اللاحقة، بعد جيل التنزيل ذاك.

إذا كانت هذه غاية السيّد الزهراء من خطبتها - فضلاً عن اكتنازها بالمضامين العقديّة - أمكن لنا أن نعتبرها نصّاً كلامياً بامتياز. فالانحراف جليّ بخذها والسكوت عن غضب حقها في فذك، وهم شهودٌ على كلّ ما حصل ويحصل، على الرغم من أنّ «العهد قريب»<sup>(٢)</sup>، متصلٌ بالتنزيل وبحياة النبي الكريم. والفروع تُبنى على الأصول، وأعمال الجوارح تصدر عما انعقد أو انحلّ في الجوانح. ما بدر من المسلمين وقتها يكشف عن زيفٍ وتحللٍ في الإيمان بالمبدأ والنبوّة والرسالة.

(١) الطبرسي، م.س، ص ٢٦٥.

(٢) الموضع نفسه.

هذا كله فضلاً عن التنكّب عن بيعة زوجها عليّ (عليه السلام)، وقد تصافقوا عليها بغدير خمّ. هي مشكلةٌ في الأصول لا الفروع. والتنكّب عنها تنكّبٌ عن تحقيق الغايات الإلهية من الخلق والتكليف والبعثة والرسالة.

لذلك كله، ستعني الزهراء بإبراز المفاصل العقدية وأحكامها الأساس، من المبدأ إلى النبوة، بما يخدم قضية الإمامة والخلافة (الهدف الضمني) وقضية فذك (الهدف المحقّ المعلن وعنوان الحاجة). وكلّ ذلك جرى في جامعة المهاجرة والأنصار وأعيانها، أي في جامعة المسلمين. قال لها الخليفة الأول: «هؤلاء المسلمون بيني وبينك»<sup>(١)</sup>. إذن، الفرصة مؤاتيةٌ لتحقيق كلّ هذه المقاصد.

فما هي المفاصل العقدية التي بنتها الزهراء (عليها السلام) في خطبتها بجامعة المسلمين؟ وكيف أثبتتها؟ وما مدى وفاء الفرق الكلامية والتزامها بالبناء الكلامي الفاطمي؟ وهل نجد في هذه الرائعة تأسيساً لمسائل علم الكلام الجديد، الذي سيولد بعد قرونٍ بعيدة؟

### وقفه مع أسانيد الخطبة الفدكية:

السندُ طريقُ المتن. والمتنُ وعاءُ المعنى. ودرايةُ المعنى وفقههُ يتوقّفان بنحوٍ ما على السند. وقد كثرت أسانيد هذه الخطبة الجليلة بين الخاصة والعامة. استقصى بعضُ الباحثين روايتها وطرقهم، فأحصاهم اثنين وتسعين راوياً في إحدى عشرة طبقة وخمسة وعشرين طريقاً، وسمّى ذلك وذكره مفصلاً<sup>(٢)</sup>.

غير أنّ جملة كبيرة من الطرق والأسانيد تعاني من جهالة عددٍ من الرواة، وبالأخص القرّيبون من عصر صدور هذا النصّ الجليل. بل بعضهم مهمّلٌ لم يُذكر<sup>(٣)</sup> لا في رجال الخاصة ولا ما بين أيدينا من رجال العامة<sup>(٤)</sup>.

(١) م. ن، ص ٢٧٨.

(٢) ر. حسينعلّي آذربادگان، اسناد و منابع مکتوب خطبة فذك (٢)، -/ar/rasekhoon.net/https://ticle/Show-48304.aspx (تاريخ زيارة الموقع ٩/٧/٢٠٢٤ م).

(٣) الميرزا النوري، خاتمة المستدرک، تحقيق مؤسسة آل البيت، قم، ١٤١٥ هـ، ج ٤، ص ١٦٩.

أكثر الباحثين يعتمدون على نصّ كتاب الاحتجاج لـ«أحمد بن علي الطبرسي» في دراسة هذه الخطبة. ومن المعلوم أنّه يروي مرسلاً هذا الحديث وغيره. سوى ما يرويه عن الإمام العسكري (عليه السلام)، على ما ذكره المحقق الشيخ جعفر السبحاني<sup>(١)</sup>.

ويعتمد هؤلاء على كتاب احتجاج الطبرسي، لأنّه ينقل الخطبة كاملةً أو شبه كاملة. بينما يقتصر الآخرون على الاقتباس منها محلّ الشاهد والدليل. نجد الشيخ الصدوق مثلاً قد اقتبس ما يرتبط بعلة بعض الأحكام في كتابيه: الفقيه<sup>(٢)</sup> والعلل<sup>(٣)</sup>. كذلك صنع الشيخ المفيد في أماليه<sup>(٤)</sup>، حين اقتبس خصوص الأبيات الشعرية التي أنشدتها الزهراء في رثاء أبيها والشكوى إليه، تاركاً ما تقدّم هذا الشعر من درج كلامها في مجلس المسلمين.

وقد حاول الشيخ السبحاني تعويض الإرسال في نصّ الاحتجاج عامّةً بالإسناد الموجود في بعض ما تقدّم من كتب القدماء؛ بافترض أنّ الطبرسيّ قد استند إليها واختصر في الأسانيد واهتمّ بالمتون. ونحن نرى أنّ هذا التعويض إدراجٌ يزيد من ضعف الرواية ولا يعالج إرسالها، وهو رافضٌ له نظرياً دون شكّ؛ لرفضه الإدراج في درسه. نرفض هذا التعويض لاختلاف الأسانيد: سند الطبرسيّ من جهة، وأسانيد غيره من جهةٍ أخرى. ففي الاحتجاج يروي الخطبة مرسلة عن عبد الله بن الحسن المثنى. بينما أسانيدها مغايرة في الكتب المتقدمة، حيث لا نجد فيها ابن الحسن المثنى.

وعلى الرغم من هذه العلة من إرسالٍ وجهالةٍ وإهمال، نستهدي بقرائن تسعفنا في الوثوق بصدور هذه الرواية. من هذه القرائن: شهرة الخطبة بين العامة والخاصّة، وبين

(١) الطبرسي، م.س، تقديم الشيخ السبحاني، ص ٢٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط ٢، قم، لا تا، مج ٣، ص ٥٦٧، ٥٦٨ ز

(٣) علل الشرائع، لا ط، النجف الأشرف، منشورات المطبعة الحيدرية، ١٩٦٦ م ج ١، ص ٢٤٨ ز

(٤) الأمالي، تحقيق الحسين استاد ولي؛ على أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين، في قم المقدّسة، المطبعة الإسلامية، ١٤٠٣ هـ، ص ٤٠، ٤١.

الطالبين والعباسيين، وبين المعتزلة والشيعة. ومنها أيضاً عناية شيوخ بني هاشم برواية هذه الخطبة أباً عن جدّ. ولاحظنا هذا الأمر في سنيين:

**سند الاحتجاج:** روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه (عليه السلام)

**سند أمالي المفيد:** جاء في آخر طبقاته «عن عبد الله بن محمد بن سليمان الهاشمي، عن أبيه عن جدّه، عن زينب بنت عليّ (عليه السلام). عبد الله وأبوه وجدّه هاشميون.

ومما يدلّ على هذه العناية ما ذكره أحمد بن طيفور في بلاغات النساء أنّ زيداً الشهيد ذكر له أنه رأى «مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم». قال ابن طيفور: «[...] ذكرتُ لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كلام فاطمة (عليها السلام) عند منع أبي بكر إياها فذكّرتُ له أنّها من آل أبي طالب فذكر لي أنّها من آل أبي العيّن (الخبر منسوق البلاغة على الكلام) فقال لي رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم، وقد حدثني أبي عن جدي يبلغ به فاطمة على هذه الحكاية، ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جدّ أبي العيّن، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنّه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه [...] ثم ذكر الحديث»<sup>(١)</sup>. ونرجّح أنّ الطبرسي قد اعتمد على هذا الكتاب في روايته لخطبة الزهراء (عليها السلام)؛ لأنّ ابن طيفور قد ذكر المتن كاملاً في بلاغاته.

يساعدنا هذا النصّ من جهة أخرى أيّما مساعدة. فلقد تضمّن بعض الحلقات الساقطة والمرسلة في سند الاحتجاج. حين قال: «وقد حدّث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنّه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه». ثم ذكر متن الخطبة التي نقلها صاحب الاحتجاج. وقد وثّق النجاشي الحسن بن علون. قال: «ثقة... الحسن أخصّ بنا وأولى»؛ في إشارة إلى

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، قم، منشورات بصيرتي، ص ١٢ وما بعدها.

أخيه الحسين، الذي ذكر بأنه عامي<sup>(١)</sup>. وأما عطية العوفي، وقيل الكوفي أيضًا، فقد قيل إنه من راسخي القدم في التشيع، وله ذرية كلهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام، «وفيهم فضلاء نبلاء، أولو شخصيات بارزة»<sup>(٢)</sup>. وقيل إنه عامي أيضًا. بينما يذكر بعض العامة أنه «كان يتشيع» وضعفه كثير منهم دون بيان السبب، وذكر ابن معين أنه صالح. وقال الذهبي إنه تابعي شهير ضعيف<sup>(٣)</sup>. فهل ضَعَفَ لأنه يتشيع؟! وفي أدنى الأحوال هو عامي ثقة. وقد ذكر السيد الخوئي في معجمه أنه لا يبعد أن يكون من أصحاب أمير المؤمنين والباقر عليهما السلام جزماً، والصادق عليه السلام على احتمال. وقال إنه مجهول<sup>(٤)</sup>. بينما يذكر لنا الشيخ عباس القمي: «عطية العوفي أحد رجال العلم والحديث، يروي عنه الأعمش وغيره وروى عنه أخبار كثيرة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي تشرف بزيارة الحسين عليه السلام مع جابر الأنصاري الذي يعد من فضائله أنه كان أول من زاره»<sup>(٥)</sup>. وجاء في بعض نقول زيارة الأربعين أنه عطاء أو عطاء الكوفي، وأنه كان يأخذ بيد جابر بن عبد الله الأنصاري، الذي لم يكن يبصر حينها. ومهما يكن من أمر، فإن هذا لا يحلّ تمام مشكلة الإرسال. فالإسناد الذي حققناه نسبي، وصل إلى منتصف القرن الثاني للهجرة تقريباً. وما زال هناك فاصلٌ كبيرٌ عن الطبرسي، الذي ينتمي إلى القرن السادس الهجري.

وقد يمكننا تصحيح الطريق من خلال سند كتاب البلاغات. فابن طيفور يروي عن أبيه ضرورةً، حيث يُظنّ ويُطرد في المصادر أنّ الأول يروي مباشرة عن زيد، مع أنّ بين

(١) رجال النجاشي، تحقيق محمد جواد النائيني، ط ١، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٨م ج ١، ص ١٦١.  
(٢) ر. السيد عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، ط ٢، بيروت، الجمعية الإسلامية، ١٩٨٢م، ص ١٥٤.

(٣) ر. الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق على محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦٣م، ج ٣، ص ٧٩، ٨٠.

(٤) معجم رجال الحديث، ط ٥، لا مكان، ١٩٩٢م، ج ١٢، ص ١٦٤.

(٥) الكنى والألقاب، لا ط.، طهران، مكتبة الصدر، لا تا، ج ٢، ص ٤٨٩.



شهادة زيد عام ١٢٢هـ، وولادة ابن طيفور عام ٢٠٤هـ، ٨٢ عامًا! ونرجح أنه يحمل الكنية ذاتها، التي لوالده: أبو المفضل. وهذا هو منشأ الاشتباه.

إذًا، يروي الأب عن زيد الشهيد، وهكذا يتصل الطريق بمشايع آل أبي طالب، حتى نبغ السيدة الزهراء (عليها السلام). وهذا يتوقف على وثاقة طيفور وابنه، وهما من علماء السنة، مهملان في كتب الرجال عندنا. ويتوقف أيضًا على صحة الطريق بيننا وبين طيفور. ويمكن ذلك بالرجوع إلى إجازات الكتب في تراجم علماء الإمامية، في حال كان مذكورًا أو مشارًا إليه فيها، وهو ما نشك في وجوده. وهذا ما يتطلب مزيدًا من البحث والاستقصاء وفي مقام آخر، إن شاء الله.

### مباحث التوحيد في الخطبة الفدكية:

تناولت عالمة بيت النبوة في خطبتها جوانب كلامية متعددة. بعضها يرتبط فيما نصنفه في أصول الدين. وبعضها الآخر في الفروع الكلامية. وبعضها الثالث أحكام كلامية في خدمة هذه الفروع وتلك الأصول. ومن جهة أخرى، فقد تناولت بعض ذلك بالمفهمة، وتناولت بعضًا آخر بالحمل الشائع أو بالمصاديق، التي تمكنا من اكتشاف المفهوم إنيًا.

الابتداء بالنعمة تعظيم: وقبل شروعها فيما يتصل بالتوحيد مباشرة، بدأت بالحمد والثناء على الذات الإلهية. فالله هو المبدأ وإليه المرجع والمنتهى. والإشارة الكلامية هنا هي في قولها (عليها السلام): « الحمد لله على ما أنعم [...] من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها وتمام منن أولها، جم عن الإحصاء عددها [...] »<sup>(١)</sup>.

فالنعمة الإلهية، الابتدائية، السابغة، التامة، غير المحصاة - نعم عظيمة، لا بد أن يكون إعطاؤها ٥ وهي بهذه الأوصاف - تكريمًا للمعطى عليه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي

(١) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥.

أَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١﴾.

بينما في المقابل، نجد المتكلمين يذكرون أنَّ المنافع الابتدائية تخلو من التعظيم والتكريم. منفعة الثواب وحدها تكون مقترنة بذلك<sup>(٢)</sup>.

لقد غابت عن المتكلمين هذه الإشارةُ الفاطميةُ الموصولة بالقرآن. وكان يمكنهم التفريق بين المنفعة الابتدائية ومنفعة الثواب بقيد عدم الدوام والدوام. ثم، لماذا يحصرون التعظيم بالاستحقاق النابع عما هو فعلي؟ إنَّ ما هو شأني وبالقوة يحسن معه التعظيم؛ لأنَّ الله - تعالى - فعله. فلقد أمر - سبحانه - الملائكة بالسجود لآدم، ولم يكن الأخير قد أظهر بعد ما يستحقُّ عليه التعظيم من علمٍ أو تزكية نفسٍ أو كمالٍ. فتأمل.

الإخلاص ضابطٌ دقيقٌ للتوحيد: قالت (عليها السلام): «أشهد أن لا إله إلا الله، كلمةً جعل الإخلاص تأويلها»<sup>(٣)</sup>. التأويل هو من الرجوع والأول. ومرجع الشهادة بالتوحيد إلى الإخلاص وخلوص مما سوى الله. مرجع الشهادة هنا هو القصد منها، وهو الإخلاص الذي ينبغي أن يظهر في ساحة النفس، أو ينبغي أن تظهره النفس.

وإذا كان مرجع التوحيد إلى الإخلاص، فلا يقتصر على التوحيد في الذات والصفات والأفعال والعبادة، بل يشمل الإخلاص من كلِّ شركٍ وفي كلِّ حقٍّ: اللسان، العقل، القلب، الوهم والخيال.

(١) سورة الإسراء: الآية: ٧٠.

(٢) العلامة الحلي، الباب الحادي عشر، مع شرح النافع يوم الحشر للمقداد السيوري، تحقيق د. مهدي محقق، ط ٥، مشهد، العتبة الرضوية المقدسة، ١٣٧٦ هـ، ص ٣٢، ٣١.

(٣) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥.

تؤول بنا الصديقة الكبرى إلى القصد الإلهي الدقيق من التوحيد. وما ذكره المتكلمون من مراتب، فهو مصاديق للإخلاص، لا يتحدد بها. وينبغي أن يذكره المتكلمون مرفقاً بالمراتب أو المصاديق، دون الاقتصار عليها.

وكانت الأشاعرة أكثر الفرق ابتعاداً عن هذه الحقيقة الفاطمية؛ لعدم قولها بعينية الصفات، فاستلزم تعدد الآلهة القدماء، وحينئذ لا خلوص ولا إخلاص.

وأما المعتزلة، فلم تصل إلى مقصد الإخلاص في التوحيد الأفعالي، حين قالت بالتفويض وكون الإنسان فاعلاً بالاستقلال عن الله، يوجب الإخلاص ويلزم باستقلال الله وحده بالفعل. وكل فاعل آخر يفعل بإذنه وتمكين منه<sup>(١)</sup>.

وكذلك النصيرية، لم تخلص في المعتقد، حين قالت بالاتحاد بين الذات الإلهية وذات علي عليه السلام. وكذلك من قال من الصوفية بأن الله «اتحد بالعارفين». فالاتحاد هو «صيورة الشئين الموجودين شيئاً واحداً موجوداً»<sup>(٢)</sup>.

القلب من عوالم العقيدة: قالت رضي الله عنه: «[...] كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأثار في التفكر معقوها»<sup>(٣)</sup>.

يركز علم الكلام التقليدي على اللسان مجرى للعقيدة، وعلى العقل موطناً لها. وأما القلب، فأداة لعلم السير والسلوك، الذي يجعل القلب موطناً للأحوال والمقامات والملكات. بينما تجعل السيدة هذه العوالم مجتمعة متصلة بالتوحيد. ينطق اللسان بشهادة التوحيد، وينبغي أن يكون القلب متضمناً لهذه الحقيقة، مستقراً عليها لا متقلباً فيها. وكذلك ينبغي أن يكون العقل مستنيراً بمعناها، حين يكون معلوماً معقولاً واضحاً. قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) ر. الشيخ مرتضى مطهري، العدل الإلهي، ط ٣، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٩٧ م، ص. ص ٢٩-٣٤.

(٢) ر. المقداد السيوري، م. س، ص ٢١.

(٣) الطبرسي، م. س، ص ٢٥٥.

(٤) سورة الفتح: الآية: ١١.

فطريّة التوحيد: قالت -روحي فداها-: «وَضَمَّنَ القلوب موصولها»<sup>(١)</sup>. أدلى بعض الشراح أنّها تريد كون التوحيد متضمّنًا ومطوياً في القلوب، أي أنّها فطرت عليه<sup>(٢)</sup>. وهذا لو تمّ - وهو محتملٌ -، فإنّه يشير إلى فطريّة التوحيد.

والفطرة من العناوين المهملة في علم الكلام، والحاضرة بخجلٍ في الحكمة. والآراء فيها قلقة عموماً. فهناك من يرى الفطرة مجرد نزوعٍ وجوديّ، ومنهم من يرى وجود معارف فطريّة، مثل وجود الله والتوحيد، ومنهم من يرى الاثنين معاً.

نجد من الحكماء والمتأهّين العلامة الطباطبائي والشيخ مصباح اليزدي، يقولان بفطريّة معرفة التوحيد<sup>(٣)</sup>. فيما لا يتحدّث الشهيد مطهري عن فطريّ أكثر من مجرد الانجذاب والميل والنزوع إلى الله<sup>(٤)</sup>.

وأما أصحاب فلسفة المشاء -بخلاف الإشراق والحكمة المتعالية- فهم أبعد القوم عن التعليم الفاطميّ، حيث يرون اختصاص العلم الحضوريّ بعلم الشيء بنفسه، دون علم العلة بمعلولها أو علم المعلول بعلته<sup>(٥)</sup>.

وأما في علم الكلام، فقلّما تتعرّض الكتب التقليديّة لفطريّة الإيذان بوحدة الخالق. ويزعم المرحوم السيّد محمد حسن ترحينيّ أنّ «هذا الدليل الفطريّ لم يُذكر في الكتب الكلاميّة»<sup>(٦)</sup>.

(١) الطبرسي، م.س، الموضع نفسه

(٢) السيد مرتضى حيدر شرف الدين، شرح الخطبة الفدكيّة الكبرى، (<https://t.me/fadakiya>)، دروس مسجّلة على صفحة تليجرام شخصية، محاضرة بتاريخ ٢٨ / ٣ / ٢٠٢٤.

(٣) ر. الشيخ محمد تقى مصباح اليزديّ، دروس في العقيدة الإسلاميّة، ط ٢، بيروت، دار الحق، ١٩٩٩م، ص ٥٨؛ المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، لا. ط، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٩٨م، مج ٢، ص ٣٥٣-٣٥٤؛ العلامة الطباطبائي، بداية الحكمة، تعليق الشيخ علي عبّاس السبزواريّ، لا. ط، لا مكان، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، لا. تا، ص ١٨٩-١٩٠.

(٤) ر. مطهري، التوحيد، ط ١، بيروت، مؤسّسة أمّ القرى، ٢٠٠٣م، ص ٤٢-٤٦.

(٥) ر. الطباطبائي، بداية الحكمة، م.س، الموضع نفسه.

(٦) الأحكام في علم الكلام، ط ٣، بيروت، دار الهادي، ٢٠٠١م، ص ٢٤.

امتناع الرؤية: قالت عليه السلام: «الممتنع من الأبصار رؤيته». أفادت بقولٍ مطلق امتناع رؤية الله، وفي الدنيا والآخرة. والامتناع هنا ذاتيٌّ، أي لا يمكن أن تحصل الرؤية، وهي واجبة العدم.

وفي حقيقة الأمر، فقد توافق العدليّة والحكماء فيما ذهبوا إليه مع هذه الإشارة، التي يؤكدها القرآن أيضًا، حين قال الله تعالى لموسى كلمه مؤبداً: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾<sup>(١)</sup>.

وأما الأشاعرة، فعلى الرغم من اعتقادهم بتجرّد الله عن الجسمانيّة، لكنهم قالوا بصحّة رؤيته. وقال بعضهم إنّه تعالى ينكشف لعباده المؤمنين في الآخرة انكشاف البدر المضيء<sup>(٢)</sup>. فيكون بين ما قالوه في تالي الأيّام وبين ما علّمته الزهراء عليها السلام من قبل، التناقض العجيب!

صفات الله وصفات العبد: قالت عليها السلام: «و[الممتنع] من الألسن صفته»<sup>(٣)</sup>. كما تمتنع رؤية الله ذاتاً، كذلك يمتنع وصفه، أي شرح صفاته؛ لأنّ محاولة وصفه ستنتهي إلى التشبيه والتوهّم. غاية ما يمكن للإنسان هنا في حديثه عن الله، هو سلب ضدّ ما وصف به نفسه سبحانه. فيقول: هو عالمٌ، أي ليس بجاهل. وهو حيٌّ، أي ليس بميت. أمّا كيف هي صفة الحياة فيه أو صفة العلم، فهذا ممتنعٌ من الألسنة، وبالتالي القلوب والعقول؛ لأنّ الألسنة كواشف، ولأنّ هذه الصفات -ولو اتّصف بها الإنسان- مشتركةٌ لفظاً لا معنًى. كم يذكرنا قولها بقول زوجها الأمير عليه السلام: «كمال الإخلاص له، نفى الصفات عنه»<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الأعراف: الآية: ١٤٣.

(٢) ر. العلامة الحلي، م.س، ص ٢٢.

(٣) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥.

(٤) الطبرسي، م.ن، ص ٤٧٣-٤٧٤.

وهذا ما يُطلق عليه عبد الجبار الرفاعي ومعاصرون آخرون بـ«لاهوت السلب». وقد جرى وفق هذه المقاربة من الإمامية الشيخ الصدوق<sup>(١)</sup> والقاضي سعيد القمي<sup>(٢)</sup>.

تدلّ عبارة السيدة الزهراء<sup>(عليها السلام)</sup> على هذا النوع من اللاهوت، لكون الاشتراك لفظياً بين صفات الله وصفات العبد. ومعنى الصفة في الله مختلفٌ عن معناها في العبد. ولو كان الاشتراك معنوياً، لما امتنع من الألسن صفته. حينها يكون الله متصفاً بصفةٍ نعلم معناها، لأننا نتّصف بها أيضاً، وإن كان هذا المعنى متحقّقاً فيه على نحوٍ لا يتناهى في الكمال.

ومّا يفاجئ الباحث أن «عدداً كبيراً من الفلاسفة والمتكلّمين [...] أيّدوا نظرية الاشتراك المعنوي»<sup>(٣)</sup>، لا اللفظي الذي تشير إليه سيّدة النساء!.

المشيئة والإرادة: قالت<sup>(٤)</sup>: «ابتدع الأشياء [...] كونها بقدرته، وذراًها بمشيئته [...]»<sup>(٥)</sup>. قال بعضهم إنّ المشيئة والإرادة مترادفان عندما لا تجتمعان. وإذا اجتمعتا، اختلف معناهما<sup>(٥)</sup>.

ولم تجتمع الكلمتان في قول الزهراء؛ حيثنّذ يكون معنى الإرادة هو معنى المشيئة، وهو العلم الأزلي بالأشياء. ونستفيد هذا المعنى من صحيحة يونس بن عبد الرحمن عن الرضا<sup>(عليه السلام)</sup>، حين عبّر عن المشيئة بالذكر الأوّل<sup>(٦)</sup>؛ أي العلم الأزلي، دون تقييد إضافي.

(١) ر. التوحيد، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، لا ط.، قم، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، لا تا، ص ١٤٨.

(٢) الشيخ حسن يوسفیان، دراسات في علم الكلام الجديد، ترجمة الشيخ محمد حسن زراقات، ط ١، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠١٦م، ص ٢٥٥ نقلاً عن القاض القمي، كليله هشت، ص ٧١.

(٣) يوسفیان، م.س، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥.

(٥) ر. السيد مرتضى شرف الدين، م.س، محاضرة بتاريخ ٨ أيار ٢٠٢٤.

(٦) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط ٣، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ.ش، ج ١، ص ١٥٨.

وقد يبدو أن المتكلمين قد قالوا بهذا المعنى. يقول أبو الحسين البصريّ المعتزلي: «الإرادة [...] عبارة عن علمه تعالى بما في الفعل من المصلحة الداعي إلى إيجاده»<sup>(١)</sup>. ولكن في حقيقة الأمر، هو -ومن تابعه- يختلف كثيرًا عن نصّ الزهراء عليها السلام. فالمشيئة -الإرادة كعلم أزلّي بالأشياء، لم يؤخذ فيها قيد الداعي، الذي ضمّه المعتزليّ. بذلك يكون أقرب أصحاب المقالات إلى قولها أهل الحكمة المتعالية والصوفيّة. وعند هؤلاء الله فاعل بالتجليّ، لا يحتاج إلى داعٍ ليفعل.. علمه الأزلّي هو الموجد.

ويبدو أنّ المقداد السيوري الشارح للباب الحادي عشر، انساق في كلام البصريّ وأمثاله. حيث نجده يقول في الشرح: «العلم المطلق ليس بإرادة»<sup>(٢)</sup>. يريد تقييد العلم بالمصلحة، فيدعو إلى الإيجاد.

بل إنّ جمهور المعتزلة يرون أنّ الله فاعلٌ بالقصد الزائد وبداعٍ زائدٍ على الذات. وهو ما نسبته إليهم ملّا صدرًا في المشاعر<sup>(٣)</sup>.

بذلك يكون أهل الحكمة المتعالية متطابقين مع الزهراء عليها السلام في هذا الفرع، وأبعد قليلًا أهل الإشراق. وأبعد القوم المعتزلة!

هل لفعل الله غرض وغاية؟ قالت عليها السلام: «وذراها [- أي الأشياء -] بمشيئته من غير حاجةٍ منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتًا لحكمته، وتنبهًا على طاعته، وإظهارًا لقدرته»<sup>(٤)</sup>.

(١) ر. المقداد السيوري، م.س، ص ١٤.

(٢) الموضع نفسه.

(٣) المشاعر، ط ١، لا مكان، ٢٠٠٠ م، ص ١١٥.

(٤) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥-٢٥٦.

تنفي السيِّدة أن يكون لله غايةٌ وحاجةٌ تعودان إليه، عندما خلق الخلق. غير أنَّها لا تنفي أصل الغاية وعلى إطلاقها، فقد استثنت بعض الغايات على نحو الاستثناء المنفصل أو المنقطع. أي إنَّها غايات من نوعٍ آخر، لا ترجع إلى الله، بل ترجع إلى العباد<sup>(١)</sup>.

هذه الغايات المنفصلة: أن تثبت أو تتبين في نفوس الناس حكمة الحق؛ أي علمه الأكمل وفعله المتقن، فينتبه الخلق إلى أنَّ هذا الخالق الحكيم واجب الطاعة. كما إنه بخلقه للأشياء يُظهر عظيم قدرته وسعتها أمام مخلوقاته العاقلة الواعية.

في واقع الأمر، هذه السردية الفاطمية هي السياق العام للطرح الكلامي المعتزلي والإمامي. ومن المعلوم أنَّ الأشاعرة ينفون وجوب كون أفعال الله مغيّة وذوات أغراض، مثلما ينفون مطلق الوجوب على الله. ومن المفاجئ أنَّ بعض الحكماء الشيعة، مثل ملا صدرا والسبزواري صاحب المنظومة والإمام الخميني (قده). يذكر ملا صدرا أنه - سبحانه - في الأصل وفي فعله الأول لا غاية له إلّا ذاته. وما يُذكر في العادة هي غايات لأفعاله الثواني<sup>(٢)</sup>. أو كما أفاد الإمام الخميني بأنَّ الفاعل هو الله والغاية هي الله. فالفاعل والغاية واحد. وأما سائر الغايات فهي مرادة ومطلوبة ومقصودة بالتبع<sup>(٣)</sup>. وأنت ترى أنَّ هذا خلاف ظاهر نصِّ السيِّدة الزهراء (عليها السلام) وغيره من نصوصٍ تشير إلى غايات لفعل الله تعود إلى غيره سبحانه. ولا سيّما أنَّ الزهراء (عليها السلام)، كانت في صدد التأسيس الكلامي والإشارة إلى مطالب دقيقة مذهلة؛ لتستلهم منها الأجيال. ولا نقصد هنا أنَّ موقف هؤلاء الحكماء كموقف الأشاعرة. وهو تهريب حاوله بعض الأشاعرة، الذين ينفون مطلق الغاية، سواء أكانت بالأصل أم بالعرض.

(١) ر. السيد مرتضى شرف الدين، م.س، محاضرة بتاريخ ٨ أيار ٢٠٢٤ م.

(٢) ملا صدرا، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٣، مكتبة المصطفى، ١٩٨١ م، ج٣، ص ٨٤-٨٥.

(٣) ر. الإمام الخميني، لمحات الأصول، تقارير الإمام لدروس السيد البروجردي، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ط١، طهران، ١٤٢١ هـ، التعليقة في حاشية ص ٣٥.



الطاعة والحكمة والإنعام: وثمة لطيفة في كلامها عليها السلام: «وتنبهها على طاعته»<sup>(١)</sup>، حيث ربطت بين الخلق والحكمة والطاعة. فالحلق الكاشف عن العلم الأكمل والفعل المتقن؛ أي الحكمة، ينبه إلى لزوم طاعته والخضوع لإرادته. وهذا أمرٌ جديد مغفولٌ عنه، حيث جرت عادة المتكلمين والأصوليين على ربط الطاعة بشكر المنعم، الواجب العقلي العملي الفطري. حسن التكليف ووجوبه: قالت عليها السلام: «ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته؛ زيادةً لعباده عن نعمته، وحياشةً لهم إلى جنته»<sup>(٢)</sup>.

يظهر من عبارة السيِّدة الزهراء عليها السلام أنَّ الثواب والعقاب، ومن ثمَّ وجوب التكليف لإبعاد الناس عن نقمة الله وسخطه، وإحاطةً بهم وتطويقهم، فلا يختارون إلا الطاعة والجنة دون إجماع أو قهر. إذن، هي سلام الله عليها - تبيِّن الوجه في وجوب التكليف.

لم يصدر متكلمونا عن هذه الإشارة الفاطمية. فقالوا بحسن التكليف تعريضاً للثواب، وقالوا بوجوبه لتجنب العقاب. فلا دخل للعقاب في حسن التكليف ولا دخل للثواب في وجوبه<sup>(٣)</sup>. وهو مختلفٌ تمامًا عما ذكرته الزهراء عليها السلام.

يمكن لنا حلَّ حيرة المتكلمين في ذلك: يكون حسن التكليف للتعريض للثواب خاصّةً. ومتى حسن التكليف، طُلب لا وجب. وحتى يجب، لا بدّ من دخول قيد تجنّب العقاب في البين. أي يكون التكليف واجباً للثواب والعقاب. وإذا كان التكليف مندوباً، يبقى قيد التعريض للثواب دون دخیل.

(١) الطبرسي، م.س، الموضع نفسه.

(٢) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٦.

(٣) ر. المقداد السيوري، م.س، ص ٣١-٣٢.

## مباحث النبوة في الخطبة الفدكية:

العصمة قبل البعثة: قالت (سلام الله عليها): «أشهد أن أبي محمدًا ﷺ عبده ورسوله. اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتبه، واصطفاه قبل أن ابتعته، إذ الخلائق بالغيب مكنونة [...]»<sup>(١)</sup>.

كما شهدت (سلام الله عليها) بالتوحيد، تشهد الآن بالنبوة الخاصة. وليس هذا مما قد يخالفها فيه أحد، حتى يوم القيامة. لكن الأحوال، التي ذكرتها للنبي ﷺ لافتة جدًا. وهي الاختيار، الانتجاب، التسمية، الاجتباء، الاصطفاء والابتعاث. حصل الاجتباء والابتعاث عام ٦١٠ م. وأمّا الأحوال الأخرى، فقد حصلت في علم الله الأزلي قبل الزمان وقبل خلق الخلق. أو على الأقل، بعضها حصل كذلك، وبعضها حصل قبل البعثة.

ما يهمنّا كلامياً هو الانتجاب. لغةً هو «أصلان: أحدهما يدلّ على خلوص شيء [...]»<sup>(٢)</sup>. أي هو تخلص الشيء من عيبٍ أو كدرٍ ومن كلّ ما يسوء... وبالنسبة إلى شأن رسول الله ﷺ، هو يوازي العصمة<sup>(٣)</sup>.

وهذا نقضٌ على مَنْ قال من العامة بعصمة الأنبياء بعد الوحي فقط. يحكي عضد الدين الإيجي: «أمّا قبله [أي الوحي]، فقال الجمهور [يعني بهم الأشاعرة]: لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة»<sup>(٤)</sup>. وذهبت المعتزلة، كما نقل عنهم قاضيهم إلى عدم عصمة الأنبياء عن الصغائر، «فإنّها مجوّزة على الأنبياء»، ولو بعد الوحي. وأمّا الكبائر، فمعصومون عنها من قبل ومن بعد. وخالف في ذلك أبو عليّ الجبائي<sup>(٥)</sup>.

(١) الطبرسي، م.س، الموضع نفسه.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١ م، ص ٩٧٩.

(٣) ر. السيد مرتضى شرف الدين، م.س، محاضرة ٢٥ أيار ٢٠٢٤؛ ٢٩ أيار ٢٠٢٤.

(٤) المواقف، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، ط١، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٧ م، ج ٣، ص ٤١٦.

(٥) ر. القاضي عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة، ط١، بيروت، دار إحياء التراث، ٢٠٠١ م، ص ٣٨٧-٣٨٨.

يذهب بنا الانتجاب إلى دوائر أوسع، لا تقتصر على العصمة في التلقي والتبليغ، بل العصمة قبل الوحي أيضاً، حتى في الصغر، وهو الذي كانت عليه الإمامية. بل يمكن أن نستفيد من هذا النص الفاطميّ الجليل العصمة قبل الخلق. حيث قالت (عليها السلام) «وانتجبه [...]» إذ الخلائق بالغيب مكنونة». أين الحكمة في ذلك؟ إنها إظهاراً لمكانة النبيّ الكريم وشرافته وأهليّته وقابليّته، وهو في عالم الإمكان، أو لا أقل في عالم عدم الوجود العيانيّ، فاختاره وانتجبه وسماه محمّداً؛ تشریفاً وتناسباً مع المحامد، التي سيحوزها في الحياة، والتي حازها في الغيب المكنون.

وترشدنا الزهراء (عليها السلام) إلى لفظٍ قصّرنا وقصّروا في استعماله. هو الابتعاث. على الرغم من أنّها كرّرت في خطبتها. قالت: ابتعثه، ولم تقل: بعثه. ومن المعلوم أنّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، أو دلالة على معنى آخر. وليس هنا معنى آخر، غير ما يُفهم من البعث<sup>(١)</sup>. وتريد الزهراء (عليها السلام) من الابتعاث: البعثة العظيمة بمبعوثها وبها بُعث به.

الابتعاث وهدف الخلق: قالت (عليها السلام): «ابتعثه إتماماً لأمره».

للبعثة أهدافٌ خاصّة بها، يعمل الأنبياء على تحقيقها ما وسعوا وقدروا. وثمة أهداف أخرى يُنَاط بالبعثة تحقيقها أيضاً؛ لأنّها في طول أهدافها. من ذلك أهداف الخلق. فقد كان من «أمر الله» شأنه أن يخلق الإنسان ليعبده، وليكون خليفةً له في أرضه، وخلقه للرحمة. تأتي البعثة لتُتمّ هذه الشؤون الإلهيّة، فضلاً عن الأهداف الخاصة.

يشير المتكلّمون إلى الأهداف المباشرة للبعثة والابتعاث. وقد يربطونها بأهداف الخلق وقد لا يفعلون ذلك. وينبغي حضور هذا الربط دائماً لتحقيق الصلة في ذهن المخاطبين بين الخلق والبعثة، ولتُستشعر الطوليّة بينهما. يقول الفاضل المقداد: «لما كان المقصود من إيجاد

(١) ر. السيد مرتضى شرف الدين، م.س، الموضع نفسه.

الخلق هو المصلحة العائدة إليهم، كان إسعافهم بما فيه مصالحهم [...] واجباً [...]، وفي ذلك إمّا في أحوال معاشهم وأحوال معادهم»<sup>(١)</sup>.

عموميّة الابتعاث: قالت (عليه السلام): «فرأى الأمم فرّقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها»<sup>(٢)</sup>. تنبّه (عليه السلام) إلى عالميّة الدعوة إلى الأمم. فالعرب، أو عرب الجزيرة، كانوا أمةً واحدة. والنبيّ مبتعث إليهم وإلى غيرهم من الأمم، بحسب هذا النص.

تصف الزهراء (عليها السلام) حال الأمم بين تفرّق وتمذهب داخل الدين الواحد. ولم يكن التمذهب في الإسلام قد برز بعد، لكنّ بذوره نبتت في الأحداث التي تلت وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله). قالت: «رأى الأمم فرّقاً في أديانها».

تدلّ أمنا على ديانات الأنبياء الإلهيين، التي تفرّق أهلها فرّقاً ومذاهب، ثمّ انحدروا إلى عبادة الأوثان أو العكوف على النيران.

تحمل إشارة الزهراء (عليها السلام) إلى التفرّق في الأديان استنقاصاً وذمّاً لهذا الأمر. يجب أن يبقى أمر الدين واحداً جامعاً، ورايته هي التي تعلو، لا راية الفرق. لقد وصل الأمر ببعض فلاسفة الدين والمتكلمين الجدد أن يعدّوا التمذهب والتفرّق ظاهرة طبعيّة لشيوعها في الأديان<sup>(٣)</sup>. وهذا لا يبررها أو يسوّغها البتّة. قيل: «إنّ البليّة إذا عمّت طابت».

واللوم في الأساس يقع على أصحاب الدعوات ومفرّقي الفرق ومفلقّيها وتابعيهم الأوائل. وأمّا اللاحقون، فمقلّدة سراة يتفقون أثر آبائهم، معذّرون غالباً.

(١) المقداد السيوري، م.س، ص ٣٤

(٢) الطبرسي، م.س، الموضع نفسه.

(٣) يقول عبد الكريم سروش: «حادثه التكثر هذه صحيحة وطبيعيّة [...] ليس صحيحاً أن هذه الكثرة هي نتيجة [...] سوء الفهم أو المؤامرة وقصد السوء أو نتيجة معاندة الحق، [...] أو سوء الاختيار ولا من آثار غلبة الأبالسة والشياطين» (يوسفیان، م.س، ص ٣٤٢ نقلاً عن عبد الكريم سروش، صراط هاي مستقيم، صفحة أوب).

جاء ابتعاث النبي في هذا الواقع المتحزّب والمتفرّق، ليوحدّهم ويدعوهم إلى دينٍ جامع، يحفظ الجوهريّ والثابت من أديانهم، ويلبّي المصالح المستجدة الناشئة في طريق تحضّرهم.

### إشارات عقديّة في الكتاب والرسالة:

سيرُ السيّد الزهراء في خطبتها يشعر في ثلثها الأول، أنها تسير وفق ما نألفه من أصول الدين. فلقد مررنا معها على جملة مباحث في التوحيد ثم النبوة.

وعلى الرغم من كون نصّها كلامياً تأسيسياً، إلا أنّ له سبباً ومناسبة. فذلك هي الواجهة، والخلافة وتمتين التدين هدفان خفيّان، كما أشرنا في طيّ المقدمة. لذلك ستكمل سيّدتنا في نسقٍ مختلف. بعد النبوة، تناولت الزهراء عليها السلام القرآن والرسالة بما ينفع هذه الأهداف. لم تتعرّض في هذه الرتبة للإمامة وبيعة الغدير، حتى لا تنقض نسيج غزلها ولا تفسد ما بدأته وأحسنه في مخاطبتهم، فيصمّ القومُ أسماعهم.

التوحيد والنبوة الخاصّة والكتاب ومعالم الرسالة، أمورٌ مشتركة، لكنّها ملزمةٌ أيضاً. فشرعت تلزمهم بما ألزموا به أنفسهم، وبما لا منازعة فيه. نجد في هذا الانعطاف إشارات كلامية تأسيسية، منها:

حمل الوحي والأمانة عليه: جانبٌ كلاميٌّ مختلفٌ رسمته الزهراء بدقّة. يحدّد رتبة المسؤولية تجاه كتاب الله. النبي صلى الله عليه وآله أمينٌ على الوحي. وأمّا الأمة، فهي الحاملة له. قالت عليها السلام: «صلّى الله على أبي نبيّه وأمينه على الوحي» [...] «أنتم عباد الله [...] حملة دينه ووحيه»<sup>(١)</sup>. أحاد الأمة حاملون للوحي، وأمناء أيضاً، لكن على أنفسهم. قالت: «أنتم [...] أمناء الله على أنفسكم»<sup>(٢)</sup>.

(١) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٧.

(٢) الموضع نفسه.

عندما يكون النبي وأهل بيته أمناء على الدين والوحي، والأمة حاملةً لذلك، حينها لا يتقدّم الحامل على الأمين. فالأمين لا يخون، وهو صادقٌ مصدّق، يسكن القلب إليه وبه. وما أخبرنا به عن الله من وحي، هو صادقٌ فيه ومصدقٌ، حافظٌ له مؤدٍ دون خيانة. ومن كان هكذا يسكن القلب إلى خبره وفعله وتقريره.

وأما الحامل، فهو ناقلٌ. وحامل الوحي ناقله ومُقلِّه إلى الآخرين، وإلى اللاحقين. ولا بدّ أن يصونه ويؤدّيه. يحمله في قلبه ويعيه، كما تحمل الأم ولدها في بطنها حتى تضعه، أو كما تحمل الأشجار الثمار على رؤوسها.

إنّها إحياءات نستفيدّها من المعنى اللغوي للأمانة والحمل، ومن سياق النص. قال ابن فارس: أمن أصلان [...] ضد الخيانة (سكون القلب)، والتصديق... والأصلان متدانيان. وحمل أصلٌ يدلّ على إقلال الشيء<sup>(١)</sup>.

صفات قرآنية... محمولات قضايا كلامية: ثمة تأسيسٌ نافعٌ في المجادلات والمناظرات الكلامية. فلقد وصفت (سلام الله عليها) القرآن بأوصاف دقيقة ومن حيثيات لطيفة. تشكّل هذه المحمولات موادّ لقضايا هذه المناظرات. وصفت كتاب الله بالناطق؛ فهو لإبانته كأنّه ناطق. ووصفت القرآن بالصادق. وعبرّت عنه بالنور الساطع والضياء اللامع<sup>(٢)</sup>.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى مضامين القرآن. نجدّها عليها السلام تنوّع لا في المحمولات فحسب، بل في الموضوعات أيضًا. ووصفت كلّ موضوعٍ بمحمولٍ، لا يُستبدل به غيره. قالت عليها السلام: «حُجِّجَ اللَّهُ الْمُنَوَّرَةُ وَعَزَائِمُهُ الْمُفَسَّرَةُ وَمَحَارِمُهُ الْمُحَذَّرَةُ وَبَيِّنَاتُهُ الْجَالِيَّةُ وَبَرَاهِينُهُ الْكَافِيَّةُ وَفَضَائِلُهُ الْمُنْدُوبَةُ وَرَخَصُهُ الْمُؤَهَّبَةُ وَشَرَائِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) ر. ابن فارس، م. س، ص ٧١، ٢٦٤.

(٢) ر. الطبرسي، م. س، ص ٢٥٨.

(٣) الموضع نفسه.

غايات بعض الأصول والأحكام: إذا كان كتاب الله ناطقاً، صادقاً، نوراً وضياءً، فإنّ مضامينه هادية من الضلالة، نافعة في الدنيا، مخلصّة في الآخرة. وهذا الكتاب بأوصافه هذه وأوصاف مضامينه، هو عينه يثبت حقّها ﷺ في فذك.

وإذا كان من بيده الأمر والمسلمون الذين قلّده أزمّة الأمور، قد ضلّوا عن القرآن حين غصبوا فذكاً، فإنّ الناكثين لبيعة الغدير والجاحدين لحقّ عليّ ﷺ في الخلافة قد ضلّوا عن هذا القرآن أيضاً. فالمناط واحد.

ومع ذلك، فقد استفصلت الزهراء ﷺ في غايات بعض الأصول والأحكام متميّناً للتدوين وإلقاء للحجّة الدامغة. وثمة سبب آخر نكشف عنه بعد بيان أهمّ هذه الغايات، أي التي ترتبط بالتأسيس الكلامي. فلقد ذكرت مقاصد لفروع مهمّة جدّاً، كالجهاد والصلاة والزكاة والحجّ والصيام... غير أنّ ذلك لا يصبّ في التأسيس الكلامي بنظرنا القاصر. من هذه الغايات التأسيسية:

الإيمان مطهّر من الشرك: قالت ﷺ: «جعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك»<sup>(١)</sup> وهذا من الإشارات الجليلة. فكيف يكون الإيمان - وهو واجب مدى التكليف - لمجرد التطهير من الشرك؟ أليس بمجرد الدخول في حظيرة الإيمان، يكون قد خرج من خرابة الشرك؟

لعلّها ﷺ تقصد أن الشرك جليّ وخفيّ. وقد يكون الخفيّ غائراً جدّاً، فيحتاج جهاداً كبيراً للتطهر منه. فيأتي الإيمان سلاحاً مُعيناً على الخلاص من جذور الشرك. واستعمالها ﷺ لفظ الإيمان بدلاً من لفظ الإسلام في عمليّة التطهير هذه دقيق جدّاً. فالإسلام منهاجٌ مأمورٌ به من الله. وأمّا الإيمان - في بعض معانيه - فهو الاستجابة البشريّة للأمر الإلهي. وبقول آخر: الإسلام دين والإيمان تدنّين. وهذه الاستجابة البشريّة هي التي تطهّر باطن الإنسان.

(١) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٨.

العدل وتنسيق القلوب: قالت أم أبيها (عليها السلام): «[جعل] العدل تنسيقاً للقلوب». والمقصود من العدل هنا، ما كان في القضاء والمجازاة بين المتخاصمين. فإن استيفاء الحق إلى أهله شفاءً للقلوب وراحة لها من شعور الظلم الممض المر، فيستمر ترابط الحياة الاجتماعية وجماعة المسلمين وأهل الولاية. النسق في اللغة «[...] أصل [...] يدل على تتابع في الشيء»<sup>(١)</sup>.

تحريم الشرك والإخلاص في الربوبية: قالت (عليها السلام): «وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية»<sup>(٢)</sup>. وهذا آخر يتصل بأول. ففي أول الخطبة ذكرت أنّ الإيمان مجعول للتطهير من الشرك. وفي آخر هذا المقطع الكلامي، تقول إنّ الله سبحانه حرّم الشرك لبلوغ الإخلاص. قال الإمام علي (عليه السلام): «الإخلاص أعلى الإيمان»<sup>(٣)</sup>. جعل وتحرّم يتّهيان معاً إلى الإخلاص لله. وهذا من لطيف أحكامه. فعلى الرغم من وجود ثالث ورابع وخامس بين الإيمان والشرك: الفسق، الكفر والنفاق؛ غير أنّ الشرك هو المقابل للإيمان في كلام السيّد هنا.

فطالما أنّ الغاية من تحريم الشرك هي الإخلاص، يكون الشرك غير مخلصٍ دون شك. الكفر كذلك هو عدمٌ للإيمان، هو إخلاص تامٌ لعدم الإيمان. والفسق هو خروجٌ عن طاعة الله دون الخروج عن الاعتقاد به والإيمان به، فلا يكون مقابلاً لعدم الإيمان. والنفاق ليس شيئاً غير الكفر، سوى أنّه كفرٌ مكتوم. فيبقى الشرك والكفر. فعلى الرغم من صلاحيتهما المفهومية معاً لمقابلة الإيمان (عدمياً)، غير أنّ السيدة اختارت مقابلة الإيمان بالشرك؛ لأنّ الطابع العام لأرض الرسالة والدعوة حينها هو الشرك لا الكفر.

معيّار أصل الدين: بدأت الزهراء (روحي فداها) بجعل الإيمان وانتهت بتحريم الشرك. والنهيات هي البدايات. ولكن كان فيما بينهما تداخلٌ بين أصول الدين وفروعه، كما يَصَوِّرُان في مذهب الشيع.

(١) ابن فارس، م.س، ص ٩٨٧.

(٢) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٩.

(٣) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، لا ط.، قم، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٠ هـ، ص ٣٩.



قد ينقذح في الذهن تساؤل: إنَّ الزهراء (عليها السلام) مزجت بين الأصول والفروع، فلماذا لم تبدأ بالأصول، وبعد تمامها تبدأ بالفروع؟ هل هذا يدلُّ على أنَّ بعض الفروع أصول، وبعض الأصول فروع؟

هل تصنيفنا للدين إلى أصوله المعهودة وفروعه المعروفة تصنيف معصوميٌّ أم علمائيٌّ، دفع إليه شغب الفرق والحجاج معهم، وما نعبّر عنه اليوم بضرورات المرحلة؟

هناك من أعلامنا المعاصرين من يختلف مع هذا التصنيف المعهود. كان الشيخ الشهيد مرتضى مطهري يرى أنَّ كلَّ ما أكّدت عليه الديانة تأكيداً شديداً، يُعدّ من الأصول. لذلك عدّ التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأصول. وقد نفهم منه أنَّه يمكن التمييز بين أصلٍ نظريٍّ وأصلٍ عمليٍّ<sup>(١)</sup>. كذلك نجد الإمام موسى الصدر، يرى أن التقسيم إلى أصولٍ وفروعٍ هو تقسيمٌ أكاديميٌّ، و«لمجرّد الإحاطة والتدقيق والدرس، ولم يكن تقسيماً حقيقياً يفرّق بين الأصول والفروع». لذلك عدّ الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق (من المال والصحة والعلم وكلّ رزق إلهي) وترك اللغو، عدّ كلَّ ذلك من أصول الدين، مستشهداً بمطلع سورة البقرة<sup>(٢)</sup>.

بذلك، أيكون كلُّ ما ذكرته الزهراء (عليها السلام) من أصول الدين في الحقيقة: بعضه أصول كلاميةٌ بحثة. وبعضه أصول كلاميةٌ - فقهيةٌ كالعدل مثلاً؟ أم هناك تبرير آخر لهذا التداخل؟ العلم والعمل: فرّعت الزهراء (عليها السلام) على سرديّة الأصول المتقدّمة، شرطية العلم في

(١) ر. مطهري، محاضرات في الدين والاجتماع، ط ١، بيروت، الدار الإسلامية، ٢٠٠٠م، ص ١٦٩، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) ر. الإمام موسى الصدر، معالم المذهب الاقتصادي في الإسلام، محاضرة محفوظة ومدونة أُلقيت في بيروت، الموقع الإلكتروني للإمام، (<https://www.imamsadr.net/Home/news-details.php/6299>)، لا تا (١٩٧١ م على الأرجح).

العمل. قالت: «فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾»<sup>(١)</sup> «<sup>(٢)</sup>. يُستفاد من هذا التفریع الفاطمي أهمية العلم في العمل، في الطاعة وفي التقوى. فهو مقدمة للعمل، وأحد البواعث نحوه. وحتى يطيعوا الله في الأصول ويتقوه حق تقاته، لا بد أن يعلموا قبل ذلك. كم هو مقارن ما ذكره زوجها أمير الموحدين (عليه السلام): «أول الدين معرفته»<sup>(٣)</sup>.

الأمر الذي قامت به في خطبتها هو التعليم والإعلام. وهو يتصل بوظيفة أبيها (عليه السلام): ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(٤)</sup>. ولعل هذا ما يتناسب مع عبارتها اللاحقة المتصلة: «اعلموا أي فاطمة وأبي محمد»<sup>(٥)</sup>. قال لها زوجها علي (عليه السلام): «يا [...] بقية النبوة». وهي بضعة النبي بنصه. وما قامت به أو قالته كأن النبي (عليه السلام) قد قام به أو قاله.

### حجج الزهراء (عليها السلام) الظاهرة والمضمرة:

احتجّت الزهراء (عليها السلام) بالقرآن: اقتباسات كثيرة من آيات التوحيد والنبوة الخاصة والإرث. القرآن هو الجامع المشترك بين الجميع، بين الخصماء. وقبلما احتجّت (عليها السلام) بالسنة؛ لأنّ القرآن موجودٌ في حضرتهم. وأمّا السنة، فصاحبها قد مضى إلى ربّه، ولم تدوّن بعد. احتجّت (عليها السلام) بالسنة مرّةً وحيدة في طول خطبتها، وعلى الأنصار فقط، دون المهاجرة! قالت (عليها السلام): «أما كان أبي يقول: المرء يحفظ في ولده»<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة فاطر: الآية: ٢٨.

(٢) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٩.

(٣) الطبرسي، م.ن، ص ٤٧٣.

(٤) سورة الجمعة: الآية: ٢.

(٥) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٩.

(٦) م.ن، ص ٢٦٩.

ولو احتجّت بالسنة، لأمكن لبعض القوم أن يقولوا ما سمعنا وما رأينا وما بلغنا. وأما كتاب الله، فشأن آخر في بلاغه إلى أولئك الأوائل: تلاوة وحفظاً وجمعاً ونسخاً. قالت عليها السلام تصف حالهم والقرآن: «أعلن بها كتابُ الله - جلّ ثناؤه - في أفئتيكم، في ممساكم ومصباحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً»<sup>(١)</sup>. حينئذٍ، سيكون الاحتجاج بالقرآن ملزماً لهم قاطعاً لحجّتهم، لا يملكون إنكاراً. وهو ما حصل.

لذلك كانت تسارع للاحتكام إلى القرآن في النقاط الحرجة<sup>(٢)</sup>، حين حاول الخليفة الأول الردّ على احتجاجها أو التدرّع بإجماع المسلمين.

الحجة الحاضرة هي الكتاب. وكانت حال المخاطبين تقتضي ذلك. فهم سبب النزول وحملّة الكتاب ونسّاخ الوحي. ولو اقتضى الحال الاستدلال بالعقل أو بنصّ آخر، فلن تقصّر حجة الزهراء عن ذلك. وهو ما صنعه حفيدها الرضا عليه السلام حين احتجاجه بعد قرابة قرنين على أهل الأديان بكتبهم ولغاتهم، وعلى المتكلمين كعمران الصابيّ بألفاظهم ومشهوراتهم المنطقية والفلسفية.

ومهما يكن من أمر، فإنّها كانت تخاطب عقولهم الفطرية؛ لأنّها هي التي تعقل وتعي النصّ والخطاب. ولم تكن قد دخلت ألفاظ الفلاسفة والمناطقة إلى التداول العربيّ والإسلاميّ بعد، حيث يرجع هذا إلى بناء بيت الحكمة (أو بيت الترجمة!) ببغداد في النصف الثاني من القرن الهجريّ الثاني. فليس العقل بغائب، كما قد يُتصوّر.

وهناك حجة مضمرة أجلنا ذكرها حين حديثنا عن استفصالها عليها السلام في غايات بعض الأصول والفروع والأحكام. وقد آن أوانها في هذا العنوان. فعلى الرغم من أنّ الطابع العام للشرعة هو التربية على التعبّد والانقياد والانسلاک؛ لذلك تكاد تنضب نصوص العلل

(١) الطبرسي، م.س، ص ٢٧٠.

(٢) ر. الطبرسي، م.ن، ص ٢٦٥-٢٦٧-٢٧٧-٢٧٨.

والمقاصد، وتغزر وتتكوثر نصوص الكيفيات والمقدمات والشرائط والآداب والفرائض. بينما نجد في نصّ واحد - أي النصّ الفاطميّ - جمهرةً كبيرةً من غايات الأصول والأحكام والفروع. أين الحجّة الضمنيّة في ذلك؟

تريد الزهراء (عليها السلام) القول بأنّ بلوغ هذه الغايات والمقاصد لا يكون إلا في ظلّ الإمامة وخلافة أهل البيت (عليهم السلام). فإذا كنتم قد جُرتُم وضللتُم وأسأتم التأوّل في فذك، ولو كنتم مجُمعين، فقد جُرتُم وضللتُم وأسأتم التأوّل في الإمامة والخلافة، ولو كنتم مجمعين. وكيف يمكنكم بلوغ الإخلاص والتنزّه الحقيقيّ عن الكِبَر والأمان من الفرقة، والانتظام والعزّة وتناسق القلوب وتركيز النفوس وتشديد الدين، وقد أسرعتم في الانحراف، ولا تطيعون إمامًا عادلاً منصوبًا من الله يأخذ بأيديكم. تلك أيادٍ سرعان ما تلوّثت، والنبيّ لم يُدفن بعد!.

كما إنّ هناك حجةً مضمرة قريبة، نستفيدها من بناء الزهراء (عليها السلام) لخطبتها. فلقد تألّفت من مقاطع: التوحيد، النبوة الخاصّة، القرآن، وأهداف الرسالة (كان أولها التوحيد وآخرها أيضًا)، وأخيرًا، فذك صراحةً والإمامة ضمناً. هذا النسق يكشف عن الترابط مفهوماً، أو مفهوماً ومصداقاً، حيث كان يمكنها أن تكتفي بالاستدلال بآيات الإرث العامة، وتنفي وجود قرينة متصلة أو منفصلة تستثني ورثة الأنبياء. لكنّها بيّنت انتظام دعواها (عليها السلام) ومسألة خلافة زوجها (عليها السلام) ضمن مباحث المبدأ والنبوة الخاصّة. بهذه الحجّة، الكلّ - عملياً - واحد، يعطف بعضه على بعض.

### الزهراء (عليها السلام) وعلم الكلام الجديد:

تلتقي خطبة سيّدة الكلام والحكمة (عليها السلام) بمضامين كلاميّة جديدة، يبحثها علم الكلام الجديد وفلسفة الدين على السواء. فحينها أشارت (عليها السلام) إلى مقاصد بعض الأصول والفروع،

أثبتت بذلك الحاجة إلى الدين وبيّنت وجه هذه الحاجة. فتنسّق القلوب بسبب العدل، والانتظام بسبب الولاية، والتنزّه عن الكبر بسبب الصلاة المدوم عليها. كلّها حاجات فردية واجتماعية يتكفّل بها الدين في أصوله وأحكامه. الدين وحده قادرٌ على إشباع هذه الحاجات بعمق وكفاية وديمومة. وما أشدّ حاجة الأمم المتقدّمة في عصرنا إلى التنزّه عن الكبر والاستعلاء في الأرض. يأتي التعبّد بالصلاة ليُخضع روح الفرد والجماعة، والرئيس والمرؤوس لسلطان هذه النشأة وبقية النشآت.

وجود الأنظمة والقوانين الجزائية الوضعية، قد يحدّ من تسلّط بعض الدول أو الأفراد. لكنّ هذا يُصلح في السلوك الخارجي. وأمّا الضمير والسريرة والباطن، فهي مواطن يعمل عليها الدين وحده، من خلال التأكيد على الإخلاص وتهذيب النفس والإشارة إلى تشكّل النفوس بصورة ملكاتها. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾<sup>(١)</sup>.

كما إنّ ما ذكرته ﷺ حول البعثة من إتمام الأمر الإلهي، وفي لحظة تخلّ بشريّ وضلالٍ وغوايةٍ شيطانيةٍ، (ما ذكرته) يصبّ في بحث نشأة الدين. حيث جعلت في كلمتها نشأة الدين إلهية. لا ترتبط هذه النشأة بما ذكره بعض فلاسفة الدين وعلماء نفس الدين وعلماء الاجتماع الديني من مناشئ وضعية، كالخوف والجهل والعقد النفسية وحفظ نسيج الاجتماع. قالت ﷺ: «هداهم إلى الدين القويم ودعاهم إلى الصراط المستقيم»<sup>(٢)</sup>. وتتميّز هذه الفكرة، تشير الزهراء ﷺ إلى فطرية الدين. فالدين إلهيٌّ، بمعنى أنّ الله فطر النفوس على التدبّر. قالت ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله [...] كلمة [...] ضمّن القلوب موصولها»<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الطارق: الآية: ٩.

(٢) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٧.

(٣) م.ن، ص ٢٥٥.

وهناك جانبٌ ثالث هو لغة الدين. وهو من مباحث هذه العلوم الجديدة. وفيه مسائل، من قبيل: بأية لغة يتحدث معنا الله، وبأية لغة نتحدّث عنه؟ فعندما ذكرت ﷺ أنّه سبحانه «الممتنع [...] من الألسن صفته، ومن الأوهام كفيّته»<sup>(١)</sup>. أفادت بذلك أنّ صفات الله توقيفية. حتى شرحنا لصفاته المنصوصة، يجب تجنبه الوهم والتشبيه والتقصير. والّلافت اللطيف أنّ الزهراء اقتصرت على وصف أفعال الله والحديث عنها تأكيداً لهذا الأمر. وأمّا صفات الذات كالقدرة والعلم، فلم تشر إليها إلّا في طول الفعل الإلهي وصفاته. قالت ﷺ: «ابتدع الأشياء [...] كوّنّها بقدرته»<sup>(٢)</sup>، و «إظهاراً لقدرته»<sup>(٣)</sup>. وفي ما عدا مقام الذات وصفاتها العينية، إنّ لغة الدين ممكنة. قالت في النبيّ ﷺ: «قام في الناس بالهداية»<sup>(٤)</sup>. وقالت لأهل المجلس: «أنتم عباد الله [...] بلغاءه إلى الأمم»<sup>(٥)</sup>. واللغة التي يتحدّث بها الله معنا: واضحة، بيّنة، ساطعة، جليّة... إلى حدّ أنّ المكتوب كأنّه ناطق<sup>(٦)</sup>.

ومن جملة مباحث لغة الدين التأويل. واستخدمته الزهراء ﷺ بمعناه القرآني واللغوي، المستعمل في عصر مخاطبتها. أي بمعنى الأوّل والمرجع إلى القصد والغاية<sup>(٧)</sup>. قالت ﷺ في شهادة التوحيد: [...] جعل الإخلاص تأويلها»<sup>(٨)</sup>. وقالت لمعاشر المسلمين المقرّين للخليفة الأوّل بما صنعه: «لبس ما تأولتم»<sup>(٩)</sup>.

(١) الموضع نفسه.

(٢) الموضع نفسه.

(٣) م.ن، ص ٢٥٧.

(٤) الموضع نفسه.

(٥) م.ن، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٦) م.ن، ص ٢٥٨.

(٧) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته، إشراف الشيخ محمّد واعظ زادة الخراساني، ط ١، مشهد - إيران، ١٤٢٢ هـ، مجمع البحوث الإسلامية في العتبة الرضوية المقدّسة، مج ٤، مادة تأويل، ص ٢٢٢.

(٨) الطبرسي، م.س، ص ٢٥٥.

(٩) م.ن، ص ٢٧٨.

## خاتمة وتوصية

هذه هي أبرز الإشارات الكلامية التأسيسية، المتضمنة في الخطبة الفدكية. وقد تناولت التوحيد والغاية من النبوة الخاصة والنظرة إلى القرآن ومعالم الرسالة ومشخصاتها.

أشرقت الزهراء (عليها السلام) على الأمة المعتنقة لرسالة الإسلام، وعلى علم الكلام التقليدي وعلم الكلام الجديد بإشارات مضيئة ساطعة لا تحبو، ومطالب ناضجة تامة؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. أظهرت في ذلك كيف يمكن لمن عاش مع القرآن آناء الليل وأطراف النهار، قياماً وقعوداً وعلى الجُنب، أن يجري كلام الله من نور عقله إلى وعاء قلبه الهادئ وصولاً إلى لسان صدوق؛ ليترك سمعاً محتاجاً إلى هدايات الله.

وإن كنا قد سبرنا الخطبة من منظور كلامي، فإن غناها يتسع لثقراً قرآنياً وأخلاقياً ونفسياً واجتماعياً وتربوياً، سمنطيقياً وهيرمنوطيقاً... وهذا يدعو إلى جهود إضافية في هذا السبيل. فضلاً عن جهود تحقيقية مطلوبة في محاولة تصحيح سندها والطريق إليها.

ونقل عن صاحب العصر والزمان (عليه السلام) أنه أوصى بحفظ هذه الخطبة، كما الخطبة الزينية. وسواء أصح النقل أم لم يصح، لكنها توصية محمودة ومباركة في ذاتها، ونافعة لرجالنا ونسائنا، وصغارنا وكبارنا. فالحفظ باب الوعي والتدبر. ويجب عموماً أن تُولى خطب المعصومين كافةً بعناية إضافية من قبل المشتغلين؛ لغناها واحتوائها على مطالب ومقاصد جمّة ثرة.

انتهى

## المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

١. ابن طيفور، بلاغات النساء، لا ط..، قم، منشورات بصيرتي، لا تا.
٢. ابن مطهر الحلي، الباب الحادي عشر، مع شرحه: النافع يوم الحشر للمقداد السيوري، تحقيق د. مهدي محقق، ط ٥، مشهد، العتبة الرضوية المقدسة، ١٣٧٦ هـ.
٣. أبو القاسم الخوئي، معجم رجال الحديث، ط ٥، لا مكان، ١٩٩٢ م.
٤. أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج على أهل اللجاج، ط ٥، قم-إيران، دار الأسوة، ١٤٢٤ هـ.
٥. الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، لا ط..، قم، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٠ هـ.
٦. الإيجي، المواقف، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، ط ١، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٧ م.
٧. حسن يوسفیان، دراسات في علم الكلام الجديد، ترجمة الشيخ محمد حسن زراقط، ط ١، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠١٦ م.
٨. حسين النوري، خاتمة المستدرک، تحقيق مؤسسة آل البيت، قم، ١٤١٥ هـ.
٩. الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦٣ م.
١٠. روح الله الخميني، لمحات الأصول، تقارير الإمام لدروس المرحوم السيد البروجردي، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ط ١، طهران، ١٤٢١ هـ.
١١. الصدوق، التوحيد، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، لا ط..، قم، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، لا تا.



١٢. علل الشرائع، لا ط، النجف الأشرف، منشورات المطبعة الحيدرية.
١٣. من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط ٢، قم، لا تا.
١٤. عباس القمي، الكنى والألقاب، لا ط، طهران، مكتبة الصدر، لا تا.
١٥. عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث، ٢٠٠١ م.
١٦. عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، ط ٢، بيروت، الجمعية الإسلامية، ١٩٨٢ م.
١٧. علي بن فارس، مقاييس اللغة، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١ م.
١٨. الكليني، الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط ٣، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ. ش.
١٩. محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ط ٢، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣ م.
٢٠. محمد تقي مصباح اليزدي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، لا ط، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٩٨ م.
٢١. -، دروس في العقيدة الإسلامية، ط ٢، بيروت، دار الحق، ١٩٩٩ م.
٢٢. محمد حسن ترحيني، الأحكام في علم الكلام، ط ٣، بيروت، دار الهادي، ٢٠٠١ م.
٢٣. محمد حسين الطباطبائي، بداية الحكمة، تعليق الشيخ علي عباس السبزواري، لا ط، لا مكان، مؤسسة المعارف الإسلامية، لا تا.
٢٤. مرتضى حيدر شرف الدين، شرح الخطبة الفدكية الكبرى، (<https://t.me/fadakiya>)، دروس مسجلة على صفحة تليجرام شخصية (تاريخ زيارة الصفحة ٢٠٢٤/٧/٩ م).

٢٥. مرتضى مطهري، التوحيد، ط ١، بيروت، مؤسسة أم القرى، ٢٠٠٣ م.
٢٦. -، العدل الإلهي، ط ٣، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٩٧ م.
٢٧. -، محاضرات في الدين والاجتماع، ط ١، بيروت، الدار الإسلامية، ٢٠٠٠ م.
٢٨. المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته، إشراف الشيخ محمد واعظ زادة الخراساني، ط ١، مشهد - إيران، مجمع البحوث الإسلامية في العتبة الرضوية المقدسة، ١٤٢٢ هـ.
٢٩. المفيد، الأمالي، تحقيق الحسين استاد ولي؛ على أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين، في قم المقدسة، المطبعة الإسلامية، ١٤٠٣ هـ.
٣٠. ملا صدرا، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط ٣، مكتبة المصطفى، ١٩٨١ م.
٣١. -، المشاعر، ط ١، لا مكان، ٢٠٠٠ م.
٣٢. موسى الصدر، معالم المذهب الاقتصادي في الإسلام، محاضرة محفوظة ومدونة أُلقيت في بيروت، الموقع الإلكتروني للإمام، (<https://www.imamsadr.net/>) (Home/news-details.php/6299)، لا تا (١٩٧١ م على الأرجح).
٣٣. النجاشي، الرجال، تحقيق محمد جواد النائيني، ط ١، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٨ م.
٣٤. <https://rasekhoon.net/article/Show-48304.aspx> (موقع راسخون).

